

الخاتمة

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل :	الخاتمة
اسم المؤلف :	عز الدين الشابي فرحات
التدقيق اللغوي :	بيت الفصحى
تصميم الغلاف :	حسن العربي
الإخراج الداخلي :	عمر أسامة
رقم الإيداع :	٢٠٢٤ / ٤٥١٦٤
الترقيم الدولي :	٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٥٤-٥



شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر



01020439639



massar.pub1@gmail.com

مَسَار
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقياً أو إلكترونياً، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجاناً عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

الخاتمة

تعقيباً على مقدمة عبد الرحمان بن خلدون

عز الدين الشابي فرحات

مَسَا
للنشر و التوزيع

- وتبقى أهم رسالة يحرص كاتب الخاتمة عزّ الدين الشّابي فرحات على تبليغها هي التّصدّي لمشروع القضاء المبرم على الانسان العربيّ بواسطة تعمّد جرّ البلدان العربيّة الواحدة تلو الأخرى الى الدّمار الشّامل من خلال البدء بزجّ تونس بالذّات التي سبق أن انبثقت منها رسالة مفهوم العمران لكامل أقطار العالم بواسطة ما أقرّه ابنها البارّ رائد الفكر الاصلاحى عبد الرّحمان بن خلدون لما قال بصريح اللفظ أنّ المعدل أساس العمران

ولتحطيم كلّ ذلك قرّر أعداء العروبة الصادقة والاسلام السّمع المعتدل الشّروع في مخطّط تقويض ثورة الياسمين العربيّة التي بدأت في تونس بتعمّد جرّ بلد التّنوير ورمز الانعتاق بامتياز تونس نفسها الى خراب محتمّ بواسطة تدمير صرح تحديثها المتمثل في مرفق القضاء بشتّى الطّرق وبذلك يتمّ القضاء المبر على مصدر صحوة الانسان العربي ومن وراء ذلك على العروبة والاسلام كما تكمن أهميّة هذا الأثر في المساهمة في التّصدّي الصّريح لهذا التّوجّه الهدّام كما يمثل هذا الكتاب أنموذج تواصل فكريّ بين الأجيال وفي نفس الوقت لبنة تفتح المجال للاستشراف الحضاري رغبة في بناء غد عربيّ جديد على أسس صحيحة وثابتة بالاضافة الى رمزيّة كتابة خاتمة المقدّمة في تونس بالذّات مسقط رأس ابن خلدون وملهمته.



الأستاذة ليليا عيسى المحامية

تبرير

لماذا تجرأت على كتابة الخاتمة تعقيبا على مقدّمة ابن خلدون
 "الحمد لله الذي أنشأنا من الأرض نسما واستعمرونا
 فيها أجيالا وأمما"

بحمد الله بدأنا كما بدأ عبد الرحمان بن خلدون مقدّمته لتتحدّث انطلاقا منها أو من خلالها أو بالاعتماد عليها وعلى مراجع ومرجعيات أخرى تتصل بها وبغيرها وربّما نستأنس ببعض المأثورات الأدبيّة والتاريخيّة التي اهتمّت بهاته أو بتلك والتي سبقت زماننا هذا أو هي بصدد مواكبته أو حتّى تتجاوزه وما أتيج لنا من الأخبار والأحداث المكتوبة أو المروية كما سنستأنس بكلّ ما نراه أو نتصوّر أنّه يتّصل بحياة أهلنا ومعيشهم في سياقات متعدّدة منها الرّميّة ومنها المكانية ومنها أيضا ما يرتبط بالضّرّف أو الوضع الخاصّ أو العامّ وحتّى الطّارئ أو المنجرّ أو المستحدث أو المستثنى وسنركّز بالخصوص على ما اصطلح على تسميته بالذكاء الجماعيّ في منطقتنا العربيّة عموما وربّما في مناطق أخرى كلّما اقتضت الحال انطلاقا من بلادنا باعتبارها عيّنة انبثقت منها العديد من المبادرات التاريخيّة والحضاريّة التي تكرّرت ناذج منها أو ما شابهها في العديد من البلدان العربيّة والأجنبيّة الأخرى قديما وحديثا كما ستتطرّق الى ما ترتّب أو يترتّب عن ذلك كلّه أو بعضه من قضايا وما يتّصل بها أو ينجرّ عنها في أذهان النّاس أو تصرّفاتهم لحدّ اعتمادها وأحيانا لحدّ التّعويل عليها في حلّ الأزمات عندما تصعب الحلول ومع ذلك قليلا ما يسأل النّاس أنفسهم ما هو بالضّبط هذا العامل الذي يستنجد به كلّما دعت الحال وحتّى ان حاول بعضهم تحديده فإنّ ذلك يبقى في مجال التّخمين وكأنّه مجرد توقّص يصبون اليه ولا يدركونه أو احساس يستشعره بعضهم ولا يقووا على تجسيمه أو نظريّة تخطر على بال بعض النّاس منهم ولا يستطيعون اثباتها أو كأنّه مجرد خاطرة يحوّلها توهمهم أو تفرّزها قناعتهم أو أيّ أمر اخر يبدو وكأنّه مجرد توارّد أو فرضيّة مطروحة للبحث هذا ما بدا لي أوّل وهلة عندما تساءلت عن سبب استحضار بعضنا في تونس وخارجها لهذا المنقذ الاضطرابيّ الذي نسّميه

الدِّكَا الجماعِيّ والَّذِي نلجأ اليه دون أن نتعرّف عليه بدقّة ذلك الدِّكَا الَّذِي يتجسّم أحيانا بقوةً لدرجة جلب انتباه أطراف متعدّدة داخلية أوحتّى خارجيّة تتمثّل في ردود فعل ملموسة محسوسة تصل لحدّ البروز عبر تعبيرات رسميّة كذلك التي صدرت من بعض المؤسسات العالميّة في قالب اعجاب أو تمشين لنتاج ذلك الدِّكَا من خلال الهبة الحضاريّة التي جسّمت الثّورة التّونسيّة سنة ٢٠١١ والتي لقيت بثورة الياسمين تارة وطورا بثورة الرّبيع العربيّ وأحيانا بالثّورة المباركة بقطع النّظر عن الاختلافات في الرّؤى أو في التأويل بل وتحدّثت عن ذلك الدِّكَا الكثير من الأوساط الأجنبيّة والمؤسسات العالميّة كأعضاء البرلمان الأروبيّ والكنفرس الأمريكيّ وغيرها واهتمّ به قبلها محلّون كثر من خلال تواتر تمشين مردوده عبر الكثير من الكفاءات التّونسيّة في مجالات متنوّعة كالطبّ والهندسات الفلكيّة والتّقنيّة والاعلاميّة وميادين الاكتشافات والابتكارات والبحوث وحتّى في القدرة على التّحمّل والتّجاوز واستنباط الحلول واستحضار طرق الخروج من المطبّات والمازق في مختلف الأشغال البسيطة والمعقّدة على حدّ السّواء وفي أغلب الفترات الزّمنيّة في معيش عموم النّاس عبر الأحقاب التّاريخيّة التي عاشتها وتعيشها بلادنا وبالقياس أو حتى بالتّجاوز أيّ بلاد عربيّة أخرى.

ومقارنة بالسّائد والمتداول والمتعارف في وصف الفكر العربيّ بأنّه فكر مشكوك فيه أحيانا أو مبالغ في اطرائه أحيانا أخرى وأحيانا موصوف في بعض الحالات بالتّخلّف والتّزمت والأفق المحدود وأحيانا يعتبره بعضهم أداة خراب كما في قولهم من قديم الزّمان " إذا عربت خربت وإذا خربت لم تعمر " أو ما يتداول في المخيال المحلّي كـ " الثّنيّة العربي " كناية عن الطّريق المختصرة بالتّجاوز أو بالغشّ أو بأيّ طريقة غير شرعيّة أخرى أو التي لم تستوف بعد شروط السّلامة و" الخدمة العربي " لوصف العمل الغير متقن وما راج من تعليقات جاءت على لسان بعض الأجانب في تبخيس مردود الفكر العربي وحتّى التّشكيك في سلامة تكوين الانسان العربي ونورد من ذلك على سبيل الذّكر لا الحصر ما قدّمته السّفيرة البريطانيّة جين ماريوت في تقريرها عن التّعليم في العالم العربيّ في مجلس العموم البريطانيّ قالت فيه بالخصوص:

(النّظام التّعليمي في العالم العربيّ يؤدّي بخرّيجيه إلى مفارقات عجيبة ومدهشة فطلّاب الدّرجة الأولى من الأذكياء يذهبون إلى كليّات الطبّ والهندسة. بينما يتوجّه خرّيجو الدّرجة

الثّانية إلى كليات إدارة الأعمال والاقتصاد وبذلك يصبحون مدراء يتحكّمون في خريجي الدّرجة الأولى في حين يتوجّه خريجو الدّرجة الثّالثة للسياسة ليصبحوا ساسة البلاد ويتحكّمون بالتّالي في خريجي الدّرجتين الأولى والثّانية أمّا الفاشلون في دراستهم فيلتحق أغلبهم بالجيش والشرطة والحرس ومنهم من يحكم خبرته في الميدان يمكن أن يكلف بحراسة الشّخصيات كبوديقارد وبذلك يتحكّمون ضمّنيا بطريقة أو بأخرى في كلّ السّاسة ومن مواقعهم باعتبارهم أصبحوا فاعلين أساسيين في ما يعرف بأسلاك القوّات المسلّحة يمكنهم إذا ما أرادوا قتل هؤلاء الذين تفوّقوا عليهم يوما ما في الدّراسة أو حتّى الاطاحة بهم أو تعويضهم أو استبدالهم بمن يشاؤون أما المدهش في الأمر حقّا فهو أنّ الذين لم يدخلوا المدارس أصلاً بحكم تواجدهم المباشر والمتواصل بين أهلهم باعتبارهم لا يقدرّون عادة على إيجاد عمل خارج مسقط رؤوسهم وبحكم حاجتهم المتواصلة للاستزاق داخل موطنهم لذلك يكتسبون بين أهلهم وذويهم أكثر من غيرهم نوعا من الوجاهة تمكّنهم من أن يصبحوا بالأقدميّة شيوخ قبائل بأنّهم جميع بأمّهم !

ولكنّ واقع التّعليم في تونس الاستقلال كذب ذلك جملة وتفصيلا لما مكّن الكثير من خريجه المديّنين والعسكريّين على السّواء من تبوّأ أرقى المناصب وأعلى الرّتب داخل الوطن وحتّى خارجه بما فيها بريطانيا نفسها وأمريكا وفرنسا والكاندا وروسيا والصّين وبلدان في القارّات الخمس بلا استثناء و لكثرة الأمثلة والعناوين لن أذكر الأسماء تواضعا وحياءا.

وأنا أستعرض قيمة الدّكاء الجماعيّ لا أخفي عليكم أنّي حاولت البحث في هذا الموضوع علّني أتمكّن من حصر ملامحه من خلال بعض المقاربات والدّراسات والبحوث واهتديت في النّهاية الى تلميحات تلخّص بعض ملامح تلك الظّاهرة الفكرية التي اصطّلحنا على تسميتها في بلادنا بالدّكاء التّونسي تخصّيصا لا حصرا نقلا على ما ورد في بعض ما جاء في مقدّمة ابن خلدون والتي تعتبر من أهمّ الاثار التي تتحدّث عن علاقة الفعل بالقوّة وبالتّحديد عن تحوّل القوّة الى فعل تجسّيا لمفعول أي بادرة انسانيّة ذكيّة ولزيد اكتشاف ما جاء في هذا الشّأن وغيره من الشّؤون الأخرى والتي سنوردها تباعا في سياقاتها أو في ابانها أو عبر صردنا لبعض الأحداث وعلاقتها بالعصور المتعاقبة التي سبقت أو تلت نشر المقدّمة ذلك الأثر الذي يعتبر بلا منازع من أبرز الأثار الفكرية العالميّة التي اهتمّت بما يشغل النّاس المتعاشين معا في سياقات ما وظروف معيّنة

من أفكار ورؤى وتصوّرات ومشاعل وما ينبجّر عن ذلك من مواقف وسلوكات وتصرّفات وأحداث تؤكّد من جديد أنّ عبد الرّحمان بن خلدون هو بلا منازع من أوائل العلماء الذين تفتّنوا لقيمة ما تفرزه المجموعة من مواقف وأفعال أو ردود أفعال تتأثّر وتؤثّر من خلال علاقات قابلة للدّرس تخضع لقوانين وتعمل طبقاً لترتيبات وتفرز سلوكات محسوبة يمكن حصرها وتحديد ملامحها وقيس تأثيراتها كما يمكن فهمها والاستئناس بها أو التوقّي منها بحسب طبيعة كينونتها وتفاصيل تبعاتها وكذلك بمقتضى طبيعة مقصد البحث أو موضوع الدّرس وكلّ تلك التّراتيب التي شرع في حصرها وتحديد ملامحها العلامة عبد الرّحمان بن خلدون سمّيت فيما بعد مع ويليام دجيمس والولون وغيرهما بعلم الاجتماع لما فيها من ضبط وما تخضع له من قيس وتأثير مقنّن وبقطع النّظر عن تلك الأسبقية فقد اكتشفت سبقاً آخر قام به التونسيّ عبد الرّحمان بن خلدون وهو تعريجه الجليّ والواضح المتعلّق بأسباب التّخلّف المفضي لخراب العمران والذي لخّص مرده في الفطنة الجماعية والدّكاء الجمليّ الذي ينبغي أن تتحلّى به الجماعة لتحقيق مأرب ما بل تعدّى طرحه لتبيان كيف أنّ انعدام تلك الملكة يمكن أن يؤدّي للتلف وحتّى للانقراض ومن ثمّ كان ابن خلدون مرجعيّ الأساسي في تحديد التّصورات التي سوف أعتمدها لادراك بعض ملامح ما سأسمّيه بالدّكاء العربيّ اصطلاحاً بالإضافة إلى ما ورد في نفس السّياق على ألسنة الكثير من علمائنا ومفكرينا العرب الآخرين واللّذين هم بدورهم ليسوا أقلّ تحجّراً ولا أصالة من عبد الرّحمان بن خلدون أذكر منهم ذكر لا حصراً من تونس مثلاً لا حصراً ابن رشد وابن رشيق وابن منظور والتّيفاشي من الأجيال السّابقة وبعض أقطاب الإصلاح الذين عاشوا قبل أو بعد فترة الاستعمار الفرنسيّ وعلى رأسهم خير الدّين باشا وأحمد باي والمنصف باي ومحمّد علي الحاميّ والطاهر الحدّاد وعبد العزيز الثّعالبّي وأبي القاسم الشّابي ومحمّد الحليوي والطاهر بن عاشور وابنه الفاضل والحبيب بورقيبة وعلي باش حابيه والهادي العبيدي ومحمّد الحليوي والشّيخ ادريس وفرحات حشّاد والهادي شاكر والدّكتور محمود الماطري وصالح بن يوسف ويوسف الرّويسّي والباهي الأدغم والهادي نورية وسليمان بن سليمان ومحمود بورقيبة والمنجي سليم وعلي البلهوان وأسماء العديد من النّساء التّونسيات اللّواتي ستعرض لبعضهنّ اجمالاً أو تفصيلاً ممّن سنذكرهم في سياقات أحاديثنا القادمة وكلّهم من بلادنا أو مرّوا بها كما سنخرج في الآتيان على علماء آخرين من عالمنا العربيّ الموسّع.

وفي هذا الخضمّ الزّاهر من الأفذاذ وجدّنتني وأنا أبحر بينهم بقلّاح مهرة وفي نفس الوقت أعيش في قلب أحد أحلك أزمنة الرّداءة التي أطنب في الحديث عنها ابن خلدون اكتشفت في الأثناء أنّ كلّما عاشته أجيال الأمم العربيّة من رداءة متفاوتة الحدة كانت تمثّل لبّ الموضوع الذي قدّم له عبد الرحمان بن خلدون لذلك أكتفى بهذا العنوان على سعة ما جاء في المقدّمة وبقليل أو كثير من التّمعّن بدا لي من خلالها وكذلك من خلال بعض المفكرين الذين سبقوه أو لحقوه أنّ ما نحن هنا في تونس وفي العديد من البلدان العربيّة الأخرى بصدد نحتة من بعد ثورتنا بصعوبة فائقة وتعثر كبير وجهود مضيّة هو التعقيب الذي يمكن أن تمثّل جزء منه أو كلّ الخاتمة بعدما عشنا مع الأغلب الأعمّ من الشّعوب العربيّة أو المستعربة أزمنة صلب الموضوع الذي قدّم له ابن خلدون أحسن مقدّمة.

وكنت على يقين أنّ الخاتمة لن تكتب إلاّ عندنا هنا في تونس ولما لم أفلح في اقناع الأستاذ محمود المسعدي ولم أستطع اقناع أستاذي محبوب بن ميلاد ومن بعدهما الكثير من علمائنا ومفكرينا وآخرهم الأستاذ والصّديق مصطفى الفارسي الذي طلب منّي آنذاك أن أتولّى أنا بنفسى كتابتها ويومها كاد يغمى عليّ عندما جاهرني بذلك ومرّت الأيام ومرّت السّنون حتّى دخلت الى أرذل العمر وقبل أن أنسحب تجاسرت على المجازفة بكتابة ما سمّيتها الخاتمة وأنا في خجل من نفسي عزائي أن يكتبها بأكثر عمق وبأكثر علم وكفاية من هم أعلم منّي وإنّما فعلت ذلك لأستحّهم على تناول الموضوع بأحسن وأدقّ ممّا فعلت وحتّى لا تذهب مجهوداتي سدى تعلّقت رغبتي في أن أبسط شيئاً ما ما يسمّيه أغلب النّاس عندنا بالذكاء العربيّ من خلال هذا العرض المتواضع الذي حاولت قدر المستطاع أن أجسّم فيه تلك الظاهرة العجيبة التي طبعت كلّ العصور والتي مرّت بها أغلب البلاد العربيّة ان لم أقلّ كلّها وتمرّ الان تونس بها بتلخيص كبير واقتضاب أكبر ولا مبرّر لعفويّتي هذه إلاّ عفو القراء والدّارسين. وان لم أوفّق فسأكتفي باعتبار هذا الأثر مجرد عرض أدبيّ يمكن أن نجعله مادّة أوليّة وليس بدراسة البتّة بل محاولة بسيطة من جملة ما سيساهم ولو بقدر ضئيل في تبسيط بعض الأطروحات الفكرية علّها تصبح في ما بعد مادّة لتوسيع الأفق واثراء التّوثيق وربّما للاستشراق بالإضافة الى دورها التّلخيصيّ لما يمكن أن يجسّم الذكاء العربيّ من خلال شخصيّات وأحداث ومواقف عاشتها بلدان شقيقة وتعيشها بلادنا على مرّ

العصور المتعاقبة والمتلاحقة بمفاجأتها ولوحاتها الفنيّة وألوانها أو تفاعلت من خلالها مع وقائع وافكار وشخصيات من اماكن وبلدان وحقب اخرى ربطت بينها الأمكنة والأزمنة واللغة او العرق او المصالح او تقاطعت معها الأحداث بالاضافة الى المعيش الذي تَمَّت مواكبته مباشرة أو بطريقة شبه مباشرة بالتزامن النسبي أو الكليّ مع العديد من الوقائع والأحداث والشخصيات التي نسمع بها ونراها أولاً نراها.

ومن خلال هذه الجولة عبر العصور سنلتقي برموز من تاريخ بلادنا مثل عليّسه ونعيش مع الكاهنة ونتعرّف على الجازيّة وتروي لنا أروى القير وائيّة حكايتها مع زوجها وتحدّث الينا مريم الزنائيّة وعزیزه عثمانه وأبو القاسم الشّابي والحبيب بورقيّه وغيرهم لنصل لحكايات عهد ما بعد الثّورة التي نحن بصدددها بل لعلّنا نتجاوز عصرنا بامكنته وازمته لتحدّث عمّا سيلحق أو عمّا سيهيئ لما سيلحق ولو بقدر ضئيل جدّا. وأهمّ ما سنحقّقه من خلال هذا الأثر المتواضع جدّا هو محاولة جادّة لتجسيم الذّكاء العربيّ ومنه أو من خلاله ما سيمثل بعض بذرات من الذّكاء التّوسّي عبر ما سيرد من بعض التّفاصيل والمنعرجات والملامح وكذلك في علاقته بالسياقات العربيّة وغير العربيّة من قريب أو من بعيد والتي يمكن أن نتطرّق لما ندر من أخبار عن الفهم أو قلّته ونربط ما كان يجري في ربوعنا بما جرى في اسقاع أخرى متّصلة بنا لعلّنا نتعلّم شيئاً فشيئاً مراجعة دار شؤوننا العقلية التي تحدّث عنها أستاذي محبوب بن ميلاد في كتابه تحريك السّواكن أو في الدّروس التي كان يقدّمها لنا بحرص متناه وكأنّه لم يكن يقصد فقط تعريفنا بمسائل معيّنة بل كنّا نحسّ أنّه يطلب منّا كذلك وبالحاح يكاد يكون شديداً أن نجد حلولاً لمعضلة تردّي الشّعوب العربيّة في أزمنة رداءة مستفحلة باستمرار وقد تأكّدت من ذلك يوم التقيت به بعد انتهاء فترة الدّراسة بمدة طويلة وانا أستاذ مكلف بتكوين المربّين وصاحب ديوان شعري محجّر التوزيع بالرّغم من قربي من رئيس الدّولة والفاعل الرئيسي في الحكم انداك ولكنّي لا أخفي كم كنت أحسّ أنّي صغير أمام عظمة سيّدي وأستاذي محبوب بن ميلاد وأثناء دردشة مفتوحة وتلقائيّة بيننا أحسست وكأنّه يستدرجني من خلال حديثه الى أمر ما أجهله وأثناء تجاذبنا أطراف الحديث وجدت نفسي مجروراً للتعبير له عن ضرورة أن نتساءل بجدّ عن سبب موت عالم الرياضيات الخليل بن أحمد اثر اصطدامه بسارية المسجد الذي يدرّس فيه لما تيقن أنّ تلامذته لم

يفهموا استدلاله على اكتشافه حين كان يعرفهم بمفهوم المجموعات في مادة الرياضيات التي كان يسدرسها وأذكر حينها كيف أن سيدي وأستاذي وقودتي محبوب بن ميلاد عمد انذاك الى تقريب كرسيه مني وكأنه أراد أن يسترق السمع وحتى لا يجرجني قال وهو يحرك أصابع يده

- واصل واصل

وامتزج خوفي من ازعاجه برغبة تبليغ رأيي بالجرأة التي علمني آياها من قبل قلت مواصلا حديثي عن الخليل بن أحمد

- بعد ما اصطدم الخليل ابن أحمد بالموقف السلبي الذي بدا على تلاميذه تجاه ما عرضه عليهم بخصوص مفهوم المجموعات اضطرر انذاك الى الزيادة في توضيح ما قدمه فاذا به يستنيط مرة أخرى اختراعا جديدا ثميناً ثانياً تمثل في ترميزه للتفاعلات بما سيسمى فيما بعد بالمنظومة الثنائية أساس كل الرقميات المعاصرة من الكمبيوتر وهو الحسوب ومختلف العلوم التي ستصبح متصلة بما يسمى اليوم بالمعلوماتية والتي ستفتح الباب على مصراعيه لاكتشافات علمية نتجت عن تلك النظرية التي أفضت فيما أفضت اليه الى ما سيعرف فيما بعد بالتكنولوجيا الاعلامية أو الرقميات هذا العلم المفتوح لمجالات واسعة يصعب حصرها أو حتى تكهن ما ستفضي اليه تباعا من معلومات وروافد وكأنني كنت المبح انذاك لما نشاهده اليوم بعد وفاة أستاذي الخليل محبوب بن ميلاد وفي هذا المجال بالذات كالتحكم عن بعد والتطبيقات التي انجرت عن ذلك ومنها التلفزة المسطحة والأقمار الصناعية المتطورة وتخزين المعلومات المكثفة في مساحات وأحجام مصغرة جداً والتليكموناد الحديثة والتشغيل الالي أو التحكم عن بعد بواسطة الذبذبات الكهرامغناطيسية التي تشغل العديد من المسائل كالانترنت والهواتف الذكية والهواتف الجواله والروبوتية وكامرات المراقبة ومختلف التطبيقات القديمة والجديدة والمستجدة والطائرة بدون طيار ومنها الدرون ومختلف أوجه الذكاء الاسطناعي وعلوم الاتصالات وما سترتب عن كل ذلك من صناعات وبوادر وتقنيات واكتشافات تتصل بأغلب العلوم والاليات الحديثة وتؤثر في التوجهات العامة لحياة الناس وعلاقاتهم ببعضهم البعض وبالعالم مرورا بأزمة الذكاء الاصطناعي الذي بدأت من خلاله امكانيات استعادة بعض الشخصيات من عصور ماضية وربما من أزمنة غابرة في صور وأشكال متحركة صوتا وصورة لتقديم حفل افتراضي لأم كلثوم أو داليدا وللعديد من

الشخصيات التي انسحبت بالوفاة لا استنساخا بل صناعة عندها وكأنني كنت أستحضر أمام أستاذي رحمة الله ما نعيش فيه اليوم من خلال ذلك التوق الاستشراقي الذي كنت ألمح اليه استباقا ودون سابق علم وجدت نفسي أحدثه كيف انطلق الخليل ابن احمد من حقيقة أن الحرف ضجيج وان الحركة صوت الى مبنى الحرف المصوت وكيف ارتأى الخليل ابن أحمد قبل قرابة أربعة قرون خلت أن يقسم الأصوات الشعرية إلى مجموعتين الحرف المتحرك والحرف الساكن وتعمده الترميز عن ذلك بواحد * ١ للصوص المتحرك و صفر * * ٠ للحرف الساكن فكتب فاعلاتن كالتالي اه اه اه ومر هذا الاختراع الهام مرور الكرام دون أن يستوعبه أي من الحاضرين في حلقة الدرس ويبدو أن تلاميذه كانوا منشغلين بمناقشة قضايا فسفساطية أخرى لا تسمن ولا تغني وبتشجيع من محوري الجليل واصلت قائلا

- ومن المرجح أن شيخنا تأثر شديد التأثير بتلك اللامبالاة التي أملتها طبيعة أغلب أهل ذلك الزمان في البيئة العربية بالأخص ولا أستبعد البتة أن يكون حادث اصطدام الشيخ الخليل ابن أحمد باحدى سوارى المسجد ووفاته اثر ذلك هو سبب مباشر لما لاحظته من تغافل عما كان يعتزم تبليغه لهم ولغيرهم من أهل عصره.

ولو تفطن تلاميذه لما عرض عليهم أستاذهم من معلومات لتمكّن العرب من نيل قصب السبق في ميدان الاعلامية واستفادت أجيال الانسانية جمعاء باستباق الحدث بأكثر من اربعة قرون على الأقل ولتمكّن ناس اليوم من المسك بتلابيب التحضر منذ أزمة بعيدة لا شك أنها ستكون مختلفة عما نعيش فيه اليوم والتي كانت ستحدّد ملامح أمس الغد مسبقا وتحول الأولويات وتخلق حاجيات أخرى وسلوكات جديدة يتأقلم معها عامة الناس بدرجات مختلفة كما لا يستبعد أن يتسبب ذلك السبق الذي كان ممكنا من دفع لعجلة تمدن وتحضر العصر العربي وتحبب ما عاشه من تجاذبات وصراعات وتضارب مصالح واستعار وتحلف وجهل ومعاناة قضت أن يكون العرب في الدرك الأسفل من الانتكاس والخروج شبه الكلي عن سياقات العصر.

ولو لا تهاون الأغلب الأعم من هذه الأمة واستنكاف بعضها من العلوم بعد أن كنّا روادها ومبتكرها لسادت شعوبنا بل كان بإمكاننا أن نضيف الى العالم أكثر ممّا أضاف له من استغلّوا شرعية أن يخطفوا منّا العلم ويستغلّوا حكمة سلفنا الصالح نتيجة سهونا أو تكاسلنا أو عجزنا

أو حتّى تواطىء بعضنا. وبقي سؤال من ينتشل العرب من سباتهم قائما هذا السؤال الذي سكنني منذ طفولتي

وما نشاهده اليوم من تواصل التفكك والتخلف بل والتناحر بين العرب شعوبا وحكاما أمر ملفت للانتباه والغريب في الأمر ان هذا الداء العضال متواصل منذ احقاب ولانه اصبح امرا مفضوحا وظاهرة خطيرة وضارة كان لزاما علينا التنبيه إليها بطرق جادة وفورية واجتماعنا هنا بهذه القناعات وفي هذا الإطار المقنع والذي نأمل أن يمثل احدى البوادر الجادة في مناصرة القضية الفلسطينية اذ على هذا الشكل وهذا الأيمان تربينا منذ نعومة اظافرنا منذ زمان طويل بل اذكر في ما أذكر انني بدأت حياتي وأنا طفل في قرية من قرى الجنوب التونسي بحضور بديهة اللحمة العربية في سياقات حياتنا بصورة طبيعية وتلقائية كانت تتجسم من خلال احداث نعيشها ونحن صغار في بيتنا بصفة طبيعية واذكر اننا كنا نخرج من تلقاء انفسنا لاستقبال ابناء عمومنا واهلنا وجيراننا ممن رجعوا من الجهاد في سبيل الله والوطن العربي اذكر من بينهم احد الاقارب واسمه صالح القصري العائد من حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ كان اللقاء تاريخيا بالنسبة لنا وله اذكر انه كان يتقبل منا صغارا وكبارا تحايانا له بكل شرف واعتزاز كما أذكر أن تلك الضائقة الوطنية ضلت متواصلة لا معي فحسب بل مع كل الاجيال وفي كل بقعة من وطننا بنفس الاحساس ونفس الحساس ونفس الاعتزاز في اطار واجب التمشي النضالي التونسي الذي تربينا عليه

وتمادينا على نفس تلك الحال حتى في شبابنا اذ كان من البديهي وأنا شاب ان أعنون أول كتبي بنفس العقلية يوم ان اخترت عنوان اول دواويني الشعرية الليل والعرب. الذي استهلته بالدعاء التالي * اللهم افضحنا ولا تسترنا حتى يتبين الخبيث من الطيب *

ولما استجاب الله لدعائي كان لزاما علي ان أكتب في نفس الحرج الوطني الذي يسكنني هذه الخاتمة التي تضمنت نفس التوق والذي تمثل اصراري على تقديم تحليل ارجو ان يكون ضافيا لاسباب تخلف العرب كما عرضت بعض المقومات التي يمكن ان تتشلهم وتخرجهم من الظلمات الى النور بالقدر المتاح والممكن

وما نلاحظه الآن من لامبالاة وسهو واستخفاف بهذه الحدة يؤذن بقرب اندثار العنصر

العربي من الوجود وما نشاهد اليوم من تفاعلات الاغلب الاعم من العرب يمثل بلا منازع امتدادا لذلك التوق الوطني الذي تربت عليه اجيالنا على امتداد الحقب وما نشاهده بعد طوفان الاقصى من هبّات شعبية عربية علاوة عما يحدث في بلدان اخرى مناصرة للتوق العربي يثبت ان العزم العربي التلقائي ما زالت جذوته وقّادة وهذا وجه من وجوه حصول بوادر الاستفاقة من هذا الركود والسبات المؤذنان باندثار العرب اندثارا حتميا أما ان الاوان أن نستفيق لنجدة العرب ودعوتهم الجادة للالتحاق بركب التحضر والتمدن وتحقيق اقلاعههم المنشود ترسيخا للقيم التي يؤكدها ماضيهم وتاريخهم ودينهم أما ان موعد خلاصنا واستفاقتنا الفعلية والتي لها عنوان واحد المساعدة في تحرير فلسطين لا بمجرد التمني بل بمخطط اجرائي وموقف فعلي كالذي تبنته تونس النضال حكومة وشعبا

لقد عشت ذلك الوهن في الحرب العالمية الثّانية سنة ١٩٤٥ لما تبيّنت أن بعض من أهلي والكثير من الجران والمواطنين في بلدي استعملهم المستعمر الفرنسي وقودا في حربه ضدّ ألمانيا تماما كما استعمل أكبر أعمامي في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وعاشت نكسة حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ والتي علمتني وعلمتني أهلنا في تونس قيمة نبل النضال وقداسة الكفاح من أجل التحرّر من نير الاستعمار الغاشم وقد كان اتصالنا بمن رجعوا من أهاليّنا من حرب الرّغبة في التحرّر من الاستعمار الصّهيونيّ المدعوم بقوى الغرب المتسلّط درسنا الأوّل في الوطنيّة ونحن أطفال والذي عزّزه كفاح زعمائنا الأفذاذ المتواصل من أوّل يوم استعمرنا فيه الفرنسيّون وأكّده أحداث كثيرة منها حضورنا الفعلي للأحداث القمعية التي سلّطها علينا جيش الاستعمار الفرنسيّ يوم أن حرق منزلنا وكلّ المنازل المجاورة بتعلة البحث عن المجاهدين اللّذين كان يسمّيهم الفلّاقه لمجرّد أنّهم امتنعوا من ظلم المستعمر وعاشت استقالة العرب الكلّيّة ونزوحهم للتّبعيّة والانتكاليّة والعمالة أحيانا وتأكّدت من ذلك في حرب النّكسة سنة ١٩٦٧ وعانيت امتعاض مكتب الجامعة العربيّة في تونس من أوّل كتاب نشرته تحت عنوان اللّيل والعرب كما سبق ان ذكرت ورأيت كيف تسبّب ذلك الموقف في كارثة ماليّة لعائلتي وعاشت استقالة أغلب الحكّام العرب في كلّ مراحل استقلال بلادي وتواصل ذلك التّنكّر وموقف الحكّام العرب ممّا يحدث في فلسطين بعد الاعلان عن طوفان الأقصى يوم السّابع من أكتوبر ٢٠٢٣ ولم يتحرّك العرب في

الاتجاه المطلوب او الصّحيح ولا حتّى الممكن لنجدة ضحايا الكيان الصّهيوني المتعجرف والذي ما زال يمارس ابادة جماعية على مرأى ومسمع كل الشعوب والدول بما فيهم العرب وها أنا أعيش معكم استقالة أغلب حكام الدّول العربيّة والغربيّة على حدّ السّواء لنجدة الانسان المضطهد في فلسطين الان وهنا وثقّنت أن الحلّ الوحيد يكمن في الاستنجاد بما اسمّيه الضّمير العربيّ الواعي والمغيب الان بصفة كليّة ميدانيّاً ما يدلّ دلالة واضحة وقاطعة على مقدار الوهن المستفحل لدى العرب بالأساس باعتبار ما أنا بصدد تناوله في هذا الكتاب ويؤكد بالتّالي بما لا يدع مجالا للشكّ اهميّة الموضوع الذي أطرحه الان وهنا والذي لن نجد له الحلول الا اذا استوفينا التأكيد على ضرورة الاخذ بأطروحتنا بعين الاعتبار خوفا من اندثار العنصر العربي الى الابد وهو ما يؤكد بما لا يدع مجالا للشكّ حتميّة اعتداد وعي ذكائنا الجماعي باسرع وقت ممكن والذي ينادي به جهارا الذكاء التونسي الذي اعتبره الظاهرة الوحيدة التي تمثل التوق العربي السليم القادر على الانقاذ لاسترجاع ماء الوجه العربي وهو ما ساحاول تبينه في هذا الكتاب الذي سمّيه الخاتمة تعقيبا على مقدمة ابن خلدون بل واعتقد انه كان لزاما علي ان أكتب الخاتمة لأوضّح فيها الأسباب الحقيقيّة لتخلّف العرب وأعرض فيها بعض المقومات التي يمكن ان تتشّل الأمة العربيّة وتخرجها من الظلمات الى النور بالقدر المتاح والممكن ايانا منّي بقدره الكلمة على التأثير في مسار ومصير الانسان فلا تعجبوا أن تجدوني في كلّ الفعاليات والأنشطة الثقافيّة المتاحة بنفس القنوات ونفس التّوق ونفس الخطاب لقد كان بإمكان العرب وبسهولة تامّة أن يقودوا العالم الى تحضّر أسلم معزّز بقيم تتجدّد بتجدّد خرائط العلاقات وتحدّماً نراه اليوم من صراعات من أجل البقاء الصّرف لا الوضفي والسّليم والمثري تلك الصّراعات التي تتشكّل تباعا غفلة عنّا بحسب موازين قوى مستحدثة الأغراض متنوّعة التّسمّيات ذات قابليات تغلب عليها الأناييّة والمحسوبيّة والتّكالب وأحيانا الفوضى والظلم وحتّى الابتزاز من أجل التّمسك بغريزة بقاء الأقوى مترعة بالحرص على تفوّق المحسوبيّة والجشع بأساليب غير مقنّعة وحتّى لا انسانيّة ولا أخلاقيّة تباع الدّمار في علب مغريّة وتتحلّى كذبا وهتاناً بقيم حقوق الانسان وتشدّق زورا بالمساواة بين البشر وتسوّق للأخلاق ظاهريّاً كي يسهل لها انتهاكها ولنا في قضية فلسطين وتوابعها المثل والعبرة.

وقد تعمّدت التّلميح لمثل هذا الحدث كي أأكّد على ضرورة اعادة النّظر في ترتيب دار شؤوننا

الفكرية التي أطنب أستاذي محبوب بن ميلاد في الحديث عنها في ما كتب أو ما حدثت به في العديد من الندوات واللقاءات والمنابر والدروس وها أنا أؤكد ذلك من جديد أسوة بأستاذي وأدعو دعوة صريحة لمراجعة بعض مقارباتنا الفكرية السابقة لتصحيح الرؤى من جديد وربما لتوخي أكثر حصافة وتروّ استبعادا لما سمّيته من قبل الاستسهال السلوكي لعلنا نحث على ضرورة الانفتاح على قراءات جديدة ومتابعة مخزوناتنا الحضارية بأكثر تعمق وإعادة تسليط مزيد من الأضواء على ابداعات أزممنتنا السابقة والحاضرة والأحقة ومراجعة ما أفرزته أو تفرزه عاداتنا وتقاليدنا ونماذج تراثنا الماديّ واللاماديّ وموروثنا وطرق معيشنا بصفة عامّة من اشارات وتلميحات ومعان مشحونة بالدفع الى الأمام وقد نحث من خلال اثرتنا المتواضع هذا على الدعوة لتساؤلات ومراجعات تجعلنا نعيد النظر فيما تسبّب في قتل الطبريّ ونراجع لماذا صلب الحلاج وما الذي أدّى الى حبس المعريّ وتساءل لماذا سفك دم ابن حيّان ولأيّ سبب حقيقيّ نفى ابن المنمرّ وللأيّ غاية حرقت كتب الغزالي وابن رشد والاصفهانى ولماذا تمّ تكفير الفرابي وفي أي سياق تم اخراج الرّازي من الملة ولما كفر ابن سينا واخرج الكندي من ملة الاسلام وبأي جرم اعتبر الغزالي كافرا وبأيّ عقلية ذبح الشهر وندي وقطع رأس ابن جعد ابن درهم وبأيّ قناعة طبخت أوصال ابن المقفع في قدر وبأي بشاعة أجبر على الأكل منها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وكيف تمّ تعليق رأس أحمد بن نصر ومن سولت له نفسه الطّواف به في الأزقة وأي فكر متزمت تسبّب في خنق لسان الدين ابن الخطيب ولم حرقت جثته وبأيّ عقلية تم تكفير ابن الفارض ولاحقوه مقتفين جرّته ولماذا يلاحق التكفير الى اليوم الحبيب بورقيبة ويسحل نقض ويغتال شكري بالعيد ومحمد البراهمي وغيرهم من رجال الامن والجيش ويهدد بالتصفيات الجسدية المعارضون وهذه العقلية لا أستبعد أن يحشرنى أحد قرّائي أو حتّى من لم يقرّأني الان أو بعد الان أو حتّى قبل الان في احدى هذه الزمر أو يصتفني مع المارقين لمجرد عدم اتّفاقه المبدئيّ معي دون أن ينتظر ما سيلحق من أجل حماية ما سمّي بالمقدّسات أو حماية اللذين ذلك الدين الوحيد الذي اشتهر بالسلام والتسامح والذي أنزله ربّ رحمان رحيم لطيف رؤوف بعباده علنا نوفق في ارساء ثقافة جديدة تأخذ بأسباب الفكر النيرّ وتعمل بمقتضى افرازات الذكاء الجماعي وتستشير بالهدي الاصلاحى القويم

الإهداء

من عزّ الدّين الشّابي فرحات الى فكر عبد الرّحمان بن خلدون
الّذي فهم الوضع البشريّ العامّ وبالأخصّ وضعنا العربيّ
قبل غيـره

بعد التّفكّر والتّمعّن في وصف أهمّ المسافات الحضاريّة في تاريخ الجغرافيا العربيّة وجغرافيّة
تاريخنا تبين لي أنّ الذي فهم وضعها قبلنا جميعا هو بلا منازع العلّامة التّونسيّ عبد الرّحمان
بن خلدون الّذي لم يقتصر وصفه لمجريات الأحداث بل وصفها في حراكها وفصل ديناميكيّة
صيروراتها.

وقد اطّلت على أغلب ما كتب وتوقّفت عند المقدّمة الّتي قرأتها مرّات كثيرة بقراءات
متعدّدة واطّلت على أغلب ما كتب عنها قديما وحديثا وتوالت الأحداث لتكتب لبّ الموضوع
الّذي قدّم له عبد الرحمان بن خلدون وتحقّقت نبوءاته وعشنا كلّ من موقعه ما توصّل إليه حدسه
وعلمه كذلك وعاشنا نتائج ما نبّهنا اليه ومازلنا بصدد التّفاعل مع ما تراء له من أفكار وما قدّمه
من تصوّرات ورؤى وتحمينات وتحاليل واستنتاجات وكان لزاما على شعوبنا العربيّة أن تدخل
في منطق رصد ومتابعة وتقييم ما حدث لها من اهتزازات وترتّب دار شؤونها العقليّة والاجتماعيّة
والسياسيّة والاقتصاديّة وتستنبط لنفسها مخرج للنّجاة وتؤسّس لانتعاشها وانخراطها في ركب
الحضارة الصّحيحة وقد كان ابن خلدون من أوائل من نبّه من أجل الانخراط في ذلك التّمسّي
السّليم وأرسى في كتاباته دعائم نهضتنا المنتظرة ولأنّ الأمة العربيّة لا تقرأ فقد فاتها ما نبّهها اليه
وزاد الطّين بلّة ما عمد اليه بعض المفكرين العرب الّذين حاولوا المواصلة في تحويل وجهة الفكر
الّذي توصّل اليه ابن خلدون أمّا نقدا او تحريحا عن غير قصد أو تعمّدا او سهوا أو صلفا وتحدى
فكره الثّاقب تلك المحاولات ولم يفلح لا هؤلاء ولا غيرهم في إطفاء الشّعلة الّتي أوقدها والّتي
فرضت نفسها على العالمين إلى حدّ اليوم مازالنا نقف على مقولاته مثل "الظّلم مؤذن بخراب
العمران" وما زال "يوزن المرأ بقوله ويقوّم بفعله" وتفتّنت كلّ شعوب الأرض بأنّ "الفتن

التي تتخفى وراء قناع الدين تجارة رائجة جداً في عصور التراجع الفكري للمجتمعات" وقبلنا بمقولته "قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شرير" وحديثه عن "العصبية والغلبة والدولة ومقوماتها" سيبقى قائم الذات يفسره التطور الزمني في مستقبل الأيام التي قد تصل إلى حقب تطول وتقصّر وتتشكل عبر أحداث تظهر وتختفي وتصاغ بمقتضى تأويلات تملئها الظروف وتتداخل فيها الملباسات وتبرز فيها المتناقضات لكنها لا تتبدل وجهاتها ولا تتزعزع أسسها ولا تحيد عن الترتيب الذي ذكره ابن خلدون ولا أدل على ذلك من تواصل اعتماد التحزب السياسي الحديث على ضرب من ضروب العصبية التي تحولت شكلاً على مستوى اللفظ إلى العقيدة الحزبية أو المبدأ أو أي تنظير آخر يوضع بقصد أو بغير قصد من أجل الوصول لحكم يحسم الدولة التي أقر مقوماتها جملة وتفصيلاً وإن بدت أحياناً بملامح متنوعة في الظاهر فإنها لم تخرج عن السياقات التي أرسى علامتنا معالمها في مقدمته وتوالت الأحداث والتعقيدات والعصور والتفاصيل لنكتب محتوى الموضوع الذي نبهنا له وبذلك تم استكمال ملامح اللب الذي لحق مقدمته وسبق الخاتمة التي انتظرها طويلاً وبعد انتظاره الكبير انبثق من هذه الأرض الطيبة التي ولد فيها ابن خلدون وترعرع فيها ربيع عربي من رحم المعاناة ووحل الرداءة وخزي التاريخ وضحالة الجغرافيا وانسداد أفق الفكر وكان لزاماً عليه أن يبدأ بتحسس برعم أمل الاعتناق في آتون الاختناق وتلتمس الرفاة النجاة من ذاتها العقيم وفي خضم هذه الولادة القيصريّة العسيرة المعززة بهذا التوق العصي أحياناً والكسول أحياناً أخرى انبثقت بوادر تمثل بدء البدء وتهياً للانبلاج وتفتح للضوء المحتشم نافذة الفتق دون أن يتحرك قلم أو تعزف راقته أو ينبلع حاسوب ولم يتدفق حبر ولم تتحرش ريشة باللوحة البكر ولم يدو صوت ولم تولد صورة ولم يتزلزل ركن ولم يسلط ضوء على شاشة أو ينبثق منها ولم يتحرك ساكن وانتظرت وانتظر الناس معي الحدث الذي كان لا بد أن يكون ولم يكن وفي خضم هذه الظروف الاستثنائية كالتّي يعيشها التوق العربي المكبل برواسب فطرته الجاهليّة والمحنط بافرازات الكفر والتفان المتأصلة في تركيبة اعرايته التي حرص القرآن الكريم على تهذيبها كان لزاماً أن يكتب أحدنا الخاتمة بعد أن كتب ابن خلدون المقدمة لعلها تكون البادرة الأخيرة للاعتناق قبل الموت الحتمي المؤدّي للاندثار الكلي والذي جاء نتيجة انعدام الرؤيا منذ زمن طويل وجهل مركب كاد يصبح جبلة في الذات العربيّة.

ونحن في قلب التَّيار انتظرت طويلا ولم يتجرَّ أحد من علماء العرب ومفكرِّهم وأدبائهم وشعرائهم وفنَّانِيهم ومبدعيهم على كتابة خاتمة المقدِّمة الَّتِي كتبها ابن خلدون وشبَّه لبعضنا استحالة التَّفكير في كتابة الخاتمة ردحا من الزَّمن على أساس أنَّ تاريخنا لا يسمح بتجاوزه بهذه السَّهولة أو ربَّما لتصوُّر راسخ لدى بعضنا ممَّن لا يزالون يشكُّون في صحَّة ما حدث ومنهم من يرى أنَّ ما يجري الان هو مجرد تحويل وجهة أو شدَّة وتزول ونحن نعتقد أنَّ ما حدث في بلادنا هي فعلا ثورة ربيع عربيٍّ حقيقيٍّ لا مزور او مجرد مشروع غربي الملامح ورغم اننا لا نستبعد البتة ان يكون للغرب مشروع ربيع عربي برائحة ولون غربي مبيت مدسوس وملغم كما يقال ومع ذلك فلا نتوانى ان نبشِّر بربيع عربي حقيقي نصنعه نحن لا شئ ولا ربة فيه نشرع نحن وغيرنا من المفكرين العرب في تحقيقه ومواكبة مساره بكل اناة وايمان وتواضع كذلك

ولا نستنكف من أن يتوَّج بكتابة الخاتمة بل نرى أنَّ كتابة الخاتمة أمر واجب إن لم نقل حتميًّا وكلما تقدَّمت بي السنَّ تقدَّما مشطا واحسست ان التأخُّر عن الاصداع بالرأي عطب في حدِّ ذاته وبعد ان انتهى معي ظهر الحمار عندها ركبت صهوة الجرَّاء وأنا أعلم علم اليقين أنَّني لن أوفِّق في كتابة الخاتمة الَّتِي يريدُها ابن خلدون.

وهو في قبره أرجو أن يعتبر هذه المبادرة المتواضعة والبسيطة خاتمة مؤقَّتة أفتح بها المجال لغيري من أهل الفكر والذكر والباع واليكن عفوه وعفوكم أرحب من عفويتي.

تَوطئة

لا أهمية للأثر الفني إذا كان مجرد رصف للدلالات على حساب المدلولات ولا يمكن للخيال أن يحل محل الواقع إلا إذا ساهمت قدرة الخلق لدى المبدع أو الفنان في جعل ذلك الخيال واقعا منسجما مع المستقبل أي أكثر واقعية كما فعلت أنت يا عبد الرحمان بن خلدون.

ولا يعتبر المبدع مبدعا أو الفنان فنانا أو الكاتب كاتباً إلا إذا آمن به المستقبل قبل أن يؤمن به الحاضر كما كان الشأن معك يا عبد الرحمن.

قد يتم تجاوز المخاطب أحيانا كما تتحقق دعوته إلى بعد أوسع من بعد الحاضر أحيانا أخرى وقد يصاب حاضر الفن بالصمم ولكن الفنان الأصيل مثلك أنت هو الذي يصنع في الحاضر الأصم آذانا يسرق المستقبل منها الأصوات والأفكار التي تحدّد ملامحه وتؤثر فيه وتنسج صورته وتلوّنها وتبعث فيه الوعي بذاته كما فعلت.

والكاتب الأصيل مثلك لا يكتب للذين يكتبون الحاضر ولا يكتب للراجع ولا يكتب للمبتئين ولا للمستحقين ولا للمغرورين ولا لأصحاب الإدعاء بل لا يكتب لأحد وإنما يكتب فيصنع من خلال ما يفعل أغلب الذين يكتب لهم.

ما أعسر أن أنصهر في هذه الأبعاد التي توغلت فيها بأناة وثبات وحنكة وأنا نتاج بلون وطعم وشكل أزمنة الرداءة التي ولد فيها الذين أنجبوك وأنجبوني والتي ترعرع فيها أولادنا وأحفادنا وما زالوا وأنا أعيش بعض تفاصيل تلك الأزمان التي حدثتنا عنها في مقدمتك كيف تريدني أن أعطي صهوة الإبداع الذي وصلت إليه وأنا كائن عادي لا أملك من البلاغة والقدرة ما يمكنني من أن أصوغ الإبداع الذي توصّلت إليه إلا بمقدار متواضع جداً فليكن عفوك أنت سابق واليكن عفو القارئ أكبر من عفويتي وهو يتصفح هذا الأثر المتقطع كتقطع ذاكرتي وهذه المقاصد المولودة قيصريا كالعسر الذي أنجبني به أمي في يوم من الأيام.

المؤلف

مقدمة الكتاب

للاعلاميّة الأستاذة فاطمة بن عبد الله الكراي

بعد الانتهاء من كتابة اخر فصل في هذه القصّة لم أكن أبحث بالضرورة عن مقدّمة لها وان كنت لا أستبعد أن تكون لهذا الكتاب مقدّمة ورّبّا مقدّمت حتّى عثرت صدفة على مقال منشور في افتتاحيّة جريدة الشّروق الصّادرة بتونس يوم ٨ أفريل ٢٠١٥

قرأت المقال فاذا بي أكتشف أنّ هذا النّصّ بالذّات يفرض نفسه فرضا ليكون نصّ مقدّمة حقيقةً لهذا الكتاب بدءاً من عنوانه الى اخر سطر فيه لذلك سمحت لنفسي أن أدّرجه كمثال لأقرب ما تقدّم به هذه القصّة.

وارتحت شديد الارتياح لما عرفت أنّ كاتبة هذا المقال الذي نشر في الأصل في أحد أعداد جريدة الشّروق اليوميّة التّونسيّة كان بامضاء صديقة حميمة وهي في نفس الوقت اعلاميّة مرموقة ومحلّلة سياسيّة متألّقة وصحفيّة متميّزة ومفكّرة عربيّة من الطّراز الرّفيع هي السيّدّة فاطمة بن عبد الله الكراي وقد حرّرتّه ونشرته دون أن تعلم أيّ شيء عن كتابي هذا ولا عن محتواه ورغم ذلك فقد اكتشفت في نصّها تقديداً مناسباً جدّاً للقضيّة التي يتناولها كتاب الخاتمة والمتعلّقة بالأساس بمصير الانسان العربيّ وقد تناولت المحلّلة السياسيّة فاطمة بن عبد الله الكراي الموضوع بنفس الروح تقريبا ونفس الاحساس ونفس القناعات التي جاءت في هذا الأثر المكتوب مع حفاظ كلّ منّا على خصوصيّاته ورؤاه وفلسفته المهمّة أنّ كلانا استطاع أن يلامس تضاريس المشهد العربيّ بنفس المقاربة تقريبا وان دلّ ذلك عن شيء فإنّنا يدلّ بالاضافة الى ظاهرة توارد الخواطر على أنّ هاجس مفكّري هذه الأمّة ومثقفّيها أصبح متجانسا وهو ما يبشّر في حدّ ذاته بكلّ خير.

تقول الكاتبة والمحلّلة السياسيّة ورئيسة تحرير جريدة الشّروق التّونسيّة الأستاذة الفاضلة فاطمة بن عبد الله الكراي في مقالها بعنوان

" انبعث الانسان العربيّ الجديد...ممكن "

ما من شك أن الأمة العربية بحاجة الى مراجعات فكرية وسياسية وتربوية من أجل انسان عربي جديد... إنسان يعاود حضارة البناء بعد أن استمر لقرون يعاني حضارة الهدم... حضارة غربية عنا بكل المقاييس

صحيح أن جولة عبر الجغرافيا العربية اليوم سوف تعطينا مشهدا تعكسه انكسارات وخيبات الأمة على مر سبعة قرون ونيف...

وصحيح أيضا أن جولة ثانية عبر التاريخ القريب والبعيد، سوف تكشف لنا حجم المأساة العربية، مأساة تداول من خلالها الاستعمار والتخلف والتراجع...

لكن الأكيد أن حالنا اليوم لا هي تفرح عدوا ولا تغضب صديقا.. هو واقع بائس عنوانه انسان عربي تعيس ومتردية أحواله.

نحن الأمة الوحيدة في الدنيا، التي تستلذ التكبّات ونحن الشعب الوحيد في الدنيا، الذي تحالفت ضده كل القوى السلبية من الداخل والخارج. ونحن الأمة الوحيدة التي تخاف ويقع تخويفها حد الرعب من المراجعات ومن الفكر النقدي ومن التقدم...

ولأن الانسان العربي الجديد باني الحضارة ومقدس انسانية الانسان ورافع الضيم عن نفسه وعن الآخرين لن ينبعث من رماد.. فإن المسيرة ماتزال طويلة وهي تحتاج الى شروط

أول هذه الشروط أن نقطع مع حالة الضعف والهوان بأن نخرج من الاطار الذي وضعنا فيه المنتصرون علينا بفعل ضعفنا وتشتتنا

والشرط الثاني أن نحاسب أنفسنا ونعيد قراءة تاريخنا ونقوم بكل المراجعات المطلوبة من أجل أن نعدل البوصلة العربية باتجاه التاريخ.

أمّا الشرط الثالث فيتمثل في محاسبة الجريمة الاستعمارية لأننا ما لم نقم بذلك فإنّ الذهن البليد سوف يتغلب على الفكر النقدي والتّنويري ولسوف نرى إن استمرت حالنا كما اليوم نصّدق عن أنفسنا ما صوّره عنا الأعداء سوف نرى يوما يتناقل فيه العرب أنهم هم سبب أزمات العالم.. وهم سبب الحروب والفتن في العالم..

اليوم يحلو للبعض أن ينعت الاستعمار العسكريّ الَّذي حلّ بجزء من الأمة، أنّه دخول قوات لا غير وحتّى لا نصل الى المرحلة التي نهى فيها إسرائيل وأمريكا بحفنة من العملاء لأنّهم استوعبوا الدّرس الاستعماري والمهيمن جيّدا فإنّنا نقول " إن انسانا عربيّا جديدا معلّم للحضارة وللبناء مازال ممكنا رؤيته والتّبشير بانبعاثه من حطام هذه الأمة."

الأستاذة فاطمة بن عبد الله الكراي

(جريدة الشّروق تونس ٨ أفريل ٢٠١٥)

تعقيب

اللَّهُمَّ افضحنا ولا تسترنا حتَّى يتبيّن الخبيث من الطَّيِّب

لعلَّ التَّبشِير بانبعاث ذلك الانسان العربيّ من حطام هذه الامة يكون تجسّبا لما سمّي "ربيعا عربيا" بالتَّوق وبالتَّمَنّي وربّما يكون كذلك شذى حقيقيا لثورة طالما تمَنّى أصحابها أن تكون "ثورة الياسمين" التي كانت في ضمائر الناس الاشعار الحقيقيّ الذي حتمَّ ضرورة استحضار أغلب القراءات السابقة واللاحقة ضمن هذا الأثر المتواضع الذي سمّيته الخاتمة والذي أتمنّى أن ينسهر في مشروع تحديتيّ أوسع وأشمل يمثّل حتميّة بالغة الأهميّة ويهدف إلى التَّنبّه الى ضرورة تعديل بعض الانحرافات الخطيرة الباطنيّة والظَّاهرة المتفشّية في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة والتي نبتّه اليها بعض مفكرينا وعلى رأسهم عبد الرَّحمان بن خلدون والتي كانت سببا في تحريف عراقتنا وتقاليدينا الحضاريّة وتشويه قيمنا الأساسيّة وأرباك المشهد التُّونسيّ وقبله المشهد العربيّ عموما وما زالت إلى الآن تهدّد كيانتنا جميعا بلا استثناء وتحاول النّيل من تراثنا وقيمنا وتاريخنا وحضارتنا ومكتسباتنا على مرّ العصور وتهدف إلى تبليد ما اشتهرت به الصّحوة العربيّة الأصيلة والتُّونسيّة بالأخص من ذكاء وحضور ذهنيّ كما تساهم في التَّقليص من قدراتنا على استغلال حكيم للعلوم وحسن التَّصرّف في ثرواتنا وتعمل على سدّ الأفق أمام أجيالنا والتَّشويش على انفتاحها على مستقبل أكثر ازدهارا ونجاعة وما زالت تعمل على اعادة انتاج نماذج سلوكيات العقليات الرّجعيّة والطّفوس الجاهليّة الموروثة والتي حاول الاسلام محوها تدريجيا وحيانا القطع الكلّي معها ولأنّ المجتمع التُّونسيّ بالذات كان وما زال في مقدّمة حاملي لواء التَّحضر والتَّحديث لكافة الشّعوب العربيّة وحتّى الإسلاميّة بها اكتسبه من قدرات في التَّحليل والتَّركيب وما استوعبه من حضارات نتيجة ما انفرد به بعض مفكره وعلى رأسهم العلامة التُّونسي عبد الرَّحمان بن خلدون في مقدّمته وهو ما حاولت ادراجه في كتاب الخاتمة لابرار بعض تلك السّياقات التي ركّز عليها معظم المصلحين التُّونسيّين وقد تعمّدت تقديم ذلك في قالب قصصي يندرج في تمثّل فكريّ بدأت في التَّعبير عنه في كتابي اللّيل والعرب الذي استهلته بالابتهاال التّالي

اللَّهُمَّ افضحنا ولا تسترنا حتَّى يتبيّن الخبيث من الطّيب وبعد أن استجاب الله لدعائنا وكشف عن هذه الأُمة غطاء السّتره وافتضح أمرها وتردّت حالها إلى أبعد الحدود ولم يبق لها إلا خلاص الذّكاء الجماعيّ الذي ساطرق اليه بالاعتماد على تحليل الظّاهرة من خلال الذكاء التونسي باعتباره اقرب من غيره في التناول بالنسبة لي شخصيا كي لا ألتجئ على الظّاهرة ككلّ لذلك وجدت نفسي مضطّرا على المجازفة للشّروع في صياغة خاتمة لا بدّ أن تكتب في بداياتها وليكن كتابي هذا بذرة متواضعة جدّا في هذا المشروع التّحديثي الصّوريّ والحاسم والذي نحت على مرّ العصور بواسطة محطّات حضاريّة بالغة الأهميّة تفاعلت مع بعضها البعض بدءا من انسان ما قبل التاريخ وتواصلت مع العهد البربريّ الأوّل ثمّ مع عليّسة فالأمازيغ ومن جاء بعدهم وما تواصل الى اليوم مع من مثّلوا روافد حضاريّة ومنارات ارتأيت أن أبرزها بأسلوب فنيّ أدبيّ متنوّع تعقيبا على ما جاء في مقدّمة عبد الرّحمان بن خلدون وما سبقها وما تلاها من اراء وأحداث نبّهت كلّها في مجملها وفي تفصيلها الى ما سمّي بالرّمان العربيّ الرّديّ الذي تسبّب في ما عانيناه وما نعاناه من تحلّف واستعمار وانحطاط وفتن وتحاذل وغباء أحيانا ليس لنا منه مخرجا سوى ما سمّي بالذّكاء الجماعيّ والذي سيمتّه ترميزا الذكاء التّونسيّ لما يبذلّه من محاولات جادة للوقوف سداً يمنعنا من الاندثار المحتمّ ولأنّه طوق نجاتنا الوحيد وأمل خلاص هذه الأُمة العربيّة والإسلاميّة وبصيص الأمل الفريد المتبقّي والمناط الآن بإلحاح على كاهل المثقّفين التّونسيّين بالأساس وبعض المفكرين العرب القلائل ممّن أسعفهم الخطّ ولم تعصف بهم أعاصير الجهل ولم تجرفهم سيول التّخلّف الهوجاء ولم تكسر أجنتهم رياح الأهواء العاتية وتجاذبات النّزوات الشرّهة ولم تأت عليهم طواحين الانخراط في العنف بأساليبه المتعدّدة كالدّسائس والخيانات والإرهاب بوجهيه المحليّ والمستورد مع التّنبية الى أنّني لم أستنبط الحلول بل استقيتها من توق مجتمعتنا الى الخروج من هذا المأزق بتعبيرات متعدّدة منها ما هو خفيّ ومنها ما هو بارز في رمزيّة اندلاع الثّورة التّونسيّة الّتي أصبحت واقعا حادّا ومزعزعا وككلّ واقع بهذه الخطورة وهذه الأهميّة سيلقى ردود فعل تتراوح بين التّصديق والتّكذيب والتّدعيم والتّشكيك والموافقة والرّفص وتبقى الظّاهرة قائمة بقطع النّظر عن الأحداث اليوميّة المتتاليّة والسّياقات المتداخلة والله ولي التّوفيق

المؤلّف

الفصل الأول

قال الراوي

- اجتمع الزمان بالمكان واستدعى كل منها روافده ومكوناته بسياقاتها المتعددة والمتنوعة للحضور في جلسات اخبارية أحيانا وأحيانا تقريرية أو تقييمية وفي أغلب الحالات تلتئم الجلسات للمحاكمات أو المقارعات منها ما يكون بصفة استثنائية أو عادية أو خارقة للعادة بحسب طبيعة المسألة والظرف أو الحاجة أو الرغبة أحيانا وفي كل الحالات هي جلسات لم يعرف على مدى السنين والأيام مثيلات لها على الإطلاق. كانت بعضها سرية تحضيرية أو تقييمية وبعضها علنية تعقد للمجابهات والاستقراءات أو المحاكمات أما الحضور في الأغلب الأعم فقد كان متنوعا شمل في ما شمل جناب الأمس وحضرة اليوم وسيادة الغد بحضور الأبعاد الأربعة في نفس الوقت أحيانا وفي أوقات مختلفة أحيانا أخرى وحضر الغياب وأتيح غياب الحاضر وجاز للنسيان التذكر وسمح للتذكر أن يسهى أو ينسى وأتى كل من هؤلاء بأقوامه وناسه وأخباره وبعض العينات من شواهد وأرصده ومكوناته وتراثه المادي واللامادي وكثير من شهود العيان لعصوره ومصوره وفتحت الملفات في أبعادها الطويلة والعريضة والعميقة والمتوسطة العرض والطول والعمق وحاول كل من المدعويين والمستجوبين وحتى الوافدين بمحض ارادتهم أو صدفة توفير سياقاتهم ومستنداتهم وشخصياتهم وبعض دقائق حوادثهم بملايساتها وأسبابها ومسبباتها كما حوت بعض التقارير تفاصيل التفاصيل وسمح للمقارعات والمقارنات بتدراك بعض أمرها وتمكن الأغلب الأعم من تدارس محصول معيشتهم جملة وتفصيلا بقدر الامكان وكثيرا ما كانت تنتصب للغرض محاكمات بعض القادة ومشاهير القوم ومن اتصل بقضاياهم أو من أسفرت عليه البحوث والاستقصاءات وعرفت المحكمة لدى عامة الناس بمحكمة الشعب وسميت بالشعبية لاهتمام الناس بها والتأمت هذه الجلسات على أنقاض بعض الآثار في مكان ما من البلاد يشرف على تضاريس تشبه بعض الصور الملتقطة بعدسات الأزمان المتلاحقة وبحجم الامتدادات لتذكر كلها برائحة تربة هذه الأرض وعبق نسيات أجوائها وحتى ببعض خصوصياتها وتواتراتها الزمنية مع حضور مكثف للسياقات وسمح للموت أن تفتح طلاس

أبوابها وتمكّن أهلها أو بعض أهلها دون ترتيب زمني محدّد من استعادة الحضور المؤقت بحسب متطلبات أو ملابسات ما رسب في الذاكرة الجماعية أو حديث المؤرخين أو ما توارثته الأجيال من القيل والقال وعبر المأثورات والرسوم الدارسة منها وما تناقلته الألسن والروايات وما توقّف عنده التأويل والتحليل والنقل والعقل والتراث أو أيّ من المحامل بما في ذلك القيل والقال والضنّ وسوءه والقصد والاضمار والنوايا المبيّنة وغير المبيّنة وسياقات أخرى ما زالت مفتوحة أو بصدد الفتح.

كان يرأس الجلسات الأولى قاض كسائر القضاة ولم يعتمد التّحرّي ولا الانتقاء ولا الاحتراز ولا أيّ اعتبار اخر ضمنا للسّير العاديّ للتّقاضى المعمول به عادة في أغلب المحاكمات البشرية وفي أغلب الأمصار والأقطار والأزمان وكان من حول القاضي مساعدوه من الجنسين عتّبوا كما تقع التّعيينات في أغلب العصور والمصور لمعاودة القاضي رئيس المحكمة وربّما للاستئناس ببعضهم او لمساعدته على النّظر في الأمور بعيون مختلفة وفهمها برؤى متعدّدة بحثا عن حقيقة بقيت نسبيّتها هلامية لزجة فضفاضة متحرّكة تصبو الى مزيد الاستجلاء علّها تسترجع في الأثناء ما تكسّر فيها أو تستجمع ما تطاير من شضاياها أو ما فلت منها وربّما جيء بهؤلاء المساعدين والمساعدات لمجرد الديكور وقد تعتمد المحكمة من خلال من حضروا او بالاستعانة بالملفات المعروضة عليها او المداخلات المهئية مسبقا او الطارئة او المرجّلة الى تعزيز الذاكرة المنسيّة او المغمورة او المغيبيّة قصدا لاستعادة بعض تفاصيل الأحداث أو الوسائل المتاحة أو المستنبطة بالحاجة أو المسقطه بالابتكار أو بالبديهة وحتّى بالقصد الى ما يمكن من استعادة بعض المشاهد والتّفاصيل لمزيد الاستقراء والتّثبت وربّما من أجل التلميح أو التذكير أو ربّما لمجرّد الاخبار .

وكأغلب المحاكمات لم يركّز الاهتمام على ملامح القضاة بقدر ما ركّز على الأحداث والاحداثيات والحديث والحديثات والثّغرات والأثاث والتّسق الحيث للمستحدثات المثيرة أو المؤثّرة أو الثّورية أو حتّى الثّائرة منها وربّما استأثرت كلّ تلك المستندات الثّائية لخلق بنية حرجة الحراك مبيّنة لاعجاز أحد مساعدي القاضي والذي قيل أنّه كان يلثغ أحيانا والله والمحكمة وبعض الحضور والغائبين أعلم.

ما أن افتتح جناب القاضي الجلسة حتّى انبرى من الجوّ صوت ملاً الأفق برّدّداته المنعّمة

حيناً والمسترسلة حيناً قليل أنه صوت التَّاريخ الذي كان ينبعث من كلِّ الجهات بنفس القوة ونفس النَّسق ونفس التَّواتر قال

-أنا أبو العصور وسيد الأحقاب ذاكرتي كتاب أرى ما في القصور وما خفى في داخل الخدور وما هوى في حفر القبور أكسّر الحدود وأربط العهود أفصل الأحداث أسجل التَّراث أتابع الأزمان أراقب المكان أنا جواد الزَّمن وحافظ للفرح والحزن أروي حياة النَّاس والأجناس والزَّيَّاس وأضرب الأحاس في الأسداس وأربط الأعمال بالأشخاص وأبحث عن منفذ الخلاص ولي في إفريقيَّة الحبيبة ملتقى الأقوام والأجناس ومهد الحضارات صولات وجولات.

أنا سلطان الزَّمن ونابش التَّراب وساكن السَّحاب أرمم الخراب وأجمع ما قد تلف وأحضر ما قد سلف وما خلف أحرِّك ما قد وقف أرمم الانسان أقاوم التَّسيان وأطلق الصَّراح أكسّر القيود وأنزع الكمامة على الأفواه وأفتح الرِّحاب وأطلق العنان لعصر الاتِّفاق والوفاق وأجمع الفئات أوحد الجهات وأربط الأجيال وأزرع الامال أتسع لكل رأي صائب يؤلف القلوب ويملأ الثُّقوب ويصلح العيوب ويفتح الدُّروب أوفِّق بين جميع النَّاس والأجناس أحترم إتِّجاههم وأنشر أنبائهم وأصلح الأواصر وأفتح المعابر أحرِّم التَّجاهل المقيت وأنبد الإقصاء والتَّشتيت أبدد الصَّقيع وأجمع السَّناء بالرَّبيع والصَّيف بالخريف وألحق المدائن بالرَّيف لكي أسوي بينها وأنشر الثَّقافة وأدحض السَّخافة وأنبد التَّشويش وأكره التَّهميش وأفتح المجال من أجل التَّنبيه للمنقوص وأدعو للتَّفحص والتَّجسيم والتَّشخيص والتَّعميم والتَّمحيص والتَّرميم

ثوراتكم مباركة أججها الشَّباب من أجل الانعتاق باسم الوفاء للوطن باسم الكرامة باسم الشَّغل والاخلاص في العمل باسم الرِّجاء والأمل باسم العلوم والبحوث في غيوم الافتراض والخفر في الأنقاض للانقراض وللانقاذ والحفاظ على الأخلاق والأعراض بالعزم الفلاذِّي أثبتة الى ضرورة الانضباط وعدم الافراط حتَّى تتجنَّب الحرِّية الانزلاق في الفوضى ويصبح المتعاون مرضى. والثورة ليست بالضرورة ثائرة معربرة محمومة بل ربما تكون اجمل الثورات وأنجعها الموصوفة بالاتزان والرصانة وحسن التقدير والتدبير لنحت المصير.

شبابكم يريد أن يعيش في كنف السَّلام يريد أن يسير للأمام بطاقة مجدَّدة أهدافه طموح

متواصل وهو بحاجة للفكر والفن والأخلاق والقيم ديدنه حرية التفكير والتعبير بدون أي صلف وشعبكم يقرّر المصير يسوسه النظام تحكمه العدالة مرجعه الأصالة.

لم ينته الصدى حتّى اعتلى صوت خارج من أعماق الحشد قال مخاطبا التاريخ نفسه
- سافر بنا عبر العصور واركب قطار الذاكرة

وافتح مجالا للعبور واقصد رحابا ساحره
وقال اخر

قف يا زمان هنا فالوقت قد حانا واستوقف الدهر في أرجائنا الآن

قف واعترف وأضف مجدا لا متنا واكتب على هامة الأيام ذكرانا

قف عندنا واترك الأحداث سائرة وفقا لما نرتضي لا كيفما كانا أهلي أباة عظام في حضارتهم
صاغوا من المجد للأوطان سلطانا

وكأن ذلك التدخّل شجّع أحد المتحمّسين الواقفين هناك بين الحشود الحاضرة قال

ياتونس الأنس أعزّي أبا سندي ياخير من عشقت روجي إلى الأبد

قالت تعالي فصاغ الشوق أجنحة وسافر القلب قبل الحس والجسد

قالت أحبك فاستعذبت قولتــــــــها وامتدّ قلبي إليها فوق كفّ يدي

قال الراوي

- عندها رفع القاضي يده اليمنى وأغلق كفه ثم أشار بسبابته الى الأمام فسكت الجميع
وركّزوا على المشهد المقابل وفجأة انقضت غمامة من على الواجهة الأمامية وبدت خلفها مباشرة
للعيان مظاهر تذكّر بالعصر الأوّل لما قبل التاريخ في شكل كهوف جبل عرباطة بمنطقة القطار
بولاية قفصة خرجت منها مجموعات بشرية مرتدية جلودا وأصوفا وأوراق أشجار قيل أنّها
أول النماذج البشرية في الربوع كانت بعض المجموعات منها تتقدّم شيئا فشيئا في حركات راقصة

تسندها خلفيّة موسيقيّة بدائيّة تصاحبها أصوات الطبول والدّفوف المعزّزة بشقشقات أوراق الشّجر وقرع حجارة الصّوان وزادها زفيف الرّياح رونقا وتدخّل أزيز يشبه أزيز الرّعد ليكسبها تناغما مبتكرا جيّد التّوزيع وقد بدت المجموعة البشريّة الأولى وكأنّها قادمة من تجاعيد زمن العصر الأوّل لما قبل التّاريخ تذكّر بحجريّات الحضارة الكيسيّة وحلازونيّاتها وما تواتر عنها من أخبار وأوصاف.

كانت تلك الجموع تؤدّي رقصات جماعيّة متميّزة بنسق متصاعد وتنشد في تناغم وانسجام بديعين التّرانيم التّاليّة

- نحن الكرامة في أسمى مظاهرها أمّا الاباء فمعنى من معانينا

نحن التحديّ اذا ديست كرامتنا واللّين فينا اذا ارام العدا لينا

شدنا حضارة كبصا في مرابعنا وحالف النّصر والبشرى مساعينا

اثرها سمع صوت يقول

- رقص في المحكمة.

ابتسم القاضي وقال لأحد مساعديه بصوت يشبه الهمس

- هذا من عصر اخر.

واثر ذلك ظهرت مجموعة أخرى بدت وكأنّها من الحقبة البربريّة الثّانيّة كانت ترقص هي الأخرى على أنغام موسيقى يغلب عليها الحماس قالت

- سكّنا الكهوف حفرنا الجبالا أكلنا الحشيش قطفنا الغلالا

شربنا مياه الجداول حيننا وحينا حليب المواشي الزّلالا

ومن أجل أكل وشرب نصيّد نطوف جنوبا نطوف شمالا

نشنّ حروبا لنضمن قوتا ونفتك ممّن سوانا المجالا

يموت الضَّعيف ويبقى القويّ ويفنى التّذي لا يجيد القتالا
ويبقى التّمسّك بالأرض أقوى وكيف ندافع عنها السّؤالا
ما أن انتهت المجموعة من الانشاد حتّى تقدّم حشد جديد من البرابرة يترنّمون

- نحن البربر نحن البربر نحرث نزرع زرعاً أخضر
نحفر ابارا ونشجّر نجتمع براً قمحا أصفر

واصل الراوي قائلا

- خرجت امرأة من بين تلك الجموع وقد غلب عليها الاعتداد والأنفة وركبتها النّخوة
وكانت تتوسّط مجموعة من النّساء اللاّواتي رافقنها وقبل أن تتكلّم خاطبتها إحدى مرافقاتها قالت

- أهلا بتانيت رمز الخصوبة كنت الشّعار وكنت الحبيبه

أجابتها على الفور

أنا تانيت والخصوبة منّي رمز هذي الدّيار بالتّحديد

نحن جئنا من العصور الخوالي واسترحنا في أرض مجد تليد

فاعترانا فيما اعترانا ذهول إذ وجدنا قرطاج في يوم عيد ورأينا التّاريخ يرنو
لعصر عائق اليوم أمسه من جديد

وفجأة صاح صوت نسائيّ اخر من داخل القاعة مصرّحا دون أن يكشف لا على هويّته ولا
على شكله قال:

- سيّدي القاضي أنا عندي ما أقول.

قال القاضي

- من أنت بل أين أنت وهل أنت متّهمة أو شاهدة ؟

- لست متَّهمة.
- أنت اذن شاهدة
- لا ونعم
- ما هذه الازدواجية في الخطاب
- عقب أحد الحضور قائلاً
- سيدي القاضي الموقر يخيّل إليّ أنّي أعرف هذا الصّوت ولكنني نسيت اسم صاحبه
- الان تذكرت ... يمكن أن يكون صوت عليّسة
- قال القاضي
- وما فائدة تدخلك يا هذا هل لك ما يدلّ على ضنك أم أنت من سرّيفة أهل الضنّ ؟
- أجاب أحد الحاضرين
- الحشريّة يا سيّدي القاضي الحشريّة.
- نحن لسنا في فزّورة ما دمت بيننا افصحني لنا عن هويّتك من تكونين إذن ؟
- أنا مجرد صوت نسائي جئت أبحث عن جسدي لقد ضاع منّي في زحمة الزحف.
- ما الذي جرى مع جسدك هل تشاجرتما.
- كبرت فيه ولا أذكر أنّي تشاجرت مع جسدي وقد حاول جسد اخر أن يتقمّصني ولم أستطع.
- لم تستطيعي أم لم يقبلك جسد.
- لم أجد جسدا اخر يلائمني.
- كان الصّوت ينبعث بقوة وثبات وكان القاضي وجماعته يحاولون جاهدين رؤية صاحبة

الصّوت وقبل الحسّ واللمس وبدون أن يتفطن أحد من الحاضرين أمر القاضي بطريقته الخاصة والامكشوفة والتي تعتمد على إشارات سرّية ورموز لا يفكّكها إلا المختصّون في الجوسسة وعلوم الاستخبارات أو أقطاب السّرّة الفتيّة التي شرعت بالفعل في تفتيش القاعة بسرّية تامّة بحثا عن جسد صاحبة الصّوت لكن البحث لم يسفر بعد على القبض عليه وبقي الصّدى يدور في القاعة ولم يستطع أحد إسكاته أو التّخفيف من حدّته أو إيقافه.

كان الصّدى يشقّ عباب القاعة شقّا ويخرج من الأبواب والنوافذ والجدران ليملأ الفضاء واختلطت معه أصوات أخرى وأشيع أنّ تلك الأصوات كانت معها أشباح أخرى لم يستطع النّاس مشاهدتها من فرط ما أصابهم من ذهول وخوف إذ خيم على القاعة نوع من توقّف الحركة لم تشهد له مثيلا من قبل وتوقّفت الأشغال وانتاب القاضي إعياء كبير لكنّه ثمالك نفسه قليلا وحاول حتّى مساعديه ومستشاريه على المواصلة وجاءهم جميعا شاهد العقل من جديد واستؤنفت الجلسة وقرّر جناب القاضي توسيع باله بالاستماع إلى هذه المرأة الصّوت التي تدّعي أنّها أضاعت جسدها وحتّى يتعمّق في البحث والاستقصاء ويربط الأمور ببعضها دخل في استنطاق الصّوت الذي أصرّ الادّعاء العامّ أنّه صوت ربّما قتل جسده.

استرجع القاضي ملامح ذكائه مستندا على عكاز تجربته ومستعينا بسنوات الدّربة في ممارسة الحكم على النّاس والأشياء واغتتم الفرصة للتّحقيق من متّهمين آخرين فقال:

- ما دامت عناية الآلهة قد جاءت بك بيننا صفّي لنا جسدك بدقة.

وفجأة سقطت على الأرض كتلة ادمية ملفوفة في رقعة من القماش الأبيض يسمّيه أهل الذّكر عنبرقيزا وسقط معها رجل أمن تابع للمصالح الاستعلاميّة التي سخرت لخدمة العدالة بصفة عامة وألحقت بجناب محكمة الشعب الموقرة لتتولّى انارة جناب القاضي وأعضاده وتمدّهم بما تحصّلت عليه من معلومات وإشارات وإشاعات تخصّ قضية الصّوت المنبّت والجنّة المنزوعة روحها وبعد الاطلاع السّريع على ملخصّ التّقارير وزبدة التّأويلات وجملة الاحتمالات توصّل القاضي ومستشاروه الى الاقرار بأنّ تلك الكتلة حضرت بعد أن تمّ القاء القبض عليها وهي متلبّسة بتهمة البحث عن صاحبها من خلال تعمّدها محاولة التّعرّف على ساكنها الأصليّ عندها

سكت الصّوت وتحركت الكتلة وكما يخرج العصفور من البيضة خرج الجسد من عنبر قيّزه وتلقّفه الحارسان وأخذاه الى بيت العمليّات لتنظيفه وتشيّجه واستكمال البحوث لذلك أذن القاضي الحرس باستكمال البحث واستعمال كلّ الاجراءات الممكنة ومنها أمرهم بالقيام بمحاولة تركيب الصّوت في الجثّة لتبدأ بذلك احدى أهم تجارب الاستقصاء والتّثبت التي عرف بها هذا البلد وتتواصل من خلالها أغرب قصص أهله وربّما تكون من البدايات التي تبقى معلّقة في انتظار استكمال نهاياتها الغائبة تفاصيلها في تلايبب الأزمنة الغابرة واللاحقة والتي تنتظر الاكتمال شأنها شأن الكثير من البدايات التي لم تنته بعد.

وفي انتظار استجلاء المحكمة الموقرة لقصّة الجسد الضّائع عن صوته واصل جناب القاضي مهامّه بالاستماع لاحدى النّساء الحاضرات وكأنّه أراد أن يعبر عن اقتناعه بضرورة تجاوز قصّة الصّوت الضّائع قال وكأنّه أراد أن يؤكّد أن أغلب الأجساد جاءت بأصواتها قال بكلّ ثقة في النّفس.

- عليّسة الأميرة من صور أسست قرطاج في الزّمان السّحيق

كم تحدّث بلادك من غزاة وتهادت تشقّ ألف طريق

بين بحث عن الخلاص ويأس وانقسام فثورة فعقوق

ثمّ كان الإيوان بالأرض أقوى وشجبتهم عوامل التّفريق

اعتلى صوت أحد المشكّكين في كلّ شيء مستهزأ قال

- بجلد ثور ملكت الأرض قاطبة ماذا فعلت وما استخدمت من سحر

وتلاه صوت ضاحك متشمت كالذي يطلق في البرنامج التّلفزي دليلك ملك عندما يخسر

المتباري مبلغا ماليّا محترما قال

- هاهاهاهاها

قال له القاضي رئيس الجلسة والذي جيء به للتّحقيق في أمر النّاس

- وما يضحكك يا أنت أفي ذلك ما يضحك

أجابه المتدخل على الفور

- تأسيس قرطاج تخريف ومهزلة قد لَطَخْنَا بحمق مححف مزر

عليسة اغتنمت جهلا يميزنا وسيجتها بجلد قد من ثور

بجلد ثور غزت أرضا موسعة وصاحب الأرض مراتح المايجري

قال القاضي

- هل من جواب على هذا الادعاء الخطير يا علية.

تقدّمت علية بلحمها وشحمها نحو جموع الحاضرين بأنافة وكانت مستبشرة الملامح .

قال القاضي ضاحكا

- قد يحاول بعض المشكّكين منكم الخلط بين علية المائلة الان وهنا وبين جثة العنبرقز التي أرسلنا بها للتبّت كما أعتقد أنّ بعضكم سيقع في لبس من نوع آخر بعلاقة بالصّوت اليتيم وصوت علية أعلمكم أنّه لا علاقة لهذه الشكوك أو هذه الضنون بها تشاهدونه الان وهذه المناسبة نؤكد لكم أنّنا سنعلمكم بما ستسفر عليه نتائج الاستقصاءات المتعلقة بمواضيع شككم في الابان اذا لم يطرأ مانع ونؤكد لكم الان أن المائلة أمامكم في التّو والساعة ليست صاحبة الصّوت ولا صاحبة الجثة أنّها علية الحقيقية بالصّوت والصّورة والتفت للمستجوبة قائلا وكأنّه يعتذر

- أهلا بك

قام الحاضرون والحاضرات لتحية الضيفة من جديد ربّما استدراكا للخلط أو تكفيرا للذنب أو قياما بواجب ومنهم من عبّر عن ذلك بالتصفيق لها طويلا عندها أجابت علية قائلة بعد أن حيّ القاضي ومن معه والحاضرين

- ما كنت ساحرة بل كان لطفهم وحسن أخلاقهم أسمى من المكر

طلبت منهم بقدر الجلد أسكنه وسبرهم أن يقاسى الجلد بالشَّبر
 وكنت راضية بالجلد فاقتطعوا منه سيورا ولم أعلم ولم أدر
 هم الذين أحاطوا الأرض من كرم وسلّموني مساحات بلا أجر
 قال الرّاوي

- وبعد أن جلست عَليّسة بدا في الأفق شابّ وسيم يظهر أنّه فتى بيرسه من العهد البونيقيّ
 وقد التحق بالمجموعة ومعه جمع من الشّباب والفتيات من عصره كانوا يراقبونه . كان يتكلّم وهو
 يتحوّل من شاب لآخر وكأنّه يريد أن يلغى جناب القاضي ومراقبيه لأمر هام قال وهو يحمل انية
 بها كومة من الطّين والحشب والقصب

- نحوّل الطّين والأخشاب أبنية ونصنع الآلة المثلّى بأيدينا
 ونصلّق القصب المقطوع ننسجه كييا يضلّ طوال العام يأوينا
 ثمّ توجّه نحو فتاة تحمل انية بها محار وقنّينات صبغة وجلود وأصواف ملوّنة وهو يقول
 - من المحار صباغ نحن نبدعه به نلوّن جلدا أو كتاتينا
 ثمّ التفت نحو فتاة كانت تضع الحرقوص على وجه زميلة لها وبجانها فتاة أخرى على وجهها
 أوشمة قال الشّابّ البونيقيّ

- لنا وشام وحبّ العفص نحرقه ومنه نننتج حرقوصا يواتينا
 ثمّ توجّه نحو فتاة أخرى تلبس حلّيا من نوع خاص قال
 - بعض الحجارة والأخشاب نبردها منها نصوغ حلي العمر تزينا
 ثمّ اقترب من بعض العملة المشتغلين كانوا محيطين به وأضاف قائلا
 - لنا أوان من الصّلصال فاخرة جئنا بعينّة منها لأهلينا
 والرّيف ينمو كما تنمو مدائننا طاب المقام بريف بات يغرينا

فيه المواشي بلا حصر ولا عدد ترعى وتمرح في مرعى رواينا
لا لم ننظّم لها نسلا ولا شهدت مثل النساء حدودا أو قوانينا
مباشرة دخل على القوم فارس من فرسانهم وبعد أن توسّطهم وشرّبت له الأفناق قال
- أنا هنا صدر بعل اليوم جئتكم أروي لكم حقبة من بعض ماضينا
نصدّر الذهب المصقول في سفن وترسل الزيت أصفاه موانينا
وتفتح الجسر تلوا الجسر رغبتنا تستقطب الرأي والرؤيا مراسينا
قراطاج يا ملتقى الأحباب يا بلدا قد قال للعلم والتفكير امينا
حتّى استفرّ غزاة الرّوم فانطلقت أطعاهم حسدا تبغي أراضنا
يا حنّبل تعالى كنت قائدنا وكنت من صلف الأطماع تحميننا
لم ينه الفارس كلامه حتّى التحق به حنّبل في الحين وبعد أن حيّا جناب القاضي ومرافقيه
خاطب الحضور على الفور قائلا
- نحن جئنا نمثّل اليوم فيكم حقبا ناهزت ثلاثين قرنا
لم نر السّلم في الرّبي والفيافي تستتبّ ولم تر الأرض أمانا
كيف تمّ استقرار أرض غزاها ألف غاز ولم تعر له وزنا
وقبل انصراف حنّبل من منصّة التّقديم استوقفه جناب القاضي قليلا ليقول له
- أرجوك سي حنّبل لا تغادر القاعة أنا لنا معك لقاء اخر سنحضرك فيه في الاتّان
ابتسم حنّبل تعبيرا عن موافقته وواصل البحث عن مكان ينتظر فيه المثل أمام المحكمة
الموقّرة من جديد
وباذن مباشر من جناب القاضي دخل الى فضاء قاعة المحاكمة أحد فرسان البربر وكان

يدعى ماسينيسا ويدخله احمراً وجه الكاتب الموثق من شدة الحياء وكاد يسقط من كرسیه وهو
يهمّ بالوقوف لكنّ ماسينيسا اقترب منه وربت على كتفه رافة به وارتبك القاضي بعض الشيء
كان ماسينيسا مصحوباً بأحد ابنيه الذي أصبح من أعوانه المقرّبين وقد كان يسمع بحنبعل
دون أن تتاح له الفرصة لرؤيته وكان يدعى ميسبساً قال ماسينيسا لابنه خلسة معلقاً على صوت
حنّبعل

- هذا صوت اعرفه يا ميسبساً لا أكتم السرّ أنّه حنّبعل
قال ميسبساً

- كيف حلّ هنا وقد قيل مات

- مثله لا يموت بل لا يذلّ

- أنت عاشرته فحدّثني عنه ؟

- كان شهماً محارباً لا يملّ

من أملكار أصله ابن بركه من تخوم التّسيان عاد يطلّ

كلّ من مارس السّياسة منهم في سجلّ التّاريخ سوف يضلّ

غير أنّا مطالبون جميعاً بالقضاء عليه أين يحلّ

ولنا يا ميسبساء فرصة عمر عبر قاض كان لذي الأذلّ

التحق بهما الفارس شبيون الافريقيّ وبعد أن قدّم التّحيّة لجناب المحكمة وضع يده على كتف
ماسينيسا كأنّه يهوّن من روعه وهو يخاطب جناب القاضي الموقّر

- أنا شبيون ماسنيسا حليفني كم فتحنا من أجل روما دروبا

افريقيّ بالانتساب وأصلي من تخوم الرّومان قدت حروباً

علّمتني أنّ الحياة سجال ما انتهى للذين داسوا الشّعوباً

ربّما كنت في المسار الطويل أفقا هيأ المساء والغروب
كي يصير الصّباح صباحا جديدا يانعا مشرقا شجيا طروبا
التحق بهما فجأة يوليوس قيصر مصحوبا بجوكرطا وشرعا في تبادل أطراف الحديث
قال يوليوس قيصر مخاطبا القضاة ورئيس القضاة

- أنا يوليوس جيئتكم بجكرطا وهو من ثار في الزّمان السّحيق
كم تحدّث بلاده من غزاة وتهدت تشقّ ألف طريق
بين بحث عن الخلاص ويأس وانقسام فثورة فعقوق
- نحن جيئنا من العصور الخوالي واسترحنا بالقرب من هيو أكر
فرأينا الأفراح تغمر شعبا وسألنا فليل أعظم ذكرى
كيف تمّ استقرار أرض غزاها ألف غاز ولم تعيش قطّ حرّه
وفي الأثناء عنّ لأحد الحاضرين أن يوشوش سرّا في أذن صديق له كان يجلس بالقرب منه
قال له وهو يشير خلسة باصبعه نحو الفارس جوكرطا

- هذا هو جوكرطا الذي شبّه أحدهم نفسه به قائلا أنا جوكرطا الذي نجح أو يقصد أنّ هذا
البطل قد فشل.

أجابه الصّديق في أذنه

- النّجاح نسبيّ يا خليلي ثمّ من قال لك أنّ المتشبّه به قد نجح لعلّ الأيام تثبت أنّه فشل
كذلك .

- ومن أدراك أو أدراه أو أدراني لكلّ بطل ناجح زوايا فشل ولكلّ بطل فاشل زوايا نجاح
الرّمن هو وحده الكفيل بتحديد تلك الزوايا.

كان القاضي ينصت للمتدخّلين بانتباه متعمّدا عدم التّدخل المباشر وكان باصبعه يبيّنه

أعضاده الى الاستماع الى ما يجري من حديث وبينما كان الصديقان في تأملهما المراقب اقترب في الأثناء جوكرطا من جستنيان وتوجّه نحوه قائلاً

- جستنيان باشاهد العصرقلي كيف عاش الغزاة في الأرض أسمى

من فنيقا إلى نمديا فروما فاحتلال الوندال ظلما وقهرا

بربر ثائر وفوضى بزنطا وعروش من أهلها تتبرراً

وغزاة أتوا وراحوا جزافا بعد أن حاولوا التملك قصرا

كيف تم استقرار أرض غزاها ألف غاز ولم تعش قط حره

قال الراوي

- بقي السؤال معلّقاً ينتظر مزيداً من التوضيح عبر سياقات أخرى متعدّدة ومتنوّعة في تشابكها وتشابهها وربّما كذلك في تناقضاتها يمكن أن يتجلّى بعضها من خلال مزيد التمعّن في التفاصيل وربّما كذلك من خلال بعض الأحداث السابقة واللاحقة منها الجليّ ومنها الخفيّ ومنها الطافح ومنها الراسب وفي الأثناء تلهّت محكمة الشعب الكريم في شأن استعجالي قبل انه فرض تأكّده نفسه عليها دون سابق اعلام لذلك رفعت الجلسة لظروف استثنائية وخرج القاضي وهو يقول

- أي وه أي وه

والتحق به مستشاروه الى قاعة الاستراحة وبقي الحاضرون يتجادون أطراف الحديث قال أحدهم لصاحبه

- لعلنا نصل من خلال كلّ ما يحدث في هذه المحاكمة الى الحقيقة السيّئة التي ستمكّننا كما ستمكّن الأجيال من خلالنا من مزيد الفهم الذي سيساعدنا ويساعدهم على الانشاء

سأله رفيقه

- وما الانشاء

أجابه الصّديق وفي عينيه بريق تصاحبه حركة رأسية قال
- الانشاء من أنشأ الله السّحابة أي علاّها ورفعها .

الفصل الثّاني

قال الراوي:

- وقف المتّهم وقدّم نفسه للجناب تقدّبا جافّا. كان كلامه يتأرجح بين الصّرامة والزلّاجة أمّا نطقه فقد بدأ للقاضي غوغائيّا في معظمه لم يستطع فهمه فصاح من شدّة الغيظ

- أي وه قلت أيّها المتّهم الوقح أعدّ تقديم نفسك بأفصح من هذا وننصحك بأن لا تزيد أو تنقص وقبل ذلك نأمرك بالانحناء فإن لم تفعل فأنت حرّ بالنسبة التي نقبلها منك ولن نقبل أكثر أو أقلّ.

- أفهم من ذلك سيّدي القاضي أنّكم تطلبون منّي أن أتوسّل إليكم بأن تحدّدوا لي نسبة الحرّيّة التي تمنحونها لي.

- نحن لا نرى مانعا أي وه ما دمت قد منحت نفسك تقرير مصيرك بالنسبة التي نريد المهّم أن نقبل نحن ذلك.

سكت المتّهم ليعطي لنفسه الفرصة للتّفكير وسكت جناب القاضي الموقّر برهة من الزّمن ليتمكّن من تهيئة السّؤال الموالي وسكت كذلك الحاضرون دون أن يعرفوا لماذا فعلوا ذلك لكنّ سموّ جناب السّيّد القاضي المحترم جدّا جدّا كان مستعدّا أنّ الاستعداد للضّرب بقوة القانون على سندان طاولة جناب المحكمة الوقّرة فرضا لهيبة الدّولة المصنّون لذلك سلّط على مكتبه ضربة صارمة للتّنبية والرّدع في صورة عدم الإصغاء لما يعترزم أن يقول:

- أي وه أي وه أي وه أي وناش

وخشي القاضي أن يفهم النّاس أنّه ما زال يبحث عن سؤال لذلك أردف القول:

- أي وه إذن قلنا ماذا قلنا لقد تذكّرت... ابدأ بتقديم اسمك للجناب.

- اسمي سيفاكس.

- أي وه قلت أي وه من أي فصيلة أنت يا حيوان.

- أنا من الحيوانات الادمية

- كفى استهتارا كلنا من فصيلة الحيوانات الادمية أم تنوي الوصول بنا إلى جذورنا الأولى.

قال القاضي ذلك وهو يشعر بنشوة الاكتشاف بل كاد يأخذه الغرور في أول الأمر ثم تراجع لكنه اقتنع فيها بعد بما توصل إليه من ذكاء حاد لم يخطر على باله قط فتبسم مؤكدا:

- أي وه أي وه كلنا أبناء آدم وحواء. أليس كذلك سيدي الرئيس المساعد

انتفض الرئيس المساعد من الخوف وأجاب على الفور:

- لا شك في ذلك سيدي الرئيس. اسمي

- أي وه أنا لم أطلب منك اسمك أنت أيها الرئيس المساعد.

- أي وه ساحني سيدي القاضي الحق أنك فاجأتني كيف استطعت أن تتعرف على اسم جدّي الأول وجدّي الأولى هذا رائع أنت ألمعي سيدي القاضي.

زاد القاضي في الانبهار بنفسه وكاد يؤمن إيمانا راسخا أنه الأذكي لو لم يكتشف فجأة حضور زوجته المصون التي جلست في ركن خاص شحب الضوء فيه لكنه لم يستطع إخفاء مفاتها المعروضة للجميع. نظرت إليه بحدة فاضطر إلى مراجعة جلسته وصقل صوته من جديد ليقول في كثير من الاتزان المعشوش:

- أي وه اسمك سي فاكس لماذا تصرّ على تسييد نفسك إذن أنت اسمك فاكس؟

- لم أسيد نفسي سيدي القاضي اسمي سيفاكس.

- سيفاكس أي وه ومن سيدك إذن؟

- ولدت سيّدا.

- أي وه أعلم ذلك أنا لم أأنتك. كل ما في الأمر أنني أردت أن يتعرف عليك القضاة بأكبر

قدر ممكن.

- نعم سيّدي القاضي اسمي الجنرال سيفاكس.

- دعنا من الألقاب العسكرية أيّ وه الآن نريد صفتك المدنية.

- لكنني جنرال وقائد القوّات المناهضة للأميرك ماسينيسا وملك كذلك.

- أيّ وه لقد نالنا شرف مثول السيّد الموقّر ماسينيسا أمام محكمتنا وقد أحسنّا استقباله وترك ذلك لديه انطبعا طيبا علينا يا من تريد الدخول بين الاصبع والظفر قل ما تريد أمّا نحن فسوف لا نسمع إلّا ما نريد. أيّها الكاتب امسح لفظ الجنرال وعوّض قائد القوات المناهضة بقائد العصابات المتمرّدة وأضف إليها تفسيرها الصّحيح.

رفع الكاتب قلمه وقال:

- سمعا وطاعة سيّدي القاضي وما تفسيرها الصّحيح؟

- العصابات الإرهابيّة...

انتفض سيفاكس انتفاضة المكهرب وصاح قائلا:

- لكن سيّدي القاضي لست إرهابيّاً.

- هذا صحيح بمفهومك أنت أمّا نحن فلسنا ملزمين أن نفهم الأمور بقاموسك أنت.

- وهل أنا ملزم بفهم الأمور بقاموسكم أنتم؟

- قلت لك أيّ وه منذ البدء أنك حرّ أيّ وه ومن أهمّ مظاهر حرّيتك أن تتخذ قاموسنا مرجعا لك حتّى نفهمك أليس من الأنسب أن نخاطب القوم بما يفهمون أمّا فيما يتعلّق بعلاقتك بنا فأنت الآن بين أيدينا والمنطق يقول بأننا أحرار في عدم فهم الأمور المتداولة بيننا بقاموسك أنت وجماعاتك الإرهابيّة.

- لكن أنا لست إرهابيّاً.

- أي وه سنرى ذلك أثناء التحقيق لا يهم هناك سؤال أهم.
- وما هو سيدي الرئيس
- هل ما زلت مصرًا أي وه على تقديم نفسك بأنك القائد
- أنا لا أنفي ذلك فأنا قائد منذ مدة طويلة وجنرال أيضا.
- أي وه سوف لا ننكر عنك ذلك ونستنتج من اعترافك هذا أنك قائد الإرهابيين وبها أنك جنرال فأنت الرأس المدبر بينهم.
- لا سيدي القاضي أنا انسان عادي
- الارهابي ليس انسانا ولا يجوز تمتيعه بحقوق الانسان التي ينكرها على غيره
- ثم التفت القاضي الى جماهير الحاضرين في القاعة والتي اشرأت أعناقهم اليه وتسمرت عيونهم فيه قال بكل ثقة
- أي وه أي وه سمّوه ما شئتم الآن تتهموه بالانسانية لماذا يصّر اذن على تمتيعه بها ينكره على غيره أي وه له حقّ واحد حقّ الاستنطاق والاعتراف بكلّ الوسائل المتاحة للغرض ويدخل تمتيعه بالأكل والشرب في هذا الاطار الى حين محاكمته وبعد ذلك سأساعده أي وه على الموتة الشنيعة ليزوق العذاب الذي سلّطه على غيره وليكن ذلك العذاب شديدا قبل الموت ذلك شرعنا ألم نخلق جهنّم وبئس المصير للمذنبين الذين استكبروا وعاثوا في الأرض فسادا وقد استخلفت الالهة القاضي في الأرض ليعذب كلّ من أجرم في حقّ الانسانية أمثال هؤلاء المجرمين بالحجّة والدليل والبراهين تدينهم وهم يعترفون بجرائمهم بل يتباهون بارتكابها وكلّ من يبرّر أفعالهم أي وه أو يشفق عليهم أو يتفهمهم أو يبحث عن أعذار لهم مجرم في حقّ الانسان والانسانية بل يعتبر أكثر منهم خطورة لأنّ له مزيد من الوقت والامكانيات للاحاق الضرر بنا جميعا أي وه حدّثونا عن حقوق الانسان الذي يحترم الانسانية ويقدّس الحياة البشريّة ويكرّس كلّ جهوده من أجل رعايتها وصون حقوقها أي وه أما اللذين استهتروا بها ودرّبوا ودرّبوا على الاستخفاف بها فلا يستحقّون منا الصّفح والعفو والرّحمة ولاحقّ لهم في الغفران أليس كذلك أيها الكاتب الموقّ

يا من ما زلت تسبح في سمائك

أجاب الكاتب الموثق بشيء من التلعثم والخوف الشديد

- أي وه وألف أي وه نعم سيدي القاضي المحترم عفوا يا أيها الجناب.

قاطعته القاضي قائلا دون أن ييدي أي أكثرات بصاحبه

- أي وه أي وه سجّل أيها الكاتب الموثق أنّ السيد المحترم الفاضل سيفاكس والذي كان قبل اعتقاله ملكا يعترف أمام الجميع وبمحض إرادته وبدون أي ضغط منا عليه أنّه لا ينفي البتّة قيادته لهذه الجماعات الإرهابيّة فقد كان يقول بعظم لسانه ومنذ قليل : أنا لا أنفي ذلك.

- مستحيل أنا لم أقل أبدا وقطعا "أنا لا أنفي ذلك".

- أي وه لقد كنت تقول أنا لا أنفي ذلك ثمّ بقطع النظر عمّا تقول وما لا تقول نحن نعلم أنّك بليغ وأنّه من البلاغة أن لا تنطق بكلّ ما تريد أن تقوله وأنّ ما قلته يفهم منه بالسياق أنّك لا تنفي ذلك بالفعل وكلّ ما فعلناه هو أنّنا استدرجناك لنستنتج ما أردت أن تقول وبحضورك في انتظار أي وه أن تقوله وقد قلته. واعلم أن هذا الأسلوب يعتبر أي وه من أرقى أساليب جرّ المتهمين الى الاعتراف بجرائهم ولدينا أساليب أكثر شدّة ونجاعة لسلخ المعلومات الهامّة من المجرمين المحترفين اعتبر نفسك محضوا باعتبارك وقفت أمام أكبر المحقّقين في دنيا القضاء وقد رضينا أن نقدّم لك عصارة تجاربنا الحقوقيّة ونضعها على ذمتك سجّل أيها الكاتب الموثق الاستنتاج الذي توصل اليه تحليلي وركّز على درجة الكفاءة التي أنا بصدد بذلها لفائدة حسن سير المحاكمات والعدالة بصفة عامّة

قاطعته المتهّم قائلا

- قلت لم أقل أليس كذلك أم أنت عفوا أنا أطرش

- صحيح أي وه ولكن سكنت قليلا ثم اعترفت أنّك أي وه لا تنفي ذلك على كلّ اعتقد أنّ الأمر أقلّ من أن تتوقف عنده إذا قارنناه بما هو أكثر تأكّدا.

- أيّ أمر أكثر تأكّداً من أن يدّعي أنني اعترفت بها لم أقم به.

- نحن لم ندّع باطلاً كلّ ما نقوله يعتمد على مستندات وقرائن أيّ وه لا تقبل التّفنيد أو الطّعن أو المراجعة أمّا ما هو أهمّ هي هذه الأخبار التي تروّج الآن أيّ وه حول انتباءاتك العائليّة هل ستنكر حتّى انتباءاتك العائليّة ؟

- لا بالطّبع وماذا تريدون معرفته.

- ما هي أيّ وه علاقتك بصدر بعل الذي كان بصدد تحيّننا منذ زمن قصير ؟

- هو والد زوجتي صوفونيسب.

- سجّل أيّ وه هذا التصريح المهمّ أيّ وه أيها الكاتب الموثّق.

تظاهر الكاتب الموثّق السيّد ليلبوس بتسجيل الأمر.

لم يكن السيّد ليلبوس كاتباً بالمعنى الصّحيح لقد كان في واقع الأمر إسكافياً يصنع النّعال من الحلفاء ويبيعها بالخسارة أو يهدبها ويضرب بها كلّ من يرفض الهدية حتّى اكتسب سمعة ومحبّة بين النّاس إلى أن عين حارساً ثمّ خادماً بسيطاً لدى ماسينيسا الذي عينه حارساً لدى شبيون وجيء به إلى الرّبوع في تربصٍ للتعريف به وانتخبوه كاتباً في محكمة الشّعب ربّما لأنّه كان يحسن كتابة وقراءة أغلب الحروف الهجائيّة وله بعض المبادئ في العدّد لذلك لم ير القاضي مانعا من أن يكون موثّق الجلسة أضف إلى ذلك أنّه كان أطول الحاضرين في القاعة وقد مكّنه طوله هذا من الإشراف على سير الأمور بيسر وله بالخصوص ضغائن قديمة مع زوجة المتّهم وأكثر ما اشتهر به حبّه للرّاحة والاستجمام فكثيراً ما كان ينام أثناء الجلسات ثمّ يستيقظ مذعوراً ويقع فيه ما يقع من ارتجاجات واهتزازات وانتفاضات وارتدادات ويصفّر وجهه وتحبّط عيناه وقيل أنّ لسانه يخرج أحيانا من مكانه ويطول يطول ويلتوي على رقبته حتّى يكاد يخنقه. هذه المرّة بمجرد أن سمع السيّد ليلبوس القاضي يدعو للتّوثيق حتّى انتفض فجأة بعد أن تئاءب بصوت مسموع ومفزع ثمّ تكسّل وتمطّط وقفز من مكانه. لقد تذكّر أنّه لم يتناول لمجته. ترائ له أنّ الوقت قد حان لذلك أسرع إلى فتح جرابه الصّوفيّ على مصراعيه وأخرج منه قطعة خبز مطبّقة تنضح شحماً مذاباً وشرع في الأكل ثمّ

التفت نحو المتهم وهو يقول:

- لا شك أنك في حاجة لشيء ما.

- لا سيدي الكاتب عفوا نعم.

تدخل القاضي:

- أي وه أرجو منك التثبت في ما تريد أن تقول

- أفصد نعم لا.

- أي وه لقد أصبحت تخرم.

تدخل المدعي العام قائلاً:

- ربّما يريد أن يوهم جناب المحكمة الموقرة بأنه مخبول.

فأجاب المتهم بسرعة.

- بالعكس لست مجنوناً لقد جرّبت الجنون ولم أفلح حتّى تيقّنت أنّي عاجز بالفعل على فقدان عقلي ولن أتمتّع بهذه النعمة أبداً وكلّ ما أردت أن أقول لجنابكم سيدي القاضي وللکاتب المحترم أنّي قصدت التأكيد على النفي بإثباته ولا يكون الإثبات إلّا بنعم .

وكأنّ الكاتب الموقر أراد أن يختصر المسألة ويبيّن أنّه هو الآخر في هذه القاعة رجل مهمّ بل لا يقلّ أهميّة عن القاضي وبطانته. فقال متوجّهاً للمتهم:

- هل تريد أن تشرب من هذا ؟

قال ذلك وأخرج من تحت عباءته قارورة سمّ أبيض اللون استخرجه من العقارب السوداء المستوردة من صحراء الرّبع الحالي.

أجاب سيفاكس بصوت لم يسمعه الآ هو:

- نعم لا أرى مانعاً أنا عطش بالفعل وأحتاج إلى الراحة منك ومن غيرك وإني أفضل جرعة

من ذلك على أن أرى وجهك.

ثم أضاف بينه وبين نفسه قائلاً

- أيها اللعين...

التفت الكاتب الموثق نحو القاضي وقال:

- سيدي القاضي هل تسمح بأن أمدّه بالأكل والشرب.

انتفض القاضي قائلاً:

- ناولني ذلك فأنا أكثر جوعاً منه.

أخذ ليلبوس قطعة خبز كبيرة عائمة في الشحم المذاب والمّلون برضخ الفلفل الأحمر المرصع بحبوب الزيتون السوداء والخضراء والبنفسجية المنتقاة من أفخر أشجار الزيتون في البلد وأهدى منها للسيد القاضي المحترم ولم يمتنع هذا الأخير بل أضاف بعد أن تأكد من الحصول عليها وشرع في أكلها ولحس ما فاض منها من زيوت وبقايا قديد

- شكراً سيّد ليلبوس رغم أنني أكلت تمراً قبل أن أجيء إلى هنا لكن بهذا الخبز والزيت سأعطش ناولني لبناً من قارورتك تلك.

ارتبك الكاتب الموثق وقال:

- أنّه عفوا ليس لبناً.. هو حليب.. لا ليس حليباً.. أقصد ليس حليب...

- حليب معز أي وه أنا أحبّ المعز وحليب المعز.

- لا بل حليب...

- نعاج... ليس لي عداوة مع النعاج أي وه ولا حتّى مع البقر.

- لا يا سيدي القاضي بل هو حليب...

- أي وه حليبك أنت إذن دعني من حليبك أنت أيها البخيل أنا أكره البخل والبخلاء وأكره

كذلك حليب البخلاء.

أجاب الكاتب الموتى وهو يرتعد من الخوف:

- صحيح أنا بخيل لكن أعدك سيدي القاضي أن أنتحى شيئاً فشيئاً عن البخل إنه قاتل أقصد الحليب عفوا البخل ساحني سيدي القاضي أدخلني هذا الشقيّ بعضي.

وكان يشير باصبعه الى سيفاكس

أجابه القاضي :

- أي وه تريد أن أسامحك أعط قليلا من اللين لسيفاكس أيها البخيل.

- بكل سرور سيدي القاضي.

أسرع المتهم بالإجابة:

- أنا لست جوعانا ولا عطشا ولا أحب أن أكل الخبز الآن ولا رغبة لي في لبن هذا البخيل سيدي القاضي.

جذب القاضي طرف رداءه الفضفاض الرماديّ الدّاكن بعصيّة واهمرّ وجهه من شدّة الغضب حتّى تحوّل إلى زرقه وصاح مزبدا مرعدا في وجه المتهم:

- أتجرأ على رفض نعمة الآلهة أي وه وإنكار نتيجة مجهودات مضميّة تخضّبت بعرق جبين الكادحين واختلطت بتعب المزارعين والفلاحين الذين تكبدوا المشاقّ في الحريف لزرع الحبّ وعملوا كامل الشتاء في البرد القارس للاعتناء بزرعهم وتفقدوا حراسته وخصّصوا الربيع لتنقية الحشائش الطفليّة منه وكرسوا جهودهم أي وه من أجل تهيئة الحصاد وما بذلوه من مجهودات لتنقية القمح في الصيف وطحن الحبّ كيف تنتكر هذه السهولة وهذا الاستخفاف للذين حوّلوا تلك النعم إلى عجبن ثمّ إلى خبز؟ والذين جنوا الزيتون والذين عصروه وحوّلوه إلى زيت والذين رعوا الماشية وهيئوا لحومها للأكل أنكره كلّ هؤلاء الكادحين أنكره الفلاحين والعمّال لهذه الدرجة؟ ألا تعترف بكذّ يمينهم؟ أتستخفّ بمجهوداتهم؟ أنت إذا معارض لجميع الكادحين

في بلادنا.

ولم يكتف بذلك بل استطرد قائلا في حق شديد لم يره فيه أحد من قبل ولم يصب به غيره في تاريخ رؤساء المحاكم منذ انبعاث هذه المؤسسات العريقة في القدم حتى التي لم تكن تلتئم إلا بحاكم واحد يضل هو الفاتق الناطق:

- إن هذا المتهم كالعديد من متهمي هذا البلد السابقين وحتى اللاحقين مارق عن الأديان كلها وعن جميع التواميس وجل الطقوس وأغلب التقاليد ونسبة كبيرة من

العادات أي...وهو وكافر بكل الآلهة بل متكبر عنها وخارج عن المعهود ومخالف للمتعارف أي وه وهو كذلك معارض وبالأخص مجاهر في معارضته سجل ذلك أيها الكاتب الموثق قبل أن أجنّ أو أكل مقعدي هذا. خشي المتهم على نفسه من أن يزيد القاضي في إثقال ملفه بإضافة تهم الدنيا وجرائم الناس قاطبة منذ أن بعث آدم وحواء للوجود بل خاف أن يثقل كذلك بتهم أخرى كتحريرض هابيل على قتل أخيه قابيل وربما تامر مع هابيل من أجل قتل باقي اخوته وأهله وربما أصبح هو نفسه القاتل الحقيقي. وربما وجهت له جرائم من سيأتي بعده من كبار محترفي الفساد وعباقره المزلقطين في الأرض والسماء من أمثال سنده شمهروش وقوافل الجن الأزرق والأحمر والأصفر كذلك. حدّق المتهم في لسان دفاعه كأنه يستحثه للتدخل العاجل والمباشر والسريع والنّاجع لكنّ هذا الأخير تلهمي بمغازلة إحدى المستشارات الجميلات اللواتي جيء بهنّ للغرض. ولما يس سيفاكس من الاستنجد بمحاميه في هذه الظروف الصّعبة قرّر التدخل بنفسه لكنّه نسي سبب تدخله من شدّة الغيظ وتلهمي في قضم ما نتأ من أظافر أصابع يده اليمنى ثم يده اليسرى بدءا من الخنصر ثم البنصر ثم الوسطى ثم السبابة إلى أن وصل إلى الإبهام ولما رآه المدعي العام على تلك الحال أشفق عليه ورقّ قلبه وبكى خلسة وكاد يطالب بإطلاق سراحه لولا أن تذكر أنّ الكلمة الأولى والأخيرة ترجع لساحة السيّد القاضي الفاضل رئيس محكمة الشعب المحترم وضلّ يقنع نفسه بأنّه يقصد أنّ الاحترام راجع بالأساس لرئيس المحكمة لا للشعب خوفا من هذا الأخير وكان على يقين أنّ الكلمة الأخيرة لن تأتي للقاضي إلاّ بوحى من السماء التي لا نراها نحن ولكن جناب القاضي يراها ويسمعها ويتواصل معها ليلا نهارا بل ربّما هو الآن بصدد الاستفادة من وحيها وتعاليمها السماوية السمحاء. فعلا لقد جاءه أخيرا وحي متعلّق

بالمتهّم يقول إنه لم يعد متّهماً فحسب بل مجرماً بآتم معنى الكلمة هذا ما تؤكّده الوثائق الكثيرة التي وضعت بحوزة سماحة القاضي ولم يرخص له في وضعها بحوزة المتهّم أو لسان دفاعه. وقبل أن يتورّط لسان الدفاع في أي أمر التفت القاضي إلى المتهّم المجرم وقال:

- أي وه لسان دفاعك ينبغي أن يتذكّر قبل أن تساوره أيّ نيّة وقبل أن ييدي أيّ حراك أنّنا نحن الذين عيّناه وأن مرتبه ومستحقّاته في الأتعاب سنتولّى نحن تسديدها بسبب أنّنا صادرنا أملاكك قبل أن نحيلك على المحكمة وبما أنّنا أي وه نعلم أنّك الان فقير معدم وعاجز عن تسديد مستحقّات محاميك أو أيّ مستحقّات أخرى أو مصاريف فأنّ عدالتنا العادلة قرّرت أن تقف الى جانبك رغبة منها في أن تنال قصب السبق في مجال النظم المعترفة بحقوق الانسان رغم أنّني شخصياً يصعب عليّ أن أدرجك في قائمة المخلوقات الانسانية ومع ذلك فقد وافقت على خلاص محاميك بعد الانتهاء من محاكمتك.

ثمّ أضاف:

- أي وه والفاهم يفهم. أي وه

طأطأ لسان الدّفاع رأسه وواصل في السّكوت بل حاول أن يظهر في مظهر الصّغير جدّاً حتّى لا يراه أحد من الحاضرين بالخصوص حفاظاً على قليل ممّا تبقى من ماء وجهه. عند ذلك وجد سيفاكس نفسه مجبراً على الردّ قبل أن يجرفه تيار الظلم ويغرقه طوفان الاستبداد والصّلف ويزداد إحكام حبل المشنقة على عنقه فانتفض قائلاً دون تردّد أو انتظار:

- لكن سيّدي القاضي أنا...

- أي. وه أسكت قلنا إذن السيّد سيفاكس أنت ملك مخلوع ربّما لأنك ولدت أي وه في يوم من أيّام التّحس هل اخترت يوم ولادتك.

- لا سيّدي القاضي.

- أي وه لذلك ضلّ طالعك نحسا. ولو ولدت مكاني لكان طالعك مباركا سعيدا ولكنك أنت اليوم من هذا المنبر تحكم على النّاس "ما أحلاها فيك".

واستطرد القاضي يقول:

- علمنا أي وه من بين ما علمنا أنك كنت إسكافيا

- إسكافي؟

- عفوا ليس أنت بل كاتبنا الموثق على ذكر الكاتب والطالع أي وه لماذا لم تلد مكان ليليس ولو فعلت لكنك الآن على الأقل كاتبنا مكانه ولأرحتنا من خلقته البشعة لقد قيل لي أنك أكثر منه ثقافة وعلما.

- سيدي القاضي سأعمل بنصائحك الغالية لو قبلت أُمي التوقف عن اعتبار نفسها في تعداد الموتى ورجعت للحياة سأقنعها بالتطوع لاعادة ولادتي من جديد.

- السيد المدعي العام أي وه ذكره من فضلك بسلسلة التهم المتعلقة به.

فرح المدعي العام وفرك يديه من شدة الغبطة والبهجة وقال مبتسما مهللا:

- نعم سيدي القاضي بكل سرور

التفت المدعي العام نحو المتهم وكأنه نمر يريد أن ينقض على فريسته المستضعفة وكثر على أنيابه وصاح في وجه سيفاكس:

- السيد سيفاكس أنت متهم لدينا بارتكاب المخالفات التالية: أولا وبحكم هنجعيتك وطبعك المتصلب لقد انتهكت حرية الغير وتصرفت بكل أنانية واستعملت قرع الطبول والنقمة على الدرابك والبنادير والرقوق وبعض الات الايقاع القديمة والجديدة والمحلية والمستوردة في كامل الليل لأغراض شخصية بحتة بمناسبة ليلة زفافك الأول وتحديت بذلك فصول القانون المعمول به في بلادنا. صحيح أنك تسلمت ترخيصا يسمح لك - مثل غيرك تماما - بإقامة حفل ساهر وصحيح أنك دفعت المعلوم المحدد والمتخلد بذمتك لكنك سمحت لنفسك شيئا من التجاوز باستعمال أضخم الطبول وأرفعها صوتا وبما أنك قائد كبير استغلّيت مركزك ونفوذك لتستجلب عددا مهولا من هذه الآلات الجهنمية لاستنفار أكبر عدد من الناس واستعمالهم في مآربك الخاصة ومصالحك الفردية البحتة. هذه التهمة رقم واحد أما التهمة رقم اثنين فقد قرأت

وغطت الاتهام الأول وهي التي ارتكبتها في سوق العقول.

أجاب المتهم بسرعة متسائلة:

- في سوق العقول ؟

وقد وافق تساؤله تساؤل جناب القاضي الذي اهتزّ وهو يصيح

- في سوق العقول...

ثم أضاف

- أتباع الأسواق في العقول عفوا أتباع العقول في الأسواق ؟

هم المدعي العام بالضحك ولسان حاله يقول

- حبست الآلهة علينا عقولنا ومتعتنا بها كاملة مجّانا وبلا مقابل .

ثم استدرك قائلاً بصوت جهوري متماسك

- أجبنا عن التهمة الأولى قبل كل شيء والمتعلقة بالطبول .

- بالنسبة للطبول لقد كان ذلك منذ عشرين سنة خلت .

- لا يهمّ الزّمن ما دامت المخالفة وقعت .

- لقد فعل ما يفعله كلّ الناس وهذا نوع من التقليد الأعمى الذي لا يليق بقائد مثله .

هكذا تدخل أحد المستشارين وكان ينوي مساعدة المدعي العام على مزيد إغراق المتهم وربما التشهير بجرائمه .

أجاب القاضي على الفور:

- أي وه و ما يعينيك أنت أضمت وإلاّ حبستك .

ثم توجه نحو المتهم مستفسراً:

- ألم تضع تلك الالات كلها على سطح دارك؟

- نعم لقد أمرت بوضعها بالمكان الذي يقف فيه عادة البرّاح وهو الشّخص الذي يتولّى الإعلان عن أمر هام وتلّهِيت أنا بمهام أخرى أكثر إلحاحا وتأكّدا.

- أي وه سجّل يا ليلّوس أنّ المتهم اعتبر الاستنفار مسألة شخصيّة رغم أنّها في الأصل تابعة لاستراتيجية الحرب العموميّة أليست الحرب عموميّة لا شخصيّة. ألم تكن في قصر الحكم؟

- لكن سيّدي القاضي ذلك لأنّ داري لم تكن داري بل كانت أحد القصور العموميّة وكانت أعلى مبنى يطلّ على المدينة.

- أي وه ما دمت أنت ساكن في القصر فالقانون يقول المحل لصاحبه لا لساكنه إذن فالمكان ليس شخصيّة ولا خاصّا بك وبك وحدك ولا دخل للعموم فيه. والاستنفار من محلّ هذه الموصفات جريمة فإنّك تخلط بين ما هو خاصّ بك وبين ما يهمّ البلاد. وفوق ذلك كلّه وتحتّه أنت أيقظت الطّامة والعامة وشوّشت على المرضى والشيوخ والنساء والديكة النائمة والدجاج وسائر الطيور وجميع أنواع الحشرات.

ثم أضاف قائلاً:

- والتّقرير لدينا أي وه يؤكّد ذلك بل يؤكّد كذلك أنّ الألحان المعروفة كانت مزعجة والسؤال الذي يتبادر للذهن من أوّل وهلة في مثل هذه الحال هو: كيف عنّ لك أن تختار هذه الألحان بالذات بدون تأشيرة قبول. لماذا لم تستعن بالتراث الذي يزخر بالأنغام الجاهزة المتنوعة والغزيرة والتي لا تنتظر إلّا البثّ. وهنا لسائل أن يسأل: لماذا لم تتح فسخ المجال للموسقيّين والمبدعين؟ لماذا يا ترى لم تشجّع على رواج آلات موسيقيّة أخرى غير الطبول لماذا غضضت النظر على آلات الإيقاع الأخرى كالزّباب والدّف والطّار والدربوكة والتّغارات والزّقلامات والتي تدرّب المواطنين على استعمال الكفّين وتهبّوهم للتصفيق ثمّ لماذا لم تفكّر بالأخصّ في ترويج القيثارة والتي والكلارينات والطّرنبطة وذي القرنين المسّاة عندنا بالقرنيطة والمزمار والزّمارّة والقصبة والتّفّيخة والزّميرة والزّرنّة والمزود والزّكرة والزّفّ وغيرها من آلات التّفنّح وبذلك تمكّن أبناء وطنك من اتّساع صدورهم عوض انقباضها المجحف والذي يعطل سير أمورنا

ويجعلنا نضطرّ إلي إيصال أوامرنا لهم بالقمع بفتح القاف والميم والقمع بفتح القاف وضم الميم ونلتجئ لما نكره من أساليب عنيفة هم بدورهم يكرهونها. أي...وه ...

توقّف القاضي قليلا عن الكلام وكأنّه يريد أن يبلغ ريقه ويتنفّس وبمجرّد أن فعل ذلك تابع القول بنفس الحماس ونفس الحيويّة:

- لماذا أي وه لم تمكّنهم من التّجّاح والشّهرة وذياع الصّيت على يديك وأنت سيّد العارفين بظروفهم الصّعبة وحاجّياتهم الملحّة وما يعانونه من فقر وخصاصة؟ لماذا لم تمنحهم فرصة كسب قوتهم على يديك وبواسطتك لماذا لم تمنح لنجوم الغد وجماعة طريق النجوم وطاقم نجوم في الأفق ونجوم في العلالي وبرنامج أصوات وأعدة وبرنامج مصعد الشّهرة والبراعم المتفتّحة ومواهب على السلم وسلّم المواهب وبراعم تتفتّح والفنّانين الواعدين ونجوم المستقبل وستار أكاديمي و ذي فويس وإيدول ستار ونجوم في المدار واليوم صغار وغدا كبار وجماعة المستقبل الواعد وغيرهم فرصة الغناء على سطح دارك لماذا أغلقت باب الرّزق أمامهم جميعا؟ ثمّ وفي سياق آخر هل بإمكانك الآن أن تصارحنا لماذا لم تختّر من مجموع المقامات إلّا قليلا من الأسطنبالي وشيئا يسيرا من البونوّارة وذرة من البورجيلة وأقل من وقية من البوحلة والفزاني المرتاح وحتّى الفزاني الذي لا يعرف الرّاحة والاستجمام في استنفارك؟ أي وه

أجاب المتّهم بهدوء واتّزان:

- نعم سيّدي القاضي ليس لديّ ما أخفيه الآن وقد وقع ما وقع. ودخلت الفأس في الرّأس.

- أي وه تكلمّ بوضوح الرّأس نعرفه ولكن ما الفأس؟

- الفأس سيّدي الرّأس عفوا سيّدي الرّئيس كناية عن المصائب المحدّقة بنا.

- أي وه تقصد المصائب المحدّقة بك وبك وحدك من جزاء ما تجلبه لنفسك من همّ وهمّ لو بقيت رجلا عاديا لما وقع لك ما وقع.

- لكن أنا لم أفعل شيئا أكثر من القيام بواجبي ومع ذلك فسأعترف بكلّ شيء سيّدي القاضي...

- تكلم لأول مرة أحسن أننا أي...وه على اتفاق تام.

واصل المتهم كلامه قائلا بشيء من الثقة في النفس وكثير من الاعتزاز.

- إذا كان الكذب ينجي فإن الصدق أنجي وأنجي لقد أمرت بقرع الطبول دون أن أفكر في القطع المعزوفة بل لم أكن أهتم بذلك سيدي الجناب نهيق أو ثغاء أو نعيق أو عواء أو صهيل أو مواء أو هديل أو نباح أو عويل كل ذلك كان عندي متساويا. المهم التبريح.

- أي وه وما التبريح؟

- التبريح هو المناداة في الناس ألا يستحق العرس الشهير به؟

- لكن زوجتك صوفونيسب أي وه كانت فتاة لماذا لم تساعدك على انتقاء أعذب الألحان؟

- لم تكن زوجتي آنذاك. وربما لم تكن موجودة أقصد مولودة.

تجاوز القاضي ذلك ثم واصل.

- أي وه وعوض الاستنفار بالطل المهرج لماذا لم تدع الناس للبهجة والرقص والخبور أم استخسرت عليهم ذلك شاة فيهم ونكالة بهم وكرها لهم وانتقاما منهم ثم لماذا لم تزين قرعك ببعض الأصوات الأخرى.

- أي الأصوات الأخرى؟

أجاب القاضي في الحين:

- أي وه طنين النحل عندما يملق بالقرب من الزهور. وكذلك ضجيج العربات ذات العجلات الخشبية أو الحديدية قصدت إدخال بعض الحيوية على تأليفك الموسيقي.

عند الاستماع لذلك كثرت اللجاجة فصاح القاضي قائلا

- أي وه أي وه ما هذا الضجيج ألا تعلمون أنه باستطاعتي أن أسمع أخفت الأصوات بل كل الأصوات قبل أن تبدأ الأفواه في بثها إن لم يصمت الحاضرون في القاعة فسأسمعهم ذلك

الّلحن المزعج الذي استنفر به المتّهم النّاس.

قال القاضي ذلك مباشرة بعد أن خيّم على القاعة صمت رهيب لم تعهده من قبل صمت ثقيل ثقيل إذ لم يعد يتكلّم أحد فيها ولم يضحك أحد بل لم يكن أحد في الإستماع البتّة وفي خضمّ هذا الصّمت القاتل والأمبالاة الصّارخة البادّية على الوجوه اغتنم المتّهم فرصة هذا السّكون السّانح الذي قلّ ما يتوفّر له ولأمثاله في مثل هذه الظروف وشرع في توضيح وجهة نظره:

- أنا على يقين من أنّ تلك الأصوات كانت أرحم على النّاس من أصوات أخرى لأنّها كانت تلقائيّة وطبيعيّة ورغم أنّ دقّ الطّبول في حدّ ذاته كان أقلّ طبيعيّة من صوت المنادي ومع ذلك فقد كان الصوتان أقرب للواقع وأسلم من غيرها من الأصوات.

- عن أيّ سلامة تتحدّث وقد أدرجت فيما أدرجت صوت حمار؟.

صاح المتّهم من شدّة البغّة:

- حمار أبدا كيف ذلك.

- أي وه حمار؟ صوت حمار يا هذا حتّى الربّ الذي خلق الأهمرة كان يكره أصواتها. لماذا إذن لم تختّر عصفورا يزقزق مثلا أو على الأقلّ قطّا يموء؟ تختار حمارا؟ غريب أمرك والأغرب أنّك تصرّ على إسماع صوت حمار هزيل مرهق بشهادة المختصّين في علوم الحيوانات الذين أفادوا جناب المحكمة المؤقّرة بذلك مشكورين. تصوّر صوت حمار هزيل متعب لم يبق له إلّا صوته وأضفت له أزيزا مجهول الهوية أو بالأحرى قزيزا أجننت؟ لا أكيد أنّك جنت جنونا كبيرا فعلا ألا تعلم أنّ حسابك يصبح أعسر لو نستطيع إثبات خبثك وسوء تيتك الباديين على وجهك من أوّل وهلة.

- أنا لا يمكن أن أكذّبك سيّدي القاضي على أنّني لست خبيثا بالقدر الذي يبدو على وجهي ويمكن سيّدي القاضي أن لا تصدّقوني لكن أقول لكم لقد تدخّل الحمار بمحض إرادته ولا مردّد لإرادة الأهمرة ولم يكن من المنتظر أن يفعل ما فعل في ذلك الوقت بالذات ومع ذلك ألا يعتبر صوت الحمار في حدّ ذاته موسيقى. كلّ شيء موسيقى يا سيّدي القاضي حتّى صوتك أنت

موسيقى بل ربّما كانت بعض الأصوات المنبعثة من حناجر الأحمرّة والدّثاب والبغال أهون بكثير من صوت المزامير والمراود تلك الآلات اللّيلية المضخّمة جدّاً تصوّروا سيّدي القاضي المحترم لو زار كوكبنا رجل من المريخ أو الزهرة أو جنّ من جنّة بطن الأرض لاهتزت فرائسها وقفلا هارين بدون رجعة من هول المزود المزعج ومزمار الزّكرة المخيف بل يحتمل أن يدوّنا في سجلّيهما أسوء الانطباعات عن الأرض وأهل الأرض جميعاً. نزلت كل هذه الملاحظات في أذن الفراغ ولم يكن أحد يستمع لما قاله المتهم ولا القاضي وحتى هذا الأخير فقد بدا عليه كعادته تجاهل لتدخّل المتهم وحتى لغيره.

انتاب سيفاكس هول مريع ولم يعرف ما أصابه في هذا المكان الفوضويّ الذي لم يره من قبل فهو لا يعرف منذ متى جاء إلى هنا ولا كيف وصل لهذا الفضاء الغريب. أجرّه الحلم أم سوء الطّالع أم جنّ بالفعل ثمّ ما عسى أن يقع له بعد انتهاء هذه المحاكمة يا ترى؟ أنهى القاضي تجرّع قارورة الكاتب خلصة منه ومن الجميع وتحشّأ إثرها ثمّ صاح

- أيّ وه أيّها الكاتب الموثّق ناولني السّبسي القصبيّ ألا يقول المثل الشّعبيّ السّائد هذه الأيام عندنا "بعد الأكل والشّرب لا بدّ...."

قاطعة المستشار السّيدة روزان قائلة

- السبسي لا السبسي لا السبسي

قال الرّاي

- قلت في نفسي وأنا أستمع لحديثهم ما أقرب الأمس باليوم وكأنّ زلّات لسانهم يستلهم منها المستقبل أسماؤه وأحداثه أمّا من قريب أو من بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بقصد أو بغير قصد وقبل أن أذهب لما أبعد أجاب الكاتب كما يجب عادة في مثل هذه المواقف وفي غيرها:

- نعم سيّدي القاضي

ثم استحثّ بدوره أحد العملة قائلاً:

- أيّها الخادم أين العرعر؟

أجاب الخادم وهو يجري نحوه ويده صرّة:

- حاضر سيّدي الكاتب الموثّق.

تلهّى القاضي في تعمير السّبسي القصبيّ وهو يخاطب المتهم:

- أيّ وه قلنا إذن فتحت أبواب طبولك على مصراعها وبأقوى ما يمكن وسمحت لقطيع من الدّبذبات الصّوّيّة من اقتحام الفضاء النّقيّ وتلوّيته وخرج الدّفق المتتالي في شكل صاعقة دخلت من الأبواب والنّوافذ المفتوحة وقد أفادنا المختصّون في علم الأصوات أنّ نهيق حمارك المحترم عفوا المنخرم ولطّما أرجله عمّت المدينة والأحواز كذلك حتّى وصلت إلى خارج حدود البلد بل تبع ذلك كلّ صوت برّاحك كما تقول لماذا تحرّأت على ارتكاب هذه الحماقة الشّنيعة نحن لا نشكّ لحظة في ثقافة زوجتك الموسيقيّة صوفونيّسب بل لا نرى مانعا في مساعدتها لك من حين الآخر قبل زواجك منها وقد شهد مرّة أخرى جميع المختصّين في علوم التّوزيع الصّوّيّ بأنّ تعديلاتك وإيقاعاتك كانت أقرب للجيدة لكنّ المشكل تمثّل خاصّة في اختيارك للحمار والبرّاح معا. فالحمار بالخصوص قد أزعج المدينة والقرى المجاورة وكامل المقاطعة حتّى وصل الإزعاج خارج حدودنا الآمنة فأخطرت البلاد المجاورة حرسنا بالأمر بسرعة فائقة وبعد يوم حطّت الحرب أوزارها وكان ما كان وأنت سيّد العارفين ولو لم يتدبّر الأمير ماسينيّسا أمره أدامت الآلهة عزّه وأبقته ذخرا لهذا البلد العزيز وأهله شرقا وغربا لكانت الطّامة الكبرى ورغم ذلك فقد غفر لك زلتك لأنك كنت تتطلع للملك وكانت الرّيح معك تدفع بأشروعك للأمام أيّ وه ولم يكن من الهين التّصدّي لتلك الأرياح انذاك لذا انتظر طويلا وانقضى عليك في الوقت المناسب ونصب لك أخطر كمين لإيقافك والإرسال بك إلينا مشكورا بعد عشرين سنة لشريف محكمتنا هذه بهذا بالحدث الاستثنائيّ وها نحن نثبت أنّنا في مستوى الحدث ونهبيّ لك ولأمثالك محاكمات شرعيّة ونزيهة ومثاليّة وتكون أنت بالذات عبرة لمن يعتبر وحتّى للذي لا يريد أن يعتبر وبذلك نجنب هذا البلد من تواصل سيوّدّي به في تقديرنا إلى الطّامة الكبرى ولو تركنا الحبل على الغارب لأكلت الدّنيا بعضها كما يقول المثل وأنت نائم على أذنيك لذلك أرسلنا مكانك أقصد باسمك أيّ وه رسالة للأمير ماسينيّسا نعبّر له فيها عوضا عنك عن عميق اعترافك لحضرتة بالجميل وأعلمناه كذلك أنّه قد احتجز منك المحقّق الحاضر هنا كامل الأثاث الذي استعملته لارتكاب جرائمك بما

فيه السيّد الحمار المعني بالأمر والمنادي بعد أن تجاوز كلّ منهما سنّ التّعمر وحتى عجلات الجرّارة وقد كان السيّد المحقّق بصدد قراءة قائمة المحجوزات المتعلّقة بهذه القضية والموضّحة لصيغة الاتهام الحالي والمؤكّد بالفعل أنّ القانون يمنع منعاً باتّاً إحداث الضّجيج بهذا الشكل وبأيّ شكل من الأشكال الآخر.

عندئذ تدخّل المحقّق بسرعة قائلاً:

- في نظره لا في سمعه.

قال القاضي للمحقّق:

- أيّ وه وضّح لنا ذلك.

دخل المحقّق في نوبة هستيريّة تميّزت بالخصوص بالالتواء والتّململ ثمّ أجاب:

- نعم سيّدي القاضي، أردت أن أقول وبكلّ تواضع وبدون أن أتسبّب في إزعاجكم أمام نظر القانون وسمعه لكنّ ألا يمكن للقانون أن يصاب يوماً بالصّم أو بالعمى.

- أيّ وه إذا ما أصيب أمثالك من حراس القانون بالصّم والعمى.

- سامحني سيّدي القاضي لم أسمعك ورغم أنّي لم أر شيئاً فأنا أعتذر مرّة أخرى على هذه المقاطعة التي أخشى أن تكون سخيّة في نظركم هل قلت "خرمة"

- كدت شكراً أيّها المحقّق بإمكانك الجلوس أيّ وه لقد عملت العار وثقبت الطّار.

ثمّ توجّه القاضي من جديد للمتهم وواصل في تأنّ عجيب:

- أيّ وه سيّ سيفاكس أنت عسكريّ وتعلم أشدّ العلم أنّ حياة المجتمع تضبطها أحياناً بعض الاستثناءات كما تعلم أيضاً أنّه لا يمكننا أن نحرم بلدنا من الرّقص والتخميرة بل لا يخفى عليك أنّ البلد الذي لا يرقص ولا يمرح ولا يتخمر هو بلد يتدنّى إلى الرّداء والإضمحلال لذلك جرّنا الرّقص والطّرب والمرح في الأعراس فتحتّم على كلّ فرد من أفراد هذا الشعب أن يتزوّد على الأقلّ مرتين أو ثلاثة في حياته إذا لم يكن أكثر وأن يحتفل بمناسبة أو حتى بدون مناسبة

بل مكنا الناس من إحداث الضجيج المنعم وحتى الضجيج الملحن والمعنى في مآثمهم وأتراحهم بل ووقرنا لهم مثل هذه المناسبات بكثرة ورغم ذلك فالتأس أحرار فيما يفعلون حتى ولو أدى بهم ذلك إلى الكف عن الرقص والغناء والضحك وحتى البكاء هل لك مانع أم عندك ما تضيف ؟
أسرع المتهم بالقول:

- نعم سيدي القاضي أنا ما فعلت ذلك إلا بنية لفت جنابكم إلى هذا الوضع المتردي وغير العادي المنتشر في البلاد ألم تلاحظوا سيدي القاضي كيف أن احترام الغير وتقدير الآخر والأثرية والغيرية انتفت من الساحة وكيف حلت محلها الوقاحة وصحة العين. لقد كانت تتي حسن كما تعلمون هل كان يجب أن ينتصب أحدهم بهذه الآلات المتقنية لذبذبات الصوت حتى يضطر من يقضي نحبه على بعد سبعين ألف ميل أن يتجرع الفرحه والبهجة بالرغم منه؟
تدخلت السيدة روزان قائلة :

- يستحسن أن يرحل الإنسان يوم موته وهو يزن أو يدندن أو يصفروا يزمرحتى تتحول أوجاعه إلى مواويل وأنين وآهات.
اغتنم المتهم تدخل المستشار المشجع وقال:

- هكذا انتشر التعسف الموسيقي في كل مكان وفي ساعات محددة يبدأ جميع الموسيقيين في نفس الوقت التنبش على حبال آلاتهم الصوتية ولطم جلود أدوات الإيقاع المختلفة ويستعينون أحيانا بضرب أرجلهم على الإسفلت ومنهم من يتسلح بأصوات جماعة من المرددين المنشدين ويدؤون معهم في التهريج وقد إلتفت أجسادهم بالبسة ضيقة صنعت من الجلد الجيد الشفاف أو الصوف المهوئ لتبرز مؤخراتهم الناتئة وبطنهم التي تشبه القرع في أوج نموه. تدخل القاضي فجأة قال:

- أي...وه... أي...وه... ماذا قلت أي...وه... أنا لم أسمعك أي...وه... لم أعد أسمع قطعاً... أي...وه... أي...وه...

- سيدي القاضي أنا على يقين من أن هذا التهريج كان السبب في صممك.

ضحك الحاضرون ضحكة مفضوحة.

قال القاضي في دهشة:

- أي وه لماذا كثر الإلتواء واعوجّت الأجسام في صمت أي...وه ... ولما كلّ هذا الصّمت القاتل؟

قال الكاتب الموثّق وهو يخفي قارورة حليب البخلاء التي كانت تندرج بين قدمي القاضي وقد حرص أن لا يراها أو يراه أحد:

- يظهر أنّ سيّدي القاضي أصبح أصمّا.

لم يبه الكاتب الموثّق كلامه حتّى سقط القاضي في إغماء شديدة خيّم إثرها السّكوت على الجميع وجاء رجال الإسعاف ونساء الإنقاذ وجاءت النّجدة ورجال الطوّاري والمطافئ وفرق التدخّل السّريع وجماعة مقاومة الاجرام وعسكر التصدّي والدّرك السّريع والحرس الاستعجاليّ وطواقم الانتشال وقوافل المتطوّعين وجاء معهم المتطّبّون والمشعوذون والفضوليون والسّحرة والكهنة وتدخل المتطفّلون ولم يستطع أحد أن ينقذ القاضي من الموت



الكاهنة

الفصل الثّاني

قال الراوي:

- وقف المتهم وقدم نفسه للجناب تقدبها جافاً. كان كلامه يتأرجح بين الصرامة واللزاجة أما نطقه فقد بدأ للقاضي غوغائياً في معظمه لم يستطع فهمه فصاح من شدة الغيظ

- أي وه قلت أيها المتهم الوقح أعد تقديم نفسك بأفصح من هذا ونصحك بأن لا تزيد أو تنقص وقبل ذلك نأمرك بالانحناء فإن لم تفعل فأنت حرّ بالنسبة التي نقبلها منك ولن نقبل أكثر أو أقل.

- أفهم من ذلك سيدي القاضي أنكم تطلبون مني أن أتوسل إليكم بأن تحدّدوا لي نسبة الحرّية التي تمنحونها لي.

- نحن لا نرى مانعاً أي وه ما دمت قد منحت نفسك تقرير مصيرك بالنسبة التي نريد المتهم أن نقبل نحن ذلك.

سكت المتهم ليعطي لنفسه الفرصة للتفكير وسكت جناب القاضي الموقر برهة من الزّمن ليتمكن من تهية السؤال الموالي وسكت كذلك الحاضرون دون أن يعرفوا لماذا فعلوا ذلك لكنّ سموّ جناب السّيد القاضي المحترم جدّاً كان مستعدّاً أتمّ الاستعداد للضرب بقوة القانون على سندان طاولة جناب المحكمة الوقرة فرضا لهيبة الدّولة المصنوع لذلك سلّط على مكتبه ضربة صارمة للتنبية والرّدع في صورة عدم الإصغاء لما يعترزم أن يقول:

- أي وه أي وه أي وه أي وناش

وخشي القاضي أن يفهم النّاس أنّه ما زال يبحث عن سؤال لذلك أردف القول:

- أي وه إذن قلنا ماذا قلنا لقد تذكّرت... ابداً بتقديم اسمك للجناب.

- اسمي سيفاكس.

- أي وه قلت أي وه من أي فصيلة أنت يا حيوان.
- أنا من الحيوانات الادمية
- كفى استهتارا كلنا من فصيلة الحيوانات الادمية أم تنوي الوصول بنا إلى جذورنا الأولى.
- قال القاضي ذلك وهو يشعر بنشوة الاكتشاف بل كاد يأخذه الغرور في أول الأمر ثم تراجع لكنه اقتنع فيها بعد بما توصل إليه من ذكاء حاد لم يخطر على باله قط فتبسم مؤكدا:
- أي وه أي وه كلنا أبناء آدم وحواء. أليس كذلك سيدي الرئيس المساعد
- انتفض الرئيس المساعد من الخوف وأجاب على الفور:
- لا شك في ذلك سيدي الرئيس. اسمي
- أي وه أنا لم أطلب منك اسمك أنت أيها الرئيس المساعد.
- أي وه ساحني سيدي القاضي الحق أنك فاجأتني كيف استطعت أن تتعرف على اسم جدّي الأول وجدّي الأولى هذا رائع أنت ألمعي سيدي القاضي.
- زاد القاضي في الانبهار بنفسه وكاد يؤمن إيمانا راسخا أنه الأذكي لو لم يكتشف فجأة حضور زوجته المصون التي جلست في ركن خاص شحب الضوء فيه لكنه لم يستطع إخفاء مفاتها المعروضة للجميع. نظرت إليه بحدة فاضطر إلى مراجعة جلسته وصقل صوته من جديد ليقول في كثير من الاتزان المعشوش:
- أي وه اسمك سي فاكس لماذا تصرّ على تسييد نفسك إذن أنت اسمك فاكس؟
- لم أسيد نفسي سيدي القاضي اسمي سيفاكس.
- سيفاكس أي وه ومن سيدك إذن؟
- ولدت سيّدا.
- أي وه أعلم ذلك أنا لم أأتك. كل ما في الأمر أنني أردت أن يتعرف عليك القضاة بأكبر

قدر ممكن.

- نعم سيّدي القاضي اسمي الجنرال سيفاكس.

- دعنا من الألقاب العسكرية أيّ وه الآن نريد صفتك المدنية.

- لكنني جنرال وقائد القوّات المناهضة للأميرك ماسينيسا وملك كذلك.

- أيّ وه لقد نالنا شرف مثول السيّد الموقّر ماسينيسا أمام محكمتنا وقد أحسنّا استقباله وترك ذلك لديه انطبعا طيبا علينا يا من تريد الدخول بين الاصبع والظفر قل ما تريد أمّا نحن فسوف لا نسمع إلّا ما نريد. أيّها الكاتب امسح لفظ الجنرال وعوّض قائد القوات المناهضة بقائد العصابات المتمرّدة وأضف إليها تفسيرها الصّحيح.

رفع الكاتب قلمه وقال:

- سمعا وطاعة سيّدي القاضي وما تفسيرها الصّحيح؟

- العصابات الإرهابيّة...

انتفض سيفاكس انتفاضة المكهرب وصاح قائلا:

- لكن سيّدي القاضي لست إرهابيّاً.

- هذا صحيح بمفهومك أنت أمّا نحن فلسنا ملزمين أن نفهم الأمور بقاموسك أنت.

- وهل أنا ملزم بفهم الأمور بقاموسكم أنتم؟

- قلت لك أيّ وه منذ البدء أنك حرّ أيّ وه ومن أهمّ مظاهر حرّيتك أن تتخذ قاموسنا مرجعا لك حتّى نفهمك أليس من الأنسب أن نخاطب القوم بما يفهمون أمّا فيما يتعلّق بعلاقتك بنا فأنت الآن بين أيدينا والمنطق يقول بأننا أحرار في عدم فهم الأمور المتداولة بيننا بقاموسك أنت وجماعاتك الإرهابيّة.

- لكن أنا لست إرهابيّاً.

- أي وه سنرى ذلك أثناء التحقيق لا يهم هناك سؤال أهم.
- وما هو سيدي الرئيس
- هل ما زلت مصرّا أي وه على تقديم نفسك بأنك القائد
- أنا لا أنفي ذلك فأنا قائد منذ مدّة طويلة وجنرال أيضا.
- أي وه سوف لا ننكر عنك ذلك ونستنتج من اعترافك هذا أنّك قائد الإرهابيين وبها أنّك جنرال فأنت الرأس المدبّر بينهم.
- لا سيدي القاضي أنا انسان عادي
- الارهابي ليس انسانا ولا يجوز تمتيعه بحقوق الانسان التي ينكرها على غيره
- ثم التفت القاضي الى جماهير الحاضرين في القاعة والتي اشرأت أعناقهم اليه وتسمرت عيونهم فيه قال بكل ثقة
- أي وه أي وه سمّوه ما شئتم الآن تتهموه بالانسانية لماذا يصرّ اذن على تمتيعه بها ينكره على غيره أي وه له حقّ واحد حقّ الاستنطاق والاعتراف بكلّ الوسائل المتاحة للغرض ويدخل تمتيعه بالأكل والشرب في هذا الاطار الى حين محاكمته وبعد ذلك سأساعده أي وه على الموتة الشنيعة ليزوق العذاب الذي سلّطه على غيره وليكن ذلك العذاب شديدا قبل الموت ذلك شرعنا ألم نخلق جهنّم وبئس المصير للمذنبين الذين استكبروا وعاثوا في الأرض فسادا وقد استخلفت الالهة القاضي في الأرض ليعذب كلّ من أجرم في حقّ الانسانية أمثال هؤلاء المجرمين بالحجّة والدليل والبراهين تدينهم وهم يعترفون بجرائمهم بل يتباهون بارتكابها وكلّ من يبرّر أفعالهم أي وه أو يشفق عليهم أو يتفهمهم أو يبحث عن أعذار لهم مجرم في حقّ الانسان والانسانية بل يعتبر أكثر منهم خطورة لأنّ له مزيد من الوقت والامكانيات للاحاق الضّرر بنا جميعا أي وه حدّثونا عن حقوق الانسان الذي يحترم الانسانية ويقدّس الحياة البشريّة ويكرّس كلّ جهوده من أجل رعايتها وصون حقوقها أي وه أمّا اللذين استهتروا بها ودرّبوا ودرّبوا على الاستخفاف بها فلا يستحقّون منّا الصّفح والعفو والرّحمة ولاحقّ لهم في الغفران أليس كذلك أيها الكاتب الموقّ

يا من ما زلت تسبح في سمائك

أجاب الكاتب الموثق بشيء من التلعثم والخوف الشديد

- أي وه وألف أي وه نعم سيدي القاضي المحترم عفوا يا أيها الجناب.

قاطعته القاضي قائلا دون أن ييدي أي أكثرا بصاحبه

- أي وه أي وه سجّل أيها الكاتب الموثق أنّ السيد المحترم الفاضل سيفاكس والذي كان قبل اعتقاله ملكا يعترف أمام الجميع وبمحض إرادته وبدون أي ضغط منا عليه أنّه لا ينفي البتّة قيادته لهذه الجماعات الإرهابيّة فقد كان يقول بعظم لسانه ومنذ قليل : أنا لا أنفي ذلك.

- مستحيل أنا لم أقل أبدا وقطعا "أنا لا أنفي ذلك".

- أي وه لقد كنت تقول أنا لا أنفي ذلك ثمّ بقطع النظر عمّا تقول وما لا تقول نحن نعلم أنّك بليغ وأنّه من البلاغة أن لا تنطق بكلّ ما تريد أن تقوله وأنّ ما قلته يفهم منه بالسياق أنّك لا تنفي ذلك بالفعل وكلّ ما فعلناه هو أنّنا استدرجناك لنستنتج ما أردت أن تقول وبحضورك في انتظار أي وه أن تقوله وقد قلته. واعلم أن هذا الأسلوب يعتبر أي وه من أرقى أساليب جرّ المتهمين الى الاعتراف بجرائمهم ولدينا أساليب أكثر شدّة ونجاعة لسلخ المعلومات الهامّة من المجرمين المحترفين اعتبر نفسك محضوا باعتبارك وقفت أمام أكبر المحقّقين في دنيا القضاء وقد رضينا أن نقدّم لك عصارة تجاربنا الحقوقيّة ونضعها على ذمتك سجّل أيها الكاتب الموثق الاستنتاج الذي توصل اليه تحليلي وركّز على درجة الكفاءة التي أنا بصدد بذلها لفائدة حسن سير المحاكمات والعدالة بصفة عامّة

قاطعته المتهم قائلا

- قلت لم أقل أليس كذلك أم أنت عفوا أنا أطرش

- صحيح أي وه ولكن سكنت قليلا ثم اعترفت أنّك أي وه لا تنفي ذلك على كلّ اعتقد أنّ الأمر أقلّ من أن تتوقف عنده إذا قارنناه بما هو أكثر تأكّدا.

- أيّ أمر أكثر تأكّداً من أن يدّعي أنني اعترفت بها لم أقم به.

- نحن لم ندّع باطلاً كلّ ما نقوله يعتمد على مستندات وقرائن أيّ وه لا تقبل التّفنيد أو الطّعن أو المراجعة أمّا ما هو أهمّ هي هذه الأخبار التي تروّج الآن أيّ وه حول انتباءاتك العائليّة هل ستنكر حتّى انتباءاتك العائليّة ؟

- لا بالطّبع وماذا تريدون معرفته.

- ما هي أيّ وه علاقتك بصدر بعل الذي كان بصدد تحيّتنا منذ زمن قصير ؟

- هو والد زوجتي صوفونيسب.

- سجّل أيّ وه هذا التصريح المهمّ أيّ وه أيها الكاتب الموثّق.

تظاهر الكاتب الموثّق السيّد ليلبوس بتسجيل الأمر.

لم يكن السيّد ليلبوس كاتباً بالمعنى الصّحيح لقد كان في واقع الأمر إسكافيّاً يصنع النّعال من الحلفاء ويبيعها بالخسارة أو يهدّيها ويضرب بها كلّ من يرفض الهدية حتّى اكتسب سمعة ومحبّة بين النّاس إلى أن عين حارساً ثمّ خادماً بسيطاً لدى ماسينيسا الذي عينه حارساً لدى شبيون وجيء به إلى الرّبوع في تربّص للتعريف به وانتخبوه كاتباً في محكمة الشّعب ربّما لأنّه كان يحسن كتابة وقراءة أغلب الحروف الهجائيّة وله بعض المبادئ في العدّد لذلك لم ير القاضي مانعا من أن يكون موثّق الجلسة أضف إلى ذلك أنّه كان أطول الحاضرين في القاعة وقد مكّنه طوله هذا من الإشراف على سير الأمور بيسر وله بالخصوص ضغائن قديمة مع زوجة المتّهم وأكثر ما اشتهر به حبّه للرّاحة والاستجمام فكثيراً ما كان ينام أثناء الجلسات ثمّ يستيقظ مذعوراً ويقع فيه ما يقع من ارتجاعات واهتزازات وانتفاضات وارتدادات ويصفّر وجهه وتحمّض عيناه وقيل أنّ لسانه يخرج أحيانا من مكانه ويطول يطول ويلتوي على رقبته حتّى يكاد يخنقه.

هذه المرّة بمجرّد أن سمع السيّد ليلبوس القاضي يدعوه للتّوثيق حتّى انتفض فجأة بعد أن تشاءب بصوت مسموع ومفزع ثمّ تكسّل وتمطّط وقفز من مكانه. لقد تذكّر أنّه لم يتناول لمجته. ترائ له أنّ الوقت قد حان لذلك أسرع إلى فتح جرابه الصّوفيّ على مصراعيه وأخرج منه قطعة

خبز مطبقة تنضح شحما مذابا وشرع في الأكل ثم التفت نحو المتهم وهو يقول:

- لا شك أنك في حاجة لشيء ما.

- لا سيدي الكاتب عفوا نعم.

تدخل القاضي:

- أي وه أرجو منك التثبت في ما تريد أن تقول

- أفصد نعم لا.

- أي وه لقد أصبحت تخرم.

تدخل المدعي العام قائلا:

- ربما يريد أن يوهم جناب المحكمة الموقرة بأنه مخبول.

فأجاب المتهم بسرعة.

- بالعكس لست مجنونا لقد جرّبت الجنون ولم أفلح حتى تيقنت أنني عاجز بالفعل على فقدان عقلي ولن أتمتع بهذه النعمة أبدا وكلّ ما أردت أن أقول لجنابكم سيدي القاضي وللکاتب المحترم أنني قصدت التأكيد على النفي بإثباته ولا يكون الإثبات إلا بنعم .

وكأن الكاتب الموقر أراد أن يختصر المسألة ويبيّن أنّه هو الآخر في هذه القاعة رجل مهمّ بل لا يقلّ أهميّة عن القاضي وبطانته. فقال متوجّها للمتهم:

- هل تريد أن تشرب من هذا ؟

قال ذلك وأخرج من تحت عباءته قارورة سمّ أبيض اللون استخرجه من العقارب السوداء المستوردة من صحراء الربع الخالي.

أجاب سيفاكس بصوت لم يسمعه الآ هو:

- نعم لا أرى مانعا أنا عطش بالفعل وأحتاج إلى الراحة منك ومن غيرك وإني أفضل جرعة

من ذلك على أن أرى وجهك.

ثم أضاف بينه وبين نفسه قائلاً

- أيها اللعين...

التفت الكاتب الموثق نحو القاضي وقال:

- سيدي القاضي هل تسمح بأن أمدّه بالأكل والشرب.

انتفض القاضي قائلاً:

- ناولني ذلك فأنا أكثر جوعاً منه.

أخذ ليلبوس قطعة خبز كبيرة عائمة في الشحم المذاب والمّلون برضخ الفلفل الأحمر المرصع بحبوب الزّيتون السوداء والخضراء والبنفسجيّة المتتقاة من أفخر أشجار الزّيتون في البلد وأهدى منها للسيد القاضي المحترم ولم يمتنع هذا الأخير بل أضاف بعد أن تأكد من الحصول عليها وشرع في أكلها ولحس ما فاض منها من زيوت وبقايا قديد

- شكراً سيّد ليلبوس رغم أنّي أكلت تمراً قبل أن أجيء إلى هنا لكن بهذا الخبز والزّيت سأعطش ناولني لبناً من قارورتك تلك.

ارتبك الكاتب الموثق وقال:

- أنّه عفوا ليس لبناً.. هو حليب.. لا ليس حليباً.. أقصد ليس حليب...

- حليب معز أيّ وه أنا أحبّ المعز وحليب المعز.

- لا بل حليب...

- نعاج... ليس لي عداوة مع النّعاج أيّ وه ولا حتّى مع البقر.

- لا يا سيدي القاضي بل هو حليب...

- أيّ وه حليبك أنت إذن دعني من حليبك أنت أيها البخيل أنا أكره البخل والبخلاء وأكره

كذلك حليب البخلاء.

أجاب الكاتب الموتى وهو يرتعد من الخوف:

- صحيح أنا بخيل لكن أعدك سيدي القاضي أن أنتحى شيئاً فشيئاً عن البخل إنه قاتل أقصد الحليب عفوا البخل ساحني سيدي القاضي أدخلني هذا الشقيّ بعضي.

وكان يشير باصبعه الى سيفاكس

أجابه القاضي :

- أي وه تريد أن أسامحك أعط قليلا من اللين لسيفاكس أيها البخيل.

- بكل سرور سيدي القاضي.

أسرع المتهم بالإجابة:

- أنا لست جوعانا ولا عطشا ولا أحب أن أكل الخبز الآن ولا رغبة لي في لبن هذا البخيل سيدي القاضي.

جذب القاضي طرف ردائه الفضفاض الرماديّ الدّاكن بعصيّة واهمرّ وجهه من شدّة الغضب حتّى تحوّل إلى زرقه وصاح مزبدا مرعدا في وجه المتهم:

- أتجرأ على رفض نعمة الآلهة أي وه وإنكار نتيجة مجهودات مضيّة تخضّبت بعرق جبين الكادحين واختلطت بتعب المزارعين والفلاحين الذين تكبدوا المشاق في الحريف لزرع الحبّ وعملوا كامل الشتاء في البرد القارس للاعتناء بزرعهم وتفقدوا حراسته وخصّصوا الربيع لتنقية الحشائش الطفليّة منه وكسوا جهودهم أي وه من أجل تهيئة الحصاد وما بذلوه من مجهودات لتنقية القمح في الصيف وطحن الحبّ كيف تنتكر هذه السهولة وهذا الاستخفاف للذين حوّلوا تلك النعم إلى عجبن ثمّ إلى خبز؟ والذين جنوا الزيتون والذين عصروه وحوّلوه إلى زيت والذين رعوا الماشية وهيئوا لحومها للأكل أنكره كلّ هؤلاء الكادحين أنكره الفلاحين والعمّال لهذه الدرجة؟ ألا تعترف بكذّ يمينهم؟ أتستخفّ بمجهوداتهم؟ أنت إذا معارض لجميع الكادحين

في بلادنا.

ولم يكنف بذلك بل استطرد قائلا في حق شديد لم يره فيه أحد من قبل ولم يصب به غيره في تاريخ رؤساء المحاكم منذ انبعث هذه المؤسسات العريقة في القدم حتى التي لم تكن تلتئم إلا بحاكم واحد يضل هو الفاتق الناطق:

- إن هذا المتهم كالعديد من متهمي هذا البلد السابقين وحتى اللاحقين مارق عن الأديان كلها وعن جميع التواميس وجل الطقوس وأغلب التقاليد ونسبة كبيرة من

العادات أي...وهو وكافر بكل الآلهة بل متكبر عنها وخارج عن المعهود ومخالف للمتعارف أي وه وهو كذلك معارض وبالأخص مجاهر في معارضته سجل ذلك أيها الكاتب الموثق قبل أن أجنّ أو أكل مقعدي هذا.

خشي المتهم على نفسه من أن يزيد القاضي في إثقال ملفه بإضافة تهم الدنيا وجرائم الناس قاطبة منذ أن بعث آدم وحواء للوجود بل خاف أن يثقل كذلك بتهم أخرى كتحريض هابيل على قتل أخيه قابيل وربما تامر مع هابيل من أجل قتل باقي اخوته وأهله وربما أصبح هو نفسه القاتل الحقيقي. وربما وجهت له جرائم من سيأتي بعده من كبار محترفي الفساد وعباقة المزلقطين في الأرض والسءاء من أمثال سنده شمهوروش وقوافل الجن الأزرق والأحمر والأصفر كذلك.

حدّق المتهم في لسان دفاعه كأنه يستحثه للتدخل العاجل والمباشر والسريع والناجع لكنّ هذا الأخير تلهّى بمغازلة إحدى المستشارات الجميلات اللواتي جيء بهنّ للغرض. ولما ينس سيفاكس من الاستنجاد بمحاميه في هذه الظروف الصعبة قرّر التدخل بنفسه لكنّه نسي سبب تدخله من شدة الغيظ وتلهّى في قضم ما نتأ من أطافر أصابع يده اليمنى ثمّ يده اليسرى بدءاً من الخنصر ثمّ البنصر ثمّ الوسطى ثمّ السبابة إلى أن وصل إلى الإبهام ولما رآه المدعي العام على تلك الحال أشفق عليه ورقّ قلبه وبكى خلسة وكاد يطالب بإطلاق سراحه لولا أن تذكر أنّ الكلمة الأولى والأخيرة ترجع لساحة السيّد القاضي الفاضل رئيس محكمة الشعب المحترم وضلّ يقنع نفسه بأنّه يقصد أنّ الاحترام راجع بالأساس لرئيس المحكمة لا للشعب خوفاً من هذا الأخير وكان على يقين أنّ الكلمة الأخيرة لن تأتي للقاضي إلاّ بوحى من السءاء التي لا نراها نحن ولكن

جناب القاضي يراها ويسمعها ويتواصل معها ليلا نهارا بل ربّما هو الآن بصدد الاستفادة من وحيتها وتعاليمها السّماوية السّمحاء. فعلا لقد جاءه أخيرا وحي متعلّق بالمتّهم يقول إنّهُ لم يعد متّهما فحسب بل مجرما بأنّهُ معنى الكلمة هذا ما تؤكّده الوثائق الكثيرة الّتي وضعت بحوزة ساحة القاضي ولم يرخص له في وضعها بحوزة المتّهم أو لسان دفاعه. وقبل أن يتورّط لسان الدفاع في أي أمر التفت القاضي إلى المتّهم المجرم وقال:

- أي وه لسان دفاعك ينبغي أن يتذكّر قبل أن تساوره أيّ نيّة وقبل أن ييدي أيّ حراك أنّنا نحن الّذين عيّناه وأن مرّته ومستحقّاته في الأتعاب ستتولّى نحن تسديدها بسبب أنّنا صادرنا أملاكك قبل أن نحيلك على المحكمة وبما أنّنا أي وه نعلم أنّك الان فقير معدم وعاجز عن تسديد مستحقّات محاميك أو أيّ مستحقّات أخرى أو مصاريف فإنّ عدالتنا العادلة قرّرت أن تقف الى جانبك رغبة منها في أن تنال قصب السّبق في مجال النّظم المعترفة بحقوق الانسان رغم أنّني شخصيّا يصعب عليّ أن أدركك في قائمة المخلوقات الانسانيّة ومع ذلك فقد وافقت على خلاص محاميك بعد الانتهاء من محاكمتك.

ثمّ أضاف:

- أي وه والفاهم يفهم. أي وه

طأطأ لسان الدّفاع رأسه وواصل في السّكوت بل حاول أن يظهر في مظهر الصّغير جدّا حتّى لا يراه أحد من الحاضرين بالخصوص حفاظا على قليل ممّا تبقى من ماء وجهه. عند ذلك وجد سيفاكس نفسه مجبرا على الردّ قبل أن يجرفه تيّار الظّلم ويغرقه طوفان الاستبداد والصّلف ويزداد إحكام حبل المشقّة على عنقه فانتفض قائلا دون تردّد أو انتظار:

- لكن سيّدي القاضي أنا...

- أي. وه أسكت قلنا إذن السيّد سيفاكس أنت ملك مخلوع ربّما لأنّك ولدت أي وه في يوم من أيّام النّحس هل اخترت يوم ولادتك.

- لا سيّدي القاضي.

- أي وه لذلك ضلّ طالعك نحسا. ولو ولدت مكاني لكان طالعك مباركا سعيدا ولكنك أنت اليوم من هذا المنبر تحكم على الناس "ما أحلاها فيك".

واستطرد القاضي يقول:

- علمنا أي وه من بين ما علمنا أنك كنت إسكافيا

- إسكافي؟

- عفوا ليس أنت بل كاتبنا الموثّق على ذكر الكاتب والطّالع أي وه لماذا لم تلد مكان ليلوس ولو فعلت لكنت الآن على الأقل كاتبا مكانه ولأرحتنا من خلقته البشعة لقد قيل لي أنّك أكثر منه ثقافة وعِلما.

- سيّدي القاضي سأعمل بنصائحك الغالية لو قبلت أُمّي التوقّف عن اعتبار نفسها في تعداد الموتى ورجعت للحياة سأقنعها بالتّطوّع لاعادة ولادتي من جديد.

- السيّد المدّعي العام أي وه ذكره من فضلك بسلسلة التّهم المتعلّقة به.

فرح المدّعي العام وفرك يديه من شدّة الغبطة والبهجة وقال مبتسما مهللا:

- نعم سيّدي القاضي بكلّ سرور

التفت المدّعي العام نحو المتّهم وكأنّه نمر يريد أن ينقضّ على فريسته المستضعفة وكشّر على أنيابه وصاح في وجه سيفاكس:

- السيّد سيفاكس أنت متّهم لدينا بارتكاب المخالفات التالية: أوّلا وبحكم هنجعيّتك وطبعك المتصلّب لقد انتهكت حرّية الغير وتصرّفت بكلّ أنانيّة واستعملت قرع الطّبول والنقمة على الدرابك والبنادير والرقوق وبعض الات الايقاع القديمة والجديدة والمحلية والمستوردة في كامل اللّيل لأغراض شخصيّة بحتة بمناسبة ليلة زفافك الأوّل وتحديت بذلك فصول القانون المعمول به في بلادنا. صحيح أنّك تسلمت ترخيصا يسمح لك - مثل غيرك تماما - بإقامة حفل ساهر وصحيح أنّك دفعت المعلوم المحدّد والمتخلّد بذمتك لكنك سمحت لنفسك شيئا من

التَّجَاوَز باستعمال الطَّبُول وأرفعها صوتا وبها أَنَّكَ قائد كبير استغلَّيت مركزك ونفوذك لتستجلب عددا مهولا من هذه الآلات الجهنمية لاستنفار أكبر عدد من النَّاس واستعمالهم في مآربك الخاصَّة ومصالحك الفرديَّة البحتة. هذه التَّهمة رقم واحد أما التَّهمة رقم اثنين فقد فرَّشت وغطَّت الاتهام الأوَّل وهي التي ارتكبتها في سوق العقول.

أجاب المتهَّم بسرعة متسائلة:

- في سوق العقول ؟

وقد وافق تساؤله تساؤل جناب القاضي الذي اهتزَّ وهو يصيح

- في سوق العقول...

ثم أضاف

- أتباع الأسواق في العقول عفوا أتباع العقول في الأسواق؟

همَّ المدَّعي العام بالصَّحْك ولسان حاله يقول

- حبَّست الآلهة علينا عقولنا ومتَّعتنا بها كاملة مجَّانا وبلا مقابل.

ثم استدرك قائلا بصوت جهوري متناسك

- أجبنا عن التَّهمة الأولى قبل كلِّ شيء والمتعلِّقة بالطَّبُول.

- بالنَّسبة للطَّبُول لقد كان ذلك منذ عشرين سنة خلت.

- لا يهمَّ الزَّمن ما دامت المخالفة وقعت.

- لقد فعل ما يفعله كلُّ النَّاس وهذا نوع من التقليد الأعمى الذي لا يليق بقائد مثله.

هكذا تدخَّل أحد المستشارين وكان ينوي مساعدة المدَّعي العام على مزيد إغراق المتهَّم وربَّما التَّشهير بجرائمه.

أجاب القاضي على الفور:

- أي وه وما يعينيك أنت أصمت وإلاّ حبستك.

ثمّ توجّه نحو المتهّم مستفسراً:

- ألم تضع تلك الالات كلها على سطح دارك؟

- نعم لقد أمرت بوضعها بالمكان الذي يقف فيه عادة الريح وهو الشخص الذي يتولّى الإعلان عن أمر هام وتلّهيت أنا بمهام أخرى أكثر إلحاحاً وتأكّداً.

- أي وه سجّل يا ليلوس أنّ المتهّم اعتبر الاستنفار مسألة شخصيّة رغم أنّها في الأصل تابعة لاستراتيجية الحرب العموميّة أليست الحرب عموميّة لا شخصيّة. ألم تكن في قصر الحكم؟

- لكن سيّدي القاضي ذلك لأنّ داري لم تكن داري بل كانت أحد القصور العموميّة وكانت أعلى مبنى يطلّ على المدينة.

- أي وه ما دمت أنت ساكن في القصر فالقانون يقول المحل لصاحبه لا لسكانه إذن فالمكان ليس شخصياً ولا خاصاً بك وبك وحدك ولا دخل للعموم فيه. والاستنفار من محلّ بهذه الموصفات جريمة فإنّك تخلط بين ما هو خاصّ بك وبين ما يهمّ البلاد. وفوق ذلك كلّ وتحتة أنت أيقظت الطامّة والعامة وشوّشت على المرضى والشيوخ والنساء والديكة النائمة والدجاج وسائر الطيور وجميع أنواع الحشرات.

ثم أضاف قائلاً:

- والتقرير لدينا أي وه يؤكّد ذلك بل يؤكّد كذلك أنّ الألحان المعزوفة كانت مزعجة والسؤال الذي يتبادر للذهن من أوّل وهلة في مثل هذه الحال هو: كيف عنّ لك أن تختار هذه الألحان بالذات بدون تأشيرة قبول. لماذا لم تستعن بالتراث الذي يزرّ بالأنغام الجاهزة المتنوعة والغزيرة والتي لا تنتظر إلاّ البثّ. وهنا لسائل أن يسأل: لماذا لم تتح فصح المجال للموسقيين والمبدعين؟ لماذا يا ترى لم تشجّع على رواج آلات موسيقيّة أخرى غير الطبول لماذا غضضت النظر على آلات الإيقاع الأخرى كالرباب والذفّ والطار والدربوكة والتغارات والزفلامات والتي تدرب المواطنون على استعمال الكفّين وتبيّوهم للتصفيق ثمّ لماذا لم تفكّر بالأخصّ في ترويح

القيثارة والنّاي والكلارينات والطّرنبطة وذي القرنين المسّاة عندنا بالقرنيطة والمزمار والزّمارّة والقصبّة والتّفيحّة والزّميرة والزّرنّة والمزود والزّكرة والزّفّ وغيرها من آلات التّفنّح وبذلك تمكّن أبناء وطنك من اتّساع صدورهم عوض انقباضها المجحف والذي يعطل سير أمورنا ويجعلنا نضطرّ إلي إيصال أوامرنا لهم بالقمع بفتح القاف والميم والقمع بفتح القاف وضم الميم ونلتجئ لما نكره من أساليب عنيفة هم بدورهم يكرهونها. أي...وه ...

توقّف القاضي قليلا عن الكلام وكأنّه يريد أن يبلغ ريقه ويتنفّس وبمجرّد أن فعل ذلك تابع القول بنفس الحماس ونفس الحيويّة:

- لماذا أي وه لم تمكّنهم من التّجّاح والشّهرة وذياح الصّيت على يديك وأنت سيّد العارفين بظروفهم الصّعبة وحاجّياتهم الملحّة وما يعانونه من فقر وخصاصة؟ لماذا لم تمنحهم فرصة كسب قوتهم على يديك وبواسطتك لماذا لم تمنح لنجوم الغد وجماعة طريق النجوم وطاقم نجوم في الأفق ونجوم في العلالي وبرنامج أصوات واعدة وبرنامج مصعد الشهرة والبراعم المتفتّحة ومواهب على السلم وسلّم المواهب وبراعم تتفتّح والفنّانين الواعدين ونجوم المستقبل وستار أكاديمي وذي فويس وايدول ستار ونجوم في المدار واليوم صغار وغدا كبار وجماعة المستقبل الواعد وغيرهم فرصة الغناء على سطح دارك لماذا أغلقت باب الرّزق أمامهم جميعا؟ ثمّ وفي سياق آخر هل بإمكانك الآن أن تصارحنا لماذا لم تختّر من مجموع المقامات إلّا قليلا من الأسطنبالي وشيثا يسيرا من البونوّارة وذرة من البورجيلة وأقل من وقية من البوحلة والفزّاني المرتاح وحتّى الفزّاني الذي لا يعرف الرّاحة والاستجمام في استنفارك؟ أي وه

أجاب المتّهم بهدوء وانّزان:

- نعم سيّدي القاضي ليس لديّ ما أخفيه الآن وقد وقع ما وقع. ودخلت الفأس في الرّأس.

- أي وه تكلم بوضوح الرّأس نعرفه ولكن ما الفأس؟

- الفأس سيّدي الرّأس عفوا سيّدي الرّئيس كناية عن المصائب المحدّقة بنا.

- أي وه تقصد المصائب المحدّقة بك وبك وحدك من جرّاء ما تجلبه لنفسك من همّ وغمّ لو

بقيت رجلاً عادياً لما وقع لك ما وقع.

- لكن أنا لم أفعل شيئاً أكثر من القيام بواجبي ومع ذلك فسأعترف بكل شيء سيدي القاضي...

- تكلم لأول مرة أحسن أنا أي...وه على اتفاق تام.

واصل المتهم كلامه قائلاً بشيء من الثقة في النفس وكثير من الاعتزاز.

- إذا كان الكذب ينجي فإن الصدق أنجي وأنجي لقد أمرت بقرع الطبول دون أن أفكر في القطع المعزوفة بل لم أكن أهتم بذلك سيدي الجناب نهيق أو نغاء أو نعيق أو عواء أو صهيل أو مواء أو هديل أو نباح أو عويل كل ذلك كان عندي متساوياً. المهم التبريح.

- أي وه وما التبريح؟

- التبريح هو المناداة في الناس ألا يستحق العرس الشهير به؟

- لكن زوجتك صوفونيسب أي وه كانت فتاة لماذا لم تساعدك على انتقاء أعذب الألحان؟

- لم تكن زوجتي آنذاك. وربما لم تكن موجودة أقصد مولودة.

تجاوز القاضي ذلك ثم واصل.

- أي وه وعوض الاستنفار بالطبل المهرج لماذا لم تدع الناس للبهجة والزقص والجور أم استخسرت عليهم ذلك شمانة فيهم ونكالة بهم وكرها لهم وانتقاماً منهم ثم لماذا لم تزيّن قرعك ببعض الأصوات الأخرى.

- أي الأصوات الأخرى؟

أجاب القاضي في الحين:

- أي وه طنين النحل عندما يخلق بالقرب من الزهور. وكذلك ضجيج العربات ذات العجلات الخشبية أو الحديدية قصدت إدخال بعض الحيوية على تأليفك الموسيقي.

عند الاستماع لذلك كثرت اللّجاجة فصاح القاضي قائلاً

- أي وه أي وه ما هذا الصّجيج ألا تعلمون أنّه باستطاعتي أن أسمع أخفت الأصوات بل كلّ الأصوات قبل أن تبدأ الأفواه في بثّها إن لم يصمت الحاضرون في القاعة فسأسمعهم ذلك اللّحن المزعج الذي استنفر به المتهم النّاس.

قال القاضي ذلك مباشرة بعد أن خيّم على القاعة صمت رهيب لم تعهده من قبل صمت ثقيل ثقيل إذ لم يعد يتكلّم أحد فيها ولم يضحك أحد بل لم يكن أحد في الإستماع البتّة وفي خضمّ هذا الصّمت القاتل والأمبالاة الصّارخة الباديّة على الوجوه اغتنم المتّهم فرصة هذا السّكون السّانح الذي قلّ ما يتوفّر له ولأمثاله في مثل هذه الظروف وشرع في توضيح وجهة نظره:

- أنا على يقين من أنّ تلك الأصوات كانت أرحم على النّاس من أصوات أخرى لأنّها كانت تلقائيّة وطبيعيّة ورغم أنّ دقّ الطّبول في حدّ ذاته كان أقلّ طبيعيّة من صوت المنادي ومع ذلك فقد كان الصوتان أقرب للواقع وأسلم من غيرها من الأصوات.

- عن أيّ سلامة تتحدّث وقد أدرجت فيما أدرجت صوت حمار؟.

صاح المتّهم من شدّة البغّة:

- حمار أبداً كيف ذلك.

- أي وه حمار؟ صوت حمار يا هذا حتّى الرّب الذي خلق الأحرّة كان يكره أصواتها. لماذا إذن لم تختّر عصفورا يقرقز مثلاً أو على الأقلّ قطاً يموء؟ تختار حماراً؟ غريب أمرك والأغرب أنّك تصرّ على إسراع صوت حمار هزيل مرهق بشهادة المختصّين في علوم الحيوانات الذين أفادوا جناب المحكمة المؤقّرة بذلك مشكورين. تصوّر صوت حمار هزيل متعب لم يبق له إلّا صوته وأصفت له أزيزاً مجهول الهوية أو بالأحرى قزيراً أجننت؟ لا أكيد أنّك جنتت جنوناً كبيراً فعلاً ألا تعلم أنّ حسابك يصبح أعسر لو نستطيع إثبات خبثك وسوء نيّتك الباديين على وجهك من أوّل وهلة.

- أنا لا يمكن أن أكذبك سيّدي القاضي على أنّني لست خبيثاً بالقدر الذي يبدو على وجهي

ويمكن سيّدي القاضي أن لا تصدّقوني لكن أقول لكم لقد تدخّل الحمار بمحض إرادته ولا مردّ لإرادة الأحمرة ولم يكن من المنتظر أن يفعل ما فعل في ذلك الوقت بالذات ومع ذلك ألا يعتبر صوت الحمار في حدّ ذاته موسيقى. كلّ شيء موسيقى يا سيّدي القاضي حتّى صوتك أنت موسيقى بل ربّما كانت بعض الأصوات المنبعثة من حناجر الأحمرة والدّئاب والبغال أهون بكثير من صوت المزامير والمزاود تلك الآلات اللّيلية المضخّمة جدّاً تصوّروا سيّدي القاضي المحترم لو زار كوكبنا رجل من المزيّخ أو الزّهرة أو جنّ من جنّة بطن الأرض لاهتزت فرائسها وقفلا هارين بدون رجعة من هول المزود المزعج ومزمار الزّكرة المخيف بل يحتمل أن يدوّنا في سجلّيهما أسوء الانطباعات عن الأرض وأهل الأرض جميعاً.

نزلت كل هذه الملاحظات في أذن الفراغ ولم يكن أحد يستمع لما قاله المتّهم ولا القاضي وحتى هذا الأخير فقد بدا عليه كعادته تجاهل لتدخّل المتّهم وحتّى لغيره.

انتاب سيفاكس هول مريع ولم يعرف ما أصابه في هذا المكان الفوضويّ الذي لم يره من قبل فهو لا يعرف منذ متى جاء إلى هنا ولا كيف وصل لهذا الفضاء الغريب. أجرّه الحلم أم سوء الطالع أم جنّ بالفعل ثمّ ما عسى أن يقع له بعد انتهاء هذه المحاكمة يا ترى؟

أنهى القاضي تجرّع قارورة الكاتب خلصة منه ومن الجميع وتجنّساً إثرها ثمّ صاح

- أي وه أيها الكاتب الموثّق ناولني السّيسي القصبيّ ألا يقول المثل الشّعبيّ السائد هذه الأيام عندنا "بعد الأكل والشّرب لا بدّ..."

قاطعته المستشارة السيدة روزان قائلة

- السبسي لا السيسي لا السّيسي

قال الراوي

- قلت في نفسي وأنا أستمع لحديثهم ما أقرب الأمس باليوم وكأنّ زلّات لسانهم يستلهم منها المستقبل أسماءه وأحداثه أمّا من قريب أو من بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بقصد أو بغير قصد وقبل أن أذهب لما أبعد أجاب الكاتب كما يجيب عادة في مثل هذه المواقف وفي غيرها:

- نعم سيدي القاضي

ثم استحثّ بدوره أحد العملة قائلا:

- أيها الخادم أين العرعر؟

أجاب الخادم وهو يجري نحوه وبيده صرة:

- حاضر سيدي الكاتب الموثق.

تلهمي القاضي في تعبير السبسي القصبي وهو يخاطب المتهم:

- أي وه قلنا إذن فتحت أبواب طبولك على مصراعيها وبأقوى ما يمكن وسمحت لقطيع من الذبذبات الصوتية من اقتحام الفضاء النقي وتلوينه وخرج الدفق المتتالي في شكل صاعقة دخلت من الأبواب والنوافذ المفتوحة وقد أفادنا المختصون في علم الأصوات أنّ نهيق حمارك المحترم عفوا المنخرم ولطمت أرجله عمّت المدينة والأحواز كذلك حتى وصلت إلى خارج حدود البلد بل تبع ذلك كله صوت بزاحك كما تقول لماذا تجرأت على ارتكاب هذه الحماقة الشنيعة نحن لا نشك لحظة في ثقافة زوجتك الموسيقية صوفونيسب بل لا نرى مانعا في مساعدتها لك من حين الآخر قبل زواجك منها وقد شهد مرة أخرى جميع المختصين في علوم التوزيع الصوتي بأنّ تعديلاتك وإيقاعاتك كانت أقرب للجيدة لكنّ المشكل تمثّل خاصّة في اختيارك للحمار والبرّاح معا. فالحمار بالخصوص قد أزعج المدينة والقرى المجاورة وكامل المقاطعة حتى وصل الإزعاج خارج حدودنا الآمنة فأخطرت البلاد المجاورة حرسنا بالأمر بسرعة فائقة وبعد يوم حطّت الحرب أوزارها وكان ما كان وأنت سيّد العارفين ولو لم يتدبّر الأمير ماسينيسا أمره أدامت الآلهة عزّه وأبقته ذخرا لهذا البلد العزيز وأهله شرقا وغربا لكانت الطامة الكبرى ورغم ذلك فقد غفر لك زلتك لانك كنت تتطلع للملك وكانت الرّيح معك تدفع بأشروعك للأمام أي وه ولم يكن من الهين التصدّي لتلك الأرياح انذاك لذا انتظر طويلا وانقضّ عليك في الوقت المناسب ونصب لك أخطر كمين لإيقافك والإرسال بك إلينا مشكورا بعد عشرين سنة لتشريف محكمتنا هذه بهذا بالحدث الاستثنائي وها نحن نثبت أنّنا في مستوى الحدث ونهتّى لك ولأمثالك محاكمات شرعية ونزيهة ومثالية وتكون أنت بالذات عبرة لمن يعتبر وحتى للذي لا يريد أن يعتبر وبذلك

نجب هذا البلد من تواصل سيؤدي به في تقديرنا الى الطامة الكبرى ولو تركنا الحبل على الغارب لأكلت الدنيا بعضها كما يقول المثل وأنت نائم على أذنك لذلك أرسلنا مكانك أقصد باسمك أي وه رسالة للأمير ماسينسا نعب له فيها عوضا عنك عن عميق اعترافك لحضرتة بالجميل وأعلمناه كذلك أنه قد احتجز منك المحقق الحاضر هنا كامل الأثاث الذي استعملته لارتكاب جرائمك بما فيه السيد الحمار المعني بالأمر والمنادي بعد أن تجاوز كل منها سن التعمير وحتى عجالات الجرارة وقد كان السيد المحقق بصدد قراءة قائمة المحجوزات المتعلقة بهذه القضية والموضحة لصيغة الاتهام الحالي والمؤكد بالفعل أن القانون يمنع منعاً باتاً إحداث الضجيج بهذا الشكل وبأي شكل من الأشكال الأخر.

عندئذ تدخل المحقق بسرعة قائلاً:

- في نظره لا في سمعه.

قال القاضي للمحقق:

- أي وه وضّح لنا ذلك.

دخل المحقق في نوبة هستيرية تميزت بالخصوص بالالتواء والتلمل ثم أجاب:

- نعم سيدي القاضي، أردت أن أقول وبكل تواضع وبدون أن أتسبب في إزعاجكم أمام نظر القانون وسمعه لكنّ ألا يمكن للقانون أن يصاب يوماً بالصمم أو بالعمى.

- أي وه إذا ما أصيب أمثالك من حراس القانون بالصمم والعمى.

- ساحني سيدي القاضي لم أسمعك ورغم أنني لم أر شيئاً فأنا أعذر مرة أخرى على هذه المقاطعة التي أخشى أن تكون سخيفة في نظركم هل قلت "خرمة"

- كدت شكراً أيها المحقق بإمكانك الجلوس أي وه لقد عملت العار وثقبت الطار.

ثم توجه القاضي من جديد للمتهم وواصل في تأن عجيب:

- أي وه سي سيفاكس أنت عسكري وتعلم أشد العلم أن حياة المجتمع تضبطها أحياناً

بعض الاستثناءات كما تعلم أيضا أنه لا يمكننا أن نحرم بلدنا من الرقص والتخميرة بل لا يخفى عليك أن البلد الذي لا يرقص ولا يمرح ولا يتخمر هو بلد يتدنّى إلى الرّداءة والإضمحلال لذلك جوّزنا الرّقص والطرب والمرح في الأعراس فتحتّم على كلّ فرد من أفراد هذا الشعب أن يتزوّج على الأقلّ مرّتين أو ثلاثة في حياته إذا لم يكن أكثر وأن يحتفل بمناسبة أو حتّى بدون مناسبة بل مكّنّا النّاس من إحداث الضّجيج المنعم وحتّى الضّجيج الملّحن والمغنّى في مآتمهم وأتراحهم بل ووفّرنا لهم مثل هذه المناسبات بكثرة ورغم ذلك فالنّاس أحرار فيها يفعلون حتّى ولو أدّى بهم ذلك إلى الكفّ عن الرّقص والغناء والضّحك وحتّى البكاء هل لك مانع أم عندك ما تضيف ؟

أسرع المتهم بالقول:

- نعم سيّدي القاضي أنا ما فعلت ذلك إلاّ بنية لفت جنابكم إلى هذا الوضع المتردّي وغير العادي المنتشر في البلاد ألم تلاحظوا سيّدي القاضي كيف أنّ احترام الغير وتقدير الآخر والأثرية والغيرية انتفت من السّاحة وكيف حلّت محلّها الوقاحة وصحة العين. لقد كانت نيتي حسنة كما تعلمون هل كان يجب أن ينتصب أحدهم بهذه الآلات المتقيّنة لذبذبات الصّوت حتّى يضطرّ من يقضي نحبّه على بعد سبعين ألف ميل أن يتجرّع الفرحه والبهجة بالرّغم منه؟

تدخلت السيدة روزان قائلة :

- يستحسن أن يرحل الإنسان يوم موته وهو يزنّ أو يدندن أو يصفّر أو يزمّر حتّى تتحوّل أوجاعه إلى مواصل وأنين وآهات.

اغتنم المتهم تدخل المستشار المشجّع وقال:

- هكذا انتشر التعسف الموسيقي في كلّ مكان وفي ساعات محدّدة يبدأ جميع الموسيقيّين في نفس الوقت التّشّس على حبال آلاتهم الصّوتية ولطم جلود أدوات الإيقاع المختلفة ويستعينون أحيانا بضرب أرجلهم على الإسفلت ومنهم من يتسلّح بأصوات جماعة من المردّدين المنشدين ويبدوون معهم في التّهرّيج وقد إلتفت أجسادهم بالبسة ضيقة صنعت من الجلد الجيد الشّفاف أو الصّوف المهوّء لتبرز مؤخراهم النّاتئة وبطنهم التي تشبه القرع في أوج نموّه. تدخل القاضي فجأة قال:

- أي...وه... أي...وه... ماذا قلت أي...وه... أنا لم أسمعك أي...وه... لم أعد أسمع قطعاً... أي...وه... أي...وه...

- سيدي القاضي أنا على يقين من أنّ هذا التهريج كان السبب في صممك.
ضحك الحاضرون ضحكة مفضوحة.

قال القاضي في دهشة:

- أي وه لماذا كثر الإلتواء واعوججت الأجسام في صمت أي...وه... ولما كلّ هذا الصمت القاتل؟

قال الكاتب الموثّق وهو يخفي قارورة حليب البخلاء التي كانت تتدحرج بين قدمي القاضي وقد حرص أن لا يراها أو يراه أحد:

- يظهر أنّ سيدي القاضي أصبح أصمّاً.

لم يبه الكاتب الموثّق كلامه حتّى سقط القاضي في إغماء شديدة خيم إثرها السكوت على الجميع وجاء رجال الإسعاف ونساء الإنقاذ وجاءت التّجدة ورجال الطّواري والمطافئ وفرق التدخّل السريع وجماعة مقاومة الاجرام وعسكر التصديّ والدرك السريع والحرس الاستعجاليّ وطواقم الانتشال وقوافل المتطوّعين وجاء معهم المتطبّبون والمشعوذون والفضوليون والسحرة والكهنة وتدخل المتطفّلون ولم يستطع أحد أن ينقذ القاضي من الموت

الفصل الثالث

الضوء الساطع المنبثق من الكنه الألعبي والمتخف بخيوط الألوان المبعثرة هنا وهناك فوق المنخفضات والمرتفعات المتموجة في الأفق الرحب والتي ترحف الواحدة تلو الأخرى لتنام برفق متناه في منعطفات كفوف السهول المفتوحة على البراءة وفي نومها الهادئ تروي لفصول مدينتنا الحلم حكاياتها المتجددة وتهدهدها بأغرب الخرافات وأحلى الأخبار الواردة من طيات الزمن البعيد والحبل بعقرية السلف وأهل أزمنة العشق.

الفصل الوليد كالطفل في براءته وعنفوانه يعانق الأضواء التي تبكي بضحكات متقاطعة فتصدر لحنًا غريبًا يطلق حناجر البلبال بعذب الأناشيد ويشير بمولد سيد الفصول ذلك الرسام ذو الأنامل السحرية الذي شرع بعد في زركشة الأرض بإبداعاته المتنوعة والتي تجعل من الأفق المترامي معبدًا للوشي تتبارى فيه الألوان والألحان والتباريح لتتحول لصلوات على هيكل الحب المعتز بشموخه وجلاله والمستقبل للبهجة المنبعثة من خيوط الشمس أو من وهج تموج البحر وكذلك من بريق ذهب الرمال وذبذبات قمم الجبال الباسقة والبناءات المحاطة بالجلال والمستوحية هيبتها من هيبة أهل البلد وعزتها من عزتهم وتواضعها من تواضعهم. ويبدأ الحلم في عشق الخيال المتدفق من ولادة الأمل البسام ويتحول إلى وردة تأخذ حجم الجمال المطلق وتحلّ برونق الألوان وحلاوة الأنغام.

حلم يوزع باقات السعادة على ذرات التراب وصفحات الماء ونسيم الهواء ويسقي الأرض من زلال دفته ويحول المدينة إلى هبة للعباد يستمتعون فيها بالراحة والاستجمام ويسترجعون فيها القدرة على الحلم من جديد ويتخلصون بها من الثقل والجاذبية.

حلم يستلهم سحر الإبداع من عيون المتخيلات في شعورهنّ الواتي ضلّت تنظرن للتاريخ برؤيا مجردة من المادة. تلكم العرائس العجيبات ذوات الأنامل السحرية التي تغازل النغم الخالد المنبعث من قيثارة الزمان أو سيتارة الأحقاب دفقا من الحب وشبقا ملائكيًا تندثر به الأزمنة المتعاقبة.

المتخبّلات في شعورهن ذوات العيون الحلمات المزروعات في عقب ثراء الخيال.

تلك الأسطورات الوّاتي ضلّلن تروين صدى الأزمنة الغابرة وتجمع تراتيل آلاف الأسرار المحفورة في طبّات الأيام والمحفوظة بأمانة وحرص في أوتار الليالي المتعاقبات بالتّواتر الموروث نغما معطّرا يلهم آله الجمال فينوس تباريح عشقهن ويفتح شاهيّة شياطين الشّعور والإلهام ويزيد في طهارة ونقاء الملائكة من أجل إغراء فرسان أحلامهن ولأنك الملوك الرّموز المطلّين من شرفات حلوا السّمر على الانتشاء.

وفي صوتهن يقف الزّمن للصّلاة في محراب العشق المتناهي والدّائم ويعانق انحناءات الأقواس بحثا عن الدّفء وتبرّكا بأساطير العجائب والغرائب التي تتفتّن فتيات الأحلام في سردها لعشّاقهنّ ومن خلاهم لمدينة الأحلام تذكيرا بأمة المجد في أزمنة المجد المتلاحقة والمرسومة تباعا بأنامل وعقول وعرق أهل البلد وكذلك بذاكرتهم وذكرياتهم

الفصل الرابع

تأمل الرّاوي من جديد في الرّوّار المقيمين بالمدينة ورأى الأعناق المشرّبة نحوه والأعين والأذان المتعلقة به تتطلّع إليه كان يرى تلك الجموع التي جاءت من كلّ حذب وصوب ومن كلّ مكان وزمان وتميّزت بالتنوّع في الأعمار والأجناس والأصول تجمعهم هذه الأرض الطّيبة التي احتضنتهم دون تمييز أو محاباة أو ملل أو اكراه بل اتّسعت لهم بالقدر الممكن وتحملتهم دون منّ ولا أجر ودون احتراز أو خوف أو ريبة أو تشنّج وسلّمت لكلّ منهم مفتاح الوجود ورخص الإقامة وكمون التصرف ولم تستثقل منهم ثقيلاً ولا استخفت منهم سخيلاً ولم تستنكف منهم جيلاً أو أصلاً أو منشأً لقد استطاعت أن تحتوي تشابكاتهم وشجاراتهم وتناحرهم وتطاحنهم ومعاركهم وحروبهم واستوعبت صلحهم وانتصاراتهم وتحاذلاتهم وامتنعت خيبتهم وحتىّ حماقات ثلّة منهم وتجاوزت عن خيانات بعضهم وبقيت مرفوعة الرأس شامخة الأنف عظيمة بهم وبدونهم

استلهم الرّاوي من تنوّع هذه الأرض رحابة الصّدر ورباطة الجأش والثّقة في التّواصل مع الحاضرين على اختلاف عصورهم وأجيالهم مستأنفاً روايته وكأنّه أشفق على مستمعيه من شدّة الانتظار قال:

- رفعت الجلسة وخرج جميع الحاضرين للإستراحة والإستجمام وبقي طاقم المحكمة الموقّرة في القاعة للتّداول الحرّ والتّشاور النّزيه بعد أن قبّل كلّ منهم وجه القاضي وهنّؤه بموته شهيد العمل والإخلاص والولاء وألصقوا على جثثانه الطّاهر لافتة كتبوا عليها "ذهب معك العدل" واختفى البعض الآخر خلف هؤلاء لهيئوا خلسة لافتة أخرى كتبوا عليها "رجع معك العدل" واحتفظوا بها لمن سيخلف من ذهب معه العدل. ورغم أنّ الشقّ الآخر كان على علم بذلك لكنّه أطفأ الضّوء كما يقول المثل العامّي وكأنّه لم ير ما رأى وبقي الغمز سيّد اللّغات في ذلك الطّرف وتحلّت بعض الشّفاة بابتسامات صفراء ومع ذلك لم تفقد الوجوه مساحيق التّجهم والتّبرّم والحزن وكان الأسى باد على كلّ سحنة وملح وفقدت جميع الوجوه النّسائيّة نظارتها واستمرّ

التداول بخصوص الخلافة بعد التصويت على تخوير بسيط للدستور يتلاءم مع الطرف ويتيح للحاضرين مناقشة المسائل المطروحة بما يناسب الجو السائد ويمكن المتداولين من اختيار أنسب وجوه الاتفاق وبدؤوا بالمنطق الكشفي الذي يعتمد عادة في المسائل اللاهوتية والروحية المطلقة والذي يرجع الأمر للقدر والمكتوب الذين أرادوا أن يكون ذلك كذلك وبالتالي يخرج البحث عن المخرج من يد المحكمة المؤقرة لأيد أخرى مجهولة لا يعرفها أحد ولا يتوقع نتائجها أحد لذلك فضل بعض الحاضرين في جلسة التداول هذه توخي المنطق العقلاني الذي يعنى بالأمور القياسية التي تخضع للحساب والمحاسبة والاحتساب لكن سرعان ما تحول النقاش الى المحسوبة وكاد يتسبب في انسحاب العديد من المشاركين ولانقاذ سلامة المداولات تحول النقاش من المنطق العقلاني الى المنطق الحسي الذي يعنى بكل ما يتصل بالشأن الاجتماعي والسياسي كما في قضية الحال وانتهى التداول مبدئياً باقتراح ترشيح نائب الرئيس للمنصب الشاغر واحتدم النقاش في المسألة إذ كان بعضهم يقول بأن نيابة الرئيس منصب شرفي أكثر منه فعلي وقال آخرون إنه أعد من أجل إيهام الآخرين بملاء الشغور عند الإقضاء وقال البعض الآخر إن نائب الرئيس الحالي رجل محترم جداً لا يقوى على الحركة من شدة الوفاق لذلك فهو لا يصلح لهذه المهمة الشاقة ولخص الكاتب الموثق التدخلات مستنتجاً أن الجميع متفقون على دحض ما توصل إليه المنطق وتواصل النقاش بالاستناد على المعقول وكانت أصعب مرحلة في التداول لأنها تستحق للمادة السنجابية التي كان يفتقر إليها معظم المشاركين في الحوار ولم تسفر هذه المرحلة عن أي حل بل أغرقت الجلسات في سجال عقيم غلبت عليه تصفية الحسابات الشخصية وحب الانتقام والرغبة في التسمي والاقصاء وأحياناً ما سمي بالحقرة برفع الحاء وضم القاف وهي من روافد الاحتقار وبقيت ثنائية الهز والسبط من جهة والرفس والغنص من جهة أخرى سيّدة الموقف حتى شعر الجميع بالتعب وانهارت قواهم فاضطروا لتحويل الحديث بالإعتماد على الصواب وقد أتى على لسان ليلوس قال:

- بما أننا ننشد النجاعة في العمل والوظيفية في النجاعة والإتقان في الوظيفة والدقة في الإتقان

..و

لم ينه الكاتب الموثق خطابه حتى تعالى التصفيق وتساعد الهتاف وبدأت المناذاة بحياته

منعمة ملحنة موزونة ورفعه الجماعة بالأكتف على الأكتاف وهم يرددون النشيد الرسمي والنشيد الوطني ثم النشيد القومي واثراها تولى أحدهم توسيم ليلبوس باللائحة المتبقية والتي كتب عليها "رجع معك العدل" وقد تدخل نائب الرئيس المساعد ليزيد عليها بقطعة من الفحم عبارة "يا عدل الناس" وكتب عليها المدعي العام بنفس القطعة بعد أن افتكها من النائب جملة "لا بعدك ولا قبلك" وبذلك ضمن كل منها منصبه السابق في المنظومة الجديدة وانتصبت المحكمة من جديد واستأنفت أشغالها وكأن شيئاً لم يكن وبراءة الحكام في عينها وقلبها وشفقتها.

ورغم ذلك فقد بقي السؤال مطروحا في السر والعلانية لدى المتفرجين والمستمعين وكافة الحضور بالقاعة وحتى خارجها: "من قتل القاضي السابق؟" وبقي السؤال معلقا وواصل القاضي الجديد مراسم وطقوس المحاكمة محتفظا لنفسه بمهمة الكاتب الموثق ربعا للوقت وتحببا للمفاجآت غير السارة وبذلك يسد الباب والتوافذ أمام اعتماد من سينوبه بعد عمر طويل لنفس الصيغة التي وصل بها هو لرئاسة المحكمة.

قال القاضي الجديد مشيرا بإصبعه إلى المتهم القديم.

- لقد أفادتنا مختلف التقارير أنك صاحب سوابق وكنت على ذلك شاهدا أميناً..

وفجأة اعتلى صوت مجهول في القاعة معلقاً:

- إذن هذا هو الرجل الذي قتل القاضي...

واهتز صوت آخر معقباً من الجهة الأخرى:

- لا شك أن أحداً منهما قد جنّ المتهم أو الفاقا فاقا

وبقي يقاقي حتى تدخل ثالث قائلاً:

- مسكين سيفاكس إنه لا يستحق ذلك لا بد أنه فكر كثيراً.

وقام رابع وهم بالتدخل لكأنه سكت ولا يدرى أحد إلى الآن لماذا.

أجاب المتهم وهو واثق من نفسه:

- سيدي القاضي الجديد قبل كل شيء مبروك لا بد أنك تعلم أنني حقّ في ما قلت. لقد كان المحروم يعلم مسبقاً أن فتانينا سيغنون يوماً ما لذلك فضّل أن يموت أصمّاً إذ يستحسن أن يكون الإنسان أصمّاً مسبقاً حتّى لا يضطرّ لسماع الأصوات المزعجة فتتسبّب له في الصّم المزمّن وفي مثل هذه الظروف ما أسعد أن يصاب الإنسان بالصّم منذ الولادة.

سكت المتهّم قليلاً ليتلّع ريقه ثمّ تخمّر من جديد قائلاً:

- يا أهل القيل والقال تصنعون أطنان الإشاعات في الليل وتصدّرونها في النهار ملفوفة بالضّجيج المفتعل يا أصحاب الوجوه الصّفراء المتبدّلة من قوم "قالوا" أنتم حملة الفتنة بين النّاس. من أفرغ بكم هنا كما يفرغ كيس من الأفاعي السّامة في بيت المؤونة ألم تنفطّوا أنّه بمجرد انتشاركم بيننا بدأت حملة التّشجّج بين النّساء والرّجال والأطفال وكذلك بين مختلف الحيوانات وشرعت القطط في التّشاجر مع الفئران وانتاب التّاموس انفعال جعله لا يتوّع من شنّ الهجومات المتتاليّة على البشر كبارهم وصغارهم وجنّ جنون الخنافس فانسابت في كلّ مكان وأصيّبت الكلاب بالكلب والديكة والدجاج بالزّرقطون.

مجموعة هائلة تشابكت وتجادبت وتدحرجت ثمّ نزلت كالصّواعق الحارقة على هذا البلد الأمين وتسبّبت في تلوّثه بالسّوائل الكريهة حتّى أصبح معروفاً بالإشاعات والروائح ومشهوراً بها.

سيل من المضايقات المذابة اقتحمت عقول النّاس فزادت في تلوّثها وتبلّدها.

سيدي القاضي لا يذهب في ذهنكم أنني أعني الطّبقة المحكومة فقط فأنا لا أنزّه كذلك الطّبقة الحاكمة التي كنت على رأسها فهي التي تتحمّل مسؤوليّة جلّ الأخطاء لذلك عزمت اليوم ومن موقعي هذا الان على أن أبدأ بنفسي وأشرع في تعرية واقعا المشترك من خلال ذاتي علّني أستطيع معالجة المحضور وكشف خبايا الممنوع ورغبة منّي في تحليل وتمحيص إشكاليات النّفس والجسد التي تحيرني.

أنا الان في وقفة أتأمّل من خلالها أنظر الى ما بنفسي من الداخل وأعرض كذلك لما بدا منها وما خفي.

اعتبروا تدخل هذا جرأة في التعبير عن أزمته الأزلية في التعبير. اعتبروا تدخل هذا صوت السكوت الذي غمرني طوال حياتي سيدي القاضي الفاضل جناب المستشارات والمستشارين الكرام هذا صراخ الصمت الذي ألتجأت إليه كلما كنت أشعر أنني مكبل بالعقد وأني عاجز عن البحث عن لغة صادقة ينطق بها لسان جسدي ويتفجر من خلالها الضغط الذي بصدري رغم ما تخططه المؤسسات الحكومية التي كنت على رأسها وما أنا أشهد اليوم أمام الجميع على هيمنتها شبه الكلية على العقل والمشاعر وتسلطها الكامل على البراءة والتلقائية وغطرستها الخطيرة على الواقع واستنكافها من الحق وقمعها لتحرر الذات من عبوديتها

فالعقول الضعيفة هي التي تتجنب التصدي للقضايا الكبرى وتتهرب من تناولها بالنظر بل وتعمل لمنع الخوض فيها فتكرس بذلك ثقافة التهميش لست واعظا أو مرشدا ولكني أعتبر أن من شروط التقدم والنجاح أن يتناول الحاكم القضايا الساخنة في إبانها ولا يتجاهلها بدعوى أنها ليست من مشاغله الانية أو من اختصاصاته وأن الجمهور المعني بها حر في التعرض أو عدم التعرض لها

شبابنا ثرونا ومستقبل وطننا. سلوكه يعود إلى نوعية التربية التي يتلقاها منذ النشأة إما مترددا معقدا أو متزنا متوازنا مع محيطه لذلك وجب على الجميع تثقيفه بالاستماع إليه أولا وأخيرا ضانا للتوازن وسقلا للسلوك فالسياسة سيدي القاضي حضرات المستشارات والمستشارين شأن ثقافي بالدرجة الأولى. ما قيمة السياسي إذا لم يبال بما يشغل الناس جميعا في معيشتهم اليومية.

سيدي القاضي الرئيس أنا أتهم الإستسلام للسهولة الذي جعل الناس كل الناس بدون استثناء يبدون نوعا من اللامبالاة تجاه كل ما يجري ولا يعيرون للوقت الأهمية اللازمة لقد تغيب الإلتقان عمدا وفضل الضمير التوم بين طبقات النسيان والتناسي وقد منعه السببات من التلهي بما ينفع البلاد والعباد وتم محو الوعي من العقول بالرغم مما تبذله عدالتكم من مجهودات جبارة وما تجتهدون في إرسائه من إعلام وتوجيه قيم وربما كان حرصكم هذا دليل على تأكيد ووجوب احترام الآخرين واحترام أنفسنا من خلاهم ومنع إحداث الشغب والضجيج وانتشار الروائح الكريهة من أي نوع كانت.

قال سيفاكس كل ذلك دون توقّف وكأنّه يقرأ نصّاً مكتوباً أو يحفظ مقالا عن ظهر قلب ولو لم يكن الحاكم يعلم مسبقاً أنّ هذا المتّهم بالذّات سخيّ البديهة حاضر الجواب بليغ الإخبار لشكّك في ارتجال إجابته ولكنّ سيفاكس لا يستطيع إلّا أن يكون كذلك. ولو لم يكن رئيس المحكمة ملزماً بتقمّص دوره المحرج لأشفق عليه بأكثر ممّا أبداه

ورغم أنّه لم يكن أيّ واحد من زمرة المستشارين في الإستماع لما قاله المتّهم ولم ينصت لسان الدّفاع لتدخّل سيفاكس فقد حرص رئيس المحكمة أن يولي أكثر انتباهه للجزء الآخر من كلام سيفاكس بل أمر المتّهم بإعادة صياغة ذلك مقرّراً الإحتفاظ بهذا الجزء بالذّات في ذاكرة المحكمة مع إنسانه بأمانة لصاحبه ولم يجوز تحريفه إلّا في ما يضاف من مزيد الإيجابيات أو يلمّع أشغال المحكمة واشترط أن يذكر اسمه كرئيس مباشر متسبّب في كلّ هذه المزاي التي ذكرها هذا المتّهم الخطير وقد تعمّد لفعل ذلك عملاً بمقولة

"إذا أتتكَ مذمّتي من ناقص فهي الشّهادة لي بأنّي كامل"

و قال في نفسه:

- فما بالك بأن يأتيني المدح من نفس ذاك النّاقص فتصبح "الشّهادة لي بأنّي أكمل".

و بقي القاضي يدير رأسه يمناً ويسرة وكأنّه يقول للجميع:

- انظروا إليّ كيف أبدع وأبرع في عملي أكثر ممّا كان يفعلهُ القاضي المرحوم ولا أعتقد أنّه يوجد خير منّي ولا أذكى وإنّي متأكّد أن جميع هؤلاء القوم الجالسين أو الواقفين أمامي والأقوام الأخرى تؤمن في السرّ والعلن أنّني الكمال بعينه.

واستوى القاضي في جلسته وهو يقول في نفسه بكلّ اعتزاز.

- اشّ يا ذبّانه.

ولم يدع لسان الدّفاع فرحة القاضي هذه تفوت دون أن يستغلّ الفرصة لذلك تدخّل على الفور ليطلب من جناب رئيس المحكمة ومستشاريه الكرام بمراعاة ما سجّلتهُ المحكمة في ذاكرتها من حديث منوّبه واعتبار ذلك مندرجاً في ظروف التّخفيف.

وبالرغم من فرحة القاضي وانتشائه ووجهة المطلب الذي تقدّم به المحامي فقد أبدى الرئيس نوعاً من الإحتراز في خصوص هذا الإقتراح وهو ينظر للمتهم من جهة وللقارورة التي كان من حين لآخر يحاول تغييرها أو إتلاف ما فيها من سائل من جهة أخرى وربما كان يقول في نفسه:

- أنسب طريقة تمكّن هذا المتهم من التمتع بأكبر قدر ممكن من ظروف التخفيف وتزويد في فرحتي وانتشائي هي أن يفرغ هذا الشقي ما تبقى من القارورة في بطنه دون أن يترك أثراً لما جرى له تماماً كما فعل القاضي السابق بذكاء غبي.

فكر القاضي في ذلك ثم قال متّجهاً للمتهم:

- لا بدّ أنّك جوعان.

- لا سيّدي القاضي.

- إذن أنت عطش.

- لا سيّدي القاضي.

- لا بدّ أنّك تريد أن تشرب لا بل يجب أن تأكل شيئاً ثم تشرب ما أن انتهى القاضي من عرضه السّخيّ على المتهم حتّى شلّت الأكفّ من شدّة التّصفيق وارتفعت الحناجر مهلّلة بهذه الأريحيّة وحسن العناية التي يبديها قضاة هذه الأيّام تجاه المتهمين من حين لآخر في هذه المحكمة بالذات وبدأ الحاضرون في الإلحاح على سيفاكس ومطالبته بالأكل والش

رب استجابة لعرض القاضي السّخي وأمام إصرار المتهم على الإمتناع شرع بعض الحاضرين في القاعة بممارسة الضّغوطات المناسبة وغير المناسبة على المتهم كي يرضخ لدعوة السيّد رئيس المحكمة والتي إن دلّت على شيء فإنّنا تدلّ على أن السيّد القاضي الجديد يستحقّ المباينة الصّريحة من أهمّ شخصيات البلاد لذلك قرّر الجميع إرسال إخطار سريع يطلبون فيه من شيون مباركة تعيين ليلوس رئيساً لمحكمة الشعب مدى الحياة وترقيته بالمناسبة إلى مرتبة عسكريّة رفيعة وتحليّة صدره بوسام الإخلاص ونيشان الافتخار وقلادة التّكريم وشهادة التقدير وشهادة الشّرف ومذكرة الافتخار ودرع الاستحقاق والسّنبلّة الذهبية وقلادة التّفوق بمجرد أن تنتهي المحاكمات

المزعم البتّ فيها في هذه الجلسة.

وأمام مواصلة رفض المتّهم بتطبيق أوامر القاضي اتّفق الأعضاء إضافة تهم أخرى له وكلفوا أحدهم بتحديدّها في صيغها القانونيّة ومن أهمّ هذه التّهم العصيان المدني والإستخفاف بالأوامر والاعتزام على المواصلة في إضراب الجوع والتّظاهر بما ينافي الحياء والاستيلاء على أملاك الغير والالتناء لتنظيم غير مرخّص فيه.

ورغم ذلك لم يحرّك المتّهم ساكننا ولم ينبس ببنت شفة ولا بأختها ولا حتّى ببنت خالتها. وأمام هذا التّحدّي الصّارخ والصّريح شرع القاضي في سرد خطاب مدرّوس كان قد حفظه عن ظهر قلب من أحد سجناء الرّأي في محكمة أخرى لما كان بوابا بها وقد قصد توجيهه عنوة لمصادر الإعلام وخزينة الرّأي العام ومصنع الدّعاية والإشاعات المغرضة وغير المغرضة ومحافل القيل والقال والقلقلة والقافقاء وبالخصوص لقنوات التّوزيع المختصّة في النّوايا المبيّنة وتقنيّات الحبكة وقد جاء في الخطاب بالخصوص قوله:

- جناب المحكمة الموقّرة أيّتها المستشارات الفاضلات أيّها المستشارون الكرام أيّها الحضور المتميّز إنّ المراوغة في محاكاة التّرّم انشاء بملادّ الحياة واختراق حرّيّة الغير في ظلّ الأضواء الباهتة من شدّة التعب واغتنام الفرص المتاحة لاقتناص الرّبح العاجل والكثير في خضمّ هذه الرّحمة الممزوجة بروائح البغض والكراهة والمحسوبيّة تحت قناع من الرّياء والزّيف والمأطلة التي تخفي تحت طيّاتها في اللّيل ما يفصحها النّهار وتكشف ما يحلو للّيل أن يبرزه كلّ هذا من شأنه أن يظهرنا في مظهر لا يليق بطموحاتنا ولا سمعتنا ولا ينبغي أن نبقي مهد الإشاعات الواهيّة والزّيف المقنّع...

ولما وجد نفسه قد نسي ما تبقي من المقال اضطرّ لاطافة ما يلي حتى لا يقطع النّسق. قال بعد صمت طويل نسبيا:

- فهذا البلد وإن لم يكن بلدنا ونحن حريصون على أن يصبح في القريب العاجل بلدنا قبل غيرنا لأنّنا نغار عليه ونحبّ أهله ما داموا في خدمة المصالح المشتركة قلت هذا البلد هو الآن مهدّد ونخشى أن تعصف به وبأهله الرّياح العاتيّة.

وفي خضمّ موجات التصفيق المتعالية ارتفع صوت من داخل القاعة قائلاً:

- ولكن تلك الرياح هي التي ستمحو آثار الفضيحة من على جبين الزّمان في هذه الدّيار الطّيبة وهي آتية لا محالة وأنّ تلك الرّياح ستهبّ بعنف شديد ولن تتوقّف حتّى تأتي على جميع مظاهر الفرحة الزّائفة وتمحو غبطة الحياة الكذوب وخداعها المغشوش وتغسل الأيّام من الرّياء وتدفع بالشّوائب والأذنان إلى الجحيم بلا رجعة وستجعلها تطاير وتذوب في السّماء مع أمطار الخريف عندئذ سيكفّ الغربان عن النّعيق ويستبدل الخوف من القانون باحترامه وتنتهي الأوجاع وينتهي التعب وينتهي بالخصوص التّأويل الذي ينتهز أيّ فرصة لحشر نفسه فيما لا يعنيه ويتدخّل في الرّقيقة والدّقيقة والمشقوقة والشقيقة ويبدأ في الزّيادة والتّقصان وينفذ في كلّ شيء ويقلب الحقائق ويشوّه الواقع لاستغلاله فيما لا ينفع النّاس.

تجنّد القاضي ومستشاروه للقبض على هذا الصّوت النّشاز وتدخّل الحرس والجند والشرطة والواشون والمتقربون والمتزفّون والخونة والأذنان واللّحاسون والطّماعون والأزلام والمتهمزون للفرص وهيدوق القاضي والإنهاريّون ولم يظفر أحدهم بشيء أو أحد وبعد فتح التّحقيقات اللازمة ثبت من عدّة مصادر موثوق بها أنّ الصّوت تبخّر في الفضاء وأفادت بعض المصادر الأخرى أنّ الصّوت لم يكن له صاحب ولا صاحبة.

وبعد التّأكد من ذلك استؤنفت الجلسة من جديد برئاسة ليلوس فوقف الحاضرون احتراماً وتقديراً ويحتمل أن يكون وقوفهم بهذه السرعة والخفّة المذهلتين ناتجا عن خوفهم من يدري؟ مسح القاضي على أمّ رأسه مسترجعا ذاكرة بدت له خاملة وأمر الواقفين بالجلوس ثم قال متوجّها نحو سيفاكس:

- من يستمع إلى كلامك يتبادر إلى ذهنه أنّك على حقّ ومن حسن حظّي أنا بالذّات أنّ بعض النّاصحين لي يتهوّنوني مسبقاً إلى احتمال أن تكون محقّاً في ما تذهب إليه أقصد أنّك تستطيع أن تبدو صاحب حقّ ومن حسن حظّي بالخصوص أنّي جئت إلى المحكمة وأنا مستعدّ لمثل هذه الطّوارئ. انتظر قليلاً كلّ شيء مكتوب ومدوّن عندي هنا في ملفّ التّوثيق مشكلتي الوحيدة هي احتمال أنّ أجد صعوبة في قراءة الخطّ لأنني لا أجيد القراءة بل لأنّ الخطّ ليس خطّي فقد

سجّله المختصّون للغرض انتظر ... أي...وه كما كان يقول المرحوم أي...وناش أيها الرّئيس المساعد ما دمت فارغ شغل ناولني قطعة البلور المكبرة أي...وناش أي...وناش وجدتها يقول من لا ينطق عن الهواء... كلّ ما ما مام

تحوّل جميع الحاضرين فجأة إلى ما يشبه المعيز ولم يسكتوا إلاّ عندما شرع القاضي في التّصكّك يمنة ويسرة ثمّ صعودا ونزولا وخرجت من فمه بالونات بألوان ما أكل منذ ولادته.

في خضمّ الصّمت المخيم على القاعة رأى المدّعي العام أنّ من واجبه التّدخل الآن خوفا من أن يتحوّل الحاضرون من جديد إلى معيز أو ققط أو كلاب وربّما إلى أسود لذلك أسرع بالقول:

- الهدوء يا جماعة! الهدوء من فضلكم ! أوّلا ندعو إله الصّحة والعافية أشمون أن يشفي سيّدي القاضي فهو الوحيد القادر على إطلاعنا على ما في ملفّه من أخبار لا نَشْك في أنّها الكمال بعينه وأنّها كافية شافية ضافية.

قاطعه الرّئيس المساعد على الفور ليضيف بأنفة واعتزاز:

- الكمال بعينه وبأذنيه وبرأسه كذلك.

واصل المدّعي العام تدخّله مضيفا دون اكتراث كبير:

- أكيد سيّدي الرّئيس المساعد وربّما ينتهز الإدّعاء العام هذه الفرصة المتاحة له لذلك أريد أن أعبر لحضرتك عن خالص شكري وعظيم امتناني على على... ساحني سيّدي الرّئيس المساعد نسيت.

في الأثناء استفاق القاضي بعد الهزّة العنيفة التي أصابته وقال:

- إذا غاب الققط تلعب الفران. أواصل القراءة قبل إذنكم.

وانكبّ يلتهم الملفّ التهاما بعينه ثمّ قال:

- ملخصّ ما قرأت كما يقول التّحرّي الوارد في التّقرير أنّ كلّ ما قاله وسيقوله المتهمّ كذب على كذب وافتراء على افتراء.

تدخل المدعي العام بسرعة:

- أرجوك سيدي القاضي المحترم التثبت على أم في ؟

- لا يهم.

- بالعكس الأمر في بالغ الأهمية بعد إذنك لا بد من التثبت سيدي القاضي إذ يخشى أن يؤول لسان الدفاع الأمر ويطيح بمشروعنا في رمشة عين فإذا كان ما قاله سيفاكس كذب على كذب أي على ما قلناه نحن فقد يصبح ما قلناه نحن كذبا أيضا.

- انتظر أي... وناش على... في... على... في... لا... في صحيح كما قلت أنا منذ قليلا كذب في كذب وافتراء في افتراء المهم أن سيفاكس لم يعد متبها بل هو الآن مجرم في عين القانون بالحجة الدامغة والدليل القاطع.

عند ذلك تدخل المحامي:

- وما حجتكم الدامغة ودليلكم القاطع سيدي القاضي؟

- الدليل بين وجليّ وواضح وضوح الشمس في رابعة النهار وهو موجود في هذا التحري المسجل بأمانة وصدق وبدون محاباة أو محسوبية أو ميل لهذا الشق أو ذاك فقد تمّ تحريره من قبل أن يعرف المحرر المتهم أو يتأثر بالدعاء بل لم يستمله أحد ولم يشتر ذمته أحد.

- نعم... نوعا ما... بل بالفعل... وبدرجة كبيرة... ولكن في الحقيقة... يبدو أن سيفاكس محقّ فيما يقول... سيدي القاضي... أليس كذلك؟

قالت السيدة روزان ذلك دون أن تفكر في التبعات التي يمكن أن تنجرّ لها من تدخلها لكن القاضي قاطعها مستطردا:

- كيف ذلك؟ وتجريين على القول أنه محقّ؟ لا حقّ له حقّ!

يبدو من أوّل وهلة أن السيدة روزان لم تنفطن لهذه الإشارة الخفية التي لمّح بها القاضي لها حتى تعلم أنه لا يريد بأيّ حال من الأحوال أن يكون سيفاكس محقّا حتّى ولو كان كذلك لكنّ

السيدة روزان واصلت دون انقطاع أو مبالاة:

- لقد أقامت الزّغاريد الدّنيا وأقعدتها ودخلت إلى البيوت والكهوف والمغاور لتتوزّع في الهواء الطّلق كما تتوزّع الرّوائح الكريهة الموجهة بالقصد وقد تضرّرت أنا وغيري من هذه القسوات التي تصنعها نساء إفتقدن الفرحة منذ زمان فرحن يطمّطن استغلال مناسبات الإنحلال والتّفسّخ الموسميّ ويحملن على صدورهنّ أكياس المتعة النّادرة وقد ألصقت كلّ منهنّ كومتين كبيرتين على صدرها بصورة مكشوفة جدّاً علّها تحافظ على توازنها أكثر من غيرها من النّساء فتغيظهنّ بذلك وتزيد في غيرتهنّ وتستميل أكثر عدد ممكن من شديديّ الحسّ أو مرهفيّ الإحساس فإذا ما فشلت كلّ وسائل الإغراء لدى إحداهنّ تضطرّ لاستعمال جزء من ظهرها أو كتفها أو مؤخرتها التي تشبه مؤخرة الفيل ومع كلّ حركة تسقط إحدى الكومتين على البطن مهدّدة الحيّ بالطّوفان.

وكأنّ السيدة روزان نسيت نفسها من شدّة حماسها لذلك واصلت دون اكتراث:

- المحتفلات كالوحد تشددن بتلايب أزواجهنّ المرفقة أجسامهم أو تتعلّقن بأعناقهم الشّاحبة كما يمسك الدّجاج غنيمته عند الذّبح ثمّ تدفعن بهم في معركة لا رغبة لهم فيها ولا يستطيعون الإفلات منهنّ إلّا بشقّ الأنفس. أخيراً اتّصلت برجل نحيف سألته عن بدانته التي عرفته بها فأجابني شحوبه أنّه تزوّج من إحداهنّ فحصلت له الكارثة عافتنا وعافتكم الالهة فتيقّنت أنّ جميع شهوات الدّنيا والآخرة في تلك الزّوجة لم تلبّ لذلك كان الرّجل على ما كان عليه من نحافة. ولو بقي فيه شيء لتزوج وج وج...

ولما كثرت وجوجتها واشتدّ ثقل لسانها وتأتأت عروق رقبتها خشي القاضي أن تختنق فيسبب موتها تأخيراً في سير أعمال الجلسة وبالتالي في تأجيل المحاكمة اضطرّ لمقاطعتها بعجلة:

- المستشارات لا تزوّجن في سبرنا ومع ذلك شكرا على تدخلك. الكلمة الآن للسّيد سيفاكس رغم أنّي أعلم أنّ الفأس قد وقعت في الرّأس كما كان يقول المجرم منذ قليل.

والتفت القاضي نحو المتّهم وهو يقول:

- واصل فأنت المطالب بتبرير نفسك لا نحن. ألسنت أنت المتهم؟

أجاب سيفاكس على الفور:

- نعم سيدي القاضي صحيح أنني تسببت في إزعاج الغير بالضجيج الذي أحدثته وكان ذلك كما تقولون أنتم في لغتكم مع سابق الإصرار والترصد وربما مع سبق الإضرار والتصميم كذلك وأنا أعترف بذلك أمام عدالتكم الموقرة لكن يجب أن أفيد عنايتكم بأنه قبل أن ينالني شرف الحق في إحداث ذلك الضجيج استرخصت كما تعلمون من سلطة المكان ودفعت المعلوم وهذا الوصل شاهد على جزء مما دفعت لا كل ما دفعت.

تساءل محامي الدفاع مستفسرا:

- أعتقد أن من حق محمكتنا الموقرة أن تفهم ما تريد أن تقول من وراء نقشاتك هذه يا سي السيد سيفاكس العظيم يا أذكى متهم نويت تولي الدفاع عنه.

لكن السيد الملك سيفاكس سكت ولم يغتر بهذا الإطراء الذي يفضل تركه للذين يستسيغونه ويبيعون من أجل القليل منه كسأهم ومتاعهم وكرامتهم وذمتهم. فاضطر المحامي حثه بهدوء وبأقل الكلام على مزيد من التوضيح وقال للمتهم:

- وأين وصل باقي ما دفعت؟

لم أتسلمه فأنا لا أتسلم من الوصول إلا ما يتسلمه الحاكم.

- وهل هناك حاكم آخر يتسلم الباقي وإن كان ثمة حاكم آخر لماذا لا يسلمك هو أيضا وصلا؟.

- ليس هناك حاكم آخر ولا يذهب الجزء الثاني من المال في يد الحاكم باسم الدولة بل يتسلمه أقصد تتسلمه القهوة أو الرشوة

- وما القهوة أو الرشوة؟

- هي مقابل الخدمات التي يؤديها لك من كلفه الحاكم والحاكم الذي أتحدث عنه هو المعنى

المطلق على كل من يكلفه النص القانوني باستخلاص أي مبلغ لفائدة الخزينة العامة ذلك هو الحاكم الذي يقوم بخدمتك بدون مقابل منك ويتولّى الحاكم خلاصه مكانك لكن من بين هؤلاء المكلفين من لا يكتفي بخلاص الحاكم ويعجبه أكثر خلاص المحكوم ولكن بمقابل.

- تعني يتقاضى أجره مرتبين على نفس العمل.

- نعم أستاذي الكريم. مرتبان الأول حلال مجلّل الحلال والثاني مجلّل الحرام ويسمى بلغتنا وديدة وتمثّل الحلال الحرام عند بعضهم والحرام الحلال عند البعض الآخر.

- ما هذا التفي المفيد للإثبات وضح أكثر.

- عندما دفعت معلوم الرخصة القانونية أعلموني أنّ إحداث الضجيج ممنوع لكنّ العون همس في أذني قائلاً:

- ليكن في علمك أنّه في الأصل يمنع منعاً باتاً إحداث الضجيج واستعمال الطبول للإستنفار في الليل بعد الساعة العاشرة مهما كانت الظروف وبالنسبة لأيّ كان فنحن جميعاً في هذه البلاد سواسية ومع ذلك هناك بعض الاستثناءات نقول عنها في سبنا انظر الى الوجوه قبل أن توزّع منابات اللحم وويقول فيها بعضنا الآخر ضربة بكتف خير من ألف شهادة. ثم أردف ذلك بابتسامة موحية فهمتها على الفور وسلّمته إثرها قهوة زهيدة بحكم أنّي كنت غير مهية لذلك وقتها.

قال محامي الدفاع:

- متفقون واصل.

- نعم سيّدي القاضي في ما يخصني شخصياً أفهم ذلك لأنني متيقّن أنّ الناس لا يدفعون الضرائب بالقدر المطلوب ويبقى أغلبها متخلّد بذمتهم لذلك يلتجئ بعض العاملين لدى السلطات المسؤولة إلى مثل هذه الأساليب السريّة التي تبيع الممنوع واثّر قبض ثمنه تجوّزه وبذلك تذيب صرامة القانون في نوع من اللامبالاة الخطيرة على بلادنا ويصبح للقانون وجه ظاهري ووجه خلفي وهذه الثنائية تولّد قانونين اثنين متباينين قانون مدوّن وقانون مطبّق لذلك

سيدي القاضي عندما جنّ الليل اعتبرت نفسي أكثر حرصاً من غيري فعبرت بالفعل عن فرحتي واستعملت الطبول ككلّ النَّاس لحدّ ساعة متأخّرة من اللّيل وبعض من صباح اليوم الموالي ككلّ النَّاس أيضاً ولم أحترم القانون ككلّ النَّاس لذلك أتساءل سيدي القاضي كيف أمثل بمفردي أمام محكمتكم الموقّرة دون حضور المخالفين الآخرين أمثالي هنا.

أجاب القاضي بسرعة:

- أجننت ؟ أتريد أن تخلط الحمّص بالزّيب ؟ كيف يمكن لجميع النَّاس الحضور في هذا المجال الضيّق ألا ترى أنّه لا مكان لجميع النَّاس هنا ؟ ثمّ أنت لم تفعل مثل كلّ النَّاس بل فكّرت بمفردك.

قطع القاضي خطابه فجأة وتوجّه نحو الكاتب منبّها:

- سجّل أيها الكاتب الموثّق عوض أن تنام.

وعندما تفضّن القاضي بشغور كرسيّ الكاتب الموثّق واصل مخاطبا المتهم:

- سنرجع إلى ذلك في الإتيان.

سكت القاضي قليلا وكأنّه يجمع ما تشبّث من أفكاره ثمّ قال:

- أي وناش الحاصل... الحاصل سيدي أي وناش نرجع لموضوعنا الأصليّ هكذا إذن تعترف بأنّك تسبّبت في إحداث الشّغب ليلا وفي أوّل الصّباح ربّما نسيت في تلك اللّيلة بالذّات أنّ ابنة راعي غنم صديق ابن عمّة خال الأمير مريضة لذلك منع التّشويش على كل من هبّ ودبّ وحثّى على النّساء اللّواتي عنّ لهنّ أن تلدن فقد أرسلت لكلّ واحدة منهنّ امرأة بكمامة مهمّتها كتم الأصوات المتعلّية من جرّاء شدّة الوجع بل ورد التّنبية في خطاب قرىء على بعض الحاضرين من سمار آخر اللّيل يحرم فيه صاحبه جميع أنواع الصّخب المقصودة وغير المقصودة والإرادية وغير الإرادية بدءا من صياح الأطفال والديكة ووصولاً للمزود.

ثمّ أضاف:

- لا تقل لنا أنك لم تسمع به.

- نعم سيدي القاضي لقد سمعت به لكن جميع الناس تعودوا الشروع في إحداث الشغب مباشرة بعد تنبيههم.

ثم أضاف:

- ألا ترى سيدي القاضي أنه يجب احترام القانون الذي تطبّقه الأغلبية؟ وقد فعلت ما يفعله الناس جميعا لا أكثر ولا أقلّ ألسنت أنا أيضا مواطنا لماذا تنزل اللعنة عليّ وحدي.

- أعلم أنّ أحدا لم ينكر عليك صفة المواطنة طبقا لتعاليم هذا البلد المتعارفة لكن يجب أن أذكرك أنّك أكثر من مواطن عادي.

وتوجّه القاضي للحاضرين ليستشيرهم قائلا:

- أليس كذلك؟.

ويا ليت لم يقل ذلك فقد انتفض العديد من الحاضرين ورأوا في ذلك السؤال فرصة للتدخل لا تعوّض. وتعالى الهرج والمرج والتململ والصياح واللجاج باسم حرية التعبير وكثرت الضوضاء وعمت الفوضى وارتفعت الأصابع والأيدي وبدأ الدزّ والفزّ والكرّ والفزّ والجّرّ والسبّ والجذب والضرب واللطم واللکم والشتم والسحل والاستفزاز والتحرّش فصاح صوت من داخل القاعة قائلا:

- حذار من سقوط السقف.

إثر هذا الإستنفار رجع كلّ إلى جبلّته وانبطح جميع الحاضرين: منهم من استلقى على الأرض ومنهم من اختبأ تحت الأدراج وأعمدة القاعة كأنهم يريدون تجنّب ما كانوا يعتقدون أنّه نيران العدو الماطلة بلا هوادة على رؤوسهم لذلك لاذوا بالفرار والهروب في نفس الوقت من الإجابة عن السؤال الذي طرحه السيّد القاضي بل كان القاضي نفسه يريد أن يتهرّب من الإجابة عن سؤاله لذلك تسلّل هو الآخر تحت مكتبه المغشّي بقطعة حرير سوداء ولم يبق في القاعة من الواقفين إلا سيفاكس وقد تملكته الحيرة واستولى عليه العجب هل كان سيفاكس أكثر من مواطن

عاديّ بالفعل.

هدأ الجوّ بعد ذلك الإستنفار ورجع الجميع لأماكنهم وواصل القاضي حديثه وكأنّ شيئاً لم يكن:

- أيّ وناش الحاصل الحاصل سيدي ... كنت أقول لا شك أنّك مواطن ولكن نزعّت عن نفسك صفة المواطنة عندما تصرّفت بغير ما يتصرّف به النّاس عادة ثمّ ما الضّير أن تتصرّف مثلاً يتصرّف جميع النّاس؟

- نعم لا ضير في ذلك بالفعل سيّدي القاضي لكنني شخصيّاً تصرّفت كالنّاس في الشّكل وتصرّفت في المحتوى بمفردي ولم أفعل ما يفعله النّاس عادة لأنّك انتباه جنابكم الموقّر أنّنا أضعنا شراع الأمان الذي يضمن لنا الإرساء في شاطئ السّلامة ونحن الآن سيّدي القاضي بصدد التّوهان انظروا: لقد أصبح العدل كاللبّان المعرّض لشمس الجنوب في قلب الصّيف من شهر أغسطس علكة سائلة لقد أصبح القانون يمثّل بيننا ما نفعله لا ما يطلب منّا أن نفعله سيّدي القاضي إنّنا بصدد حفر هوة بيننا وبين القانون وهذه الهوة تتسع يوماً بعد يوم لتفرّق بيننا كما فرّقت الزّلازل المتلاحقة بين أرض واحدة فانشطرت وتباعدت أجزاؤها عن بعضها البعض.

كان السيّد ليلبوس - يحتمل أن يكون ذلك تصغيراً لليل أو كناية للسوسة - يرأس جلسة في القاعة الكبرى وبجانبه انتصب بكلّ وقار من جهة السيّد رودلفو - أحد باعة الخبز المتعاقدين بالرّغم منهم ومن الجهة الأخرى السيّد روزان وقد كانت من قبل مغنيّة بملاهي التّسلية في ليالي الشّتاء القارصة والطويلة أمّا الآن فهي تعمل مستشارة ملحقّة بهذا المكان.

مأخذ ليلبوس أو قل من عاداته أنّه جبل على تدخين السّبيسي القصبيّ وهو أب الغليون حتّى أدمن عليه. أمّا رودلفو فكان يميّز بالخصوص بآثار جرح على أسفل الذّقن لا يمكن أن يكون إلّا من عمل شفرة حادة خلّدت إحدى ذكريات ألعاب طفولته بالنّار ومن عاداته كذلك أنّه كان يطلب من الحاضرين النّظر إليه كلّما تكلم أو كلّما أراد أن يتذوّق كأساً من كؤوس العصير الوردّي التي يقدّمها له من حين لآخر خادم القاعة بإذن من رئيس المحكمة وقد يجوز أن يكون مردّ تلك العادة بالذّات راجع إلى انحرافه المهنيّ الذي طبعه وأثر فيه.

حصل كل ذلك تحت رعاية الواجهة ذات العقارب الثلاثة والتي علّقت على الجدار مباشرة فوق رأس السيد ليلوس ولم يهدأ لها بال منذ بدء حصص محاكمة الملك المخلوع سيفاكس.

تلهى السيد ليلوس رئيس المحكمة الموقرة بتفحص وجه الرئيس المساعد من الأسفل إلى الأعلى وجعل ينظر إليه كيف يحول سواد عينيه إلى بياض وكيف يعوج وجهه ويمتص من شفتيه شقيهما ليضحك الحضور الذين لا رغبة له في الضحك في هذا الجو المخنق لكن الرئيس المساعد كان يشعر بالإنشاء كلما فعل ذلك واصل ليلوس مراقبة تصاعد حاجبي مساعده وانتفاخ عينيه وانضمام فمه العريض الذي كان يذكره بغم الحمار الضاحك كما كان السيد القاضي يتابع باهتمام نزول لعاب صاحبه على العباءة التي التف بها منذ أن بدأت هذه الجلسة.

وفي هذه الأثناء لا أحد يدري كيف بدأ تسريب ذلك الخبر المفزع الذي أفصّ مضجع الطامة والعامة والمتمثل في احتمال عزل أحد الشخصيات التي تتصدّر الحكم وسرعان ما تبنت السيدة اشاعة الخبر في بلد الاشاعة بامتياز بلد ليس له مثيل على الاطلاق في أمصار أو بلدان أو أقوام أو عصور أخرى ما جعل السيدة اشاعة تقتنع بانها في وكرها الحقيقي باعتبار ما تردد من قبل على ألسنة العارفين والعارفات أن هذا البلد بالفعل هو بحق وبلا منازع بلد الإشاعات. لذلك قالت السيدة اشاعة في نفسها:

- ألا يحق لي أن أكون أنا بالذات وفي هذا العصر بالذات وفي هذا المكان بالذات بل في هذا البلد بالذات ملكة الإشاعات. وسمحت لنفسها ولغيرها بتعليق لوحة على واجهة قصرها كتب عليها حفرا "جلالة ملكة الإشاعات المعظمة". ولم ير أي من السّكان والوافدين والزوّار والمارة مانعا لذلك بل كانوا يلوحون في القصر ببركاتهم ودعواتهم للملكة بدوام الصّحة والعافية والسعادة والهناء وطول العمر. وبناء على ذلك بدأت ولادة الأخبار في الإزدهار مستتجة ببركة آلهة الخصوبة تانيت وانتشرت أخبارها في كلّ حذب وصوب في البلاد شرقها وغربها شالها وجنوبها أعلاها وأسفلها وتعدّدت الأبواق وكانت كلما ازدهر إنتاجها وقلت مراجعها أو بقيت مصادرها مجهولة كلما سهل رواجها وعلقت بالرؤوس والقلوب وبمرور الزمن لم يبق من مصادرها ومراجعها إلا " قيل " وأحيانا " قالوا " وقد يسمح لبعض الثّقة من السّند الصّالح والسلف المصون بشيء قليل من التصرّف في ذلك على ألا يتجاوز ذلك الشّيء لفظ "سمعنا"

وفي اقصى الحالات لفظ "استفيد". لذلك وبمجرد أن تسربت أخبار الإشاعة المتعلقة باحتمال عزل القاضي ليلبوس حتى قامت القيامة وشاشت النعامة وأول من بدأ بالتعليق الصريح سيادة المدعي العام الذي قام ليوواجه القاضي مباشرة ويصرح أمامه وأمام الملء بصوت جهوري:

- أدعو من جناب رئيس ألهتنا الموقرة بعل حمون أن لا يساعد أبدا على تحقيق ما سمعناه الآن حتى لا يعزل هذا القاضي العظيم. وإن فعل فسأكفر به وأحاربه بكل قوايا.

وقال السيد الرئيس المساعد:

- أما أنا فلن أترف بعزله بل سأضحّي من أجله بالنفس والنفس.

وقالت السيدة روزان بصراحتها المعهودة:

- أنت يا سيدي القاضي أذكى رئيس محكمة عرفته في حياتي.

وقال المستشار الثاني متحمسا:

- لم أعرف قط أخفّ من ملائكة هذا القاضي

وانتفض مقعد الكاتب الموثق الفارغ انتفاضا شديدا فقبل له:

- ما بك.

قال:

- أنا فرح شديد الفرح لأنه نالني في وقت ما شرف جلوس هذا الرجل الرفيع الشأن فوقني.

ولما رأى لسان الدفاع نفسه ملزما بالمشاركة كسائر المسؤولين هنا قام بدوره ليصرح دون أن يخرج على مقتضيات قانون اللعبة ومستلزمات اللياقة وأخلاقيات المهنة وحتى لا يقال عنه أنه مستقيل أو يتهم بالغياب المقصود به التسليم في حق منوبه:

- أما أنا فإني أرى أن نحتفظ بشؤمنا هذا خير من أن يأتينا شؤم أكبر منه.

ولم يبق ساكتا إلا سيفاكس وقد انتابه الشك في صدق هؤلاء جميعا لكنه أسير ومتهم أصبح

في رمشة عين مجرماً في نظر القانون ولا حقّ له في الرّأي أو التّدخل أو التأثير في الأحداث ولم يمنعه كلّ ذلك من حقه في التّمعّ بالذهول المشروع في مثل هذه الحالات. وبمجرد أن خرج رئيس المحكمة ليلبوس لقضاء حاجته البشرية بحكم أنّه كان مصاباً بمرض السّكري وضغط الدّم والتبول المستمرّ حتّى قامت القيامة وشاشت التّعامّة من جديد وأوّل من بدأ بالتعليق سيادة المدّعي العام الذي أجهر بالقول في غياب سيّده:

- أدعو من رئيس ألهتنا الموقّرة بعل حمّون وبإلحاح شديد أن يساعد على تحقيق ما سمعنا به ويسارع في عزل هذا القاضي الحقير وإن لم يفعل فسأكفر به وأحاربه بكلّ ما أوتيت من قوّة وبأس.

وقال السيّد الرئيس المساعد:

- أمّا أنا فلن أعترف ببقائه قاضياً بل سأضحّي من أجل الإطاحة به بالنّفس والنّفيس.

وقالت السيّدة روزان بصراحتها المعهودة:

- إنّ هذا القاضي أغبأ رئيس محكمة عرفته في حياتي.

وقال المستشار الثّاني متحمّساً:

- لم أعرف قطّ أثقل من ملائكة هذا القاضي.

وانتفض مقعد الكاتب الموثّق الفارغ انتفضاً شديداً مرّة أخرى فقيل له:

- لماذا انتفضت من جديد وما بك تهتّر هكذا.

زاد المقعد في الاهتزاز والانتفاظ وبدا عليه القلق والامتعاظ ثم قال بصوت خشبيّ - أنا شديد التّعاسة لا بل أنا أنعس مقاعد الأرض لأنّني تدنّست وتشوّهت في وقت ما بجلوس هذا الرّجل النّافه فوقّي .

ولمّا رأى لسان الدّفاع نفسه ملزماً بالمشاركة كسائر المسؤولين هنا قام بدوره ليصرح على غرار ما فعل منذ قليل دون أن يخرج في نفس الوقت عن مقتضيات قانون اللعبة ومستلزمات اللّياقة

وأخلاقيات المهنة المطلوبة منه:

- أمّا أنا فإنّي أرى أنّ تبديل السّروج فيه راحة.

ولم يبق ساكتاً إلّا سيفاكس وقد انتابه الشكّ من جديد في صدق نوايا هؤلاء جميعاً لكنّه أسير ومتهم أصبح الآن مجرماً في نظر القانون رغم غياب الأدلّة ولا حقّ له في الرّأي أو التّدخل أو التأثير في الأحداث ومع ذلك سمح لنفسه بالقول خلسة:

- الخطر على هذا البلد يكمن في مثل هذه المواقف المتأرجحة التي تفتقد للموضوعيّة والشفافيّة والصدق والشّعور بالمسؤوليّة والثّبات على المبدأ.

ثمّ أضاف قائلاً بينه وبين نفسه:

- متى سيتنحّى هؤلاء عن الأعياب المراغة والزّور والرّياء؟.

توجّه نحوه الجميع وأجابوه بصوت واحد وكأّتهم تفتّنوا لما فكّر فيه:

- دبر على نفسك ولا تدبّر علينا ألا ترى أنّ الدّنيا مع الواقف.

فأجاب سيفاكس في الحين:

- أيّها القوم متى ستستهون من إتهام الدّنيا "بأنّها مع الواقف حتّى ولو كان بغلاً"؟.

الفصل الخامس

عندما يزحف ربيع الصَّيف المتأخَّر من نخوم أروقة العام الجديد المحمَّل بأساطير الزَّمن الأمَّ المتجدِّد في البقاء تبدأ لعبة الرِّياح والأنواء والمطر الغزير في تحدِّيها لفساتين المازة من النَّساء وتستمرُّ النَّسَمات في عبثها اللَّطيف بالأوراق والأشياء والحشرات والطَّيُور الرَّحَّالة والمقيمة على حدِّ السَّواء ثمَّ تشرع في العزف على أوتار خيوط الضَّوء المشدودة بأعمدة من الفضاء المسلَّح بالهواء والفراغ وذرات خفيفة صلبة قذفت بها أيادي الأزمنة عبر الانفجارات المتتالية وتحت وطأة لهيب الحرائق المتصاعد من أتون الكون الواسع العريض. ومع نزول هبوب الرِّياح إلى الأسفل ينتفي قانون جاذبيَّة الأرض وتبدأ الحجارة في الرِّقص بين ما تطاير من دخان وبخار وغبار من بقايا شضايا الأثرية المنحلة في قطرات الندى ويتدخَّل من حين لآخر مسحوق الأوراق اليابسة الملونة المتساقطة من الشَّجر ورائحة البخور العجعايج وتحركُ كلَّها لتكنس الأزقة والشَّوارع وتهبَّي الألووية للتَّظافة المطلقة. نظافة تبدأ رحلتها انطلاقاً من نوايا السَّجاي الطَّاهرات ثم تتواصل عبر العقول النيرة وتمتدُّ أيادها لتطهير الأرض المتدثِّرة بالفضاء الموشَّح بالعبور والألوان.

عندما تنفَّس الأرض الهواء الذي يصعد نقياً مصفًى من التَّحت الشَّغوف بالتَّطلُّع إلى الفوق المسكون بالحنين المتأصل في العمق ليتدخَّل في تشكيل تصاميم السَّحب المثقَّلة في سماء ترفض عمداً أن تسترجع أناقة زرقتها وتقبل استبداد العهن المنفوش المتراكم. عندها فقط تبدأ الكتل الصَّوفيَّة في الإنتشار المكثَّف لتزبد وترعد وتعزف ألحانها المحبِّبة لقلوب أطفال المرح والحبور من الرِّوَّار على مختلف أعمارهم وأمصارهم. ولا يتراجع هؤلاء الأبعد أن تذرف السَّماء دموعها على رفيقتها الأرض التي تشرع في امتصاص البكاء السَّعيد خوفاً على نفسها من الإنجراف ورغبة في الإمتلاء وربَّما رحمة بزميلة العمر التي ستظلُّ تنتظر استرجاع الكثير ممَّا سكبته بمفعول التَّبَخُّر المستمرِّ.

ويتواصل في هذه الرِّبوع السَّحريَّة تطهير الصَّيف المطلق من ناره وضجيجيه ويتواصل محو ما دكن من الأفكار وتبدأ السَّكينة في التَّبشير برحلة الإسترخاء للنَّوم الهادئ المطمئن في رحاب

مدينة الهدوء والإطمئنان والسكينة مدينة محملة برسالات العشق والمحبة.

الفصل السادس

اغتنم الزّوّار سكوت الرّاوي ليتجولوا بأعينهم في نقوش السّقف التي بدت كالتّجوم المعلّقة في سماء استمدّت ألوانها من ألوان طبيعة هذا البلد الغنّاء وخطوطها من انعكاسات شمسهِ الصّباحيّة وغلبت على واجهة هذه اللّوحة الرّائعة زرقة فاقعة تذكّر بزرقه سماءه الصّافيّة ولم يلبث السّقف أن أحال كلّ عيون المتفرّجين مباشرة إلى تصفّح أعلى الجدران لاكتشاف رونق الإبداع في أشكال الزّركشة ومحفورات الجبس المطيّ والمتّبع لمنعرجات الأقواس ومفاوز انحناءاتها وقد خيل لبعضهم أنّه يستمع للمؤرّخ قوتيي وهو يقول:

- لم تمتلك أيّ أمة القدرة على تطويع مادّة الجبس وفنون تكريشه وتحشيشه وتشكيله وإكسابه صلابة فولاذيّة غير معهودة فيه كما فعل العرب.

وفي هذه الأثناء استغلّ ندلة المقهى فرصة هذه الإستراحة القصيرة ليوزّعوا على رّوادهم القهوة البلديّة المعتمّة والمعطّرة بمقطّر الزّهر أو العطرشاء بحسب ذوق الشّارين كما سارع بعض المؤرّعين للترّجيليا وقوارير الشّيشة في تهيئة الفحم المشتعل المعدّ للغرض وتلبية مختلف الطّلبات الواردة من هنا وهناك وبدون إعلام مسبق استوى الرّاوي في جلسته وسوّى لفافات عمامته ومسح بيده اليمنى على أسفل ذقنه ثمّ تنحنح وكأنّه أراد أن ينبّه السّامع أنّه على استعداد لمواصلة حديثه. قال:

- اقتحم الجيش القصر بعد أن قتل الحراس واعتقل جميع الخدم والحشم الذين كانوا في الواجهة وخلع الجنود أبواب الغرف ودخلوا المنعرجات وصعدوا ونزلوا بحثا عن الأميرة وأهلها لكنّهم لم يعثروا على أحد منهم.

جنّ جنون قائدهم فأمر بنهب الأثاث وتحطيم الخزائن وتهشيم الأعمدة وتكسير الرّفوف وإزالة معالم الزّينة وحلّل الغنائم والسلب والسبي وقبل أن يغادر الغزاة المكان سمعوا رجات هائلة فإذا بأبواب القصر السّريّة ترتفع من الأسفل إلى الأعلى لتسدّ جميع المنافذ وتمنع من في القصر من الدّخلاء من الخروج واغتنم الخدم والحشم هلع القائد وجيشه ليفلتوا من فجوات القصر

الخلفية التي فتحت لهم قصدا وحاول بعض الجنود الإلتحاق بهم عبثا إذ أسدلت على الغزاة الستائر الفولاذية فإذا بهم كالفتران في المصيدة أسرى لا حول لهم ولا قوة. ولما شعر بعضهم بالهلاك المحتم حاولوا دك الجدران بما تبقى لديهم من أسلحة لكن القرع كان أضعف من أن يخل بالحصون المتينة فتكسرت التّصال على التّصال واعوجّت الدّروع وفلت السيوف وشلت الأذرع وامتألت العيون والأفواه غبارا واختنقت الحناجر وشرعت النار في التهام الأجسام وكثر اللّجاج وارتفعت أصوات الإستغاثة وصيحات النّجدة وكسرت شوكة القائد فإذا به يلقي بسلاحه ويستجدي أهل القصر ويطلب الرحمة والعفو ويقبل بالإستسلام والهزيمة.

وفجأة ارتفع صوت من خلف الجدران يطلب من القائد المهزوم المثل أمام المنبر المواجه. امثل القائد في التّو وبدون تلكّيء فإذا به يسقط في هوة ليجد نفسه أمام حرّاس مدجّجين بالسّلاح يواجهونه بالحراّب والحناجر ويأمرونه بالجثو على ركبتيه ويوثقون يديه ورجليه بأمتن السّلاسل. لم يتردّد القائد في القبول بتنفيذ الأوامر وما إن رفع رأسه قليل حتّى استمع إلى صوت يأمره بالإستعداد لمقابلة أميرة القصر.

ارتعدت فرائسه واهتزّ قلبه في صدره من شدّة الوقع ولم يستطع فتح عينيه في هرة الضّوء المركّزة التي سلّطت عليه تسليطا.

كان صوت الأميرة ينبعث منغما يغلب عليه الإتران والثّبات كأنّه لحن قيثاره شجي:

- هذه رسالة لأميرك المغرور ماسينيسا اخترتك أنت بالذّات لتوصلها له بأمانتك المعهودة وولائك المنقطع النّظير، وستكون مهمتك هذه هي الشّفيعة لك من موت محتم. ولأنّ مهمتك هذه لا تحتاج إلى غيرك فقد حكمت على جميع من أتوا معك من الجند بالإعدام ويمكن أن تطمئن أميرك وولي نعمتك بموت عسكري الغازي جملة وتفصيلا لأنك ستكون الشّاهد الأخير والوحيد على تنفيذ ما أنا قادمة على فعله الآن وبحضورك أيها القائد الهام. خذوه للفرجة قبل أن ينتهي المشهد، فالموت لا يقبل الإنتظار أليس كذلك؟

- السّمع والطّاعة.

هكذا أجاب كبير الحرّاس قبل أن تردف الأميرة قائلة:

- لا تنسوا أن ترسلوا به بعد ذلك لسيده الذي يتحرّق شوقاً لملاقاته وقبل ذلك استوقفوه قليلاً من فضلكم أيها الحراس.

والفتفت إلى القائد الأسير مضيفة:

- أيها القائد الباسل بلغ ماسينيسا تحياتي وقل له إن لحم صوفونيسب مرّ مرارة العلقم. أكّد عليه أنّ اعتقاله لزوجي الجنرال القائد والملك المعظم سيفاكس وما أدراك من سيفاكس ومحكمته له من أجل دفاعه المشروع عن وطنه بتهم جانبية أخرى غلب عليها التلّفيق والكذب والبهتان لن تقرّبه منّي. حدّره من مغبة قتل أو إهانة أو إلحاق أيّ سوء بزوجي وذكره بقدرتي على الإنتقام. تلقّى ماسينيسا الرّسالة كاملة غير منقوصة ولم يحرك ساكناً بل بدا وكأنّه كان يتوقّع ما جرى ولسان حاله يقول:

- صوفونيسب كما أعرفها لم تغيّر الأحداث من عنادها وإصرارها وأنا الوحيد الذي أعرف كيف أكسّر شوكتها وأمتصّ ثورتها وألوي عصا جنوحها للكبرياء.

ظلّ ماسينيسا يقلّب سيفه بين يديه ويديره يمنة ويسرة ويمسح عليه بأصابعه كأنّه يتلذّد بموقف صوفونيسب بل بدا وكأنّه يعتزّ بصلفها وتعتّها.

لقد كان متيّباً بها لحدّ الجنون لكن كبرياءه وعلوّ مركزه وقيّمته بين النّاس، كلّ ذلك كان يمنعه من التّصريح بما في داخله. كما كان يخشى أن يتفشّى خبر ميله لها بين العامّة وهي زوجة عدوّه وغريمه ورافع لواء العصيان في وجهه، ذلك الجنرال المتمرّد الذي نصب له كميناً لأسره وبعث به لمحكمة الشّعب المستعمر لتنظر في أمره بعد أن شدّد الخناق عليها ورّتب فصول التّهم وأحكم التّراتيب وأحضر الشّواهد وضبط التلبّس بما لا يدع مجالاً لتسامح القانون أو تساهله مع هذا المتمرّد العنيد، بل قد سنّ بعض الفصول للضّروّة قبل مثول سيفاكس أمام عدالة ساحة القاضي الأوّل وجناب القاضي الثّاني والمستشارين الأجلاء. لقد كان ماسينيسا حريصاً كلّ الحرص على الظّهور بمظهر الحاكم العادل التّزيه رغم شدّة بأسه وضراوة ردود فعله وتعنّف بعض بطانته. كما كان يخشى أن تعصف به رياح قلبه الوله بحسن وجمال وكبرياء صوفونيسب ويقدر ما كان يجبّها بقدر ما كان عازماً على ردعها بكلّ الطّرق حتّى الملتويّة منها لعلّه يظفر بعد لأيّ بغنمه وربّما

كان يقصد من وراء ضغوطه إثبات جدارته بها، فصوفونيسب أميرة الأميرات، فرس جوح لا يركبها إلا من تمرّس في الفروسية ومهر في أساليب الانتصار وتفرّد عن غيره بما يميّزه و ينزله منزلة القمة.

بل كان يعتقد أنّ لصوفونيسب فضل عليه كبير ألم يكن يحبّها وهو مجرد قائد بسيط ألم يرسل لها المكاتيب الزّاخرة بالشّعور الغزليّ ألم يكن تحدّيها له هو السّبب الرّئيسيّ في ارتقائه وتبوّئه هذه المكانة المرموقة في بلاده ألم تتعلّق رغبته بالتّبوة من أجل مجرّد الحصول على رضاها ؟ لقد كاد صدودها المتواصل أن يقتله لكنّه تغلّب على ذلك بتحدّيه وكبريائه بل ما زال يحتفظ إلى اليوم بتلك الرّقعة من الجلد التي أرسلها لها مكتوبة بصمغ النّعاج لكنّها ردّتها عليه دون أن تفتح لفافتها أو تكتشف ما فيها. ورغم ذلك ما زال يؤمن في قرارة نفسه أنّه سيأتي يوم يضع فيه تلك الرّقعة المكتوبة بين يدي صوفونيسب ويصرّ أن تقرأها أمامه بصوت مرتفع، أو يسمع ما كتب عليها بنفسه لقد كان مصمّماً أن لا تذهب رسالته سدى لقد حفظ ما فيها عن ظهر قلب.

وقبل أن تعصف به الشكوك والهواجس استسلم للرّاحة والإسرخاء على حصيرة مكتبته واحتلّ بنفسه ليردّد ما جاء في رسالته وكأنّه يريد أن يخرج من هزّته النّفسيّة أو يزيد في إقناع نفسه بوجهة نظره.

كان يقول في داخله:

— لا بدّ أن أتيح لنفسي الفرصة لإطلاع صوفونيسب على ما كتبت لها وإني على يقين من أنّها بمجرد ما أن تطلع أو تستمع للرّسالة فإنّها ستقف على مدى صدق جبي لها وولهي بها وهي سيّدة النّساء المثقّقات وأميرة الفنّ والشّاعرة الفحلة.

لقد أحسّ في نفسه برغبة جامحة لإعادة ترديد قصيدته من جديد للمرّة الثالثة أو الرّابعة بعد الألفين ولم يمكّن نفسه من الإستمتاع بذلك كعادته بل خطر على باله ترديدها جهرا للمرّة الأولى لكنّ شيئا ما كبج حجاج رغبته واستوقف لسانه بالرّغم منه عندئذ أدرك أنّه يريد أن يحقّق حلمه هذا أثناء مقابلة صوفونيسب والإختلاء بها لعلّه ينطلق من ذلك في البدء بمشروع العمر وانتابه أمل الانتصار كعادته ولم يمنع نفسه من الإنتشاء وازدادت ثقته في إصراره وسمح للنّوم بالهجوم

عليه واستسلم للأحلام.

سكت الراوي وكأنه شعر برغبة سامعية في معرفة أخبار صوفونيسب فبادر بالقول:

- خرجت صوفونيسب من عقر دارها مع أهلها وحاشيتها وأوصت من تبقى من حراسها بإخماد النار المشتعلة في القصر وجمع رماد الموتى ووضعها في صناديق حديدية والإرسال بها هدبة لماسينيسا ثم التحقت ومجموعتها بمكان آمن تفاديا لمحاصرة جديدة وانتقام مؤكد كانت تعرف ماسينيسا معرفة جيدة وتقرأ ألف حساب لمكره ودهائه وذكائه أيضا لذلك رسمت العديد من الخطط للإفلات من ربقته من جهة كما كانت تخطط لمشروع آخر اعتبره أهم من مصيرها من جهة أخرى ألم تكن قائدة هي الأخرى وزوجة أمهر محارب وبنت لسلالة من المدافعين والقادة الصناديد؟ ألم تنشأ في بيئة لم تغمد سيفها يوما ولم تنزع للسلم يوما ولم تستسلم يوما. وهنا استوقفتها ذاكرتها لتسترجع صورا من بطولة أمها زوجة والدها صدر يعل وحليفته في الكفاح. لقد تذكّرت والدتها حين أراد قتلة زوجها استمالتها وإغرائها بالهدايا ففضّلت أن ترمي بنفسها في النار وهي تردّد قولتها الشهيرة "النار ولا العار".

لقد كانت تعلم أنّ الحرب سجال وأنّ الخسارة مؤكّقة وأنّ العبرة بالمثابرة ورباطة الجأش والصبر على المهالك والتخطيط لتجاوزها والتأهب لكيل الصاع صاعين في الوقت المناسب والمكان المناسب وبالخطّة المناسبة. ورغم ذلك فقد كان يقلقها الخصم فهو ندّ لها في المجابهة وكفاء لها في الإصرار ومثيل لها في التحدي. لقد كانت تردّد بينها وبين نفسها كلّما خطر في بالها هذا العنيد ماسينيسا:

- حديد يقرع الحديد والغلبة للأمكر وأنا الأمكر.

ولم تتحوّل عن رأيها حتّى بعد أن تمّ اعتقال زوجها سيفاكس وزاد إصرارها بعد محاولة مهاجمة جنود ماسينيسا لقصرها بغية محاصرتها وسبيها.

لم تعرف صوفونيسب اليأس أو الخوف أو الرّيبة أو الوهن، لقد كانت معتزّة بالإنشاء إلى عرشها وفخورة بزوجها الجنرال الملك سيفاكس ولم يخطر على بالها قطّ أنّه هزم بل كانت على يقين من أنّه بصدد ترتيب أموره للإفلات من يد الجلّادين من جنود ماسينيسا ولم ينظر عليها مكر

هذا الأخير ومحاولاته لإقناع نفسه وعشيرته بعدله عندما أمر بمشول زوجها أمام محكمة المدينة التي سماها محكمة الشعب بل كانت جازمة أنه ما فعل ذلك إلا للتّمويه عليها هيّ بالذات بحسن نيّته وجنوحه للعدل وعدم انحيازهِ حتّى يقنعها بنزاهته ومروءته وعلوّ نفسه وتجاوزه عن زلّات خصومه بل كانت تعتبر كلّ ذلك من أساليب المراوغة التي جبل عليها دهاء ماسينيسا ولم تخفّف يوما من عزمها على تأديبه بما يناسب مكره ودهائه وهي أشدّ النَّاس علما أنّه يضمّر لها ولزوجها نفس مشاعر الحقد والغيرة بل إنّ حبّه لها لا يتعدّى أن يكون مجرد رغبة في التّيل من كرامة زوجها واحتواء أنفثتها وامتلاك جموحها وامتصاص نفورها منه، وربّما تكون رغبته في الحصول عليها ضربا من الغرور أو نزوة من نزواته العابرة أمّا أشدّ ما كان يؤلمها ويضرم نار الانتقام منه في نفسها هو بلا شكّ استنقاصه لزوجها سيفاكس البطل المغوار واستقصار جداره كما يقول أهل قرطاج لذلك كانت عازمة على تكريس كل جهودها من أجل أن يبقى زوجها في شموخه المعهود وأن لا تساهم هيّ في الإضرار بعزّته وشهامته. ألم يخترها سيفاكس من بين عشرات الأميرات الحسان حبّا لها واعترافا بخصالها ونبل سجيّتها.

الفصل السابع

نزل الرّاي يتفسّح بين الأنهج والسّاحات ثمّ توجّه راجلا نحو ديار الرّوض المطلّ على البطحاء الوسطى والتحق به جمع من الأطفال المتعطّشين لأيّام الأزمنة الغابرة وحكايات السّلف لعلّهم يقتنصون منها ما كان يلوّح به حبّ اطلاعهم من إشارات ورغبات ونوايا مدفونة في سراديب فضولهم وقد كانوا يعزّزون خيالهم الخصب بما تتيحه مدينة الأحلام لهم من مناخ يذكّر بحضارة وبأصول أجداد أجدادهم كانوا يمسحون بأيادهم البريئة على الأعمدة المشوقة كأنها الحارس الأمين على آثار تتحدّث بلغة القلب وتردّد ترانيم الوجد وتهدي لعيون الطّفولة سندا تسترجع به ثقتها في الأيام وتشجّعها في صمت وأناة للمضيّ قدما من أجل مواصلة البناء لذلك الغد المشرق الذي تتطلّع له براعم طفولتهم الواعدة المليئة بالأمل في اليوم السعيد المطلّ على الغد الأفضل. مسح الرّاي على الرّؤوس الصّغيرة ذات الشّعور الناعمة وتبخر وكأنّه أراد أن يختلي بنفسه قليلا وبقي الأطفال يبحثون عنه بين السّوق المجاورة وساحة العطارين المتصبّتين هنا وهناك. كانت عيونهم تداعب مشارف القلاع المطلة عليهم من بعيد وكان يحلو لهم في الأثناء الصّعود والتّزول على المدرج المتاحه لهم والتي تذكّر بعضهم بالقهوة العاليّة وخيل لهؤلاء أنّهم يشاركون في خرجة وليّها الصّالح ودخل بعضهم في تخميرة لم يستفيقوا منها إلّا عندما وصلوا إلى ساحة تشبه إلى حدّ كبير ساحة الحلفاوين أين وجدوا أصدقائهم في انتظارهم يتبرّكون بالولية سيدي أبي الحسن الشاذلي راعي مدينة تونس وحامي حماها وحارسها الرّوحي. وتذكّر بعضهم مقام العديد من الأولياء الصّالحين الذين تولّت قبورهم وزواياهم حراسة العديد من الأماكن والقلاع والمدن والقرى كزاوية سيدي المسطاري ببنزرت وزاوية سيدي المازري المولود والمتوفى بالمهدية ومع ذلك تولى مقامه حماية المنستير التي دفن بها ومقام سيدي عمر بن عبد الجواد بحومة العكارمة بقصر قفصة وسيدي أحمد التّلي بقريانة وسيدي علي خنفيّر بقرقنة وسيدي منصور بصفاقس وغيرهم كثير وانطلق بالأطفال المرح نحو باب البحر واستهوتهم الأمواج الهادئة لكنّهم خافوا أن يفوتهم حديث شيخهم المحبوب راوية أحداث ناس الرّزمان وسالف العصر والأوان. مرّ الأطفال بسرعة تحت سباط يشبه سباط قبة الهواء وشعروا كأنهم بالبلفيدار أوبالمرسی ثمّ

أسرعوا الخطى نحو الزَّلَاقَة حتّى لا يفوتهم الإستمتاع بالزَّرْزَاحَة وشقّوا طريقهم مروراً بنهج صغير يخرج من سقيفة طويلة ويفضي إلى حديقة غنّاء أتاحت لهم استنشاق عطر سباط التّرجس وزهره الفوّاح وخطر لهم التّفسّح قليلاً بين شجيرات الياسمين وشرعوا في ترديد لحنها المميّز " تحت البسمينه في اللّيل " وعلّق كلّ منهم مشمومي فلّ وياسمين وتوجّهوا بها نحو التّهج المقابل وكأنّهم يحملون تأشيرة جواز سفرهم إلى ربوعه فأحسن استقبالهم ووجّههم بالموسيقى إلى بهو قصر قديم وخيل لهم أنّهم انتقلوا بأجنحة سحرية إلى الجنوب التّونسيّ بين أحضان مدينة توزر من خلال سباط يذكر بسباط الظّلام بالجريد لكن المصابيح المضيئة في النّهار كانت تضيي عليه سحنة أكبر من التّقاؤل والإنسراح المشروعين. كانت الحياة بمدينة الأحلام تبتكر لنفسها كلّ يوم زينة جديدة تطرّز خيوطها أشعة الشّمس الدّافئة وتستعيرها في اللّيل النّجوم المتدلّية كقلادات الزّمرّد اللّماعة على أصابع العذارى السّاحرات السّابحات في الفضاء الرّحب من تلك السّماء التي تحتضن الأفق وتحافظ عليه بأمانة شرسة خوفاً من عيون الحسد حسد يتطاير منه الشّرّ فتمتصّه الأضواء والألوان وتذنيه بين كفوفها بخاراً يحترق مع كل ومضة برق فإذا بالعدارى المحنيات لسوالفهن وأطراف أصابعهن تستبقن العصافير وتعلمنهن ترانيم الوجد الممتّق وترسل ما صفى من أنغامها هدية ولواء ومحبة للأرض الأم فتملؤها بالحنين العبق وتدغدغ بلطف أناملها السّحرية شذا خصلات الشّعور النّاعمة المترامية على ضفاف الزّمن الهارب وتلين برد الزّمهرير وحرّ المّلح وتخفّف من سرعة الرّياح وتمتصّ غضب العواصف وتهبّ لنعمة المطر البساط وتحتفل مع براعم الشّجر في الليالي السّود وتشرب كأس النّدى في انتظار الليالي البيض وجمّرتي الماء والهواء ثمّ توزّع للدنيا باقات الألوان وروائح العطور وتملأ القلوب عشقاً بترانيم أمل سخّي يجعل كلام النّاس ياقوتاً وآهاتهم زمرداً ويحوّل دموعهم إلى لؤلؤ مذاب تعطرّ به الرّحمة وتحمّر به الأفواه شفاهاها دون أن تمسح منها الضّحكة الخجول المفتوحة على البهجة والإنسراح. شوارع المدينة وأزقتها ترقص على وقع قيثارة النّسيات المسكونة بالعفوية والتي تعزف لذرات الرّمّل ألحان نشيد الأجداد فيلتحم بالقلوب الغصّة ويبني بها عشّاً للحنين. عشّ يتسع بدوره ويتسع ليشيد جسراً للتواصل يمدّ يده العطوف النّاعمة للعصور ويضمّد ما تصدّع منها أيّام الوجد والجراح ويولد أملاً أخضر في لون البلاد يرتفع لينطح السّحاب ويتجاوزه ليقبل الشّمس ويغازل القمر ثمّ ينام في أحضان الكواكب والأجرام السّاوية ولا تتوقّف الحياة بالمدينة عن الولادة وفي كلّ يوم

تحتفل البناات والسّاحات والشّوارع والأسواق والشّواطىء الحافلة بالنّاس بعرس من أعراس الإبداع المتجدّد. وتساقط قطرات النّدى ولفحات الشذى جبلى بالضوء المتدفّق من شرايين الطّبيعة فإذا بالهواء يتصب ملاكا يزفّ الخلود ويثر الوئام والسّلام في الأرجاء المتلخّفة بالسنّة الشّوق والمتبرّجة بالخيال والوئام والسّلام والشّوق والهيام



ماسينيسا

الفصل الثامن

لم يشرع الراوي في استئناف القصة إلا عندما تأكد أنّ جميع الناس بما فيهم الأطفال قد تحلّقوا من حوله ولم يغيب منهم أحد وقبل أن تحاول إحدى السيّدات حتّث على الكلام قال:

- وكما يفعل أو سيفعل أي قائد في مثل هذه الظروف قام ماسينيسا من نومه مذعورا ونادى ابنه ومساعدته ميسبسا ليعلّمه أنّه اكتشف السّر الخطير المتعلّق بالصّوت المنبعث من داخل محكمة الشّعب. ذلك الصّوت الذي أفادت الدّوائر المطّلة أنّه تبخّر في السّماء وأفادت مصادر موثوق بها أخرى أنّه بلا صاحب ولا صاحبة وأكّدت بعض المستندات كذلك على احتمال ثالث ورد عن لسان الإشاعات يقول بأنّ الصّوت وصاحبه ابتلعتهما الأرض.

ولم يخرج ميسبسا علماً يطرأ لأيّ رديف في مثل هذه المواقف لقد ذهّل ذهولا كاد يؤدّي بحياته ويحرم ابنه هبصال وأدربال من طعم الأبوة العبق ونعيم الوراثة المرتقب ويفتح لابن عمّهما يوغرطا باب السّعد على مصراعيه ليدخل في الحكم بلا منازع ولا غريم. وكأنّ ماسينيسا تفضّل إلى هول ما كانت ستؤول إليه الأمور فأسرّع باستفاقة ميسبسا بمحوّل الخلّ السّكري ومركّز الزّعتر القمودي وماء مردقوش تلال زغوان وما أن استرجع الرّجل وعيه حتّى أدركه ماسينيسا بالخلّ الكامل مضيّفا:

- أكنتم السّر فلا أحد غيرنا يعلم أنّ صاحب الصّوت هو حنّبل.

- وكيف استرجع صوته بعد كل هذه المدة أعني بعد طول موته؟

- أمثال حنّبل لا يموتون ... لقد سبق لي ان انبأك لذلك أنت لا تعرف حنّبل وإن عرفته فبالسّماع أمّا أنا فعاشرته بحكم انخراطنا معا بصفة مباشرة أو غير مباشرة في العديد من المناوشات والمواجهات والمعارك والحروب وعرفت عنه الكثير كان مسكونا بوطنه مؤمنا بقضيّته كثير الإصرار على التّضحّيّة من أجله. وقد رضع التّفاني في الدّفّاع عنه منذ نعومة أظافره وتعلّم كلّ ذلك من أبيه أملكار بركه.

- لكن وقد فعل ما فعل ثم انهزم وتوفيّ بشهادات الشّاهدين ماذا ينتظر بعد ذلك ؟

- أهل قرطاج لا يعرفون الهزيمة. وبالأخص حنبعل إسألني أنا فقد خبرته من خلال ممارسات الضّغط عليه وتحالفت مع أعدائه ومازلت وقد تعلّمت منه ومن أمثاله في مبارزاتي معهم ألاّ أفرح بغلبتي لهم وتعلّمت كذلك ألاّ أذوّق طعم الانتصار ونعمة الرّاحة ما دام من بينهم حيّ واحد وأهمّ ما تعلّمتهم أنهم أنّ أمواتهم أخطر من أحيائهم لأنّهم قادرون على تمرير حبّ هذا الوطن والدّود عنه لمن يأتي بعدهم بأسهل ما تتصوّر .

- نحن نتغلّب عليهم للمرّة الثّانية وأعتقد أنّ هذه المرّة لن تقوم لهم قائمة فقد كسّرنا شوكتهم وشتّنا شملهم وفكّنا جمعهم وقطّعنا ملكهم إربا إربا ومزّقنا تكتّلهم وأسّرنا معظم قادتهم وأبدنا أخطرهم وما زلنا في أوج انتصارنا عليهم.

- وهذا بالضّبط ما يخيفني ألم أقل لك أنّ صوت هؤلاء لا يخبّد.

- ربّما تحمل الأخبار التي وردت عليك تهيّؤات وكوايس اجتهدت أنت في تأويلها أكثر من اللاّزم.

- أنا لا أوّمن بالخرافات ولا أرّجل توقّعاتي. لقد نظرت في الأمور مليّا وقلّبت المسألة تقليباً جدّياً وتحرّيت في تحليل ملاساتها وقرعت الدّليل بالدّليل وتوصّلت إلى ما أفدتك به ولا بدّ أن تأخذ ما قلته لك مأخذ الجدّ فالأمر يهّمك بقدر ما يهّمني بل ربّما يهّم مصيرك أنت أكثر منّي فأمثال حنبعل ينبتون من لا شيء فالتراب تراهم وهو يعرفهم ويعرفونه ويحنّ إليهم ويحنّون إليه وهم اللّذين علّموا هذه الأرض الخصوبة والعطاء وأكسبوا الثّراء وقد خبروها وخبرتهم

- صحيح أنت محقّ سيّدي في ما تذهب إليه لقد تجسّمت خصوبة أرضهم في تانيت تلك الإلهة التي حضنتهم وأرضعتهم النّماء وأبعدت عنهم الجذب وأعطت للملكهم عليّسة قوّة تأسيس عظمتهم وحصّنتهم بالمناعة.

- بل علّمتهم المثابرة وطول النّفس والصّبر على المهالك والقدرة على تجاوز العقبات وأكسبتهم العزم على استرجاع الحياة من العدم تماماً كما تفعل النّبتة الرّاوية في الأرض المعطاء.

أسأل التاريخ عنهم أنهم قوم يصنعون الأمل من اليأس ويستخرجون القوة من الضعف والحياة من الموت وسيضلون كذلك

- وما العمل الآن سيدي الأمير؟

- سأقنع شبيون بمتابعة المحاكمات.

- ونعلمه بخبر حنّبل.

- إياك أن تفعل ذلك. لقد أوهمناه إلى حد الآن أننا قضينا على جذور أعدائه وأطفأنا جذوات التنطع وأقباس التمرد. ربّما يتراجع عن تحالفه معنا أو يستخفّ بقدرتنا عندما يتأكد من أننا لم نستطع قلع أصل الخطر المحدقّ به ويتفطنّ إلى أنّ كلّ ما فعلناه معه هو مجرد تقليد سطحيّ لبعض أوراق الشجرة الأمّ التي تمثّل مصدر فزعه وفزعنا. إياك ثمّ إياك أن تتجاوز هذا الصنيع. قلت لك منذ قليل أكنتم السرّ وسأتولّى بنفسى تهية الجوّ المناسب والظّروف الملائمة والصّبيغ التي يمكن أن نقدّمها لشبيون بخصوص هذا الشّان. عن قريب سأعلمك بما أنت مطالب بالقيام به وابق في وضع استعداد.

قال ماسينيسا ذلك وهو لم يدرك بعد ما سيفعله ولا كيف سيواجه هذه المشكلة العويصة لقد انتهت الحرب البونيقية الأولى بعد ثلاثة وعشرين سنة وبعد خمودها النسيبيّ بثلاثة وعشرين سنة أخرى اندلعت - نفس الحرب من جديد وكأنّها تكرر أو نسخة مطابقة للأصل من الحرب الأولى. ورغم الإنهيارات والانتصارات من جانب أو من آخر وما تمّ اكتسابه واحتسابه لمصلحة هذا الطرف أو ذاك في الحرب الأولى فإنّ الحرب الثانية الجارية الآن لم تعرّ لما وقع في نظيرتها أيّ اهتمام فكأنّها تجاوزت الأحداث برمتها أو مسحتها تماما لتتواصل كما بدأت منذ ستّة وأربعين عاما خلت بنفس الضّراوة ونفس المجاهيل. كلّ الأوراق اختلطت من جديد وكأنّ شيئا لم يكن. حتّى الحسابات لم تعد صحيحة. كلّ شيء تراجع إلى الوراء ليبدأ وكأنّه لم يتصرّ أحد ولم يهزم أحد وبقي الحقد سيّد الموقف وانتعشت الكراهية وتوالدت الدّسائس وتواصلت الخيانات المدروسة والمحسوبة وحتّى العشوائية أيضا.

لم يعد ماسينيسا يصدّق انتصارا أو هزيمة أو تراجعاً أو احتلالاً حتّى الموت فلت من محتواه

وتصدّع مفهومه وانحرفت تقاليدته لذلك لم يعد يقوى على تصديق مفعوله. كان ماسينيسا يقول في نفسه:

- ربّما تكون معركة أرواح بأجساد أشباح ولا أستبعد أن أكون أنا بنفسى أحد تلك الأشباح وربّما يكون السّجال في هذه الحرب مجرد تهيئة لأمر أخرى وحسابات أخرى وأقوام آخرين ونكون فيها نحن جميعا بعداواتنا وصدقاتنا مجرد قطع غيار تملأ فراغات معيّنة في وقت محدّد لها ثمّ يعاد التّرتيب من جديد مرّة أو مرّات من أجل اكتمال مشهد نحن نجهله يكون هو المشهد العامّ الحقيقيّ الذي يبحث عنه قانون اللعبة الخفيّة التي تصرّف علينا وعلى من قبلنا ومن بعدنا أحوالها ضمن مخطّط مسبق مدروس المعالم ومرسوم الملامح والتوجّهات. في الأثناء تفتّظ ماسينيسا لوجود ابنه الأكبر ميسيسا أمامه في وضع الإستعداد فأمره بالإستراحة والإنصراف خوفا من أن يضطرّ إلى تقديم تفاسير أخرى تخرج الرّجل أو تربكه أو تكون أرفع من طاقة استيعابه الذّهنيّ على الأقلّ في هذه المرحلة من عمره وتجربته.

رجع ميسيسا إلى زوجته وابنيه وكلّه توق وشوق للنّسيان وتجاوز أزمة التّفكير التي حشره فيها والده ورئيسه المباشر ووليّ نعمته ماسينيسا. وتحقيقا لما يصبو إليه دخل مع ابنه هبصال وأدربال في لعبة الحصان والعربة وتعمّد إدراج زوجته في اللعبة لأوّل مرّة وقد اعتبرت ذلك اهتماما منه بها لذلك تفانت في الأداء وقامت بالمهمّة بكلّ شغف واقتناع ونسيت عناء الشّؤون المنزليّة التي كانت ترهق كاهلها لا شيء إلاّ لأنّها ما زالت زوجة قائد صغير الحجم في سلّم التّرتيبات العسكريّة. ولكنّها لم تيّس. أمّا ماسينيسا فقد فكّر مليّا وبعد أن عصر مخّه قال في نفسه:

- لقد سبق لمحكمة الشعب هذه أن استقبلت الكثير من القادة والملوك وقد استطاع بعضهم أن يقدموا أنفسهم في ثياب المنتصرين حيناً والمكافحين حيناً بل وصلت ببعضهم الوقاحة الى رمي جميع خيياته على الآخرين وذهب في ضن بعض من استمع لهم أنهم نسخة النجاح الوحيدة في هذا البلد لماذا لا أتسبّب في محاكمة أيّ دعيّ أحمق؟ لماذا لا أقدم بعضهم في الحجم الذي أراهم أنا فيه شأني شأن كل الساسة ممن سبقوني وكل من سيلحقوني عندما يقررون تقزيم غرائهم وتحجيمهم والتقليل من شأنهم وسيطهم.

وأضاف متدرّجاً في تفكيره:

- لماذا لا نحاكمهم بدون أن يمثلوا أمام المحكمة غيايباً كما يقول أهل الذّكر؟. يمكن أن يضطرّ بعضهم في هذه الحال إلى إرسال أصواتهم من جديد لقاعة المحكمة للدّفاع عن أنفسهم ونمسك وقتها بأصوات غرائنا في تلبس ثم في مرحلة أخرى نحاكم بعد ذلك أو أثناء ذلك كلّ من يتحدّث باسم غير اسمنا بل ربّما نضرب عصافير عديدة بحجارة واحدة كأن نوقف كلّ من سيتبادر الى ذهنه التّشكّل في صورة أي أحق أو حتى من يشبّه بهم فإذا ما عنّ لأحدهم الظّهور من جديد في أشكال أخرى أو شخصيات أخر فسيلقون على ظهورهم حملاً ثقيلاً يرهق كاهلكم ويحبط عزائمهم ويشيهم على استنساخ غيرنا من جديد وذلك هو الموت الحقيقيّ لمثل هؤلاء وان كنت وما زلت أعتقد أنّ أي غريم ممن سبقونا لن يأتي وحده للمحكمة لذلك لن نتوانى عن أن نلحق بهم على نفسنا ومن لفّ لفّها وبذلك نتمكّن من القضاء على ذكرى هؤلاء جميعاً قضاءً مبرماً ويبقى ذكرنا وحدنا هو السائد في هذا البلد الذكري هذا مرتبط فرس السّاسة قديمهم وحديثهم الذّكرى هنا المسألة ومقاومة ترسيخ الذّكرى بالمحاكمات وبالتّشويه وبهتك الأعراس بالتّشكيك وبالجحود وبالتّنكّر وبالسطو على المكاسب أو تهديمها أو التّقليل من شأنها كلّ شيء جائز لمن يريد تخليد ذكره دون غيره وحَتّى على حساب غيره وبمجرّد أن قال ذلك قفز وصاح بصوت مرتفع وهو يحكّ كفّاً بكفّ كأنّه أمسك الأسد من أذنه.

- لقد اكتشفت الآن سياسة جديدة لم تخطر على بال أحد من قبلي وربّما لن تخطر على بال أحد من بعدي وسأسمّيها سياسة المراحل أحبّ من أحبّ وكره من كره.

وحَتّى لا يأخذ الغرور منه مأخذه تدارك أمره ورجع لما كان فيه من تفكير واستطرد يقول:

- في سياق محو ذكرى من سبقنا في هذه الرّبوع لماذا لا نحول المحكمة إلى المدينة التي نشؤوا فيها لتكون خير شاهد عليهم وعلى نزاهتنا تجاههم وتجاهها كذلك ؟ ولا شك أنّ الرّومان سيساعدوننا في ذلك ويقفون معنا لتحقيق ما نصبو إليه أنا متأكّد أنّهم يقسمون معنا هذا الطّموح ليصبح كلّ من سبقنا من القادة فاشلين في مهمّاتهم بالدليل والحجّة فاشلون تاريخيّاً وان لم يمنهم فشلهم من الخلود لكن ليس على حسابنا ولا رغم أنفنا.

وما أن انتهى من أسئلته واستنتاجاته حتّى خطر له أن يبعث لمساعدته ميسبسا ويأمره بالقدوم حالاً والمثول أمامه في التّو والسّاعة. وجاء إليه ميسبسا على جناح السّرعة ولم ينته بعد من استكمال لعبة الحصان والعربة مع زوجته المسكينة وابنيه.

بعد اجتماع مغلق وخطير بسّده غادر المساعد المكان بأوامر مضبوطة حفظها عن ظهر قلب والتزم بتطبيقها بحذافرها في إبّانها وقبل أن يذهب ميسبسا بعيدا رجع إلى حيث ما زال يقبع ماسينيسا وسأله:

- لكن ما هي التّهم الّتي سنحاكمهم بها وما يجب أن نقدمه لأرشف محكمتنا كي يمرّوا أمام القضاء لا كشواهد عصرهم؟

- أيّها الغيبيّ هذه الأمور ليست من مهامنا نحن. دع المحكمة تتكفّل بذلك فهي ما جعلت الّا لوضع التّصورات اللاّزمة لما تراه صالحا للسياق ثمّ ما نقوم به أو سنقوم به ليس بدعة بل ينسهر في سياق المراجعات المستمرة لما سبق لتعزيز ما لحق وهي اجراءات معمول بها في كل عصر ومصر ثم أنت ما دخلك في هذه المسائل الخاصّة بالمحاكم أليست بها دائرة اتّهام شغلها الشّاغل والوحيد إلصاق التّهم بأصحابها. ثمّ لا أدري لماذا تحكّ ما لا يوخزك وتحشر نفسك فيما ليس لك به علم أو دراية أم تريد أن تتعلّط على رجال القانون وربّما كذلك على نسائه لتتجاوزهنّ وتتجاوز الجميع؟

- لكنّني لست امرأة.

- و لست رجلا.

طأطأ ميسبسا رأسه خجلا وربّما حنقا أو كراهيّة لكنّ ماسينيسا استدرك الأمر قائلا:

- أقصد أنّك لست رجل قانون.

-الآن فهمت سيّدي... اطمئنّ سأنفذ أوامرك جملة وتفصيلا وبالروح الّتي تريد سيادتكم.

- من المستحسن الّا تتجهّد كثيرا في الرّوح وأن تعيّن ضمن المستشارين من يمثّل الطّرف المقابل تمثيلا صوريّا على أن يبدو ذلك التّمثيل مقنعا ظاهريّا فنضمن أقصى ما يمكن من الموضوعيّة في نظر الجميع.

ثم سكت قليلا وأضاف مؤكدا:

- كما لا تنسى أن تعين من يدينون لنا بالولاء واجعلهم يظهرن بمظهر المحايدين كما لا تنسى أن تشرك المختصين في ترتيب ما نصبو إليه بالتفصيل والجملة واحترهم من الذين يتوقون لشرف خدمتنا ويحملون بإرضائنا ويصبون لرضانا عليهم ويطمعون في نعمتنا واحرص أن يكونوا من أصحاب القناعة واذكر في ذلك المثل القديم الذي يقول "خذها من يد شعبان جاع ولا تأخذها من يد جوعان شبع".

قال ماسينيسا ذلك وهو يحاول أن ينبه وكيله لأمر ما لا يريد أن يجهر به كليا ومع ذلك كم كان يأمل أن يفهمه ميسبسا. تنحى ماسينيسا ليعيد صقل صوته وأردف يقول:

- من أهم ما في المحاكمة الموضوعية أقصد التي تبدو موضوعية أنها لن تكون كذلك إلا إذا تم إشهارها بين الناس والتأكد على توفر عناصر الموضوعية في كل صغيرة أو كبيرة تقوم بها المؤسسة العدلية بل لا عدالة بدونها وبقدر ما يستطيع الحاكم التأكد على توفرها والتظاهر بالعمل بها بقدر ما يشتهر بالتزاهة ونظافة اليد ونحن في أشد الحاجة لذلك.

- السمع والطاعة سيدي الأمير قلت لك لا تقلق فأنا أعلم ذلك أشد العلم وسأكون حريصا على توفير ما تطلب حتى أبقى عند حسن ضحك. وسأبدأ بتطبيق أوامرك من الآن وسأعلم سيادتكم أولا بأول بكل تفاصيل الأحداث وكذلك بكل ما يطرأ من ملابسات وأوفي عنايتك بسيرها تباعا.

- لا تتدخل في شؤون المحكمة ولا المحاكمة وحرك الخيوط من بعيد وتجنب أن يعرف أحد ما نحن بصدد ترتيبه.

- وشييون؟

- سوف أعرف كيف أقنعه بمحاكمة أي كان دون أن نكشف له نوايانا الحقيقية.

- أدرك ذلك سيدي وأنت تريد أن تختار ما ينبغي أن يدرجه في استراتيجيته كما تقتضي مصالحنا لا مصالحه.

- لقد بدأت تفهم بعض منعرجات السياسة ومتاهاتها.

أجاب القائد على الفور:

- كل ذلك بفضلك سيدي.

- الدربة والحنكة مهمتان في مهنتنا يا ميسبسا.

- أكيد سيدي.

- المهم ألاّ تضنّ أنك استوعبت أو فهمت كلّ شيء فطريقك ما زالت طويلة وشاقّة وستكتشف ذلك من خلال المهمة التي ستباشرها. كن حذرا.

- أعلم ذلك سيدي وأنا على استعداد للتعلّم منك ومنها.

- ومن غيرنا كذلك لا بدّ من استغلال كلّ الفرص انصرف الآن صاحبك السّلامة ولتنتصر بك الآلهة.

انصرف ميسبسا وهو أكثر خوفا من ثقل المهمة التي كلّفه بها قائده ولكن في نفس الوقت كان مصرا على أدائها على الوجه الأكمل علّه ينال حظوة أكبر لدى سيّده ويتحصّل على رتبة أعلى تكبّره في عين زوجته وترفع من مقامه بين النّاس وتزيد من مكانته وعلو شأن عشيّرة عمره بين نساء البلد.

كان يعلم ميسبسا أنّ من سبقهم ليس بالسّهّل النّيل منهم أحياء كانوا أو ميّتين وأنّ محاكمتهم سلاح ذو حدّين بل كان يساوره أحيانا الشكّ في حصافة الفكرة في حدّ ذاتها. ألم يفكّر منذ قليل عندما كان بين يدي سيّده في الأمر حتّى كاد يفلت منه لسانه بالسّؤال الخطير:

- ما الجدوى الحقيقيّة من هذه العمليّة بل ربّما أراد أن يسبق الأحداث ويقول بأنّه شخصيّةا يكاد يعتبرها عمليّة انتحاريّة ولكنّه غلب ثقتّه في سيّده على رأيه الخاصّ واعتبره انطبعا لا أكثر ولا أقلّ بل ربّما قال ذلك ليهدّئ من روعه وينزل خوفه المحموم إلى درجة الصّففر. هل كان يخشى أن يفقد ثقة وليّ نعمته أم كان يحسّ برهبة من التّخطيط لمجابهة أيّ من رموز النجاح الذين

سبقوهم وربما حتى الذين سيأتون من بعدهم

ربّما كان ذلك أهمّ الاحتمالات الواردة في هذا الصّدّد على كلّ ومهما يكن من أمر فقد عزم على تنفيذ الخطّة وأصرّ كذلك على دراسة ومتابعة أطوارها قبل حدوثها ولن يدّخر أيّ جهد في استنباط مقوّمات نجاحها كلّفه ذلك ما كلّفه وسيرجع لقائده

كلّما اقتضت الحال للتّشاور معه في شأن أدقّ التّفاصيل. فهو لا يريد بأيّ حال من الأحوال أن يتحمّل وحده المسؤولية ولا يريد أن يكون كبش فداء أو شماعة إذا ما كتب للمشروع أن يفشل لأنّه يعلم أشدّ العلم أن فشله يجزّ أصحابه للهلاك المبرم. وقد تعلّم من سيّد الإقدام بثبات وعدم التّهوّر باسم الحاس الفياض أو الإفراط في التّقة بالنفس ألم يقلّ له القائد والأمير المحتكّ ماسينيسا مرارا وتكرارا في مناسبات عديدة:

- إن السّياسة هيّ المرولة على جبل دقيق مرتفع في الفضاء بلا أعمدة أو حصون وبلا سند وأنّ السّقوط من ذلك الجبل فناء إلى غير رجعة وموت كلّّي.

لقد تعلّم ميسبسا القيس قبل الغوص وتدرّب على الحذر وأخذ الأمور مأخذ الجدّ وعدم التّهاون باليسيط من الأشياء كما تعلّم أن لا يجازف وأن لا يستصغر أيّ شأن من شؤون الدّولة لذلك قرّر الإستعانة في قضاء مأربه بذوي الخبرة في الميدان ممّن يثق فيهم من أهله وذويه وبعض أصدق أصدقائه على قلّتهم.

اغتنم الأمير ماسينيسا فرصة اختلاّته بنفسه ليعيد ترتيب شؤون داره العقليّة ويوضّح ما يعتزم القيام به في المستقبل القريب. وفي تفردّه مع نفسه وخلوّته كادت الهواجس أن تعصف به لولا سرعة بدهته وفطنته. كان يرتّب اقترابه من حليفه شبيون حتّى يؤكّد وفاقه معه والقائم على مصالح كلّ منهما. كانت لشبيون مطامع لا يمكن أن يحقّقها إلّا بالتعاون مع ماسينيسا وكان لماسينيسا هدف لا يمكن أن يساعده فيه إلّا شبيون ولكنّه كان يعلم أيضا أن هذا الأخير يفكّر في احتوائه وربّما يهيّء لذلك منذ مدّة يمكن أن تكون قصيرة أو طويلة ومن ثمّ كان حذره منه مشروعا وواجبا

ظلّ يتحسّس الأمور ويتلمّسها ويأكل وقيس كما يقول المثل الشّعبي التّوميدّي. ألم يعمد

إلى اقتراح محاكمة من يسبقهم من أجل تذكير شبّيون بشبح الخطر المحدّق به وبذلك يقلّل من نشوة انتصاره ويحدّد من ركوبه صهوة الدّعوة والإفراط في الإعزاز بمكاسبه ويخلق لدى هذا القائد الرّوماني الحاجة الدّائمة للتّوميدتين وعلى رأسهم ماسينيسا كما يخلق لدى شبّيون حاجته لخدمات ماسينيسا وقد أراد كذلك أن يحاول استئالة بعض الموالين لقرطاج الأمّ بعد أن يسند لهم بدعوى التّصالح بعض المناصب التي تردّ لهم إعتبارهم وتبدّد روح اليأس لديهم وتذكي بعض الطّموح فيهم وتقنعهم بأنّه لا يَكُنّ لهم العداوة بقدر ما كانوا يتصوّرون وربّما يتمكّن بذلك من تهدئة النّفوس واجتثاث روح الإنّقام الكامنة في بني عمومته من الصّفة المبالغة والمنتمية لجماعة غرمائه ومن وأهمّ ما عنّ له في هذا الإطار افتعال مناسبة للتّصالح وأوحى لبعض عيونه وبعض الموالين له في الصّفة المبالغة بدعوته وصحبه وجمعهم مع بعض غرمائه السّابقين من قبائل برايرة قرطاج وعظاء البنزطيين الذين كسرت شوكتهم إلى مائدة عشاء فاخرة تقام على شرفه وشرّف كبار عشيرته في مكان محايد يقع على الحدود بينه وبينهم وقد ادّعى ماسينيسا بهذه المناسبة التّبشير بالصّلح وبدء عصر الوثام والتّعاون المبّتين على الإحترام المتبادل ووفّر بناء على ذلك جميع الضّمانات لجميع الوافدين وأسّجاب الأغلب الأعمّ بل وافق الجميع من الشّقّين كذلك على تحديد موعد ثان تردّ فيه هذه الضّيافة ويكون المضيفون فيها هم الضّيوف وجاء اليوم الموعود للمناسبة الأولى فتحوّل الوفد على جيادهم دون عناء وكان على رأسهم ماسينيسا. دخلوا المكان في سلامة وأمن مكرّمين مبجّلين فوجد ماسينيسا وجماعته كلّ الحظوة لدى مضيفيه وكان في استقبالهم أسياد القوم وقام على خدمتهم حشم وخدم كثيرون وقد صخّر المضيفون لهم أفرّ الأواني وأمروا بتقديم الكسكس البربريّ الأصيل وكان عليه أفرّ حوم الغزال والخرفان والنّعام وقبل أن يتحلّق الضّيوف بالقصاع بدأت موسيقى التّرحيب بالعزف وقرعت الكؤوس وفي الأثناء قام أحد المقرّبين من الأمير ماسينيسا ليعلن أمام الملء بصوت متّزن:

- إنّ سيّدي ماسينيسا يريد بهذه المناسبة السّعيدة القرب من بني عمومته بالزّواج من ابنة صدر بعل المرأة المصونة وصاحبة العصمة صوفونيسب. كما ذكّر بعجالة كيف أنّ والدها البطل صدر بعل كان قد وعد ماسينيسا بها قبل زواجها من سيفاكس ثم أضاف المتحدّث قائلًا بعد أن استمع إلى وشوشة سيّده وهو يتسمم ابتسامة الأكابر الأجلاء:

- إن الأمير البطل المغوار ماسينيسا يعتبر من أقرب الناس إليها وأنه كفء لها وهي كفء له وأنه لا يليق بمثل صوفونيسب أن تبقى زوجة لأسير مهزوم.

وما أن انتهى الخطيب من كلامه حتى فوجئ ماسينيسا وجماعته بشيء من الفتور من قبل جميع المضيفين بلا استثناء وكان منه أن أخرج وجماعته كل على حده سرية نخيل من جرابه وشرع في وخز إحدى حبات الكسكس ولم يتجاوز كل منهم أكل أربع حبات لا أكثر ولا أقل وتعجب المضيفون من هذا الموقف المشين لكنهم اختزنوا ذلك في صدورهم وكظموا غيظهم واستاءوا من هذا الصنيع ورغم أنهم ألحوا عليهم من باب المجاملة وحسن الضيافة على مزيد من الأكل لكن هؤلاء رفعوا أيديهم وغسلوها وتظاهروا بشكر أصحاب الوليمة على بالغ كرمهم وكبير فرحتهم بضيوفهم وأثنوا على الطعام وباركوه وهتؤوا صانعيه قائلين:

- نحن ما ذقنا قط أحسن منه ولا أشهى منه ولا أدسم منه.

وقفلوا راجعين من حيث أتوا وبقي الأكل الفاخر لأهله وكأنّ يدا لم تمسسه وكتم الشقّ المقابل غيظه وهذا من روع أصحابه ولكنه وعد بردّ الصّاع صاعين وبنفس الأدب بل بنفس الروح الرياضية التي تظاهر بها ماسينيسا وأصحابه ولم يكن بإمكانهم مقارعتهم أو التصدّي لهم أو حتى لومهم على صنيعهم في السباق الذي هيئوه لهذه الضيافة الحدث والتزموا بالرصانة وصحروا كل ذكائه لاستنباط ردّ ملائم يناسب الموقف الذي وقفه منهم ضيوفهم بما تحتّمه اللباقة والتزموا بالحذر والإحتراز دون أن يخرجوا عن حدود آداب الاستقبال وقد فهموا تأثير رفضهم لاقتراح ماسينيسا المتمثل في الزواج من بنت عشيرتهم صوفونيسب لذلك زاد إصرارهم على التحدي لكنهم أجّلوا ذلك إلى موعد الضيافة المقبلة والمتفق عليها مسبقاً من طرف الجميع.



ميسيسا وفرسه

الفصل التاسع

تالت الصَّوَر في مَحَلَّات الكبار والصَّغار تستحثُّ الذَّاكرة على استعراضها مرتبةً أحياناً وأحياناً مشوشةً رغبةً في ربط الحوادث ببعضها البعض وربّما بحثاً عن الخيط الجيّد الموصل إلى مشروع الحياة المطلقة التي تصرّف أحوالها وترمي على النَّاس أثقالها وترغم أهل الزَّمان جميعاً فيتبَّع النَّاس منوالها. ولكنَّ أهل هذا البلد أبوا إلا أن يَرَجُوا الزَّمان العنيد رجاً يفكِّك أوصاله ويوقف تيّاره لاستقافه في محطّات للعبث الثَّريّة بالمعاني والإستنتاجات التي تمنح إنسان هذه الأرض القدرة على امتلاك الأشياء والحوادث والأخذ بناصيّة الأمور والإستفادة من كلّ ما طرأ ويطرأ لذلك لم يكن أحد من الحاضرين مستعدّاً أن يتجاوز ما يقوله الرّاوي في حديثه أو يفوته جزء من السّرد. وكأنّ الرّاوي تفتّن للأمر إذ شمّر على طرف ثوبه الفضفاض واعتمد على عكّازه المطرّز بالدّهَب والفصّة وقال:

- يا ساده يا ماده دلّنا الله وإياكم إلى طريق الشّهادة يرجع حديثنا إلى شبون.

ثم اسأنف الراوي حديثه من جديد قائلاً

- كان شبون يجوب غابات شرق مقاطعة قرطاج المتراميّة إلى التّخوم القريبة من مدينة فاقا ويقول في نفسه:

- ما أروع هذه المناظر وما أرقّ نسماتها وما أطيب أرضها. كم كنت أتمنّى أن ألد بها وأترعرع فيها. منذ حللت هنا وأنا مشغوف بها إلى حدّ الجنون. بل ربّما تكون خشيتي من مغادرتها هيّ التي جعلتني أدخل في أتون هذه الحرب الصّروس فهي التي تجعلني مضطراً أن أعيش وأستمتع بخصوبتها وأندثر بحنينها وأستأسن بربوعها التي تشدّني إليها شدّاً وتؤسّرني بحبّها أسراً وتملكني امتلاكاً. ولو شقّوا على قلبي لاكتشفوا أنّي لا أكره أحداً هنا ولا أضمر شراً حقيقياً لأيّ كان من أهل البلد شرقياً وغربياً لكنّني مضطّر أن أخدم سادتي وأبناء عشيرتي من الرّومان بالطريقة التي يرونها صالحة وأستجيب كرها لأطعامهم وطموحاتهم وتطلّعاتهم.

واستطرد يقول:

- أنا أعلم أنّ لكلّ من الأطراف المتنازعة في هذه الرّبوع وفي غيرها شيطانه في جرابه وأنا أيضاً لي شيطاني في جراي كما أنّ لماسينيسا شيطانه المهمّ أن نختلف نحن أو نتنازع وتبقى شياطيننا في أجربتنا كالحارس الأمين على ما نفكر أو نفعل. تنهد شبّيون وكأنّه يفرغ شحنة ألم من ذاته وقال في نفسه:

- أحياناً يتبادر لي أنّي ما تحالفت مع ماسينيسا إلّا لأقنع نفسي بأنني لا أكره بالفعل هذا البلد ولا أهله بدليل أنّي قادر على أن أتعايش وأتعاون معهم وربّما أفعل ذلك وكأنّني أريد أن أقنع نفسي أنّ الخراب الذي ألحقه بجزء من أجزاء هذه الأرض الطيّبة كرها أو أتسبّب فيه أحياناً على مضض لا يغفر لي عنه سوى ما أحققه من إنجازات أو خير في جزء آخر منها بل كلّما ألحقت ضرراً بمكان ما إلّا وتملّكتني حسرة وأحسّ بانقباض في قلبي واتعذّب عذاباً أليماً ويتابني مباشرة ندم لكنّني مضطّر أن ألعب دور المتصر وأن أوصل زحفي بالرّغم من إرادتي ورغباتي وحتىّ تطلّعاتي فأنا لا أتمنّى لهذا البلد إلّا أن يستتبّ الأمن في ربوعه لأعيش فيها حياة لا كدر فيها وأتمتّع بجمالها ونقاؤها. لقد جعل هذا البلد وسيطاً بين شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها والأصل فيه أن يكون همزة وصل لا محطّ رحال حرب وتناحر ولا بدّ أن يأتي يوم يتولّى فيه هذا الوطن الرّبط بين الضّفتين والدّفع إلى نبذ الاصطدام والتناحر وإقرار التّوافق الدّائم والوئام الشّامل بين جميع الأطراف. وكأنّه أراد أن يلتصق أكثر بالأرض ويعبر عن ولائه لها وعطفه عليها لذلك ترجّل قليلاً ثمّ جلس على ركبتيه يلاطف العشب والثّرى ملاطفة عجيبة ويمسح على الأديم مسحاً غزلياً مشوباً بلمسة من الحسرة والخشية اللّتين لم يستطع التخلّص منها منذ أن جاء إلى هنا. لقد تذكّر فيما تذكّر أشياء كثيرة منها الخطير ومنها المرحج ومنها المؤلم ومنها السارّ لكنّه كان يجمع بينها جميعاً سخاء هذا الوطن وتوقه إلى الأفضل والأحسن والأسلم والأقنّى لأنّه وُطن للخلود ومهد للصّفاء ومحطّة للأمن والأمان ولا يتفطنّ لذلك إلّا من أحبّه بصدق وآمن به وأخلص له بصدق. كان يخيل له انه مشدود الى الافق البعيد وأحس انه ينفذ بكل حسه في متاهاته بل خيل اليه انه يستمع لصوت ات من أمس الغد الموعّل في الاتي يقول

- " أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء والسبب في ذلك ... ما

يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتبار إنما هو عن جدة الأمل".

علم الراوي أنّ عبد الرحمان بن خلدون لم يكن غائبا عن ماضيه وأنّه مستحضر للمساته وأن الفضل كل الفضل راجع لهذه التربة السخية التي تحتضن من وطأها ويطؤها بنفس العطف ونفس الرعاية كان شببيون في حاله تلك هو الآخر وكأنّه يستحضر مستقبل ما يحصل الان فزاد تعلّقه بالأرض وانهمك في استعراض ما شدّه بهذه التربة العريضة على قلبه وكره أن يتمّ اقضاؤه من الالتذاد بهذه المشاعر الجياشة التي تملؤه من حين لآخر ورغم ذلك فقد اضطرّ للاهتمام بضيفه القادم عليه في تلك الاونة لقد جاءه رسول ماسينيسا معتليا صهوة جواده الأصيل ذي المدور الكنعاني والكشح الثوميدّي. راح شببيون يمسح على رقبة الجواد حيناً وحيناً يلاطف بسيفه الغرة البيضاء على جبينه وأحياناً أخرى يربت على الجزء الأمامي من ظهره اللّماع وهو يستمع لرسالة كانت قد وصلت إليه مع الرّيح قبل وصول الرّسول فأعين شببيون لا يخلو منها مكان وجواسيسه مزروعة في السرّ والخفاء في كلّ مكان وحتىّ بين الشّعرة والشّعرة والعجين وبين العبادة والجسم وبين الظفر واللّحم ومع ذلك فقد أحسن الإنصات وتابع الحديث بجِدّ واهتمام بالغين وانتهى به الأمر بقبول أغلب اقتراحات ماسينيسا بعد أن وضعها على محكّ المقارنة بين الخبر اليقين والخبر المشاع ووجد تطابقاً كبيراً بين هذا وذاك وبعد أن عدّل منها بما رآه صالحاً ومناسباً للجميع أصدر أوامره النهائيّة لحليفه ماسينيسا وكان أغلبها يتعلّق بما يخصّ الإدارة الرومانيّة التي سبق له في الأثناء أن استشار فيها رؤساءه في روما قبل أن يفد عليه رسول حليفه وقد قدّمت له الإدارة الرومانيّة توجيهاتها ولم يدّخر جهداً في تبليغها بأمانة لمن يعنيه الأمر.

قال الراوي :

- رحم الله عبد الرحمان بن خلدون مرّتين أولاًها عندما قال

" الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء."

وثانيها لما أفاد بأن

- " المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال . "

مع ما في هذا الرأي من احترازا وشواذ

ثم واصل الراوي حديثه قائلا أمام الملا

- يا سادة يا مادة دلّني الله وإياكم للشهادة مادام حديثي في سياق العبرة والتفكير والقياس فيما سبق وما لحق نسيت أن أفيدكم بانصراف رسول شبيون وبقاء هذا الأخير وقد ركّز على تقلب الأمور من جديد بحصافة رأي وخبرة صقلتها السّنون والحوادث وغزلت نسيجها تراكمات الأحداث. قال في نفسه :

- من المؤكد أنّ انبعاث أصوات بعض رموز الماضي من جديد في محكمة الشعب وما استقرّته أنا بنفسي من خلال مختلف الملاحظات التي تكتنف ماضي هذا الشعب ومعيشه ومستقبله لدليل على تواصل هذه المجموعة الشعبية ووفائها لتجذّرها في ماضيها وتشبّثها بمستقبلها واحتفاضها برموزها وتأصلها في تراثها كل ذلك دليل على أنّ وسائل إقناعنا لها لم تكن ناجعة بالقدر المطلوب وأنّه ينبغي علينا مراجعة أساليب إقناعنا لهذا الشعب بما نرضاه من جديد وأنّ التذكير بالأبطال ولما لا بعليسة مصيب في هذه المرحلة بالذات شريطة أن يحسن ماسينيسا تقديم الأمور بشيء من الذكاء والحكمة والتبصّر والسياسة والدهاء وإني أعتقد أن هذا القائد التوميدّي له من ذلك ما يمكنه من استغلال الأمور على الوجه الأكمل فيما يقوم به وبالخصوص فيما يتعلّق بقراره القاضي بتواصل أشغال المحكمة وتوجيهاتها وتمشّيها مع ما سنقرّحه عليه من تعديلات بخصوصها في الإتيان. ومع ذلك فالخذر واجب

جلس شبيون على الأرض وتوسد جذع شجرة زيتون اسعفته بشيء من ظلها الوارف لتقيه من حرارة شمس امعنت في تسليط حرارتها على المكان وفجأة دخل شبيون في دوامة التمعّن مستحضرا في نفس السياق ما يشغل باله منذ مدة

قال الراوي

- لم ينس شبيون ما عانته روما من مصاعب مع كل انتصار يحققه اي بطل من قرطاج ولا

يريد ان يشاهد جوكرطا او من يشبهه على الساحة لذلك عمد الى طمس كل ما يمكن ان يذكر به او حتى بغيره وباي طريقة كانت

هولا يريد ان يلهم التاريخ مرة اخرى من ينادي الى اللحمة والوحدة والاتفاق ورص الصفوف في هذه الفترة بالذات خوفا من اجهاض مهمته الاساسية في هذه الربوع التي ما زالت تذكر بعضهم بما جاء في خطاب اليوم الأول الذي تمّ فيه تنصيب جوكلاطا ملكا على نوميديا من طرف والده بالتبني الملك ميسبسا بعد معركة نومنسا الشهيرة في اسبانيا

شبيون لا يريد ان تخرج تلك الفقايع من الذاكرة الشعبية لتمجيد خصال اي رجل من تخوم تاريخ قرطاج التي حفظ تفاصيلها على ظهر قلب والتي ما زالت تفرض نفسها عليه هو شخصيا ومن ذلك ما يسمعه الان من صدى صوت ميسبسا عند تسليمه عرش نوميديا الى جوكرطا وهو يقول

- كنت طفلاً صغيراً يا جوكرطا عشت فقيراً بلا ثروة وعندما اقتربت من عرشي وتفطّنت الى ما قدمته لك من أفضل وكيف رعيتك تماماً كما رعيت أبنائي من صليبي هدربال وهبصال وانت من جهتك لم تحيب املي بل كنت في مستوى ثقتي فيك بما قدمته لي ولعشيرتي من أعمال عظيمة كان اخرها ما حققته من انتصار في معركة نومنسا باسبانيا وبذلك عززت ما بيننا وبينك من اوصر الود وزدتنا اعتزازاً بك وحققت املنا فيك اردناك ان تكون بطلا فكننت والان وقد وهن العظم مني واشتد عجزى اناشدك ان تبقى وفيا لاخوتك ان لم يكن ذلك عن طريق العرق والانتساب فاليكن اخلاصك للصدّاقة هو الوازع الاصلي لك حافظ على صداقاتك مع روما دون ان تفرط في الوطن تماماً كما فعلت لقد أحييت في إسبانيا اسم عائلتنا؛ وانتصرت على الحسد. اليوم، بما أن الطبيعة قد حددت نهاية جهودي، أحثك على القيام بذلك، وأنشدك هذه اليد أن لا تتخلي عنا، ولا تترك جلالة الملك تنحرف بك او تغريك عنا انت صديقنا فلا تخن الصداقة ولا تستهن بها اياك والغرباء ارفض أولئك الذين يتحدثوننا باواصر الدم فالدعم الحقيقي للملوك ليس بالأسلحة والكنوز ولا حتى بالنسل، بل بالصدّاقة ! لانها من الصدق وصدق الاصدقاء اقوى من السلاح والولاء الصادق يضمن المعاشرة اياك ومعاداة الاهل والعشيرة او التنكر لها والدولة ولو كانت صغيرة لا تنمو الا بالوفاق واعى الدول واقواها تندثر بسبب الخلاف.وقد

سلمت لك الملك قبل ان اسلمه لابنيّ لامرين اولا لثقتي فيك ثم لانك تتفوق عليهما بالعمر
والخبرة فلا تحيب ضني فيك

سكت ضمير شبيون عند هذا الحد ليستخلص العبرة التاريخية لما جاء من اجله الى هذه
الارض في حدود مهامه

الفصل العاشر

توقّف الرّاوي عن الحديث المباح وخرج النّاس للرّاحة والاستجمام من عناء الإنصات وتعب التّركيز فمنهم من توجّه لزيارة المتحف للإستمتاع بخطوط تقاطع جدران قاعته المعدّة للاستقبال التي تتمحور أساسا حول الإستفادة من الفضاء بأقصى قدر ممكن وتجعل منها رحبا منشرا حا يدخل البهجة والسّرور على النفوس. وقد صمّم تصميم يختلف عن التّصميم اليوناني. ففي حين اهتمّ المعمار اليونانيّ بواجهة البناء الخارجيّ من حيث هو رمز فقد ركّز مصمّموا هذا المعلم المتأثرون بالفنّ المعماريّ الأندلسيّ في هذا المكان وفي أمكنة عديدة أخرى على عنصر سعة الفضاء الدّاخليّ الذي تجري فيه أغلب وأهمّ الأحداث وبناءا على ذلك فقد اكتست القاعة جماليّة منقطعة النظير بنقوشها الخلّابة وألوانها الرّاهيّة الجذّابة وتقويراتها الأخاذة التي شدّت المتفرّجين شدّا وسلبت مهجاتهم وعقولهم. ومن الزّوّار الآخرين من التحموا يتلايب الرّاوي ولم يتنحّوا عنه قيد أنملة وبقوا يتسكّعون وراءه جيئة وذهابا من نهج إلى نهج ومن سقيفة إلى سقيفة ومن برطال إلى برطال وفي ذاكرتهم نمط يراوح بين السّقيفة الكحلة وباب التّاعورة وأحيانا يتوقّفون زرافات ووحدانا لتأمل الأسوار الممتدّة بالقرب منهم والتي ترتفع شاهقة بحسب الموقع أو يرفعون رؤوسهم لملاحظة المحارس والشّرفات وأخذهم الفضول إلى مدرج ضيق يذكّر بممرّات المدينة العربيّة العتيقة فإذا بهم يفتسّحون في زقاق يفتح على باب يشبه باب الدّيوان الجميل ثمّ انتهى بهم المطاف إلى هضبة تذكّر بعضهم من خلالها أيّام طفولتهم ثمّ دخلوا إلى نهج فبطحاء ومنها إلى نهج آخر به آثار الحفصيّين ثمّ ساحة رحبة وأخذوا طريقهم عبر نهج أندلسي العالم فشاهدوا في إحدى الزّوايا الشّيخ يستحثّ خطاه مهرولا نحو مقهى الملتقى فالتحقوا به مسرعين حتّى لا تفوتهم القصّة التي بدأها منذ حين ودخل الشّيخ المجلس ودخلوا بعده بقليل وانتظروه حتّى يجلس وجلسوا إثره ولما تمّ التّأمّ الجمع نظر الشّيخ الرّاوي في عيون سامعيه وأردف يقول:

- يقول المثل العاميّ "إذا قالت تقّ فإنّ بها شقّ" لقد صدقت الإشاعة المتعلّقة بعزل ليلوس من رئاسة محكمة الشّعب وتعيينه برتبة عسكريّة أعلى ملازما ملحقا بشييون كما أسندت له جائزة شكر على نجاحاته في خطّته السّابقة وقد تسرّبت أخبار تقول بأنّه يحتمل أن يشيّد له نصب

تذكاري من البرنز بل يقال لو لا الخوف من السراق والحوافين الذين اعتادوا على تقليع ضروس الكلب وهو ينجح لشيد نصب ليلئوس من الذهب الخالص كيف لا وقد اكتشف ليلئوس العظيم وثيقة خطيرة مكتوبة بخط يد المتهم في نفس اليوم الذي نصب فيه ماسينيسا ملكا على نوميديا وربما تكون هذه النسخة مهداة من سيفاكس لصاحب الجلالة بالمناسبة وقد فاجأ ليلئوس الجميع بقراءة هذا النص أمام جناب المحكمة الموقرة بصوت جهوري ولهجة معبرة زادت الطين بلة وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي :

فِي يَوْمِ الْبَدْءِ بَعْدَ خَلْقِ الْجِسْمِ تَنَازَعَ الْأَعْضَاءُ حَوْلَ الْحَكْمِ
فَقَالَ الْعَقْلُ صَاحِبُ التَّفْكِيرِ أَنَا أَحَقُّ عُضْوًا بِالتَّسْيِيرِ
وَقَالَتِ الرَّجُلَانِ فِي تَفَاخُرٍ بَفَضْلِنَا جِسْمُ الْإِنْسَانِ سَائِرِ
نَحْمَلُهُ حَيْثُ أَرَادَ الْوَصْلَ لَذَا بِحُكْمِ الْجِسْمِ نَحْنُ أَوْلَى
وَقَالَتِ الْيَدَانِ فِي اعْتِدَالٍ نَحْنُ نُوْدِي أَعْغَلِبَ الْأَعْمَالِ
فَمَنْ سِوَانَا صَاحِبُ السِّيَاكَةِ نَحْنُ أَحَقُّ عُضْوًا بِالْقِيَادَةِ
وَقَالَ الْقَلْبُ إِنَّنِي الدَّلِيلُ وَالْحُكْمُ لِي وَلَيْسَ لِي بِدِيلُ
تَمَيَّزَ الْإِنْسَانُ فِي الْأَتَامِ بِالنَّطْقِ وَالْإِفْصَاحِ وَالْكَلَامِ
لَذَا يَقُولُ صَاحِبُ الْبَيَانِ الْحُكْمُ كُلُّ الْحُكْمِ لِللِّسَانِ
وَجَاءَ دَوْرُ الصَّدْرِ وَالْأَحْشَاءِ وَالسَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْكِلَاءِ
وَفِي الْحَوَارِ شَارَكَ الْجَمِيعُ عَدَا الْقَلِيلُ النَّادِرُ الْوَضِيعُ
وَإِثْرَ بَسْطِ الرَّأْيِ بَصَرَا حُهُ تَلَا النَّقَاشَ فَاصِلُ اسْتِرَاحَةِ
وَقَبْلَ حَسْمِ الْأَمْرِ فِي التَّوَقُّيتِ وَالْبَتِّ فِي الْمَشْرُوعِ بِالتَّصْوِيتِ
بَدَتْ فِي الْأَفْتِ طَلَقَاتُ تُفْرِغُ كَأَنَّهَا رَشَاشَةٌ أَوْ مِذْفَعُ

وصاح صوت من مكان محرج قال صه هذا خطاب المخرج
 فمن سواي يخذق السياسة ومن أحقّ منّي بالرئاسه
 فاستهزأ الجميع بالخطاب وضحكوا من حمقه المعاب
 كيف يكون صاحب الجلاله هذا التذي تلهي بالزباله
 تأثر المسكين بالسباب وقرّر الشروع في الإضراب
 وفجأة توقف التفكير والسمع والإبصار والتدبير
 وشلت اليدان والرجلان واختلّ كلّ الجسم في ثوان
 عندئذ تراجع الأعضاء وسكت اللججاج والهراء
 وأكثدوا بموجب الإلحاق وطالبوا مقابل الصّراح
 من سيّد التفكير بالتنازل عن حكم كلّ الجسم بالمقابل
 وصوّت الأعضاء بالاجماع لمركز الإفراز والضياع
 ودان كلّ الجسم بالولاء لسيّد القذارة العصماء
 من يستطيب الجاه والفخامه ينسى خصال النبيل والكرامه

وما أن انتهى ليلبوس من القراءة حتّى تعالت أصوات السخط والاستنكار وخرج رجل من
 عامّة الناس بسرعة مذهلة حتّى ضنّ بعضهم أنّه ربّما كان قذيفة في شكل إنسان وتوجّه مباشرة إلى
 رئيس المحكمة المقتره وهو يصيح:

- اشنقوا سيفاكس يكفي أن تعرفوا ما فعل بي حتّى تتأكّدوا من أنّه يستحقّ الشنق والحرق
 والغرق كذلك.

ورغم أنّ الحرس الاحتياطيّ حاصره والتفّ عليه ليحدّ من خطر اندفاعه المريب بادر جناب
 رئيس المحكمة بالتدخل وكأنّه أراد أن يقلّل من أهميّة هذا المنذفع قال:

- اتركوه يواصل حديثه وكأنِّي فهمت أنه يريد أن يشتكي لسموِّنا بما أصابه بسبب هذا المتهم الشَّقِيَّ جدًّا

ثمَّ أردف يقول متَّجها نحو الشرارة البشريَّة المدفوعة:

- افصح عن قضيتك يا هذا لكن قبل ذلك قدِّم نفسك للجناب.

- أنا عبد.

- من عباد الله مثلنا جميعا.

- لا يا سيِّدي بل أنا عبد لأحد عباد الله أقصد كنت عبدا لهذا الشَّقِيَّ جدًّا كما ذكر جنابكم منذ قليل لقد باعني له آخر سيِّد لي ويا ليت ما فعل.

- لا بدَّ أنَّك عانيت منه الوليات تحدِّث عن ذلك فكلَّ المحكمة آذان صاغية لك ولأمثالك.

- وهو كذلك سيِّدي القاضي لقد أمدَّني بمال كثير ورزق وفير وأعتقتني في عشية اليوم الأوَّل معه ومنذ ذلك الحين وأنا أقاسي الوليات ورغم أنَّني شكوت له بحالي ورفضت ما سمَّاه هو تحرري ولكنه أصرَّ على تركي وشأني وهو ما سبَّب لي أشدَّ الوليات.

- وكيف ذلك؟

- يا سيِّدي القاضي أنا ولدت عبدا ونشأت عبدا وترعرعت عبدا وكبرت على تلك الحال ولا شغل لي إلَّا تطبيق أوامر السيِّد الَّذي اشتراي كيف يمكن أن أعيش حرًّا وأنا لم أتعلَّم كيف أتصرَّف في المال وكيف آخذ القرار وكيف أحمِّل مسؤولياتي بمفردي لقد وضعني هذا اللعين في مشكل عويص وأضاع مَنِّي رشدي حين رمى بي في آتون الحياة بلا رحمة ولا شفقة ومنذ ذلك اليوم الأسود وأنا أسير من مأزق لا آخر له ولا من مجير ممَّا وضعني فيه هذا المجرم. دعوني أكل من لحمه قبل شنقه.

صاح بعض من في القاعة:

- مسكين هذا العبد إنَّ كلامه يقطع القلب.

وإنّرها شرع بعض الحاضرين في رمي المتهّم بالحجارة ونواة حبّات الزّيتون والتّمثر المتناثرة هنا وهناك على أراضية قاعة المحاكمة كما لوحظ كذلك أنّ بعض الحاضرين بعد أن استنفذوا ما توفّر لديهم من نفايات وبقايا لمجاتهم شرعوا في رشق المتهّم المسكين بالورود والرّياحين والياسمين التي تحلّت بها بعض الواجهات في هذه القاعة العجيبة. كما يقال أنّ بعضهم فعل ذلك عن قصد ولا يستغرب أن يأتي يوم ننظر فيه هذه المحكمة أو محكمة أخرى في مثل هذه النّوايا من يدري.

كان أحد الحاضرين بالقاعة يستمع ويرى كيف أصبح ذلك العبد الّذي كان يجلس بجواره منذ قليل نجما من نجوم هذا المحضر الجليل حزّ في نفسه هذا السّباق نحو منصّة الحاكم فصرّخه هو الآخر قائلا في نفسه:

- صحيح ليس لي دعوى في الأصل لكنني أذكر أنّي رأيت هذا الرّجل المتهّم رؤية العين ولم أكن أتصوّر آنذاك أنه الملك سيفاكس لقد رأيته في سوق العقول يقلّب الواحد تلو الآخر ويسند لكل عقل ثمنا أنا لا أذكر جميع الأثمان التي أسندها لكنني أستطيع أن أقدم للمحكمة شهادة هامة جدّا لايهمّني أن تريد في إغراق هذا الملك المخلوع بقدر ما يهمني أن أبرز في هذا المحفل وربّما تمكّنت من الدّخول للتّاريخ من هذه البوّابة حتّى ولو كان دخولي دخولا حقيرا مثل ما يفعل أغلب النّاس الذين يؤرّخ لهم وتذكر أسباؤهم في دفاته.

انتفض الرّجل من مكانه وهو يصيح:

- إنّني رأيت هذا الرّجل المائل أمام جنابكم في سوق العقول.

من الحاضرين من كان يعتقد أن الحكم على سيفاكس في قضية الطّول لم يعد مهمّا وأن قصيدته الأخيرة كفيّلة بالقضاء عليه أضف إلى ذلك قضية العبد المسكين ولن يقدر أحد أن يضيف له تهمة أخرى أكثر ممّا جاء في هاتين الحادثتين لكنّ فضول النّاس المتعلّق بوجود سيفاكس في سوق العقول جعلهم يطالبون بالإحاح من المتدخّل أن يكمل حديثه المشوّق دون انقطاع لذلك قام بعض المتفرّجين يصفّقون وينادون بصوت واحد:

- سو... قل.. عقول... سو... قال... عوقو... ل

تدخل القاضي قائل:

- وماذا عن سوق العقول تفضل ما اسمك؟

- أنا أنا اسمي أنا أنا صحيح لي اسم اسمي سيدي القاضي الموقر اسمي وحدي أم اسمي واسم أبي واسم أمي واسم أخي واسم خالي وخالتي واسم ..

- اسمك أنت أولاً.

- أنا ابن شلهبون سنكمون.

- اسمك أنت.

- سنكمون سيدي القاضي ابن شلهبون وأمّي اسمها ... اسمها ...

- لا يهمنى اسم أمك.

- لا يمكن أن أنسى أمّي نهلبة

- المهمّ ماذا تعرف عن سوق العقول وما علاقة السوق بالمتهمّ؟

من الناس من تشوّق للاستماع لما فعله المتهمّ في سوق العقول وما علاقة هذا المدّعي المسكين بهذه السوق أم هل أصبحت العقول تباع في الأسواق كما تباع البضائع الأخرى وكيف توضع العقول في الواجهات كلّ هذه الأسئلة وغيرها كانت تلهب على ألسنة رئيس المحكمة والمدّعي العام والمستشارات والمستشارين والحضور الكرام لذلك أبدى الجميع اهتماماً كبيراً بهذه القضية الجديدة. منهم من ضنّ أنّ المحكمة الموقرة ربّما أرادت أن تتجاوز جميع التهمّ المتبقّية والمحسوبة على صلف المتهمّ وهنجعّيته رافة عليه وخوفاً من أن يحكم عليه بالشنق مرّات عديدة.

وأما لسان الدّفاع فقد أراد أن يققع جميع البواصير والفقاقيع والدملّ لذلك قام من مقعده وتحول إلى منصّة القرار وهو يتمطّى ويتهدّى كأنّه ديك روميّ أصيل قال:

- ما دخل هذا الرّجل في سوق العقول؟

أجابه الشاهد:

- هذه قضية أخرى تمثلت في تجاسر المتهم المائل أمام جنابكم في إسناد أرفع الأثان لعقول بني بلده وإسناد أبخس الأثان لجميع العقول الأخرى بها فيها عقل سيدي القاضي ليلوس.

صاح ليلوس صيحة واحدة:

- كيف يتجاسر هذا المتهم المجرم على تعبيرنا بهذه الحساسة وهذا الاحتقار فيسند لعقول أهل ملته الأثان الباهضة ويقيم عقلا كعقلي هذا بذلك السعر البخس؟

ثم توجه إلى سيفاكس قائلا:

- كيف حدثتك نفسك بأمر كهذا؟

أجاب سيفاكس بهدوء وأناة وأتران:

سيدي القاضي الموقر جناب المستشارين الكرام أيها الحضور المتميز اسمحوا لي بعد إذنكم أن أصرح أمام الجميع أنني معترف بأنني قيمت عقول أهل عشيرتي بأرفع الأثان اعتقاداً مني أنها عقول خام لم تستعمل قط لا في التفكير ولا في البحث ولا في الاستنباط ولم يشغلها أصحابها كما يفعل الآخرون وبما أنها ضلّت عذراء لم يمسهها انس ولا جان فهي تستحق أن تباع بثمن البضائع الجديدة بالمقارنة لتلك العقول النيرة التي استعملها أصحابها للتفكير والتخمين والبحث والتنقيب والتفكير والاستنباط فتدرّبت على الحصافة والتدبر والتّمحيص وتمّ استعمالها بجدارة لذلك قيمتها تقيّم الأدوات المستعملة.

- أنت محقّ في ذلك.

هكذا تدخّل لسان الدّفاع.

قال القاضي متوجّها نحو سيفاكس:

- لا حقّ لك حقّ هذا نوع من الاستخفاف بالعقول مثل عقلي من قال لك أنني أشغل عقلي كثيراً أنا أعتمد إلى تشغيل عقول الآخرين وأسخر تخميناتهم وأفكارهم وآراءهم في صالحني أنا

أستعمل عصارة العقول الأخرى في ما ينفعني وأحتفظ بعقلي سالما معافا ليبقى جديدا ولا يدخل في سلة العقول المستعملة.

سكت الجميع خوفا من استعمال عصارة عقولهم من طرف الآخرين وكفّ آخرون عن تخديم أمخاخهم تجنبا للخسائر المحتملة إلا سيفاكس فقد واصل في تشغيل عقله دون انقطاع.

لم يحفل القاضي ليلبوس وأصحابه بما فعل سيفاكس وأنهى مهامه بالحكم على سيفاكس ملك أمازيغ البربر بالقطاع الغربي من نوميديا بالتغريب والتفني بل اقترح أن يأخذه معه هدية سائغة لإمبراطور روما عربون شكر واعتراف بالجميل ولم ير المستشارون والمستشارات مانعا من ذلك ورأى لسان الدفاع أنّ هذا الحكم في صالح متوّبه إذ يمكّنه أولا من تأجيل موت كان قريبا محتما وثانيا يهدي له جولة سياحية مجانا يكتشف فيها الملك سيفاكس روما على حقيقتها ويتمتع بمناظرها الخلابة ويطلع فيها على الرقي العمراني الذي وصلت إليه السجون والزّنانات الرومانية الحديثة المختصة في استقبال الأبطال الذين تحدّث شجاعتهم هذه الدولة العظمى بل وكتب المحامي لموكله جلالة الملك المعظم سيفاكس وصيّة ينصحه فيها بعدم ترك الفرصة تفوت لاكتشاف نجاعة الحازوق تلك الآلة الجديدة التي تفتن في صنعها كبار مهندسي الحرب والمختصّون في فنون التعذيب وتقنيات القتل وقد أنهى الوصيّة بالتأكيد على سيفاكس بأن لا يكتفي بتقليب هذه الآلة بل نصحه بالموافقة على إجراء التجربة عليه للاستفادة الكاملة منها وربما يكون له شرف التسبّب في نقلها من روما إلى قرطاج بعد أن تدرب عليها وخبرها ووقف على دقائق صنعها وجميع وظائفها ومارس بنفسه نجاعتها.

وقبل ان يتسرّب خبر انتهاء محاكمة سيفاكس كان احد الحاضرين يتعلم استعمال تجربة اللعب بالفكرة ويحاول ايجاد الروابط التي تجمع الفكرة بالفكرة عبر قناة سهاها قبل غيره المنطق كان يجلس بين هذه الجموع ويتذكر كيف هو ايضا قدم لهذه الربوع وهو عبد مملوك محكوم فيه يتحرك بامرة سيده وتوابع سيده صغيرهم وكبيرهم حاضرمهم وغائبهم وفي يوم من الايام قرر سيده عتقه ليصبح حرا متمتعا بحريته مقتنعا بها ويرجع مباشرة لليونان فيمارس بعقله الحر في تركيز علم المنطق ويتيح لتلاميذه ممارسة ما سيعرف بالفلسفة التي ولدت من رحم هذه الارض الطيبة التي يمكن ان يتناساها بعض من اهلها ولكنه لن ينساها ابدا

ضحك الراوي وهو يستحضر ما يجول في عقل ذلك الحر الذي كان عبدا واحتفل بتحرره هنا في غفلة من اهل الارض عاقلهم وابلهم احيائهم وامواتهم القدماء منهم والمعاصرون واعاد الراوي ضحكته وهو يردد بعض ما رواه اهل الذكر عن افلاطون واستاذة سقراط.

لم يعرف أحد كيف تبخر الملك المقال والمتهم الرئيسي سيفاكس من الوجود وتبخرت معه أخباره كل ما تبقى من ذكرى محاكمته ذلك المكان الذي قبع فيه مدة محاكمته وبخروجه منه أصبح إسطبلا للبهائم بأنواعها ولم يشهد ذلك المكان عزاً أكثر مما شهده في عهد هذه الحيوانات فقد تمّ ترميمه بالمناسبة وطلاؤه وزين بالشمع والقناديل الزيتية الفاخرة وبنيت فيه سواق تسرب منها المياه العذبة المتجددة وجيء بالعلف بأنواعه وتمكّن عشرات العمال من مباشرة أمور الحيوانات وتوفير الراحة والسعادة والاستجمام لها وقد دشّن الإسطل ماسينيسا وتحمّس له حتى قيل ربّما تكون جميع الحيوانات الموجودة فيه على ملكه وحده وقد تمّ استنتاج ذلك عندما رأى أحدهم أنّ الحيوانات تستبشر به وتضحك له كلّما اقترب منها بل هناك من يقول أنّ الإسطل بما فيه ربّما يكون هدية شبيون لماسينيسا بمناسبة تعيينه ملكا على القطاع الشرقيّ من نوميديا وربّما يكون ذلك مكافئة له على ولائه للرّومان وتحالفه معهم ومدّهم بأساليب جديدة لا يعرفها إلا أهل البلد المتمرّسون.

وكأنّ الراوي اختلى بنفسه قليلا ليستحضر قولة عبد الرحمان بن خلدون الشهيرة والمتعلّقة بموضوع الحال والتي ورد فيها

- "حينما ينعم الحاكم في أي دولة بالترف والنعمة، تلك الأمور تستقطب إليه ثلة من المرتزقين والوصوليين الذين يحجبونه عن الشعب، ويحجبون الشعب عنه، فيصلون له من الأخبار أكذبا، ويصدون عنه الأخبار الصادقة التي يعاني منها الشعب"

نظر الراوي لجمهور المنصتين أمامه وقال

- بمجرد أن تمّ تصيب ماسينيسا ملكا بدأت بوادر الولاء تتدفّق من كلّ حذب وصوب وشرع الناس في تعداد خصاله وإحصاء مناقبه والتذكير بعذله وإنصافه ونبله ونزاهته ومروءته وحسن أخلاقه عموما وتخصّص بعضهم في اكتشاف ما خفي من محاسنه وشرعوا في البحث

والتنقيب عنها بدءاً من ولادته وأحياناً قبلها بقليل إلى أن تولى السلطة العليا في البلاد وتفنّن آخرون في استنباط بعض خوارق العادات التي قام بها وتعداد المعجزات التي وقفوا عليها عنده وشرع المدح والإطراء في الإزدهار وارتقى الأدب إلى أعلى المراتب وانتشرت القصائد والأخبار في الناس تصف الرجل في أوج عظّمته وجلاله وتدخلت الخرافات في نسج الأساطير الإيجابية التي تبرز جلالته كأصفي وأنقى ما يكون البشر بل تضعه أحياناً في مرتبة ما فوق البشر وتبرّر ذلك بها أولته الآلهة من عناية وما خصّته به من رعاية ورابط بعض القفافة من أهل التزلّف والتملّق أمام شفاه الملك يجرسون الأصوات المنبثقة منها ويحسون تنفّس صاحبها ويجمعون أقواله لتصبح المرجع الوحيد في المملكة بل استنبطوا منها دستوراً للأمة وأجبروا الناس على اتباع تعليماته ولم يذخروا أيّ جهد من أجل تطبيق الأوامر وأدجروا ضمنها رغبات الملك المعلنة وغير المعلنة كوجوب طلاء جذوع الأشجار الواقعة على حافة الطرق التي يمرّ بها ركب جلالته الملك باللون البنفسجيّ المحبّب لسموّه وساعدهم في ذلك صيادو الكلمات الطائشة التي تخرج من فم الملك المعظّم واضطّرّ رجال القانون لتحرير قائمات في المحرّمات والتواهي وتفصيل العقوبات وأنواع الزجر المترتبة على المخالفات المقصودة وغير المقصودة على حدّ السواء وعزّز كلّ ذلك بوسائل التشديد والقمع حتّى أيقن كلّ الناس أنّ الإمتثال واجب وأنّ الولاء واجب وأنّ الإخلاص واجب وأنّ الخوف كذلك واجب وبعث بعض المتحمّسين للنظام الجديد لجناً سمّوها لجان حماية الثورة كناية على الثورة التي قام بها الملك ماسينيسا وأصدر مجلس الشعب التابع للملك قانوناً سمّوه قانون تحصين الثورة خوفاً عليها من الأزمات والأقلام والأحلام والمنافسين والمندسّين ودخلت البلاد ودخل معها العباد في الأيام الصعبة فانسدّ الأفق وانقطع الأمل وانعدم الأمن وارتفعت تكاليف المعيشة وكثرت البطالة وفتحت مدارس تدريب الموالين للحكم على فنون العنف والارهاب وخشيت عامة الشعب على نفسها من القمع فخيّرت التلّهي بتوفير لقمة العيش وإقامة الأفراح والأنراح بين الفينة والأخرى على أمل أن يستتبّ الأمن وتعمّ المساواة يوماً بين الناس جميعاً وجاء ذلك اليوم الموعد الذي استمع فيه الشعب بتامه وكمالهِ إلى خطاب تاريخيّ كان يقول فيه ماسينيسا أمام الجموع الغفيرة التي احتشدت بالقرب من منصّة الخطابة واكتضّت بها الساحة:

- أيُّها النَّاسُ باسمِ العدالةِ الجُماعِيَّةِ الممكنةِ والمساواةِ بينِ النَّاسِ فقد قَرَّرتُ أنْ أنْزِعَ الفُروقَ الإِجتماعِيَّةَ بينَ بعضِكم البعضَ.

واهتَزَّتْ الجُماهيرُ فرحاً وغبطةً وشرعوا في التَّصفيقِ الحارَّ المتواصلِ وبينما كان الأمرُ كذلكِ حتَّى شاهدَ أحدُ الأغنياءِ من كبارِ القومِ الحاضرينِ في ذلكِ الإِجتماعِ فقيراً معدوماً كادَ يَجِنُّ من شدَّةِ الفرحِ والتَّصفيقِ وكان قريباً منه فربتْ على كتفه وقالَ له:

- لم كلِّ هذهِ الفرحةُ؟

أجابهُ الفقيرُ المعدومُ:

- كيف لا أفرحُ وقد وعدني الملكُ بأنْ أكونَ مثلكِ.

فأجابهُ الغنيُّ في الحالِ:

- لا بالعكسِ فقد وعد أنْ أصبحَ أنا مثلكِ تلكِ هيَّ المساواةُ الوحيدةُ الَّتِي يَقدرُ أنْ يَحَقِّقَها لنا ملكنا المعظَّمُ دام عَزَّه.

سكتَ الفقيرُ المعدومُ وانصرفَ وانصرفَ معه الغنيُّ وبقي الآخرونَ في الإِجتماعِ في انتظارِ أنْ يفهموا.

وبمجردِ أنْ انتهى خطابُ الملكِ حتَّى دخلتْ عامَّةُ النَّاسِ في تأويلِ ما جاءَ فيه بينَ السُّطورِ من تلميحاتٍ وإيحاءاتٍ وطلامسٍ ورموزٍ وأخبارٍ ومنها إِعترامُ الملكِ بالزَّواجِ من صوفونيسبِ كما بلغهم أنَّها تتهرَّبُ منه وأنها تختفي في أماكنَ آمَنةٍ واستاءَ الشَّعبُ باستياءِ الملكِ ولم يذخرْ جهداً للبحثِ عن هذهِ النَّاشِزِ المتعَتِّةِ والهابِرةِ من قدرها المحتَّمُ واعتبروا من واجِبهم كذلكِ أنْ يبحثوا عنها في كلِّ مكانٍ حتَّى لا يصابَ ملكهم بخيبةِ الأملِ والأرقِ واليأسِ فيؤدِّي انفعاله إلى التَّشَدُّدِ في معاملتهم أو عدمِ أخذِ أوكدِ مصالحهم بعينِ الإِعتبارِ كما أشيعَ أنَّ الملكَ وعدَ بتسليمِ مكافئةٍ هامَّةٍ لمن يأتيه بصوفونيسبِ لذلكِ بدأ الطَّمعُ في التَّفريخِ ونشطَ البحثُ وفتَّحتِ العيونُ وامتدَّتْ الأبصارُ حتَّى كادتْ تحرقُ الجدرانَ وأبوابَ الحديدِ وشَتَّتْ الأسماعُ وفتحتْ الأذانُ أبواقها على مصراعيها وكثرَ الإِنتباهُ كما ازدهرتِ الوشاياتُ ولم يسلمَ بيتٌ من التَّفَتيشِ المباشرِ وغيرِ المباشرِ

حتى قيل أنّ بعض الناس عمدوا إلى تفتيش بيوتهم بأنفسهم مرّات عديدة قبل أن يذهبوا للبيوت الأخرى ودخلت الجيوش الماسينية في مغاوير الجبال وكهوفها وانتشرت الأعين في كلّ مكان وشرعت الدّعاية في تدعيم الإشاعات وتطعيمها بالأقاويل وفتحت ملفّات كثيرة وبدأ أغلب الناس يرون صوفونيسب في كلّ امرأة بربريّة أصيلة وأحيطت شجاعة النّساء بالمراقبة والحذر الشّديدين وتجنّد الجميع بالإحتياط ولم تسلم حتّى الإناث من الحيوانات من الشكّ فيها فقد تسرّبت أخبار تقول بإمكانية تنكّر صوفونيسب في شكل غزالة أو حمامة أو نعامة أو قطّة بل هناك من قال أنّها لبست جلد أتان وقيل كذلك أنّها الآن تجوب الأسواق في زيّ فارس أو شيخ طاعن في السنّ وهناك من صدّق أنّها تستطيع أن تتحول إلى نملة أو بعوضة ورّبما نحلة أو عقرب وقيل أيضا أنّها الآن تتجول بين الأفاعي ولم يسلم الغول من إتهامه باحتواء الأميرة للتّغطية عليها لذلك جمع القصر كلّ القصّاصين من التّروبادور وغيرهم وبالأخصّ منهم من تعودّ سرد خرافات الأغوال والأهوال وقصص العفاريات والنّفاريات والرّهبان وطلبوا منهم التّحرّي في البحث والاستقصاء وهذّوهم باعتقال وتعذيب كلّ متقاعس وتجنّد المنجمون والعرافون وقراء الكفّ وأهل التّقازة والكشف وبلهاء القوم المعطى لهم الإستجلاء وأولياء الألهة الصّالحون للبحث عن الهاربة كما زحرت أحاديث النّاس بالتّوقّعات والإحتلالات من الممكنات وغير الممكنات وعاشت المدن والقرى نوعا من الاستنفار المشوب بالخذر والرّعب وبدأ تليفيق الحوادث والتهيّّات والتّصوّرات والتّخيّلات وصار لكلّ صباح قصّة جديدة حتّى جاء اليوم الموالي ليعلن فيه منادي الملك فجأة أنّ صوفونيسب تمّ القبض عليها وهي الآن تتمتّع بصحّة جيّدة وتحضى بعناية الملك المركّزة وتقشّع الكابوس وفرح الجميع بانتصار الحقّ على الباطل ورجوع الدرّ إلى معدنه وأذن للنّاس بإقامة الأفراح واستعمال الطّبول بعد أن تمّ تحريمها وقطع أو تكسير العديد منها ومن ثمّ ازدهرت صناعة هذه الآلات العجيبة بل تفتّن الحرفيّون في ابتكار أشكال أخرى وأحجام أخرى واستنبطوا منها نغمات جديدة وتوّعت جلودها وحبالها وعصيّها وأخشابها وفتحت المباريات الخاصة بها وأعطيت أفخر الجوائز للطّالين الماهرين وعمّت البهجة البيوت وأجبر الفقراء والمنكوبون والمرضى وأصحاب العاهات على التّعبير على سعادتهم بكلّ الوسائل قال الفقراء:

- نحن فرحون بفقرنا الغني.

وقال المنكوبون:

- نحن سعداء بكوارثنا إذ كان بالإمكان أن تكون أكثر حدة ولا نرى أي مانع أن تكون شديدة على غيرنا بمثل ما هي شديدة علينا كما يقول مثلنا الشعبي المتميز والموغل في عروبه اللهم اهلك غيرنا بمثل ما أهلكنا

وشرع المرضى في الرقص من شدة السرور أما أصحاب العاهات فقد استبشروا بنقائضهم وأدعى الأعمى أنه يبصر وقال الأصم:

- أنا أصبحت أسمع ديب التملة في هذا العصر العجيب.

وقام المقعد يجرى في منامه وتكلم الأبكى في أحلامه وخيل لكل منهم أنه تحوّل من حسن إلى أحسن وأقيمت بالمناسبة مهرجانات للتنتيك وأخرى للضحك وامتنع الناس عن الموت للتتقيص من البكاء والتحبب ولو بصفة مؤقتة وصدر أمر بتجفيف المآقي من الدموع بها فيها دموع الفرح وهكذا تهيأ الشعب لحفل زفاف الملك ماسينيسا بخليته صوفونيسب كأحسن ما يكون التهيؤ وبمجرد أن نفّس هذا الخبر السار حتّى دخلت البلاد في بحبوحة من العيش لم تعرف لها مثيلاً فقد تزايد الطلب على القماش بأنواعه وانتصب الخياطون والخياطات في كلّ مكان وزخرت الأسواق بالحليّ وموادّ الزينة كالحناء والعفص والكحل وأحمر الشفاه المستخرج من الجلائر والسواك وأعواد القرنفل بأنواعها وأقيمت معارض للعفص والسّينوج والمردقوش وفتحت أسواق لمختلف الحشائش كالتّالة وقرن الجدي والقيز والحارّة والمرشان ولسان الثور وعنب الذّئب والخبيزة والزّعتر والاكليل والبسباس ونبتة المرّ والصبر المستعملة لفظم الرّضع والخزامة والتّبقّ والخريقة والزّعتر والزّعور والمرتقوش كما عرضت العديد من العطورات كالمسك والسّينوج ومعجون العنبر وزيت الياسمين ومياه زهر الأرنج والبابنج والعطرشاء ومحروقات العفص والقرنفل ومحلول السواك ومعجون الحناء ومساحيق حجارة الطفل الأخضر والسّنجابي اللّين منها والمتحجّر ولبست الأزقة والأنهج والشّوارع أفخر معالم الفرح وتخصّص الرّسامون في الألوان الرّاهية وتلهّى الفنانون في إدخال الإيقاع على كلّ شيء وتلحين كلّ ما يدور

من أحاديث بين الناس حتّى يصبح الغناء سيّد الموقف وفتحت مدارس التدريب على الرّغريد وأخرى أختصّت في تدريس المغنى وإصلاح الحبال الصّوتية وسمح للنّاس بالتّعير عن بهجتهم في البيوت والشّوارع العموميّة والأسواق وللغرض أرجىء إعدام كلّ متلكئ عن الرّقص أو ضعيف في العزف أو معزف عن الغناء وفتحت لهؤلاء مؤسّسات مختصّة التزمت مسبقاً بمساعدتهم على التّدارك قبل تطبيق الأحكام عليهم ويقال أنّه من شدّة تحمّس هذه المؤسّسات للإغباط وإيمانها بالقضيّة وتقاني أصحابها في أداء الواجب المقدّس نجح جميع رواد هذه الفصول التّداركيّة والتحقوا بركب الفرح ومواكب السّرور وقوافل البهجة ومرسم الإنشراح.

وأشيع أنّ العروس وضعت كعادة أهل البلد في الحجر حتّى لا تنال أشعة الشّمس الحارّة من لون بشرتها فتتحوّل إلى سمرة لا تليق بالعرائس وحجبت معها وصيفاتها داخل حجرة في قصر ماسينيسا وانتصب الجند المدبّجون بالسّلاح يراقبون كلّ التّحرّكات الدّاخليّة والخارجيّة وشدّدت الحراسة على أولئك الجنود أنفسهم وأنّ الملك لم يكتف بذلك بل أوصى ببناء حاجز حديدي على كلّ منفذ موصل لمكان الحجر وأبقى المفاتيح عنده بعد أن تأكّد من وجود الزيّنات والحلّاقات والملبّسات والمزغردات والمهلّلات والرّاقصات والمغنيات والطّبّاخات وطواقم الخدم والحشم ضمن المحجوزات حتّى لا تتوقّف مراسم العرس وتهبّ العروس لليلة الرّفاف الموعودة.

وفي يوم من الأيام أخرجت الإشاعة بلاغا تقول فيه:

- يحتفل أن تكون صوفونيسب قد زفّت لماسينيسا في هذه الأثناء أو قبلها من يدري.

وصادف في هذه الأيام أن قرّر ماسينيسا دعوة ضيوفه من القبائل البربريّة المجاورة والمواليّة لغرمائه القدامى في قرطاج ردّاً على استضافتهم له ولبعض وجهاء عشيرته من قبل ولم يجد فرصة سانحة أكثر من هذه وهو الملك المعين بقرار من روما والمبايع عن طيب خاطر أو كرها من طرف أغلب العشائر التّوميديّة وهو في طريق تحقيق حلم حياته المتمثّل في ارتباطه بحبيبة قلبه صوفونيسب التي ستصبح عن قريب وربّما أصبحت ملكة الملكات وسيّدة نساء عصرها ومصرها من يدري؟

وبهذه المناسبة السعيدة أو غيرها أقام الملك حفلاً بهيجاً ووليمة فاخرة دعا إليها ضيوفه الكرام من البلاد الغربية ردّاً لجميلهم السابق وزيادة كما وقرّ لهم الأمن والطمأنينة واستقبلهم أحسن استقبال وأكرم وفادتهم وحرص على خدمتهم وراحتهم وقدم لهم أفخر المأكّل وأشهاها في أطباق من الذهب والفضّة ومغارف من الماس المرصّع بالياقوت ومنشفات من حرير الدودة الطبيعي الأصيل المنسوج بالزبرجد والمحلّى بوشي من القطن المصبوغ بقشرة الرّمان. وانطلقت الموسيقى في الترانيم المحلية والمستوردة وأوذّن للضيوف بالشّروع في الأكل بعد غسل الأيدي.

مد كلّ واحد من الضّيوف يديه مدّاً أفقيّاً فوق بخار الطّعام مباشرة وكأنّه يتدفّق ثمّ قلبها من كفّ اليد إلى ظهرها ومن ظهرها إلى كفّها وبعد ذلك أكتفي كلّ واحد منهم بشمّ يديه وهو يقول؟:

- إيه ... إيه ... ما أشهى هذا الطّعام لم أذق في حياتي أدسم منه ولا أفخر منه ولا أحلى منه.
وقال آخر:

- ما أبنّ هذا الطّعام. شكراً لأهله اللّذين اعتنوا بتهيئته وطهيته وتقديمه لنا في أحسن صورة.
وقال ثالث:

- لقد شبعنا من شمّ أيادينا.

ثمّ توجه كبير الضّيوف لماسينيسا قائلاً:

- أيّها الملك المعظّم إن ننسى لن ننسى استقبالكم لوفدنا وحفاوتكم بنا وتكرمكم لنا.
تعجّب ماسينيسا لهذه الرّدود المبالغ فيها وتذكّر المناسبة الماثلة الفارطة وسكت ولسان حاله يقول:

- إن ثار هؤلاء لا يموت.

و فكّر بعض الضّيوف فيما يمكن أن يساور الملك من خواطر لكنّهم قالوا في أنفسهم:

- أنت البادىء والبادئ أظلم.

سكت الراوي قليلا ولما رأى الإهتمام باديا على الجميع واصل قائلا:

- قامت قائمة روما وقعدت وتكاثرت فيها جلسات مجلس الشورى ومجلس الشعب ومجلس الشيوخ ومجلس الشؤون السرية ومجلس الأمن المحلي وانكبّ المقربون من السلطة على دراسة أمر زواج ماسينيسا بصوفونيسب وتالت اجتماعات التشاور وتمّت دعوة العديد من المسؤولين الرومان بإفريقيا وعلى رأسهم شبيون واستمرت المناقشات والمداولات وتقلب المسألة من جميع أوجهها وعلى جميع أصعدتها وفي جميع زواياها ونوقشت فيها مختلف وجهات النظر المتعلقة بها وأخذت فيها بعين الاعتبار كلّ الحسابات والإعتبارات واتفق الأغلب الأعمّ على أنّ هذا الزواج عمليّة خطيرة جدّا على أمن وسلامة الإمبراطوريّة الرومانيّة ومستقبلها في هذه الرّبوع الإفريقيّة المتاخمة لها كما يهدّد بانهار أحلافها ويشتّت جهدها ويضعف من بأسها وسلطانها ويفلّ سلطتها ويحبط طموحاتها ويحدّ من مطامعها وربّما يقضي على مكاسبها وانتصاراتها وركّز المجتمعون على حجة احتمال انقلاب ماسينيسا على روما والتحوّل من حليف لها إلى عدوّ لدود محارب لها بل كانوا على يقين من أنّ صوفونيسب لن ترضى به زوجها إلّا إذا انتصر لأهلها وتحالف معهم ضدّ الرومان وفي ذلك الطامة الكبرى وهكذا اتّفقوا بإجماع الآراء على مطالبة حليفهم الحالي ماسينينيسا بتسليم صوفونيسب فوراً للسلطة الرومانية بدون قيد ولا شرط وهدّوه تهديداً جاداً وبقي الملك البربري بين المطرقة والسندان وحاول في أوّل الأمر إقناع حلفاءه بخطأ تقديرهم وعدم وجاهة رأيهم معتبراً ذلك إستقاصاً له لكنّهم أصرّوا على طلبهم واعتبروه الشرّط الوحيد الذي يبقى على صداقتهم به وحلفهم معه وأرسلوا له رسولا مكلّفا بمصاحبة صوفونيسب إلى حيث قرّر الرومان حبسها واحتار ماسينيسا في أمره وساوره عدم الإذعان لأوامر الإمبراطور ولكنّه خشي أن يكون جنده قد تعود على مساعدة الرومان وخاف أن يشقّوا عصا الطاعة في وجهه ويتمدّدوا عليه ويخذلونه فيخسر كلّ شيء ودخل حجرة صوفونيسب ليعلمها بالأمر ويتشاور معها لعلّها تسعفه بحلّ مناسب لكنّها قابلته بالصدود وأضربت عن الكلام وبقي هو يدور في دوامة فارغة ثمّ تذكّر أنّه مضطرّ لمصارحتها بحبّه لها فأسرع إلى أحد الصّناديق وفتحها وأخرج منه رقعة جلد الأرناب المحبّاة فكّ رباطها ووقف أمام صوفونيسب يقرأ عليها تلك الرّسالة التي رفضت قبولها من قبل ورغم إفراطها في الصّمت وتمسّكها به وتظاهرها بعد الإستماع لما يقرأ

تمالك غضبه وواصل بصوت مرتفع بعد أن أمر الجميع بالخروج ليختلي بالأميرة علّها ترحم شغفه بها وتنفه قيمة حبّه لها قال:

- فَجَرِي قَلْعَتِي وَدَكِّي سَمَائِي واجعليني أعيش بدء ابتدائي
علميني البكاء جفت دموعي والمآقي ولم تعد للبكاء
علميني كيف الصّدود يكون لم أعش مرّة صدود النساء
رَمِّمها رجولتي اثثيني فالرجال الرجال صنع النساء
قمر ي صوفنسب أنت وإني أنمّي أن تمنحيني ضيائي
قمر يرفض الخسوف تماما لجدير بمرصد في السماء.
أُتحدّك بالعشق لكنّ بوحي بهواك يصدّه كبريائي
فالتحدّي لو كان ديناً لكنت في تحدّيك خاتم الأنبياء

لم تكن صوفونسب في الاستماع لقد كانت مشغولة بشأن اخر دخلت في حوار بينها وبين هذا الجسد الذي ما زال يصر الاخرون أنّه جسدها قالت في نفسها

- أفلقتني ذاتي في صراعها بين ما أفكر فيه وبين ما أحسّ به حتّى صرت أشكّ في علاقتها بي وفي مدى تحكّمي فيها أو سيطرتها عليّ لقد كرهت التصرّف المحجوج والوعي بالأشياء والهروب من اللامحدود وكرهت العقود والحدود والبنود ومججت الطّقوس والتّحجّر في العادات وكرهت الخوف المقنّن الذي يجعلني أهرب المجهول وأخشى التّنصّل من حبكتي التي قتلت تحرّري وشلّت حركة الانسياب في ذاتي وحجّرت أحاسيسي وكبّلت السّباحة في أنايا الأعلى والأسفل والأوسط وحرّمت عليّ الدّوبان في الشّروود والدّخول في تجربة لعبة الانفصام والتأقلم مع المغامرة الصّدمة واستقلال الرّيبة والتّعايش مع ارهاصات المخاطرة من أجل العريضة في الانعتاق والابحار في نظام الفوضى بجناح الثّقة في النّفس

لم أعد أقوى على ممارسة الانضباط والرّقابة أريد الاستقلال من نفسي أريد الابتعاد عن

التّرتيب المجحف الذي سكتني أريد اعتناق أحلامي وسبر أغوارها بليونة ومرونة أريد الانفتاح على المجهول والابحار في مسالكها بلا شواطئ أريد ركوب مطايا التّشردم الدّاهلي والسّفر بين ضحايا انفجاراتي

كرهت الأسس والتّقنين في ذاتي لقد تحرّرت الشّعوب ولم يتحرّر الكنه الذي بداخلي ما زال يعيش قصوره ويرتوي بعطشه ويأكل من جوعه ويلتهم ناره ويحبس الهواء الذي يتنفّس به ما زال عبدا لانتائه ما زال موصولا بتركيبه وترتيبه ما زال مرتبطا بجذور تكبّل حراكه وتوهمه بأنّها جذوره ما زال يعيش عقد التملّك والانتفاء ويقتات من الحصر ويضيق على نفسه بالخرج الذي يسكنه جبلة ويريد أن يتقيّد به لينشد النّجاة من الخلع والابتعاد عمّا يعكر صفو قيود الحبك المشدود اليه بالعادة أحيانا وبالتقليد أو الوراثية أحيانا أخرى وبين هذا وذاك لم يقو التّصوّر لديّ الى اليوم على اكتشاف مكنونه من شدة ما تعلّم الانصراف عن اللبّ والاهتمام بالقشور التي اقتطعتها لنفسه من لاهوت الكبرياء لتكون جدار الصدّ بين ما هو عليه وبين ما يجب أن يكون عليه ما زال كنهه يحتاج للغفلة من نفسه والافلات من عظمه وجلده بل ربّما يحتاج لاستنباط جلد اخر وعظام أخرى ليكون الكنه الذي أرّضه

ليس لكنهي مشكل مع الآخرين ولا يقلقه عدم التوازن ولا يحتاج لتعديل مشكل كنه الذات بداخلي يحتاج للترميم وتحتاج كينونته لمراجعات في العمق وتحتاج لأدوات أو ربّما لأسلحة تقتل بها الصّراعات السّاكنة فيها بالأساس أنّ للذّات فيّ أنّ تلفظ أنفاسها الأخيرة لكن قبل ذلك يتحتّم عليها ولادة هيكلها الهارب منها من جديد

في ذلك الوقت تفتّنت صوفونسب أنّها وجدت الحلّ المناسب وانتظرت حتّى انتهى ماسينيسا من عريضته وقبل أن تليه ظهرها وتهمّ بالخروج قالت له - عندما تتيقّن أنّني غيبّة ابدأ في أخذ حذرِك مِنّي فأنا لا أصل قِمة الذّكاء الا عندما اتقن دور الغباء

سكتت صوفونسب وهي تقول في نفسها

- الان تيقّنت أنّ جهل الرّجل بالمرأة أقصى علمه بها

وقبل أن تغادر صوفونسب المكان أيقن ماسينيسا أنها في شبه غيبوبة فأخرج من غمد سيفه قارورة صغيرة وهمّ بابتلاع ما فيها لكنّ صوفونيسب خطفتها منه وشربت كلّ ما فيها حتّى الثمالة وحاول ماسينيسا اقتكاك القارورة قبل ذلك لكنّه لم يفلح.

سقطت صوفونيسب على الأرض وهي تقول بلسان يتثاقل شيئا فشيئا:

- روما تريدني سيّبة عند الأباطور وحبكّ لن يمنعني من مكربها وأنت أعجز من أن تدافع على حبكّ وكرامتي أمام أسياذك وقد ان لي أن أحرّر ذاتي منك ومن روما ومن نفسي لذلك فضّلت الموت.

وبقيت تردّد قوله أمّها "النار ولا العار" حتّى ماتت.

حزن ماسينيسا عليها كثيرا وزاد في احترامه لها وإكبارها وأذن بالحداد لمُدّة عام ورابط في قصره مدّة ثلاثة أشهر متتالية ولم يخرج منه إلّا بعد فوات العدّة التي ارتضاها لنفسه وبقي طيف حبيبته في مخيلته ولم يستطع نسيانها.

وفجأة سكت الرّاي وكأنّه أراد أن يمكّن مستمعيه من الإستراحة قليلا ورغم إصرارهم على أن يواصل فقد أخذ عصاه وانصرف.



ماسينيسا وصوفونسب

الفصل الحادي عشر

اغتنم الجماعة غياب الشَّيْخ للخروج في فسحة قصيرة في بعض أرجاء المدينة العامرة بأهلها. وقد خَصَّص الزَّوار هذه الفسحة من الوقت لاكتشاف العديد من المعالم القديمة والحديثة ذكَّرتهم بالسَّقيفة الكحلة بمدينة المهديَّة والتي تعرف عند عامَّة النَّاس بباب زويلة ذلك المعلم الوحيد الذي تَبَقَّى من بين سِتَّة معالم أخرى مثلت الحصون الخلفيَّة قبل الغزو الإسباني الذي أتى عليها جميعا باستثناء السَّقيفة الكحلة ولأنَّ كان باب زويلة يفتح على القصر الملكي أيام تشييده فإنَّ باب المدينة الحالي بات يؤدِّي مباشرة إلى شارع مستقيم تتفرَّع منه أنهج عديدة متقاطعة تمثل شرايين المدينة العتيقة.

وهكذا تستمدُّ مدينة الأحلام هندستها من هندسة المدينة العربيَّة بالوطن الأمَّ وتذكَّر بها في كلِّ آن وحين ولم تكفَّ المدينة بالنَّسج على منوال تراث البلاد الواسعة التي تنتمي إليها معماريًّا بل حافظت كذلك على خصائص جوِّها الفريد من نوعه كرائحة البخور ونمط الأضواء وشكل الأسواق وطبيعة الحركة نفسها.

وانَّجَّهت الأنظار إلى الأقواس والقباب هنا وهناك وانتاب الجميع شعور بالرَّهبة أمام جلال ما شاهدوا فإذا بالشَّيْخ الرَّايي يطلُّ عليهم فجأة ولمَّا رأى أنَّ بعض الأعين تسأله نظراتها قرَّر التَّدخُّل قائل:

- القوس يمثِّل عنصر إدراك متميِّز يشعر من خلاله الإنسان أنَّه في حماية فالانحناء في حدِّ ذاته يعطيه إحساسا بالقرب وبالتالي بالطمأنينة والقبة نفسها تتصب كالحارس الأمين الذي يطوِّق أعلاك من كلِّ جانب ويحسِّسك بمتانتها التي تبرز في قوَّة الضَّغط المتميِّزة بها بالإضافة إلى ما توفِّره من جماليَّة تراحح إليها العين وتأنس بها النَّفس ويطيب لها الخاطر.

توقف الرَّايي قليلا ثمَّ واصل:

- إنَّ عناية العمران العربي الإسلامي بجماليَّة المكان وحسن منظره والحرص الدائم على

توفير الشّعور بالاطمئنان والسّكينة والاستئناس بالفضاء أمر متأكد وهو كذلك ضرورة ملحة في تخطيط المدن حتّى يبقى المساكن هو الهدف النهائي قبل وبعد كلّ شيء من أجل تحقيق شعور الإنسان العربي المسلم بالانتماء إلى المحلّ الذي يعيش فيه لسبب أو لآخر ويرتبط معه . فالفضاء الخارجي يكتسي أهمية بالغة نابعة بالدرجة الأولى من أنّه بالنسبة للإنسان العربي المسلم يختلف عن الدّاخل، سواء أكان هذا الخارج هو السّماء أم هو على مستوى الأرض الصّحراء التي يتنقل عبرها أو الشّارع أو التّهج الذي يمرّ منه أو البطاح والسّاحات التي تتوسّط البناءات والميادين وغيرها. ففي البيت العربي الإسلامي نجد الفناء يمثّل رقعة مصغّرة من الفضاء الخارجي الواسع العريض، فكأنّه عمد إلى تقدير أبعاد السّماء وترك داخل بيته قسماً منها يتماشى مع حجمه هو بالذات ليحقّق الشّعور بالخصوصيّة. وهكذا يحقّق هذا الإنسان لنفسه في الرّحاب الذي يعيش به تلك الحميميّة التي ينشدها دون أن يشعر بالاغتراب عن وسطه الخارجي أو التّنحي عنه كلياً. وسواء أكان البيت كبيراً أم صغيراً فإنّ الفناء يتيح له تلك القطعة الخاصة من السّماء التي تنتمي إليه هو بالذات وتعتبر ملكاً خاصاً به وفي ذلك إحساس بالانتماء الى دنيا فريدة هي دنياه.

كان الزوّار يتابعون باهتمام كلّ هذه التّوضيحات ولسان حالهم يقول في إعجاب كبير:

- ترى من يكون هذا الرّجل ؟

وزاد تعلّقهم به واتّبعوه إلى المقهى الذي يجلس فيه عادة خوفاً من أن يفوتهم حديثه الممتع.

الفصل الثاني عشر

ما أن اكتمل نصيب المستمعين حتّى واصل الشيخ الراوي حديثه قائلاً:

- أرجع بكم إلى قاعة المحاكمة الجديدة التي انتصبت هذه المرة في قرطاج ذاتها وتحت رعاية المحتلّين الرّومان أنفسهم طبقاً لما كان يريد لها الملك ماسينيسا وحليفه القائد شبيون.

بدأ المتّهمون في القاعة بالمرور بسرعة الواحد تلو الآخر أمام حضرة القاضي الجديد الذي خلف معالي الملازم الأوّل ليليوس وكانت تهمهم مختلفة أحياناً ومتشابهة أحياناً أخرى ولم تستغرق محاكمتهم وقتاً كبيراً إذ كانت تقتصر على التذكير بالتّهم بعبالة ثمّ تتعدّى مباشرة إلى التّصريح بالحكم في الحين ونادراً ما يتفرّغ القاضي رئيس المحكمة الجديد للتّوجّه مباشرة للمتّهم وإن فعل فلمجرّد توبيخه أو شتمه أو تهديده أمّا الأحكام فقد كانت تتراوح بين الإعدام شنقاً والإعدام حرقاً ماعدا حالة واحدة حكم فيها على صاحبها بقطع عينيه قبل تكريمه بالإعدام وقد كان أغلب المتّهمين في انتظار الموت بفارغ الصّبر وكامل الاشتياق لما كانوا يعانون قبل المحاكمة من تعذيب مبرّح ومتواصل جعلهم يفضّلون من المصائب أخفّها وكانت الموت أخفّ عليهم. وبانتهاء المحاكمة الأخيرة دبّ قلق شديد في صفوف مساعدي القاضي ومستشاريه الجدد لأنهم أحسّوا بفرغ كبير ناتج عن تعوّد رئيس المحكمة الجديد بعدم استشارتهم أو تمكينهم من إبداء آرائهم حتّى كادوا يفقدون ملكة التّفكير لديهم وحاول بعضهم التّعبير عن ذلك بالتّملّمل والتّحرك الانفعاليّ أو الثّأؤب بصوت أكثر ارتفاعاً من العادة. ونفطّن القاضي الجديد لذلك وقال مستدركاً:

- زميلاتي الفضليات زملائي الكرام لم أشأّ إثقال كاهلكم بهذه المجموعة من التّهم العاديّة والمتداولة عن قصد فقد أردت أن يتفرّغ كلّ منكم إلى قضيّة أهمّ وأدقّ وأكثر حرجاً وتعقيداً نظراً للملابسات المحيطة بها وأعتقد أنّه تمّ اختياركم أنتم بالذّات من أجل هذه القضيّة لما تتمتّعون به من ذكاء وحادّ وحصافة رأي وامتلاك لفصول القانون الذي وزعت نسخ منه عليكم قبل شروعي في عملكم هذا المجرّد التذكير فحسب وإنّني على يقين من أنّكم بلا شكّ عند حسن

ضنَّ المشرَّع لخدمة العدالة عفوا عدالته التي ليست كمثلها عدالة.

استوى الرئيس المساعد ورفع المدعي العام رأسه وابتسم الكاتب المؤثق الجديد هو أيضا ورقضت بعض المستشارات فرحا وارتفعت معنويات المستشارين وانتشى قلم التحقيق وقبَّل قلمه الورق واستوى الجميع في أماكنهم كأنهم بلعوا عكاكيز مستوية بقيت دون مضغ وهضم وتظاهر جميع طاقم المحكمة بالاهتمام الشديد. واغتتم رئيس المحكمة الجديد انتباه الجميع وقال مخاطبا كبير الحراس

- من المتهم الموالي

صاح كبير الحراس على الفور مناديا المتهم الجديد للمثول أمام الجناح:

- حنبل ابن املكار بركة يمثل أمام جنابكم من جديد وقد سبق له أن استقبلته نفس هذه المحكمة المؤقرة كضيف مبدل أما هذه المرة فأنه يمثل أمام حضرتكم كمتهم من العيار الثقيل.

ما إن استمع الحضور لاسم المتهم الجديد حتَّى انتاب بعضهم هلع كبير وقاموا مهرولين نحو باب الخروج وبدأت الزحمة تشتد شيئا فشيئا وحاول الكثير منهم مغادرة المكان لكنَّ الحرس منع النَّاس من الخروج من قاعة المحكمة وتدخل الجيش بأمر من القاضي وكثر الصياح وتعلت أصوات الفرع مناديه بلغة غير مفهومة:

- حنبل ادبرتس .

وزاد خوفهم وكثر الارتباك وتفاقم الهرج والمرج فمنهم من أغمي عليه ومنهم من أصابه إسهال ومنهم من اصفرَّ وجهه حتَّى تحوَّل إلى ليمونة لائثة ومنهم من جحظت عيناه ومنهم من انبطح بحثا عن ملجئ يختبئ فيه عندئذ لم يجد رئيس المحكمة بدا للسكرات واضطرَّ للتدخل الفوريَّ لإرجاع الأمور إلى نصابها قائلا:

- حنبل ليس بالباب الآن أننا نحاكمه غيابيا أو ربَّما سنحاكم صوته أو ظلَّه أو شبحه أو من والاه.

لكنَّ الجماعة من كثرة ما تعودوا عدم تصديق قضاة ذلك الزمان لم يطمئئوا لما قال القاضي في

أول الأمر فاضطرّ إلى مغادرة مقعده والالتحاق بهم للتظاهر بحمايتهم ودرا لخطر حَبْبَل عليهم وتبعه في ذلك معالي الرئيس المساعد وجناب المدعي العام وحضرة الكاتب الموثّق والسيدات المستشارات الفاضلات والسادة المستشارين الكرام ليمثّلوا الدرع الواقي وهكذا بدأ الاطمئنان يدبّ في القلوب وهذا الرئيس من روع من خاف من الحاضرين بقوله:

- ما جئنا إلى هنا إلّا لننزع عن قلوبكم الخوف من حَبْبَل وأمثال حَبْبَل سترون بأنفسكم كيف ستسير الأمور على أحسن ما يرام فكلّ شيء مرتّب قبل البدء لا بدّ أن تعطونا ثقتكم مسبقاً هكذا جرت العادة نحن لا نعطيكم أيّ شيء مسبقاً لكن أنتم يجب أن تثقوا بنا وتعطونا الوقت الكافي لكي نبرهن لكم أنّكم كنتم عند حسن ضنّنا من يصنع الاستقرار في البلاد غيركم استقرّوا نضمن لكم الاستقرار ولن نستطيع أن نضمن لكم السلام إلّا إذا وفرّتموه أنتم لنا ولكم تلك هيّ قوانين اللعبة لا سلام ولا استقرار إلّا بكم اضمّنوا لنا سكوتكم علينا نضمن لكم سكوتنا عنكم وأطيعونا واصبروا علينا نرضى عليكم ونوفّر لكم الأمن والسلام والطمأنينة وقد رأيتم منذ قليل كيف امتلك بعضكم الخوف والفرع حتّى كادوا يفقدون عقولهم وعافيتهم لا شيء إلّا لأنّ من بينهم من ما زال يحمل في طيّاته بذور التمرد والتنطّع والعصيان مثل حَبْبَل ومن لفّ لفه. وما أن استتبّ الهدوء حتّى استؤنفت الجلسة وبدأ القاضي بمطالبة الشاهد الأوّل بالثول أمامه للإدلاء بشهادته قائلاً:

- من أنت؟

أجاب الشاهد على الفور:

- أنا صوسيلوس الأسدموني عاشرت حَبْبَل وجمعت أخباره منذ أن كان عمره تسع سنوات.

- إذا أنت تعرف نشأته.

- نعم سيّدي القاضي لقد نشأ في عائلة بركة بالديار الإسبانيّة وقد كانت آنذاك مستعمرة قرطاج ومقرّ الجيش المرباط على الحدود الغربيّة.

- و أين تربي؟

- داخل الثكنات العسكرية التي كانت تحت إمرة والده أملكار العدو اللدود لروما.

- لا تقل لي أنه كان يتدرّب على فنون الحرب منذ نعومة أظافره.

- وهو كذلك سيّدي القاضي. منذ البدء دخل حنبعل في معترك الحياة وتفطن للضغوط المسبّطة عليه وعلى شعبه وأحسّ بالكبت الذي تعاني منه الأمة والرّعب الذي يعتريها. كما استطاع أن يتعمّق في الملابس التي جعلت السّبل تختلط من حولها وتتشعب الطّرق أمامها وسبر كنه الحيرة التي تسكنها ولمّا رأى التّرّد يقذف بها دون هوادة في خضمّ التّدبذب حتّى أصبحت تعتقد أنّ وراء كل جرأة عقاب وكلّ رأي تهميش وكلّ مبادرة إقصاء وكلّ التزام إحباط وكلّ خصوبة عقم خاف عليها أن تتدرّب على الاستكانة والخضوع والخنوع والرّضا بالدّون فسارع باستنهاض هممها ودعوتها لمقارعة الظّلم والاستبداد وكان حنبعل في أوّل صفوف المناضلين. والذي ليس له شاهد كذاب.

- أملكك شاهد آخر على هرائك هذا؟

- نعم سيّدي القاضي المحترم لقد جنّت به وهو الآن بالقاعة واسمه سيلينوس الصّقليّ.

- عليّ به.

قفز رجل بدين من وسط القاعة وتوجّه مباشرة إلى منصّة الشّهادة وقال بصوت مرتفع ارتجّت له كامل القاعة:

- سمعا وطاعة سيّدي الرّئيس سيلينوس بشحمي ولحمي رهن إشارتكم.

تدخل الرّئيس المساعد قائلاً:

- أقسم بالآلهة أن تقول الحقّ ولا شيء غير الحقّ.

- أقسم أن لا أقول إلّا الحقّ ولا شيء غير الحقّ

ثمّ توجّه الشّاهد الجديد نحو القاضي وقال له:

- سيدي الرئيس أنا اللحم وأنت السكين.

- ماذا تفعل في الدنيا؟

- أنا مؤرخ مثل صوسيلوس.

- قل لنا ماذا تعرف عن حنبعل.

- كل شيء سيدي الرئيس لقد تابعت حركاته وسكناته وقرأت كتاباته ودوّنت ما قام به من أعمال جليلة وما حققه من انتصارات وبطولات طيلة حياته وحفظت كل ما قيل عنه. لقد عاش حنبعل في جو عائلي رحب متفتح ومسؤول وكان يرى شعبه محروما من فسخ المجال أمامه للرأي والرأي الآخر ولا تتوفر له الأرضية المناسبة لأي نوع من التعايش بين الفكرة والفكرة ولا بين الرأي والرأي المخالف وهو ما يعتبره حنبعل مروقا عن السلامة المطلقة واعوجاجا بالمعنى الصحيح للكلمة بل يعتبر تلك الممارسات أمراضا لا بد من التخلص منها لذلك يقول إن كل من وقع تحت طائلة الاعوجاج هو مريض وكل من تعمّد تصريف أي نوع من الاعوجاج على غيره عن قصد أو غير قصد هو أيضا مريض ولا يستثني أي شريحة ولا يجد لأي من هؤلاء مبررا أو خلاصا أو تعلقة فالعامل الذي يعاني من ظلم عرفه مريض والعرف الذي لا يستنكف من تسليط الحيف على منظوريه يعتبر كذلك مريضا.

قال القاضي:

- سجل أيها الحاكم الموثق كيف أنّ حنبعل يعتبر جميع الناس مرضى وكيف أنّه يسوّي في أنواع هذه الإصابات الفاعل والمفعول به على حدّ السواء فالسألة ليست مسألة طبقات أو مجرد خلل اجتماعي أو قانون غاب أو نقص في المساواة والاستحقاقات ولا مجرد حيف بقدر ما هيّ لديه أمراض يتحمّ استئصالها والمريض عرفا كان أو عاملا قويا أو ضعيفا وصيا أو موصى عليه مسؤولا أو تابعا رئيسا أو مرؤوسا حاكما أو محكوما كلاهما ينبغي أن يعالج.

- بالضبط سيدي الرئيس عفوا سيدي رئيس المحكمة الموقرة.

- كفى هراء نحن لم نسألك عن انتصاراته أو بطولاته أو آرائه كلنا هنا نعرف كيف احتلّ

حنّبعلك جزءاً كبيراً من ممتلكات روما كما نحفظ عن ظهر قلب خططه العسكرية الجهنّمية وكيف استعان بالفيلة بل من أين وكيف جمع منها ذلك العدد المهول وكيف شقّ بها البحر بتلك السهولة التي يتحدّث عنها الرّواة ويدخل كلّ ذلك الرّعب في نفوس أعدائه أمّا اعتياده الهجوم من إسبانيا فليس ذلك بغريب فقد عاش معظم الوقت في الرّبوع الإسبانيّة المتاخمة لبلاد الغول واطّلع على تضاريسها وتعوّد على مناخها وخبر جبالها ومفاوزها ومغاورها وطاف بسهولة وهضابها ووقف على تفاصيل ثناياها لذلك لم يكن من الصّعب عليه التّفكير في محاربة الرّومان في عقر دارهم.

- ليس ذلك فقط.

- وماذا أيضاً ؟

- إنّه تلقّى دروساً من أبيه أملاكار بل أقسم بين يديه أن ينتقم له ويمسح المهانة التي أجبر والده على الموافقة عليه.

- وأيّ مهانة؟

- اتفاقية الصّلح التي سلّم بمقتضاها كرها ممتلكات قرطاج العتيّدة بصقلية وقد نشأ على كره الرّومان باعتبارهم اعداء أبيه وتربّى على حبّ الانتقام منهم ووعد بالأخذ بثأره وثار أهله وذويه فكان في مستوى عهده.

- نحن لا نحاكمه من أجل ذلك بل لا نلومه فمن حقّه وحقّ كلّ منّا أن يكون وطنياً غيوراً وأن يدافع على حمّاه ويذود عنه حتّى الموت كلّفه ذلك ما كلفه وإنّا نريد أن نعرف لماذا تشبّث بقرطاج بالرّغم من أنّه لم يعيش فيها إلّا النّزر القليل من عمره ألم تقل إنّّه عاش كامل طفولته أو أغلبها في إسبانيا أي خارج ربوع ما يدّعي أنّه وطنه.

- بل سيّدي القاضي وقد شهد على ذلك زميلي وصديقي صوسيلوس الذي تحدّث إلى حضرة جنابكم منذ قليل.

- هل تؤكّد ذلك يا صوسيلوس ؟

- لا سيّدي القاضي لا أوّكّد أنّه يدّعي أنّ قرطاج وطنه بل إنّها وطنه بالفعل.

تدخل القاضي بسرعة:

- لقد قيل أنه كان جريئاً زيادة على اللزوم وله إفراط في التّحمّس لذلك لم يكن ملتزماً بأيّ شيء ولا بأيّ وطن.

قال سيلينوس:

- سيّدي القاضي الجراءة لا تتنافى مع الإلتزام ولا تتناقض مع الشّعور بالمسؤوليّة فإن كانت محبة الوطن من الإيمان فإنّ إقصاء الجراءة في المبادرة من أجل انتصار القضية كفر بالوطن.

- أنا لم أطلب منك تحليلاً أو تأكيداً أو عدم تأكيد لما قاله زميلك صوسيلوس المحكمة الموقّرة أدرى منك ومنه بما يجب تأكيده أو نفيه أنا أطلب منك فقط رأيك فيما قاله زميلك منذ حين في خصوص قضاء حتّبعل أغلب طفولته خارج قرطاج.

- نعم سيّدي القاضي كما أوّكد كذلك أنه بقي في شبابه بتلك الرّبوع الإسبانية لمساعدة صهره صدربعل وأخيه ماقون.

- ولماذا يدّعي إذن أنه ابن البلد وهو لم يعيش فيها لا في طفولته ولا في شبابه؟

- لكن سيّدي القاضي لقد كانت هجرته في أغلبها من أجل تحرير بلده.

- أيّ تحرير للوطن هذا الذي يأتي من الخارج؟

- لقد أراد أن يحوّل الحرب من بلاده إلى بلاد العدوّ عفواً أقصد روما

- يقال أنه مكث خارج بلاده وهو يجارب أكثر ممّا مكث في الداخل.

- فعلاً ألم أقل لكم سيّدي القاضي أنه كان يعتزم احتلال روما.

- لماذا إذن لم يتجرأ على دخولها ومحاربة أهلها مباشرة؟

- لقد كانت لديه خطة أخرى تتمثّل في إضعاف الإمبراطوريّة عن طريق افتكاك مستعمراتها وتشتيت أحلافها والحدّ من اتّساع رقعة سلطاتها.

- لأنّه كان متعصّبا ومتعنّتا وهنجعيّا وإرهابيّّا كذلك

- لا أعتقد ذلك .

- يجب أن تعتقد ذلك يا صوسيليوس وأنت كذلك يا سيلينوس . نطق زميله في الحين :

- وأنا أيضا لا أعتقد ذلك . لقد كانت لحنبعل نظرة فلسفية ثاقبة في فهم واستقراء الذّات البشرية فقد كان يعلم أنّ المركّبات لا تبرز بسهولة لذلك ينبغي تعريتها وكشفها وذلك بالتعمّق الجادّ وتبسيط الأضواء عليها واستعمال مجهر الاستقصاء والتّفاد في العمق . وفي الحالات المستعصية يدعو إلى توتّي الاستبطان للتفريق بين اللّب والقشور حتّى يتمّ اسقراء ما غمر واكتشاف ما اندسّ تحت تراكمات متعدّدة كالتّسيان واللامبالاة والتّخفيّ والإخفاء أو التّحجّر والتّعنّت والتّصلّب أو حتّى الهروب المطلق وكان حنبعل يتصدّى لكلّ تعتيم في الرّؤيا وسوء فهم وكلّ تصرّف أعرج وهو يعتقد أنّ الاعوجاج كثيرا ما يرتدي ثوب التّلقائيّة المزيفة أو المنقوصة أو الممزوجة بالشّوائب والتّعلّات الواهية وغير الواهية ويتحلّى بالرّيبة والشكّ والجرح السّلبى ويعتبرها أمراضا تسبّب في أوجاع كثيرة ويؤكد تأكيدا صريحا أنّ في اكتشافنا لنقائصنا رحمة وشفاء أوّل يفضي بالضرورة إلى شفاء تامّ وكامل بمجرد الإفصاح عنها . والبرء من مثل هذه الأمراض متأكد وضروريّ للسلامة الفرديّة أولا وبالذّات وهو كذلك شرط من شروط سلامة المجتمع ككلّ . ولا ينفع في هذا المجال التّشبّث بالمظاهر ولا ذرّ الرّماد على العيون ولا التّغطيّة ولا القبول بالأمر الواقع لأنّ ذلك في حدّ ذاته نوع آخر من العلل وهي خطيرة لأنّها علل لا تراها العين ولا تسمعها الأذن . كان حنبعل يفهم الأحاسيس العميقة التي تعجّ بها الذّات البشريّة ولا يستنكف من ذكر النّفاصص الكامنة في الدّاخل بل يرى أنّه من الضّروريّ الكشف عن المروغات وأساليب التّسترّ أو الهروب بواسطة تلبّيات خاطئة واشباكات وهميّة متعدّدة تتداخل بحسب المواقف والظّروف والملابسات المحيطة أو الدّائيّة . وقد بنى سياسته على ذلك وتصرّف بحكمة فريدة من نوعها وذكاء نادر .

كان رئيس المحكمة منفعلا متوتّرا . صاح قائلا وكأنّه أراد أن يفرغ من ذاته

تلك الشّحنات السّلبية :

- وما دخل حنبعل في أمثالك وأمثال زميلك وأنتما لستما في علاقة معه ومع نكويته العسكري
أفصد أي دخل للسياسة التي يمثلها هو بالثقافة التي تمثلانها ؟

أجاب المستجوب في الحال :

- كان حنبعل يؤمن بتثقيف السياسة ويكره تسييس الثقافة وكان يجنبا جميعا ويقدرنا
ويعتبر الفكر والفن والثقافة عموما رئة تتنفس بها الشعوب وكان يقول إن الشعوب التي لا
تهتم بمبدعيها وفنانيها ومفكرها وعلمائها شعوب في طريق الموت والمجتمع الذي يهمل الثقافة
والإبداع والعلم يكرس الأمالة والانهزامية. وأعتقد شخصيا أنه سيأتي يوم يقول فيه هذا
الشعب كلمته في هذا الشأن.

وكان هذا التكهن أثار فضول إحدى المستشارات الكريات قالت بكل أدب :

- أيها المؤرخ صحيح أن المؤرخين اشتهروا بمعرفة ما مضى من أحداث فهل تدعي أنك تقرأ
المستقبل كذلك ؟ ما هي الكلمة التي سيقولها هذا الشعب في يوم من الأيام ؟

أجاب المؤرخ في الحال :

- سيقول: لا لتهميش الثقافة ولا لثقافة التهميش.

- اقرأ لي كفي.

أجاب القاضي رئيس المحكمة :

- كفك يقول إنك على وشك مغادرة هذه القاعة لقاعة أخرى أكثر ضيق وأقل مرافق وربما
أشد ظلمة وأقسى برودة.

- ساحني سيدي الرئيس لم افهم قصدكم

اجابها القاضي

- خطوط الكف سيديتي تقول بأن لنجملك المغري أفول

وان لم تسكتي سترين حتما نزولا لا يضاهيه نزول

- أقصد أنني لم أتعمد إجراجه.

نظر رئيس المحكمة للمستشارة باحتقار ثم التفت للحرس قائلاً وهو يشير بإصبعه نحو المؤرّخ وزميله:

- أخرجوا هاذين الشّاهدين الوقحين لقد حكمت عليهما المحكمة حضورياً بإتلاف كتاباتها ومحو آثارهما وعدم الأخذ بأقوالهما لتحيزهما البادي للمتهم.

سكت القاضي قليلاً ليهدئ من ثورته ثمّ صاح في وجه كبير الحراس:

- أدخلوا الشّاهد الثالث وضعوا هذين المارقين تحت الحجز حتّى يأتيكم الإذن بتسجيلهما في قائمة المتهمين.

دخل الشّاهد الثالث مثاقلاً وقد فقد نصف دمه من الخوف.

حدّق فيه القاضي وقال:

- أنت رومانيّ وإسمك تيتليف.

- نعم سيّدي القاضي.

- إذن أنت ستكون غير منحاز.

- نعم سيّدي القاضي سأكون محايداً لكن موضوعيّاً.

- ما رأيك في حنبعل ؟

- ما عرفت قطّ عقلاً يجمع هذه السّهولة بين ضدّين متناقضين: القدرة على الأمثال للأوامر والقدرة على القيادة وإعطاء الأوامر كعقل حنبعل فقد كان يقول ما معناه من لا يستطيع أن يستفيد برأي الآخرين لا يستطيع إفادتهم برأيه.

- كيف تجرأ على قول مثل هذا وأنت رومانيّ دماً وأصولاً خذوا هذا الأحمق واجعلوه يمثل

أمام عدالة أخرى أشدّ من عدالتنا بتهمة الخيانة العظمى لوطنه الأمّ وأحقوا به صوسيلوس وسيلينوس ومن والاهم نحن لم نأت إلى هنا لنعدّد مناقب المتّهم حتّبع بل لنكشف عن جرمه المتّملّ في عدم انتمائه الحقيقي لهذه الأرض من جهة وادّعائه الدّفاع عنها والتّضحية من أجلها من جهة أخرى وهما ضدّان لا يجتمعان هل مازال شاهد آخر في القاعة ؟

تدخّل لسان الدّفاع قائلاً:

- لا فائدة في ذلك.

- رأي صائب كأنّ حتّبع قد بسق في أفواههم جميعاً

قال القاضي ذلك ثمّ ضحك فضحك الرّئيس المساعد والتحقّ بهما المدّعي العام وكافّة المستشارين نساء ورجالا وبعد ذلك بقليل دخل الحضور في نوبة هستيرية من الضّحك حتّى بلغت إلى القهقهة ثمّ العووة ثمّ تشكّلت في نغمات وألحان متعدّدة.

وحالما انتهى القاضي من الضّحك توقّف سيل الذّبذبات الصّوتية المنبعثة من الحناجر والتزم الجميع بالانضباط وملازمة الهدوء تقليدا للسّيد القاضي المحترم وسيرا على منهاجه وربّما خوفاً منه.

نظر القاضي إلى كبير الحراس وقال:

- انظر هل مازال عندنا شاهد حقيقيّ يثّلع القلب ؟

- لا سيّدي القاضي.

- هل أنت متأكّد ؟

- نعم سيّدي القاضي.

- إذن تعال إلى هنا لتشهد.

- كيف وأنا لا أعرف حتّبع ؟

- سنعطيك المعلومات الكافية لتشهد بما يرضينا وإن أحسنت الحفظ والتزمت بالصدق فيما حفظت وقلت كل شيء بدون زيادة أو نقصان فسنصدر قراراً سرياً بترقيتك.

فرح كبير الحراس وألقى بنفسه أمام القاضي وهو يقول:

- لقد حفظت درسي إن حنبل له كل الصفات التي أسندها جنابكم له بل أنا أشهد أن كل ما قاله الشهود الثلاثة السابقون تزوير وافتراء وكذب صارخ وانحياز كذلك لا مبرر له وأن قراركم بإحالتهم على المحاكم قرار صائب وإنني أقسم بأبي وأمي وجدتي وحمالي وجل عمتي أن حنبل ليس من قرطاج بل لا يمت لها بصلة لا من بعيد ولا من قريب ربّما يكون... يكون...

سكت الشاهد قليلاً ثم اعتذر قائلاً:

- سامحني سيدي القاضي فأنا ضعيف في الجغرافيا.

ثم التفت كبير الحراس للحاضرين يحثهم على التصفيق ويحرضهم على تحرير لائحة ولاء وتأيد للقاضي وتأسف على عدم استطاعته المشاركة في تحرير تلك اللائحة لأنه لا يحسن الكتابة ولم يتعلم القراءة ولا الحساب والتفت إليه القاضي قائلاً:

- هذا الشاهد صادق وأمين أمحوا عليه الأمية فنحن نستحقّ لمثل هذا الرجل المناضل الغيور.

الفصل الثالث عشر

واصل الرّاوي حديثه قال

- قال أحد مستشاري القاضي الجديد رئيس المحكمة لزميلة كانت تجلس بالقرب منه

- ترى ماذا يحدث الان وما هذه الألوان المتصاعدة الى الأعلى وهذه الأصوات الغريبة

وقالت الزميلة المستشارة لزميلها

- يظهر أنّ أموراً كثيرة تجري في البلاد

- ترى ماذا جرى في البلاد

- لا أستغرب أن تكون هناك عصور وأقوام تتوالى ونحن على ذلك شهداء

وقال البعض الآخر

- أمّا نحن فأنّنا نشعر وكأنّنا بين أهلنا وذوينا

ثم اعتلى فجأة صوت تعود أهل القاعة الاستماع اليه وهو صوت التّاريخ قال

- تسألوني عمّ جرى في بلادي يا بلادي عن السّؤال أجيبني

حدّثينا عن معجزات نراها نلمس اليوم كنهها من قريب

واتركي الفيروان تروي قصيدا عربيّ التركيب والترتيب

لم ينه الصّوت كلامه حتّى سمع دويّ هائل في القاعة اهتزّت له الجدران والأعمدة وارتجّت الأقواس وارتعدت الأرض وإذا بالسّقف ينشقّ دون أن تنزل منه أتربة ولا حجارة نظر الحاضرون الى الأعلى فإذا بكتلة بشرية تسقط على الأرض في شبه غيبوبة سرعان ما استفاق صاحبها ولمّا وجد نفسه أمام حضرة الجناب انحنى قليلا وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته حيّاكم الله ووفّقكم في سعيكم المشكور وجهدكم المبرور.

ولم يدر أحد من الحاضرين بماذا يجيب فقد كانت التحيّة غريبة عن أغلب الحاضرين والبعض الآخر يبدو أنّهم لم يعهدوا مثلها من قبل لذلك ثغرت أفواه الكثير من الحضور وتملّك بعضهم العجب وبادر القاضي باستجلاء الأمر رغبة في إيجاد حلّ لكلّ هذه الألغاز التي أحاطت بهذه الكتلة البشريّة المتنقّلة من حيث لا يدري إلى حيث لا يدري ولما كان القاضي يكره جهله للأشياء أسرع في مسألة هذا الحيوان البشريّ الغريب في شكله ومضمونه كذلك قال:

- ما اسمك يا من أدخلت في أمخاخنا عربة جرّارة بألف حصان.

- خالد ابن يزيد.

- خالد ابن الوليد؟

- قلت خالد ابن يزيد.

- خالد ابن يزيد ... خالد ابن يزيد ... خالد ابن ... ليس لنا في القائمة متّهم بهذا الاسم الغريب.

تدخّل المدّعي العامّ قائلاً:

- ربّما يريد أن يتحلّ اسماً آخر للهروب من عدالتكم الموقّرة سيّدي الرئيس.

أجاب خالد:

- أنا بالفعل لست متّهماً.

أجابه القاضي:

- إذن أنت شاهد.

- لا يا سيّدي القاضي.

- من أنت إذن ومن جاء بك إلى هنا ؟

- لقد قذفت بي السماء في قاعتكم.
- أجاب قلم التحقيق وكأنه يريد أن يدخل شيئا من الانشراح في هذه القاعة الرهيبة
- لكن سيدي القاضي السماء لا تمطر بشرا.
- أجاب القاضي:
- عين الصواب. و من أين لك هذا اللباس الذي لا نعرفه ؟
- هذا لباسنا نحن.
- و من يكون نحنكم هذا و من جاء بك إلى هذه الديار ؟
- جئت مع قائدي حسان ابن النعمان.
- ولماذا لم تبق مع قائدك وتجنّبنا ضياع الوقت وتشتت الانتباه ؟
- لقد أسرّتي تاهية.
- و من تكون هذه الأخرى ؟
- هي الكاهنة ملكة البربر.
- و هل للبربر ملك آخر غير ماسينيسا وورثته ؟
- أنا سمعت من قبل بهذا الاسم وقد سبق عصري بحقبة زمنية.
- اقترّب القاضي من الرئيس المساعد ووشوش في أذنه بصوت خافت:
- ربّما يكون سابقا لزمانه.
- أجابه مساعده بصوت أخفت من صوته:
- الأرجح سيدي القاضي أن نكون نحن سابقين لزمانه.
- حرّك القاضي رأسه وكأنّه يعبر عن موافقته وتوجّه نحو خالد يستقرئه:

- كنت تقول الكاهنة أليس كذلك لم نسمع بها هل لك أن تحدّثنا عنها قليلا نحن صرفنا صرفنا كما يقول المثل

أجاب خالد باقتضاب شديد:

- لقد حكمت البلاد أكثر من ثلاثة وعشرين سنة

ابتسم أحد الجالسين في اخر القاعة وكان لسان حاله يقول سرا

- غريب أمر هذا البلد الكثير من حكامه كانوا يقضون في حكمهم له نفس هذه المدة ثم ينسحبون كل على طريقته

وفي الأثناء واصل خالد توضيح أمره للقاضي ومستشاراته ومستشاريه والسماعات والسماعين ممن كانوا بصدد حضور هذه الجلسات قال

- بسطت الكاهنة نفوذها من جبال الأوراس في الجزائر إلى تخوم الجّم في تونس.

نظر الكاتب الموثّق وقال بصوت مرتفع:

- إمّا أن يكون معتوها أو أبلها أو درويشا.

نظر في وجهه خالد وقال:

- لا سيّدي الكاتب لست معتوها ولا أبلها ولا درويشا بل أنا في كامل مداركي العقلية وكلّ ما هنالك أنّي ابن عصر وأنتم أبناء عصر آخر لقد قلت لكم منذ قليل أن السماء قذفت بي عندكم خطأ.

رفع الكاتب الموثّق يديه فوق رأسه وكأنّه يحتمي من شيء خطير فاضطرّ مساعد القاضي للتدخل على الفور:

- السماء لا تخطأ.

أجابه القاضي

- أعتقد أنَّ الأمر على كثير من الأهمية فالرجل أماننا حيَّ يرزق وهو بالفعل من عصر غير عصرنا والدليل على ذلك لباسه الغريب ولهجته المختلفة على لهجتنا وطبيعة تصرّفاته لا بدَّ أنَّ أمرا ما يحدث الآن بغير علمنا.

و التفت من جديد إلى خالد ابن يزيد وقال:

- وضح لنا كيف قذفت بك السماء بيننا.

- كنت أمتطي عقرب ساعة.

- عقرب ساعة عفتنا الآلهة من العقارب ومن قيام الساعة.

- الساعة يا سيدي القاضي الجليل أعزّك الله آلة جديدة ابتكرناها نحن لنقيس بها الوقت كما نقيس الاتجاه بالأسرولاب. سيدي القاضي ساعتنا جاءت بعد الساعة الرملية والتي سميت انذاك بالساعة لأن الرمل كان يستغرق ساعة من الزمن ليسكب من زجاجة إلى أخرى. وتعتمد في عملها على رمل يوضع في آنية زجاجية محكمة الإغلاق حتي لا يتطاير الغبار وقد استعملت كبديل للساعة الشمسية حين تكون السّماء غائمة بحيث تتعدّر قراءة الوقت وكثيراً ما كانت تستعمل على متن السفن مع البحّارة.

- أعلم ذلك

- لقد أحسنا أنه لا بدّ من تطوير وسائل أكثر سهولة ومرونة لحساب الوقت، وكانت الساعة الرملية تشبه الساعة المائية كثيراً، إلّا أن العرب قاموا بتطويرها، لتصبح ساعة تبيّن الوقت كأَيّ ساعة من ساعات العصر الحديث. وقد ظهرت طرق قديمة لقراءة الوقت غير هذه الطرق المذكورة في الحضارات المختلفة. فقد اعتمد الصّينيّون مثلاً على إحراق أعواد البخور الموصولة بخيط، وهذا الخيط بدوره مربوط بكرة حيث يحترق الخيط فتسقط الكرة في مستقبل من المعدن لتشير إلى وقت معيّن مدرج على هذا المستقبل. أمّا في التّاريخ المطلق تعدّ الساعة العربيّة التي أتمدّت عنها أوّل ساعة عرفت في العالم وخاصة في أوروبا وقد عرفت الساعة العربيّة بأناعتها ودقّتها. وهي من أروع السّاعات المائية التي صنعناها وهي مصنوعة من البرونز المطعّم بالذهب،

وفيها اثنا عشر باباً صغيراً يمثل كل منها ساعة من الساعات، بحيث يفتح كل باب إذا حلت الساعة ويصحب ذلك كل مرة سقوط كرات من النحاس الأصفر على قرص من النحاس الرقيق بحيث يدل عدد الكرات على الساعة التي حلت بها من النهار أو الليل

انتفض قلم التحقيق وتوجه نحو خالد وهو يقول:

- تقيسون الزمن بألة غير الآلات التي نعرفها نحن ما أعجب هذا الكلام.

قال القاضي مقاطعا المتدخل:

- أيها المتطفل عفوا أيها القلم المحقق دع الرجل المسكين يكمل حديثه.

أردف قلم التحقيق قائلاً

- تقصد هذيانه

قال خالد ابن يزيد:

- أنا لا أهذي ومع ذلك سيدي القاضي أنتم محقون فيما ذهبتم إليه منذ برهة لا بد أن هناك أمراً ما يحدث الآن فقد كنت قبل امتطائي عقرب الساعة في القصر أهيب مراسم عرسي في انتظار قدوم لاهية.

- تقصد الكاهنة كما سميتها منذ قليل على ذكر لاهية قل لنا ما علاقتك بها.

- هي وليّة أمري.

- ألم تقل أنها أسرتك.

- نعم ولكن أكرمت وفادتي وحرصت على تلقيني فنون الحرب وقرّبتني منها وكشفت لي عن أسرارها حتى تعلّقت بها وتعلّقت بي وكنا عازمين على الزواج لولا مصائب أخرى حلت بنا.

- وما هذه المصائب؟

- إصرارها على محاربة أبناء عشيرتي تحت طائل الكبرياء وبدعوى عدم الاستسلام ما جعلها

تحدّى قائدي حسان ابن النعمان وتلحق به هزيمة في حدود مدينة قابس وتبقى على إصرارها في تحدّيه وبعد أكثر من عشر سنوات أخذ بالتأّر منها والتحق بها في حصنها المنيع بالجّم أين كانت تنهياً للزّفاف وفي الأثناء سمعت بهجوم حسان عليها على حين غرة وقبل أن أخرج للتّوفيق بينهما سمعت بخبر موتها فانزعجت كثيراً وخرجت لأتبيّن في الأمر لكنّ هذه الآلة العجيبة التي ركبها لربح الوقت رغبة منّي في الإسراع هيّ التي قذفت بي في سماء بلا قرار وهكذا سقطت بينكم. وأنا في طريقي إليكم سمعت أصواتاً تتهمني.

اغتنم قلم التّحقيق هذه الفرصة وصاح قائلاً :

- إذن أنت الآخر متهم وما هي تهمتك ؟

- اتهموني بأنّي أفشيت أسرار لاهيّة لقائدي حسان ابن النعمان واتهموني كذلك بأنني حرّضته على محاربتها وربّها قتلها.

- وهل حدث ذلك ؟

- أبدا سيّدي القاضي والدليل أنّني بقيت على صلة وثيقة بابنيها الذين ربط بيني وبينهما تقدير كبير وجمعت بيننا معزة فقد أحببتها وأحبّاني وأتبعوا ديني وتوفّيا في سبيل وطنها.

- الظاهر أنّ أغلب العصور متشابهة في كيل التّهم

- نعم سيّدي فالتّهم لا يمنع منها لا الأحياء ولا الأموات

- الأموات ؟

- نعم سيّدي القاضي بالفعل فحتّى لاهية المكنّاة بالكاهنة لم تسلم من اتّهامها بحرق البلاد قبل موتها

- وهل فعلت

- أبدا كانت تحبّ وطنها وتغار على مكتسباته ولا تقوى على إلحاق أيّ ضرر به لكن المغرضين وأصحاب السنة السوء لا يسلم منهم أحد والغريب أنّهم يفعلون كلّ ذلك باسم التّاريخ الذي

يحشرون فيه رغباتهم واستنتاجاتهم وتصوّراتهم وأحياناً ما يفرزه ذكاؤهم وحتىّ حمقهم لا يهّم المهّم أن يكتبوا تاريخاً على ميزاجهم ويمرّرونه لنا باعتبارهِ حوادث تبدو لدينا وكأنّها من التّحصيل الحاصل حتّى ولو كانت ضدّ التّيّار أو مخالفة لمنطق الواقع وملابسات التّاريخ

قال الرّئيس المساعد:

- لم أفهم شيئاً. هل للواقع منطق

وقال الكاتب الموتى:

- لم أفهم شيئاً. وهل للتّاريخ منطق

وقال لسان الدّفاع:

- وأنا أيضاً لم أفهم شيئاً. هل للمنطق منطق

وقال القاضي:

- وأنا كذلك لم أفهم شيئاً. ومع ذلك فاني متأكّد أنّ للتّاريخ ملابس ولباسات تاريخ وفجأة دخلت القاعة في دوران خفيف نسبياً ثم اشتدّ اللفّ حتّى خيّل للنّاس أنّ وجوههم انتفخت واستطالت وأنّ أبدانهم تكوّرت وتعلّت أصواتهم من شدّة الفزع لكنّ صوت القاضي طغى على الجميع فانبرى مؤكّداً ما قاله منذ قليل:

- لا بدّ أنّ شيئاً ما يحدث الآن.

ولما اشتدّ به الخوف صاح قائلاً بصوت شديد الإرتفاع

- لقد حكمت المحكمة على حنّبل وعلّيسة والكاهنة وخالد بن يزيد والمتهمين السّابقين بتأجيل جلسات المحاكمة وذلك من أجل توفير مزيد من المعلومات وعدم سماع الدّعوى بالنسبة لكلّ من صوسيلوس وسيلينوس وتيتليف. كما قرّرت المحكمة إعادة النّظر في الأحكام السّابقة المصرّح بها آنفاً في محكمتنا بشأن كلّ من سبق وارجاء ذلك الى أجل لاحق ريثما تتولّى محكمة الشّعب التّنبّط في ما يجري وعلى أمل أن يوفّر لنا قلم التّحقيق ما ينقصنا من معلومات فقد

قَرَرْنَا دعوة بعض الوافدين الَّذِينَ سيمثّلون عَيْنَةَ من العصر وأهل العصر لعلّنا نوفّق الى تحديد بعض ملابسات الأحداث السّابقة والعلاقة بين هذه وتلك وبين الأحداث اللاحقة وتطوّرات الأوضاع وسياقاتها والظّروف المحيطة بها من خلال مسائلَة من ستمكّن من استنطاقهم.

قال أحد مساعدي القاضي

- سيّدي القاضي الموقر لقد بلغني أنّ بعض ممثلي هذه الحقب تقف الان على بابكم

قاطعهُ القاضي قائلاً

- اذنهم بالدّخول فرادى أو جماعات واليبدأ كلّ منهم بتقديم نفسه وستولّى مقارنة ما يقولون بها ورد علينا في التّوّ من ملفّات عن طريق أحدث المحامل والتقنيات

الفصل الرابع عشر

قال الراوي

- توقفت الحركة فجأة ودخلت قاعة المحاكمة في نوع من الغمام المتبوع ببهرة ضوئية عجيبة واعتلى صوت اذان حلو النغمة شديد التأثير جعل كل الناس في حالة خشوع وسكينة لم تشهدها القاعة البتة من قبل وبعد انتهاء الاذان بدأت تتدفق أمام منصّة المحكمة جموع من أمة العرب يشبه لباسها ما يرتديه عامة أهل هذه البلاد وبلدان عربية أخرى قال أحد لوافدين

انا ابن ابي سرح بأمر ابن عفان غلبت جرجير قبل الفتنة الكبرى

- أتينا لفتح ينصر الدين رغبة في نيل أجر لا نريد سوى الأجر

دخلنا ربوعا بارك الله أهلها وأجل فتح الأرض للمرّة الأخرى

وتلاه رجل اخر يظهر أنه من أوائل الفاتحين قال

انا ابن حديج جئت سوسة فاتحا وواصلت زحفي نحو أرض بها صبرى

وتدخلت بعده مباشرة امرأة تتحدث بنفس اللهجة قالت

- عمر ابن الخطاب جدّي ولكن قد نشأت هنا وكنت المريده

من بطون الأشراف مثّلت عهدا ذهبيا وكنت خير حفيده

والذي عبد الله سابع عبد فتحوا القيروان فتحا مجيدا

وتلاها رجل متعمّم قيل أنه عقبة بن نافع قال عقبة

- انا عقبة الفهري وليت أرضكم وجئت اليها فاتحا ومبشّرا

بنيت ربوع القيروان محبة في الله والاسلام والخير للورى

قال الرَّاوي

- ما أن انهى عقبة بن نافع من تقديم نفسه حتَّى تصدَّر القوم فارس همام يدعى طارق بن زياد قال مخاطبا صورة لحَبْلٍ بقيت في القاعة اثر الانتهاء من اخر محاكمة قال الفارس

- يا حنبعل لقد واصلت ما شرعت فيه الجنود التي جهَّزتها قصدا

وقدت جندا بلا فيل يعرِّزه ولا سفن تحميه أحرقتها عمدا

دخلت أندلس والنَّصر حالفني فتحت قرطبة الغناء والنَّجدا

تدخلُ الفارس موسى بن نصير معقبا على طارق بن زياد قال

- وجئته فوجدت الرَّبع مزدهرا غنمت غنما كبيرا جاوز الحدَّ

طارق ابن زياد أنت معجزة خلقتها كي أصون العرض والودَّ

كأنَّ الفتح من صنع طارق كأنَّه الأصل في العزِّ وفي المبدأ

أخذت أروى الكلمة قالت

- أروى أنا أوقفت كلَّ رزقي على اللواتي ما اقترنَّ مرَّه

ساعدهن بالهدى والرِّفق وصنتهن من عنا المضرة

أحطَّ زوجي بالوفا والصدق وعشت للمنصور دون ضرِّه

وعقد الفيروان كان توقِّي تركته للناس خير عبره

اثر هذا التدخل صفقت جميع النِّساء الحاضرات في القاعة وتعال الزَّغاريد وارتفع من داخل القاعة أصوات نسائيَّة قالت الأولى

- لا فضَّ فوك يا منقذة الزَّوجات من مقت التَّعدّد

وقالت أخرى

- عشت رائدة للكرامة النسائية

وقالت ثالثة

- أنت تونسية حرّة

وقالت رابعة

- أنت امرأة ونصف

وحياها الفارس الهمام أسد بن الفرات ثمّ توسّط المنصّة وقَدّم نفسه للجناح قال

- أسد ابن الفرات شاهد عصر ذهبي وجدت فيه طريقي

وتلته ابنته أساء قالت

- أنا أسماء و البلاد بلادي بنت ابن الفرات بالتّدقيق

عشت في ملتقى الحضارة وصلا بين آت وبين ماض سحيق

كم تحدّث بلادنا من غزاة وتمادت تشقّ ألف طريق

ثمّ أخذت طلّة السّعد الكلمة قالت

- أنا طلّة السّعد في القيروان رفيقة روح الوفا المنتصر

ترابي المحبّة عبر العصور وفي السلم خير وفي الحرب شر

جمعت بأرضي قبر العدوّ ومهد الشّهيد ومعنى الظّفر

من الهند جئت إلى القيروان التي عوّضتني عناء السّفر

عقب أحد ممثلي العامّة في مجلس جناب القاضي قائلا

كلّ من جاء للبلاد كغاز لم يقيم بيننا ولم ير أمنا

أمّا من جاء للبلاد كضيف واستقرّ هنا فقد صار ممّا

وتدخّل العالم ابن باديس قال

- ابن باديس لي في العلم مفخرة مازال اشعاعها باد الى الانا

فبيت حكمتنا عنوانه شبق من نورنا الساطع المزدان ألوانا

قال الرّأوي

- قام القاضي فجأة بمجرّد أن شاهد قدوم رجل عليه وقار مشائخ العلم عرف عند بعضهم بالامام سحنون وقد بادره القاضي بالتّحيّة فردّ الامام التّحيّة بأحسن منها ثمّ قال

- أنا الدليل على ما قال حاكمنا قد نلت منها علوما بل وسلطانا

قاومت كل تطرّف وتجاوز و كان انصافنا في قلب مسعانا

الدين ليس تزمتا وتحجرا لا يرتضي الدّين للاجحاف اذعانا

ردّت احدى الحاضرات في مجلس جناب القاضي معلّقة قبل أن تتدخّل أمّ المعزّ الصّنهاجيّة قالت

- حقب أسس التّرابط منها للحضارات فسحة ليس تفنى

وبعد ذلك فسح القاضي المجال لتلك المرأة التي رعت في حضنها أكثر من أمير صنهاجي باصرار وايمان وأحسنست رعايتهم صغارا وعلمتهم حسن التّصرف والتّدبير كبارا قالت

- أمّ المعزّ وأمّ العلوّ وابنة باديس بنت السّموّ

حكيمة صنهاجة باعتدال جمعت مع العلم جلّ الخصال

وجاء من بعدها العلّامة ابن رشد قال

- انا ابن رشد عالم بحال من قد سبقوا

قلت لأهلي ويحكم سكوت شعبي مأزق

- خياركم ثلاثة فأمّا أن توافقوا
وامّا أن تنافقوا وامّا أن تفارقوا
تدخّل أحد الحاضرين مخاطباً القاضي قال
- سيّدي القاضي اسمي عينون شينون أريد أن أسأل أفيرواس
ردّ عليه القاضي قائلاً
- ومن يكون أفيرواسك هذا
- هذا الرّجل العظيم المائل أمام حضرتكم الان يسمّيه الغرب أفيرواس
- تقصد ابن رشد
- نعم ابن رشد
- وماذا تريد أن تقول له
- سله سيّدي القاضي عمّا فعل العرب في كتبه
أجاب ابن رشد مبتسماً
- أحرقوها
ردّ القاضي على ابن رشد
- وتقول ذلك بكلّ بساطة
- أقسم بالله لا أقول إلاّ الحق
- هل أحرقوا كلّ النسخ من كتبك
- لا سيّدي القاضي لقد حفظ بعضها الغرب
عندها تدخّل أحد الحاضرين قال

- سيدي القاضي من أهم الأسباب التي هيأت لسقوط الأندلس سنة (١٤٩٢ م) تلك العقلية التي تسببت في أن يحرق العرب كتب ابن رشد وفي المقابل لما انتقلت أفكاره للأوربانيين مكنتهم من التخصّر وتحقيق نهضتهم في القرن السادس عشر

ثم أضاف عين شين قائلا

- قلّة من بني جلدتنا، من فهم أنّ حضارة الغرب بدأت، يوم جئحت أفكار ابن رشد نحو ربوعهم (في القرن الثالث عشر)

أجاب ابن رشد

- وقد تنبأت بذلك ..

قال القاضي لابن رشد

- كيف ذلك وفي أيّ مناسبة

أجاب العلامة ابن رشد

- يوم أن كان العرب يحرقون كتيبي في تشف وغيض كان أحد تلاميذي في المسجد يبكي من شدة الأسف والحسرة

قاطعه القاضي قائلا

- ماذا قلت له

- قلت له : إذا كنت تبكي حال المسلمين، فاعلم أنّ بحار العالم لن تكفيك دموعاً، أمّا إذا كنت تبكي الكتب المحروقة، فاعلم أنّ للأفكار أجنحة، وهي تطير لأصحابها.

توجّه القاضي نحو ابن رشد قائلا

- وماهو السرّ في ذلك يا ابن رشد

أجاب ابن رشد

- ربّما كانت وصايا يا الخمس هي أساس تحضّرهم

تدخل القاضي مخاطبا ابن رشد قال

- يا ابن رشد هل لك أن تلخص لنا ما قلته من حكم في كتبك وابدأ بالحكمة الأولى

- الحكمة الأولى :

الله لا يمكن أن يعطينا عقولا ... ويعطينا شرائع مخالفة لها

قال القاضي مخاطبا ابن رشد

- وبذلك حسمت العلاقة بين ما هو مدني وما هو ديني. وما حكمتك الثّانية

واصل ابن رشد قائلا

إنّ الحكمة هيّ النّظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان

وكأنّ اصغاء القاضي وموافقة ابن رشد شجعا أحد المتدخلين على مواصلة التّوضيح بعد

الاستئذان من معالي رئيس المحكمة وموافقة قال معلقا على جواب الحكيم ابن رشد

- لاحظوا سيدي الرئيس أن هذه الحكمة بالذات هي التي جعلت الأوروبيين يسبحون في

فضاء المعرفة

ولما حرك رئيس المحكمة رأسه موافقا أضاف ابن رشد

- أمّا الحكمة الثالثة فقد كانت سببا رئيسيا في جمع الأوروبيين حول مرجعية موحدة وهي قولي

:الحسن ما حسنه العقل .. والقيبح ما قبحه العقل .

ولما استحسّن رئيس المحكمة ذلك واصل المستجوب قائلا

- وأمّا حكمتي الرّابعة والثّاني قيل انها حسمت الجدل الشّوفسطائي في الغرب فهي قولتي :لو

سكت من لا يعرف لقلّ الخلاف .

قال القاضي

وما هي الوصية الخامسة

رفعت احدى الشابات الحاضرات اصبعها بسرعة وشرعت في تحرك يشبه اللاحاح جعلت رئيس المحكمة الموقرة يأذن لها بالتدخل قالت

- سيدي الرئيس حكمة ابن رشد الخامسة هي التي جعلت الأوربيين يحققون قفزتهم الاقتصادية النوعية فقد تمثلت في قوله والعهدة عليه: إن ثروة الأمم بكثرة السكّان المحييين للعمل، والمجيدين له والمبدعين فيه.

وكأن القاضي أراد أن يحوصل ما أفاده به المتدخلون فالتفت نحو ابن رشد وقال له

- المؤكّد أنّ قيمة العقل في فكرك يا ابن رشد مهمّة بل وأساسيّة والعقل عندك يا أفيرواس هو عقل يركّز على البرهان والحجّة الدامغة وهو صارم قطعيّ وليس عقلاً تقريرياً يتدخّل لمجرّد الجدل أو الخطاب المحظ والجدير بالذكر أنّ العقل الجدليّ الخطابيّ هو الذي طغى في الموروث العربيّ الاسلاميّ من بعدك حتّى أصبح في حدّ ذاته مكبلاً للعمل الحدائيّ والتّنويريّ كما جاء على لسان العديد من المفكرين والمحلّلين

صاح أحد الحاضرين وكأنّه أراد أن يسمع كلّ من في القاعة وحتّى من كان خارجها

- الاستاذ ابن رشد صديق عائلتنا الموسعة وبالاخص جدتي رحمها الله فقد كنت تردد بعض ما قال بطريقتها الخاصة

قال السيد رئيس المحكمة

- ماذا تقصدين بطريقتها الخاصة

- اقصد انها كانت تترجم ما جاء في كتبه باللهجة الدارجة

- لم افهم

- اذكر في ما اذكر انها كانت تقول لنا في سياق توجيهاتها لنا

الجهل للخوف يلزك والخوف للحقد يهزك

والحق للعنف يدرك هكّه قالنا ابن رشد

- كلّ ما نتمنّاه هو أن تكون أفكار هذا الرّجل العظيم ملهمةً لنا على مدى العصور.

وقالت احدى الفتيات الحاضرات في القاعة

- ما أحوّنا لهذه الأفكار الان

قال الرّاي

- ما أن أخذ ابن رشد مكانه بين الجالسين حتّى تقدّم للمنصّة مباشرة أحد علماء زمانه وبعد

أن حيّا القاضي سأله هذا الأخير قائلا

- قدّم نفسك أيّها الضّيف

- أسمى ابن منظور

- نعم النّسب

واصل ابن منظور قائلا

- تقلّبت في درجات الرّتب وشاركت في ندوات الأدب

وأصدرت فيها عديد الكتب وضاعت ومّت ولم أنسحب

ثم أخذ مكانه في القاعة وتلاه المفكّر والأديب ابن رشيق الذي استقبله القاضي بنفس الحماس

الذي استقبل به ضيوفه الآخرين قال

- يا ابن الرّشيق أهل لك تعقيا عماً نعيشه رأي قلّه تقريبا

ردّ عليه ابن رشيق في الحال مستشهدا ببعض من شعره

- أشقى لعقلك أن تكون أديبا أو أن يرى فيك الوري تهديا

ما دمت مستويا ففعلك كلّ عوج وان أخطأت كنت مصيبا

كالنَّقْشِ ليس يصير معنى ختمه حتَّى يكون بناؤه مقلوبا"

أجابه القاضي على الفور قال

ابن الرشيق رشيق في مسألة للنَّاس كانوا شبابا أم غدوا شيئا

أجاب ابن رشيق وهو يتصفَّح احدى صوره على ورقة نقدية معاصرة جدًّا قال

في عمدي أدب راق يميّزها قرّبت ما قد نأى أو غاب تقريبا

ابتسم القاضي لابن رشيق قبل السَّحاح له بمغادرة المنصّة ليأخذ مكانه بين الحاضرين وقام
مرحبا بالّدكتور التّطاسي ابن الجَزَّار وقد استقبله بحفاوة قائلا

- ابن الجَزَّار يشرفنا قد جاء الان يعرفنا

ثم أضاف مخاطبا الطَّبيب بعد أن اطَّلِع على أحد ملفَّاته

- كنت الحكيم الكريم الفذّ ذا خلق يسمو بك الطبّ أفعالا وأقوالا

كم زال ضرّ بما قدمت من حكم عاجلت أصحابها شيئا وأطفالا

دون اعتبار ولا من ومنفعة وقد جمعت اختصاصات وإجمالا

فكم أعدت ليأس موهن أملا وكم فتحت لطبّ الجسم أفعالا

توجَّهت احدى المستشارات للطَّبيب قائلة

- أليست أوّل من اهتمّ بمرض الرّكام الذي نسّميه النّزلة

- أجابه الطَّبيب قائلا

زاد المسافر طب خالص وأنا أب الرّكام طبيب الفقر من قالا

سيأتي يوم يحار الطبّ في مرض درست أعراضه الأولى وما زالا

الى الان لم يستوف مقصده خذوا العلم منّي واصلوا المنوالا

تقدّمت للمنصّة زينب التيجانيّة قالت

- أنا زينب من بطون ابن حفص ورثت من العلم زادا كبيرا

تجانيّة الأصل والعبـدريّ يرّدّد ذكري وشعري كثيرا

قال القاضي مخاطبا امرأة كانت بالقرب من زينب

- وأنت من تكوين

- أنا عطف قد جتكم برصيد حضاريّ من الذكا الاندلسي

مد تزوّجت من أبي زكريا من جذور الكرام من أهل حفص

عشت في عزّة وبين أناس بدّلوا بأسنا المرير بعرس

الفصل الخامس عشر

قال الراوي

- بمجرد أن سمعت عطفًا تتحدّث عن الأندلس رجعت بي الذاكرة لهذه الفترة المفصليّة من تاريخ تونس بل من تاريخ الأُمّة العربيّة جمعاء تذكّرت كيف كان العرب في أوج عزّهم وتقدّمهم بالنسبة للغرب تذكّرت كيف أهدى أحد ملوكهم وهو هارون الرّشيد الخليفة العبّاسي إلى شارلmani ملك فرنسا تحفة فنيّة في شكل ساعة ضخمة بحجم حائط الغرفة بها اثني عشر فتحة وتعمل بواسطة القوّة المائيّة وعند انتهاء كلّ ساعة ينزل من أحد أبوابها عدد من الكويرات فوق سطح من نحاس فتحدث نوعا من الموسيقى يسمع رنينها في أرجاء القصر وفي نفس الوقت يفتح باب من الأبواب الاثني عشر وتخرج منها قطعة معدنية متحرّكة في صورة فارس يدور حول الدائرة الخارجيّة للسّاعة ثمّ يعود من حيث خرج فإذا حانت السّاعة الثّانية عشرة خرج من الفتحات اثنا عشر فارسا مرة واحدة وداروا دورة كاملة ثم يعود كل منهم إلى الباب الذي خرج منه وبدخوله فيه تغلق فتحة الباب خلفه.

تذكّرت كيف أثارت هذه الآلة العجيبة دهشة الملك وحاشيته وبالاخص رجال الكنيسة في القصر واعتقدوا أن في داخلها شيطانا يحركها فتربصوا بها ليلا وحطموها لكنهم ذهلوا عندما لم يجدوا بداخلها الشيطان الذي كانوا يعتقدون انه يسكنها.

وقد واصل العرب في تطوير الآلة قيس الزمن مرة أخرى في عهد المأمون الذي أهدى بدوره إلى ملك فرنسا ساعة أكثر تطورا تعمل بالقوة الميكانيكية بواسطة أثقال من حديد معلقة في سلاسل. وقد كان العرب يسمّون هذا العلم علم الحيل الهندسيّة وعلم الحيل هو ما كان يعرف عند الإغريق (بالميكانيكا).

تذكّرت كذلك لماذا اهتم العقل العربي في وقت ما بالوقت لأنّه فهم ان القدرة وحدها لا تكفي لانجاز العمل بل يتحقّق توقّر الوقت الكافي من أجل انجازه ولا يمكن لأيّ انجاز أو عمل

أن يتحقّق اذا لم يتوفّر له حيز معلوم من الوقت أي زمن معيّن لصيرورته فالزّمن عنصر ضروريّ لاجراج العمل من القوّة الى الفعل أي من النّية الى حيّز الوجود فالوقت عنصر من عناصر الانجاز لا يتمّ الا به.

وقصة الإنسان مع الوقت قصة طويلة بدأت منذ قرون بعيدة، ظهرت خلالها الكثير من النظريات والحقائق العلمية التي تم تأكيدها في مسيرة البحث عن الوقت سيما وأن كثيراً من العوامل تدخل في فلسفة الوقت وتؤثر مباشرة في تحويل تلك الرؤى الفلسفية الى صناعة قائمة الذات تخضع لآليات وادوات ومناهج عمل تتطلب الدقة وتتطور بتطور نسق الحياة وحاجة الناس لتقدير الوقت وفي كل الحالات يتحتم الرجوع إلى النواميس الطبيعية التي أوجدها الله عز وجل في هذا الكون وهي تسير وفق منهج الاهي معين بنى الخالق عليه قواعد العلم وعرف بعضنا بنزرها على مراحل نسميها بالمعنى المتداول عندنا جميعاً علماً وبوبنا بعضها بحسب الحاجة والاجتهاد وفي ما يتصل بالوقت لاحظنا ان الشمس تشرق في وقت وتغرب في آخر، والقمر كذلك يظهر في أوقات ويغيب في أوقات أخرى. والسّنة فيها أربعة فصول، كل فصل يأتي بعد الآخر محكوماً بظواهر طبيعية لا يتحقّق إلا بها. والليل والنهار مقسومين بساعات وهما يتعاقبان الواحد تلو الآخر بصفة معينة ونسق رباني لا يقدم ثانية ولا يؤخر ثانية عن مواعيد توقيت كل منها.

من أوجد هذه المواقيت جميعها ؟ وكيف تم حسابها بهذه الدقة المتناهية ؟ متى يظهر هذا ويختفي ذاك ؟ إنه النّسق والمنهاج الرّبّاني في الخلق. كلّ شيء محكوم بوقت أوجده الله في أسرار الكون الفسيح، وقد ميّز الله عزّ وجلّ الإنسان بالعقل وأمره بالتّفكير في خلقه ليزداد بذلك يقينا بوجود الله الخالق البارئ المصور مالك الملك ذي الجلال والاکرام.

من هنا ظهر العلم الذي يفسر الظواهر الكونية، وظهرت النظريات التي تفسر تلك الظواهر التي لم يكن الإنسان العادي ليفهم سبب حدوثها.

ولعلّ واحدة من هذه النظريات "نظرية التّوقيت" التي نحن بصدد الحديث عنها وتوضيح أصل نشأتها وتطورها في مراحل العلم المختلفة بعجالة، هي أبرز تلك الظواهر

واضاف الراوي قائلا

- وأنا أبحر في التخمين فهمت أهمية الوقت عند العقل المتقدم وفهمت لماذا اهتمّ النّازحون من الأندلس الى تونس بنقل كل ما يتّصل بالظاهرة الزّمنية معهم والاصرار على ادراجها في حياتهم اليومية من جديد ومن تلك الامثلة تلك الساعات الأندلسية بتستور من ولاية باجة منها ساعة محمد تغرينو الحائطية وهي اول ساعة ميكانيكية حائطية تتوسط صومعة الجامع الكبير بمدينة تستور ويرجع تاريخها الى ١٦٣٠ م وقد صممت بطريقة فريدة من نوعها تحاكي عقاربها اتجاهها معاكسا لاتجاه الساعات الاخرى وهي أول ساعة في المغرب العربي على حد علمنا من هذا الطراز وقد كانت متوقفة عن العمل منذ مدة طويلة وتم اصلاحها اخيرا

وفي اعتقادي فان تصميم تلك الساعة ومثيلاتها من طرف العقل المتأثر بالعلم يمثل رمزية استمرارية تطور العلم وتطوراهله في الكمون وفي نفس الوقت يزف للضمير العربي منبع تلك الحضارة بشرى امكانية تدارك تخلفه في رسالة خفية مضمونة الوصول مفادها انه مهما تطورت صناعة الساعات في العالم الغربي وتعقدت وتعددت مهامها وازدهرت سوقها في اوروبا بالاخص واعتقد الغرب انه افنك صناعة الساعة من روادها فقد تمكّن رواد السّاعة العرب او المستعربون من ان يرجعوا الدرّ الى معدنه ويفاجؤا العالم المعاصر باختراع ساعة ليست كالسّاعات الاخرى تدور عقاربها عكس الاتجاه التقليدي من اليسار الى اليمين فالساعة العربية تدور عقاربها من اليمين الى اليسار محاكاة لاتجاه الطّواف بالكعبة الشّريفة وانتصابها يمثل رمزية تذكر العرب والمسلمين بأبجادهم وتحثهم على استرجاع مجدهم وتذكي فيهم جذوة النخوة العربية الإسلامية من جديد وتحثهم على السير على درب ابن الهيثم والخوارزمي وجابر ابن حيان والخليل ابن احمد وابن خلدون وغيرهم وتدعو إلى استنهاضهم من جديد بعد سبات عميق وتشجعهم على أن يهدوا للعالم ساعة أخرى تذكر بتلك التي أهداها هارون الرشيد للملك فرنسا شارلmani بل تفوقها حدائة وتطورا وترمز إلى تواصل مسك العرب والمسلمين بناصية الزمن والتحكم بزمام الأمور رغم المحن وتحثهم على مزيد التقدم والتطور والإنشاء.

والأجدر بالذكر أنني واكبت بنفسى تجسيم صناعة والتعريف بهذا الاختراع والتسويق له انطلاقا من بلادنا تونس وساهمت شخصا في تجسيم هذه الساعة التي تدور عقاربها عكس اتجاه

الساعات العادية وكنت احد المساهمين في صناعة نماذج متعددة ومتطورة من هذه الساعة تزامم ارقى الساعات الحديثة في العالم المتطور والمتنوع

كما توجد بنفس الجامع الكبير بتستور من اثار الاندلسيين ساعة شمسية في منتصف الصحن، عليها اسم مصممها أحمد الحرّار وهو مواطن من أصل عربي يسكن في مدينة تستور التونسية، ويرجع تاريخ هذه الساعة الشمسية الى سنة ١١٧٤ هجري ١٧٦١ ميلادي. وهي تحفة فنية ما زالت تشغل الى اليوم بلا انقطاع أو توقف

وبنفس هذا المسجد بتستور توجد ساعة ثالثة تعمل مرتين في السنة وهي من أندر ما صمم في عالم الساعات على الإطلاق وهي عبارة عن نافذة ذات ثلاث فتحات عمودية الشكل في الحائط المقابل للمحراب تدخل الشمس منها مرتين كل سنة لمدة ساعة واحدة في اليوم الواحد وهو ما أفادنا به بعض أهل البلد والملفت للأنظار أن يكون هذا الاختراع لا يعمل الا في يومي عيد الفطر وعيد الاضحى وهما أكبر الأعياد الاسلامية ولا يحل كل من هذين العيدين الا مرة واحدة في السنة وبصفة تختلف من مكان الى مكان ومن سنة الى سنة مع تعمد اثبات بمرأى العين على جدار المحراب المقابل للفتحات الثلاثة علامات تتمثل في ثلاثة خطوط أفقية مرسومة الواحد تحت الآخر في الاتجاه العمودي بحيث يمكن أن تظهر أشعة الشمس الداخلة من الفتحة لتظهر مباشرة على الواجهة المقابلة وترسم ضوؤها على كل خط معين لمدة ثلث ساعة وفي ثلث الساعة الثاني تنزل أشعة الشمس لمستوى الخط الثاني الذي تحته وفي الثلث الساعة الأخير ترسم الشمس أشعتها على مستوى الخط الثالث والأخير لتحجب في الأيام المتبقية من السنة ولا تظهر الا في العيد الموالي هذا ما أفادنا به بعض الشيوخ المتواجدين انذاك داخل الجامع الكبير الذي زرته بنفسي بتستور وأيده في ذلك بعض الحاضرين معنا وقد يستحق هذا الموضوع منا ومن غيرنا متابعات أخرى أكثر دقة وثبتنا

وأضاف الرّوي قائلًا

- وما فيما يخصني لم أر أو أسمع أو أقرأ أو أشاهد قط ما يماثل هذه التحفة النادرة والفريدة من نوعها على حد ما وقفت عليه شخصيا ويمكن أن تكون هذه الساعة احدى العجائب التي

تحتم علينا مزيدا من المتابعة وتستحق منا المتابعة والتدقيق لاكتشاف ما تتركه به تونس الخضراء من تحف وذخائر علمية وفنية تثبت ان بلادنا مؤهلة للتقدم العلمي وان اهلنا تَوَاقون للبحث العلمي وان الحرج العلمي ما زال يسكن الكثير منا ويدفع فضولنا للوقوف على روائع ما تتركه به حضارتنا العربية الاسلامية من نفائس علمية واكتشافات مذهلة و ما تحمله هذه الاثار من مقاصد وعبر ما أشد حاجتنا اليها في زماننا هذا وليس من الغريب ونحن في سياق الدعوة لمزيد استقراء ما افرزه ويفرزه الذكاء التونسي على اختلاف وتنوع منشئه واصولها ان نفيدكم ان التصميم المعماري للجامع الكبير يستور الذي حدثكم عنه يعتبر بلا منازع أحد أهم المعالم الدالة على تقدم عمارة الموريسك بالمغرب العربي الكبير وقد استطاع صاحب هذا الانجاز المعماري أن يُوفق بين ما عليه المساجد المحلية من تقنيات خاصة بهندسة البناء واساليب التقنيات المعمارية والاشكال والزخارف المستوردة من اسبانيا.

وقد جاء في بعض الاثر المكتوب ما يلي

- يتميز المعلم بأسقفه المغطاة بالقرمود والموضوعة على هياكل من الخشب المشبك والتي تنتصب فوقها ركائز تحمل القبة وعددها ثنائي واربعون ٤٨ . أما شكل النارة فيذكر بالأجراس الإسبانية، المسماة بأجراس أراغون.

كما يحتوي جامع تستور على صحنين، صحن كبير في جهة الشمال، وصحن صغير يقع غرب المصلى. تحيط بهما أروقة تحمل على عقود نصف دائرية مسنودة الى أعمدة وتيجان من حجر كلسي قديم عليها أروقة سقوفها بسيطة التمايل من الداخل. أما بلاط الصحن فقد صمم من الحجر الكلسي العتيق المستجلب من بنايات أخرى أكثر تقادما وفي ذلك اقتصاد واستخدام للموجود وتلاقح واحياء للتراث وتواصل وتحديد للموروث وتحذر فيه وتمسك بالهوية وبذلك وغيره يكتسي هذا المعلم طابعا خاصا وجلالا وتميزا ورونقا بالمقارنة لغيره من الاثار العمرانية المعبرة بالضرورة عن عقلية أهلها وأنماط عيشهم وتتكون صومعة الجامع الكبير من برج مربع طول ضلعه حوالي أربع أمتار ونصف، عليه برج ثان مثنى الشكل. ينتهي كل جزء منها بذروات صغيرة شكلها اسطواني عليه زخارف من الخزف المطلي وقد رصعت واجهاتها برسوم متنوعة، وهي ظاهرة فريدة من نوعها في فن الزخرفة الخاصة بالمآذن وقد جاء تصميم هذا المعلم الأثري

متأثراً بفنون البناء الأندلسي فالجدران مغلقة بالآجر المشوي تسد ثغراته خشويات من حجر الدبش.

ويضيف صاحب المقال قائلاً

- وقفت على عجائب أخرى تتعلق بأشكال الفن المعماري الذي حواه هذا المعلم منها ما يشبه تصميمه واجهات المعابد البيزنطية أما سقف بيت الصلاة فله منحدرات أربعة مرصعة بالقرمود وبه صومعة تذكر بصوامع الكنائس واسطواناتها المتأثرة بالعمارة المسيحية، كما يتجلى ذلك في شكل المحراب ذي المسلات التي نراها عادة في بعض دور العبادة الخاصة بالديانة المسيحية والتي تعبر عن معتقدات أهلها كالرسوم الدافعة للأذى كما توجد بالمسجد زخارف نباتية وهندسة معتمدة على الأشكال الثلاثية والسداسية، التي تحاكي بعض رسومها وزركشاتها ونقوشها ما نراه عادة على واجهات دور العبادة اليهودية كنجمة داوود وأشكال بعض النوافذ المعروفة في البيعات الخاصة بهذه الديانة وقد لاحظت أن هذا الجامع الكبير بني بين حارة اليهود وهو الحي المخصص للجالية اليهودية المتساكنة آنذاك في ربوع مدينة تستور والجالية الأندلسية المسلمة المهاجرة من اسبانيا وبالتحديد من الأندلس المسلمة وبين بعض الأجانب القلائل الوافدين من أوروبا والذين بقوا على الديانة المسيحية بجوار السكان الأصليين من أهل تستور العرب والبرابرة والذين اعتنقوا بدورهم الإسلام ونشروه في هذه الربوع ويمثل هذا الجامع معلماً فريداً من نوعه تذكر هندسة بنائه المعماري بالأديان الثلاثة ويمكن أن يعتبر في نفس الوقت رمزاً يؤكد رحابة الدين الإسلامي الجامع بين مختلف الأديان دون نشاز أو تفرقة أو تفضيل باعتباره الدين الوحيد عند الله بدليل قوله تعالى في كتابه العزيز

"الدين عند الله الإسلام"

سكت الراوي قليلاً وكأنه أراد أن يسترجع نفسه ثم قال

- وقد نتج عن هذا التصميم الفريد انخراط الكثير من يهود تستور وبعض المسيحيين المتواجدين آنذاك على عين المكان في الدين الإسلامي دون حرج وبشبه ذلك ما ورد في كتب التاريخ والتحقيقات المنشورة على صفحات الأنترنت والوثائق المدونة لهذه المعلومات وقد

وقفت شخصيا على نماذج من ذلك تؤكد من خلال شهادات أهل البلد الدستوريين الذين روى لي بعضهم أنهم منحدرون من تلك السلالات التي اعتنقت الاسلام لما لاحظت فيه من سعة وما وقفت عليه من رحابة صدر وقبول للآخر أتاحت لكل منهم فرصة التعايش مع الآخرين دون عناء بفضل ما توفر في هذا المسجد الجامع من دلالات ورموز وتقاليده ومأثورات تنتمي لكل فئة عرقية وكل سلالة دينية ما دامت لا تتعارض مع أصول الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء وهذا يؤكد ويرر دعواتي المتكررة من أجل تعايش سلمي بين الحضارات والثقافات والأديان وفتح حوار التقارب والتآزر والتكامل بين الجميع بعيدا عن النزاعات العرقية والفروق الاجتماعية واستغلال الاختلاف لخلق صيغ جديدة تنصر فيها البشرية على الشحناء والبغضاء والتناحر واستبدال ذلك بالتنافس الزهيه والبناء وأهم ما لاحظته في هذه الربوع المضياقة تلك الخاصيات المجمعة في المسجد الكبير بتستور والمتمثلة في تلك الواجهة لمسجد اسلامي عريق تحوي صومعته رسوما وأشكالا متنوعة تنتمي الى ديانات مختلفة عرف عنها التنافس والتنافر واتسمت علاقاتها ببعضها البعض بشيء من الغلظة وصلت أحيانا الى التشاجر والغزوات والحروب الصليبية وفي بعض الأوقات نوعا من السلمية من خلال الفتوحات الاسلامية والدعوات المتسمة بالرفق والداعية للحوار كما صار مع النجاشي وكسرى أنو شروان وغيرهما وفي هذا البلد الأمين تونس ملتقى الحضارات نشاهد عينة خالدة من هذا التعايش السلمي بين الأديان والثقافات والحضارات تمثلت في وجود هذه الساعة الاسلامية التي تذكر باتجاه الطواف في صومعة جمعت في نفس الوقت بين نماذج من المعمار الكنائسي الصّرف وعينات من النقوش اليهودية البارزة كنجمة داوود وان دلت هذه الرموز المجمعة في هذا المعلم على شيء فانما تدل على تطابق بين هذه المعاني وبين دعواتي التي تثبت أن الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي يدعو قولا وفعلا الى التفاهم بين الناس قاطبة ولا يستنكف من تواجد ما تحلت به الكنائس والبيعات ودور العبادات الاخرى في مساجده وهو الدين الوحيد الذي استطاع أن يتقبل الفروق بين البشر ويجعلها متناسقة متكاملة ولم يكن ذلك مجرد شعارات بل انموذجا حيا يجسم بالمرأى والمسمع مشهدا يحقق باللموس حوار الحضارات والثقافات والاديان ويجعل ما ندعو اليه ممكنا ويستجيب لتقاليد ميزت الاسلام منذ القدم وما هذا المسجد الجامع برسومه وهندسته المعمارية الا شاهدا على صحة وأصاله ما دعونا اليه وما زلنا من اجل تعزيز ما جاء في تراثنا العربي والاسلامي من قيم التفاهم والتآزر والتكاتف

والتحاور النزيه والبناء لذلك يمكن ان نفهم اغلب المبادرات التونسية عبر التاريخ البعيد وحتى القريب والتي تهدف كلها الى تجميع الفرقاء منها مبادرة احتضان المتعسف عليهم كالفلسطينيين الذين استقبلتهم لاجئين ورعتهم بحضوة منقطعة النظير أيام محتتهم وذلك منذ وصولهم اليها بحرا في أوائل سبتمبر سنة ١٩٨٢ عن طريق ميناء بنزرت مدينة الجلاء وقد وجدت في الجامع الكبير بتستور ماجعلني أتحمس لمشروع بعث الانسان العربي السوي من جديد بدءا من هذي الربوع الزكية وستحدث لاحقا عن اغلب المبادرات التونسية الوفاقية في ازمته مختلفة وعلى اصعدة مختلفة



عزيزه عشانه

الفصل السادس عشر

قال الراوي

- واصلت محكمة الشعب الاستماع الى ممثلات وممثلي حقبة ما يسمى بالفتح الاسلامي للربوع التونسية وجاء دور رائة المروية قالت

- أنا المايرقية أنا رانية و بنت أبي يحيى بن غانية

عرفت ببنت الملتّم لكن تركت المطامع في الهاوية

سكنت بقصر البنات وعشت مثال التّواضع والعافيه

تلتها مباشرة زوجة المعزّ بن باديس قالت

- زليخاء بنت الثّرا والرّخا و بنت الكرامات والابتلا

وكان المعز ابن باديس زوجي تعلّمت منه الابا والوفى

وفي الجدّ يوم اعترانا وباء تصدّيت في شدّة للوبا

وبمجرد أن غادرت زليخاء منصّة التّقديم دبّت فجأة حركة غير عادية من فوق الرّكح وسمعت زغاريد منبعثة من اخر القاعة وظهرت من بين الحاضرات فتاة في زيّ عروس أنيقة جدّا مصدّرة وكانت فائقة الحسن والجمال

تدخلّ بوزيد الهالالي وهو يخلع كبّوسه من على رأسه ليحييها به متغنيا باللهجة العاميّة المهذّبة

- نحلف عليها الجازية تتكلّم والجازيه ما تقول كان الحقّ

في الرّين هي البرق كيف ايعلم والقال هي العقل والله صدق

وفي اتّجاهها نحو سيادة القاضي مرّت الجازية الهالائية بين الصّفوف مترنّحة وكانت تحمل على كتفها قلة وقبل وصولها للمنصّة اعترضها فجأة رجل يدعى ذياب بن غانم

كان يغلب على وجهه الشُّحوب رغم الاشراقه التي كانت تبدو على حيّاه استوقف ذياب الفتاة وكانت تبدو علامات الصُّوم عليه وعليها وعلى الكثير من الحاضرين هنا في قاعة المقاضاة سمّر ذياب بن غانم مباشرة قبالة ملكة الجمال وست الحسن والدلال صاحبة الغنّج والكمال وكأنّه يريد أن يعاكسها وبعد أن تجرّأ وأنزل القلّة الملائنة من على كتفها بمرأى الجميع قال مخاطباً الجازيّة خلّسه لكن بكلّ ثقة في النّفس أوريّا استفزازاً وتحديّ قال لها بلهجة عاميّة

- عالطريق او طوله هي نفطرو رمضان والردّوله

ردّت عليه الجازيّة دون استرخاء ولا حرج وبصوت جهوريّ بدت عليه نبرات الثّقة في النّفس هي الأخرى قالت

- عالطريق وعرضه ما يفطرو رمضان كان المرضه

أجابها ذياب قائلاً

- زينك خطفني رجني على غفله نوّار من تحت الشّعر المايل

أجابته الجازيّة الهلاليّة

- "لا يعجبك نوّار دفله في الواد عامل ظلايل

ولا يعجبك زين طفله حتّى تشوف الفعايل"

ردّ عليها ذياب بنفس هُجتها العاميّة

- ذياب انا جيت باش نسلم واهبط مالحصان جيت سبق

قالت له الجازيّة بلسان عربيّ فصيح

- جرّب الفصحّة ان كنت معلّم دون أن تخرج عن هذا النّسق

أجابها ذياب بن غانم على الفور بلغة عربيّة قحّة

- دبت عيناها وقالت تكلم وجل القلب ومن صدري سرق

قالت له الجازية الهلالية بالدارجة العامية

- ذياب فارس بالقدا ومتعلم وبيناتنا مكتوب ربي صدق
لاحد مّا نطق ولّا تكلّم عرف القبيله بيّنّا فــــرق

ثمّ حيّت الجازية الحاضرين وتوجّهت نحو المنصة قبالة جناب القاضي وحيّته بحركة انحناء
ذكية ارفقتها بابتسامة اعتذار وبعد أن غادرت المنصة باذن من جناب القاضي ردّ بوزيد الهلالي
الذي سبق له أن علّق على الجازية الهلالية وهو أوّل من تعرّف عليها قال بنفس لهجة ذياب بن
غانم

- مكتوبله ذياب فيها يسلّم وبالرغم أيّس ما قدر يتألّم
وبقت قصّة حبّ بينها تحلم وتحكي عليها اجيلالنا وتتكلّم

ومباشرة بعد أن غادرت الجازية منصة المحكمة وتلاها ذياب بن غانم وبوزيد الهلالي تاركين
المجال للمهندس أحمد ابن الشباط وكانت بيده آلة قيس مائيّة من ابتكاراته الخاصّة قال متأثراً
بلهجة الجازية وأبي زيد الهلالي

- شكّون مايعرفش توزر واحه واشكّون مايعرفش راس العين
لليوم مية سقوها في مساحه امقسمه بالسّانّيه من وين
القادوس وحدة قيسها مرتاحه اسطنبطها للناس توه سنين

اسمي ابن الشباط وابصرّاحه في الهندسه مختص ساسي متين

حبّاً القاضي مهندس المهندسين وأثنى على ما أنجزه في واحات الجنوب التونسي وفي توزر
بالتّحديد وهمّ بالجلوس لكنّه سمع ضجيجاً ورأى حركة غير عاديّة لقد وقف جميع من في القاعة
دون استثناء وتحوّل الضّجيج فجأة الى نوع من الدّهشة المصاحبة للانبهار وخيل للقاضي أن
أنفاس الحاضرين توقّفت التفت نحو المنصة فاذا بعبد الرّحمان بن خلدون بلحمه وشحمه على
ركع المنصة يلوّح بيده لتحيّة الجميع ودون استئذان أخذ يقول

- أرّخت مسار الأزمان وزرت عديد البلدان
والكنسية ابن خلدون واسمي عبد الرحمان
علم الأقبوام مؤسسه ومؤسس علم الأكوان
كتب بجزء مقدمتي العدل أساس العمران
أنا ما قلت اذا عربت خربت فالقول لعربان
وهي التّوق الى أفق يحرّر قيد الانسان
قال الراوي

- احتفالا بزيارة ابن خلدون للمحكمة وتأكيذا على احترامه للعدالة وتقديره للعدل الذي
قال عنه أنّه أساس العمران وتكريما لكلّ الصّيواف قرّر الشّيخ أبي الحسن الشاذلي وبعض مشايخ
الصّوفيّة وأعلامها التّدخل لتكريم هذا الهرم العلميّ وأنشدوا بمحضرة

- الاهي أنا اليوم جئتكَ أشهد بأنّك أرسلت فينا محمّد
رسولا يؤكّد أنّك أوجد ويذكر اسمك في كلّ مسجد
اليك أصليّ وإيّاك أعبد وأخشاك في كلّ حال وأسجد

وبعد الاستئذان من جناب السيّد القاضي رئيس محكمة الشّعْب الذي أبدى تفهمًا منقطع
النّظير أتاح فرصة التّدخل لمجموعات أخرى ممّا سمّي بالحضرة التي كانت تصاحب الشّيخ
بالحسن الشاذلي

واثر ذلك تقدّم وفد من مجموعات صوفيّة أخرى قالت أنّها تمثّل طرقا متنوّعة تنتسب كلّ منها
لغوث من الأعواث وتسمّى باسمه كالقادرية التي تمجد خصال الوليّ الصّالح سيّدي عبد القادر
البغداديّ والسّلاميّة التي تنتسب لسيّدي عبد السّلام والعيساوية لسيّدي بن عيسى والمولدية
لسيّدي المولدي والحضرة لسيّدي عمر ابن عبد الجوّاد وجماعة سيّدي أحمد التّليّليّ وغيرها وهم
كثرون ومتنوّعون ومتشرون في كامل تراب البلاد جاؤوا اليوم بمثّلون التّراث الصّوفيّ القائم في

البلاد والمتشر في العديد من القرى والمدن واجتمعوا لانشاد قصيدة تمجيد لخاتم الأنبياء والرسل
محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا جاء فيها

بالجليل البارئ الحي استعن واتبع هدي النبي المؤتمن
من أطاع المصطفى الهادي الأمين قد أطاع الله رب العالمين
منة الله وذخر المسلمين صلّ يا ربّ على خير المنن
أكمل الله به دنيا ودين و حباه نعمة للمتقين
وارضى الإسلام ديننا و يقين كلّنا قرّر أمرًا قال كن
يا رسول الحقّ والوحي الشريف يا نبيّ السّلم والرّأي الحصيف
جنّت بالإسلام والدين الخنيف وأصول البرّ والخلق الحسن
يا رسول الله يا خير الأنام يا شفيع الخلق في يوم الزّحام
يا حبيب الله يا رمز السلام أنت نور وشفاء المطمئن
أيها المبعوث فيناعن جداره جنّت للدنيا بدين وحضاره
واصطفاك الله للكون مناره خالد الذكر على مرّ الزّمن واثّر هذا الانشاد شرع بعض
الحاضرين في انشاد نوبة الشاذليّة

- يا بالحسن يا شادلي يا باب علي حملي كادني
ياساكن المغّاره واتجيك جميع الذّكّاره
ياسيدي الف براره وانا يا حملي كادني
يا بالحسن يا شادلي يا بالحسن يا شادلي
والتحقت بهم السيّدة المتوّبة في الأثناء ودخل الكثير من الحاضرين والحاضرات في نوبة

صوفيّة حصّوا بها السيّدة المتّويّة تلك الوليّة الصّالحة رمز التّقوى والورع أنشد الحاضرون بحضور راعي المدينة الشّيخ سيّدي محرز بن خلف كما يحلو للنّاس تسميته

- "يا لآله جيتك عالخيّل طالب فضلك يا شرعيّه

تحت السّنجق والقنديل امي عويشه المتّويّة"

كما ألح بعض الحاضرين على سيّدي محرز للتّدخل فأنشد قصيدة كتبها احد المتهمين بالشعر في زماننا الحاضر في تمجيد المساجد ومدح رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم

- رفيقي اذا طفت يوما بمسجد وأحسست بالأنس والرّفق فاقعد

لتسمع محرابه والسّواري تحدّث عن معجزات محمّد

أتينا لنحمد فيها الحميد ونذكر فيها نبينا تفرّد

لأنّ المساجد لله ضلّت مكان الصّلاة ومهد التّعبد

ولم تبق للمستراب مقرا ينادي بمنبرها للتمرّد

نؤمّ بها لنصليّ كثيرا ونركع فيها لرّبي ونسجد

ونحضر فيها دروس الرّشاد ولا نتخمّر أو نتجنّد

إلاهي أنا اليوم جئتكَ أشهد بأنّك أرسلت فينا محمّد

رسولا يؤكّد أنّك أوحد إليك نصلّي وإياك نعبد

قال الرّاي

- انبسط الحاضرون والحاضرات بهذا الجوّ المنعش وشكروا جناب القاضي الذي أتاح لهم

حضور هذا الحفل المرتجل والاستمتاع بهذه الأذكار الموروثة عن السّلف أو الموضوعه للغرض

بعضها متداولة بين عامّة النّاس صغيرهم وكبيرهم وبعضها الآخر تمّ حفظ الكثير منه وقد

ساهمت كلّ هذه الاذكار والتّوبات في تليين الأجواء وبالتّالي وفّرت القدرة على حلحلة العديد

من المشاكل التي يستعصي حلّها في لحظات التشنّج حين تبدّل الأمزجة وتتحجّر الرّوى وتنغلق الأبواب وقد تعود مجتمعنا الوقوف عند هذه الغايات الحينيّة والتي تلامس التّرفيه عن النّفس لا أكثر ولا أقلّ ليصبح تشبّثهم بهذه الحالات الصّوفيّة مجرد ترفيه صرف بريء يتنافى مع ما يذهب اليه بعض المغالين في الفهم والذين يؤوّلون هذه التصرّفات العابرة بمنطق الشّرك بالله وضعف العقيدة والاعتقاد في الأولياء الصّالحين اعتقاداً يخرجهم عن الملة ويضعهم في مصافّ الكفرة الفجرة وهي رؤى تختصّ بها الجماعات التّكفيرية التي يذهب تأويلها لمثل هذه الطّواهر الى أبعد الحدود فيخرجونها من سياقاتها العاديّة والسّليمة ويصبغون عليها رؤى فضفاضة لا تستقيم مع المنطق السّائد ولا مع كنه تصرّفات عمّة النّاس وقد ذهب هؤلاء المتشدّدين الأمر الى تحريم الغناء وكلّ التعابير الفنّيّة وحرّموا التّرفيه عن النّفس ومنهم من حرّم الضّحك والرّقص والفرحة والتّرويح عن البال وحرّم الاستمتاع بالجمال جملة وتفصيلاً معتبراً أيّاه طريقاً للضّلالة ومسلكاً للكفر ودعوة من دعاوي الشّيطان الذي يحشرونه في كلّ كبيرة وصغيرة ولدراء غواياته المحتملة فقد عمدوا الى تحريم كلّ عمل ثقافيّ واستبدلوه بقصص الرّعب والتّخويف واستنبطوا لها اليات منها التّرهيب المباشر الذي سرعان ما حوّلوه الى ارباب صريح منهم من قنّنه ونظر له حتّى صار فزاعة حقيقيّة تخرب المجتمعات وتقصف الممتلكات وتنادي صراحة بالخراب والدّمار والابادات الجماعية وتنظر للكراهيّة والحقد والانتقام والتّشفي والتّسلّط باسم الدين

وقد غلب منطق الوسطيّة واستمسك أهل هذه الأرض في الأغلب الأعمّ بمنطق التّيسير وتجنّبوا التّعسير علماء كانوا بمختلف اختصاصاتهم ومشاربهم أو أناساً عاديين وعمّ بينهم المذهب المالكي وطريقة الجنيد السّالك لما تتسمّ به من سعة ووسطية واريحية وما تتيحه من امكانية الأخذ بما في المذاهب الأخرى من تسهيل وتجويز واستحسان وقبول ورغم تداول بعض الفئات المتشدّدة على الحكم في البلاد فإنّ ذلك لم يثن عمّة النّاس وأغلب الشّرائع المكوّنة للتّسيج الاجتماعي من توخّي منهج الوسطيّة والاعتدال حتّى صار ذلك فيهم طبعاً وجبلّة والدّلل على ذلك ما نشاهده من تليّن في طبع النّاس وما اختصّوا به من تسامح وتفتّح وحسن معايشة وقد يرجع الفضل في ذلك للعنصر النّسائي وللمرأة بالأخص وقد رأينا أنّ أغلب شهيرات تونس هنّ مثقّفات أو عالمات أو صاحبات رأي ومواقف وفي هذا* الاطار يندرج توافق بعضهم على هذه

المنصة وكأنَّ القاضي أراد اثبات هذه الحقائق لذلك وبعد أن مَكَّن الحضور من الاستمتاع بتلك اللّحظات المرحّة الخفيفة والمريحة وفي اطار مواصلة تقديمه لبعض الوافدين والوافدات من أُمَّة العرب أو من انتسبوا اليهم أو عاشروهم واختلطوا بهم عنَّ للقاضي أن يشير لا مرّة توَسَّطت الرّكح وقد ظهر عليها الوقار قال وكأنَّه أراد أن يقدِّمها بطريقته

- جمعت مريم الزَّناتِيَّة علما نادرا وهوى وشعرا تراقا

قالت مريم الزَّناتِيَّة

فلو يلقي جزء من هوايا ولوعتي على ألف خال أصبح الكل عشاقا

تعلّمت علم الكيمياء جميعه وطوّقت فكري من مزاياه أطواقا"

وتقدّمت بعد مريم مباشرة أمانة أم العديد من الأمراء الحسينيين قالت بكل ثقة في نفسها

- أم الأمارة والسّلطان أمانة عرفت بالجد والتّيسير في الحكم مثّلت عهد الوفا للملك صارمة فــــــي الحقّ صاحبة الأسرار والحزم

تلاها رجل أنيق اللباس ممشوق القدّ رصين المشية يظهر عنه الوقار والجاه قال

انا ابن ابي الضّيا والقصر يعرفني رأيت فيه روايات وأسجالا

من أحمد لمحمد للصّــــــادق باياتنا كم شجّعوا الانثقالا

كنت الرّقــــيب ونور العصر في زمن ساد الظّلام به بل ساء أحوالا

لكم جعلت من الإحراج مركبة إلى العلا تتخطى القيل والقالا

وكم دعوت إلى التّوفيق معتمدا سداد رأي وكم عدّلت أحوالا

ما زلت أذكر ما قالته ألسنة عن واقع الامر تفصيلا واجمالا

قال القاضي

وماذا كان يقول الرّعيّة في اخر عهود البايات

أجابه ابن أبي الضيَاء

- لقد تعدّدت المآخذ على أغلب بايات العهد الحسيني حتّى قال أحد معارضيهم مخاطباً أحد الملوك

"أوتيت ملكاً لترعانا فتأكلنا كل الذّئاب أذّب أنت أم راعي"

ثم واصل ابن أبي الضيَاء قائلاً

- وبالرّغم من ذلك فقد استطاع شعبنا أن يتجاوز كلّ تلك المحن والاحن بفضل سموّ خلقه وتضامنه وحصافة رأي بعض مسؤوليه

ارتفع صوت من اخر القاعة مخاطباً ابن أبي الضياء قال

- كيف تتحدث عن تجاوز المحن وقد حكى لي احدهم كيف كثرت في زمن جدي حوادث السطو والغورة والقلبة والبراكاج والغش والسّطو والقتل

اجاب ابن ابي الضياء

- صحيح ما قلت وأصح من ذلك ان مثل هذه الحوادث وقعت وتقع وستقع في كل عصر بنسبة تطول وتقصّر وتخفّ وتشتد ولكن ذكاء هذا الشعب امدنا بعينات من الحلول للحد منها بل وحتى القضاء عليها كلياً

صاح صوت نسائي من داخل قاعة المحاكمة وكأنه يطلب النجدة المستعجلة

- ارجوك سيدي الشيخ الجليل ادركننا بعينّة من هذا الدّواء لهذا الدّاء الذي أرّقنا وسيأرّق أجيالاً من بعدنا ما أحوّنا للحلول النّاجعة لهذا الدّاء يا شيخنا الفاضل

قالت المتكلّمة

- انجدنا يا ايها الشيخ مع السّماح المسبق

اجاب الشيخ مبتسماً

- السَّاح في بحيرة حمزة

تدخل القاضي المؤقر متوجها للشيخ المتبسم

- عن أي سباح تتحدث يا ابن ابي الضياء وما دخل بحيرة حمزة في موضوعنا هذا

اجاب الشيخ

- سيدي القاضي الم اقل لكم ان لكم في ذكاء شعبكم هذا نماذج خلاص من أي ضيم يصيبكم ويصيب اهلكم لقد كثر في زمان احد البايات النشل والسرقة والسطو والتظاهر بما يتافي الحياء وحتى جرائم القتل البشع في احدى مدن الايالة واستفحل الامر فيها وتوسعت الحوادث وصعبت السيطرة عليها فاستدعى الباي قاضي القضاة الاكبر الشيخ حمزه وطلب منه بان يجد حلاً لا يقاف هذا التزيف الاجرامي في تلك الجهة من البلاد

وفي اليوم الموالي انتقل قاضي القضاة الاكبر الشيخ حمزه الى تلك الجهة ليقيم فيها ردحا من الزمن وكلف في الحال برّاحين ينادوا في النَّاس أنَّ جناب قاضي القضاة الاكبر شيخ الشيوخ حمزه قرّر بامر عليّ من جلالة الباي المعظم اصدار عفو عامّ على كلّ مجرم مفتش عنه او محكوم عليه او مشكوك فيه وكذلك كلّ من يريد ان يتوب ووعد بالاضافة الى العفو انه سيمكّن كلّ وافد بطوع ارادته من شغل مشرفّ يضمن كرامته ويعيل به نفسه واهله كما حدّد مهلة عشرة ايام للمثول في البطاء الكبرى للمدينة تقع على حدود مكان يوجد بالجهة يسمى البحيرة

واصل الشيخ حديثه مضيفا

- وفي الغد امتلأت البطحاء المتاخمة للبحيرة بالوافدين والوافدات من ذوي السوابق واللّواحق وشرعت الوفود تتدفق على المكان بكثافة منقطعة النظير منهم من جاء من جهات اخرى عديدة قريبة وبعيدة وفي اقل من اسبوع امتلأ المكان بمحترفي التسوّل المشبوه وفئات المجرمين والنّشالة والسّراق والحوّافة وقتلة الارواح والمجرمين بكل انواعهم واصنافهم ومن كل الاجيال والفئات وحتى الجهات التائية وزاد تدفّقهم على امتداد الايام العشر المعلن عليها بعد ان بلغ لزملائهم خبر ما حضى به قاضي القضاة الاكبر من تكريم لجميع من حضر استقبالا

وكرم وفادة وفائق عناية وكيف توافرت جهود الصبايحية والمخازنية ورجال الامن من شرطة وطواقم الجيش وحتى الاهالي من اجل تقديم اجل الخدمات وأسعى العطاء وما حضي به من كامل الاجلال كل من لبى الدعوة وخضر الميعاد

واوصى قاضي القضاة الاكبر كافة المستقبلين والحراس والقائمين على المقام بايلاء ضيوف البطحاء كل العناية الفائقة دون تمييز او استحباب او تبجيل و حرص ان يكون التكريم مستوفى العناصر فائق الجدوى صادق العطاء وكي يضمن حسن سير الامور خصص لضيوفه حلقات توعوية وتكوينية وتمازين على الاستقامة منها ما تشجع على الاستقامة ومنها ما يحث على التوبة ومنها ما راوح بين ذي وذاك وتحللت بعضها أحكم المحامل التحسيسية في أجواء من التشويق فيها الشعر والغناء وحملات الاقتناع بانواعها ومنها ما جاء في قالب فرجوي مثل ذلك الحفل الشيق الذي احياه امام جميع الحاضرين اشهر حكواتي في البلاد قيل له

- احكي لي يا بابا الحاج مادامك عايش و مجرب

احكي لي من غير احراج شكون ال في بلادي يخرب

فانبرى ينشد امام الملى

- المتعرض في باراج يضرب ويهنتل ويعذب

والتي باسم الاحتجاج ينهب ويكسر ويخرب

او يحرق فيها بانواعه

ولي بالرشوه الخماج تكنز باش تزيد المكسب

والمخبى في قاراج ومالثقه مقرونو مصوب

ويقتل من غير شفاعه

كي المتقدم كي المتخلف كيف الجاهل كي المثقف

كلّي طائر كلّي بمقذف هاذومه جماعة تتحلف

ركبو على متن الاشاعه

عامل روجو عبد يسخّف وهوّ يتهدّد ويخوّف

وهذا لا يعرف لا يشرف ولّي في أوساخو ينظّف

باعو الخضرا للبيّاعه

والقاعه في القهوه يخرف ولّي نظّر واليتكلّف

ولّي في لخبار يزيف ويسيس فيها ويحرف

ويتشّدق باسم البراعه

نوصفهملك واحد واحد لانّي نبالغ لاني انحرف

بين لتتهازي والحاسد ولّي يكبس ولّي يرخف

والقّفافه والطّمّاعه

والمشمتّ والمتحلّف ولّي يمتّني ولّي سوف

والخدم بوليس مكتّف ولّي كان يحلف عل المصحف

باع بلادو للفصّاعه

الّي حايّزها ومتصرّف ولّي عل البرريط يسقّف

ولّي يسرق ولّي مخطّف ولّي يدبّق ولّي يحوّف

وعارض تونس للطّمّاعه

ولي سمسر ولّي ينتّف ولّي منّا ماخذ موقف

يربط ويسيب ويوقّف ولّي ينظر ولّي يوصّف

ولعافس فينا باكراعه

ولتي أيدو كالمخطف يقضي بالرشوه ولكتأف
 والسارق لي ديه خفاف ولتي يخدم باستخفاف
 ويسخايلها الخضرا متاعه
 ولّلي ينهب والخطاف ولتي تعلّم لنحراف
 ولي ساكت علّلي شاف ولّلي ناصبلك منداف
 باش يحطّك في بلاّعه

كما جيىء بأبلغ الحكماء والمحدثين وفطاحل الشعراء الشعبيين لتقديم اجمل النصائح منها ما
 ورد مقفئاً ومنها ما راوح بين الشعر والاهاجيز والغناء ومنها ما قدّم في قالب لوحة فنيّة متكاملة
 الحركات والنغمات كهذه العينة التي يقول فيها صاحبها

- خيار العمل ما كان واضح يسطع واحسن عطا من كان وافر كيله
 والجود بالموجود يالّي تسمع وبركة المال تبان من تحصيله
 الحق مهما ضاع لازم يسطع وترك الحيل بالفعل أحسن حيله
 والكذب مهما منعك يتقشع يعرّيك ويخلّيك حاله حليله
 والغش كالليستيك تجبد يرجع ويبقى يوجع فيك مده طويله
 والضكضكه مالجيهتين توجّع أخطاك مالشّريان شيله بيله
 والعرض كيف الثوب اذا تبّع مهما غسلته وسخته في غسله
 ولّي كلا ياكل بلا ما يشبع ولّي غدر بعد الكلا يا ويله
 والمشي بعد اعشاك ياسر ينفع وبعد الغدا لا بد من تعسيله
 والبايده مالشّوب ما تترقع ولا تنفع الجيعان شبعة ليله

كانك صغير من الكبير استنفع وكانك كبير فهم صغيرك جيله

وافتح حواريني يزين ويرفع من غير فرض وهيمنه وتعطيله

واذا اتحب اتفيد ابدًا اسمع وافهم الغير الفهم يفتح صيله احسن عبادته صلاة فيها
تركع واحرص على القران في ترتيله

ايونسك واكلام ربّي يشجع ويملاك بالايمان في تفصيله

صلي على المختار واطلب يشفع ويسقيك يبدو الوافيا لفضيله

ويثبتك عالدين بلتي تسمع

وفي الاثناء لم ينس فضيلة قاضي القضاة الاعظم زرع اعوانه الخالص في كل ركن من اركان
السطحاء وقد امرعيونه الذين يدينون له بالولاء التام والطاعة الكلية ان يعملوا خفية وفي السرية
الكاملة على حسن ملاحظة سلوك الضيوف والقائمين على راحتهم على حدّ السواء كما أكد على
عيونه رفع كلّ التقارير اليه رأساً ودون وسائط او تاخير او تبديل او تباطى كما أكد على توثي
الامانة والصدق في نقل الأحداث اليه بالدقة المتناهية والسرية التامة والحرص اللازم على وجوب
دراسة ما يصله بكل تفصيل وعمد الى تعيين مراقبين في السر للتدقيق في ما يرسل له من تقارير
من لدن عيونه المنتشرة في كل مكان في المدينة ويطاحها ليلاً نهاراً وبين الليل والنهار وفي الاثناء
اكتشف العجب العجيب وحتى يتيقن ممّا بلغه من تجاوزات وبشاعات قام بها ضيوفه المبعجلون
عمد الى التّنكّر بنفسه في زيّ حملة احداث واخبار المراقبات السرية فوقف على ما لم يكن يتوّقع وما
لم يكن يصدّق لقد كان اكل الضيوف من النشالة والحوافة والمزلقطين والمجرمين والقتلة ومحترفي
الاضرار بالغير يتظاهرون بالتوبة والاستقامة والندم رياء وهبتانا بل منهم من عمد الى مواصلة
الاضرار بالغير عمداً بأساليب ومقالب جديدة ومبتكرة في التوّ والحين وصلت لحد سرقة
بعضهم البعض وتعمد الحاق الضرر ببعضهم البعض وتفنن بعضهم في فنون القتل العمد
والتستّر باحكام ومنهم من طوّر في اسلوب اجرامه ومنهم من ابتكر ما ادهى وما اخطر ممّا كان
يفعل ومنهم من استغلّ الطرف وجدّد في أساليبه ومنهم من أبدع في اختراع أدوات موت لا تخطر
على بال وهبت قاضي القضاة الاعظم في كيفية حذق بعضهم لفنون التستّر التي لم تكن في الحسبان

حينها تيقن انَّ اليَّ فيه نَقَى ما تتَقَى وانه لا ينفع العَقَّار في ما افسده الدَّهر وان ذيل الكلب سيبقى معوجاً حتى ولو وضعته دهوراً في القصبات المستوية وان الرَّأس الخامج لا ينتج الاً ما جبل عليه لذلك جمع حراسه وطواقم الامن والجيش وامرهم بالاسراع في تنفيذ قرار ابادة كل من حضر ببحيرة حمزة بنبئة التَّطَهَّر والتَّوْبَة وطلب التَّشْغِيل وتَمَّ اغراق كلِّ الضَّيُوف في البحيرة المجاورة لبطحاء الاستقبال بعد الامر بهدم الحواجز المحيطة بها وتخطيم كل السُّدود التي كانت تحمي زوَّار البطحاء من الغرق حتَّى قال النَّاس جهاراً

- الحساب في بحيرة حمزة الحساب في بحيرة حمزة الحساب في بحيرة حمزة .

الفصل السابع عشر

قال الراوي

استأنفت المحكمة أشغالها من جديد لتواصل استقبال من تمت دعوتهم من رجال ونساء اشتهروا بالتأثير في حياة الناس بحضور العديد ممن حضروا في الجلسة السابقة وبدأت بالاستماع الى امرأة تدعى عزيزة عثمانه قيل أنها حبّست ملكها وجاهها وجهدها لخدمة المستضعفين في وطنها وأولت عناية خاصة بالمرضى ولما سمح لها بتقديم نفسها أمام جناب السيد القاضي قالت

- لكم عتقت رقيقا كان مملكا وكم ختنت لوجه الله ولدانا

وكم أغنت فقيرا كان منعدا وكم بنيت فضاءات لمرضانا

مستشفيات ودور سميت علنا عبر الولايات باسم عزيزه عثمانا

اغنم الشاعر علي بن عبدالله وجود ابن أبي الضياء ليعلق على دستور ما سمّي بعهد الأمان

قال

- "من عام قام قام بدت القــــيامه كلّ يوم اتقوم

من باطل الحكّام نسخوا نظيره من احكام الرّوم"

أجابه خير الدّين باشا بنفس لهجته وكأنّه أحسّ أنّه معنيّ بالأمر أكثر من ابن أبي الضياء قال

- عهد الامان سلام دستور حقّ الشعب بيه ايدوم

تحدّد فصولو أحكام يمشي عليها حاكم ومحكوم

ومها تقال كلام عهد الامان دستور للمظلوم

تدخل القاضي قال

- لديّ الكثير من الوثائق التي تتحدّث عن أحد أهمّ انجازاتك ايام الصادق باي وهي

المدرسة الصّادقيّة ما الصّادقيّة

أجاب خير الدين باشا القاضي قال

- الصّادقيه حمام فسط الحضراره والرّقي يحوم
يخرّج من الاوهام يدخّل البحر العـلم فيه نعموم
وديما على قدّام وديما بلادي غـاليه في السّوم
يا علي يانجّام انا خيرالـمـدين قـليد القوم
كان الشّاعر ملاك حاضرا وكأنّه أراد تحويل وجهه الحديث من السّياسة الى الشّعـر قال
- ملاك بفصيح لكلام نطقت حـرف الكـتـيبـه
عالحرف صغت لحكام السّاهـله والصّـعـيبـه
"الطّاد طلعات واهبوط وكلّ من مشى عالبيسطه
الباطل يطلع ويهبط أمّا الحق يـبـان سـيـطـه
التّاء ترك السّـيـات وعزّة ابنـادـم سـكـاتـه
والضّحك من غير عـجـبات قلّة أدب فـي حـيـاتـه
في العين عبّرت لرداع قليل لصـلـل بالـك اطّيعه
تربّيه كيما جـرو للـفـاع يسقـيـق مـالـسـم ليعه"
ما أن انتهى الشّاعر ملاك من تدخّله حتّى اعتلى صوت أحد حراس المحكمة معلنا
- سيّدي المنصف باي على الباب

أجابه القاضي في الحال

- على الرّحـب والسّعة أدخله واضرب له التّحـيـة والسّلام اللّائـقـين بمقامه العليّ

دخل المنصف باي بتواضع وبعد أن انحنى تقديرا للمحكمة وللحضور قال بشيء من التأتأة والوكوكة

منصف ما نصفت يوما بأرضي كنت بايا عزلت من فوق كرسي
عشت بايا في النفي جد مهان كنت في هوة الفناعلى قاب قوس
أكتم الموت في الضلوع فتسري كلهيب أضرمته فوق ييس
كنت في وحشتي غريبا شريدا ذاهلا بائسا مصابا بخرس
قد تحدى الطغاة ظلما وقهرا كل عرف وكل شرع وجنس
تدخل أحد شعراء الملحنون مخاطبا مصطفى خزندار قال
- يا مصطفى يا ولد خزندارش قلت وقت المات سيدي منصف

أجابه الشاعر مصطفى خزندار على الفور قال

- "شعب بأسره ساخط متألم وبكل قلب يا لتونس ماتم
لو كنت شتاما لقلت لشامتي يكفيك أنك بالشهامة تشتم"

التحق بالمنصة بعض الفرسان الذين عرفوا بالثوار ومن بينهم علي بن غذاهم ومحمد
الدغباجي وبمجرد الاعلان عنهما شرع الحاضرات والحاضرون في الانشاد قالوا

- خمسة لي حقوق في الجرحه وملك الموت ايراجي
لحقو مولى العركه المره المشهور الدغباجي
تدخل الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس حزب الدستور قال
- نحكي على ما صار على شعبنا المظلوم
بعدد الظلام نهار والليل فيه نجوم

والدَّهْرُ مَهْمَا جَارَ لَا حَالُ فِيهِ أَيْدُومَ

ثم واصل عبد العزيز الثعالبي مخاطبا محمد علي الحامى

- مؤسس لتحاد مولى القدر السّامى

عندي عليه شهاد محمد علي الحامّي

أجابه محمد علي الحامي

- لَأَنَّهُ فِي الْإِتِّحَادِ لِقَوُّهُ لِأَهْلِ الْمَرْوَةِ وَأَهْلِ الْفَتْوَةِ

وفي الإتحاد المنى والسلامة لأهل الشَّهامه وفيه النِّضال وفيه الكرامه به نتحدَّى رهان الزَّمن

ونحمي الوطن

وَأَمَّا الَّذِينَ اعْتَرَاهُمْ وَهَنٌ وَبَاعُوا الضَّمِيرَ بِأَدْنَى ثَمَنٍ نَقُولُ لَهُمْ وَلِأَهْلِ الرِّيَاءِ وَمَنْ عَوَّدُونَا

بقلب الكساء صباحاً مساءً ولا يعرفون الذَّهاب لأين فلا هم رجال ولا هم نساء ولا بين بين.

رفع القاضي رأسه فرأى الطاهر الحداد يقترب من المنصة قال مخاطباً سي الطاهر

- الطَّاهِرُ الْحَدَّادُ إِلَى كِتَابِ عَلِ الْمَرْأَةِ

ونحی علیہا کساد اوکان صاحب جرأه

أجاب الطاهر الحداد على الفور مخاطباً النساء الحاضرات متوجّها بالأخصّ الى تلك اللواتي

كنّ ترتدين بعض الأحجبة الغربية عن عادات البلد وتقاليده قال

- أخته في الدين هل في الدين رهبة تدعوك أن ترتدي شالا وقفطانا

ليس التّدين أزياء تميزنا إنّ التّدين قلب عَجَّ إيماننا

والمسلم الحق لا يدي تبرّجه بعض التبرّج في التّمييز أحيانا

من تعرف الله لا تغري بمظهرها ولن تزيدنها الأزياء عرفانا

شتان بين الذي تحميه سترته وبين من يحمي بالخلق شتانا
أيّد القاضي رأي الطاهر الحدّاد وطلب منه توضيح رأيه في علاقة المرأة بالاسلام فأجابه على الفور

- ماجاء في قصيد احد شعرائكم يتفق مع قولتي

- إن الإسلام فرض الواجبات والمسؤوليات على الرجل والمرأة معا وإنها في هذا الأمر سواء بل إن الإسلام كان يريد أن ينير أذهانهم بالعلم والمعرفة حتى يتهيأ للحقوق التي اكتسبها بالإسلام ومنها حق اختيار الزوج وحق التملك الشخصي وأهلية التصرف في أموالها بيعا وشراء وتجارة.

و بعد أن سكت قليلا أردف قائلا

- جاء الإسلام بالمساواة بين عباد الله إلا بما يقدمون من عمل أم أنه جاء ليجعل المرأة بأنوثتها أدنى حقا في الحياة من الرجل بذكورته؟
قال احد الحاضرين مخاطبا الملء

- هذا الرجل العظيم عاش منبؤا ومات منبؤا لا لشيء إلا لأنه سبق عصره بأفكاره المستنيرة وتعرّض كتابه للنقد اللاذع بغير حق من طرف احد المشائخ في منشور بعنوان
الحداد على امرأة الحدّاد

وقد كتب الشيخ ذلك قبل أن يقرأ كتاب الحدّاد من شدة ما أحاط بصاحبه من عداء مسبق وبدون ترو او منطق وهي ظاهرة متفشية في المجتمعات الغير واعية ويتحتم اليوم رد الاعتبار له فالشعب الذي يبخس مفكره ويحتقر علماءه شعب سطحي مهمل لا يستحق الحياة
ثم قام القاضي وقبّل يد الطاهر الحدّاد وأخذه معه لاستقبال بلقاسم الشّابي والترّحّب به قال
القاضي مخاطبا الشّابي

- يا ابا القاسم العظيم من اين أنت

أجاب المستجوب

- من الجريد

- الجريد وما في في الجريد

- وفي الجريد نخيل حاله عجب من فوقه نسيم يشدو واطيار

وفي الظلال لحون صاغها دنف بالشعر يردفه كشف وانوار

- تفضّل ستظلّ في الشّعب دوما مبيّجّل

قال أبو القاسم الشّابي

- ليت لي قوّة العواصف، يا شعبي فألقي إليك ثورة نفس

أنت في الكون قوّة، كبّلتها ظلّماّت العصور، من أمسِ أمسٍ..

قال القاضي

- صف لنا حالك يا ابا القاسم

- كنت بالأمس قبل ان تخلق الاكوان في هيكل الوجود بخورا

كنت في عالم السماء صباحا ثم اصبحت في الثرى ديجورا

كنت قيثاره تفيض حنانا ثم اصبحت معزفا مكسورا

- كيف وصفت حالة شعبك وماذا قلت للمتخاذلين منهم

- موتوا فما انتم بني امّي ولا انا منكم

ان انتم الا هشيما سوف يحرقه الدّم

انتم غدير هـاجع ألف المذلّة من دهور

وتعلّم الصّمت الأصمّ من المغاور والصّخور

- وماذا تركت للشعب حتَّى يعيش محصَّنا يا أبا القاسم

قال أبو القسم الشَّابي

- اذا السَّعب يوما أراد الحياة فلا بدَّ أن يستجيب القدر

ولا بدَّ للَّيل أن يــــجـلي ولا بدَّ للقيـد أن ينكسر

ومن لم يعانقه شوق الحياة يعيش أبد الدَّهر بين الحفر

وما أن انتهى الشَّاعر من وصيَّته حتَّى اقترب منه الطَّاهر الحداد وقال معلقاً على جهل الشُّعوب

- الجهل كشجرة الزَّرب تنمو يابسة مشوَّكة عشوائيّة وتتغذَّى من القحط والجفاف وتزهر شوكا وتثمر ثمرة لَبِّها قلب متحرَّج وقشرتها في طعم البلح الملع ومن مساوينا أنَّها تعيش طويلا وتنتشر بسهولة ولا تقلع إلاَّ بجهد جهيد

قال الراوي

- كان الرَّجل يتكلَّم بأنَّه وكانت إحدى مساعدات السيِّد رئيس المحكمة تتأمَّل في اناقته ولسان حالها يرَدُّ باعجاب منقطع النظير

- لون القماش ولَّه الطِّي البديع الهادئ المزدان بالألوان

حبك الخياطة رتبة وأناقة والفنَّ في التَّصميم قد أغراي

الحسن نصفه منك أنت ونصفه قد جسمته روعة الفستان

سبحان من أعطاك حسنا فائقا وحبا الأنافة بالسَّنا الفنَّان

زاد الجمال تفوقا وتألَّقا تصميمك الممتاز بالإتقان

وفي الاثناء أحال جناب القاضي الكلمة لعبد العزيز العروي قال

- عبد العزيز العروي ابطلتي قدامكم بــــــاش نروي
 حكاية جماعه صيتهم مشهور تعرفو بتــــــت السّور
 منهم علي الدعــــاجي لي عاش عمرو في العنب ايراجي
 وعبد العزيز العقربي الممثّل وعلي بن عياد المتــــأصّل
 وباش حانبه المناضل الهادي العبيدي في الصحافة يغازل حسين الجزيري مع كاربكا
 محمد السنوسي ادينا باشياكه
 محمد الخليوي كاملات اوصافه ومعاه أهل العلم والصحافة
 سي مراد محي الدين الفنّان عاشر العصر وشاف ناس زمان
 يحكي على اقطاب اهل الجيل وكيفاش كانو بحق عسكرليل
 تدخل محي الدين مراد قال
 - اهل الموسيقى والغنا ولفنون ليلي سفز وافريتــــه درمون
 اوشبخنا العفريت والترنان عمك خميــــس شيخنا الفنان
 حبيبـــه مسيكة مع حسن بنان أحمد الوافي احمد بولميان
 يا شافيه يا للة التّسوان عوادة القنطرة بارجالها العــــمميان
 هاو جا محمد غانم وبامعاه جوقه وفرقتين وطاقم
 اخذ الكلمة السيد محمد غانم قال
 - اصحاب فــــن وقدره عشنا معاهم عهد ذهبي بفخره
 باشعارهم والحانهم واغناهم وبالرقص والتمثيل نالو شهره
 الهادي الجويني واختنا صليحه امالي اللّياي الزاهيه للميحه خفة روح حسيننا الجزيري

صالح لخميسي الكان في تقديره

في الفدلكه والضحك هو الرايد صالح المهدي التو خبر وشايد

حسيه رشدي وبورقيه محمد ختمي فضيله وسي شطه السيد

بوق التاريخ حسن حسني الشاب الي كتب في شان اهلو كتاب بيرم الشاعر محمد الجموسي
محمد حفطي معاه سي سنوسي وفتحية خيري محيره لمواقع محمد التريكي نجم كل مراجع
علي الرياحي واختنا صفيه ورضا القلعي لاكتشف عليه

تدخل محمد حفطي قائلا

- جميع من ذكرنا من رجال ونسوه كانو مثال وأسووه ومل البدء وأصل القصه كانو
التونس حصن كانو العرصه بيهم بلادي الخضر صبحت مثال
وعبره

تونس بنايا شاخه معتبره تونس بنوها اولادها بالحجره تونس سقفها عالي
منحوت بالمجد العزيز الغالي

السّاس راسخ في الزمان الخالي وولادها صناديد هم عرصها

تونس بلادي ربنا حارسها بينا وبيكم شيء ما ينقصها

أولادها صناديد كار وهمّه بالعلم والاخلاق سكنوا القمّه واكبارها واصغارها وانساها
وابناتها واولادها في حماها في كل عصر وكل جيل معاها وكل من ذكرنا فادها وأسّسها

وقت المحسن يذود وي خلّصها

التفت أحد الحاضرين نحو صديق في قاعة المحاكمات وأسّر له قائلا

- عندما نستحضر كل ما استمعنا اليه الان الا يحق لنا ان نتساءل لماذا تصل بنا الحال لما نحن
فيه الا من تمزق وتشئت وعجز لماذا اصبحت اليوم حروفنا ضجيحا وأصواتها شضايا فالتة من
غمودها مفزعة مجزعة لماذا صارت قضايانا مكثفة التّجاعيد مجحفه الطّرح مموجة الجوة محرّجة

المظهر جامحة المحّ خرقاء الحجم جارحة مارجة ماحقة حاقدة لماذا صارت ألفاظنا زحافا مزريا
 كأنها زوبعة خدوشه مفرزة للجفوة جوفاء الجوف لها رزم كاسحة ورميزات مزورة ممزقة مقرزة
 مكدّسة مسكّجة مرصّفة مصرّفة مصفّفة مصوّفة تلفها سناجق اسنفجيّة مسنجبة مخشبية مخشخشة
 مكرّشة ستميتنا اذا لم نحرّرها قبل فوأة الأوان.

الفصل الثامن عشر

قال الرَّاوي

واصل القاضي في استجوابات الوافدين عليه تباعا وجاء دور كل من فرحات حشاد وأحمد التليلي وعلي البلهوان وبشير بن مراد وبعد أن حي كل منهم مستقبليه سلموا على بعضهم البعض بالاسم واللقب.

قال فرحات حشاد

- يا مرحبا بأول طبيبه معنا الا بشيره بن مراد حذانا
متثقفه وقدوة جميع انسانا انصح اخواتك يا بشيره اليه
تدخلت بشيره بن مراد مخاطبة بعض النساء المفرطات في التحجب قالت
- نحي عليه محرمك والحافك خلي الشعر ابيان فوق اكتافك
ارفع راسك

تيهي وسودي تبختري في لباسك محلى الروبه جات قد قياسك
انت جميله مأصله من ساسك والسر والكمون من أوصافك
اثرها رحب القاضي ببعض الزعماء الحاضرين قال
- اهلا زعيم الشغل سي فرحات حشاد مولى الصيت والصولات
ثم التف القاضي الى مستشاريه ومستشاراته واستطرد قائلا

- السيد فرحات حشاد هو أول من أسس لجنة للدفاع عن الحقوق الديمقراطية والتمثيل الشعبي متحديا الاستعمار الفرنسي وجبروته وهو أول صوت نادى بارساء الديمقراطية في الوطن العربي وهو أول من امن بضرورة استشارة الشعب وتمكينه من المساهمة في تقرير مصيره

وعلمه اليات الدفاع عن حقوقه كما أرسى دعائم العمل النقابي الواعي

أجاب فرحات حشاد

- عشت عمري أحب شعبي بصدق أرضعتني حليبه الأقدار

ان أكن نسخة فأصلي شعب في بلاد تهابها الأخطار

سأضل كالشعب دوما شعاري لايباع الضمير أو يستعار

ما أن انتهى حشاد من تدخله خاطب القاضي باقي الزوار قال

- صحاب القدر والشان أحمد تليلي وعلي البلهوان

أجاب أحمد التليلي قال

سيبقى اتحاد بلادي قويا ويبقى اتحاد بلادي عتيا

ويبقى على المارقين عصيا ويبقى منارتنا في النضال

صباحا مساء بفضل الشباب وفضل النساء وفضل الرجال

اثر ذلك قام القاضي من على كرسيه وتقدم نحو منصة الاستقبال مرحبا بشيخين جليلين قال

- ساداتنا واشيوخنا الافاضل الطاهر بن عاشور وابنو الفاضل

أجاب الشيخ الطاهر ابن عاشور

أنا الطاهر السنتنوير مرجعه هدي الاله وتفسير لما قالوا

رد عليه ابنه الفاضل قال

صولاتك البيض في التدريس بارزة بكل ذهن فكم حظمت أغلالا

أصيل جيل تسامى في مناقبه قد كنت أبرزهم بل كنت منوالا

رد الشيخ الطاهر قائلا

- لما ذهبت مع ابني لمؤتمر في مصر قالوا عاشوريّ لقد الا
أضاف أحد الشيوخ الحاضرين بالقاعة قائلاً
حياكم الجمع تهليلاً مبايعة منارة كنتم حلاً وتـرحالاً
نعم المآثر فالتدقيق ميّزها وزادها الحرج العلميّ إجلالاً
ثم أضاف الشّيخ قائلاً وهو يتوجه بالخطاب للشّيخ الفاضل
الفاضل البحر الهمام ممّيز في العلم والفقه كم وضّحت أحوالاً
وكم فتحت قواميس الهدى شغفا لولاك لالعلم للإسفاف قد آلا
تدخّل الشّيخ حسين الخذر

- أنا حسين الخـذر ما زلت نعرف سبرنا بالسّبر
واترابنا نتذكره بالسّبر وفي غربتي مهما تعدّى العمر
ما زلت نفطي حر جريدي مؤصلّ تونسي متجذّر
مدير جامع لزهر لا كبرت لا تكبرت لا نتفخّر
ردّ عليه القاضي قال

- بطولاتكم لم تنزل خالداً ومن مجدكم نستعيد العبر
ثمّ تلاه علي البلهوان قائلاً

- زعيم شباب الوفا والتفاني وجيل التحديّ لكسب الرّهان
طموحاتنا فوق كلّ الأماني وفوق حدود الفضل والزّمان
ونصبو لتحقيق أسمى المرامي ونحتلّ في الرّكب صفّ الأمام

قال القاضي لمساعديه محاولاً ترتيب دار شؤونه العقليّة وربّما ليساعدهم على استيعاب ما

يحدث

-الان بدأت أفهم المسألة يظهر أننا في معرض الأزمان التي تداخلت على ما يبدو دون استئذان أو ترتيب أو تبويب تابعوا معي بدقّة وعناية ما يحدث

كانت القاعة تعجّ بثلة من شباب الجيل الصّاعد اناثا وذكورا وقد أسندوا ظهورهم لمتكات كراسيهم كان انتظارهم ينمّ عن رغبة جامحة وتطلّع باد وشغف مسبق بما سيقدم لهم المشهد بعد قليل أو كثير لا يهم وكنت تقرأ في عيونهم جميعا فضول التعرّف على الأحداث بقطع النّظر على ترتيبها الزّمني والمكاني والنّاس الذين يقدّمون الأحداث أو يعيشونها تباعا بدون ترتيب أو بترتيب.

أمّا القاضي فقد تولّى متابعة المتدخلين بانتباه ودون اعتراض أو استنكاف وضلّت المجموعات تتدفّق على الرّكح بكل حرّية وتلقائيّة لتساهم في ترسيخ لحظة الان وهنا تكريبا للرأي وواحرما للفكر ووتقديرًا للثقافة وتحمّسا للإبداع وربّما توقا لحرّية التعبير في هذه الرّبوع الطّيبة واعترافا بحتميّة الاطلاع على صيرورة ما يحدث ومواكبتها والاستفادة منها ومن عبرها وربما يكون ذلك دليلا على صحّة وصحوة هذا البلد الكريم الذي يمثل في نفس الوقت صمّام أمان أمام هذه الطّواهر الخطيرة التي تهدّد مجتمعاتنا والتي تتمثّل في عدم الاكتراث بأهل الرأي وأهل الفكر وأهل الإبداع وأهل العلم بيننا والحرص على تجاوزهم بشتى الوسائل أو تناسيهم أو تحقيرهم أو تجريدهم من حضور نجاحهم أو الكيد لهم أو التريص بهم أو استغلالهم عن طريق الابتزاز أو الإذلال التي تمارس على أغلبهم جهلا أو حسدا أو غيرة أو خوفا منهم أو غضا للطّرف أو حتى بنية الاحتكار أو التشفّي المقتّع من يدري وبعد توقّف طفيف واصل الشّيخ الرّاوي حديثه قائلا:

-أنّ تحوّل هذه المحاكمات الى ندوات فكرية وفنيّة وثقافيّة ليمثّل الرّثة التي يتنفّس بها هذا الشّعب فشعب لا يكثرث بمبدهيه وفنّانيه ومفكره وعلماءه هو شعب في طريق الموت والمجتمع الّذي يهّمس الثقافة والإبداع والعلم يكرّس ثقافة اللامبالاة والانزهاية ويهيئ نفسه للانذار والانقراض

واصل الشّيخ الرّاوي صرده للاحداث قائلا: كان القاضي رئيس الجلسة يتعمّد فسخ المجال

للحوار ويقبل تناقض مفرداته ونواياه وردود أفعال كل الأطراف وكان يبارك فتح مجال المصارحة على ما تحويه من مجازفات وتجاذبات وتطول أحياناً بحثاً عن شيء من التوازن والاتزان المطلوبين وكان القاضي رئيس المحكمة يتنقل بين مساعديه الواحد تلو الآخر ليقول للكل

- رغم أنني لم أفهم كل شيء فقد تركت المجال مفتوحاً لكل الاحتمالات وتركت لكل واحد فسحة تقديم ما يريد وحتى ما لا يريد ولا أخفي عليكم فقد استمتعت واستفدت ما رأيك أيها الرئيس المساعد

أجاب مساعده في الحال ودون تردد وكان متحمساً

- الظاهر أنهم يصفون معاناتهم وظروفهم بقي عندي احتمال سيدي الرئيس اسئل تلك الفتاة عن الكتب التي مطالعها ربّما يساعدنا ذلك على فهم السياق الذي هم فيه

سمعت الفتاة جناب مساعد فضيلة الشيخ القاضي فتدخلت على الفور بصراحة قالت

- هذه سيدي النائب بعض عناوين الكتب التي يقرأها أغلب مثقفينا في أيامنا هذه حرية التعبير قداسة المقاومة أرض العدالة ديمقراطية الشورى الرأي الآخر سقوط الإمبريالية انهيار القطب الواحد النصر آت يسقط النظام نظرية المؤامرة

قال القاضي للطّاقم المحيط به بشيء من الفضول

- أموت وأعرف ماذا يقصدون من الإمبريالية

أجاب شيخ طاعن في السنّ يرتدي جبة فاخرة وبرنسا من وبر الجمال وقد كان الشيخ يجلس في ركن من أركان مؤخرة هذه القاعة الفسيحة المترامية

- هي تلك القوى التي نرسل لها نفطنا نورا فتعيده على رؤوسنا نارا بحبر نفطنا المرسل لها من طرفنا طوعاً وكرهاً سرّاً وجهراً بوعي أو بلا وعي تصرّ أقلام قنابلها وألوان صواريخها وأزيز طائراتها بالرغم منّا على كتابة تاريخ وجغرافيا شعوبنا بالطريقة التي تريد طبقاً لمواصفات تحددها هي بدون علم منّا

قال مساعد القاضي بنفس الحرص ونفس الشَّغف

- وأنا أُموت وأعرف ما حقيقة الاستعمار

أطلَّ على الجميع رجل قصير القامة وسيم الخلق بشوش الوجه طليق اللسان فاذا بالكثير ممَّن في القاعة يقفون لاستقباله بحفاوة منقطعة النظير وفي نفس الوقت اعتلت أصوات تنادي بحياته بلحن مميَّز يحذِّقه كلُّ النَّاس وهو نفس اللَّحن الذي يستعمله أغلبهم في كلِّ أفراحهم ويعزفونه عادة بواسطة المنبهات الصَّوتية لسيَّاراتهم

- يح يا بورقيه يح يا بورقيه

أراد القاضي أن يتدخَّل لكن سبقه شاعر منشدا

- سي حبيب بورقيه مولى القدر والهيبة

أعطى التونس قيمه وابنى دوله عظيمه

أجاب الحبيب بورقيه على الفور بعد أن حيَّا مستقبله قال

- تصفحت تاريخ هذا الزَّمان بأرضي وعانيت أشغاله

ولما تيقنت أنَّ الزَّمان تجنَّى ووزَّع قسَّاته وعرض أهلي لغزو
مبيد وحدد بالنصَّ أشكَّاله وزَّين للباي ما يرتضيه فـ____
وصدَّق أقواله كسرت مشيئة هذا الزَّمان وثُـبِّرت فمزَّقت أسداله

وسهَّلت ما كان يبدو عصيا وجنَّدت في الشعب أشباله وخضت جهادا طويلا
مريرا وخطَّطت بالرأي آجاله وحطَّمت بالكفَّ اشقى الزَّمان وبالكفَّ كسرت
كذَّاله

ولم أك وحدي معي رفقة عظام كرام تصدَّوا له

ما ان انتهى الحبيب بورقيه من تدخله حتى سمعت حشرة اتيه مباشرة من واجهة الجدار
الامامي فاذا باللوحة التي رسم عليها شعار الجمهورية الجديدة الناشئة تتحرك ويقول لسان

حالتها يصوت مسموع وملحن

- نظامنا تزوج الحرّيه فأنجبا العدالة الذكيه
 تربت العدالة البريئه نقيّة صريحه جريئه
 توزع الحقوق بين الناس بالعدل والإنصاف والقسطاس
 وتكره التّمويه والتّحيل والزّيف والتّبجيل والتّدخل
 تطبق القانون في حياى بدون أن تنحاز لانقياد
 أو رغبة أو شهوة أو حيف أو نزوة أو خدعة أو زيف
 يهّمها توازن العباد دوما لكل ظلم بالمرصاد
 وحكمها مقتن بالقسط والنّاس عندها أسنان مشط
 شعارنا حرية نظام عدالة هدفها سلام
 وقالت احدى المستشارات

- وانا أعطي كلّ ما أملك لأعرف ما هي علاقة الديمقراطية بما يسمّى الوفاق الوطني ؟
 تدخّل صاحب القفّاز العالي الحبيب بورقيبة والذي كان يدعى بألقاب كثيرة وكنيات عديدة
 تراوحت بحسب السياقات الزّمنيّة والطّروف ومنها القائد والزّعيم والمجاهد الأكبر والمجاهد
 الأوحد وحبيب الأّمّة وسيد الأسياد والرّئيس والرّئيس مدى الحياة وانتهت بالرّئيس المعزول قال
 - الوفاق الوطني هو أرقى وجه من وجوه الديمقراطية لأنّه يوصل المجموعة الى تفاهم
 جماعي يتنازل فيه كلّ طرف للآخر تنازلا مقبولا من أجل مناعة الوطن باعتبار أنّ مصلحة الوطن
 تأتي قبل مصلحة الفئّة أو الحزب أو أي تجمّع من أي نوع كان وحتّى قبل مصلحة الفرد

قال أحد معارضي سيّ حبيب

- لا يجوز لهذا السيّد أن يتحدّث عن الدّيمقراطيّة التي يجهلها تماما

وقبل ان يجيبه القاضي او أي متدخل اخر طلب احد الحاضرين الكلمة بشيء من الاصرار وبعد ان سمح له القاضي بالتدخل قال وهو يرفع جناح جنبه الايمن الى اعلى كتفه بيده اليسرى ويمرّ يده اليمنى على لحيته الطويلة نسبيا بشيء من الانفعال

- ماذا يفعل هذا الخائن بيننا

أجاب القاضي

- عن أي خائن تتحدث انه الحبيب بورقيبة

- اعرف أنه من ذكرت لقد باع تونس للمستعمر وتواطأ مع بعض الحكام الفرنسيين مقابل استقلال وهمي ما زلنا الى الان نعاني من ويلاته.

رد القاضي عليه قائلاً

- هل لك ادلة واضحة

- الادلة كثيرة بل لا تحصى ولا تعد وكل الناس يعرفونها لذلك لا حاجة لي بتعدادها

رفع احد الحاضرين يده طالبا التدخل العاجل وضمن القاضي انه طلب الكلمة ليمد جناب المحكمة الموقرة بالادلة التي يبدو انها معروفة بحسب اخر المتحدثين لذلك اسرع القاضي بالحث على التدخل قال الرجل وهو يتوجه لسي الحبيب

- بورقيبة... أيها الخائن. لقد خنت نفسك. ولم تطلب تعويضات عن ثلاثة عشرة سنة قضيتها

في سجون ومنافي الاحتلال وغادرت الرئاسة ثم الحياة بدون مسكن خاص ولا رصيد بنكي

خنت الباي. فصادرت أملاكه واملاك العائلات لفائدة الدولة وتركتها للشعب التونسي

خنت فرنسا. فصادرت أملاك الأجانب ضيعات ومحلات وعمارات وتركتها للشعب

التونسي؟

خنت شيوخ النكاح وتواطأت مع المرأة فجعلت منها الطبيبة والمهندسة وقائدة الطائرة ؟

خنت الجهل. فحاربه ببناء المدارس والمعاهد والكليات في المدن والقرى والارياف

خنت الصحة. فشيدت المستشفيات في كل مدينة وبنيت المستوصفات في كل قرية وحي وجلبت الدواء واللباس المجاني لشعبك. وأنشأت الشركات لبناء المساكن الشعبية اللاتقة وورعت مفاتيحها بنفسك على مستحقيها بلا ثمن وفي اقصى الحالات باثان رمزية وأنجزت المستشفيات العصرية والكليات الطبية حتى أصبح الطبيب تونسيا والممرض تونسيا وأغلب مصانع الأدوية التونسية وصدرت لدول البترول الأطباء والممرضين

خنت الوطن فأسست الأمن الوطني والجيش الوطني على عقيدة حماية الأرض والعرض .

خنت المعارض الليبي المحيشي الذي استجار بتونس فرفضت تسليمه بالرغم من عرض القذافي أن يكون المقابل تهية جميع الطرقات بالجمهورية وقلت قولتك الشهيرة: ليست تونس من تغدر بمن استجار بها.

خنت الأمة العربية. فأرسلت خيرة عناصر الجيش للمشاركة في حرب ١٩٧٣ التي فضلها تحررت سينا وصدر قرار مجلس الأمن عدد ٢٤٢ الذي خذله العملاء.

خنت الأجيال. فتركت لها مؤسساتا صلبة لم تكن مضمونة لخفافيش الظلام مخربي الأوطان. وخياناتك من هذا القبيل عديدة يا بورقية ما زالت شواهدا قائمة ايها الخائن الطيب.

اثر ذلك سمع بين الناس تململ ودخلت القاعة فجأة من جديد في دوران شديد مذهل لمدة قصيرة ثم هدأت الحركة وخرج من بين الحاضرين رجل يبدو أنه قرأ الكثير وكتب الكتب الكثيرة التي انتصبت وراءه شاهدا كان يتحدث بأسلوب استعراضيّ ومتشجّج في نفس الوقت وكانت رنّاته الصوّتيّة متوازنة وكان يلطم يده اليمنى بيده اليسرى بتواتر واستمراريّة ملفتين للانتباه قال

- أنا الدكتور محمد الطالبّي يظهر أن صاحب القفّاز سي الحبيب أضنّ أنّه بورقية لم يكن لي به اتّصال كبير من قبل لكنّني رأيته وسمعتّه يخطّب في مناسبات عديدة في بعض الاذاعات والتلفزات أو المنابر الخطابيّة

تدخّل شيخ اخر دون استئذان وكأنّه أراد تفسير أو تبرير ما قاله الطّالبي منذ حين وربّما رافّة

به أو تزلفاً من يدري قال مخاطباً الطَّالبيَّ

- الدكتور محمد الطَّالبي يَنهم الرِّئيس الحبيب بورقيبة بالتسبب في انتشار الخمر في بلادنا وأنا
أصدِّقه لأنَّه الدكتور محمد الطَّالبي

قال شيخ آخر

- هذا الرِّأي لا يلزم إلا صاحبه

- لا بدَّ أنَّهُ على علم بما ادَّعى

تدخَّل الشَّيخ على الفور مؤكِّداً أنَّه شاهد عيان يعرف بورقيبة جيِّداً وقد انتهز وجود الطَّرفين
في نفس الان والمكان ليصحَّح بعض الضُّنون المتعلِّقة بهذا الشَّأن قال متحدِّثاً عن الحبيب بورقيبة
ورأيه في الخمر بحضور المدَّعي والمدَّعى عليه وكان يشير بأصبعه نحو الزَّعيم

- عاشرت هذا الرَّجل وأكلت معه وتحدَّثت إليه كثيراً ورافقتة في العديد من الحالات
وعبَّر لي عن الكثير من أراءه وناقشته في العديد من القضايا وشكرته وعارضته وأتفقت معه
أحيانا وتخاصمنا أحيانا أخرى وباح لي ببعض أسرارهِ ومدحته وهجوته واطلعت على بعض
مواقفه وعبَّر لي عن ميولاته وكرهاته وتجادبنا أطراف الحديث حول الدِّين والتَّاريخ والسياسة
وقضايا العالم وصارحني برأيه في أغلب الشَّخصيَّات المعاصرة له والسَّابقة لعصره وقضايا العصر
وحدَّثني عمَّا يكره وما يحبُّ وحضرت الى بعض المواقف التي اتَّخذها أو عبَّر عنها وأذكر منها أنَّه
في أوائل تعيينه رئيساً للجمهورية من قبل المجلس التَّأسيسي في الخمسينات استضاف في قصر
صقانس بالمنستير قرابة الأربع مائة شخص نساء ورجالا من الشَّخصيات ومن عاتمة النَّاس
في عشاء فاخر بساحة القصر وكنت من بين المدعوِّين وقبل حضور حفل ساهر كان الضَّيوف
متحلِّقين حول موائد الأكل جماعات جماعات يأكلون ويتجادبون أطراف الحديث قبل بدء الحفل
السَّاهر بكلِّ تلقائيَّة وعفويَّة وفجأة خرج عليهم بورقيبة وكان يريد أن يطوف بينهم ويحييهم
ويعبَّر لهم عن سروره باستقبالهم في قصر الشَّعب باعتباره أول رئيس جمهورية في البلاد ولكنَّه
فوجئ بأنَّ بعضهم كان يتناول الخمر وإذا به يأمر بالالتباه له والتوقُّف عن الأكل سكت كلُّ
النَّاس فسمعتنا صوته يدوي وهو غاضب شديد الغضب قال ما معناه

- كيف يسمح بعضكم لنفسه شرب الخمر في قصر الرئاسة الذي يعتبر رمز هيبة الدولة التونسية العربية المسلمة هذا خور واستهتار بالدستور واستخفاف بالوطنية

كان يقول ذلك وهو في أشد الغضب والانفعال وقد كان يصيح بصوت جهوري عندها شرع بعض المعنين بالأمر في الاسراع باتلاف مشروباتهم الكحولية وتخبئتها ودخلت في بعض المسؤولين "غولة" كما يقال بالعامية ومباشرة بعد رجوع بورقيبه الى داخل القصر انفضت مجالس الخمر ورجع الجميع الى الجدد وانتظروا بدأ الحفل الساهر الذي كان يعتزم أن تحييهِ فرقة موسيقية مصرية وفنان مصري مشهور وفي هذا المشهد لم أكن وحدي حاضرا كنا أكثر من شخص ولا أعتقد أنني الوحيد منهم على قيد الحياة يا سي محمد الطالبي والذي فاتك أغرب لقد تجرأت وسألت بورقية في مناسبة أخرى عن هذه الحادثة وعرفت أنه لا يشرب الخمر ولا يدخن ولا أتفق معك في الرأي الذي عبرت عنه البتة وكما يقول المثل الشعبي انتظر حتى يموت كبار الحومة .

واثر هذا التدخل التلقائي صاح بعضهم وكانوا على ما يبدو من اشد المعارضين لبورقية وقد بدا ذلك من خلال ردود أفعالهم التي غلب عليها الانفعال والتشنج واتهام المتحدث بالكذب كما عبر بعض هؤلاء عن شكهم في علاقة المتحدث بالزعيم ما جعل القاضي يتدخل في استجواب دقيق ومطول مع المتحدث قال

- حدثنا كيف تعرفت على سي الحبيب

أجاب المستجوب

- سيدي القاضي كنت طفلا صغيرا أذهب للكتاب دون أن أعلم لماذا ولا كيف كنت أصاحب أندادي كما تصاحب قطرة الماء الدفق في الساقية كل ما أذكره أنني بدأت أحفظ بعض السور القرآنية لهما أي شفويا لأنني لم أكن أقوى على الكتابة في ذلك الوقت رغم صعوبة وصرامة مؤدبنا سيدي لخضر رحمه الله والذي ما زلت أذكر منه أمرين اثنين فلقته والشكوى التي كان يرددّها لكل من يزوره من أولياء تلاميذه بنغمة بكائية لم أكن أفهم معناها ولكنني حفظتها على ظهر قلب وهي قوله

- الّلي ايقري في صغير كّلي يحفر في بير بشقفة زير

في ذلك العمر كانت البلاد ترزح تحت ما يسمّى بنير الاستعمار وكان الصّغار مثلي يعانون من شدة العسر والمرض وقلة الحال دون وعي أو مسؤوليّة كلّ ما أذكر أنّ الكبار ومنهم السّبتي ذلك البستانيّ الذي كان يعمل خمّاساً في ضيعتنا والذي كان الفضول يجرّني لمصاحبتة في نقل الغبار وهي الأسمدة العضويّة من حفرة في ساحة مسكننا الى بستاننا المجاور والذي كان الشّارع الرّئيسيّ الوحيد هو الفاصل بينهما ورغم أنّه كان ترابيّاً محفراً وملتويّاً ولكنّه كان مسكننا الوحيد نحو البستان والكتّاب وساحة اللّعب ومارب أخرى محدودة جدّاً وخاصّة جدّاً وأحياناً سرّية جدّاً إذا ما تعلّقت بحاجياتنا الحيّاتيّة الأساسيّة والمتأكّدة

كان السّبتي يضطرّ للحديث معي في مواضيع تهمّ الكبار وكنت مضطراً للاسماع اليه دون أن أفهم ما يقصده ومن كثرة ما كان يلوك ذلك الكلام كنت أجتهد في تصوّر دلالات ما كان يقول وأستلهم أغلبها من السياقات المألوفة لديّ بالعادة والعوائد كنت أعتقد أن الاستقلال الذي كان يتحدث عنه العامل السّبتي رجل وأنّ الحرّية امرأة وكثرة ما كان السّبتي يردّدها بتلازم فقد ذهب في ضيّتي أنّهما سيتزوّجان قريباً وكنت أحلم بحضور زفافهما لاكل لحمة كبيرة لم تكن تتوفّر في منزلنا بالكم الذي كنت أشتاق اليه ولا بالتواتر الذي كنت أحلم به

وفي نفس تلك الفترة من عمري كان والدي يحدثنا عن وليّ صالح يسمّيه سيّدي علي الحفصي اشتهر بتنوّع الأحداث وكان يروي عنه أنّه يقول

- ايجي دنغير مالمستير فيه الدّول التحير ويحيي نهار يوّلّي الماء في لحيوط والصّو في لحيوط

ورغم أنّني حفظت هذا الكلام على ظهر قلب فائيّ لم أكن أفقه منه شيئاً وفي تلك الفترة العمريّة بالذّات حدثت حادثة غريبة رسخت في ذاكرتي رسوخاً لا لاهميّتها الاينيّة بل للمحققاتها وهي مرور شاحنة عسكريّة من نوع دودج بشارع قريتنا الرّئيسي والوحيد في قافلة صيفيّة شديدة الحرّ وكان بها رجل نحيف الجسم أخضر العينين سمح المحيّي يرتدي بدلة بيضاء وقفاًزاً كنّاً نسبيّة شاشيّة استنبولي نسبة الى الاتراك أذكر أنّ الشّاحنة التي كانت تحمل هذا الرّجل قد توقّفت صدفة قبالة مسكننا واستقبلها أحد أبناء عمومتي عرفت فيما بعد أنّه محمّد التّليلي والذي كان يعرف لدى النّاس خارج قريتنا بأحمد التّليلي كان أحمد التّليلي يتحدّث مع صاحب البدلة البيضاء

بحميمية وفي تلك اللحظة هزني فضول الصبيان للاقتراب من الصديقين ولفتت انتباهي الدموع التي كانت تنزل من عيني راكب الشاحنة وهو يقول لصاحبه

- لا أدري بأي أرض أموت ولا بأي تراب أدفن ليس المهم أنا أو أنت المهم هؤلاء الصغار اللذين سيستفيدون مما نقوم به أو ربما سيحملون مشعل النضال مكاننا ان لم نوفق في مساعدتنا

كان يردد ذلك المرة تلو المرة وهو يمسح بيده على شعر رأسي ويقرّبي اليه بأصابع يديه وكنت أستمع اليه بشغف وشوق لأنه بدأ كلامه بجملة لم أكن أفهم مقصدها لكنني كنت أحفظها جيدا عن والدي الذي كان كثيرا ما يرددّها عندما كان يقرأ القرآن ليلا أو مع طلوع الفجر قيل لي عندما كبرت أن ذلك الرجل صاحب البدلة البيضاء والذي كان يركب الشاحنة العسكرية هو الزعيم الحبيب بورقيبة بشحمه ولحمه

كان ذلك سيدي القاضي أول لقائي بسي الحبيب في حياتي

قال القاضي

- وهل كان لك معه لقاء اخر عندما كبرت

- كانت لي معه لقاءات عديدة فيها بعد أولها كان في مناسبة غربية نوعا ما

- كيف ذلك

- كنت شابا أدرس في أحد معاهد الاختصاص وكانت زوجة أخي الأكبر فرنسية الجنسية متمكنة الثقافة تحب الشعر وتتعاوى الموسيقى وتفهم جيدا في السياسة جاءت الى بلادنا مع فترة الاستقلال وحضرت لبعث الجمهورية الأولى التي كان يرأسها الحبيب بورقيبة وكنت أنا أكتب الشعر باللغتين الفرنسية والعربية بمختلف لهجاتها وكنت أتجاذب مع هذه الفنانة أطراف الحديث بالإضافة الى مهمتي الرئيسية معها وهي تولي ترجمة ما يدور بينها وبين أمي من كلام بحكم أنها كانتا تعيشان بنفس الفضاء الذي يتحم عليهما التعامل اليومي والمتواصل في غياب زوجها الذي كان ينهي اخر سنة تخرجه كمهندس فلاح خارج قريتنا وفي سياق الحديث مع زوجة أخي على الديمقراطية بمفهومها هي وعن ضروب الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم تفتنت الى ضرورة

الاهتمام بهذه المفاهيم الغربية عن ثقافتنا التقليدية وعنّي لي أن أجسم ذلك في قصيد تحدثت فيه عن الجنرال ديقول الذي كان يشاع أنّه سيرأس جمهورية فرنسا انذاك بالحاح من شعبه ولما سلّمت القصيد لزوجتي أخي أعجبت به أنّها اعجاب وأرسلت نسخة منه لاحدى صديقاتها في فرنسا وكانت صحافية على ما يبدو اذ تولّت نشر ذلك القصيد في الأوساط الفرنسية ويبدو أنّه نال كثيرا من الاعجاب لدرجة أنّني حظيت بزيارات من العديد من الشخصيات والمثقفين الفرنسيين منهم من تقابلت معهم في القرية التي كنت أعمل بها ومنهم من ذهب لملاقاته بالعاصمة تونس وأذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر فريدريك متران ومارسيل فور ومبعوث جاك مرتان وكان من أقاربه وقد سلّمني هذا الأخير شهادة تقدير ممضاة باسم مؤسسة ثقافية فرنسية مشهورة انذاك وقد بقيت الشهادة في أدراج زوجتي أخي من شدة اعتزازها بها.

قال القاضي

- مدني بنسخة من قصيدتك هذه أو اقرأها فمحکمتنا تفهم كلّ اللغات وتتعامل مع كلّ العصور

- السمع والطاعة سيدي القاضي أقول في هذا القصيد القصير ما يلي

L'empereur des français, juste avant sa défaite,
Dit à son compagnon: « il n'y a de racailles,
Que dans cette noblesse, que moi même, j'ai faite!
Et vous, mon général, grand surtout par la taille,
Qu'allez-vous dire aux gens, qui, pour vous, vont la fête?
_ Je vais leur transformer le château de Versailles
Et les Champs Elysée, en maison de retraite.



قال القاضي

- وما علاقة هذا القصيد ببورقية

- العلاقة بسيطة وسهلة الفهم فبعد هذه الحضوة التي حضيت بها وهذا الشّريف المنقطع
النّظير هزّنتي نشوة الشّهرة لكتابة قصيد هزليّ اخر أتحدّث فيه عن علاقة حكم الرئيس بورقية
الفردى بالديمقراطية وسلّمت ذلك القصيد لزوجّة أخي قلت فيه

En France, oh qu' ça va mal ! Vous savez, on le sent,

Çà chmaque, oui, jusqu'ici, et de quelle façon !

Vos grèves sans relâche, vos partis politiques,

Vous renversez René, changez de république,
Vous brayez, un moment: Vive De Gaule, vive De Gaule !
Pendant qu'au fond de vous, vous regrettez Auriol.
Le malheur, c'est qu'en ce moment de désarroi,
Un pauvre bicaud, nord'd'af, nue fantoche comme moi,
Vous secoue, par derrière, vous pousse et vous guide ;
Vous oblige à mieux voir, en tirant sur les brides.
Vous demande de rester en position debout,
D'écouter ses propos, vous dit : « voyez, chez nous,
En mille neuf cent cinquante, sous le joug colonial,
Soixante douze mois après, vint l'Istiklal.
Un seul parti gouverne, il s'appelle Bourguiba ;
Quand un deuxième dégueule, nous lui crions : abat !
Le H.B. le B.L. et le Grand Mongi Slim,
Voilà qui fait l'union, au sein de notre Harym.
Je sais que les bavards diront: « mais que fait on,
Avec ceux, qui, comme vous, décident à faire les cons ?
Eh bien, ces imbéciles, iront bien en prison !



- وما كان مصير هذا القصيد

- بعد مدّة قصيرة من ارسال هذا القصيد الى فرنسا من طرف زوجة أخي تمّ استدعائي من طرف الرئيس الحبيب بورقيبة الى قصر قرطاج وكان في أوائل عهده بالحكم وكنت خائفاً أشدّ الخوف لعلمي بأنّ استدعائي المفاجئ وبهذه الصّورة لم يكن صدفة ولا بواسطة ولا بسابق معرفة بل كان نتيجة مباشرة لأطلاع الرّئيس على ما كتبت في شأنه وقد حضرت بين يديه وأنا أتوجّس خيفة وأنظر منه أشدّ العقاب ولكنّ الأمر اختلف فقد رحّب بي كلّ التّرحيب وعبر لي عن اعجابه الشّديد بالقصيدة التي كتبته في ديقول وبالقصيدة التي كتبته فيه ومجّدي وشجّعني على الاستمرار في الانتاج الشعريّ مع الالتزام بالجودة والرّأي الحصيف والشّجاعة كذلك لكنّه أعطاني درساً لا ينسى في الدّيمقراطيّة

- وماذا قال لك عنها

- قال

- انا أعرف الديمقراطية أكثر منك لأنني درسها وامتحننت فيها ونجحت بتفوق في دبلوم العلوم السياسية بالتساوي مع شهادة المحاماة وعاشت ممارسات الديمقراطية ونقيضها في العديد من الأمصار والحقب وتشبعت بأصولها وقرأت عنها الكثير وسبرت أغوارها وأمكنت في التفكير فيها

ثم أضاف قائلاً بكل ثقة في النفس

- الديمقراطية لا تهدى ولا تعطى وليست مجرد غنيمة

ولما سكت قليلاً حاولت التدخّل حفاظاً على ماء الوجه فقلت

- تفتك

وكأنني أتيت بأسد من أذنه لكنه ابتسم مبادراً

- الديمقراطية مع الأسف لا تفتك يا ابني بل هي استحقاق ولا تكون ناجعة ووظيفة إلا إذا استحقها مستعملوها والديمقراطية ليست هدفاً في حد ذاته بل مجرد وسيلة لتحقيق المساواة في الحقوق والواجبات والتوزيع العادل للثروات بين بني الوطن الواحد دون فروق عرقية أو جهوية أو مذهبية أي أن الشعب لا يمكن أن يكون ديمقراطياً إلا إذا تمت تهيئته لها وللديمقراطية مستلزماتها لذلك يتحتم التدريب على الياتها وتعلم ممارستها يفضي لاتقان التصرف فيها والاستفادة منها والديمقراطية في الأصل هي مجرد اليات يحقق بها الحاكم نيابة عن الشعب و باسمه وله العدالة بين مختلف مكوناته والديمقراطية إذا لم تستوف شروطها تصبح كالغول تأكل الأخضر واليابس وتأتي على الحابل والنابل من أجل ذلك حرصت بادئ ذي بدء على إيلاء التعليم والثقافة والصحة والتنمية الأهمية التي يستحقها كل قطاع من هذه القطاعات الحيوية كما عנית بالإنسان التونسي باعتباره المكسب الأساسي .



كان الرئيس الحبيب بورقيبة يتحدث بلطف لكن بلبان وثقة في النفس وكثير من التمكن وكان كلما واصل في التوضيح زدت اقتناعاً برأيه وبدأت اتهاماتي له تنقص من حدتها بل وتلاشى شيئاً فشيئاً عندها أدركت أنني ملزم بإيجاد حلٍّ أخرج به ممّا بدا لي أنّه مأزق وبينما انغمس هو في صرد بعض مراحل كفاحه دخلت أنا الى محراب الشعر لأهل من معينه ما أستطيع وبدأت أهيئ ارتجالاً قصيدة جديدة أتخلص بها ممّا أنا فيه من حرج دون أن أتخلّى عن كرامتي وقناعاتي الأساسية واغتنمت فرصة توقّفه عن الحديث لأفاجئه بأنني الان أعددت له قصيدة وأنني مستعدّ لقراءتها ارتجالاً أمامه بعد اذنه ولمّا استحسن الفكرة وتهياً للاستماع أنشدت بمحضره ما اعتبرته أوّل قصيدة ألقيتها أمامه مباشرة .

قال القاضي

- أقرأها لنا ان كنت تتذكرها

- لا أنذكر الان كامل القصيد لذلك سأقدّم لحضرتكم بعض ما أستحضره وهو الجزء الأكبر ممّا ارجلته انذاك



قال

- هات ما عندك

قلت

- لانمرغو جباه في لرض ولا نوقفوفي دروج حاكم
 ولا نشوهو جباه لا عرض ولا انطبصوللقماقم
 ويا وطن نفدوه بالتَّبض ويا شعب روحنا فداكم
 وطاعة الحاكماكم في الحفظ قدامك وممن وراكم
 الحكم لا جباه لا حفظ لاشان يزيدفي علاكم
 والحكم لا هزلانفض ولا راي يمشي بهواكم
 لانصب لارفع لا حفظ لاجزم جاي من تلاك
 لارث لا ملك لا وعض الشعب مشارك معاكم
 باريك مالظلم والغرض وقمع البوليس والمحاكم

والسهو والعجز والمرض والكبر وطول التراكم
 رد بالك تتحط في القبض ويبدأ بيعكم وشراكم
 لا عاد بفــــــــــــــــــــيدنا غمض ولا ضكــــــــــــــــضكه في قفاكم
 والحكم لا جبر لا فرض والحكم موش الوتــــــــــــــــاكم
 من واجب الحكم الحفظ عل المصلحة من قداكم
 ونعطوك بالطول والعرض لمان ونحسب خطاكم
 وكلامنا نقولوه فرض في وجهكم وفي قفاكم
 وانحولو قبولنا رفض لا جا الغوش من قداكم
 وثيقة الشَّعب كالقرض ترجَّع الدِّين الّـي عطاكم
 بلخلاص كل شي يتفض والصَّدق يثبَّت خطاكم
 بلا دم لا غل لا بغض خلّوه شغل المحاكم

وكانت هذه الأبيات المرتجلة أوّل قصيدة ألقيتها أمام الرّئيس الحبيب بورقيبة مباشرة ومن ذلك الوقت لم أنخلّف عن المحافل الشّعريّة والعكاضيات المناسبيّة وضللت أشارك مع العديد من الشّعراء الفطاحل أمثال محمّد الصّغّير وبن قطنش وأحمد اللّغامي وحسين المحنوش وحسن المحنوش واحمد السعيدى واحمد المختار الهادي و عبد المجيد بن جدو والقصّار وغيرهم وكنت أكتب المنوّعات الشّعريّة الّتي تقدّم لوحات غنائيّة وراقصة باسم العديد من الولايات أذكر منها قفصة وتوزر وسيدي بوزيد ثمّ بنزرت في الاحتفال بأعياد ميلاد الرّئيس والأعياد الوطنيّة والمناسبات الهامّة كتدشين بعض الانجازات الاقتصادية الكبرى وكانت قصائدي تقبل دون مراجعات ودون رقابة أو اصلاح أو توجيه مسبق وقد قرّر سي الحبيب أن أكون شاعر الفصحى الوحيد الّذي يشارك في عيد الجلاء ومكثت على تلك الحال الى اخر احتفال بورقيبة بعيد الجلاء قبل تنحيته بقليل فكنت اخر من استمع اليه الرّئيس من الشّعراء وكان كثيرا ما يدعوني لتناول

الغداء على مائدته كما كنت من القلائل الذين لم يقبلوا من الرئيس هبة أو هدية أو منحة أو مكافئة مالية أو عينية أو منصبا أو جزاءا من أي نوع كان وقد سبق لي أن أعلنت عن ذلك بصريح اللفظ في أبيات من الشعر اشتهرت بها واشتهرت بي

قال القاضي

- وماذا قلت

قلت

- أنا أحبك لآخوفا ولا طمعا أنا أحبك في سري وفي جهري
أنا أحبك معناتها يحركني أنا أحبك في جسمي دم يجري

قال القاضي

- يشاع ان لك مع الحبيب بورقيبة نوادر وطرف كثيرة

- نعم سيدي الرئيس لي معه نوادر وطرفات وحوادث كثيرة ومتنوعة

- ارو لنا منها واحدة

- رحم الله الرئيس الحبيب بورقيبة الذي عاشته سنوات وسنوات وعشت معه طرائف لا تنسى منها ما تعلق بهذا القصيد القصير الذي خيل الي انه بداية مشروع قصيدة اصف فيها بعض الاوضاع العامة الصعبة التي تعيش فيها البلاد من جراء تدهور القدرة الشرائية للطبقة التونسية المتوسطة التي انتمي اليها وما تعيشه الطبقة الفقيرة من شعبنا التونسي مركزا على ضرورة اعتماد الصراحة في هذا المضمار كتبت في هذا السياق ما يلي في انتظار استوفاء كامل القصيدة

كلّ مرّ أمرٍ منه الصّراحه واللسان الوفيّ يبغى سراحه

والحياة كالبحر سطح وعمق يدخل العمق من يجيد السباحة

استبدّ الظلام بالليل حتّى نسي الليل فجره وصباحه

ولهذا القصيد الصَّغير قصَّةً طريفة وعجبية مع المرحوم الرَّئيس الحبيب بورقيبه

قال القاضي

- كيف ذلك

- لقد تسبَّبت هذا الابيات الشَّعرية الَّتِي وصلت إليه في سياق وشاية مقصودة دبرها ضديّ أحد المسؤولين السِّياسيّين الجهويّين مَن كانوا يكرهونني ويترَبَّصون بي غيرة وحسدا ما جعل الرَّئيس بورقيبه يطلب الاستعجال في مثولي بين يديه للاستفسار في أمر ما بلغه عنيّ بخصوص مقصد اتَّهامي له بأنَّ كلَّ ما فعله من أنجازات اعتبرتْها بصريح لفظ القصيدة ظلّاما في ظلام

وأنا بين يديه وبمجرد ان شرع بورقيبه في مواجهتي بذلك وبدون سابق علمي فهمت ما ومن رَكَّب لي هذه المكيدة وعوض أن أركّز على الاتِّهام في حدّ ذاته ركّزت بصفة بديهية على ارتجال ردّ فوريّ مفحم يطيح بالوشاية ويربك الواشي

- وما كان لاد فعلك انذاك

- ماذا ترى تتوقَّعون أن أفعل في ذلك الزَّمن الوجيز والحاسم

- بم اجبت الرَّئيس وهو يروي لك الحادثة بهذا التفصيل

- أجببت الرَّئيس على الفور أنَّ من نقل اليه ذلك لا يفهم من الشعر شيئا بدليل أنه جعل من قصيد غزليّ يمكن أن تغنيه أم كلثوم قصيدة هجاء لذلك تعمَّد عدم اكمال بيت القصيد الذي أقول فيه

وهنا تعمَّدت ارتجال هذا البيت

يا حبيبي أكنت تعشّق قلبا أم ترى قد عشقت منه جراحه

ومنذ تلك اللَّحظة تبنّى بورقية ذلك البيت الشعري الَّذي أزعجه في الأوَّل ليعتمده حجةً على أن ذلك البيت هو بيت الشعر الوحيد في اللغة العربية الَّذي يصف أطول ليلة على اللاتلاق في قولي

واستبدَّ الظَّلام بالليل حتَّى نسي الليل فجره وصباحه وضل سي الحبيب بورقية يتحدَّى به الاساتذة محمود المسعدي مؤلف كتاب السد ومحمد مزالي وزيره الاول والشاذلي القليبي وزير الثقافة ومحمد بن سلامه المسؤول المباشر عن مجلة الفكر وبشير بن محمد رئيس تحرير افريك اكسيون والتي اصبحت في ما بعد جون افريك وأحد أكبر شيوخ جامع الزيتونة انذاط العلامة الفاضل بن عاشور وغيرهم ان يستشهدوا ببيت شعر واحد من مدوَّنة الشعر العربي القديم والحديث يصف ليلة أطول من تلك الليلة التي نسيت فجرها وصباحها.

وحتى لا يذهب في ذهن بعضنا أن بورقية كان يستكف من نقده أو يعاقب من يتجرأ على ذلك أرجو أن أجد الوقت لامدكم لاحقا بما قتلته فيه من هجاء وأبدأ بهذا الطرفة التي حصلت بطلب منه

أسرع جناب رئيس المحكمة بالتدخل قال

- ارو لنا احدى تلك الطرف

قال الشيخ

- كنا ذات يوم وجهها لوجه وفجأة سألني بورقية

- لو طلبت منك تلخيص سلبيات الوضع السياسي الحالي في تونس وكان يقصد أن أعلّق على تجربة التعاضد والتي كانت ان ذلك في آخر عهدها اجبته

- تساوى الجمع والطرح فلا غنم ولا ربح

وقد حاولت اصلاحا وما قامت لنا صحح

وطلب مني اعادة ذلك ليحفظ ما سمع مني من القراءة الثانية عن ظهر قلب

ومن نوادره انه كان يقدمني لضيوفه وخاصة لرؤساء الدول الذين يزورونه في قصره بقرطاج في العاصمة تونس او في قصره بسقانس بمدينة المنستير قائلا

- سي فلان ليس بورقييّا ولا دستوريّا ورغم أنّه يتّمي للاخرين ويقصد للمتحررين من التنظيمات والتيارات والاحزاب فأنه يبقى من أعز اصدقائي

و لما تدخل السيّد محمد الصّبّاح ليقول للرئيس

- ولكن صاحبك محسوب لدى الاخرين بأنه من الذين اشتهروا بمدحك

أجابه بورقية على الفور

- يبدو الأمر كذلك بالنسبة للذين لا يفهمون الشّعـر جيّداً أما الاذكيا فيعرفون ان صاحبي

يُثمن الانجاز باعتباره مكسبا للوطن أكثر ممّا يُثمن صاحب الانجاز

والتفت اليّ ليقول لي

- أليس كذلك

فاجبته

- وهو كذلك سيد الرئيس

قال الراوي

- لم يستنكف القاضي ولا اعضاده ولا الحاضرون في هذه الجلسة من الاستماع لحديث الشيخ

عن الرئيس الحاضر الغائب بورقية وكان الشيخ أحسّ بذلك لذلك واصل بعد توقف استقرائي

قصير قائلا

- هذا بورقيه العظيم الذي عرفته أبا وصديقا في نسخته الاصلية هذه والفريدة من نوعها

وما اورده هنا سيدي القاضي هو مجرد توثيق لبعض ما عشته شخصا فأنا قصصي مع بورقيه لا

تنتهي لقد بدأت بنقده كما ذكرت من قبل ولم اخف أبدا انها مي آياه بتوخي الحكم الفردي بصفة

علنية في القصيدة باللغة الفرنسية التي قرأتها على جناب المحكمة والتي ذكرت لكم كيف ذاع

سيطها في ارجاء فرنسا بعد أن مهدت لها بالقصيدة الهزلية التي نقدت فيها الجنرال دوقول والتي

اشتهرت هي الاخرى شهرة كبيرة كما سبق ان اكدت ولم أخف عنكم كيف دعاني في مكتبه وانا

متوقع محاكمتي أو حتى تصفيتي جسديا ولكن ذكاؤه الحادّ قضى ان يدعوني ويجادلني ويقبل أن يتفاعل معي وبعد حواراه المطول معي ضننت سيدي الرئيس انني فهمته لكن تفتنت فيما بعد انني فهمت بعضه وقتها وبعضه على امتداد حياته وتقلبات الاوضاع والأحداث وفهمت ما تبقى منه وربما أهم ما قال فهمته بعد الثورة أضف إلى ذلك حياتي الطويلة التي اتاحت لي حضور العديد من الأحداث منها على سبيل الذكر لا الحصر الحرب العالمية الثانية وأنا طفل صغير لقد رأيت الجنرال الامريكي ايزنهاور الذي تولى فيما بعد رئاسة جمهورية الولايات المتحدة اذكر انه كان ناصبا خيمته في بستاننا بلا اذن منا ورأيت وأنا طفل صغير جدا بورقيبة وهو عائد من المنفى وعرفت احمد التليلي بالقرابة فقد كنّا ابناء عمومة وشاركت مع أطفال جيلي في أيسال المؤونة والمساعدات المالية لالا زهر الشريطي ومن معه من المقاومين ضد المستعمر كما عشت مدهامة منزلنا من طرف الجيش الفرنسي الذي كان يبحث عمّن يساعد رجال المقاومة والذين كان يسميهم الفلاقة ومنهم والدي الذي اختبأ يومها كما عشت احداث كثيرة اخرى وتقلبت في حياتي المهنية كثيرا درّست صدفة مع راشد الغنوشي في نفس المدرسة عندما كان نكرة وما زلت أذكر كيف كان يحمل منذ ذلك الوقت بذرة التخونج كما كنت صديقا بالزّمانة لقائد المؤامرتين على حكم بورقيبه المرحوم عبد العزيز العكرمي ابن قريتي كما افدكم من قبل ودرست مع القائد المدني لثورة المرغني المرحوم عز الدين الشريف العائد من ليبيا أضف إلى ذلك معاشرتي الطويلة لبورقيبة وسجلاتي معه في كنف الاحترام المتبادل ولقاءاتي المتواصلة مع أغلب وزراء بوررقيبة أيام كنت كما كان يحلو لابي ان يشبهني بالخنفساء التي لا يستطيع أحد ان يلعب بها أو ان ياكلها زد على ذلك صلتني الوثيقة بالعديد من أهل الفكر بدءا من اساتذتي في العلوم والفكر مثل محبوب بن ميلاد والفاضل الجمالي والفاضل بن عاشور واساتذتي في الفنون مثل محمد التريكي ملحن يا راكبين الخليل ومحمد الصالح الخاسي مصوّر أغلب الاوراق المالية التونسية وكل رسوم الأحاديث الشريفة والايات القرآنية التي تعلق في المدارس والبيوت والمحلات العامة والخاصة لحد اليوم كما كان الرسام التشكيلي يحي استاذي وقد عاشرت الدكتور والفنان صالح المهدي والعملاق قدور الصراري والطرب الهادي الجويني والتقيت بواسطة تاليف الأغاني مع احمد حمزة وعلية وقاسم كافي وزهيره سالم وصفوه ولي صداقات وثيقة في المسرح مع عبد القادر مقداد ومحمد رواشد وعلي بن عياد والمنصف السويسي و تعرفت فيما بعد على المسرحي القدير المبدع رؤوف

بن يغلان ولازمته طويلا الى اليوم وعاشرت الاديوب والمفكر مصطفى الفارسى والفنان التشكلى نجا المهداوى والتقى بالصدفة مع الكثر من الشخصيات السياسية فى النهضة فى محاضرات تكوينية قمت بها لما كانوا فى السجون ومع كل ذلك مكثت وفى لمبادئى والتزامى برسالتى الأساسية والمتأتمة من قناعة ان الطرح السياسى لا يستقيم ألا بمساندة الطرح الثقافى الكفيل وحده ببناء منظومة القيم التى تستقيم بها الشعوب ويبقى اهم ما يميز ما عشته هى علاقتى بسى الحبيب بورقيبه والذى كان شغوفاً بتونس غيورا على صمعتنا وكان لا يتخرج حين يستشيرنى فى اى موضوع واذكر من ذلك انه دعانى مرة خصيصا ليشاورنى بخصوص عزمه استدعاء ثلة من اكبر واشهر الشعراء العرب الأحياء من بينهم على ما أذكر فدوى طوقان من فلسطين والزمخشرى من السعودية وشعراء كثر اخرون وكان يريد ان يمرر رسالة معينة فحوها ان تونس التى انجبت أبا القاسم الشايبى ما زالت الى اليوم عاصمة الشعر العربى بلا منازع وقال لى

- اجبنى بنعم أم لا على سؤالى

قلت

- تفضل اسأل

قال

- هل بإمكانك ان تقرأ الاسبوع المقبل امام ضيوفى قصيدة تثبت ذلك

قلت

- من اجل تونس ساكتب تلك القصيدة التى تريد

قال

- توكل على الله

وفى اليوم الرابع من مقابلتنا اتممت القصيدة واعلمته عن طريق الوالى بانى انتهيت من كتابتها وطلبت منه امكانية تقديم نسخة منها له مسبقا اجاب

- قل له شعراء تونس لا رقيب عليهم وأنت شابي ولن نخذل أبا القاسم الشابي

هكذا كان يتصرف يورقية اجمالاً وأنا شاهد على ذلك حتى عندما كنا شبانا كنا ننتمي الى اتحاد الطلبة قبل ان تخلق الجامعات في تونس كنا نعارضه وننقده ولم يكن لنا العداء ولم يحقد علينا بدليل انه عين كاتبنا العام والذي اصبح فيما بعد استاذي في ترشيح المعلمين بصفاقس قاسم بلقاسم واليا ثم في رتبة وزير وكما ذكرت انفاً لما دعاني في قصره اثر كتابتي للقصيدة بالفرنسية لنقده عوض أن يبطش بي او يحاكمني فضل مناقشتي والاستماع اليّ ووضّح لي أشياء كثيرة فهمت بعضها وقتها وبعضها لم أفهمها إلا بعد الثورة

وان كان للقول خلاصة فخلاصة القول بايجاز شديد ان بورقيبه العظيم الذي عرفته أبا وصديقا في نسخته الاصلية هذه والفريدة من نوعها وما اكتبه هنا هو مجرد توثيق لاحداث ووقائع عشتها في سياق ظروف خاصة جدا كما ان لي ذكريات عشتها بحكم اني انتمي الى جيل واكتب كل فترات طفولته وشبابه تلك الاحداث على وقع ما قام به هذا الرجل من تحركات ونضالات اثرت في معيشتنا اليومي وطبعت حياتنا طوعا وكرها جعلت قصصي مع بورقيبه لا تنتهي صحيح ان اتصالي المباشر به بدأ بنقده كما سبق ان قلت لما اهتمته بالحكم الفردي بصريح اللفظ في قصيدة باللغة الفرنسية والتي ذاع سيطها في ارجاء فرنسا بعد أن مهدت لها بتلك القصيدة الهزلية التي نقدت فيها الجنرال دوقول والتي اشتهرت هي الاخرى شهرة كبيرة ولما بلغ ذلك بورقية دعاني في مكتبه وكنت أتوقع محاكمتي أو حتى تصفيتي جسديا ولكن ذكاؤه الحاد قضى ان يدعوني ويجادلني ويقبل أن يتفاعل معي وبعد حوار مطول فهمت بعضه وقتها وبعضه على امتداد حياتي وتقلبات الازمات والأحداث وفهمت ما تبقى منه وربما أهم ما قال فهمته بعد الثورة أضف إلى ذلك حياتي الطويلة التي اتاحت لي حضور العديد من الأحداث منها على سبيل الذكر لا الحصر الحرب العالمية الثانية وأنا طفل صغير رأيت أثناءها جنرالا امريكيا يقال انه تولى فيما بعد منصبا مرموقا في الدولة كما حضرت موكب عودة الزعيم بورقيبه من احد منافيه اثناء التقائه في طريق عودته برفيق دربه احمد التليلي وقد كان هذا الاخير من ابناء عمومتي بالقرابة التي ولدت ونشأت فيها وشاركت مع اطفال جيلي في إيصال المؤونة والمساعدات المالية للزهر الشريطي لا الشريطي كما يحلو للبعض ان يسميه ومن معه من المقاومين ضد المستعمر كما عشت مداومة منزلنا من طرف

الجيش الفرنسي الذي كان يبحث عن من يساعد رجال المقاومة والذين كان يسميهم الفلاقة ومنهم والدي الذي اختبأ يومها كما عشت أحداث كثيرة أخرى وتقلبت في حياتي المهنية كثيرا اذ درست صدفة مع راشد الغنوشي في نفس المدرسة عندما كان نكرة رغم انه كان يحمل بذرة التخونج وكنت صديقا بالزمالة لقائد المؤامرتين على حكم بورقيبة المرحوم عبد العزيز العكرمي ابن قريتي ودرست مع القائد المدني لثورة المرغني المرحوم عز الدين العياشي العائد من ليبيا والذي تمكنت بوسائلتي الخاصة ان اشاهده وهو يحمل الى تونس العاصمة اثر اعتقاله قبل محاكمته وتنقيذ حكم اعدامه أضف إلى ذلك معاشرتي الطويلة لبورقيبة وسجالاتي معه في كنف الاحترام المتبادل والتقائي المتواصل مع أغلب وزراء بوررقية أيام كنت كما كان يحلو لأبي ان يشبهني بالخنفساء التي لا يستطيع أحد ان يلعب بها أو ان ياكلها زد على ذلك صلتى الوثيقة بالعديد من أهل الفكر بدءا من اساتذتي في العلوم والفكر مثل محبوب بن ميلاد والفاضل الجمالي والفاضل بن عاشور واساتذتي في الفنون مثل استاذي محمد التريكي ملحن يا راكين الخيل ومحمد الصالح الخماسي مصور أغلب الاوراق المالية التونسية وكل رسوم الأحاديث الشريفة والايات القرآنية التي تعلق في المدارس والبيوت والرسام التشكيلي يحي ومعاشرتي لصالح المهدي وقدر الصراري والمهدي الجويني والتقائي من خلال تاليفي لبعض الاغاني لكل من عز الدين يدير وقدر الصراري واحمد حمزة وعليّة وقاسم كافي وزهيره سالم وصفوه وصداقاتي في المسرح مع عبد القادر مقداد ومحمد رواشد والتعرف بعدهم على رؤوف بن يغلان وملازمته طويلا الى اليوم وصداقتي مع جعفر ماجد زميل الدراسة والمفكر مصطفى الفارسي والشاعر أحد اللغمانى والفنان التشكيلي نجا المهداوي وفي تصميم الأزياء بفاطمة بن عبدالله المكنة بقله وقيس التونسي ولقائي بمحض الصدفة مع الكثير من الشخصيات السياسية في النهضة في محاضرات تكوينية قمت بها لفائدتهم لما كانوا في السجون ومع كل ذلك مكثت وفيا لمبادئي والتزامي برسالتي الأساسية والمتأبئة من قناعة أنّ الطّرح السّياسي لا يستقيم إلّا بمساندة الطّرح الثّقافي الكفيل وحده ببناء منظومة القيم الّتي تستقيم بها الشّعوب ويبقى أهم ما يميّز ما عشته هيّ علاقتي بسي الحبيب بورقيبة والذي كان شغوفاً بتونس غيورا على صمعتنا وكان لا يتحرّج حين يستشيرني في أيّ شأن أو موضوع واي أمر حتى لو تعلق بأمن الدولة

هذا بعض من بورقية كما عرفناه كلنا ألا الجاحدون ويبقى الحديث عن بورقيه متواصلا باذن الله والله الحمد له الملك وهو على كل شيء قدير حماكم الله سيدي القاضي من كل مكروه وسخر سياسيو اليوم لخدمة البلاد بصدق بورقيه والهمهم محبة تونس واهلها كما كان هو يحبها ويجب الخير لاهلها وامدهم بنصيب ولو قليل من حكمة بورقية وقدرته على الاستشراف واليكن سيدي القاضي عفوكم علي أرحب من عفوتي

رد القاضي على الشيخ

- هل تعتبر نفسك بورقيا

أجاب الشيخ على الفور

- لا أبدا سيدي القاضي انا تونسني بالدرجة الاولى بربري تاريخا عربي بالانتساب من اصول انسانية بالسليقة لم أكن بورقيا لكن بورقيه رغم انني عاشته طويلا واكلت معه الماء والملح و بقيت صديقه لم أقبل منه ولا من من مثله من وزراء او ولاة او مسؤولين في أي درجة كانوا أي مكرمة او هبة او منصب بل كان يدعوني ليطلب مني نقده ويعترف بارتكاب بعضها ويصلح بعضها وهو ما لم يفعل أي مسؤول في عهد ما نسميه اليوم بالديمقراطية وحتى ما ارتكبه بورقية من أخطاء جسيمة في كبره كان مردّها عجزه على مجابهة المتكالبين على الحكم أيام شيخوخته والذي كان يقرّ به ويوح به لي ولغيري وأغرب ما عشته انذاك أن بعض مؤرخينا أوردوا أحداثا تاريخية من خلال تاويلهم الخاص لا كما عشناها وبعضهم تعمّد تشوييها ونحن في كلّ هذه المأزق ما زال عندنا الكثير من الحلول والحلول موجودة أيضا لدى الكثير من شبابنا لكنه ضل شبه معزول من العمل السياسي اما لمحدودية كفاءتهم او تكالب بعض الحاكمين على الحكم وهو ما يفسر لماذا أصبحت بعض التصرفات انذاك مضحكة مبكية ورغم قصور بعضهم وتعمّف البعض الاخر على هذا البلد وأهله وماضيه واحيانا بعض الاستهتار بحاضره لم نحرك ساكنا لقد كان بإمكان جيل الاستقلال أن يؤثّر إيجابا في الأحداث انذاك باكثر فعليه حتى من خارج منظومة الحكم كما كنّا نوثر فيها من قبل من ذلك اذكر أنني وانا شاب مدرّس ألقيت امام بورقية قصيدة بحضور وزرائه ومن بينهم الاستاذ محمود المسعدي تعمّدت المقارنة فيها بين سدّ كتاب المسعدي

أقول فيه أنّ سدّ المسعدي أكثر رسوخا من سدّ بورقيّة لأنّه سبيني عقولا ولم ينفع بورقيّة بل فرح ووربا اثر موقفه تلك على قرار ادراج كتاب السدّ لمحمود المسعدي في برامج التدريس

لقد كان بورقيّة يقبل أن أقول له في قصره كما سبق ان ذكرت

كل مرّ أمرّ منه الصّراحه واللّسان الوفيّ يبغى صراحه والحياة كالبحر سطح وعمق قد يرى العمق من يجيد السّباحه

هكذا كان الوضع أيام ما يسمّونه بالدكتاتوريّة البورقيّة او الحكم الفردي لقد كنّا نستطيع أن ننفع بلادنا على عكس ما كان يروج لست أرغب أن نرجع لذلك العهد بل لا أدعي أنّه كان أحسن من وضعنا اليوم وأنّا قصدت أن نتّعض بها كان إيجابيّاً فيه لننفع أهلنا وبلادنا

ولأنّ جيلنا كان وطنيّاً يحبّ البلاد كما لا يحبّ البلاد أحد فقد أورث الكثير منكم تلك الوطنيّة الصّادقة التي ستنفذ بلادنا من تكالب المتكالبين واستهتار المستهترين وفساد الفاسدين والمفسدين هذا ما تبقىّ لجيلنا المنقرض من فضل عليكم وعلى تونس الأنس والمجد تونس المعجزات

وستضل ثورتنا عنوان الذكاء التونسيّ الذي نمثّل بكلّ تواضع بعض مكوناته

هذا بعض من بورقيّة كما عرفناه كلنا ألاّ الجاحدون ويبقى الحديث عن بورقيّة متواصلا باذن الله والله الحمد له الملك وهو على كل شيء قدير حاكم الله سيدي القاضي انت ومستشاريك والحاضرات والحاضرين من كل مكروه وسخر سياسيونا لخدمة البلاد بصدق بورقيّة والهمهم محبة تونس واهلها كما كان هو يحبها ويجب الخير لاهلها وامدهم بنصيب ولو قليل من حكمة بورقيّة وقدرته على الاستشراف وكل يوم وانتم بخير واليكن عفوكم علي أرحب من عفوتي

الفصل التاسع عشر

شواطئ المدينة جميلة تستلهم منها عيون النساء الفاتنات زرقتها في النهار وتكتحل رموشهن بها في الليل وبين الليل والنهار توزع باقات من الألوان السحرية على الفساتين الملوحة بأجنحتها الفضفاضة والمصممة بحجم كل هذا الفضاء الرحب. ويحتفظ الليل بروعته في خصلات الشعر الناعم أو يسكن في العيون السوداء للتخفي وربما خوفا من أن يعث به العابثون وربما غير على غيث الفاتنات ويشرع في صيد فرائسه من موقعه الجديد إمعانا في الانتقام أو رغبة في التسليّة. شمس الصيف تستحم في القبة الزرقاء لتزيدها صفاء على صفائها وتطرز الأفق الناعم بذرات المد المترامي في شكل غبار لا غبار عليه سرعان ما يتحول إلى دخان شفاف برائحة المسك المخلوط بالصنوبر والياسمين والفلّ كأنه هبة العشق في امتداده اللانهائي المتعطش للزمن الحلم والحبّ الحين ليرتمي في خاتمة المطاف بين أحضان الرمال الذهبية الشاسعة التي تحرس ضفاف البحر الممتدة على امتداد البصر وتعانق التسيم الناعم في دلال وحميمة مستأنسة بكتبان الرمل تظهر في الأفق كأنها عرائس الخرافات القديمة الجالسات ترقبن بروز نهود المياه اللعوب المتحوّلة. كتبان أسندن ظهورهنّ على أشعة القمر الساطع تخالهنّ عذارى الخلد زمن الصحو وزمن التوم، تعزفن على قيثارة الرياح المتمردة حيناً والمعلنة على ولائها للدّف أحيانا وهي تغازل أجساد الفتيات أو تتعمّد إبرازها دفعا للحلم واستثارة لأقلام الشعراء أو ريشات الرسّامين وتبقى الموسيقى سيّدة الموقف تمثّل خلفية للحركة والألوان، وفي كلّ يوم جينات جديدة لغد أفضل وأمل أوسع سرعان ما يتحوّل إلى فقاقيع جميلة تلد الضوء المنعكس على الحجارة الكريمة ذات المسطّحات الناعمة المصقولة بإبداعات السلف وتقنياته الموروثة بتداول ولادة الزمن المرصّع بأشعة الشمس الأولى. ويبقى الرمل متشبّها بكتبانه المتقاربة والمتباعدة الهازجة على نغم اللّحج الرّاقة فوق عصبية هبوب التسيم المتقلّبة مع انفعالات الزمن الهارب والتي يدرجها حيناً ويحوّلها أحيانا أخرى لكتابة مطّلة على الأمل البسام. لقد كانت هناك بعيدا في زمن غابر تتأسّس حبة حبة لتبعث البهجة في النفوس. وتستمرّ كتبان الرمل في غمرة سعادتها الخرساء الأصمّ في ملاحقة غروب الشمس ومغازلة صحراء الماء الأزرق بردائها الدّاكن ويستمرّ موجها في إغراق غادات الرمال في

نرجسيتها بحثا عن شبحها في الأفق الرّحب المتحوّل إلى مرآة ذاكرة الرّمان، وتستمرّ الطّبيعة في نسج خيوط الأشعة الوردية التي تدخلها في ثقب إبرة الإبداع لتزرد بواسطتها غروبا خلاّبا ليس كمثله غروب. مدينة الأحلام جميلة يتجرّد الزّمن فيها من ثقله و يتزوّج ليله بأعراسها البهيجة وتتبخّر منها السّامة إطلاقا فتبدو المدينة شاخخة تشرف بمعاملها على البحر كأنّها بوابة المتوسّط وتمدّ أيادي أسوارها برفق لتعانق السّهول الممتدة على شواطئ هذه الأرض الطّيبة بشغف وحميّة. مدينة جمعت في طياتها عصارة الفنون وتميّزت بعبق مختلف العصور التي مرّت عليها ولخصت جميع الحضارات المتعاقبة واختزلت جمال الوطن برمّته واحتفظت برائحة بخوره ووشقه وأداده وعفصه وأعواد قرنفله واحتفلت بفرحة الحياة فيه ونفخت في ترائه التّليد من روح العصر لتحييه من جديد وتكسبه القدرة على التّعايش بسلام مع الحاضر المتدفّق بنشوة الحياة حتّى يكون لهذا البلد سندا في نحت غده الزّاهر ومرجعا له في الإنشاء عملا بالمقولة الشهيرة "أنت لا ترث تراثك إلّا إذا كسبته من جديد". مدينة فتحت بابها لاستقبال الأمل البسّام واحتفظت بذاكرة الزّمان وذكريات ناس الزّمان واستطاعت أن ترتّب كلّ ذلك الخلط المتراكم بتوالي الحقب وتجعله يتنفّس الهواء الطّلق. مدينة خسرت فيها الخصومات الحرب وهزمت فيها المشاحنات الأزليّة وماتت على أرضها الأحقاد القديمة والجديدة وشلّت على سطحها مناورات وضغائن العصور الماضيّة وألقت الدّسائس الموروثة والمستحلبة فيها سلاحها لتصبح ملتقى الحضارات والأديان ومهد التّعايش وموطن الوفاق والتّفاهم ومقصد القاصي والدّاني. أليست صورة مصغّرة من بلد الأُنس والصّفاء وترنيمة حلوة تذكّر بطيبة أهله وعفويّتهم وكرمهم وفتّحتهم وأصالتهم كذلك. مدينة شحنت بداخلها عبقرية السّلف وخياله الخصب وتدثّرت بالحلم الجميل ومزجت بين ذلك وبين توق الحاضر المشرق فأضحت حبل بالآلاف الابتسامات تنشر الدّفء والطّمأنينة في الأرواح وتمتصّ السّامة والقلق من النفوس.

مدينة عانقت المشارف القديمة والجديدة واحتضنت الأسوار وتبنّت القلاع كما تبنّت منعرجات السّرادق ومناهات الدّهاليز والتّواءات الازقة وأقواس النّصر والمغائر والمغاوير واثار أقدام الأحصنة ومسارب الجرّارات وغازلت مرافق الشّطوط وعانقت أمواج البحور وحصون الجبال الشّاخخة ولم تنس جذورها الشّرقية التي نهلت منها وتبرّجت بأنافتها وشربت من معينها

الضَّارِب في تاريخ التَّاريخ والمتلخِّف بحصانة الحضارات المتعاقبة والمتوارثة على حدِّ السَّواء.
مدينة اعتمدت تعاقب الزَّمن مرجعا لها وتحلَّت بمرافق العصر وزخرت بمكتسباته فإذا بها
غرّة في جبين الأوطان ومنارة عدل وأمن وسلام في موسوعة العدل والأمن والسلام



د. توحيدة بالشيخ

الفصل العشرون

واصل الراوي حديثه قال

- غادر جناب القاضي وطاقمه فضاء العمل تحت حراسة سرية بعد أن استبدل كل منهم زي القضاء الرسمي وارتدوا ألبسة مدنيّة أخرى اقتنوها كلّ بحسب ذوقه ورغبته من أحد الباعة من أبناء البلد بأثمان محترمة واغتنموا فرصة الترويح عن أنفسهم بالقيام بجولة في إحدى الحدائق العموميّة البعيدة عن أجواء المحكم والبناءات لبناية المحكمة بنية التعرّف عن نماذج أخرى من أبناء البلد واختار القاضي أن يتصرّف بصفة عاديّة موصيا منظوريه بالتّحليّ بالتواضع وعدم الانزواء وقدّم المثل لذلك محاولا الاختلاط بعامة النّاس والتّظاهر بالرّغبة في تجاذب أطراف الحديث مع بعض من يعترضه في طريقه وقد لفت انتباهه أحد الكهول كان قد افترش زربيّة فوق الحشيش الأخضر المعشي لأرضيّة الحديقة

اقرب القاضي من الرّجل وبعد أن حيّاه سأله

- من أيّ مكان أنت

أجابه الرّجل بكلّ عفويّة

- اعلم أيها السيّد الكريم أنّني أسكن في حيّ متحصّر جدّا عشت مع أهلي وعشيرتي في جوّ متطوّر ولنا مؤسّسات ومرافق عموميّة كثيرة النّجاعة منها جامعتنا المحليّة التي اقتنت أخيرا آلة عجيبة ترصد الأوساخ من المنازل وتمصّها عن بعد وتنفخ على الجدران فتبيّضها وتكشف نوايا كلّ مواطن يتقاعس عن خلاص الأداء جامعتنا المحليّة هذه مثال يحتذى في الأمم المتّحدة وفي الأمم التي ستّتحّد وفي الأمم التي لا تنوي أن تتحدّد

وأضاف الرّجل قائلا

- في كلّ شارع لدينا بيئة وفي كلّ بيئة لدينا شارع لقد اجتمع ذباب العالم وقدّم لما يشبه مجلس الأمن شكوى بسبب ملاحظتنا له في كلّ مكان أمّا التّاموس المسكين فقد انقرض في الحين كما

انقرض الدّيناصور

التفت القاضي لأصحابه الكرام وابتسم لهم ففهموا أنّه بحاجة اليهم لذلك شرع كلّ منهم في الاقتراب من القاضي المتنكر حتّى تحلّقوا بالمتحدّث

اغتنم الرّجل فرصة اعتناء كلّ هذه الجماعة به فابتسم لهم وقبل أن يواصل أشار القاضي للذي كان يتحدّث معه قائلاً

- هذا الصّديق الجديد ينتمي لقوم من طينة خاصة يظهر أنهم جبلوا على النكتة والملحة وخفة الرّوح

تحمّس الرّجل وعدّل من جلسته ثمّ قال بشيء من الاعتداد والتّفاخر

- صدقت أيها السيد الكريم أهلنا عندما يمزحون يلجؤون الى طرق عجيبة وغريبة تتناقض أحيانا مع طبيعة المزح أو قل تتجاوزه لحدّ الذّهاب الى تعكير صفو المرح أو تجانبه وأحيانا تغرق في لججه لتختلط مع زبده وزخمه وحتى زبالته

علّق الذي كان قاضيا قال وهو يبتسم في وجه مخاطبه

- أتعتقد أن المرح أنواع

أجاب الرّجل

- من المرح ما هو مفتعل ومنه ما هو مدرّوس وما هو مقدّمة وما يمثّل ملعقة من دين مرجئ الى حين غير معلوم لكنّه مؤجّل ينتظر استيفاء اجله في الابان ويعرف هذا الدّين بفتح الدّال وتشديدها وضّم الياء بها يسمّى في السّبر بملعقة الدّقيق ويمكن لهذا المدخل أن يكون أيّ شيء اخر عدى أن يكون تلقائيّا دغريّا كما يحلو لنا أن نقول بلهجتنا العاميّة الدّاريّة أو الدّياريّة وفي أغلب الحالات يبقى المرح عند معظم أهلينا نية مسبقّة وأحيانا مبيّنة أو مقصودة كأن يبتدع المتحدّث حوارا تغلب فيه الشّعناء وتكثر فيه البغضاء ويتخلّله السّب والشتم والفعل وردّ الفعل كلّ ذلك في اطار مضمونه صراع وشكله ضرف وفذلكة لذلك كثيرا ما تتحوّل أغلب حوارات المرح الى استفزازات ينتج عنها في الأغلب الأعمّ عراك ومدّ وزجر وتقطيع وتريش وبغضاء

تطول وتقصّر بحسب الأمزجة والطبائع ودرجات الاختزان ومساحات الفراغ المتاح

علّق الرّجل الذي كان قاضيا قائلا

- لماذا لا يتدخّل بالحسنى لايقاف هذا التّوع من الهذر الحرام

ردّ المتحدّث قال

- وحتّى عندما يقصدون التّدخّل بالحسنى يتعمّدون الاثارة ويلتجؤون للاستفزاز وكلّهما أنماط من العنف المقتنع أو الظاهر كما تعوز أغلبهم تلك القدرة على ربط المسبّب بالسبب من ذلك أنهم اذا أضرموا النّار يسألون من أين أتى الدّخان وقد اختلقوا لكلّ تلك التّصرّفات أساء من تأليفهم وتلحينهم لا توجد بالقواميس ولا في المناجد ولا في المعاجم كالتبهنيس وهو الظّهور بعكس الحقيقة والدكّ بتشديد الدّال وضمّه وهو تعمّد الاثارة والتلجّيج او التفرّيح وهي حالة الاسْتِقْرار أو التلوّغيب وهو اللّعب على أكثر من حبل والخذسة وهو تخفية المقاصد ومن شدة ما تغلغل فيهم الميل للعنف تغلّغت فيهم الظاهرة فدخلت في تعبيراتهم حتى في المحاور التي نمج الغتف كالحب فيقولون باعتزاز نموت عليها ولوصف جمال الفتاة يقولون تقتل ويسمون تعلمهم بفتاة مضروب فيها ولفظ الضرب متداول جدا عندهم في ضربة حظ ويصفون الدواء الناجع ضربه ضربه وحتى للتعبير عن ابتهاجهم بما نلت يقولون اضرب عندك كما يعبرون عن فرط العشق بحالات عنيفة مثل غاطس للعنكوش او اعمى ايدهدص او اعمى اصمى وحتى غزل المرأة لا يراعي لطفها او رقة انوثتها فهي الاخرى تموت فيه او عميا صميا اي صمّا لا تسمع من فرط ما تحبه وحتى في محاور اخرى لا يخلو حديثهم عنها من العنف اللغطي ففي الحوار الذي لا يروق لهم يصفونه بالهزان والنغضان او داخل فيه ركه او يتجلطم او يجربح وحتى في التعبير عن افراحهم يقولون عرس يفتّق ورقصة ترعب او مالفرحه خرج من عقلو وسموا الزنديق عفريتاً وعكسه الطّهبالي والسارق مهفا والمجرم قزدورا واحيانا ولد امو او باربو ومن كثرة اهتمامهم بمصطلحي العنف اختلقوا لهم ولا مثالمهم رموزا وأبطالا يسمّونهم تارة المهفّ والبرزليّ والقافز والفره والقزدور ومعنى الكلمة القويّ فاذا كانت قوته في ذكائه يدعى القصعاج استنادا الى مرجعية محمد القصعاجي ذلك المنوم وصاحب أشهر الألعاب السحرية

ولأن كان مصطلح المهف هو عكس الخرنقة فان عكس القافر هو الفاشل وأما القصعاج فيقابلونه بالدغفة أو المذك بكسر الميم وتشديد الكاف وإذا صادف أن يكون أحد الادغاف مسالما فإنهم يكرّمونه بلقب النّبة أمّا اذا كان نصف ذكّي فقد يصبح حلوسة وهو الذي لا يجّيش ولا يدبّش فان صادف أن تذكّي نوعا ما فيحوّلونه الى خرماذ وفي باب تلميع عرش السّداجة الغالب في تصنيف الشّرائع الاجتماعيّة فيحدث أن يصبح بطل السّداجة نجما يعبقرونه أحيانا ويتّخذونه أحيانا أخرى مضحك الحلقة وأحيانا لأنّه دغريّ أي تلقائيّ في سداجته يستغلّونه من أجل تسخين الأجواء ومن أبطال هذا الصّنف تجتهد تلفزاتنا ترشيح أحد المبدعين المسرحيّين وهو من المهزّجين المجازين في مهنة البهلونة الكلاميّة ومن الصّحافيّين أحد الأساتذة الفاضلين المعروفين اليوم عندنا في فنّ التّمعير أمّا في فنّ الوقاحة أو القباحة فيرشّحون أحد رجال الصّحافة المكتوبة ومن السّياسيين أحد الرّؤساء المتحرّزين وهو الأستاذ ورجل الأعمال النّاجح السيد الفاضل الهمام ومن الكتّاب صاحب ذلك الكتاب اليتيم ومن رجال الدّين كثير اخرهم الرئيس المدير العام السّابق لأحد المساجد المشهورة وهناك أيضا رجال أعمال ورؤساء منطّعات ووزراء ونوّاب في المجلس التّأسيسي ومجلس نوّاب الشّعب والعديد من الهيئات العليا والسّفلى والمتوسّطة وغيرهم كثيرين وأخلط أهلنا بين اللّغات واللّهجات ورتقوا العصور ولفّقوا الأحداث ومكّنوا العديد من الاشاعات من الاقلاع من مطارات مختلفة الى محطات معيّنة مدروسة بحكمة وبصيرة وتبصّر وتبصير أيضا وللتخلّص من بعض التّبعات الثّقيلة أسندوا بعض تبصيراتهم الى سجلّ المفاهيم الشّعبيّة الذي يصنّف التّبصير في خانة الفضلكة وخفّة الرّوح والجوّ المرح ومن أهلنا يا سادة يا كرام من يتعمّدون الخروج من قشرتهم رغم أنّ أغلبهم يعتبر ذلك مروقا ونفسخا وانبثاتا لذلك اختزنوا في ذاتهم التمسك بالقشور واعتبروا القشرة لبّا واختزنوا الدّفاع عنها دفاعا مستميتا لذلك لم يمتكّنوا من الانعتاق وحرّموا على أنفسهم التّحرّر واختاروا المشي الى الوراء أو الى الأسفل ولم يحاولوا الصّعود الى الأعلى أو التّزول الى عمق الأشياء فأنّصفوا بالسّطحية والتّزوما بالسّهولة لأنّهم قرّروا عدم الخروج من قشرتهم أقصد من سداجتهم لأنّها تمكّنهم من العيش في رحاب التّناقض فلا تعجبوا أيّها السّادة الكرام أن تروا بعض أهلنا يقعدون وفاقين ويتكلمون بالسكوت ولا يفرّقون بين الدّحول والخروج ويتصرّفون في فوضى منظّمة ويتنظّمون شتاتا ويصيحون في أفراحهم ويستعملون نفس الصّيحة في ماتمهم ويكون عند الفرح ويضحكون حزنا وإذا أجمروا

يصلحون جرمهم بالتَّعبير المؤقَّت عن أسفهم وحسرتهم ريثما تتيح لهم فرصة ثانية الى اعادة فصل من فصول اجرامهم أو استنباط طريقة جديدة يربحون بها الوقت ويرجؤون بها لحظات المحاسبة وفي سياق اخر يمكنكم أن تلاحظوا أنَّ مجتمعنا من فرط ما تطَّبع بهذه الميزات فقد أصبح من السَّهل اكتشاف تلك الحُدَّة في الذَّات الكامنة فيه والتي يستطيع بواسطتها أن يخفي عكس ما يبدي ويأتي بعكس ما يضمن فيجعل قصده العميق في الاضرار بغيره سلوكا مقبولا مستصاغا يثمن به ما يذكر وما يشكر كأن يطلب من أحدكم خدمته بأدب لقضاء حاجته ثقة فيك واعترافا منه لك بالحميميَّة وتكرَّم أنت عليه بالقبول وتسرع في تنفيذ ما أمرك به وهو يخفي لك في داخله غلاَّ دفينا وكرها شديدا جعلاه يتخلَّص منك بلطف متناه وبمجرَّد أن يتيقَّن أنَّك ذهبت في خدمته لا يخفي نيَّته الأصليَّة في التَّخلَّص منك بدكاء فيقول لمن يستقربهم أنَّه "بعثك تقضي" أي تخلَّص منك كما يحدث أن يتركك في الطَّرة أو في التَّوش كما ترسل الكرة الى الرُّكنيَّة لتنتهي معك بضربة جزاء مهیئة مخدومة بعناية واتقان ويقصد هنا بضربة جزاء حقيقيَّة تشفي غليل الضَّارب وتعوث بالمضروب عوثا وتهنتله هنتلة انتقام وتشفَّ وقد نصل الى هذه الحالات القصوى بمدخل بسيطة كالطَّلفيَّة التي ترتدي ثوب البراءة بالتَّبريِّ ثم تنزل الى الابعاد والدَّحض والزَّجر والنَّبد ومرادفاته ككيل السَّبِّ والسَّتْم للاخرين بحجم النُّوايا المبيَّنة المعلنة أو غير المعلنة ومن مصطلحات السَّبِّ والشَّتائم الكثير منها ما يدخل في باب العار والدعاء اي المندالي ومنه دقه وطحنه ورفنه ورغنه ورهصه وعمى وصمى وهذه وهبطه وطيحال وسقيه وبقله ومسحه وحسكه وسحكه وحشَّه وسدَّف وبوسدَّاف وبوقريقيط وغير ذلك كثير ومتنوع ومختلف او كنشابع من يجهة لاخرى

سكت المتحدث قليلا ثم أضاف قائلا

- ولكن يا سادة يا كرام ثقوا أنَّ لهذا الشَّعب أيضا خصال كثيرة أخرى تختلف عما أوردته انفا في هذا العرض وقد دعنتي صراحتي وجرأتني وربَّما سعة صدركم وكذلك التزامي بالصدق في التَّعبير عما أفكر فيه انطبعا كان أو قناعة أو مجرَّد خاطرة عابرة ثقوا أصدقائي أنَّ مجتمعنا أوجه مشرقة كذلك وأنماط عيش فائقة الرِّفعة والتَّحضُّر راسخة في جذوره وتقاليده وعاداته عبر تعاقب أجياله وعصوره

ثم أضاف المتحدث قائلا

- أيها الأصدقاء كل ما أردت الاجهار به هو من قبيل الرغبة في مصارحة الذات قبل مصارحتكم ورنما قصدت كذلك التوجه الى أجيالنا الحاضرة ممن لم يتمكنوا من حضور ما حضرت أو الاطلاع على ما أعرف أو ما رصدته أو ما وقفت عليه أو ما حصل لهذا الشعب في ماضيه البعيد والقريب بالاستناد الى تراثه المادّي واللامادّي وموروثه الشفوي أو المكتوب كما قصدت مجرد الادلاء بها عرفت وما تعرّفت عليه وما أبلغت آياه وما تمّ اطلاعي عليه وما وصلني من أخبار وأحداث ووقائع واستنتاجات وتعاليق أسوق بعضها بكل احتراز وتواضع فان أفادت في الأجران وان لم تغد فسأرضى بالأجر الواحد والله على ذلك شهيد

قال الراوي

- واصل المتحدث قائلا

- لقد عاشت أجيال كثيرة قبلنا فترات انعدام التلفزة والانترنت والعروض السينمائية وحتى المسرحية ومع ذلك فقد كانوا يقضوها أوقاتهم بكثير من السعادة والاشتغال لقد كانوا يصنعون حكاياتهم بأنفسهم ويستنبطون قصصهم ومسلسلاتهم وينسجون الحجابا من مآثراتهم وأساطيرهم وحتى من واقعهم الذي لم يكن يخلو من العمق والحكمة والطرافة التي تصل الى العبقرية أحيانا

وكثيرا ما كان يعمد المخيال الشعبي للعديد من الطرق التعبيرية السائدة أو المبتكرة ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر التنكر البريء وقد اعتمدت لغة خطاب مجتمعاتنا في الزمن السالف الى تصوير التنكر من خلال الدلالة المباشرة كفعل فني ابداعي ولأن فن التنكر المطلق في الأصل بريء يرفض الاغتراب عن النفس فقد كان مجتمعا يتجنب فيه قدر المستطاع التعبير والسباب وينأى بنفسه عن الاحتقار بل يلتجئ لاقتطاع المدلولات من دلالات مباشرة لا تحتاج للتورية ولا للتمييز بل تلتزم بتقريب الصورة المراد وصفها وتصورها دون أي خلفية من أي نوع كانت وكثيرا ما كان التنكر في بلادنا يعتمد كأداة من أدوات المناعة والسلامة والتعبير عن التوق والشوق والانتظارات كذلك

ولنا في ذلك العديد من الأمثلة والدلالات فباشرة بعد احتلال الأتراك لما كان يسمى بالايالة التونسية شعر المجتمع التونسي بضرورة الاعتزاز بمقوماته وخصوصياته فالتجأ لاستعادة بناء هويته من خلال تعابير متعددة ومن أهمها الشعر الشعبي و التماذج التكرية كما انتشرت في الأوساط الشعبية انذاك بعض ممارسات تضيق الحناق على أبناء البلد وهم التونسيون الأصليون فعبّروا عن ذلك بذكاء في ألعابهم الشعبية ومنها لعبة الغمضة التي اتخذت من أسماء الدرجات العسكرية العثمانية مطية كقولهم

- زمزمي قرنفلي بندولي قمصالي فلي الي اللور

ومن جاءت في نصيبه كلمة اللور أي الجنرال فهو الذي يعين للبحث عن السارق والذي عادة ما يكون مسكه للمذنب لا يخضع لأي منطق ما دام يقع صدفه

وتعتبر مثل هذه الأشكال التعبيرية الشعبية والتي تبدو بريئة جداً في ظاهرها ولكنها تحمل العديد من الرسائل المشفرة التي تدعو لضرورة الانتباه والتشهير بممارسات المستعمر من خلال نوع من التكر التائي للاغتراب والتفسخ والدوبان في الاخر

وقد التجأ المجتمع التونسي للعديد من صيغ التكر الابدائي من خلال استنباط الكثير من الشخصيات التكرية التي يقصد من ورائها ترسيخ هويته من جهة ومقاومة المسخ المحتمل من جهة أخرى

ومن هذه الشخصيات الدفاعية المتفصصة سراً وجهاراً والتي تساهم في التذكير بهويته وبأصوله الافريقية شخصية بوسعديه والتي يتنكر فيها الشخص بدعوى البحث عن ابنته الضائعة ليتحول في شكل رجل استعراضي من أصل افريقي يرتدي العديد من الأشياء منها ما يذكر بأصوله المعيشة كالايجاء بأنه صياد من خلال تعليق جلد أرنب أو أنه أسود اللون من خلال طلي وجهه بالفحم أو مسكه لأدوات حديدية أو تعليقه لقطع نحاسية أو من خلال أدائه لنوع خاص من الموسيقى ذات الأصول الافريقية البحتة والتي تستعمل النغارات في الأصابع والعلب القصديرية أو النحاسية الفارغة المربوطة بالأسلاك والخيوط أو الملفوفة بالأكسية كما يعتمد بوسعديه على التخفي النسبي بأوراق الخضر كأوراق القرع وغيرها أو أغصان الشجر التي

تذكر بأدغال القارة السمراء وجريد النخل الذي يعبر عن الواحات والذي يحلي كل واجهات المحلات والمنازل أيام الأعياد وفي الأعراس وفي المناسبات الاحتفالية ويرمز للبلد بلا منازع كما يعتمد بوسعدية الى تعليق قطعة حلي على ملك ابنته ويبرزها كلما شاهد بنتا في العمر المحتمل لابنته وللتنكر في تونس طقوسه ومقتضياته فبوسعدية لا يجوز له التنكر في أي شكل من أشكال الاعاقات البدنية كما يفعل التنكر باشخاص اخرين ومنهم شخصية بوكثير وهي شخصية تونسية أصيلة تتمص عمدا دور المعاق جسديا ولا يعني ذلك انتقاد العيب بل يتم التنكر في هذه الاشكال لابرار تحدي الانسان لاعاقته وتغلبه عليها وفي ذلك عبرة لمن يعتبر كما تعتمد الى م

ثل هذه التنكرات شكلا وحركة قصد جلب الشفقة وتنبه عن الغمز واللمز والتعير وهي كذلك شخصية قريبة من التونسي العادي الذي يمتاز بخفة الروح والذكاء وان تمثل في شخص مهرج فانه كثيرا ما يعتمد لنصح الزوج أو الزوجة وتنبه الصغار من مغبة الصحة السيئة أو التدخل للصالح في تمثيله للزاهد الفقير الذي لم يأت للاستزادة من الرزق أو الاستفادة من مال أو جاه أو رفقة أو استغلالا لعاهته فهو العزيز المعزز أخوصا كان أو أعور أو مكربا أو عاليا أو بكوشا أو وكواكا أو أطرش أو أعمى أما من يمثل اعاقات من نوع اخر كالمصطك وبوغوفاله والغفالة هي الشعر الكثيف الاشعث الاغبر والطهبالي كناية على من باعها للترشة والترشة هي الحجارة الخام المشوكة بطبعها أي من تصرف بنيتة بدون سابق صقل او ترتيب او اضرار والبوهالي والماسط والحلبه والمدك والدغفه والحلويسه والمغمض فهي من مميزات شخصية سيدي تاته والتي كرسست انموذج السداجة الذي حدثتكم عن وجه من وجوه استغلاله في أيامنا هذه والذي يجز في الأغلب الأعم الى اللجوء الى تصرفات تجعل بعض هذه النماذج يبني أو يديق فاذا ما افترط هذا النوع في الاعتداد بنفسه فيدخل في خانة انموذج شكار رحو أما شخصيّة القافز أو المزور فيمثله اليّ شيطانو في جبيو او اليّ قلبو خيرو او اليّ يفهمها وهي طايهه والفره والمقمط في منديله أما شخصية ولد أمو فهي حكر على الرّجولي والعاتي وليّ سدها ويردها والطايح مالسّلوم وليّ يجيب الصّيد من وذنو وليّ ما يرشفهاش والمفلفل ويوازيه سيدي علي الفياش في دور المعتدّ بنفسه وهو شخصيّة حقيقيّة شاهدها في المرسى في الخمسينات وبين هذا وذاك يوجد النّمس وهو الحرامي والدّلّول وليّ حصانو جرّاي والزّرس وليّ نيابو مسوسه وهناك أيضا الكبيده وهو البخيل الذي

يذكر يايام العسر التي يسميه العامة ايام الشر والشمئز والحايره والبايره ولي لا يحك لا يصك ولي ما يهزش ايدو الراسو وتختص شخصية شريف بن هاشم بكل ما يتصل بالامراض والعلة والشفاء وشريف بن هاشم شخصية حقيقية عاشت في العصر العباسي وعرفت بانها ممرضة جمعت اغلب الاسقام وقد استجلبها المخيال التونسي لطرافتها من جهة كما هو الشأن بالنسبة لشخصية جحا وتذكيرا باصوله العربية من ايام الفتح الاسلامي للبلاد التونسية من جهة اخرى وبذلك ياخذ التنكر مكانة المذكر بالاصل والمحافظ على الهوية اكثر من ان يكون مجرد تسلية شعبية كانت في وقت ما تمثل ما تمثله التلفزة اليوم لانها تقدم مشاهد حية للفرجة والتسلية و العبرة كذلك.

وقد اعتمد المخيال الشعبي التونسي شخصية جحا وجحجوح وعبد الرّجوح للدعوة للحكمة والرويّة والطّرفة من خلال ذلكم الأشخاص المنسوب اليهم الاضحك والبشاشة والذين تمت تونستهم قلبا وقالبا عن قصد فهم يستعملون الامثال الشعبية مثل الي ما يشبعش مالفصعه ما يشبع من لحيسها او الي ليك ليك ولي خاطيك خاطيك وهذه الشخصيات تمتاز بانها هي التي تذهب للمواطن اينما كان ولا تستنكف من الدخول لبيتها اذا لزم الامر ويقبل المواطن تنكرها بصدر رحب بل ويتنظر قدومها ويباركه كما يمكن دعوتها لغرض الترفيه والطرفة وقد تفرعت شخصية جحا الى شخصيات محلية حقيقية اشهرها بوهبره ومازال بوهبره على قيد الحياة لحد اللحظة التي اسوق لكم فيها هذه الخواطر

تدخل فجأة احد الحاضرين في المحكمة قال

- سيدي الرئيس لقد اعلمني احد اقاربي اليوم أن بوهبره توفي في الايام الاخيرة

لم ينته المتدخل من كلامه حتى وقف اغلب الحاضرين وتفقوا يرحون على بوهبره المتوفي بحرقه شديدة اقنعت الكثير ممن لم يقوموا فيلتحقوا بالمنادين بالرحمة ل بوهبره الذي يسكن في مدينة قصر قفصة

حينها تدخل صديق بوهبره قائلا

- رحمه الله اوسع رحمة لقد كان ريفي في الدراسة في المدرسة الابتدائية التي زاولت فيها

تعليمي في المرحلة الابتدائية وكان على غاية من الذكاء والفطنة والبداهة وما وضل يحتفظ باندر مفردات لغتنا العامية الخاصة بالجنوب واخر ما سمعت منه كلمة غزامها أي اكثر ما يميز الشيء كقولنا غزام الحساء أي اهم ما يميز اكلة حساء المستوره أو العبيديه والثوم والكمون واشتهر سيط علي بوهبره فيما بعد وتنسب اليه اغلب النكت المركبة حديثا او المروية عنه فعلا واغرب الملحاحات ويقلده العديد من الناس ويتنكر في صورته الكثير من الممثلين في كامل تراب الجمهورية فكأنما أراد أن يذكرنا أن لكل عصر جحاه ومن الشخصيات التي بدأت بالتنكر وانتهت بتشييت وظيفتها شكلا ومضمونا في وقت من الاوقات شخصية بوطيله التي تتولى استفاقة الناس للصحور وهو ان يتولى احدهم لباس الري التقليدي والطواف قبل وقت الصحور في ليالي رمضان المعظم لافاقة الناس من نومهم وتنبههم لتناول أكلة الصحور قبل حلول الفجر بواسطة منبهات كالطبل والشناشن والصياح او المناداة بالاسم واللقب ان لزم ذلك وبوطيله يحمل عادة سبحة وكتاب قران لتذكير الناس بالتسبيح والعبادة وقراءة القران وهناك ايضا شخصية الخراف والحجاي او الحكواتي الي خرف وبرز من يذكرنا بهؤلاء المرحوم عبد العزيز العروي الذي لخص جميع من تقدمه وهو نوع من التَّنَكُّر في شخص الواعظ ويلعب دور المرشد وأحيانا الامام الذي يقصده عامة الناس عنوة للاستماع الى قصصه ونوادره وخرافاتة التي يسميها حجاية او خرافه او حكاية ولا يعني ذلك ان عبد العزيز العروي عاش متنكرا بل كان كذلك صحفيا متميزا ومعلقا ومحللا لللاحداث والظواهر يرصدها ويتعمق فيها ويستغلها كأديب وكواعظ ومختص في الاجتماعيات ومذيعا متميزا تخصص وتفرد وتميز عن سائر زملائه ومعاصريه وحتى من جاء بعده مثل بوديدح ولعموري وغيرهما وخلق العروي لنفسه دورا عرف به ولم يستطع كل من قلده التوصل الى ما وصل اليه والى اليوم يقال لكل من له مشاكل أو معاناة اشكي للعروي والتنكر هنا ليس بالمعنى المسرحي البحث كأن يتحول احدا عمدا في صورة مغايرة لما هو عليها في الاصل فالتنكر يعني احيانا كما في هذا المثال تعمد شخص ما تقديم نفسه كما هو كأن يأنس في نفسه القدرة على الوعظ فيرتدي كساء الواعظ ويذهب لمحل عمومي كالمقهى او ينتدب من طرف مؤسسة اعلامية ويبدأ في صرد قصصه بمدخل معروف ومتفق عليه يكون عادة كالتالي

"يا ساده يا ماده ادلنا ويدلكم للطريق الشهاده صاحبي الدبير دبر يا عاشقين النبي صلوا

عليه " وهذا المدخل المصاغ في كل بلدة بطريقة مختلفة متعددة يغلب عليها التشابه وعادة ما يكون مدخلها الاساسي نفس الهدف رغم تعدد الشخصيات التنكيرية واختلافها في المظهر او التقديم او حتى المحتوى اما المرجعيات التنكيرية المعتمدة في المخيال التونسي في كل هذه الانماط التنكيرية وغيرها ومن أهم هذه المرجعيات التنكيرية نورد ما يتقمص في شكل بشري ولكل منها خصائصه وتمثيالاته ورمزيته كالسلطان وممرت السلطان وعلي بالسلطان وعيشه بنت السلطان وسلطان الجان والزميم والبراح الي يوقف ويطيح والخدام والدير او الوزير "دبر ياوزير ولا راسك ايظير " وتجسم لعبة السلطان والوزير والسارق ذلك و للتخويف نحاكي الغول والغولة ودودمه وبوشكاره والنيد والرهبان والعبيته والحافه والهامه والخويفه والخفاقه والرعيدة والرعاشه من خلال الصوت أو الشكل كاستعمال البرنس والسبركه وهي العصا التي تستعمل للكس والتي ندخلها في طربوشة البرنس ونتخفى بجناحيه وهي شخصيات تنكيرية لتخويف الصغار او حثهم على استكمال اكلهم او الكف عن البكاء وينفس التنكر يمكن ان تمثل في شخص النيد والرهبان والعبيته والافه والسحار والسحاره والي داير بيه الدجاج لسود ولي داير به ادجاج لبيض فهي شخصيات تنكيرية خرافية بالاصل منها ما يندرج في باب التهريب ومنها ما يجسم الجو الخرافي مثل عزوزة الستوت لا يرحمها نهار لي تموت والجن لزرق والعفريت والنفريت والفارس الي يسير والطير الي يطير ومن الناذج التنكيرية الواردة باعتبارها جماعة نذكر بالاختص اهل الخطوه واهل الجره واهل الحضرة واهل باسإلهه والمالي والرعيه والجماعه والرفاقه والميعاد والطامه والعامه والقوم وقليد القوم وجماعة سيدي سعد ومنهم رجال الديوان او دار عريفه وهم جماعة من السود الوصفان جمع وصيف او ما يسمى عبد او خديم او شوشان وهؤلاء جماعة كانت مختصة في اقامة الحفلات الفلكلورية ومن هذه العروض الصطنبالي ونوبة بابا جاطو ووصلة بابا ياسركي واممي ينه وبابا ياربيا وترنيمة الشقايق وشخصية الدقاظه بالسبحه ويفتح التنكر للمخيال الشعبي ابوابا في الوصف لا حصر لها واترك لكم ضروفي الكرام تخيل هذه الناذج البشرية والتي توحى كلها بظاهرة التنكر من خلال الاحالة على صورة تشكل في ذاكرتك حتيا بمجرد الاستماع اليها لانها تحيلكم لمدلول المرجع فعندما تسمع لمتكي باحدهم كالزير لا يضحك لا يبيكي فانك تفهم انه متنكر في شكل زير أي جرة ولي نافخ صدره كالسردوك أي كالديك الذي نفث ريشه ولي في الليل مساكن وفي النهار سكاكن والبالح باكيته والنعجه الي تميزى بلبيت الكبش ولي بلع لسانو

ودودو الذي اشتهر بميله للوحدة فاصبح كل من يتجنب الناس يقال عنه وجه دودو و كل هذه الدلالات ترجعك لاصل معين او انموذج معروف ولانه دخیل على الاصل فهو بالضرورة ضرب من ضروب التنكر التشكيلي الذي يحتم علينا تصوره في الذهن باعتباره شكلا من اشكال فن التنكر ومن هذه الصور ما نتخيله عندما نسمع ببوقطاية وبوشوشه وبومندیل وبوخله وبولحه وبوعكاز وبومنجل وبودرباله وكلهم شخصیات تخيلك لاشكال او ادوات تنكر اما من حيث الحركة فيمكن الاستشهاد ببو نقيز والجراي وخاخيني يا باكا حزميني وانحله كناية على من يتصرف بطباطى مفروط وداخل بلاد خارج بلاد ما يخلها ويعمرها كان الكريم الجواد وبين الشكل والحركة يمكن ادراج مفاهيم اخرى منها الذهنية ك بوالعريف ومنها المهارية كالمهف والشلواش والبلف ومنها التنكرية الصرفة مثل وجه السوق وبالي مزین من بره اش حوالك من داخل وفي مستوى التصرف مثل المراجعة والسحلال والوشتار والقفاف والخردوق والخرماد والمخجوج والي لسانو دایر برقتو وام لبويا والبهيم والبغل والبقره والتبيب وصید بوقلاده وكلها شخصیات تنكرية بامتياز ملفتة للانتباه ومعبرة عن وجهين وجه أصلي ووجه مركب أي تنكري ومن النماذج التنكرية شخصية أمك طنقو وهي دمية من عصاتین متقاطعتين في شكل صليب يلعب بها الاطفال ايام الجفاف يا نسا طلبت ربي عالشتاء امك طنقو بالسخيها طلبت ربي لا يخيبها امك طنقو يا لولاد طلبت ربي اداها الواد ويطوفون بها في الشوارع والازقة وهم ينشدون امك طنقو ولنا في شخصية حيون وحيونه مثال يستحضر لوصف كل اثنين متلازمين وخيال الضل او الحاج عوض وهو عبارة عن عرض فرجوي يقام عادة في ليالي رمضان وتسمى مجموعته الكركوز اما الكركوز المفرد فيدعى به عادة المهرج والمخيال التونسي الذي هو جزء هام مما يسمى الذكاء التونسي استطاع كما رايتم ان يستنبط نماذجه التنكرية لهدفين اثنين هدف ترفيهي وهدف تربوي وما زال يستنبط نماذج جديدة تسير التحولات التي عاشها من قبل والتي يعيشها الان وهنا نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر المضروب وهو الذي امتازت تصرفاته بالغش والزندقة والضاربو الضو الذي لا يثبت على حال والمحريش وهو المدمن على المخدرات والمفديك وهو المدمن على الفيديو او الفاييس بوك والمربرب كناية على المغرمين بالراب rap مع العلم أن هذا النوع من العرض في شكله العصري كان متداولاً من قبل بنفس التريمة وأحيانا بنفس التركيبة الفنية وربما في بعض الاحيان بنفس المقاصد الدلالية ومنها الارتجال والتورية طبعاً بشيء من

التجاوز وفي اعتقادي ان الرب لحنا واحيانا في معناه اليوم مستلهم من تلك الالحن التي كنّا نسمعها ممّن كنّا نسمّيها بالمسّاسيه أي اللّذين يتعاطون طلب القوت اليومي او الطلّاب أي الفقراء اللّذين يقتاتون بارتياذ منازل فاعلي الخير واللّذين كانوا ينشدون بعض الهازيج على انغام الة الرّباب او البندير او ما كنّا نسمّيها المدينه وهي الة موسيقية من الهازيج من نوع الرّاب ما أستحضره من هولاء والذين كان بعضهم يلتجئ للتّنكر كما سترى ومن فصيلة الجرانة وهي الة تشبه ما يعرف الان بالكمنجة ومن هذه ذلك قولهم

- يا سلاّك الواحليّن اعطون القيمه والأثنيّن

او ما حضرت له في سياقات توخّي بعضهم التّظاهر بطلب القوت ولكنّهم في نفس الوقت يستغلّون غفلة بعض السّكّان لسرقه ما يمكن سرقة ومن ذلك ما أستحضره شخصيا عنهم وانا صغير جدّا ترديدهم لهذا الارتجال في قالب لحن او انشاد يغلب عليه التّنكر الذي نحن بصدد التعرّض له ومن ذلك تعمّد بعض هؤلاء ادراج توصيات بعضهم البعض في قالب انشاد لمحاولة تغطية مقصدهم الاساسي وهي السّرقة الموصوفة مثل هذا الارتجال الفوري من طرف أحدهم مخاطبا رفيقه قائلا

- اه يا خليــــــــــــــــفــــــــــــــــه أيدك في اللّفه خفيفه

الفاس في السّقيفه حــــــــــــــــوفه كان تنجّم

قبل ما الســــــــــــــــرّيفه تقوم وتبدى التحوّم

وفي ذلك صغة اخرى من التّنكر الذي نتحدّث عنه كما ذكرنا انفا والقائمة في باب التّنكر طويلة ويمكن للتّنكر ان يتّسع ليصبح موقفا لا نموذجا عندما يصفّر واحد عليك وجهه او يجنز فيك عيونو او يورّيلك وجه السّوق او يقابلك وهو مدلل عليك وجهه او راخي فيك العين او مطنبر او متحلّف فيك او جاك مسكّر او متلّع اوسيس دوز ولي يقلب عليك القيسه ولي دبرهالك ولي يتمسكن باش يتمكن وكلّها حالات يتنكر فيها احدنا من اجل ابراز موقف معين أو نيل مأرب

وابشع انواع التنكر هو العقوق وهو اصل التَّنْكَر الذي اشتَقَّتْ منه ترجمة لفظ déguisement بالفرنسية والذي فيه معاني التَّخْفِي والتَّقَمُّص والتَّشَكُّل والتَّقْلِيد والتَّمْثِيل ولكنَّه بنأى بنفسه عن معنى العقوق الذي توحى به كلمة التَّنْكَر في اللُّغة العربيَّة كاللَّتَنْكَر للوالدين والتَّنْكَر للمبدأ ونكران الجميل والانكار أي عدم الاعتراف او النُّكْرة في علم اللُّغة مقابل المعرفة وفي الجانب الايجابي نكران الذَّات.

وقبل ان أنتهي من كلامي لا بدَّ ان أثبته ان للَّتَنْكَر أوجه أخرى عديدة أهمُّها التَّنْكَر المقاصدي كالالتزام بالحجاب ولباس النَّقاب والتَّنْكَر المؤسَّساتي وهو أقدم أنواع التَّنْكَر وأكثرها انتشارا في العالم وهو يدل على حاجة الانسان الملحَّة للَّتَنْكَر من أجل الحفاظ على أمنه وضمان تواصله ومن هذه الوجهة اعتبر التنكر اكتشافا وهو من أقدم الاكتشافات الأولية التي أحكم الانسان استغلالها كما فعل مع اكتشاف العجلة التي أنتج منها السيارة ومشتقاتها أما التنكر فقد استغلَّه الانسان في العديد من اغراضه الحياتية كالدفاع عن نفسه وأهم أشكال التنكر المؤسَّساتي الزري العسكري لدى الجيوش وزري الشرطة وزري الديوانة وزري المختصين في الصحة كالأطباء وفي القانون كزى الحكام والمحامين ومثل ذلك في العديد من القطاعات كرجال المطافي ورجال الدين ومنهم المفتي والأئمة الخطباء والتعليم ومنها المبدعة للتلاميذ والبلوزة البيضاء للمربين وفي قطاع الثقافة كالممثلين وغيرهم وفي قطاع الخدمات الاجتماعية كأعوان التنظيف .

وخلاصة القول يمكن أن نستنتج أن الذكاء التونسي وعلى رأسه المخيال الشعبي يتميز بقدرة عجيبة في الدفاع عن هويته المتأصلة فيه عن طريق العديد من الطرق من بينها عمليات التنكر المتعددة وذلك كلما أحس بتهديد يمس تلك الهوية أو يحاول النيل منها أو مسحها أو تحويل وجهتها وقد يلتجئ لاستنطاق أشكال أخرى تبدأ بما نسميه التنوير الى التنكر وتنتهي بتخريجات عجيبة وطريفة ومبتكرة تماما كما فعل في النمط الثوري الذي ابتكره وهو قادر على صوغ نماذج واليات لا تخطر على بال أحد من أجل تجنب الزلات والخيبات والانتكاسات

قال الرَّاوي

- سكت المحدث قليلا ليستسمح سامعيه عن هذا التطرل في الحديث ثم أضاف

- أرجو المَعذرة سأَتَوَقَّف عند هذا الحد لقد نسيت انكم ضيوفي وانني مسؤول على سلامتكم ورفاهكم انس محتو ادعوكم الى تناول بعض المشروبات المستحضرة من مقهاي المجاور وساترككم تعبرون عن ارائكم وانطباعاتكم وملاحظاتكم رغم اني ما زال عندي ما اقول في هذا الصدد وغيره

تدخل القاضي المتنكر بعد ان تشاور ضمينا مع طاقمه قال وهو يتوجه لاصحابه

- اخواني الفضليات اخواني الكرام ما راىكم فيما استمعتم اليه

اجابت احدى المرافقات

- كلام جميل ومفيد

قال القاضي المتنكر

- ما رأيكم لو نطلب منه ان يواصل كلامه ليصف لنا ما يحدث في قريته وفي الاثناء نقبل استضافته لنا لنذوق مشروباته

نظر المتحدث في عيون الحضور وابتهج باهتمامهم لما يقول وواصل قائلا

- بالشفاء والعافية اخواتي اخواني في قريتي كل العسافير من فرط سعادتها ضلت ترفق من فوق خيوط الضوء و من فوق السطوح بلا خوف او حرج ثم عن لها أن تنزل من عليائها الى الشارع لتقدّم امامنا استعراضاتها كلّ صباح احتفاء بها توفّر في حيننا من أخلاق حسنة ظهرت بوادرها لدى اغلب الحيوانات المتعايشة معنا وقد شرع مبعوثو نشرات الاخبار المرابطين في حيننا نقل تلك الاستعراضات بالصوت والصورة لكافة المتفرجين سواء على شاشات التلفزات او على صفحات التواصل الاجتماعي بانواعها كما صدرت مكتوبة في صفحات الجرائد الورقية والايلكترونية لترينا كيف خرجت القطط من الزبالة لأستقبالهم وكيف أنشدت الكلاب أمامهم نشيد لجان الأحياء وكيف رقص الدجاج بين أرجلهم قبل دخولهم للحى هذا الصباح وكيف سلم عليهم البقر وبعض المعيز وكيف تهافت عليهم الذباب لتقبيلهم وكيف رحب بهم النمل وركضت على شعرهم الخنافس ولسان حالنا يقول تلك اثارنا تدل علينا

ثم اضاف المتحدث بلهجة جادة

- أما الإدارة لدينا فكل ما يقال عنها من نقد وانتقاد وتهجم وتبرّم هو باطل في باطل.

قال القاضي المتكرر بعد أن تصفح أحد الملفات الثقيلة التي كان يمدّه بها من حين لآخر طاقم المخبرين الذين تعمدوا مراسلته عبر تطبيقه الميسنجر على هاتفه الجوال المتصل بشبكة الانترنت المتنقلة والتي كانت مطابقة لما جاء على لسان المتحدث في باب استفيد والتي تقول بعض التقارير الواردة من اغلب الأوساط الاستقصائية أن الادارة في اغلب قرى ومدن البلاد اشتهرت بالتسويق والمماطلة والارتقاء وربما الترهل وكثرة المحسوبة وثاقم الرشاوى واستفحال الفساد فهم المتحدث ان هذا الضيف بالذات قد وصلته التقارير الصحيحة فاراد ان يتدارك امره

قائلا

- ان كل ما يقال عن ادارتنا كذب في كذب فما يسمّونه مماطلة وتسويق مرده محبة الادارة المفرطة لنا فكلّمنا قالت لأحد إرجع غدا فذلك معناه أنها لا تطيق فراقه وهو تعبير صريح عن اشتياقها له. فإذا ما منعت أن نمدّ أحننا برخصة فمعناه أنّها تريد أن يجهتد للبحث عن عمل آخر وبذلك تربيّه على التعويل على النفس وإذا ما أرهقنا بتعمير أوراقها الكثيرة فذلك لأنها تريد أن تعلمنا الكتابة وتعودنا على التحرير والتعمير الجيدين والسليمين أمّا ما تسمّيه الاوساط الموقرة رشوة فهو ودّ ومحبة واعتراف بجميل الخدمات إنّها هدية لكلّ من يتشجّع على تبسيط الأمور لعامة الناس وتذليل الصّعوبات لبعضهم وتطبيق القانون بأسرع ممّا تريده التّراتيب المعمول بها

وفي الاثناء التحق النادل بالمجموعة المتحلقة بالمتحدث ومعه طبق جرار عليه قوارير وقوالب مربعة ومستطيلة ومكعبة بالوان عدة وكؤوس ومعالق بمختلف الاحجام يظهر انه جاء بالمشروبات وبعد تادية التحية بمراسم عليا وافتك الكلمة دون تردد او استئذان قال برصانة وأدب

- أريد أن أكون صريحا وانا اوزع على سيادكم ما يرغب كل واحد منكم فيه من مشروبات ومربطات لا اخفي عليكم اننا كنا في المقهى نتابع ما جرى بينكم من حديث بواسطة بعض كاميرات المراقبة الموجودة في محل قيادة المقهى الذي يشرف عليه مضيفكم جناب عرفنا الميجل

الذي داب على متابعة ما يجري بشوارعنا التونسية لرصد نبضها يوميا وتعتمد الدخول أينما وجد التونسي بصفة عامة في الشارع في السوق في العمل في المحلات والفضاءات الترفيهية وكذلك في الاجتماعات العامة الحزبية وغير الحزبية أو في التظاهرات التي يشارك فيها وهذه تقريبا نتائج ملاحظاتي الخاصة فيها سأتناول على ذكر النقائص والسلبيات التي لاحظتها وأركز على اقتراح بعض الحلول الممكنة بقدر المستطاع اخذا بخاطر عر في الذي كرس كل جهوده لايجاد الحلول وعدم الاكتفاء بتسجيل النقائص وتعداد السلبيات من المؤكد ان هناك تعطيل حقيقي في أغلب مجالات العمل ناتج عن نقص في التكوين الناجع وفي المراقبة الوظيفية وناتج كذلك على غياب أخلاقيات المهنة وحتى الأخلاق بصفة عامة كما أن هناك كذلك استخفاف وجهل وربما كذلك تواطؤ مقصود من أجل ارباك الادارة التونسية

من أراد منكم أن يلعب فليلعب في المقهى والمقهى لا في الاداره ولا حتى في داره ولا في الشارع يكفي من الاستهتار والتخاذل والكسل والاستخفاف بالعمل الناجع كل ذلك يعتبر استهتارا بالعمل واستخفافا بالنجاعة ونقصا في الوطنية والوطنية لا تقبل المساومة من نوع كيف تريد أن أكون وطنيا وأنا جوعان أو فقير أو محقور أو مهمش نعم يمكن أن تكون فقيرا أو معدما أو مهمشا أو محقورا أو أي شيء وتبقى وطنيا ولا تبيع ذمتك ولا وطنك ولا بلادك بأي ثمن أو أي امتياز أو أي وعد لا يوجد أي سبب يسمح لك بخيانة الوطن بأي صورة كانت والتكاسل أو التسبب أو الاستهتار أو التخاذل أو أي شكل من أشكال الانخراط في شبكات الفساد هي خيانة للوطن وأبشع أشكال خيانة الوطن يمكن ان يصل الى الانخراط في الارهاب والتغطية عليه أو احتضانه أو تبريره أو السكوت عنه أو الدفاع عن مرتكبيه أو محاولة ايجاد مبررات لأي من اطرافه السلبية أو الفاعلة وكل هذه المواقف تعتبر خيانة للوطن جيل أبي ورث بعد الاستقلال وطننا مريضا هزيلا كما ورث وضع اجتماعيا مترديا في أغلب الأوقات ولكن صنع من ضعفه قوة وشيد وطننا وأرسى دعائم حضارة بجناحين هامين الأصالة والتفتح ولم يضع دينه ولا ثقافته بقي عربيا مسلما ومسالما مع من خالفه في المعتقد او اللغة او الراي ولم يمنعه ذلك من الدخول في الحداثة لا كمستهلك بل كمساهم فيها بالخلق والابداع والعلم تلك هي ملامح التونسي الأصل الذي لا نريد أن يتخلى عنها أبناؤنا و بناتنا نريدهم أفلاح منا ونريدهم أرقى منا ولا يضيرنا ذلك

بل سيكون ذلك مصدر اعتزازنا بهم وبأنفسنا لسنا في مجال صراع الأجيال بقدر ما ننشد التكامل والتواصل والاستفادة من تجاربنا صالحها وطالحها

واثر انتهاء النادل من تدخله قام من مكانه و توجه نحو القاضي المنكر وسلمه ملفاً فتح القاضي الملف واطلع على فحواه ثم اغلق الملف وسلمه لأحد مساعديه قائلاً

- احفظ عندك هذا الملف وضمه لوثائقك لننظر فيما جاء فيه في الابان

كانت بالملف المذكور وثيقة تصف ادارة هؤلاء بدقة وشفافية وفي جلسة استثنائية خاصة بالادارة عرض مساعد القاضي الرسالة وبعد التداول قررت المحكمة بالاجماع قراءة النص دون أي تحريف أمام الملء بالصورة والشكل الاصيلين دون تحريف او تبديل او زيادة او نقصان وقد جاء في الوثيقة ما يلي

بعض الادارات لا تخلو من العجب يوم من الجدفي عام من اللعب
 كم من وثائق ضاعت بعد أن وصلت أو أتلقت خطأ من سهو مكتب
 أو اسكنت علبة النسيان مذ ولدت أو في مخاضها ماتت دونما سبب
 أو أجرة عثرت فاخستل موعدها فأصبحت أملاً أقصى لمرتب
 ما بين مسترخص حيناً ومستتر أو ساهر في ملاهي الرقص والصخب
 جاءت به جثة أو صالها ارتجفت من فرط ما تعتعتها خمر العنب
 حتى بدت هيكلها لانته صلابته ولم يعد جهده يقوى على التعب
 أو بين معتذر جفت موارده أو حائر يلتجئ للّف والكذب
 و بين من جاء لا يلوي على أحد من فرط ما مسّه من شائط الغضب
 أو بين من جاء والتكحيل غايته أو بين محتكر الأكتاف والرتب
 أو بين كاتبة جاءت بقتتها تفصّل الفول تحت السّتر والحجب

أو تمشط الشَّعر والأبواب موصدة رغم الرَّقيب ورغم الشَّقِّ والثَّقْب
أو بين من تلفنت تروي مغامرة أو بين من ان طلبت الرِّقم لم تجب
أو حامل بطنها ضاقت بمكتبها أونافس همَّها ارضاع مرتقب
أو بين من شرَّد التخام طاقتها أو بين من أفرطت في نوبة الكلب
طول اللسان بها من خير ما كسبت تخصَّص الوقت كلَّ الوقت للشَّغب
أو بين من غقت في الدِّين عيشته فاندسَّ في مكتب خوفا من الطَّلَب
أو بين من يشتري خبزا ليأكله بالزَّيت والتَّسَنُّ أو سردينه العلب
حتَّى اذا حلَّ زوَّار بمكتبه ظنَّوه كفتاجيا في مطعم عربي
أو بين من باعها باللَّفِّ محقِّرا كلَّ القوانين حتَّى الوقت من ذهب
أو بين من يحتسي قهوى معتَّقة أو يشرب الشَّاي تعذيا لمرتقب
أو بين من غبَّ فاربدت ملامحه واغتاظ في حُدَّة قصوى بلا سبب
أو بين من حطَّ ساقا فوق مكتبه واجتـرَّ لوبانة في فكِّه الحرب
أو بين من جاء بعد الوقت مدَّعيا أن لوأتى الكار في الميعاد لم يغب
أو بين من أخرجت من صاكها قلما منه الشَّفاء بدت حمراء كاللَّسَّهب
لكي تسوِّي حريقا بات مضطرا ما بعد ما قبَّلت بعضا من الصَّحْب
أو بين من بالمني جاءت لتغرينا وتضرم النَّار في كدس من الخطب
أو بين من تدَّعي علما ومعرفة بكلِّ فصل من القوانين والرتب
حتَّى اذا جئتها تشكو لمظلمة صلدتكَ من أوَّل الأمر عن الأرب
أو بين من شاط فوق النَّار كسكسها في دارها فأنت تغلي من الغضب

أوبين فنيانة نامت بمخدعها ولم تفق من رقاد الزيف والكذب
 أوبين من أخلطت فانها لاصبعها ضربا على الة غصت من الغلب
 غدت تطرح الأرقام في عجل وتضرب الصفر في محصوله الخرب
 أوبين من أخطأت جهلا بناظمة ما كان حاسوبها أصلا لذي العطب
 أوبين من خنق السروال محزومه والحزق يبرز ما يخفى ويحتجب
 حتى اذا مال بين الناس ملتويا ترى القماش يجاري كومة الهضب
 أوبين من حملت للنار ما كتبت في حزمة جبلها في جيدها العصبي
 حتى بدت وهي تسعى في مسيرتها كأنها في الشقا حالة الخطب
 أوبين فتانة زنت بأغوية عن أم كلثوم أو عن عبد مطلب
 فأطربت جاراها المسكين واعتقلت منه الحجا فانبرى يلوي من الطرب
 حتى اذا جئته تبغي مساعدة وجدت بالاكما لو كنت في القيب
 اوبين كاتبة في شوقها اعتكفت تلهو بهاتفها في غمرة اللهب
 وتضرب الموعد المحموم في لهف كي لا تقضي المسا في غمرة الشغب
 وبعضهن تركن الشغل في عجل زرطين بحثا عن الخلاان والصحب
 ضاعت مصالحن ما بين مفتقر للخلق ديدنه التقطيع بالارب
 أوبين من خصص الاثنين كامله لبسط شوط وشرح اللعب في لب
 حتى اذا جاء بعض الناس مكتبه يظنهم كرة للقذف واللعب
 يبقى الثلاثاء موقوفا على صحف تأخرت عنه يوما بات كالحقــب
 والأربعاء حديث في معيشته وعن علاقاتها بالشمس والسحب

أما الخميس فويكند بلا جدل حتّى ولو لم يكن بالنّصّ والنّطب
يأتي الموالي وفيه القوم قد سجدوا قبل الصّلاة لدرء النّتب والجنب
والسّبب يبحث في الصّالات والسّنا او الملاهي بلا شك ولا ريب
لا خير في عمل يبقى بلا أحد ننسى به غمة الارهاق والغلب
يا ليت أسبوعنا يحوي باخره يوما نخصّصه للجدّ لا اللّعب
ما كان أسهل أن تحضى مشاكلنا بالحلّ في وقتها من أقرب الدّرب
إنّ القوانين ما سنّت لتمنعنا من حقّنا في جزاء الكدّ والتّعب
فان تأخّر دينار فقيمه تحطّ حتما بحكم الحال والنّسب
لذا قصدت لتوّي القسم معتقدا أنّ الزّيارات تشفيني من الكرب
كانت بمكتبها تلهو بمسطرة ماست بها يدها في غمرة الطرب
قلت انجديني فقد سوّفت حومتنا عاما وشهرين بالبلوّط والكذب
حتّى تذكّرت في التّمويه وانكشفت كوارطي لم أعد أقوى على النّصب
قالت تمهلّ فمن يصبر ينل عجا فقلت يكفي فقد أتممت بالعجب
قالت أنا ليس لي في مكتبي نسخ من القرارات ان تصبر أو انسحب
مهممت في خجل النّصّ عندكم لكن تلهّت بوضع الكحل في الهدب
مراتها حدّثتها عن حواجبها ووجنّتها وجيدلج بالذهب
جيد ونهدان في صدر يداعبه عقد به الله في تاج على قيب
وفوق ذلك طوق فيه صومعة بها التّقّي غوى كرها ولم يتب
وغار غصن التّقّي من قدّها ورجت قبيسة من سناها طلعة الشّهب

وهزّ كأس الطلّى شوق الى فمها ونشوة الدلّ أغنتها عن السعّب
كأنّما صبّت الزرقاء روعتها في طرفها أو زهتها سمرة السحب
غضّت شفاها ومصّتها لتطليها ودبّلت عينها في منتهى العجب
وصوّرت بسمه في وجهها وغدت تلاطف الشّعْر لم تمنع ولم تهب
قالت تدخّن قلت العفو سيّدتي قالست مدام أنا وقلّة الأدب
غادرت مكتبها والخوف يسبقني وركبة الشّاوش المأمور في ذنبي
الحمد لله لم أضرب عشيتها لذارجعت ولم أياس من الطلب
وقلت انستي أنّي لمعتذر قالت تزوّجت واغتاضت فلم أجب
حوّأنا اجتهدت في جلب ادمها وهذه جاءها زوج بلا تعب
نحيّت خاتم عرسي يومها غضبا وبعث جدّ اصله في بركة الذهب
وسرت في الحين للّواج مقتعا أنّ السّكوت دواء اليأس النّعب
وفي المحطّة كان الوفد منتظرا خلاص ديني ولكن لذت بالهرب
ورحت للدّار في غيظ وفي مرج ضربت مرقّ لفشّ الغلّ والغضب
قالت وفي صوتها الباكي معاتبة والأنف يقطر والعينان كالقرب
ماذا جنيت وقد حاولت جاهدة أن أصرف الال والمصروف في نصب
مذجئت دارك والأموال هاربة كأنّما جنّحت بالفعل للهرب
أنّ المرتّب لا يكفيك عائد رغم اقتصادي ورغم الضّيق والكرب
هذا اذا جاء في الابّان مواعده فان تأخّرت الأموال من يهب
قلت اقتنعت بأنّ الجيب منخرم حتّى ولو زوجتي جريّة النّسب

ذابت حساباتنا والصَّبْر ملجؤنا وموعد اليأس موعود لمحتسب
ضاقَت اداراتنا ذرعاً بما كسبت واتباناً منهم مَسَّ من العصب
همَّ الادارات اقْـلَاع وهَمِّه بَثُّ الرُّكُود وطمس السَّبل والشَّعب
ارجع غدا لا تقف بالباب معذرة اصعد بل انزل نشيد دائم لغبي
من فرط ما زرتهم دوماً بمكتبهم قد صرت أعرفهم بالاسم واللقب
أصبحت كالموقد الغازي بمكتبهم كالشرِّ كالسِّلِّ كالأعصار كالجرب
كم صرَّفونا وقد كُتِّا على عجل وكم رجعنا وكم عدنا على عقب
هم عَوَّجونا وقد كُتِّا بلا عوج ومزَّقونا وقد كُتِّا بلا ثقب
وفدَّدونا فألهبنا توَّتَّـرهم وأرهقونا ولم نرضخ ولم ننتب
لو كنت سيلاً أكيدا كنت أجرفهم أو كنت ناراً لكان البعض من حطبي
من بينهم ثلَّةٌ فعلاً تشرَّفنا والبعض وأسفي ما زال في السَّحب
وغاييتي من وراء الشَّعر مصلحة والنَّقد في نظري يشفي من العطب
والله أقسم أني صادق معكم وأنني قلت ما قد عشت من عجب
وما افترت وما أولت حادثة ولا اخترعت ولم أُلجأ الى الكذب
قال الرَّاوي

- وقد علمنا من مصادر موثوق بها أن القاضي طلب من المحكمة الموقرة نشر هذا النص في كل الصحف المكتوبة وغير المكتوبة كما قضى بتعليقه في كل الادارات وخلف وامام كل موظف وتسليم نسخة منه لكل اعوان وعملة الادارات بدون استثناء ووضع تحت الاقامة الجبرية كاتبه من أجل المحافظة على سلامته من كيد الكائدين كما قضت محكمة الشعب بفتح مجالاتها متنوعة لكل من له رأي او تدخل او نقد او اقتراح او عرض او تحليل او نداء مستعجل وتعهدت ببعث

لجان متابعة للنظر في القضايا المثارة ودراسة السبل الكفيلة بادخال الاصلاحات المناسبة عاجلة
كانت ام اجلة واقترح ان يتم ذلك بسرعة وثقل نجم النترون

الفصل الواحد والعشرون

قال الراوي

- وفي جلسة مطولة أخرى شرعت المحكمة في استقبال الوافدين تباعا وبدأ القاضي في تصفّح التّقارير والبرقيات المتساقطة على مؤسسته لحظة بلحظة عبر قنوات اتّصال حديثة ثمّ تركيها قبل دخوله للقاءة من طرف مهندسين مختصّين وكان كلّما انتهى القاضي من تصفّح الملفّ بسرعة المتدرّب الحاذق يحيل الوثائق لمساعديه بحسب الأوليّة والتّدريج المعمول بهما عادة عن طريق التمرير الاليكتروني الفوري الذي يحيل الملف بدوره لكل عضو من أعضاء المحكمة في نفس الوقت وبنفس المواصفات عن طريق ما اسطّلع عليه قانونا بالمنفّذ المأمور من طرف القاضي رئيس المحكمة ويدخول المتقاضين وقبل استئناف العمل انتفضت قاعة المحاكمة وارتجت أرضيّتها ارتجاجا متصاعدا رافقه شخير فزفير ثمّ أزيز فصفير ثمّ أجيج ثمّ سمع غليان في ركن من أركان القاعة تحوّل أصحابه من شدّة الخوف الى أماكن أخرى داخل هذا الفضاء الواسع والتي ضنّوا أنّها أقلّ حراكا وفجأة زادت شدّة اللّف وخيل للجميع أنّ زوبعة سونامي جديدة بدأت تقوم في تلك البقعة ثمّ لحق الزّوبعة غليان تناثر اثره غبار ثمّ تصاعد بعضه الى الأعلى حتّى خيل للدّاخلين والحاضرين معا أنّه بقي معلّقا في الفضاء لفترة محدّدة لكن سرعان ما غمرت الشّعلة مياه عاتية كأنّها تخرج من نافورة واختلط الماء بالغبار وقبل أن يتحوّل لطين لزج التهمت الخليط ألّسنة ناريّة بألوان تتراوح بين الأحمر والورديّ والأزرق تذكّر بنار الافران العملاقة وزمهريرها

ومع ذلك لم يشعر بعض الحاضرين الآخرين بضرورة الهروب أو الابتعاد أو حتّى الاحتماء بحاجز أو معرّض لقد خيل لأغلبهم أنّهم يشاهدون فلما ثلاثي الأبعاد بالألوان الطّبيعيّة ولم يمنع ذلك من مشاهدة بعض الضحايا والخسائر وكثير من المعاناة

قال بعضهم

- سبحان الله

وقال اخرون

- اَنَّ الله في خلقه شؤون

وقال اخرون

- أمر عظيم ما يقع الان ونحن على ذلك شهداء

واصل الراوي حديثه قال

- أصبحت بقعة الحريق كالمرجل تفور وتثور لتخرج منها سوائل برائحة كريهة ننته أزعجت الحضور لكن لم تدفعهم لمغادرة المكان من شدة ما قدّمت من عجائب وغرائب لا تخطر على بال أحد ورافقت الرّوائح مواد لزجة متغلّغنة منها ما هو في لون وشكل الدّم المتدفّق من الجروح البليغة ومنها ما يشبه القيح ومنها ما اتخذ شكل القيّ ومنها ما تشكّل في بشاعات وقذرات وفواضل ونفايات وأوساخ على كلّ لون وشكل وبأحجام مختلفة سالت واختلطت وتمازجت بعضها ببعض وبدأت تخرج منها أشكال وأجسام وأحيانا جثث ادمية مغمورة حيناً وحيناً بألوان وروائح كلّ ذلك الخليط البشع وكانت تظهر من خلال الدخان المتطاير من حين لآخر أشكال بشرية ملطّخة بكل تلك المواد والأمزجة والقذورات ومن تلك الأشكال ادمية جسم كان يحترق بنار زرقاء اللون مفرطة في الشفافية وكان صاحبها يمسك بيده المتبقية بقايا عربة خضار طار نصفها في السّماء حيث ندري ولا ندري ومن مخرجات الدفق ما تناثر ثم تراجع ليرسب في اليمّ من جديد فيدفع بلقشاش بشرية أخرى الى السّطح منها ما طفع وقد بترت او كسّرت بعض أعضائها ومنها ما برزت عاهته أو اختلّ توازنه حتّى بدا وكأنّه في مهبّ الدّق السّائل موجاً يهتزّ هزّاً بعضهم يتحرّك جيئةً وذهاباً وبعضهم يستقرّ حيناً من الوقت ثمّ يغيب ليطلّ من جديد في زاوية أخرى من زوايا المرجل كما كانت تظهر بعض الأيدي الماسكة لالات حادّة كالسّكاكسن والسّواطير والسّيوف ومن تلك الالات ما يشبه الأسلحة والقنابل وحتى الرّشاشات والمدافع الثّقيلة والخفيفة والمتوسّطة وتصدّرت الشّضايا اشكال ابدان برزن منها امرأة ورجل تشابكا وتماسكا لمقاومة شدة الدفع وكان كل منهما حريص على عدم فقد الآخر في زحمة ما كان يحدث

قال بعض الناس

- أنّها ثورة بحق
- ربّما نعيش انتفاضة أو ربّما هيّ تغيير للتّغيير
- ألا تكون بحقّ ثورة جديدة
- ثورة جذريّة
- ربيع عربيّ
- ربيع عربيّ
- أكيد أنّها بوادر لأحداث جديدة ربّما تكون غير مسبقة أو مسبقة من يدري
- إنه أمر سيؤثّر حتّى على مجريات الأحداث وربّما سيحوّل صيرورتها
- هذا شأن على غاية من الأهميّة لأنّه مرتبط بالكيّونة ذاتها
- هل تقصد أنّ هناك احتمال حصوله من عدمه
- لا أتحدّث عن احتمال الحصول أنا متأكّد أنّه حصل بل أقصد احتمال حصول نتائجه من عدم حصولها
- ألا يعتبر مجرّد ذلك الاحتمال في حد ذاته فرضيّة مهمّة
- بالطبع لأنّه يوفرّ فرصة نادرة للتّدخل قبل فوات الأوان
- قصد التّدارك أو التّعديل أو المراجعة
- وربّما درءاً للخطر أو منعا لمحضّور أو تبديداً للغيم أو ردّاً لكارثة أو اجتناباً لمكروه
- وربّما كذلك مجال مقتطع من توقيت الحسم ومعروض على الجميع لمُدّة معينة محدودة في الزّمان والمكان تتاح لهم فيها إمكانيّة واحدة للتأثير على مجريات الاحداث بما يروونه صالحاً
- أنت تتحدّث عن تلك اللّحظة القطعيّة التي لا تحتلّ التّدارك

- ولا تقبل التَّراخي أو السَّهو أو المhapلة أو سوء التَّقدير
 - وتتطلَّب القدرة على الحسم فإذا غاب العزم انتفى الحزم
 كانت تلك التَّدخّلات تأتي من هنا وهناك عبر ألسنة بعض الحاضرين والحاضرات من المتفرّجين

تدخّل القاضي الَّذي كان في الاستماع لما دار من حوار بين كلِّ هؤلاء قال

- لا بدّ أننا الان في سياق عربيّ محض

ثمّ استطرد قائلاً

- سياق عربيّ محض وربّما مزدوج برغبة منهم أو بدون رغبة منهم ويجوز أن يكون كذلك بغفلة منهم أو دون قصد لا أحد الان يدري أمر الانسان العربيّ عجيب

تحرك ذلك الادمي المصحوب بامرأة شبه ملتصقة به وقد تحطّيا الرّجّة وخرجا بأعجوبة من ذلك الخليط اللّزج المحروق واستطاعت المرأة أن تنزع ما علق بها وبرفيقها من أدران وأوساخ واستحماً بقطرات الماء المنهمر من جهة أوسط اليسار وتطيّباً بعطر التقطاه على السّمال ودأوى كل منهما ما كان به من عطب وبعد أن أشرّبت اليها الأعناق وأنجّته لهما أغلب الأنظار قال الرّجل بتواضع شديد

- إنّ الإنسان العربي وأنا منهم على ما يبدو في أغلبه لا يولي لهذا التمسّي الَّذي أنتم ونحن بصدد الحديث عنه الأهميّة اللاّزمة ولا الاهتمام المطلوب وينزع إلى ترك الحبل على الغارب والاستخفاف بالظّاهرة بل وأنا شاهد من أهلهم أذهب لحدّ القبول بالأمر الواقع بعناوين متعدّدة كالإذعان لما نسّميه المكتوب والقبول بالنّصيب ومثلاً من يدرج ذلك في خانة الخطّ السيّئ أو التّابعة كما يحلو للكثير منّا تسمّيها وكأنّ فرضيّة الفشل لدينا هي الأصل بل ونصل حتّى لقبول الاستهتار بالوقت الَّذي حرص أجدادنا على ضبطه وحصره وقيسه كما أسلف الحديث عنه بعض الشّهود منّ توافدوا على محكماتكم الموقّرة بقصد التّأكيد على الظّاهرة ورغم ذلك لا نغير له الأهميّة الّتي يستحقّ ونحن في الأغلب الأعْم نرضى بالخنوع وننتهيّاً للخيبة ونستعدّ للخسارة ونقبل التّناسي

استهزاء بالوقت واستهتاراً بقيمته لأننا في الأغلب سلبيو المزاج هلامي الأهداف فاقدو لمقومات النجاعة عديمو التنظيم بل قل أعداء للتنظيم أحياناً انبو الزعة متحوّلوا المزاج غريبو الطبع شأننا في ذلك شأن ما توصف به المجتمعات العربية في العديد من المدونات الموروثة والمكتوبة وحتى المشفّهة والتي تعرّض لها الكثير من المفكرين والمنظرين الذين استقبلتهم محمّتهم الموقّرة أمثال ابن رشد وابن خلدون وغيرهم كثر وهم على ما أقول شهود لذلك سادت لدى عموم الناس ممّا السّذاجة والسّطحية والعشوائية وقبلنا بالاستسلام للسهولة والاكْتفاء بالدّون وعدم الرّغبة الحقيقية في التّطوّر والتغيّر من جرّاء سوء التّقدير وهي حصيلة كارثية تشدنا للأسفل وتحبط عزائمنا وتقلّل من طموحاتنا وتطلّعاتنا وتغرس فينا التّواكل والتناحر والصّغينة وتشحننا بالمرّكبات والعقد وتحجب عنّا سبل الانعتاق الحقيقي والتحرّر المنشود وتقلّل من قدرات الإبداع لدينا وتكرّس في أذهاننا وتصرّفاتنا كلّ أنواع التخلّف والتزمّت والانغلاق وتجعلنا بالتالي فريسة سهلة للأطماع وربّها أدوات تطبيق عمياء لمخططات جهنّمية ودسائس إقليمية واستقطابات محلية وأجنيّة على حدّ السّواء

قاطع القاضي ذلك الذي كان منذ قليل مجرّد شبح يتلّولب مع ركام القاذورات ويسبح في بركة تلك الخزعة المقرّزة وكأنّ القاضي أراد أن يتدخّل ليعبر عن فرط إعجابه بصراحة المتناهية أو فرط امتغاظه من هذا العرض القائم لمجرّد وجهة نظر قال

- غريب أمرك أيّها الشّاهد كيف تتجرّأ على كسر حاجز الصّمت بهذه السّهولة وتعتمد من تلقاء نفسك لإذابة الرّيبة والخوف والتّنبّصل شيئاً فشيئاً من نير الاستسلام والرّضا بالدّون وتنشد الانعتاق والتحرّر معتمداً التّعبير بالكلمة الجريئة أحياناً والوقحة أحياناً أخرى ولا تجد أيّ صعوبة أو حرج في تحديّ العجز والرّقابة الذاتيّة والاحتراز من الآخر وربّما الخوف رغم تعوّدك على الكتبان كيف استطعت أن تحفر فيما يتّصل بإرثك الاجتماعيّ والثّقافيّ وتضع جانباً عكّازة الرّيبة التي تملؤك وتتجاوز المعهود والعادات والتّقاليد والمسكوت عنه بقطع النّظر على اتّصاله بك أو بالآخرين ممّن لا يعجبهم أن يفصح عمّا يختلج في نفوسهم خوفاً من فقدان سيطرتهم عليه أو فضحهم أو تحديهم أو تجاوزهم أو ما إلى ذلك من ضروب الدفاع عن الحاصل أو التّمسك الأعمى بالمكتسب لقد عبّرت بعراء وأيضاً بصدق عمّا اختلج في نفسك بشيء من السّهولة النّادرة

وقد كنت في أتون الخليط كيف استطعت أن تتطهر وتصل لهذا النقاء النسبي

قال الراوي

- بعد تلك الزوبعة ولأول مرة في تاريخ المحاكمات يقوم القاضي الجديد الجديد من مكانه على منصة القضاء ليتحول من تلقاء نفسه الى الواجهة الأخرى ويشرع في اداء جولة عجيبة غريبة بين جموع الحاضرين وكأنه يبحث عن شخص ما او شيء ما ومهما يكن من امر فان هذا القاضي الجديد الجديد قد قطع مع المعتاد وخرج عن المعهود وتحدى القوالب الجاهزة وحدث هو الاخر ثورة في تاريخ القضاء ولا أحد يعرف لحد الان لماذا فعل ذلك فهل تسأل الثورة عما فعل الثائرون بها او لما فعلت بهم فيما حدث اثناءها او اثرها

وحدث ان اقترب احد المواطنين من القاضي الجديد الجديد وهمس في اذنه بكلام يقترب من البوح وهو يسلم بين يديه وثيقة قيل انه حررها في بلاد الغربية باحساس المضطهد من حكم ما قبل ثورة الياسمين جاء فيها ما يلي

عايش مسكين غارق في الدين لكن فرحان عندي ال tété قدام الناس ديا لابس وابلش فلوس ديا مخصص شوف بعينيك حرك سنك تسمع في الناس اتقوال لابس من الله فالله ليل مع نهار والكذب جهار وانا مسكين عايش في الدين وهي تقول معصـــــــــــــور وانا ديا نقاسي عايش مقهور يا والله عجب شاهي الياغرط يقولو بنين ايجامنا ذوق البنا اللـــــــــــــــــــــوسي في الدار ونشرة لخبار اجهار بهار تحكي وازيد ليل مع إنــــــــــــــــهار واتقول سعيد اتقول سعيد اتقول سعيد اتقول سعيد

الفصل الثاني والعشرون

واصل الراوي قائلاً

- ما أن جلس القاضي في مكانه الجديد حتّى تقدّمت المرأة التي تمسكت بشدّ زوجها قريباً منها حتّى عندما كان يدلي بملاحظاته التي استحسنتها رئيس المحكمة وكأنّها ارادت ان تفرض نفسها هي الأخرى أمام الملاء بعد أن قذف بها قاع الرجل الى السطح هي أيضاً في فضاء هذه القاعة دون سابق علم كما فعلت ببعض الجماعة التي صاحبتهما قالت المرأة بشجاعة وهي تجابه كل الحاضرين بلهجة غير معهودة

- أنا وأعوذ بالله من قولِي أنا أعلى يقين سيدي القاضي أيها المستشارون الكرام أيتها المستشارات الفضالات أن كل من في هذه القاعة من رجال ونساء بما فيهم جنابكم وحضرات المستشارات ينظرون الي وهم يقولون في أنفسهم

- اننا نعرف عن هذه المرأة الكثير

قال لها زوجها المصاحب لها

- ينظرون اليك كما ينظرون اليّ أنّ ناس اليوم لا شغل لهم الا النّظر للآخرين لم يعد هناك أناس ينظرون في شؤونهم أو حتّى في شؤون أهليهم هي عادات ناس اليوم يا رفيقة دربي ونبع مشاكلي وشغلي الشّاغل

ردّت الزّوجة في الحال

- أقصد أنّهم يظنّون أنّي لم أتفطّن الى النّظرات الحادّة التي يوجّهونها لي بنهم شديد

- تحسّين نفسك الجازيّة المتخبّلة في شعرها

- لست الجازيّة ولا يهّمهم شعري ومع ذلك هم مهتمون بي أشدّ الاهتمام أنظر الى ذلك الرّجل الذي يجلس مباشرة خلف السيّد القاضي ألا ترى كيف يوشوش في أذن صاحبه ألم تسمعه

ماذا كان يقول له

- سمعته لقد قال له لا أدري أين رأيت هذه المرأة يُحَيِّلُ اليَّ أنِّي رأيتها في مكان ما

- وهل تعتقد أنه يعرفني بالفعل

- لا يمكن لأيِّ زوج في هذه الدُّنيا أن يجيب على مثل هذه الأسئلة بالسهولة التي تتوقَّعين يا مصيبيتي عفوا يا حبيبتني

- بالرغم من كثرة زلات لسانك المتعددة فاني سأغفر لك ذلك هذه المرأة احتراماً للرجولة لا للرجال

ثم أضافت

- قد عانيت منك ما يجعلني أبعج كل الرجال وبالأخص منهم اللذين لا يستنكفون استباحة أعراض النساء

قال

- أعراض النساء محفوظة في الأغلب الأعم

- أرجوك لا تتحدث عن أعراض النساء وأنت رجل فالرجال هم المتسببون في تشويه أعراض النساء وهم السبب في كل الحملات المغرضة التي عرفها تاريخ ألطف جنس في الوجود أنتم سبب بلائنا أيها الرجال الأفاضل

سمعها احد مساعدي القاضي فتدخل على الفور

- لا يمكن أن نتحدث عن أعراض النساء دون أعراض الرجال فقد رنا واحد لا يمكن لرجل أن يخون امرأة الا بحضور ومشاركة امرأة أخرى ولا يمكن لرجل أن يظلم امرأة ظلماً حقيقياً الا بمشاركة امرأة أخرى وببساطة شديدة يمكن للمرأة أن تتفادى ظلم الرجل بسهولة اذا ما قررت جميع نساء العالم عدم مشاركة الرجال في ظلمهم لهن ويبقى مفتاح الحل بيد المرأة والمرأة وحدها

أجاب الزوجة

- سيدي القاضي هذا حديث الرجال وللنساء وجهة نظر أخرى

ثم توجهت نحو المتدخل قائلة

- اسأل زوجتك المصون لا أريد أن أعبر عن رأيها مكانها

تدخل الرئيس المساعد وكأنه يريد أن يثبت وجوده أو ربما قصد تبرير موقفه مع زوجته

- هل هذا تهرب من المسؤولية أم نوع من رمي الكرة للفرق المقابل ؟

كانت الكثير من الأحاسيس والأفكار تختلج بداخل الزوج وأمام هذا الجمع الغفير وفي هذه الظروف الزمنية الغامضة كره الرجل المواجهة مع زوجته جهارا ربما تجنباً لاجراج القاضي أو ربما لاتقاء بلاء زوجته وعدم تمكينها من تسليط مزيد من بلائها على الآخرين من الحضور لما يعرفه عنها من تعنت واصرار هو لا يدري بالضبط كيف ينظر اليها الناس عموماً والرجال بالأخص وهل يستطيعون الامام بباهيتها بالسهولة التي يتصورها كل واحد منهم أما هو فله فيها رأي اكتسبه عبر فترات معاشرته لها واقترابه منها فهي في اعتقاده مزيج عجيب من مكونات هذا البلد العظيم وهي كذلك خليط مركب من تاريخه وعاداته وتقاليده وخلاصة ذكية للأنباط السائدة فيه وأنموذج طريف لما يمكن أن تكون عليه المرأة في هذا الوطن الأمين فهي في نفس الان لويبة الشعر فينيقية العينين قرطاجية السحنة بربرية الابتسامة عربية الطبع أندلسية السلوك هلالية المزاج تونسية التركيب بصفة عامة تستمد شموخها من جبال الجنوب ولطفها من عقب الزعر وروح الخزامة أما أرميحتها فمن خضرة سهول الشمال ونقاوتها من نقاوة المياه المتدفقة من تلال غابات الأطلس تذكر نبرات صوتها ببراءة ونقاء فنون الأندلس العريقة لكنها تبقى في كل الحالات تلك المرأة اللغز وتبقى عصية التحدي رغم كل شيء لقد سمع عنها قبل أن يراها ولما استمع الى صوتها أيقن أنه في محراب البراءة وخيل له أول مرة أنه يتحدث إلى امرأة فشل الزمن في اغتصاب طفولتها منها ثم راها على حين غرة صدفة وبدون تقديم ورغم بساقه قدها السرولي المشوق استطاع أن يركب ذلك الصوت الملائكي الأنيق الذي سمعه منها على أنافة جسم هذه الفتاة لقد شغفت لها رقتها وساعده في ذلك لطفها ونقاوة حضورها ودون عناء استطاع أن يعرفها

بدون سابق إعلام ولما قابلها فيها بعد وجها لوجه خيل إليه أنه يعرفها منذ سنين وقبل أن تنبس ببنت شفة اكتشف أنها تستطيع أن تفصح عن نفسها من خلال إفراطها في التكنم كما اكتشف أيضا أنها لا تستقر أمامه أبداً بالقدر الذي يتخيله فهي موجودة في كل مكان وغائبة عن كل مكان في نفس الوقت تحضر معه فلا يكاد يراها إلاّ عندما يتيقّن أنها انسحبت وبقى طيفها في شبكة عينيه شاهداً على مرورها وربّما دليلاً على تبخّرها أيضاً. فإذا حاول القبض عليها وحرص على إثبات حضورها والتزم برصدها فإنه يفاجأ بأنّها

تأتي كطيف في شروود لتقول ذاهبة ولكن سأعود
وتلحّ في ضبط الوعود تأتي وتذهب كي تعود
وقد تعود ولا تعود لكنّها تأتي وتذهب من جديد
وتغيب عنك بسرعة وتقول كانت ها هنا
وتحسّ أنّها هاهنا لكنّها ليست هنا
بحضورها قد تستهلّ غيابها حتى اذا غابت فان غيابها
هو الشروع الحقّ فــــي بدء الحضور.

اعتاد معها على هذا النسق المتحرك لكن تواتر رؤيتها شدّه إليها وطبعه بلا مبرّر تماماً كاللقطة الإشهارية أو اللومضة العابرة التي تتكرّر بسرعة فائقة وتواتر مذهل وتعاقب شبه آلي حتّى تجعله يحتزن حضورها في ذهنه ويترقّب دون أن يدرك السبب وترسب صورتها في ذاكرته رسوباً خطيراً ويراكم ذلك الرسوب حتّى يصبح غيابها حضوراً في الذهن وتستقرّ فيه عنواناً مجرداً وقيمة معنوية فإذا حضرت وتأكد أنّها أمامه وخطر له أن يلعب معها لعبة التمعّن في تسجيل حضورها انتقاماً لنفسه من شعوره المفرط بغيابها المبرّح الذي استفاق عليه وقبل أن يتجرأ على البحث لنفسه عن دليل ماديّ يؤكد تخيل جسمها الآن وهنا وقبل البدء في محاولة استحضار عملية التجسيم يبدأ في محاولات اقتطاع الفضاء الممكن الذي يتيح استقبال طيفها واستحضار الحيز الزمني الذي يمكن له ان يسع ذلك الاستحضار لمدة معينة ليقتنع لحظة استفاقته أن استنتاجه

المباشر بتجرب إدراكه في متاهات الرؤيا القاصرة التي لا تستطيع أن تضبط لنفسها المجال الكافي للاستيعاب إلا من خلال ذلك العنوان المجرد وتلك القيمة المعنوية التي حصلت لديه فإذا ما أصر على تجسيم حضورها وشرع في تجميع الأدلة للإحاطة بحدود ما يشاهد فإنه يبدأ رحلته المضنية مع لعبة الظلال والأضواء في عالم جديد غريب طريف ناعم التجليات غير مضمون لما فيه من هلامية وغموض وتناقض وعدم استقرار ويستفيق من عناء بحثه عندما تنقشع الأشعة وخيوط الليل فجأة عنه لتسقطه في واقع مربعة الأول بنفس الرصيد الذي تركه فيه غيابها ويتيقن حينها أن حضورها كان تهية جادة لغيابها وأن غيابها دليل على حضورها وتبقى تلك المرأة في كل الأحوال طيفا جميلا يركب صهوة الخيال لضيق الواقع به وعدم قدرته على الاستيعاب ولا يستقر إلا في خدر الذاكرة دون استئذان.

وبمجرد أن تتاح له فرصة لقائها يكشف أنها تصعد به في حديثه معها الى محراب الشعر الصامت النقي تارة وطورا تطوف به في ملكوت الأدب الواسع ثم فجأة تختطفه معها لتركبه صاروخ المعرفة العلم فإذا بالرسوب المتراكم فيه يفيد يقينا أن هذه المرأة كأغلب النساء في وطني بارعة في القفز من سياق المعاني المعرفية بلا استئذان فمن قلاع اللغة إلى أروقة اللهجات المحلية ومن مربعات الكلمات المتقاطعة الى طلاس اللعب على اوتار الصفات بلهجة الحدود والعهود في ما يسمى بالطلاغات أو التشنشيات لتضعك في أرجوحة طلّع تريح ومن طلّع تريح الى تقاسيم معزوفة الألحان وترانيم القوافي ولا يلبث أن يستسيغ النغمات حتى تلقي به في أزقة الخرافة ومتاهات السياسة فيجد نفسه حيناً عبر طقوس الثقافة وحيناً في نفاق الأسطورة الأصل أو تجاعيد الرسوم ومن تجاعيد الرسوم إلى أمواج الألوان ومن أمواج الألوان إلى خانات الخطوط البيانية وحسابات الأرقام ومن لغة الإحصاء والضبط إلى متاهات التحليل والتركيب ومن ترابط المنطق تحلق به في فسحة التأمل والتفكير ولا غرابة أن يجد نفسه بعد كل ذلك في بحر الحلم أو انسياب نغم التجلي وهو يسبح تارة ويحلق طورا معها بلا حدود ولا قرار ولا سقف وعبر كل هذه اللوحات الفسيفسائية المتنوعة لا يشعر أبداً بالاغتراب يؤنس ذلك القاسم المشترك الواحد الذي يقدمها له في قالب موسوعة متحركة بدلالات متعددة ومتنوعة تحتزل مضامينها من خلال بطاقة تعريف الإتيان المطلق وملفات البراعة الأم التي تدعوه للإيمان بها واحدة مفردة ليس

كمثلها امرأة في منظوره هو وتستقرّ به في وطن المعرفة المفتوحة على مصراعها بلا حدود لتسكنه الفضاء الرّحب ويراها به دائمة الحركة متواصلة الاتّساع وفي لحظات ما تسية حدوده وترفع عنه ثقله وتمكّنه من التواصل معها في القفز المرتفع الى الأعماق حتّى إذا أحسّ بالاطمئنان في واقعه الجديد تسحب من تحته بساط واقعه في لحظة غفلة وعلى حين غرة تفرض عليه واقعا جديدا آخر تختاره بنفسها له بشيء من العفويّة الحادّة وكثير من الشّغف والإيثار بما تفعل دون علمه ولا مشورته وتدخل فيه بلا استئذان لتملأه وعيا بذاته الجديدة وبالنّاس الآخرين وبالأشياء التي كان لا يعيرها اهتماما من خلال أدائها لدورها المشحون بالتلقائية المدروسة والعبقريّة المتواضعة الكتوم التي تنزل إليه بأجنحة استعلائها وتسمرّ أمامه بنواشين أبتها وجبروتها الحليم ولا تعطيه فرصة امتلاكها بالقدر الذي يريد ويبقى معلقا بين نية إفصاحه بما يختلج في نفسه وجبروت ما تراه عيناه وبين اقباله نحوها واحساسه بهروبها المستمرّ منه ومن غيره يبدأ رحلته مع التّأرجح بين البين بين والبين بين وان تجاسر ليثبت حقيقة ما شاهد وهزّه حين الفضول إليه وأحسّ أنّها امرأة بالرّغم منها ومنه وأنّها إذا حدثت غنّت وإن سكنت سبت وإن ضحكت أغرت وأغوت إذا مشت ما يلبث إلّا أن يفاجئه رجع ما كان يرّد ليكشف له عن وجود جدار صدّ سميك يمنعه من التّجاسر على إيصال صوته بالقدر الذي يريد وفي اللّحظة الصّفر يرتدّ لحظه وكأنّه يتهاوى للسقوط دون أن يحرك ساكنا أو يجد وقتا للفهم. وإذا ما دفع بها في لجج العواطف الحارقة تذكر تجربتها المرّة مع الأيام وتستجمع كامل قوى وعيها لتعبر بكلّ ما أوتيت من قوّة عن عمق أحاسيسها وكأنّ لسان حالها يصرخ في أذنيه

- لا أحبّ لا أحبّ لم يعد في الصّدر قلب

ولا تغفر له لديها دموع أو استجداء أو توسّل أو ركوع أو ملاحقة أو هرسة أو تشنّج أو مساومة أو تهديد أو خبث مقنع أو إغراء مدروس فهي لا تريد أن تعيد تجربة قراءة ما بقلوب الآخرين حتّى ولو تعلّق الأمر بزوجها وترفض أن تقف عند أهواء أو أهوام أو تصوّرات أو أحلام أو نزوات أيّ رجل ولا تنطلق من عواطفهم أو أحاسيسهم أو تطلّعاتهم أو أمانيتهم أو تخطيطاتهم ولا تستمع في ذلك لتأثير أو هدي أو رجا أو توجيه أو إنذار أو تهديد ولكن عندما تحرّكها عاطفتها تنزل على من تحبّ كالعاصفة وتخرج مخالب الجرأة والتّحدّي وبدون سابق إعلام

لتعبّر بطريقتها العذبة عما يختلج في صدرها من أحاسيس تتأجج صدقا وتضح إرادة وإيانا وهي لم تفعل ذلك إلا مرة واحدة في حياتها معه هو بالذات وتلتزم بقرارها التزاما يقينيا لا تنزح عنه أبدا

هي تلك المرأة الإنسان في طبعها وطبيعتها استطاع أن يتأقلم معها في صمت وخيل له أنه سر أغوارها فتتعلق بتلابيب صداقتها وعندما يخيل إليه أنه ينصهر فيها ذهبت إليه يرمي به صمتها إلى الوراء وربما يحطره لحظتها بأنه أخطأ الطريق مرة أخرى ويكتشف أزقة جديدة في ثناياها تسير به إلى خارج المنطقة الحرام لتعيده إلى نقطة البدء عندها يصدق أن هذه المرأة الإنسان ما زالت عصية بعيدة كل البعد عن لبس الخلط والزينة وشوائب الزيف أو زحف الخيال أو زوائد المشبوه فيه فهي تلك المرأة الإنسان المتأصلة في قانون إنسانيتها الصّرف لا تقبل الانقسام ولا ترضى بالتقسيم ولا تستسيغ الانشطار ولا يمكن لها أن تعيش غريبة عن كليتها وقد تشبّت بهذا التوجه لحدّ التّكرّر لمبدأ المسالة أو المهادنة فالأسود أسود والأبيض أبيض ولا توجد منطقة وسطى بين هذا وذاك فهي لا تريد أن تعيش شقاوة التأمل المضني ولا فجعية التنازل الطّوعي ولا تريد كذلك أن تعيش عمليّة الأخذ بالخاطر وان فعلت فلا تضمن لأيّ كان المواصلة لأنّها ترفض أساليب التّعسف حتّى ولو كانت مبرّرة وتكره الضّغط حتّى ولو كان مشروعا ولا ترضى الاستنقاص حتّى ولو جاء عن جهل أو نسيان ولا تهادن مع مغص التّدرب أو تأرجح التّرقّب أو ثقل الانتظار ولا تقبل بالكذب قناعا ولا بالصدق المؤقت أو المركّب بديلا خوفا من أن يغطي الأصل ويزيف الواقع بل لا تقبل بالأفئدة إطلاقا إلّا في التّمثيل الحقيقيّ المباشر الواعي والحامل لرسالة مقدّسة لأنّها ترى أنّ الحقيقة تأبى أن تتسرّر بالأفئدة فهي بقدر ما تعترف بقناع الحقيقة فإنّها تكره حقيقة القناع وتتفرد بهذه الفلسفة فتحدث ارتجاجا في الذات المسالة الوديعه وان جاملت فلفطرة وجيزة تمهل الآخرين فيها مسافة التّمثّل السّريع والاستيعاب المنشود فان لاحظت تباطؤا تجذب من التّحت بساط المجاملة ولا تنتظر لأنّها لا تؤمن بالتوقّف المفروض عليها ولا تعترف بالرتابة ولا تستسيغ الغباء فهي المغامرة الشّجاعة المتحدّية على الدّوام لا تتراجع إلى الوراء ولا تخاف من المفاجئات ولا تستنكف من التجدّد ولا تحشى المجهول ولا تستكثر على نفسها التّعب المضني شريطة أن يكون خصبا. وهي في كلّ ذلك تصرّ على تحديد أهدافها وتستمرّ في بحثها عن المطار الذي تنزل

فيه عن طيب خاطر لأنها تكره الهبوط الاضطرابي ولا تبحر إلا إذا حددت الميناء الذي سترسي فيه قبل سفرها بحسب رغباتها ورغباتها محددة مقدسة لا لبس فيها ولا تذبذب ولا نفاق ولا مروق وقراراتها ثابتة واضحة راسخة مستقرة لذلك تحب التأني ولا تخاف من الترقّب فهي تتقن الخريشة على أوتار الوقت بمهارة وتصنع من ضجيجيه معزوفة تملأ بها فراغ الانتظار وتركب على عجلات الزّمن الهارب بثبات بل تسخرّ الجلبة التي تحدثها دوامة الحراك المجنون لتزرد منها فساتين الطّمأنينة وجلايب الهدوء ومن ضوضاء واقعها المرّ تصنع طوق نجاتها متحدّية كلّ الأعاصير مستقرّة في تحوّلها متحوّلة في استقرارها تلبس برقع الصّقيع في آتون اللّطى وتجعل من اللّهب الحارق ربوة تلج تجلس عليها وتقتات منها أحياناً تماماً كما يفعل الطفل مع الجيلاط في حرّ الصّيف وتستطيع في كثير من الحالات أن تأكل من جوعها وتجعل من عريها ستره تتدثّر بها من صقيع الاستفزاز وبقدر ما تتكسّر شظاياها من الدّاخل بقدر ما يكثر تماسكها وفي خضمّ التناقضات تصنع الوفاق وأخطر ما يميّزها أنّها تأخذ من قوتها لتؤثّر ضعف من حولها وتسخرّ رشدتها لترميم بلاهة الآخرين ولا تعول على أحد إلا نادراً وان فعلت فبتأن شديد وتؤدّة مدروسة والتزام ثابت وتجلس على أريكة الإباء في خضمّ الزّلازل وتستوفي عظمتها باسترجاع توازنها في الرّبع الأخير من الحصص الإضافيّة وقد يصعب على أيّ رجل أن يجرأ على الادعاء بمعرفتها بهذه السهولة المفرطة لذلك بدا على وجه الرّجل فضول متابعة الموقف عن كثب لعله يظفر بعنصر لم يتفطن اليه من قبل أو يكتشف مقاربة غابت عن ادراكه يستكمل بها محاضر بحثه المتواصل لاكتشاف هذه المرأة التي وجدها يوماً في حروف كتابه كرها وطوعاً ولا يستغرب أن يجد في النّهر ما لا يوجد في البحر

كان الرّوج يعتزم التّدخل وكأنّ زوجته أرادت أن تقطع حيرته بخصوص عشرته معها أو ربّما أرادت أن تحوّل وجهة نظره عما يخلج في صدره قالت مخاطبة سيادة القاضي

- سيدي القاضي أنصح زوجي بأخذ حذره مني فإنّ تركيبتي تشبه تركيبة صوفونسب قال

القاضي

- وما دخل صوفونسب فيك

- سيدي القاضي صوفونسب في كل امرأة من نساء هذا البلد وهي أم أغلب النساء في هذه الأرض الطيبة وأنا امرأة من هذا البلد.

وفي رمشة عين وجدت الزوجة نفسها مرسومة امام احدى المراتب المثبتة على احد جدران الجهة الامامية من قاعة المحاكمات واحست كأنَّ الزَّمن صار يلف بها لُفًا متسارعا يشبه لَفَّ الاشرطة السينمائية القديمة ايام كانت الافلام يخترقها الضوء من الخلف ليفضح ما فيها من اخيلة على السطح الابيض الامامي

خيّل لها انها ترى امامها صوفونسب في جسد تحول بسرعة في شكل جسد أمّها الذي كانت تراه وتلتجئ اليه وتمتعن فيه وتحنّ لرؤيته واحسّت أنّها تتخاطب معه وتتفاعل مع صور وافكار لم تحامرّها الاّ الان واحسّت أنّها دخلت في سنة تأمل غزليّ اختلط فيه الشوق لامها بالتأمل في جسدها الذي خيل لها انها تتمعن فيه لأول مرة فانبرى لسان حالها يقول

- منك لي امّي هدايا ومزايا وخفايا
صدرت منك الـيّي لم تزل ساكنة فيّي
وانا لم أعط شيّا ما عدى بعض الكلام
او شظايا من خصامي عندما ينسدد قدامي
طريق او افــــق عندما يجتاحني بعض القلق
وتعيش العمر اّمّا وشهيد حية ترزق من طعم القصيدة
وارى امّــــي سعيده كلّما جئت اليها
يكتم الحزن احمرار ساكن في وجنتها
كلّما جئت اليها تضع البشر على كفّي يديها
ودموع العين تغزو مقلتيها هي امّي وأنا كلّ اليها

ما استطعت أبدا احصاء ما نلّسته منك من عطايا
ومزايا وانا لم اعط شيئا ما عدى التّحايا
عندما أطمع في أخذ الهدايا كل ما فيّ جميل ونبل
وجليل هو من امي هديه كل اعماله خصاله ومفاتيح فضالي
كل طاقاتي وصبري واحتماي كل هذا العزّ في كلّ ما كان ومازال اليّ هو من امي هديّه
كلّما غابت عليّ فجأة تسكنني في الحين وحشه برشحه برشحه واران في المرايا

جسدا ميّزه وجه الشبه منك أممي والوله قسماي وصفاتي والملاحم والزّوائج همساتي
وانتكاساتي انفعالي وكثير من خصالي بل أرى جسمك قدامي على سطح المرايا يتحدّثني امامي
أنظري أممي لذقني ثمّ جفني ويديّ انظري امي اليّ كلّ ما فيك اراه الان في أيّداك أم يدايا
بل كثير منك في جسمي أمامي في تفاصيل جديده وفريده عبر صمتي ثم القاك بصوتي في
ابتساماتي واهاتي وزلاّت لسانسي كلّ توقي والأمانى بعض ما فيك لديّ هل سكنت
الان فيّ ام سرقت الوجه منك والمحيا بعض وقت ام انا احلم لا لا بل يقينا لن تموت الام
فينا انت في الباطن حيّه أنت في كالسّناء كالضّياء تتحدّثن الفناء بسمه الوجه بريق وطريق
مؤنس كالمحضنه كالمدفاه أممي أمن أممي حصن هل سكنت الان فيّ أم سرقت الوجه منك
والمحيّاة بعض وقت ام انا احلم لا لا بل يقينا لن تموت الام فينا انت في الباطن حيّه كالسّناء
كالضّياء تتحدّثن الفناء

تفطن الزّوج لذهول زوجته وغايبها الفجائي عن المشهد فتعجّد حشر تدخّله في اطار التّعظية
انقطاع صلتها الفجائي رغم شبه الحضور قال متوجّها لجناب القاضي
- سيّدي القاضي بعد اذنك أعرف أنّها امرأة

وقبل ان يكمل حديثه استرجعت زوجته حضورها فرضا وقالت بنبرة المتحدّية
- سيّدي القاضي اسمحوالي أن أقول لزوجي لا تقرب من المناطق الحمراء فيّ حتّى لا اضطر
الى تنبيهك

قال الرَّوَّج

- سيدي القاضي أنا على استعداد لتقبّل تنبيهها

قال القاضي مخاطبا الرَّوَّجِين

- واصلا حواركما أنا أكره وضع نفسي بين الظفر وطرف اصبعه

حينها توجّهت الزّوجة نحو زوجها وكأنّها أرادت أن تذكّر الجميع بأنّ ما شاهدته منذ قليل من تشابه كبير مع امها هو ارث قديم لصوفونسب لا دخل لها هي فيه وان ما ورثته من امها يمكن ان يكون فيه الكثير من جدتها الأولى صوفونسب قالت

- يا زوجي العزيز أرجوك لا تستغبني

- حاشى أن أستغيبك يا عزيزتي كوني كما أنت فأنت لست بحاجة لاستبطان امرأة أخرى
مهما كانت أهميتها لا شيء الا لأنك امرأة بالفعل وربما امرأة ونصف وربما أكثر واقرب منها
ليقول لها أمام الملء

- أنت اختزلت نساء الكون في امرأة وكنت مفردة في حالة الجمع

فأجابته في التّو وعلى وجهها تقاسيم ابتسامة لطيفة

- وصغت كلّ رجال الأرض في رجل فكنت أنموذجا في مستوى النّوع

وكأنّ القاضي تفتّن الى عمليّة تبادل سرّي لوثيقتين مكتوبتين أولاها صادرة من الزّوج الى زوجته والثّانية صادرة من الزّوجة لزوجها تمّ تسريبها خلصة بينهما دون أن يتفطن أيّ من الحضور لعمليّة التّبادل الا جناب القاضي الذي أمر سرية التّجسس باستجلاب الوثيقتين من الزّوجة والزّوج بالطرق القانونية دون أن يتفطنا ولمّا جيء بالورقتين أمر القاضي أمين السرّ بمده شخصيا بالرّسالتين.

أطلع القاضي على الوثيقة التي حرّرها الزّوج لزوجته وقد ورد فيها ما يلي

لماذا عليّ تزيين أنت وجهك يـقـتـلني قبل موتي

فمذ جئت أهديت قلبي إليك أكلته أكلًا ومنه شـ
وصبري عليك جهاد كبير وحتى حديشي ضياع لوقتي
أحاول أن أرتقي بالحياة فيخذلني باصطحابك بختي
ويمنعني من صعود المراقي وأفشل طبعًا إذا ما نجحت
فحضنك قبر وحبك جمر وصوتك قهر وأمر بكبتي
وخيرك شرّ وصفحك غدر وحلمك مكر يؤدي لمقتي
وقربك هجر وحلوك مرّ ورفقتك الحقّ زفت بزفت
سمت تنطّعت ثرت رفضت ولم أتبرأ ولا أنت تبت
وأجبرتني أن أعيش كئيبًا وأوج المصائب أنك مرتي
صحيح خسرت حياتي ولكن كذلك أنت الحياة خسرت
وأخطأنا أنني قد صبرت عليك وأنتك عتي صبرت
وأجمل ما قد جنينا البنون مزايك أنك أنت الولدت
وأنّي الأب البرّ رغم الماسي أفاسي الأمرين لكن بصمت
لقد سقت هذا القصيد إليهم ليتّفظوا قبل حسم وب
واطلع القاضي على ردّ الزوجة الذي جاء فيه ما يلي
لقد عشت عمري أعطي وأرجي فصرت مثال الرجا والتّرجي
أعيش بدوامة الحزن عمرا حلمت به فاستحال لمرجي
لقد خاب ضمتي فيك مرارا وقد وصل اليأس منك لأوج
وجهلك يقتلني قبل موتي وأوج المصائب أنك زوجي

فمذ جئت أهديت قلبي إليك أكلته أكلا وحاولت مجي
 كأنك مستنقع العمر فعلا بمستنقع العمر حاولت زجي
 وصبري عليك جهاد كبير أقوم فتقتلني وتسجي
 وصار حديشي ضياع لوقتي كأن الضياع المكان المنجي
 أحاول أن أرتقي بالحياة فتخذلني وتحطم برجي
 وتمنني من صعود المراقي وأفضل طبعاً ويسهل رجي
 فحضنك قبر وحبك جمر وصوتك قهر وسدّ لنهجي
 وخبرك شرّ وصفحك غدر وحلمك مكر يؤدّي لرجي
 وقربك هجر وحلوك مرّ أنا لست سرجك لأنت سرجي
 سئمت تنطّعت ثرت رفضت ولم ألق حلاً لكبتي ومرجي
 وأجبرتني أن أعيش جحيماً وأوج المصائب أنك زوجي
 صحيح خسرت حياتي ولكن كذلك أنت ولا من منجّي
 وأخطأنا أنني قد صبرت عليك وأنت توخّيت نهجي
 وأجمل ما قد جنينا البنون مزاياك أنك ما زلت زوجي
 وأني أم برغم الماسسي أقاسي الأمرين بل ذاك حجّي
 اليك أسوق قصيدي اتعازا فلا تحسمي البتّ رغم الترجي
 ضحك القاضي بعد أن استكمل قراءة القصيدتين وقال في نفسه

- ما أروع صبرهما على بعضهما ونظر للزوج ثم للزوجة وكأنه يريد منهما أو من أحدهما
 تأكيداً يطمئن به قلبه فجاء الرد على لسان الزوجة قالت

- سيدي القاضي ليس المشكل في او في زوجي بل في المؤسسة الزوجية برمتها التي جعلت الزواج كل زواج تقريباً مشروع طلاق!

ثم اضافت

- سيدي القاضي الطبيب والمرضة والميكانيكي والمهندس والسائق والمدرس وعامل التنظيف والمربية والطيار والرسام ومسير ادارة او منشط مجموعة او رئيس قسم او مدير مؤسسة او مشرف او اي مهنة او مهمة او وظيفة تحتاج إلى تعليم وتدريب مهني وإعداد وسنوات دراسة ودبلومات ودورات رسكلة وتدارك وربما لإعادة تدريب وكثير من الخبرة الا الزوج أو الزوجة ثم نظرت الى زوجها ففهم انها تستنجد به فقال بعد ان اسادن من القاضي

- سيدي القاضي لا شك ان زوجتي على حق وانكم تعلمون اشد العلم ان الزوج أو الزوجة مسؤوليتان مهمتان تتطلبان قدرًا كبيرًا من المعرفة مثل العامل الصحي وكثير من الدقة والمهنية التي يجب ان يتحلى بها الطيار وقدر من المعرفة التي تتطلبها مهنة المعلم وفيها من براعة المهندس الكثير كما تتطلب المزيد من الحكمة والصبر والدراية التي يتحلى بها عادة المدير أو قائد المجموعة أو رئيس قسم أو اي مسؤول اخر ولا شك ان العديد من التقنيات والبراعات والاختصاصات تشابك في وظيفة الزوج والزوجة اضع الى ذلك ما تتطلبه وظيفة كل منهما من مسؤوليات وربما اختصاصات نوعية دون أي إعداد مسبق وبدون أي تدريب وبدون دراسات وبدون شهادات وبدون سابق اعلام احيانا ودون خبرة ونسأل أنفسنا لماذا يتحول الزفاف في العديد من الحالات وفي جميع أنحاء العالم إلى إخفاق تام؟

تدخلت الزوجة قالت مؤكدة

- سيدي القاضي الموقر لا يخفى على جنابكم ان الزواج ليس جزءاً من الحياة إنه الحياة نفسها! لهذا السبب علينا إعادة التفكير بجديّة في الأمر حتى لا يكون الزواج مشروع طلاق

حينها تاكد جناب القاضي انها يعيشان الزواج بصمت واع وكان لسان حاله يقول متحدثاً عن هذا الزّوج وزوجته

- يجوز أن يحول صمتهما مأساتهما من مجرد تعايش سلمي الى سعادة زوجية من تصميمهما كما يفعل المبتكرون عندما يحولون خرق القماش المبتذلة الى تصاميم لأزياء تصبح تحفا تجعل من أتعابهم أثرا يخرق التاريخ ويسكن الأزل ويملا الذكر وكأن الزوج قرأ ما يختلج في نفس القاضي كما تنبه القاضي اللبيب بما يحس به الزوج نظر اليه وكأنه يستحثه على استكمال ما يريد أن يقول فقال الزوج وهو يتوجّه لكل النساء من خلال زوجته

- شكرا لك ولكل نساءنا ماذا كان يفعل أشطر الرجال لولا كنّ يا من تلدننا صغارا وتعدن ولادتنا كبارا من جديد ونكبر تحت رعايتكن لتصنعن منا دروعا من نسجكن نتوهم أننا أصحابها ولا نستفيق إلا عندما يتملكننا الخجل من عجزنا أمام عظمتكن عندها نستعيد وعينا التائه منا لنتيقن أنكّن الأصل وأننا بلا كنّ لا يكتمل صنعنا.

الفصل الثالث والعشرون

قال الرَّاوي

- ولان الفكرة هي ام الكلمة حرصت ان أستمع لجميع التَّعليق التي قالها بعضهم وأتذكر أن كثيراً منا خامرته الرغبة في التعليق ولم يفعل لأني سبب كان كما أتصوّر أن بعض الذين سيقروّون ما دونت لهم في هذه الرسالة الانسانية وسيعلقون كما فعلت وتفعلون

الان غمرتني سعادة لا توصف لاني تفتنت انكم جميعا واعون بعظمة الانسان المفكر واهمية الفكر ما جعلني اطمئن اكثر من قبل

ان الموت التي تقتل كل شيء لا ينتصر عليها الا الفكر فهو الباقي وهو المحرك وهو وحده ضمان تواصلنا في هذه الحياة وربما هو وحده مركبنا للآخرة ومنقذنا يوم الحساب امام من خلق الفكر واولاه كل هذه القدرة على البقاء

والكلمة التي تختزل الفكرة هي سر الحكمة ولو لا الكلمة لما عرفنا الله لذلك بدأ الرب بالتعريف بنفسه انطلاقاً من امر كل الانبياء وَاخْرَهُم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالقراءة وانزل على كل منهم كتاباً وسمى اخرها قرآناً وتحدث عن كلمة من ربك ومن الاعجاز الرباني ان ممكن الانسان من عبقرية ايلاء الكلمة معانيها فقد ابرز في تدخلاته قيمة الكلمة وقديستها التي تحسّسنا بها حولنا وما فينا نلج بها الى ما خفي لتصبح الكلمة مفتاحاً لطاقيّة الاخفاء نسبر بها الاسرار وتسرح كلمتنا مع جنون العقل وتتفاعل مع رعدة الروح وتلك هي قدسية الكلمة المترعة بالفيض المحلقة في رحاب عرش المعاني لنمتلك بها عرش السيطرة على من حولنا وما حولنا وما فينا وما في حيز الكون مما نعرف ولا نعرف لنجلس بها على عرش الوجود بشموخ ونمتلك من خلالها حجم الكون على سعته ونصف بها ما فينا وما قرب منا وما بعد وما نرى وما لا نرى وما نتصور وما لا نتصور ونقرب بها ما بعد ونمتلك بها الشمس والقمر والنجوم والصوت والصمت ونشحنها بالمعاني ونحملها من خفي الامر تلميحا وإيحاء ونية جهرا وخفية ونعبر بواسطتها عما يختلج في ذواتنا ونوحى بها عما يخفي وراءها ونجعلها واسطة بين الدال

والمدلول نتبخر بواسطتها في علياء النغم الرقراق والمعنى البليغ وتتفعل او نضحك بواسطتها
وبالكلمة نعبر عن احساس خالصة تغمرنا لنصف ما يجرنا حاضرا ومستقبلا وبالكلمة
نبليغ عن امر نتوجس منه خيفة او امر يشغل بالنا او يعكر صفونا او تتوجه به رسالة تعدل موقف
من نحب أو نوقف بها امرا كان قبلها مقضيا وبالكلمة نخترق الغد وما بعد الغد لتتوجه بها لمن
نشاء وقت ما نشاء وكيفما نشاء وبالكلمة نستحضر اقرب الناس الينا لنوصيه وبالكلمة نقطع
حيزا شخصيا من الكون ونتوجه بها لاقرب الناس الينا لنسمعه ما ثقل على صمتنا وما رسب
فينا من نوايا

وبالكلمة يمكن إن نفسر ونوضح ونسدجلي امرا ونصدر امرا ونهر عن مشاعر او نستحضر
حالة او نبليغ امرا او نصف مشهدا او نبليغ امرا او نعبر عن الم او عجز او رجاء او نحدث حالة
او نقلب امرا وبالكلمة نفسها نفهم او نسأل أو نحتر ونبلغ ونطلب ونروي ونستفسر ونستفز
او نحدث وجعا

وبنفس الكلمة يمكن إن نعبر عن عجز وبها نسخر ونتضجر ونستنكف ونصبر ونصيح
ونستفهم ونستقصي ونخلق صبرا او بليلة او رجاء وبها نقصوا ونرحم ونسمثني ونعبر ونغتاب
ونسب ونشتم او نحوها صيحة اوها او تدمرا او امتعاضا ونقلها كما نشاء ونؤكد بها وبها ننفي
وفي هذا كله وفي غيره الا يحق لنا ان نولي الكلمة الاهمية التي تستحق ويبقى اخطر الكلام ما
استبطن ولم يقل

سكت القاضي قليلا ليستبطن كلمة ما زالت فكرة هي الان بصدد المرور بذهنه مروراً عابراً
وكأنها كلمة تريد إن تلد ولم تشكل بعد حينها تفطن إن المخاطر هي الاخرى يمكن إن تكون
كلمات في حيز التشكل بها فيها التي ما زالت لم تخطر على البال كما تصور إن أغلب الناس يمتلكون
بنفس القدر وربما بنفس هذه القدرات ونفس التواتر وربما بنفس الاحساس أحيانا

الفصل الرابع والعشرون

واصل الراوي حديثه

- يقولون أيها البائع بما تباع قال أبيع بالحاضر لقد تفتن جميع من كانوا في القاعة بما يجري لدى بعضهم من تحركات وتلملات ووشوشات وهمسات ولمزات وغمزات تجاه ما تحمله هذه المرأة من أسرار يكاد مظهرها لا يخفى على أحد من الحاضرين وحتى الحاضرات كان بعضهم يقول لبعضهم

- انها تحمل شيئا يذكرنا بشيء نعرفه حق المعرفة

أجابت الزوجة في الحين

- سمعتك يا هذا نعم أنت الذي تنظر الان الي وترکز على ساقي أنا متأكدة أنك لا تعرف ساقي اليمنى ولا اليسرى فأنا لا أكشفها الا في الحمام أو على شاطئ البحر وأنا على يقين تام أنك لم تدخل للحمام الذي أستحم فيه أولاً لأن الرجال لا يستحمون مع النساء في حمام عمومي واحد في نفس الوقت وثانياً لأنني لم أرك قط على شاطئ البحر ويظهر من ملامح وجهك أنت بالذات أنك تخاف من البحر ومن شواطئه

لم تستكمل المرأة تعليقها حتى صاح صوت رجل اخر من داخل القاعة

- سيدي القاضي أنا على يقين من أن عنايتك تحاول أن تتعرف على هذه المرأة ككل الرجال هنا وأنت في رأيي أولى من غيرك على التعرف عليها والوقوف على حقيقة أمرها وأنا سأساعدك على ذلك سيدي القاضي أقسم أن أقول الحق ولا أقول الا الحق أنا أعرف هذه المرأة جيداً ولا أعتد على معرفتها انطلاقاً من ساقها أو خسرها أو أي جزء من أجزاء بدننا كما يفعل عادة الرجال المتحرشون وغير المتحرشين بالنساء سيدي القاضي أنا أعرف رأس هذه المرأة انه رأس الارث

نظمت المرأة قائلة

- سيدي القاضي اذا كان الكذب ينجي فان الصدق ينجي أكثر بالفعل لي قصة غريبة مع هذا الرأس أنا لم أره من أحد على حد علمي فقد استعرتة من صديقة لي تسكن في رأس الدنيا وهي منطقة تقع قبالة شعبة الاخرة

قال القاضي

- أنا أقر بضعفي في مادة الجغرافيا الكونية لذلك لن أدخل في متاهات رأس الدنيا ولا شعبة الاخرة أجيبني على قدر سؤالي من قذف بك فجأة من رأس الدنيا الى هنا ؟ وكيف التقيت بهذه المرأة ؟

أجابت الزوجة في الحين وبدون تردد

- سيدي القاضي أنا لم أذهب اليها الأصح أنها هي التي جاءت الينا في عقر دارنا

قال القاضي

- ولماذا جاءت الى عقر داركم وهل تعرفين من هي ؟

قالت الزوجة

- نعم أعرفها كانت جارة لنا يقال انها جاءت الينا من وراء البحار

عندها سألتها القاضي من جديد

- كيف سكنت عندكم ؟

أجابت المرأة

- يقال انها جاءت الينا باعتبارها مجرد جارة ثم أصبحت جارة و صديقة

قال القاضي للمرأة

- ثم ماذا ؟

قالت

- يقولون جاءت صحبة زوجها وأولاد عمومته لحمايتنا أسكناهم في ديارنا أعجبتهن منازلنا حتى استأنسوا بها وطوروها وشيئا فشيئا استولوا عليها كما استولوا على أراضينا الفلاحية واقترحوا علينا العمل بها من أجل تكويننا في مجالات التقنيات الحديثة والأساليب العصرية وفنون الزرع والسقو دريونا على الجني والحصاد وأسكنونا الأكواخ وعلّمونا التذلل والتمسكن والصمت والقبول بالدون حتى تدربنا على الاستكانة والاذعان وساعدتنا الرؤوس التي ألبسوها لنا على الرضا بالدون واعتبار ذلك مكتوبا علينا وأن قدرنا أن نسلم أمرنا لهم

قال القاضي

- وماذا ادعت أيضا؟

أجابت المستجوبة

- ادعت فيما بعد أنها وأهلها جاؤوا ليعلمونا لغتهم وادابهم ويطلعونا على عاداتهم وتقاليدهم ويأخذون من حضارتنا ما يفيدهم ويفيد وطنهم صدقناهم وأسكناهم كما قلت لخصرتكم في بيوتنا وسلمنا لهم بعض أراضينا ليعملوا بها بل ساعدناهم على خدمتها وحرثها وسقوها وزرعها وحصادها حتى أخرجونا من بيوتنا وأراضينا وأصبحنا عملة عندهم وكانوا يستعملون معنا الاقناع وأحيانا القوة حتى غلبنا على أمرنا وقبلنا بالأمر الواقع وقد أقنعنا بعض عملائهم من أهل عشيرتنا وحتى بعض رجال الدين منا أن ندعن للقضاء والقدر وحكم الله والرضا بالدون بمقابل أجر من الله غير ممنون وسكت أجدادنا وسكت عنهم اباؤنا فتعلمنا منهم جميعا السكوت وفي يوم من الأيام عن لجارتنا وصاحب الفضل علينا أن تعيرني هذا الرأس تكريما لي على ما قدمته لها طيلة حياتي من ولاء وما قدمته المرحومة والدتي لأمها من اخلاص وتفان ومنذ تسلمت هذا الرأس منها وأنا أحلم بالمرحومة أُمي والمرحوم أبي وهما يباركان لي استرجاع كنز من الكنوز القديمة وقد وصل الحد بجدي المتوفى قبل أن ألد أن زارني في المنام ليهنئي ويتعاطف معي ليلة كاملة لقد كان يمسح على رأسي هذا من حين لآخر وهو يقول

- لم أتعرف عليك الا بعد أن لبست هذا الرأس انني أعرف هذا الرأس معرفة جيدة لقد رأيته في صندوق جدي كان من حين لآخر يخرج منه غمده ويمسح عليه برفق شديد وهو يقول لي

ولكافة العائلة هذا الرأس ورثناه عن أجدادنا الأولين لقد كان لابن خلدون رأس مثل هذا وهو نفس الرأس الذي كان يحمله ابن رشد وابن سينا والتيفاشي وجابر بن حيان والامام سحنون وابنه محمد وغيرهم

واصل الشيخ الراوي حديثه قائلاً:

- كان الزوج يستمع الى محاضرة زوجته وهو يتململ كالدجاجة التي تستعد لاسقاط بيضتها أيتكلم أم يتركها تصول وتجول وهو يخشى أن تدخل القاعة في ركام من الأسئلة لا يقوى على الاجابة عنها أحد من الحاضرين وحتى من الغائبين كان الزوج ينظر لرئيس المحكمة كأنه يطلب منه النجدة بالحاح شديد لما يعرفه عن زوجته من سلاطة لسان وجرأة وتجاسر يمكن أن يصل لحد الفضيحة ولما غمره اليأس توجه لحرمة المصون قائلاً

- رأسك هذا سبب كل المصائب المكددة بنا فمنذ استلامك اياه ونحن نتعرض للبلاء تلو البلاء هنا وفي كل مكان الان وقبل الان

ردت عليه زوجته قائلة

- عن أي رأس تتحدث؟ ألم أكد لك أنه ليس رأسي ألم استعره من جازي الأجنبية بمحضرك ومنذ ذلك الحين وأنا أتعرض للعديد من الزيارات والملاحظات والمضايقات بالليل والنهار في يقضتي ومنامي في ضغوني وترحالي

أجابها

- احمدي ربك لقد كان سبب في تعرفك على أغلب أجدادك وجداتك كما يمكنك من التحدث مع الموتى والأحياء وجلب لك مزيد الاحترام والتقدير وأحياناً الكثير من الاعجاب المتضرر الوحيد أنا

قالت

- لا تحسدني على ذلك أرجوك ولا تتمسكن وليس لك حاجة بالتمسك

قال الزوج

- على العموم لا أخفي عليك أن هذا الرأس يبدو لي أنه يتلاءم أكثر مع تركيبتك وهو أسلم لك بكثير من الرأس الخامخ الذي كان عندك من قبل لا أخفي عليك كذلك أنه أعجبني كما أعجب جدتي وحتى جدي الذي قال لي يوم راك به أول مرة

- الان فقط تيقنت أنك تزوجت من سلالتنا العريقة

وأضاف الزوج قائلاً

- ومع ذلك اذا ما تراء لك أن هذا الرأس أخرجك فأنا لا أرى مانعا من أن تسترجعي رأسك الخامخ القديم وعندها يمكن القول لكل الناس لم يعد لديكم بأس كل منا له رأس يميزه من بين الناس

- توجهت المرأة مباشرة لزوجها قائلة

- أنت رجل غريب تناقض نفسك بنفسك عشرين مرة في الثانية الواحدة

رد عليها قائلاً

- لأنك لم ترس على حال ما أنت فاعلة بهذا الرأس وهو لديك على وجه الاستعارة

أجابت على الفور

- ولكن ألم تراكيف تمسكت به عائلتنا تمسكا شديدا

قال

- لأنهم اعتبروه ملكا لهم بل اعتبروه من التراث الذي سرق منهم هم يرون أنك محضوذة باسرجاع هذا الرأس وينصحونك بالمحافظة عليه وعدم ارجاعه لجارتك بل هناك من يدعي أن جارتك سعيدة برأسك الغبي أكثر من سعادتك أنت برأسها الذكي

قالت

- وبما تنصحنني أنت ؟

وكأن الزوج أراد أن يعزز موقف زوجته ويشهد بما يعتقد أنه الحق مستعملا كل مداركه العقلية وحتى التاريخية

قال

- أهم ما وقفنا عليه بمناسبة استعارتك هذا الرأس أنه استخدم في ابتكارات جلييلة منها اكتشاف مفهوم المجموعات من طرف عالم الرياضيات الفذ والنابعة الخليل بن أحمد الذي عمد الى التعريف باكتشافه لدى تلاميذه دون جدوى فاضطر الى الاستدلال على اكتشافه بقانون التركيب الداخلي معتمدا على علم الصوتيات في الاداء الشعري ومستعملا اكتشافا اخر من استنباطاته سمي فيما بعد بالمنظومة الثنائية التي اختار لها رمزي الصفر الذي أسنده للصوت الساكن والواحد للصوت المتحرك وذلك أساس علم الرقميات أجابت

- تقصد الأوزان الشعرية المتنوعة

قال الزوج

- نعم

تدخل القاضي مستفسرا الزوج

- ولماذا لم يواصل تلاميذه في اعتماد ما توصل اليه شيخهم من اكتشافات سابقة جدا لأوانها ؟ كان بالامكان اعتمادها لاستنباط الات جديدة تفيد الانسان والانسانية

أجاب الرجل

- لم تكن لديهم ملكة الانصات سيدي القاضي

أضاف القاضي

- لماذا

أجاب الزوج

- لأنهم أضاعوا رؤوسهم الذكية واستبدلوها برؤوس أخرى أقل نجاعة وفهما جعلتهم منغمسين في جدال بيزنطي وأدخلتهم في قضايا جانبية لا تسمن ولا تغني من جوع

قال أحد مساعدي القاضي

- في أي قضية كانوا يخوضون؟

أجاب الزوج

- كانوا منشغلين في موضوع خلق القرآن

تعجب القاضي وقال

- غريب أمر هؤلاء أكان يحتاج القرآن أن يناقش من هذا المنظور؟

قال الرجل

- ولكن أجدادنا أضاعوا الوقت في المواضيع الهامشية والقضايا الجانبية مثل الولاية والامامة والاستنساخ وغير ذلك من المسائل والمشاكل الجانبية وقد استاء شيخنا الخليل بن أحمد من ذلك الوضع الفكري المتردي والذي اورد عبد الرحمان بن خلدون بعضه في مقدمته

احتار الخليل بن أحمد في أمره بعد أن تملكه اليأس وذات يوم اصطدم رأسه الذكي بأحد أعمدة المسجد الذي كان يدرس به فتوفي رحمه الله

تدخل مساعد القاضي من جديد قال

- الان فهمت لماذا قال عبد الرحمان بن خلون

"العرب لا يتغلبون إلا على البسائط" وأشار بيده الى العلامة الذي كان جالسا بين الحاضرين

أجاب مساعد القاضي وهو يتسم لعبد الرحمان وأضاف قائلا

- نعم سيدي القاضي الا تعتقد أنني وإياك أكثر اطلاع على تراث هؤلاء منهم لقد قال أستاذنا

الجليل

- "العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب."

قال القاضي وهو يؤيد مساعده بحركات رأسه

- لقد قرأت ذلك من قبل وأنا الان فهمت كيف أضاع العرب رؤوسهم الذكيّة واستبدلوها برؤوس بعضها أقلّ ذكاء

وعلق المساعد الأوّل على القاضي قال متّجها نحو الزّوج

- لو تمعّن أهلکم في ما قدمه لهم الخليل بن احمد لما توفي قهرا ولا استفادوا كثيرا من ابتكاراته بل كان بالامكان أن يتطوّروا ويطوّروا الانسانية برمتها ولا أستبعد أن تعيد أمم أخرى اكتشاف ما اكتشفه هذا العالم العربي العظيم من جديد بعد تغييب ما توصل اليه

اثر ذلك سمع أزيز حاد ودخلت قاعة المحكمة في نوع من الضّبابيّة الملوّنة بالأزرق والأخضر والأحمر والأصفر وشرعت عقارب السّاعة الحائطيّة في الدّوران السّريع كأنّها تريد أن تطوي الزّمن طيّا عجيبا وتحوّلت الواجهة الخلفيّة للقاعة الى شاشة شفّافة تمرّ عليها صور غريبة وعجيبة تشبه قوالب متنوّعة الحجم هذا صندوق يمرر صورا ويروي حوادث ويذيع أخبارا وذاك قالب ينقل حديث الناس مباشرة وتلك آلة تحكّم تعمل عن بعد دون أيّ وسائل وسائط وهذي شفرة صغيرة جدّا لكنّها تحتزن أطنان المعلومات

توجّه الزّوج مخاطبا زوجته

- ما الذي جرى؟

قالت بأنّاة وتوازن وورصانة

- لا أدري هل أنا في حلم أو في علم ومع ذلك يبدو لي أننا تحولنا الى عصر الرقميات الذي أشار اليه منذ حين المساعد الأوّل لجناب القاضي

قال القاضي

- لقد بلغني ذلك وتأكدت منه واستفادت محكمتنا من اغلب تلك العلوم والاكتشافات واستطعنا ان نطوعها لصالحنا ولم تبد غريبة عنا اطلاقا

التفت الزوج لزوجته وكأنه اراد أن يطمئنها على المحافظة على هذا الرأس قال

- ألا ترين أنه يتحتم عليك المحافظة على رأسك الجديد هذا لعله يلهم أهلنا وعشيرتنا وأبناء عمومتنا بضرورة مراجعة شؤون دارهم العقلية لتغيير ما بأنفسهم واستعادة مجدهم واصل الراوي حديثه قائلاً:

- ما أن انتهى الزوج من كلامه حتى انقسمت القاعة الى معارضين ومؤيدين

قال أحد المعارضين

- كيف يتهم بعض العرب بالغباء وقلة الانصات هذا مساس من كرامة العرب واستنقاص لقيمتهم واستهتار بمجدهم وتجن عليهم

ثم واصل الراوي حديثه قال

- ومن هؤلاء من تعمد ادخال عنصر الدين في المسالة فاتهم الزوج بالكفر واتهم زوجته بالزندقة واتهم بعض الحاضرين بالتواطئ والسكوت على الحق

وقال أحد هؤلاء

- لا بد من قتل هؤلاء الشياطين

أجابه أحد معارضيه

- شياطين؟ من قال أنهم شياطين سيدي القاضي هل سمعت ما يقال عن هؤلاء المساكين شياطين؟

حرك القاضي رأسه في اشارة الى أنه سمع ذلك وتدخل المعارض قال بشيء من الحماسة وربما بكثير من الشجاعة كذلك

- نعم شياطين ألا تعلم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس

واصل الراوي حديثه قال

- ومن بين هؤلاء من تلهى بايجاد تصنيف اخر للجاعة المارقين في درجات الكفر ونعتهم اخرون بالطاغوت وأحلوا سفك دمائهم وعمد البعض الاخر الى التخطيط خلسة لاغتيال الزوج المسكين المتورط بتهمة التكفير وزوجته المتهمة بالتستر على التكفير وربما التواطىء معه ومنهم من اعتبر رغبة الزوجة في الاحتفاظ بهذا الراس بالذات أمر مريب حملها اثره شبهة عدم رغبتها في ارتداء النقاب وهي الان تبدو غير متحجبة بالمعنى المسلح عليه رغم تعمدتها تغطية شعرها بمحرمة على الطريقة التونسية المتوارثة منذ أحقاب ولم يثبت لدى محاكمهم الشرعية أن ختانها تم أم لا وان تم فليس لديهم ما يثبت أنه تم بالشروط المحددة لديهم كما عمد بعض هؤلاء المستسلمين الى مغادرة القاعة والتخفي وقد قيل أن تعمدهم للتخفي يراد منه الصنع السري لألغام وتجهتها في بعض الكهوف والجبال والمغاور وبعض الحرب ومنهم من شرع في جمع العديد من أنواع الأسلحة البيضاء والسوداء والزرقاء وبدأت حملات الدعوة الى الله ورسوله تسمع من خارج القاعة وحتى من داخلها كل ذلك من أجل تبرير اشهار الجهاد على الزوج والزوجة ومن لف لفهما وقد استغل بعض المعارضين من الذين يعشقون السباحة في الماء العكر هذا التعصب لتغطية ممارساتهم الخفية ضد الزوج المسكين وأشباهه ومشبهاته متخذين هؤلاء الغلاة كبش فداء متميز يجعلونهم شماعا يعلقون عليها مركباتهم ويروجون شيطنة غرمائهم لتعويم القضية وتبييض أياديهم المملوطة بالوحل وربما لجر الرأي العام وربما المحكمة الى متاهات أخرى تظليلا وتعتيا ومراوغة وخطا للاوراق

واصل الراوي الحديث قال

- ومن الحاضرين من تفهم ما قاله الزوج وتبنى استنتاجاته وامن بوجهة نظره ورأى فيها مناسبة لتوعية الأمة الى العمل بالاية القرآنية الكريمة " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ومنهم من قبل مواجهة الغلاة والمتعصبين والمتزمتين والسلفيين الجهاديين وغير الجهاديين بالدليل والحجة ومنهم من اقترح المناظرات وندوات النقاش مقابل الرافضين للحوار

والداعين للردّ بالتكبير دون سواء ومنهم كذلك من استغلّ فتح شاهية النقاش ليسرّب جزءاً من برنامج فريقه المتزمت قال أحد هؤلاء بحماس شديد

- لو كنت زوج هذه المرأة لتزوجت عليها مثني وثلاثي ورباعي ان دواء هذه ومثيلاها عندنا نحن ليس له حلّ الا تعدّد الزوجات لا أعتقد أن هناك من يمانع هذه المسلمات أليس كذلك أيها السادة وأخصّ بالذكر السيدات الفاضلات

قاطعته على الفور رجل في الستين من العمر كان يجلس بالقرب منه قال بحماس شديد في موضوع قضية تعدّد الزوجات التي تطفو من حين لآخر على السطح جزافا

- الله نفسه لا يحبّ تعدّد الزوجات ثم ان هذه المواضيع كنت أتصوّر أنّنا في بلادنا قد تجاوزناها على كلّ الأصعدة لماذا تطفو هذا النسق على السطح من جديد لماذا تطوّرت كل الشعوب نحو الأرقى والأنسب والأسلم ونحن مازلنا نعاني من تخلف نبهنا اليه القرآن الكريم قبل غيرنا من الأمم ولم نستفد من ذلك ولم نفعل الكثير من الأحكام الالهية والتوصيات الربّانية الواردة في كتاب القرآن المقدّس غريب أمر هذه الأمة المسكينة أما ان لها أن تراجع نفسها قليلا.

واثر هذا التدخل انقسمت القاعة من جديد بين مؤيدين ومنّدين ومنادين

- "الله أكبر"

وقال رجل اخر من المتخونجين

- الظاهر انهم لم يقرؤوا ما كتبه حسن البنى ولا ما وضعه السيدة قطب

قال احد المتيمين للتيار السلفي

- بل قل لم تصلهم احاديث الرسول الاعظم وخاتم النبوة ولم يطلعوا على دستورنا في كتاب ادارة التوحش لذلك يصح أن نقول فيهم أنهم كفرة فجرة مارقون ارموا على كل كافر الحدّ اسلخواه اذبحوه طهروا الأرض بدمائه انه طاغوط وناغوط وماغوط ولاغوط وتصدّ له اخر قائلا

- ما هذا اللغو ليس بيننا ولا منا طاغوط ولا ناغوط ولا ماغوط ولا لاغوط

استأنف الراوي حديثه قائلاً

- عبر أغلبية الحاضرين عن استنكارهم للمواقف الصلبة مرددين

- "حسبنا الله ونعم الوكيل"

ومنهم من امتعظ فانشد يقول مخاطباً شبحاً قد يكون أحد الذئاب المنفردة جيئ به الى هنا او جاء مندساً أو متخفياً بشكل من الاشكال

- كيفاش رضيت تعادييني وتعرّض أهلك للموت

ولي ترُّبُو معاك على ديني اليوم تسمِّيهم طاغوت

اليوم أمني وجيشي يجميني نقولها لك وابعالي الصُّوت

أولادي جملة تفديديني وعمرها تونس ما تموت

قلبك لي ترَبِّي عالرحمه وكبَّر حيا عالفلاح

واقراه القرآن وفهمه ما احسبتو مرّه يكساح

ويتنّى لرهاب وسمّه ودين الرحمة يولي سلاح

ايهدّد لّمّه والعلمه ولجرام يردُّو مباح

بلرهاب اليوم اتكافيني مع اعدايا تربط لخيوط

نقولها لك وانا على ديني اسمعها مِنِّي بالصُّوت

أولادي جملة تفديديني وعمرها تونس ما تموت

الرُّوح عندك ترخص لالدرجه تبيع أهلك بارخص لثمان
 أو شيخك يفتي بلا حجه وبالخجّه تولي شيطان
 وابليس يوريلك نهجه تمشيله يغرك غران
 تنزل بالدرجه بالدرجه أو تفقد صفة لئسان

وفي عوض تحبني وتحميني تعاديني ويفوت الفوت
 نقولها لك وانا على ديني اسمعها مني بالصوت
 اليوم أمني وجيشي يفديني وعمرها تونس ما تموت

ما كانش جملة في حسابي تبدل تحسبني عدوك
 لا تسمع نصحي لاجوابي تعاديني واتعادي خوك
 تحون مايا واتحون تراي وتنكر لملك ولبوك
 وتتحول مجرم وارهابي وعوض ورده تبعتلي الشوك
 كل واحد حاول يثذيبي تهد وضرباتو لحيوط
 نقولها لك وانا على ديني اسمعها مني بالصوت
 أولادي جملة تفديني تونس تحيا وانت تموت
 وقال اخر

- " لا حول ولا قوة الا بالله "

وصاحت جماعة

- رحمه الله شهيدا

عندها طلبت الزوجة الكلمة ولما سمح لها توسطت المنصة وقالت

- سيدي القاضي ايها الجمع الكريم قبل الرحمة على من اغتبل وبعد الرحمة وبين الرحمة والرحمة عليه نعيش لوعة الافتقاد ونلف اللوعة بالترحم لعل الترحم يغمر ما نحس به من حاجة للفقيد ويغفر لعجزنا على فعل اي شيء نستحضر به ما فلت منا في الحين وما تعودنا على الاحتفاء به منا ومن غيرنا وحتى منه احيانا ونستفيق مع صحوة الحاضر المقيت الذي يقبل بالغياب دون اذننا ويفرضه علينا قبل ان تعودده ويزيد في تكريس عجزنا وتضخم ضعفنا ليكبر فينا التصغير لما تضخم لدينا ونستفيق على ورم الحاضر الذي يستبلهنا تارة ويسترسل معنا طورا وبلقنا النسيان احيانا لكنه ينتهي دائما برجنا بالفجائع التي نعرف انها قادمة ولكننا نستكثر على انفسنا تذكرها او حتى استبطانها وتبقى اللوعة في ذاتنا تعيش وتعيش وتكبر تكبر لتحوّلنا الى حيز الارتجاج التي نكتوي بها وتكوي بنا ابناؤنا كما اکتوينا من ابائنا وتكمل الحياة تصرّفها كما شئنا لها ونوهم الآخرين كما تم ايها منا ان ذلك مفعول الاقدار وفي النهاية يستأوى الظالم والمظلوم وسبب الظلم في قتامة صمت كل منا على الاصل ونعزز صمتنا بدعم من الصمت الجماعي وتتحول المعادلة الى القبول بحتمية مرتجة لامقنعة يتسبب فيها سكوتنا احيانا واحتجاجاتنا احيانا اخرى وبذلك نربح عدم الاضطرار لتقديم الحلول بل والتباهي بنجاح افتراضي نغطي به فشلنا الذريع .

توجه احد الشعراء مخاطبا الحاضرين وكأنه يناشدهم ويستنجد بالعقلاء منهم وكذلك بالقاضي نفسه وطاقمه قال

- " احفظوا هذا الوطن قبل ان تخرجنا منه الفضائح والروائح والجوائح والحزن حافظوا عن وطن الأجداد والأحفاد من زحف أنباط الجراد قبل أن تفتكه منا السّفاسف والطّوائف والمحن ساعدوا هذا الوطن قبل أن يطردنا منه التكاليف والتجاذب والفتن مروراً التربة فوق غسلي الأكبر حان سلموا لي حفنة من تربة الأرض الجنون أمسح الكيد بها أمحو الجنون وأعيدوا تفكيك الطلاسم وتواريخ المواسم واستباحات المجون قبل أن

ينخرم العقد المنظم قبل أن يجتاحه سيف التبرم وتصير الحبة في العقد اداة للتسمم

قبل أن تجتاحني ريح التزمت والتشتت والدرن فتشوالي عن مكان في الوطن قبل أن يأخذه مني التخلف والتزلف والتكلف والشجن هل وجدت لي مكانا في الوطن انقدوني وانقدوا هذا الوطن قبل أن يقتك غدرا قبل أن يصبح قبرا والهواء الطلق في وطني كفن أنقدونا وانقدوا هذا الوطن

عندها تدخلت الزوجة من جديد مخاطبة القاضي ومن معه

- سيدي القاضي لا صلة للتطرف الديني بالدين الإسلامي فهو غريب عنه دخيل عليه مستورد من موروث الجاهلية تحت عناوين هلامية وفضفاضة في غياب ثقافة إسلامية سليمة وناجعة تقدم البديل الأسلم في شكل طرح ثقافي يسند الطرح الأمني وقد نبرر ذلك باعتبار أنّ الارهاب يبدأ برمجة ضحاياه من خيرة شبابنا وابنائنا في مستوى التفكير اولا لذلك تتحتم علينا ضرورة أن يتدخل الطرح الثقافي في المسألة لان الارهاب في الاصل يبدأ برمجة ضحاياه في مستوى التفكير ثم في مستوى التكفير ثم في مستوى التفجير أما في مستوى التفكير فانه يبدأ باستغلال جميع نقاط الضعف في التركيبة الذهنية للشباب ليدمجها بحسب ما حدده في هذه الذهنية من مكتسبات في مستوى المخيال والمخزون والموروث وتركيبه صيرورة النشوء وما رسب في اللا شعور ثم ينتقل الى مستوى القنوات المكتسبة لتحديد ما يمكن ان يستغله في حالته تلك وما يمكن تعديله لصالح برنامجه الاستقطابي ثم يحول اهتماماته الى مجموع الفراغات الذهنية التي يمكن ملؤها بما يتماشى مع التطبيقية التي يرى انها تتلاءم مع شخصية الضحية ويشعر المستقطب الفاعل في غرس القنوات التي ينبغي ان تصبح بمثابة المرجعيات لتبرر جملة ما سيتحول عما قريب الى ثوابت فكرية راسخة في كنه ذات الضحية ليصبح مواقف تترجم الى سلوكات معينة معلومة لدى المستقطب الفاعل غي ذات المفعول به لتبدأ مرحلة الاملاءات في صياغى الاوامر والبرامج والمهام المعززة كلها بالتغذيات الرجعة أي مجموعة الفيديابات التي تراعي تركيبة الضحية وما ترتب عنها من مكونات فان كان المستقطب المفعول به في حاجة ملحة للمال يغدق عليه ما يلبي حاجاته من مال وان كان يفتقد جاها أو ارتقاء في الرتب أعطوه كنية وأوهوه أنّها تشريفية فيصبح أبا قتادة أو أبا الهيشم أو أي اسم مستعار اخر و يعين في مهمة بكتيبة تحمل اسم

قائد مَن يسمّونهم السَّلف الصَّالح ثُمَّ يَعيَّن نائباً ثالثاً أو ثانياً أو حتى أول لقائد الكتيبة ويطلب منه الاخلاص والاجتهاد والانضباط ليتدرَّج رويدا رويدا في الرِّتب والمناصب الوهية لحدودياتها في المكان والزمان فتلييهم الضحية للسلطة والجاه وتركب في ذاته طموحات في ان يصبح في مهلة قريبة والبا أو حاكما أو شيخ الشيوخ وهكذا دواليك حتّى يرتقي من هذا الوهم الى وهم أرقى وهو وهم مرحلة التَّكفير والتَّكفير هو أيضا وهم وهي المرحلة التي تصبح فيها الضَّحيَّة في مقام المفتي المحلَّل والمحرَّم والمكفَّر لكلِّ من خالفه في الرأْي وتتواصل الدَّمعجة والبرمجة لاقناعه بأنَّ قتل من يراهم كفَّارا أو من يصدر في شأنهم قرار تكفير واجب ما داموا مجموعة أهدرت أرواحهم شرعيًّا وبعد صدور قرارات التَّكفير تدخل الضَّحيَّة الفاعلة في مستوى التَّفجير وهذه المرحلة تخرج الضَّحيَّة ونقصد بها ذلك المستقطب من مرحلة الوهم الى مرحلة الانجاز الفعلي عبر عمليات ارهائية منمَّطة مخطَّط لها وتستغلَّ كلَّ ما تمَّ برمجته في تصرَّفات الضَّحيَّة لأبعد الحدود واخر مرحلة وهي مرحلة ذكيَّة ومدروسة يستخدمها مخطَّط قادة العمليات الارهابيَّة بامتياز وهي مرحلة تفجير الضَّحيَّة نفسه بنفسه بواسطة الحزام النَّاسف الذي يَمكُن القادة من قتل كلِّ المعلومات التي تفضح مخطَّطاتهم أو تمكَّن من متابعة تحركاتهم وتخيف المتدسِّين فيهم وترعب الطَّيف الاجتماعي وربَّما تجعل منه محاضن يلجؤون اليها عند الحاجة

لكل هذه الأسباب الموضوعيَّة وجبت في رأينا ضرورة المزج بين الطرح الثقافي والطرح الامني معاضدة مع طرح قانوني محكم من اجل توفير النجاعة في مقاومة الارهاب وقطع دابره والقضاء عليه في المهّد.

صنف الكثير من من كانوا في القاعة واستحسن اغلبهم هذا التدخل وباركه القاضي ومساعدوه كما ابدى زوج المرأة اعجابها بما سمع ونظر الى زوجته الهادئة المطمئنة الرّصينة متمنيا من الله عز وجل مدّ كلِّ من في القاعة وخارجها برأس كالرأس الذي استأجرت زوجته من جارتها والذي ثبت فيما بعد بما لا يدع مجالاً للشك أنه رأس الارث وأنه الرأس الأصلي لهذه الأمة بل ربما كان هذا الرأس بالموصفات التي ذكرها رسول المسلمين ومعلمهم محمد صلى الله عليه وسلم ذلك النبيّ الذي تميّز بالهدوء والتَّبصّر والحكمة والذي لا يمكن أن يكون فضّاً ولا غليظاً ولا متتقماً ولا حقوداً لأنه رسول السلم والسلام والأخلاق الفاضلة ألم يبعث ليتّم مكارم الأخلاق

ألم يقل فيه ربّه "انك لعلّ خلق عظيم"

قال الراوي

- لم تنته موجة التّصفيق حتّى ارتفع صوت من داخل القاعة مخاطباً سيّد القاضى بلهجة تقترب الى الاستنجاد منها للتّدخل المجرّد صاح الصّوت قائلاً

- سيدي القاضي أنجدنا ربّك لقد اختلطت على بعضنا السّبل ترى من نصّدق هذه المرأة التي تقدّم لنا اسلاماً نقياً سليماً ورسولاً رحيماً متفهّماً أم ما يؤكّده من تأثروا منّا بما أورده ذلك الرّوائي المصريّ حامد عبد الصّمد الخبير التربوي السابق بمنظمة اليونيسكو الذي يؤكّد عكس ذلك تماماً في لقاءاته التلفزيونية مع الاعلامي المغربي المشهور المتحول من الإسلام إلى المسيحية ومقدم برنامج سؤال جريء على قناة الحياة المسيحية

طلب القاضي من المتدخل توضيح الخلاف الذي يعنيه عندها اسرعت الزوجة بالاجابة قالت

- سيدي القاضي الفاضل اعرف جيداً الرجلين حامد عبد الصمد ومحاوره الملقب ب"الأخ رشيد" كما اطلعت على اغلب ما كتب استاذ التاريخ الإسلامي بجامعة ميونخ بألمانيا حامد عبد الصمد والتي تصب كلها في نفس الاتجاه الرافض للإسلام منها "سقوط العالم الإسلامي" الصادر في ٢٠١٠ قبل الربيع العربي وفيه يتوقّع عبد الصّمد انحدار العالم الإسلامي خاصة في المنطقة العربيّة وي طرح كتابه تحليلاً للأوضاع المتردية التي وصلت إليها اغلب الدّول الإسلاميّة على المستويات الفكرية والتعليميّة والاقتصاديّة بالإضافة إلى ما تعانیه شعوبها من تزمّت ديني وما يسمّيه المؤلّف بالجوع الجنسي ويفرّق بين الإسلام وبين الحركات الإسلامية ويصنّف الإسلام باعتباره حضارة تعيش في مرحلة شيخوخة و يؤكّد أنّ الاسلام كدين لا يقدّم جديداً ولا يجيب على التّساؤلات الملحة للقرن الحادي والعشرين ويعتبر الحركات الإسلاميّة مجرد فرقة ناتجة عن قلة الحيلة وعدم القدرة على التّنافس مع الحضارات الأخرى على المستويين العلميّ والسياسيّ.

وفي رأيي فان الكاتب يصف الحال الحقيقيّة التي عليها الأوضاع منذ تردّي الشّان العربيّ الاسلاميّ ودخوله التّاريخيّ في أزمنة الرّداء الحقيقيّة والتي نبّه إليها قبله العلامة التّونسي عبد

الرَّحْمَان ابن خلدون والتي سبق أن شاهدت منها محكمتمكم المؤقَّرة العديد من التَّماذج الفكرية والاجتماعية

أردفت صاحبة رأس الورثة مضيقة

- يريد استاذ الدراسات الإسلامية بجامعة إيفورت الألمانية اقناعنا بان لا وجود البتة لاسلام حقيقي واسلام مزيف مدعيا عكس ما تقوله صاحبة رأس الورثة مدعيا في وقاحة ان داعش تفعل ما كان يفعل الرسول والصحابة بمعيار الزمان والمكان والمعطيات ويجب عن سؤال محاوره أليست هذه المقارنة ظالمة ؟ لماذا تعتبر أن داعش تمثل صورة الإسلام الحقيقي؟ يقول - أنا قلت إن المشكلة ليست في ما فعله النبي محمد أو ما هو مكتوب في القرآن، لأن الكثيرين ما زالوا يعتبرون كل ما فعله النبي محمد قدوة لحياتنا اليوم وكل ما جاء في القرآن كدستور وقانون للقرن الحادي والعشرين أيضاً.

ويضيف الكاتب ان النبي محمد قتل أسرى وسبى نساء في الحرب وطرده اليهود من المدينة وقطع يد السارق ورجم الزانية وكان لديه عبيد وجوار وإماء هذه كانت حلوله هو لمشاكل مجتمعه الصحراوي في القرن السابع الميلادي ولكن لو اعتبرنا محمدا قدوة لحياتنا اليوم فلا نستطيع أن نقول أن داعش لا تمثل الإسلام

ويضيف حامد عبد الصمد قائلا

- لا توجد دولة أو جماعة إسلامية واحدة تمثل الجيل الأول من الإسلام أكثر من داعش. كثيراً ما أسمع كلمة "الإسلام الحقيقي" ولكني لا أفهم أين يسكن هذا الإسلام الحقيقي وأين نصوصه ومن الذي يمثله.

سيدي القاضي ان ما يقوله حامد عبد الصمد يستمد صحته من الاراء السائدة منذ الحقب التي تدهورت فيها حال الامة العربية الاسلامية من جراء التوقف عن الاجتهاد والتردي الحضاري الناتج عن فترات تاريخية خارجة عن السياق الديني ومتصلة بتحولات تاريخية برزت فيها هيمنة التسلط بقوة السلاح على البلدان المسالمة والتي كانت ضحيتها الشعوب التي

غلبت قوة الفكرة فيها على قوة السلاح المتطور والتي افرزته ازمة غلبة التصنيع على التمدين وجعلت من الشعوب المسالمة لقمة صائغة للعديد من اوجه الاستعمار الظاهر والمقنع والقديم والجديد وخاصة منها التي استعمرت الشعوب العربية الاسلامية وكرست استعبادها للفكر بعد استحواذها الكامل على الثروات المادية وتكريسا لتلك الهيمنة كان على المستعمرين ان يضعفوا المخزون الفكري وخاصة العقائدي لاحكام بسط نفوذهم على كنه ما يميز الانسان ويشكك في ايمانه ويزعزع قيمه وركزت في ذلك التمشي المبرمج على اللعب على حبل اختلاف الائمة والمذاهب ودعمت التشيع واولت بعض الطوائف المتطرفة اكثر مما تستحق من الاهتمام وركزت على التناقض وخلقت محاور تفكير ومجالات اهتمام تغلب عليها السفسطائية والحوار العقيم وانهار من خلال هذه السياسات صرح التماسك الاجتماعي وضعفت العقيدة عند الاغلب الاعم وتلهت الشعوب في القيل والقال والجدل العقيم والتجاجج الغير مجدي واختلط النابل بالخابل ما شجع بعض المفكرين العرب على التشكيك في تراثهم واختص بعض علمائهم في جلد الذات وتاويل الاحاديث لصالح الهدم ومن بينهم الاستاذ حامد عبد الصمد الذي تعمد تشويه مناقب الرسول الاكرم لحد التشكيك في مكارم اخلاقه وتاويل كمال صفاته وانتقاد حسن سلوكه والاستهانة برسوخ حكمته ونقاء سجيته وثبوت امانته دون تدقيق او برهان معتمدا على مجرد التاويل كما تعمد الالتباس والاكتفاء بالانطباع والتركيز على ما نتج في حياته وبعد وفاته من اخلالات قام بها غيره اواتت من شواذ تحفظ ولا يقاس عليها لتعمم وتصاغ باسم الرسول في العالم وتحت عناوين مغرية لا تستقيم بمجرد التثبت في ملامح اصحابها ومريديها حصل اغلبها باسم التفسخ احيانا وحيانا باسم الانبتات وحيانا بها معا وكي تعزز اطروحاتها المارقة تحشر الأزهر أو هيئة الأمر بالمعروف في السعودية أو علماء الشيعة في قم أو مرشد الإخوان المسلمين أو مفتي القدس أو قائد تنظيم بوكو حرام متسالة في صلف عن الإسلام الحقيقي ما هو او مدعية إنه مجرد كلمة يستخدمها المدافعون للتَنَصُّل من مشاكل الإسلام وما سَلَطَ عليه او فيه من عنف وانتهاك حقوق الإنسان ليسهل اتهامه في ما بعد بكل النقائص وما قاله حامد عبد الصمد ومن لَفَّ لَفَّهُ هو مجرد رد فعل على عجز أغلب المفكرين القدامى والمعاصرين على فهم الاسلام فيها موضوعيًا مجردًا من الخوف من المقدس من جهة والاكتفاء بالتَمَوُّع في الحَيَرِ الدَّعَوِيّ دون اعمال الرأى والتمتعون في الكنه المشبَّعون بها جاء في القران والتمكّنون من التَّاريخ لم تنطل

عليهم كل تلك الادّعاءات بل تفقوا يعملون على استجلاء حقيقة الاسلام المخفّية تحت اكداس التّفسير المغرضة أو المنقولة عن السّلف بكثير من التّحريف والتّأويل أو حتّى الكذب والرّندقة وفي كثير من الأحيان بقصد نخفيّ ظاهره الصّدق وباطنه التّظليل والتّأمر أو ما جاء في نقل بعض الاجتهادات المشكوك في صحتّها من تعاليم لا أساس لها من الصّحّة أمّا لغاية في نفس يعقوب أو لأنّها مكبّلة بالكثير من الممنوعات أو عاجزة على استجلاء الرّؤى المجرّدة لذلك بقينا الى اليوم في أشدّ الحاجة الى فكر قادح متنوّر ينهل من معينات عدّة واختصاصات كثيرة بعضها لم يتوفّر بعد من أجل توفير الجاهزيّة الكافيّة لفهم الاعجاز الدّينيّ فهما أكثر موضوعيّة وأوفر قدرة على النّفاذ لمقاصد مكارم الأخلاق الّتي تلخّص التّدينّ وتجعل منه السّلوک المثاليّ لتصرّف الانسان بل لتصرّف النّاس جميعا بقطع النّظر عن الانتفاء المكانيّ والزّمانيّ وفي الاثناء وفي ترقّب ظهور هذا الفكر القادح فتحت المجالات على مصراعها لأمثال عبد الصّمد محاوريه والمتلقّفين لكتبه من اشخاص ولوبيات تعدّد بتعدّد الدّسائس وتزدهر بازدهار الرّغبة المتزايدة في المتاجرة بالدينّ أو المستنكفين منه او الرّافضين له وفي ذلك يتنافس المتنافسون لكلّ ذلك وغيره اختلطت الأشياء في انتظار بلوج مراجعات حقيقية وشاملة تتولى التّمحيص والفرز بين الغث والسّمين لترسي مقاربات جديدة تمكّننا من فهم الرّسالة الحقيقيّة للاسلام الصّحيح وهو ما تجتهد الكثير من القوى التّونسيّة والعربية على ارساء دعائمها على اسس راسخة ومكتملة البناء

- سيدي القاضي بمرور الزمن ستكتشفون ان تونس من أجمل بلدان العالم وأن تونس من احسن الامصار في العالم وان التونسيات والتونسيين من اذكى الشعوب في العالم ستكتشفون كلکم أن الشعب التونسي في الشارع والأماكن العامة وفي تعاملاته اليومية هو من بين أكثر شعوب الارض تفهما وتعقفا وستكتشفون أن تونس لديها الكثير من اليات النجاح التي لا توجد عند العديد من الدول وان اهلها قادرون على صنع التقدم والازدهار وان ما يعوقنا للأسف هو استفحال الفساد الذي ينخر بلادنا رغم قلة الفاسدين عندنا ولاننا نعلم اشد العلم ان فار ايّتن خاييه لذلك نحن على يقين تام اننا سنتنصر على فئران الفساد القليلين لما نمتلك من قوة شخصية وصبر وعزيمة وما نتحلّى به من ايمان بالعمل وما يتحلّى به اغلبنا من مكارم الأخلاق التي تمثل جوهر الدين الاسلامي المنزه عن مظاهر التدين الكاذبة الجوفاء وان معظم شعبنا يؤمن بان عدم

النجاح فشل وأن الإنسان يمكن أن ينجح بلا مال اذا ما تحلى بالعزيمة
سيدي القاضي ستكتشفون أن التونسي إنسان طبيعي لديه المقومات الأساسية التي تجعل
أحلامه وأمانيه مجرد حقوق عادية جدا لا يحتاج للتظاهر من اجل الحصول عليها وان التونسي
يعلم اشد العلم أن المسؤولية ليست تشريفا ومباهاة بل تكليفا تلحقه المحاسبة والمتابعة

الفصل الخامس والعشرون

قال الرّاوي

- لا شك أنّ أهمّ ما يبيّء لاصلاح الوضع العام الاعتناء باستتباب الامن واستتباب الامن مرتبط الان بمقاومة التّطَرّف والتّصدّي لظاهرة الارهاب عن طريق العمل الميداني الذي يقوم به الامنيون بالدرجة الاولى وهو عمل يحتمّ عليهم دون غيرهم اتخاذ كامل الاجراءات لدراسة ومتابعة التحركات المشبوهة والتهديد لكل الاحتمالات واستنباط الخطط والظروف للانتصار على تلك الافات لذلك لقائل ان يقول ما دخل سواهم في هذا الميدان بالذات وهل الامكان اسناد الطرح الامني من اجل معالجة الارهاب باطروحات اخرى مثل الطرح الثقافي لمقاومة الارهاب وهل سيستفيد الامنيون من ذلك

على هذه الاشكالية اسؤنفت جلسة المحكمة المحترمة وكأّن جناب القاضي اراد ان يشجّع الحضور على تناول هذا الموضوع لذلك اهتم اهتماما خاصا بما جاء في تدخّل احد المثقفين الذي بدأ حديثه قائلا

- لم ندع ايدا ان الطرح الثقافي سيمكن الامنيين من اساليب او تقنيات تفوق ما اكتسبوه بواسطة الدراسة او الممارسات الفعلية او في حصصة الترسكل او التكوين المستمر ولكننا ندعي ان الطرح الثقافي سيمد الامنيين باضافات ويحسن من ادائهم ويعرض عليهم مقاربات ستساهم في فتح افاق جديدة كما يمكن ان يستفيد طرحنا من تجربة الامنيين اليومية من اجل فهم اجود وتعمق اجدى في معظم ملابسات ظاهرة الارهاب في جميع مراحلها بدءا من النوايا الى مرحلة التنفيذ مروراً بالاعداد والتهديد والتخطيط

وقال اخر

- التنسيق بين الطرح الامني والطرح الثقافي مرحلة ضرورية ومفيدة ومثيرة للمدنيين وللأمنيين على حد السواء لانها تمكن الامنيين من فهم ادق لتصور الظاهرة من منظور المجتمع

المدني الذي يمكن ان يكون اما حاضنة او متعاطفا في السر او غير مبال او غير متعاون او خائفا او متجنباً او حتى مستقيلاً وفي جميع هذه الحالات يصبح في حد ذاته عاملاً يعيق أي اجراء يتخذه الامنيون وينقص من جودة عملهم وجدواه كما بإمكان الطرح الثقافي ان يساعد الامنيين على فهم اشمول وربما اعمق لما يستبطنه المواطنون ويجلي للامنيين الصورة باكثر وضوح واقرب لواقع الامر كما يتيح للطرفين التعامل مع ما يعرف بيداغوجية الحوار الذي يربط بالضرورة قنوات تواصل توفر مزيداً من ربط العلاقات البشرية على المستويين الفردي والجماعي وتفتح بين الامني والمواطن ادوات تواصل جديدة تؤدي الى محاولة كل طرف منها إيجاد سبل للتفاهم والتقارب والتعاون المتبادل والثقة في الطرف المقابل وهذا العامل يعتبر عامل اثراء للتجربة الامنية في حد ذاته وهو ايضا اثراء يمكن المجتمع المدني من تفهم اسلم للعمل الامني بصفة عامة وللجراءات التي يستعملها السلك الامني لمكافحة الارهاب بصفة اخص وربما يتمكن المواطن بواسطته ان يتعرف على المزايا والمنافع الحقيقية التي يقدمها الامنيون من اجل سلامته وسلامة اهله وبنيه وعشيرته وذويه ومجتمعه بمن فيه وفي سياق هذه المقاربة الثقافية التي ترمي الى إيجاد قنوات تواصل بين المدنيين والامنيين يمكن الاستعانة بتقديم عروض تمثيلية ومسرحية بحضور مكثف لامينين من كل الاختصاصات والاسلاك بالدرجة الاولى وكذلك بعض الشرائح المدنية التي يتم اختيارها بقصد اثراء ما سيلحق من تحاور من ذلك على سبيل المثال لا الحصر اشارك بعض المختصين في علوم النفس وعلم الاجتماع ورجال القانون واساتذة في علم الحضارات وعلوم الدين واهل الثقافة والفن والابداع كالسينمائيين والرسامين والمفكرين المرموقين والشعراء وكتاب القصص والسينارهاث وعينة من البطالين من عامة الناس ومن اصحاب الشهادت العليا وعينة من الطلبة للاستئناس بالجميع سواء اثناء الحوار المفتوح الذي يمكن او يلي مباشرة تقديم العرض المسرحي حيث يوضع الامنيون وجها لوجه مع مختلف عناصر ومكونات المجتمع المدني للتحوار المباشر والصريح لتمكين الجميع من تبادل الاراء عبر قنوات تواصل غير التي تجمع بينهم عادة والتي نعرف انها وضعيات اقل ما يقال فيها شائكة احيانا او محرجة احيانا اخرى تصل لدرجة التنافر وحتى العدائية ومن جو التحوار البناء يتوصل الطرح الثقافي الى تقرب مختلف وجهات النظر من جهة كما يمكن الحاضرين من الاستفادة والاستئناس بما يقدمه المشاركون كل في اختصاصه المدنية والامنية وقد يتيح هذا التمشي جمع وتبويب كل الاشكاليات اوعلى الاقل اهمها والتي تطرح اثناء

او بعد كل عرض مسرحي او سنمائي على لسان خلف الشخصيات المقدمة للاشكاليات بخضور كل المختصين الامنيين والمثقفين والكتاب واهل الفن عموما للحديث الجاد حول مختلف القضايا التي تتصل بالارهاب ومشتقاته كالاستقطاب والتامر والاحتضان والترهيب والتزمة والجهل والمتاجرة بحاجيات الناس وقضايا اخرى ثم تبويبها ضمن بعض المحاور المحددة يتفرق بمقتضاها الحاضرون الى مجموعات ضمن ورشات عمل كل ورشة تتناول بالدرس المحاور التي تضبط من طرف الجميع ويتم استعمال كل التقنيات المتاحة لدراسة الاشكاليات من جوانب متعدد وابداع اجوبة او شبه حلول او على الاقل بعض المخارج التي تحاول توضيح بعض الاشكاليات المتعلقة بالموضوع المعروض للدرس على عناصر مخف ورشات العمل المشترك لصياغة نتائج المداولات في قالب توصيات عملية محسوسة وملموسة تراعي امكانية تجسيمها على الواقع بقدر الامكان مع توضيح مواطن اللبس فيها والصعوبات التي ينبغي تحديدها والتنبيه لما يعيق تطبيقها على ارض الواقع ونحن نعتقد ان من اوليات هذا الطرح الثقافي اشراك الجميع في بلورة تمشى صيغ في قالب خريطة طريق يحدد محتواها وتبلور مراحلها وادوات تنفيذها ويتعهد كل طرف من الاطراف الحاضرة بمهام متصلة باختصاصه او امكاناته او قدراته كما تحدد كل ورشة مختلف الاجراءات العملية وتواريخ انجازها قدر الامكان وقد يتميز هذا الطرح الثقافي بالاجرائية التي يتم الحرص من طرف الجميع على متابعتها متابعة لصيقة ومهيكلية بواسطة اليات تحددها طبيعة كل عمل ضمن مشروع متكامل يساهم فيه كل طرف وتكون تلك الاشغال مناسبة للتصالح الحقيقي والتفاهم والتكاتف والتآزر بين وجهات النظر ومقابلة الراي بالراي الذي لا يفسد للود قضية ونعتقد ان المستفيد الاساسي سيكون بلا شك المواطن نفسه الذي سيكتشف من خلال ممارسته الانية لمشاريع تواصل بينه وبين ثلة من الامنيين والمثقفين الذين قبلوا التواصل والتفاعل معه وقبل هو ذاته الانخراط في اهتماماتهم وتبنى بعض اطروحاتهم واستفاد من بعض توجيهاتهم واتفق وتحالف معهم وعاشروهم مدة زمنية وتفاعل مع الطرفين الامني والمدني بواسطة العديد من التيارات المغناطيسية التي ستربط بين جميع الاطراف ولو لمدة وجيزة وبذلك يكون الطرح الثقافي سنداً هاماً وازافة معتبرة للامنيين الذين احسوا بالفعل انهم مواطنون كما تمكن الطرح الثقافي من جعل المواطنين على اختلاف مشاربهم واختصاصاتهم يجتازون في ذواتهم دور الامني الرقيب على نفسه ما مكنهم من تفهم ضرورة تقبل

رقابة الامني عليهم ويتفهمون مشروعاتها ويتحقق بذلك تقارباً مقبولا بالتراضي ربما يستفيد منه الجميع ويساهم في التقليل لنقل من نظرة الاحتراز او الخوف او الريبة او فقدان الثقة فبعد ان كان المواطن ينظر للامني كاداة قمع او زجر او عداء احيانا يصبح بعد هذا التقارب رقيقا في وقت معين وربما صديقا وربما يتمكن المواطن من اكتشاف الجانب الانساني لدى الامني كما يصبح الامني اكثر وعيا بدور المواطنة فيه ويصبح كلاهما سندا وربما رفيق درب ويكتشفان ان مهمتهما في مكافحة التطرف والقضاء على الارهاب مهمة مشتركة تحتم عليهما التعامل الوثيق وتسهل قنوات التواصل بينهما ان الامني هو في الصفوف الاولى من هذه المواجهة لابد للمواطن ان يستوعب طبيعة عمل من يحرسه ويأخذ ذلك بعين الاعتبار بمراعاة تلك الخصوصيات وضمن تلك الورشات يحصل الوعي الكافي بضرورة وقوف المدنيين جنبا الى جنب مع الامنيين وكل القوات المسلحة في جميع الاختصاصات حرصا على سلامة الوطن كما يتم تثمين ما يقوم به كل هؤلاء من تضحيات تذكر فتشكر في ميدان مكافحة الارهاب باعتبارها مقارنة لا يمكن تجاوزها ابدا كما يحصل الوعي بقيمة البعد الثقافي الغير معلن في المقاربات الامنية ويتم استبطان العديد من المفاهيم الهامة والي كانت مستبطنة في اللا شعور او غائبة عنه تماما كما يتم التثبت بان أي طرح ثقافي لا يمكن ان يتجاوز ما يقوم به الامنيون وربما يستفيد عامة الناس من التجربة الامنية والعسكرية ويتخذونها مرجعا اساسيا لا يمكن الاستغناء عنه ونعتقد ايضا ان هذا الطرح الثقافي في حاجة ماسة للاستلهم من التجارب الامنية في علاقتها بمقاومة التطرف والارهاب فهي اساسية لاستكمال الطرح الثقافي وظيفته ونجاعته بل نذهب لحد اعتباره السند الضروري والحتمي الذي لا بد من نقل فلسفته ومحتوياته لاوساط اخرى وسياقات اخرى وشرائح اجتماعية اخرى كالعامل والنساء والاطفال والطلبة وعامة الشرائح الشبابية اينما وجدت وكيفما كانت ونحن متأكدون ان مثل هذه المقاربات اذا ما دخلت في معيش الناس من خلال مثل هذه الممارسات ستقرب بين وجهات النظر بين مختلف الشرائح وتضع مختلف الاطروحات الفكرية على ذمة الامنيين والقوات المسلحة عموما وبالاخص منها اطروحات الخطاب الديني الذي ستتناوله كل الورشات بالدرس المستفيض ضمن الورشات لتوحيد النظرة وتمكين اهل الاختصاص في الدين وشرائح المشرعين عموما من نهئية خطاب ديني متماسك واضح المعالم بين المبادئ مقنع متفتح تنويري دقيق سليم من التاويلات المجحفة صالح لكل مكان وزمان دون ان يكون فضفاضا او هلاميا او مائعا ومن

اهم ما سيحصل في هذه الحوارات الثقافية بروز تاكد ضرورة التنسيق بين جميع هذه الروافد الهامة والاساسية في تكوين فكر سليم مترشد قادر على التصدي لكل اطروحات الاستقطاب المجحفة والتدين التضليلي او المبالغ فيه اوحى المبيت كما تبين ان الممارسات الامنية والمدنية السليمة يجب ان تكون حصيلة تفاعل مختلف الاطروحات الموثوق فيها دون اقصاء او تهميش لاي منها وان توحيد نظرتنا تجاهها امر ضروري بل حتمية لا مناص منها وان الطرح الثقافي يستمد قوته من قدرته على ايجاد الصيغ التي تجمع بين كل تلك الروافد السليمة والمتفق عليها ضمن تمش موحد متكامل بين وجلي متفق عليه من طرف الجميع على حد سواء باعتبارنا جميعا في اشد الحاجة لذلك كما سيؤكد الطرح الثقافي على ضرورة تثبيت جميع الاطراف الفاعلة للتصدي للتطرف ومقاومة الارهاب بنفس الايمان ودون خلفيات اديولوجية او عقائدية او سياسية والتحلي ببعض القيم الجديدة علينا كمفهوم الامن الجمهوري والتعامل بقاعدة احترام حقوق الانسان وفي سياق ما جاء في دستور البلاد الجديد وطقوس الديمقراطية ومخرجات التعايش السلمي ومراعاة مقتضيات التنمية المستدامة التي تحرص على المحافظة على حق الاجيال القادمة في التمتع بثروات البلاد يتدرب فيها الجميع على الاستفادة من كل التجارب بما فيها التجربة الامنية وما فيها من الخصوصيات الميدانية والمعرفية وما لها من مقاربات لصيقة بالميدان ومختصة في فهم كل ملامحه وملاساته وتصرفاته وطريقة تفكيره وما للامنيين من دراية بالنوايا المخترنة والمعلنة للخطط الارهابية وما لهم من مخبات واسرار لا يمكن ان تخفى على الحس الامني المتذجر في بلادنا والذي جعل من امننا مضرب الامثال في العالم باسره يمكن ان تستفيد من تلك عقيدته الراسخة كل الاطراف بما فيها الاطراف الاساسية الفاعلة والمؤثرة في مجرى الامور وما يطمئنتنا جميعا ويعزز من شان اهمية الطرح الثقافي هو ذالك الانخراط الحقيقي والالتزام الجاد الذي توليه كل المؤسسات المدنية والطلابية والامنية والعسكرية للطرح الثقافي من حيث المبدء ومن حيث الاجراء وهو ما يثبت للجميع ان المؤسسة الامنية التونسية ومن ورائها قواتنا المسلحة بمختلف اختصاصاتها كلها بخير وعافية وتناغم مع كل الاطراف الفاعلة من اجل سلامة تونس وامنها واستقرارها وسلامة اهلها وشعبها وحاضرها ومستقبلها.

الفصل السادس والعشرون

قال الراوي

- نظرت الزوجة الى زوجها وقالت وهي تصلح بعضا من هندامها وتخفي تحت محرماتها سبلة متنتطة من شعرها العجري المغطى غنجا

- أين صندوق الجود الذي تركوه لنا ؟ لو كان عندي لفتحتة وأخرجت منه كل الرؤوس التي حواها لأوزعها على هؤلاء المساكين ما أحوجهم لهذه الرؤوس الان وما أحوجهم للتَمَعْن والتَفَكَّر والتَبَصَّر والتَذَكَّر

قال الزوج

- لا شك يا عزيزي أن الرَّازي وابن زهر كان لكل منهما رأس كالرأس الذي تحملينه الان بل أنا متأكد أيضا أن للخوارزمي رأس كهذا وأن الجاحظ وعبد الواحد ابن عاشر والدكتور أحمد بن ميلاد والغزالي ومحمد الصالح الحماسي والفاضل الجبالي والرسام يحيى والفنان محمد التريكي وأب السينا التونسية الأستاذ الطاهر شريعة والمربين الأفاضل البشير الشَّاوش ومحمد الصغير الأدب ومحمود المسعدي ومحمد القرمادي والأستاذ المحامي شكري بالعيد والحاج محمد البراهمي وغيرهم كان لكل منهم نفس الرأس بل لا أستبعد أن يكون نفس هذا الرأس ملك للكثير من الضيوف الحاضرين بيننا نساء ورجالا

قالت الزوجة

- سيدي القاضي أنا لا أشك في أن العديد من المعاصرين أمثال عبد الكريم جلال وطبيب العيون المتميز الاستاذ الدكتور أحمد الطرابلسي وابنه عمر والدكاترة الاطباء محمد كمون وفوزي كنون والمسطاري الغربي ومحمد الفاتح السيفاوي والعقيد الصخري والعقيد الباجي والكتابة حفيفة قاره ببيان والشاعرات زكية الطنباري ومهى عزوز وعبد القادر الغربي وصالح مورو وهند السميراني ووهيبه قوية وزهرة بوشان والباش قاص صالح الدمس واستاذ اللسانية عثمان

بن طالب والاستاذة الفة التليلي والممثلات لطيفة القفصي والشباب الطموح لسعد ششوب ووحيدة الدريدي وجليلة بكار ومنى نورالدين والشاعرة زينب الزناد والاعلامي خالد الشريف وعميد الاعلام التلفزيوني وحبيب حريز وعميد الاعلام الاذاعي حبيب جغام وصاحب المنوعات الاذاعية والتلفزية المتيزة واستاذ القانون رضا خماخم والاستاذة المحامية ليليا عيسى وزميلتها هذه الذوادي وزميلها محمد الطرودي والبشير القمودي والاسعد ششوب والخطاط الموهب بالخشين والحبيب العربي والاعلامي والممثل والكاتب رشيد البكاي وكل اللذين ساهموا في اعلاء صوت الاعلام ومكّنوا العديد من الكفايات الفنية والادبية من البروز والتألق وساهموا في الربط بين الاجيال وقاوموا الرداءة باناة واتزان وحنكة منذ البدايات المتجذرة في ذاكرة الذائقة الثقافية والاعلامية التونسية والعربية رغم صغر سن بعضهم النسبي ولا استثني عميد الصحافيين محمد الباكوري ولا حنان الذوادي ولا زهره بوشان وقد مكن صبر كل هؤلاء من مواصلة مشروعهم الثقيفي النبيل ولم تستطع السنون ولا الصعاب افشالهم او الحد من دفع سيلهم الجارف ولا ننسى المذيع اللامع رمزي العمودوني والشاعر السويلمي بوجمعة والمحلل علية العلاني والمذيعين البشير رجب موحد الاجيال ورافع راية احترام الشيخوخة والاستفادة من تجارب ابائنا واجدادنا والمذيع المتألق المكّي كربول والكاتب رشيد الذوادي والشاعر الشحرور طاهر المشي مدير مؤسسة الوجدان الثقافية بمختلف فروعها الاليكترونية وزملائه من النساء والرجال والنادي الادبي والكلمة الحرة ومجلة حروف وكلمات ونبض الكلمات وملتقى الكلمة الراقية وصفحة الكاتب الصحفي والاديب هشام النجار والصالون الادبي ومكتبة السيدة حياة الفقيه ورابطة مبدعون بلا حدود وشبكة المراسلة الميدانية ااما سلامه ومؤسسة ال فرحات وكلمات وفنون تونس ومنتدى محبي الاذاعي البشير رجب وبوح الجوري ونادي مصطفى الفارسي للابداع برئاسة الكاتب والمربي والنقابي الاستاذ منصف بالحوله بجمعية جليلة الفارسي والاتحاد الدولي للكتاب العرب وغيرهم ممن لم أذكرهم وهم كثر والذين يمتلكون نفس هذا الرأس كما لا أشك أيضا أن العديد من الرجال والنساء الآخرين لديهم نفس الرأس .

قاطع الزوج زوجته بجذها اليه بلطف وخاطبها بحميمية قال

- غدا ستركبن منطاد جرأتك وتدخلين بين حبات رمال صحرائنا لتحاورى الاديم الصامت

الذي ما زال في انتظار استنطاقه لعله يروي لك كيف احتوانا سنوات ليلقي بنا في الطريق بثقل العصور التي مرت بلا استئذان ولا سابق إنذار كالشعرة في العجين أو ربما كجلمود الصخر الهاوي من الجبل المجاور للسيل والذي يخشى أن يعطل مجرى مائك الرقراق أو يلوّث عذوبته وانت تدخلين الربوع الجرداء أسألها عن تلك التركة التي قذفت بها في مسارك عليها تذكرك باصولك الاولى المتجذرة فيك وفي كل امرأة تونسية متخفية في ملامح تشبه إصالتكن القادمة من افاق النسيان المندس في اديم الأزل الرّاسب والذي ورثتهن عن عليسة او اروى القيروانية او الكاهنة او الجازية الهلالية علكن تسترجعن ارثكن من الذكاء الذي تحلّت به صوفونسب والسجية التي سرقنتها من السيدة المنوبية والطيبة التي اودعتها فيكن عزيزه عثمانه والثقافة التي تعلمتنها من بشيره بن مراد والغنج بسرّه وكُمونه الذي سرقنته عن ابنة حلق الوادي كلوديا كاردينال سلي الربوع التي ستواجهنا لماذا أسرّت أن تضع بين ايديكن اخر ما انجب السلف الذي أحبّها ونهل من نسيم قرّها وحزّها وإذا مررتن تحت نخلة ستعرفن لماذا أسرّت أن ترفع رأسها إلى الأعلى وكأنّها تريد أن تعانق السّماء لتسرق منها صفاءها وامتداداتها وتضعها كلها بين ايديكن كأنها تعلن ولاءها واعترافها بجميل احتوائكن لبعض ذكريات أزمنتها الغابرة عارضة عليكن كرم ضيافتكن بقدر سعة بالكن وفسحة مزاجكن البطولي

وبعد ان سكّت الزوج لاسترجاع أنفاسه قال

- وانت داخله باسمهن جميعا إلى هذه الربوع التي احتضنت الانسان الافريقي الاول قولي لها لقد جاءت بنا إلى حضنها كرما منها وشفقة علينا حتى لا ننسى أصلنا في خضم التنكر السائد واللامبالاة المغرقة في البشاعة ولو كان من قبيل السهو واليكن جواز سفرك الى ارض جوكرطا ومملكة بني الرند ومركز اول عملة طبعت في تونس بادرة خير يترشّف منها الزّمن المترنّع في التّكران كأس الاعتراف بالجميل في زمن الجحود الذي اذا استنصحتّه سيقول لك علّه يعلم من خلالك الناس الجحود

- اصرفي مالك عليك ولا تفكري في تركه لمن سيعاديك ويعادي اقرب الناس إليه من اجل الاستحواذ عليه ولا تشغلي نفسك كثيرا بمشاكل أبناك واحفادك اذا كتب لك ان تكوني جدة لقد قمت بواجباتك نحوهم بما فيه الكفاية والان اعطني بصحتك وراحة بالك فأنت باشد الحاجة

لذلك ولا تنقدي تصرف الجيل الحالي ولا تتدخل في ما لا يعينك واكتفي بعرض تجاربك الناجحة على نفسك ان ما زال لك عقل للتفكير او التذكر وواصل الاعناء بأناقتك ونظافتك وهواياتك حصريا واتركي البلاء لاهل البلاء واعلمي على استكمال مشاريعك المتعلقة وحافظي على افتخارك بانجازاتك وحديثي عنها مرايتك بتواضع او كبرياء واستفيدي من علوم العصر وإدراجها في اهتماماتك ولا تخافي من المستقبل وكوني واثقة من نفسك ولا تستسلمي للإحباط أو اليأس واجعلي ما تبقى من عمرك هبة منك لك ولك وحدك.

قال الرَّاوي

- كنت أستمع للزوج وزوجته بكل اهتمام وأنا لا أستغرب أن حاملي مثل هذا الرأس كثر ومن بينهم بلا شك أنت أيها القارئ وأنت أيها القارئة ولي على ذلك حجج وبراهين كثيرة أدعوك للتشبه منها من خلال مواصلة متابعة ما كان يجري بين الزوج وزوجته بحضور القاضي الذي تظن هو الآخر لأهمية الموضوع لذلك تعمّد التعمّق في العديد من الملابسات من خلال مزيد استقراء بعض الأحداث أو المفاهيم.

كان يشاهد كيف أن الزوج يتأمّل في الرؤوس بكثير من التّركيز عندها سأله القاضي بغته قال

- أموت وأعرف الان بكلّ تفصيل فيما تفكّر أيها الزوج

أجاب الزوج الحائر بشيء من الحصرة والاستغراب

- الان فقط عرفت أن أهلكنا بدأت مصائبهم منذ انتزع منهم هذا الرأس واستبدل بالرؤوس التي يملكونها حاليا وقد زاد يقيني أثناء الرحلة الأخيرة التي قمت بها مع زوجتي وهي تحمل معها هذا الرأس الجديد المستعار بل لا أستبعد أن يكون هو ذاته السّبب في مجيئنا الى حيث نحن الان وأكثر من ذلك فأنا وزوجتي نتفهم جيدا ما يقع لنا في هذه القاعة وخارجها من بلاوى سببها الرؤوس التي تنفقد الى اليات العمل الجيد الرّصين المبني على الحكمة والموعضة الحسنة والعلم النّافع ومكارم الأخلاق والتي نعلم أشدّ العلم أنّها ضروريّة الان لكل عربيّ وكل عربيّة في كامل أقطارنا وأمصارنا.

فجأة ارتفع صوت امرأة كانت تجلس في اخر القاعة قالت

- من جراء هذه الرؤوس المتخلفة نحن نعيش سيدي القاضي أزمة أخلاقية حادة في كامل البلاد العربية لذلك لم نستطع فهم رسولنا الذي أكد أنه بعث ليتّم مكارم الأخلاق وقد كان على خلق عظيم ونحن نعتبر الحداثة كفرا رغم أننا نسّمى كلام الرّسول "حديثا" لم يقله قبله أحد وأن القرآن منبع الحداثة والتّجديد والتّجليّ ناهيك أنه يروي لنا من الأخبار ما يندرج في باب الحداثة المطلقة كيوم القيامة ويوم الحساب والجنة والنار.

استوقفها القاضي وطلب منها تقديم نفسها للجناب قالت

- أسكن في بلاد الخيانة العظمى بمدينة الخوف المريع في حيّ الصّمت القاتل شارع الكبت المطلق نهج الاستكانة الكاملة زنقة الاستسلام الكلي عمارة الانبطاح المفرط مدرج الخنوع القاتم شقّة الإذعان المخزي باب الرّياء المستفحل.

وصاح أحد الشّبّان الذين كانوا يجلسون خلف تلك المرأة.

- سيدي القاضي هذه المرأة صادقة وانا احد جيرانها من الضفة المقابلة أسكن في شقّة تبدأ بباب الكرامة الذي يفتح مباشرة على مدخل الرّفّض الذي يفضي بدوره إلى رواق المقاومة فقاعة الكفاح ثم مدرج الرّفعة فصالة الأصالة ومنها إلى باب الشّجاعة ثم باب الانعتاق وفضاء الوحدة وتنتهي بساحة الثّورة المفتوحة على قوس النّصر المطلّ بدوره على بطحاء الاستقامة التي تنتهي بأفق الغد الافضل.

قال القاضي وهو يتابع برادار البصيرة جغرافيا هذه الأمثلة

- شكرا على التقديم المفصّل لكل منكم لكنه كلام على كلام في كلام واصل حديثك

واصل المتحدث قال

- أرجو منك سيدي القاضي المحترم أن تطلب من زوج هذه المرأة الكريمة الفاضلة أن يواصل حديثه الشّيق والمفيد.

واصل الزوج حديثه بعد أن حضي بموافقة جناب القاضي عن طريق اشارة ذكية من يده الكريمة قال الزوج في الحين

- يحكى سيدي القاضي أن بعض هؤلاء يعانون الأمرين مما يرتكبه بعض من بني عشيرتهم روى لي أحد الثقات أن أحد زنادقة العصر عمد الى اختلاق مؤسسة للسرقة الموصوفة ذات طابع قانوني صدر نصّه كاملا في الرائد الرسمي للبلاد.

قال جناب القاضي مستغربا من الأمر مستفسرا في شأنه

- وهل تجوز قوانينهم مثل هذه السرقات وهم قوم أخلاق؟

قال الزوج وهو يقاوم رغبة الضحك التي استولت عليه فجأة

- بقدر ما يتقن هؤلاء مصادر التراتيب الأخلاقية بقدر ما يستنبطون الأساليب اللعوبة للعمل في الظاهر بالقانون والأخلاق وفي الواقع بالغش ويسمون ذلك "عفرة" وذكاء وربما "تدبير الرأس"

فتح القاضي عينيه من شدة الاستغراب وقال متوجّها للزوج

- تدبير الرأس وما تدبير الرأس في سبركم ؟

- أفضل سيدي القاضي ان تجيبك على سؤالك هذا زوجتي المصون فهي أعرف مني بما يدور في خبايا هذه الرؤوس.

نظرت الزوجة الى زوجها بكثير من التعجب وقليل من العتاب قالت

- سيدي القاضي زوجي محقّ في ما يقول منّا من بيعث شركة غشّ في اطار قانوني بل أكثر من ذلك حتّى عندما يكتشف الناس الغشّ فان القانون يعجز عن ردع ذلك كما وقع لشركة "يسر للخدمات" التي عمد صاحبها الى تقديم عروض مغريّة لعامة الناس يعرضها في جداول مطبوعة رسميًا وموزّعة بين الناس علنا تتميز بكثرة الاغراء وتقدّم ربعا كبيرا لكلّ من يمدّ الشركة بمبلغ مالي نقدا وفي كل يوم عرض جديد واخر تلك العروض سيدي القاضي أنك اذا ما

سلمت للشركة خمسة وخمسين ديناراً فأناك تتحصّل على ربح يقدر بمائة دينار بعد خمسة وأربعين يوماً وأما إذا ادّخرت لدى نفس الشركة مبلغ مائة دينار فإنّ ربحك يقدر بمائتين وثمانين ديناراً بعد خمسة وسبعين يوماً أما إذا تشجّعت وادّخرت ثلاثة آلاف دينار فأناك تحصل على فائدة تقدر بسبعة آلاف وخمسمائة دينار بعد مائة وخمسة أيام فقط وتحصّل على فائدة قدرها خمسة وخمسون ألف دينار إذا ما ادّخرت واحداً وعشرين ألفاً وخمسمائة دينار صدّقني سيدي القاضي انا أقرأ عليك الوثائق الرسمية وسأمدّ حضرتكم بها الآن.

انتفض أحد مساعدي القاضي من مكانه وهو يستحث المرأة المتكلمة قائلاً

- ربّك يا أنت دلّيني على هذه الشركة فأنا وأهلي وأقاربي وأصدقائي وجيراننا كلّنا في حاجة ملحة لمثل هذه العروض.

قال شاب كان يجلس في الجانب الأيمن من اخر القاعة

- سيدي القاضي عندهم شركة أخرى تقدّم عروضاً أحسن بكثير مما سمعت

شرح مساعد القاضي في التدخل فوراً وكأنه يريد أن يستبق الأمر

- اذا كنت جاداً دلّني أيها الشاب المطلع على هذه الشركة من فضلك وبسرعة قبل أن تفوتني مثل هذه الفرص الخيالية. لم يتمالك الرئيس المساعد من الاسراع في التّدخل قال

- أنا كذلك في أشدّ الحاجة لمثل هذه الهبات السخية الكريمة.

قال مستشار اخر مخاطباً الشاب المتكلم بلهف شديد شديد

- خذني معك الى هذه الشركة ولكم مّني هبات وهدايا هامة.

وقالت احدى مستشارات جناب السيد القاضي وهي تزغرد

- لا تحرموني من هذه النّعم أرجوكم أنا أكثر منكم حاجة.

عندها اضطر الزوج الى إيقاف نزيف الطمع المتدفّق قائلاً

- صبركم علي لا تستعجلوا الأمر فقد تيقنت أخيرا أن الشركة أفلست وتعذر على القانون ارجاع أموال الناس لأصحابها ووقفت الشَّعبة بالهارب كما يقول المثل عندنا

عندها نطق القاضي وكأنه ينتقم لنفسه من هؤلاء جميعا.

- من منكم لا يعرف أن القانون لا يحمي المغفلين البتّة

قال الزوج

- ولكنه على ما يبدو يحمي الأذكياء

صاح شيخ طاعن في السن من داخل القاعة قال

- سيدي القاضي أيها الحضور الكرام كل هذه المظاهر مردها الأساسي أن حكامنا العرب سقط الكثير منهم في امتحان الكرامة وقَدَّمُوا أوراق اعتياد عمالتهم للصَّهيونية والفاشية الأمريكية والغرب المستكشر والذي يتعامل في الظاهر بقناع الديمقراطية ويتشدق باسم حقوق الانسان ولكنه يسقط في اول الامتحانات التي تعترضه ولنا في عدائه لمشروع الاصرار على تحرير فلسطين من نير الاستعمار الجاثم على اهلها قرابة القرن مثال صارخ ونوعي يدل دلالة قطعية ان الغرب المتحضر اكبر كذبة عرفها التاريخ

تدخلت فتاة في مقتبل العمر قالت متحمسة

- أعداؤنا أرغمونا على الإذعان والاستسلام ولم ندعن ولم نستسلم أقاموا علينا حدَّ القوَّة ونعتونا بالتَّطع والتطوُّف وأحلُّوا دماءنا واستحيوا نساءنا وقتلوا صغارنا وهدَّدونا وأرهبونا هم افتكروا مِنَّا ديننا وحَبَّسوه على أنفسهم والأدهى والأمر أن البعض فسَّر القرآن والأحاديث بحسب هواه وأنا أعتقد سيدي القاضي أن القرآن لم ينزل باللُّغة العربية تكريما للأمة العربية فقط بقدر ما نزل كذلك حجة عليهم .

قال صوت فيه تأتأة

- كككيف تققول ههههذه العوعوعوعورة هذا الككككككلام؟

- أنا عورة ؟

- ما دمدمدمت امرأة فأنت عو عو عو عو عورة

وصاحت متحجبة تجلس بالقرب من صاحب الصوت

- أنت أكثر من عورة أنت كافرة بدليل أنك تشككين في تكريم رب العزة للعرب بالقران الذي نزل بلسان عربي فصيح.

أجابتها الفتاة المتهمة

- مهلا لم أكمل رأيي أنا قلت ربنا كان نزول القران باللغة العربية تكريما للعرب والثابت أيضا أنه نزل بالعربية ليكون حجة عليهم وشاهدا وذلك من حكمة الله وعدله أرمسترونق ملحد نزل من كوكب القمر وهو ملحد ثم أسلم

صاح أحد المتدخلين قائلا

- "انما يخشى الله من عباده العلماء"

عقبت المتحدثة قائلة

- صدق الله العظيم ألم يكن أرمسترونق عالما ؟

ثم واصلت تعليقها قائلة

- في حين أن بعض شبابنا العربي وهم قلة من حسن الحظ بمجرد أن يشرع أحدهم في تعلّم الفلسفة يبدأ في تعبيره عن الشك في وجود الله.

فجأة ارتفع صوت شاب ملوّح بصورة لأحد السلفيين العلماء في الطبّ يعمل خارج الوطن العربي قال

- سيدي القاضي يقدمون لنا بعض النماذج البشرية بأزياء سلفية معهودة لدى الموغلين في التدين أصحاب اللحى الطويلة والأكسية البيضاء أو السوداء التي تشبه القفاطين الفضفاضة

بدعوى أنهم علماء أجلاء يعملون في الخارج على الأقل من خلال صور لما يسمونهم شيوخا وقد قدّموا لنا اليوم طبيباً يعمل في أمريكا كما يقول من نشر الخبر بمجرد الاطلاع على صورته تكتشف أنه بالرغم من أنه متميز في علمه مفيد لغيره على حد ناقل الخبر فإني أرى أن هذا الطبيب لم يستفد من علمه شخصياً ويظهر ذلك من خلال جلسته غير المريحة وكذلك من خلال جسده الذي يبدو جلياً أنه في وضع غير طبيعي كما توحى ملامح وجهه بالكابة وتتجلى عدم استفادته من علمه في أكله الظاهر في الصحن ويظهر من تركيبته أنه غير متوازن لذلك لا أعتقد أنه استفاد من علمه بالنظر الى الحال التي تمّ تقديمه بها كما لا أعتقد أننا في بلدنا هذا بحاجة الى هذا النموذج الذي لم يوظف لصالحه علم الطب الذي يدرس فيه ولم يستفد من نقاوة اسلامه الوسطي مثل ما فعلنا نحن ما مكّننا من أن نؤدّي ما علينا من واجبات الطاعة لله ومن اتباع تعاليم رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حتّى أدركنا الاحساس بالطّائفة النفسية وراحة البال والسعادة وقد جعل ديننا منا أناساً أسوياء نحمد الله على هديده لنا ونأسف شديد الأسف لما وصل اليه بعض شبابنا العربي وبعض من شباب العالم في بلدان مسلمة غير عربية من الرضا بالدون والتخلف وتعذيب النفس وانكار مزاي العلم والتعلّم بدعوى الاقتراب من الله وكأنّ الله استخلفنا في الأرض لنشقى وننسب في شقاء الآخرين وربّما قتلهم أو ذبحهم ان لزم الامر والأشد والأمر أن تنظلي مثل هذه الخزعبلات على بعض شبابنا فيتحمّس لها بكلّ سذاجة دون أن يمعن فيها النظر أرجو أن يراجع هؤلاء مواقفهم ويلتزموا بالدين الاسلامي المحمديّ الصحيح ويتعدوا عن المقاصد الوهاية المتخفية وراء أفعلة التدين المزيف والتدين المسيّس والتدين المتحجّر ولتحيا بلادنا عربية مسلمة غير متزمتة ولا رجعية.

ما أن انتهى الشاب من محاضراته حتى ارتفع صوت شاعر مرتجلاً قال

- كلّ بر به يقسم وعلى الرسول يسلم ويقول آي مسلم والاخرون المارقون تقسّموا وتشرذموا أهل اليمين تعمّموا ويسارهم متبرّم متلثم ومن تقبّوا أقسموا أن يبرموا حلفاً مع من سلّموا واستسلموا وجميعهم لم يسلموا أو أسلموا الله وحده أعلم

علّق على القصيدة رجل في الستين من عمره مخاطباً الشاعر الشاب قال

- هذه صيحة تضاف لمثيلاثها وكأنك تعزف على أوتار قلبك بريشة الاحساس الوديع ولا تلتجئ للتنميق اللفظي ولا للبديع ولا حتى لرنين الوزن موسيقى شعرك تلد من زخم الأحاسيس التي تتدفق من سلسيل تلقائيتك بوحك اليوم يبشر بولادة قصيد الرب الذي يروي المعاناة الأزلية في خصوصياتها الانية التي تميز هذا العصر واصل فطريقك مفروش بالورود على البساط الأحمر الى محطة عنوانها الصدق الجيد الخارج من الأعماق واصل أنت على الطريق السوي لا تتحرج من أخطائك فما يسميه غيرك أخطاء وما تحسه أنت من نقص هو بابك للأجل والأصح والأجود لا تخشى من الأخطاء فالخطأ مطية الصادقين لما هو أحسن اركب صهوة أخطائك وتجنب ما استطعت منها شيئا فشيئا فهي التي ستعلمك الكثير يا بني.

الفصل السابع والعشرون

قال الراوي

- مساء الجمال والعافية يا نساءنا بكنَّ سيقى وطننا جميلا ونظيفا ونقيًا وتبقى أطعمته فوحاء وبيوته جنَّات وشوارعه معطرة منكَّن يتعلَّم رجاله حبَّ الوطن وينشأ أبناءنا على البذل والأخلاق الرفيعة والقيم السَّمحاء

ما أروعكنَّ يا من اتميتنَّ لأجيال النساء اللّواتي نحتنَّ جزءا هامًا من عبقرية هذا الوطن وساهمن في استكمال مسار هذا الشعب نحو الالباء والرّفعة والسّودد بالعلم والمعرفة وحسن التصرف واستوعبن الدرس بتحملهن لبعض رواسب التخلف وبقايا الانحطاط وكن بالمرصاد لكل يد هدامة وكل تيار رجعي وكل محاولة جذب الى الوراء الا يحق لهذا الشعب وهو في مسار الانعتاق العسير ان يفخر بامثالكن يا زهرات العشق ورموز الحب وايقونات النضال المستمر من اجل غد يجب ان يكون افضل انتن وامثالكن بصدد شن حرب ضروس على كل القوى الغاشمة التي تحركها المصالح الضيقة والرغبات الحيوانية وبقايا جاهليتنا الحمقاء المدارة بامرة اولائك الذين باعوا ذمهم واستهتروا بوطنهم وعبثوا باهله اولائك المتربصين بنا وبأوطاننا والذين يعتبرون اشد خطورة من الاستعمار واكثر شرا من المتكالبين الاجانب لا تعطوهن فرصة التمكّن والتمكين ولا تفسحوا لهم طرق بث الفتنة فينا واذكاء جذوات التناحر بيننا اخمدن نيرانهم واسددن الابواب امام شرورهم بنشر الامل فينا والدعوة للحزم والعزم على اخراج بلادنا من براثن التخلف وانياب التواكل فانتن من تعرفن من اين تؤكل الكتف وانتن كتنن دوما في الصفوف الاولى التي احست بالخطر المترص ببلادنا بفضلكن لن نضل الطريق وسنسير بهديكن حتما نحو الخلاص سخرن جهدكن وعبقريتكن لمقاومة الدعاة الادعياء بقوة شخصيتكن سيتنصر هذا الوطن العزيز وسيتغلب على التشاؤم والاستسلام والتواكل يا نساء الانس انحنن مستقبل هذا الشعب العظيم بحصافة رأيكن وذكاكن وطيبتكن وصبركن وتفهمكن ورجولتكن أيضا والتي رغم كرم توزيعكن لها على كل الرجال لم تفقدنها ابدا

الفصل الثامن والعشرون

قال الراوي

- التأمّت جلسة محكمة الشعب من جديد وكأّن جناب القاضي أراد أن يخصّصها لندارس انطباعات الحاضرين واشراكهم في الرّاي والتّعليق على ما يجري من أحداث بنسق سريع جدّاً ومباغت جدّاً قال متّجها لبعض الواقفين والجالسين والوافدين نساء ورجالا وأطفالا على اختلاف ألوانهم وأزيائهم

- أليس كذلك ألا تلاحظون معي ما نحن بصدده

أجابت احدى السيدات الحاضرات من اللواتي تحلّقن حول جناب القاضي وثلة من مساعديه الأجلاء قالت

- بلا سيّدي القاضي أعتقد بأننا محظوظون جدّاً أنّنا نعيش فترة زمنيّة مفصليّة أعتقد أنّها فترة المصارحة وربّما فترة الحسم جاءت بعد أعظم ثورة قام بها هذا الشعب بصفة تلقائيّة واتّسمت بالعمويّة والاصرار على تغيير التّغيير المزيف أكثر جدّيّة أو هكذا تصوّرناه من أجل السّير نحو الأحسن والأسلم والأجدر والأحقّ ويظهر أنّ الشعب الان ما زال يتحسّس طريقه للوصول الى مبتغى توفقه أليس كذلك سيّدي القاضي .

قال القاضي دون تردد

- ثورة ثورة نعم ثورة أنّها بحقّ ثورة أحسست بذلك عجباً ما أروع أن نعيش معكم في ثورة حقيقة.

سكت قليلا ثمّ أضاف

- كلّ طاقم محكمتنا سعيد بالحضور بينكم الان نحن بصدد تحسّس علامات الثّورة ومنها الانتفاضات والاعتصامات والاحتجاجات والاضرابات والتّظاهرات كلّها مظاهر تحسّس

وتجارب كلّها محاولات لولادات جديدة وكلّ ولادة صعبة أحياناً وأحياناً أخرى عسيرة كلّ ولادة لها ثمن ولكن ذكاء هذا الشعب العريق كفيل باختصار الأضرار وتحديد الخسائر وتجنّب مزيد من النكبات والانتكاسات والتجاذبات والثورات المضادة واردة وكذلك انتهازيّة بعض الأطراف الدّاخلية والخارجيّة والاقليميّة والمحليّة واردة والأطباع الظّاهرة والخفيّة واردة وحساباتها المعلنة وغير المعلنة واردة أضف الى ذلك عنصر المباغتة من جهة وانعدام او قلة التجارب في ميدان التحوّلات الجذريّة في مجتمع شبه متكلّس يستمدّ جذور الخوف من المجهول من واقعه المحافظ وغياب الرّؤى المستقبلية وشبه انعدام روح المغامرة والمبادرة والتّجاسر كلّ ذلك وارد.

تدخّل أحد الحكماء الحاضر بهذه الجلسة الاخباريّة قال

- سيّدي القاضي أنت محقّ في ما ذهبت اليه لذلك نرى كيف أنّ كلّاً من الفاعلين من أيّ اتّجاه أو مشرب أو فصيلة أو مذهب يحاول الرّكوب بطريقته على الثّورة مسكينة هذه الثّورة.

صنّف بعض الحضور وامتنع البعض الآخر وامتنعت الاغلبية الباقية من الادلاء بآبي انطباع باد وابتسم القاضي وكأنّ ذلك شجّع المتحدث الذي واصل قائلاً

- لا أشكّ أنّها ثورة بحقّ ولا أشكّ أنّ كلّ مظاهر الخور الباديّة وجميع هذه البشاعات التي تعيشها البلاد من شأها لجنوبها ومن شرقها لغربها وكلّ هذه النّقائص المتمثّلة في تنامي ظاهرة الإرهاب والعنف والتّكفير والتّهديد وانتشار السّلاح والجرائم بأنواعها والبراكاجات وانتشار الرّزلة جهاراً والفقر البطالة والأمراض وإرتفاع الأسعار وإرتفاع المديونيّة وحرق الأولياء الصّالحين وتدنيس العلم وتهديد أو قتل المعارضين والشّخصيّات السّياسيّة وذبح الجنود والرّعاة المساندين لهم او حتى من التزم منه بالحياد وقتل أعوان الحرس والأمن والهجمات المسلّحة على المدنيّين في المناحف والتّزلّ والمحلّات العموميّة وحرق وتدمير المقرّات وزرع الألغام وبروز العنف في الكليّات والمعاهد وانتشار الأوساخ وكثرة التلّوث وانعدام الثّقّة بين المتعاشين وغيره كلّ ذلك لا يمثّل إلاّ الملامح الخارجيّة للثّورة التي ما زالت تتحمّس طريقها لاستكمال أهدافها الحقيقيّة فما نراه اليوم هي تلك القشور التي تفرزها الثّمار أثناء استكمال نضجها ولا تحسب القشور على اللّب ولا ينبغي أن نحسب على الثّورة ما لحقها من نقائص فكلّ تلك المظاهر على

بشاعتها لا تحسب في الأصل على الثورة وإنما على الفترات التي هيئت للثورة وهي صور ناطقة عما كان يعيشه الشعب قبل هذه الثورة بالذات لقد كانت مخفية في كمن تلك الذات المريضة تلك الذات الجماعية القلقة المضامة المكسورة والتي كانت تعاني من فرط كبتها وتجتر معاناتها خفية وخلسة وتبلغ وتغص بما تعاني في مرجل الذات المتعفن حينها تدخل لسان الدفّاع مضيفاً.

- فعلا سيّدي القاضي ان ما نشاهده اليوم وما نعيشه من مشاكل متراكمة بدءاً من علامات الفوضى في التصرف والعشوائية البارزة للعيان وكثرة الجرائم وسوء التصرف شبه الشامل وانعدام الأخلاق وظهور العديد من الافات المتنوعة والجوائح المترامية وكل ما بدا من فضائح وعورات وغيرها هي صورة صادقة لما كانت عليه هذه الشعوب قبل الثورة وقد ظهرت وطفحت وتجلّت بعد أن ازاحت الثورة الغطاء عنها فالأصل أن تشخص ويستنبط الشعب الثائر سبل محو هذه السّلبات لاستئصال هذه النّقائص واصلاحها بما يتناسب مع الحياة الكريمة والقيم الفاضلة وما تحتمه فرحة العيش للجميع وما يتماشى مع القدرة على استرجاع الكرامة التي لا تأتي بدون اقتناع ولا تستساغ بدون احساس بالوعي لضمان علاقات طيبة وتعاون مجد بين مختلف المجموعات المتعايشة لتمكين الجميع من حياة أفضل وتعايش أسلم يراعي حق الأجيال الحاضرة والقادمة والمتعاقبة في العيش الكريم والاستفادة من انتاج الثروة واقتسام خيراتها بالتساوي بين جميع الشرائح بعد مراعاة الاستحقاقات الناتجة عن الكفايات والتكافؤ وتقنين كلّ التّراتيب ضمن مفهوم العدالة المطلقة عمودياً وأفقياً ومبدئ تكافؤ الفرص وذلك بالعمل الدؤوب أولاً ثم بتوحيّ العدل والانصاف في التطبيق ولكن قبل ذلك لابدّ من ازالة الغطاء عن هذا المرجل المتعفن حتّى يتبيّن الخبيث من الطيب وتظهر بوادر الخلاص الحقّ لابدّ للشعب أن يجد الحلول المناسبة للخروج من هذه المازق ويتحسّس أسلم الاجراءات لتجاوز كلّ هذه الصّعوبات لا بدّ من اعادة النّظر في الكثير من المسّلمات والطّرق والبرامج ومن أهمها الأنموذج الاقتصادي وترسالة القوانين والنظام التّربويّ.

عندها صاح الكثير من النّاس بصوت واحد قالوا

-النظام التربوي النظام التربوي

واصل جناب القاضي حديثه قائلاً

- مباشرة بعد اطلاعي على أغلب الملابس المحيطة بالثورة وبما قبلها وبعدها من أحداث ووقائع وأنماط التفكير السائدة بالوراثة أو الاستنباط لاحظت ضرورة انكباب المختصين من أهل الذكر على إعادة النظر في النظام التربوي بأسرع ما يمكن من الوقت وأكثر ما يمكن من الجدوى.

وأضافت إحدى مساعدات القاضي متحدثة بالخصوص على بعض الحملات التلفزية والصحفية وما يروج داخل المقاهي وفي الكثير من المحافل والتجمعات والحلقات والندوات ضد المربين قالت

- سيدي القاضي جناب الحضور الكرام في أي مجتمع وفي أي عصر لا يجوز أن تنزل القيم إلى الحضيض وإن نزلت فلا ينبغي أن تمس بالثواب والمقدسات ومن أوكد تلك الثواب والمقدسات ما يتعلق باحترام المربين والإعتراف لهم بالجميل كما هو الشأن في أغلب البلدان أما عندكم فقد تجاسر بعضكم على التطاول على المربين والتيل من صدقهم ومصادقيتهم ومحاولة تحقيرهم واستنبطوا في سياق ضرورة مراجعة النظام التربوي الأفاويل وكالوا لهم التهم وأخذوهم بمآخذ الشواذ ممن يحسبون عليهم جزافاً أو يندسّون في خاناتهم باطلاً ووقع المربون بين مطرقة من أخذوهم مطية لنيل مآربهم وتحقيق مرامهم وسندان من تعمّدوا مغالطة الرأي العام بالتأويل والتشويه دون تعقل أو إمعان للرأي أو تثبت في الأمر وهو ما كدتم تصلون إليه في تلك الملفات التلفزية التي تنصب موائدها للهرج والمرج والاستهتار بالمربين الذين يمثلون بلا منازع أهم ثوابت مجتمعكم وأجل رموز حضارتكم إذ لولاهم لما استطاع أي المتطاولين من التحدّث بتلك الفصاحة وتلك الوقاحة وما لم يتفطن له البعض أنّ وراء كلّ مشهد كافر بالتعمة من هؤلاء سيّد عظيم يخفي تحت غطاء النسيان أو برقع السهو أو ستار الغباء الذي اعترى صاحبه حين وإنّا نتساءل في صالح من إذكاء جذوة العداوة بين أولياء التلاميذ والمربين ولماذا ينزلق بعض هؤلاء في لعبة التنديد بتصرفات مفترضة وبدعاوى غير مبررة تبريرا سلبيا ودون تعمق في

الظاهرة وأسبابها ومسبباتها بل لماذا تحوّل الحوار إلى مهاترات خرجت عن حدود اللياقة والآداب كيف يسمح البعض لأنفسهم اتّهام رعاة الأخلاق في بلادكم بالارتشاء والابتزاز والتجارة الحرام في فلذات أكبادكم وقرة أعينكم على مرأى ومسمع منكم جميعاً أما أن الأوان أن تتوقّف هذه الظاهرة الغريبة التي بدأت تنفّش بينكم دون تورّع أو خجل أو مبالاة في حقّ المربّين الذين يكابدون الأمرين ويسهرون الليالي في منازلهم وعلى حساب راحتهم وراحة أهليهم من أجل إعداد الدّروس وإصلاحها وتقييم نتائجها بالإضافة إلى ساعات التدريس الطويلة وما يترتّب عنها من تعب وإرهاق من أجل تعليم أبنائكم في ظروف وملابسات أقلّ ما يقال فيها أنّها مجحفة بالنّسبة إليهم فالمربّي في بلادكم لم يعد يعتبر من الطبقة المتوسطة كما كان فقد أصبح بلا منازع من ذوي الحاجة إلّا من رحم الله وهو في مستوى أدنى بكثير من بائعي الكسكروت أو القليبات أو الشيكلي أو التّبع أو مساحي الأحذية المتجولّين اللذين يجوبون شوارعكم العموميّة ويتحصلون على قوتهم بكرامة وعزّة نفس ومع ذلك ما زال المربّي محافظاً على كفايته وتعقّفه وكرامته وعظمته وصبره الأيوبيّ فإذا ما تفاقم به الأمر واشتدّت عليه الحال وأراد يوماً أن ينقّس عن كروبه أملاً في استرداد بعض الحقّ أو تحسيس النّاس من حوله لهمومه الكبيرة والكثيرة بتلملح رمزيّ قصير أو غياب مؤقّت أو اعتصام متواضع محدود تقوم عليه الدّنيا وتقعّد وإن طلب مقابلاً بسيطاً لخدمة جلييلة يقوم بها لفائدة تلميذ هو في أشدّ الحاجة إليه كالسّاعات الزّائدة أو الدّروس الخصوصيّة في حدود ما يخوّل له القانون أو أقلّ من ذلك أو أكثر بقليل تنزلزل الأرض زلزالها وتخرج أثقالها ويقول النّاس ما له وما لها. وإنّنا لا نشكّ أبداً أنّ أغلب فئات مجتمعكم تتفهّم الدّوافع التي تجعل المربّي وغير المربّي يحاولون جاهدين البحث عن مورد رزق إضافيّ يسدّدون به ما ترتّب عن غلاء المعيشة وتزايد الحاجيات من جرّاء ملابسات خارجة عن نطاق الجميع وكذلك نتيجة ظروف اجتماعية شديدة الوطأة وسباق محيّي ودوليّ صعب تتجاوز كلّ الحدود والتّكهّنات كما لا نشكّ في أنّ الأغلب الأعمّ من مواطنكم يقدرّون معاناة المربّين ويدافعون عنهم لإيمانهم بأنّ هذه الشّريحة من الموظّفين أساتذة كانوا أو معلّمين أو مدرّبين أو مدرّسين أو نوّاب هم أساس حضارتكم وعربون وجودكم وضمان رقيّكم وأنّهم بلا منازع رعاة سلامتكم ونحاة أخلاقكم وحضارتكم ورصيد مستقبل أمتكم وصمّام الأمان فيها. وليس معنى ذلك أن يترك الحبل على الغارب ولا يوقف بالرّصد أمام كلّ مربّ متقاعس أو متلاعب وسنضلّ ندعو جميع المربّين للارتقاء قدر

المستطاع إلى مراتب الكمال وعدم تعريض مهنتهم النبيلة إلى الأعاصير والانتقادات وسنظل نشجّعهم على الاقتداء بأجيال المريّين الأحياء منهم والأموات الذين تعاقبوا تباعا في كلّ زمان ومكان من أرضكم الحبيبة والذين ما زالوا مضرب الأمثال في الحاضر والماضي وما زالت أعمالهم الجليلة تؤثّر ذاكرتكم الشعبية وتثري إرثكم الثقافي وتعزّز موروثكم الاجتماعي. وسنظل ندعو الأولياء وغير الأولياء بإلحاح إلى مساندة المريّين والوقوف إلى جانبهم في السراء والضراء ودحض كلّ من يروم تشويه سمعتهم أو النيل من كرامتهم حتّى يواصلوا أداء مهمّتهم على الوجه الأكمل فالمرّبون قدوتنا جميعا بلا استثناء في كلّ عصر ومصر ومع ذلك لا ننفي وجود شواذّ بين المريّين وحتّى داخل نقاباتهم ممّن يساهمون بجهلهم وتعتّهم في تأجيج الوضع مقابل اشباع نهمهم بوهم الرّعاعات الكاذبة.

صاح أحد الحاضرين

- عجيب أمر بعض المريّين يتحدثون عن أصحاب مهنتهم بهذا الحماس وهذا الثّبات ويتصبّون مدافعين شرسين على زملائهم وأنا أعلم أنّ كثيرا من أصحاب المهن والوظائف المختلفة من الفئات المتنوّعة لا يعترفون بأهل مهنتهم ولا يتعاملون بسهولة بين بعضهم البعض أحيانا بل لا توجد بينهم علاقات أو أوامر تعاون ولا تجمعهم صداقة أو زمالة وكأنّ تشابه المهن أصبح في حدّ ذاته عامل فصل بينهم فالأغلب الأعمّ منهم يعمل بقواعد التّفرقة ويؤمّن بها ويكرّسها ويعلمها لغيره بل كادت تصبح مقولة "صاحب صنعتك عدوك" شعار كلّ فئة وكلّ قطاع وكلّ مجموعة ولم يعد من العجب أن تلاحظ أنّه "لا رأس مقبل على أخيه" وأنّ كلّ واحد يريد أن يقول لصاحبه سرّا وجهرا "أترك رأسي واضرب" بل منهم من يستدلّ بالمثال الدّارج "الخلطة بلطة" ليقنعك بوجهة نظره ومنهم من تتجذّر فيه الأنانيّة فيصارحك قائلا "أنا وبعدي الطّوفان" أو "نفسني لا رحم الله من ترك" فإذا ما حاولت الاعتراض عنه يفحمك بقوله "لقيت لروحي حتّى ألقى للنّاس" وبعضهم تخرجه مساعدة الغير خشية أن تنطبق عليه قوله "أدخلته فأخرجني" لذلك يفضل أن تكون "كلّ شاة معلّقة من ساقها" وأن يبقى "كلّ واحد على صلاح أبيه" ويتصرّف "كلّ واحد بحسب ما يمليه عليه تفكيره" ومنهم من يتهرّب من أوّل وهلة ولسان حاله يرّدّد "أترك البلاء لأهل البلاء" لينكمش على نفسه ويلتزم أن "لا يحكّ لا

يصبك" وإذا ما حاولت معه لا "يعطيك لا عدلا ولا صرفا" وربّما نصحك بقوله "لا تحكّ ما لا يحتاج لحكك" و "يأتيك صحرا وبحرا" محاجّا إياك بأكثر من مثل شعبي رائع مثل " حمار الشّركة أجرب " وإذا لم تتأثر بالتأثر يسرد عليك سجعا من قبيل "الشّركة تطير البركة" و يشرح لك رأيه إن ألزمته ويتحوّل إلى حكيم زمانه قائلا "من يمسّ قوتك يهيم موتك" ويخرج أمامك باستنتاج مفحم قائلا "بالي ولا حاجة لي بصحبة جزّار" وحتى لو كنت من أهله أو أقاربه فإنّه سيبعدك عنه طوعا أو كرها ناصحا إياك "ادخل قوقعتك" وحتى يصدك عنه صدا كليا لا رجعة بعده فإنّه لن يتورّع البتّة في زجرك قائلا "لا تقرب من دم بني عمومك حتى لا تشوّه" هل ما زلت ترجو وداً أو قربا أو مساعدة أو مساندة من هذه الأشكال أو تنتظر قبولا أو رافة من هذه الأصناف أو تطلب استجداءا أو تفهّما أو شفقة أو رحمة من هذه النماذج.

مباشرة بعد هذا التدخّل قام أحد الحاضرين وهو يلوّح بورق يشبه أوراق جرائد اليوم كتب على واجهة احداها بالبنت العريض وباللون الأحمر الشعشاع "رغم ذلك فالتّعليم في خطر"

قال القاضي

- وماذا تعني بذلك

قال الرّجل

- لاحظت أنّ التّعليم في بلادنا أصبح لا يتعدّى أن يكون مجرد اشهارا لبعض المعلومات لا غير لذلك قلّت جدواه وتقلّص نفعه.

قال القاضي

- للإجابة على هذا السّؤال لا بدّ من الوقوف عند ما تعنيه التّربيّة من جهة وما هو المقصود بالصّبغة الإشهارية التي تدّعي أنّها أصبحت عليها التّربيّة من جهة أخرى في مجتمعاتنا. من يريد أن يتدخّل فليتنفّص

رفع أحد الصبية يده وبعد ان اذن له القاضي انشد قائلا بكثير من الثقة في النفس وهو ينظر لبعض الاولياء والمربّين وكأنّه يعرف بعضهم قال

- تركت الدار مضطراً ومنّي دمعتي تسكب
وجئت السّاحة الكبرى وفيها لم أكن أرغب
دخلت القسم لا أدري أبقى فيه أم أهرب
فماذا عــندكم فيه وما في فصلكم أطلب
فذي سبّورة شاخت عليها سيّدي يكتب
وأخشاب وألواح وباب خلته مشجب
وبين الصّف والصّف مضيق يشبه المسرب
ومضيق مفروط مضمّن وداري باحة أرحب
بها أم تناديني أيا بني كل هنا واشرب
ونم إن شئت في حضني وقم وامرح به والعب
ولي في البيت إخوان وأصحاب لهم أطرب
وخالان وجيران فلا أنهر ولا أضرب
أبي بالودّ يرعاني وإن أخطأت لا يغضب
بحلو النّصح ينهاني فألقى صدره الأرحب
ولي في النّهج دكان به حلوى وما أطلب
ولي في حومتي كبش إذا شجّعته يغلب
ولي عشب وأشجار وطير فـوقها يلعب
ولي زرع بمـيداني أنا أسقيه كي يخضب

ولي في حيّنا صيت فكم لي فيه من معجب
 أنيا سيّدي طفل صغير مثلما تحسب
 كبير في طموحاتي شجاع النفس لا أرهب
 صغير حجم كَفِّي أمثل هذه تضرب
 كفها اللّمس والرّسم كفها أنــــها تكتب
 أنيا سيّدي غصن وبالإمكان أن أخصب
 إذا ما الجوّ أغراني ولم أرهق ولم أتعب
 ولم أقلع ولم أنتف ولم أرتجّ أو أجذب
 فان علّمتني صدقا فلن اضطرّ أن أكذب
 وإن تقسو فذا خسر وإن ترحم أكن مكسب
 فإمّا ماؤكم ملح وحقلي قاحل أجذب
 وخلف الثّوب شيطان عتيّ ماردمرعب
 إمّا ماؤكم عذب وإنّاجي به أعذب
 وخلف الثّوب إنسان رحيم القلب لا يرهب

استحسن بعض السامعين ما عبّر عنه الولد واقتنع البعض الآخر بصدق ما جاء في خطابه
 واستحسنه آخرون وسكت آخرون واثّر تعليق هذا الولد رفع الرّوّج اصبعه من جديد وبمجرّد
 أن أعطاه القاضي الكلمة قال

- إن تصوّر التّربيّة مجرّد عملية تختصّ بها مؤسّسات التّعليم كالرّوضات والمدارس والمعاهد
 والكلّيات ومؤسّسات التّكوين والإصلاح والرّويض وغيرها وحصرها تحت مفهوم التّزويد
 بالمعلومات والتّدريب على المهارات وإكساب بعض السلوكيّات يقلّص من شموليّة التّربيّة ويحدّ

من نجاعتها وبالتالي يقدم أنموذجا تربويا منقوصا وخطيرا في آن واحد.

وأيّ أعتقد أنّ هذا التّصوّر المعمول به في بلادنا وسائر البلاد العربيّة والإسلاميّة هو السّبب الرئيسيّ في تخلفنا جميعا لأنّه يجعل من التّربيّة مجرد عمليّة لا تَمُشّ والفرق بين العمليّة والتّمشي يكمن في افتقاد العمليّة للشّموليّة التي تَميّز التّمشي والتي تجعل من التّربيّة صيرورة تجسمها جملة من الأنشطة التي تراعي جميع الجوانب وتهتمّ بكلّ التّفاصيل والدّقائيق في حاضر الانسان وفي صيرورته وفي علاقاته مع محيطه والآخرين مع اكسابه القدرة على الاستشراف واستنباط ادواته لمواجهة حراك الصيرورة وابداء الحلول مسبقا مع الاستعداد الدائم لمواجهة الطوارئ والمستجدات في التّو والحين ضمن مؤسسات تعتمد كل العلوم وكل التقنيات المتاحة.

والنتّاج التّربويّ أو ما يعرف بالحاصل التّربويّ يتأثّر مباشرة بنوعيّة التّربيّة فكلمّا كانت مجزأة كلفا كان الحاصل منقوصا أو محدودا وتزيد نجاعته كلما نحت التّربيّة منحى الشّموليّة والاستشراف.

والتّربيّة الشّاملة والتي نتحدّث عنها من حين لآخر لا ينبغي أن تبقى كما هي الحال عندنا اليوم أي مجرد لفظ منزوع من معناه الأصلي لا يخضع مدلوله لتّمشّ واضح المعالم جليّ الطّرق محدّد الأساليب مضبوط التّقنيات ولا يجوز أن يستعير بالضرورة مقوّمات التّربيّة المجزأة أو يكملها ليصبح عمليّة إضافة كما هو الشّأن في بلداننا العربيّة الإسلاميّة بدون استثناء.

وبهذا المفهوم تبدو انماطنا التّربيّة الحاليّة وكأنّها بالفعل مجرد عمليات اشهاريّة لمعلومات وافكار معيّنة فتتحوّل الى التعريف ببضاعة وإلحاح في اقتنائها ولا تراعى فيها مقوّمات العمليّة النّاجحة أو النّاجعة وبذلك تصوير التّربيّة شبه مهزلة أو تنذر أو سذاجة أو سخافة أحيانا ينعدم فيها التّعلّم الصّحيح أو يأتي مشوّشا أو غامضا أو منقوصا أحيانا أخرى ويحوّل الهدف إلى عكسه لنقص في الحرفيّة والإتقان.

والى أن تصبح التّربيّة تمشيا شاملا لا مجرد إشهار لا بد من تحديد العلاقة الوثيقة التي تربط التّربيّة بالإنسان ومصلحه كما يجب أن يكون.

الفصل التاسع والعشرون

قال الراوي

- كثر اللجاج بالقاعة وخارجها فانظمت الى المجموعة الواقفة على سدة الشرف لاني شعرت بأن شاهية الانصات لدي فتحت وهممت أن أقول شيئاً للزوج الذي كان يجتهد في سماع المتدخلين ولكن جناب القاضي فاجتني بدعوته للزوج قبل ان اخاطبه في شأنه وشأن زوجته صاحبة الرأس الموروث

قال القاضي وكأنه قرأ ما يجول في بالي

- أيها الزوج واصل حديثك وارو لنا باقي ما تعرّضت له من حوادث في رحلتك الشّيقة أنت وزوجتك المصون

شدّ الزوج على يدي زوجته وهو يقول بصوت مرتفع وكأنّه يريد أن يسمع كلّ من في القاعة وكان متوجّها نحو السيّد رئيس المحكمة الموقرة والسّيدات المستشارات والسّادة المستشارين وكافّة الحضور قال

- الحق أقول سأحاول سيّدي القاضي الموقر أن أقدم بعض الملابس التي أعتقد أنّها ستساهم في الزّيادة في توضيح المشاهد التي تعرّضت اليها محكماتكم الموقرة منذ أن شرعت في استجلاء حاضرنا هذا وما برز فيه من المواقف التي عبّر عنها بعض هؤلاء المتدخلين على اختلاف مشاربهم وازمتهم لعلنا نوفر بعض المعلومات من خلال حديثنا اليكم عن الجولة التي قمت بها صحبة زوجتي فנסاهم في تقريب الصّورة من الجميع ونسهل عليكم وعلى غيركم فهم بعض الوضعيات والسيّاقات التي عرضت او تعرض الان على جناب محكماتكم.

قال أحد الحضور من اللّذين تحلو لهم بعض المشاكسات الكلامية

- عن أي جولة تتحدث

- لقد قمت مع زوجتي بجولة منقطعة النّظير زرنا أماكن لم نكن نحلم بالذهاب إليها أماكن بعيدة جدًا وعاليّة جدًا

قاطعه صوت بدا كالنّشاز

- تشبه البرزخ

- انا لا أعرف البرزخ كل ما أعلمه أنّنا كنّا نظير في رحاب هذا الفضاء بلا أجنحة ولا عناء.

قال الرّاي

- أثر هذا التّدخل انتبه الجميع فاستغلّ المتحدّث انتباه الحاضرات والحاضرين ليضيف قائلا بصوت جهوريّ

- ونحن على تلك الحال طائرين مرّه أسبق زوجتي ومرّه تسبقني وكأنّنا نسبح في بحر من الهواء في هذا الفضاء الرّحب ونتمتّع بلذّة التّجردّ من أثقالنا وفجأة أحسّنا بالحاجة الى النّزول من أجل اكتشاف الفضاءات الدّنيا لكنّنا لم نستطع الهبوط وفي طريقنا اعترضتنا جماعة يبدو أنّها تخلّق نحو الأعلى وبعد أن استوقفتهم بنفسي قليلا طلبت منهم مساعدتنا على الهبوط ويا ليتني لم أفعل فقد توجّه نحوي قائدهم وقال لي بشيء من الحدّة والانفعال وكأنّه يصيح

- نحن لم نتعوّد مرّة على الهبوط لأنّنا نكره الهبوط والهابطين كنّا في القمر والان نحن نتّجه للمريخ وما زلنا مستمرّين في الصّعود اهبطا أنتم لأنكم متعوّدين على الهبوط هيّا ابتعدا عنّا قبل أن تتسرّب لنا عدوى الهبوط عفانا الله لقد تعوّد أهلكم بالدّعاء على بعضهم البعض بالهبطة ذوقا تبار ما تمثّت عشيرتكم لكم أنتم وأهلكم لا تستحقّون الّا الهبوط اهبطوا أعطاكم الله هبطة لا ترتقون بعدها أبدا. عندها اقتربت زوجتي منّي وشدّت بيدي وقالت وهي تجذبني بشدّة

- هيّا جنبنا الحديث مع هؤلاء الظّاهر أنّ قلوبهم مليئة علينا غيضا وغلا وكراهيّة

قال الرّوج

- جذبتني زوجتي بقوة وهي تنبّهني قائلة

- دع الرّجل وجماعته يواصلون مسيرتهم ستتدبّر أمرنا بأنفسنا بفضل الله وبفضل الرّأس الّذي ما زلت أحمله سأتصرّف بأحسن ممّا كانوا سينصحوننا به وقبل أن نهبط تعال نستردّ أنفاسنا بالقرب من هذه القلعة الضّخمة

تدخل رئيس المحكمة على الفور قائلاً للزوج

- ماذا فعلتما بعد ذلك ومن استقبلكما بهذه البناية الضّخمة وكيف سارت الأمور

أجاب الزوج

- عندما اقتربنا من البناية وجدنا الباب الرّئيسيّ مفتوحاً ولما هممنا بالدّخول تسكّر أمامنا فجأة ثمّ سعمنا صوت مناد يقول

- قبل دخولكما الى حيّنا هذا اعلماني من أيّ حيّ أنتما وما خطبكما وما الّذي جاء بكما الى مكاننا هذا حتّى نتعرّف عليكما.

أجبتة

- حيّنا يشبه حيّكم على الأقلّ في النّظام بمجرد أن صدرت ممّي كلمة النّظام حتّى تقلّع أمامنا الباب من صفائحه وطار الى الأعلى محدثاً زلزلة ثمّ قامت زوبعة في مدخل فتحة الباب وارتفعت عجاجة دخان رافقها أزيز ثمّ بدأت تتبخّر شيئاً فشيئاً وانبرى من الدّاخل صوت رجل تغلب عليه بحة مرفوقة بضحكة استهزاء قال

- هاهاهاهاه العالم الثّالث يتحدّث على النّظام اسمع يا من لا تسمع.

أجبتة

- العالم الثّالث عن أيّ عالم ثالث تتحدّث يا سيّدي يا حسرتاه العالم الثّالث درس وتفقه في الدّراسة والعلوم حتّى النّخاع واجتاز كلّ الامتحانات ونجح بامتياز وانتقل من قسم العالم الثّالث الى قسم العالم الثّاني وواصل تدريبه سنوات وسنوات وسقط في امتحانات كثيرة لكنّه ثابر وكابد ونجح في خاتمة المطاف بملاحظة حسن جدّاً وزاد في التّقّدّم والان أصبح في قسم العالم

الأوّل وهذه البداية وما زال ما زال يتطوّر.

قال الصّوت

- خارق للعاده اروي لنا كيف توصّلتم الى مرتبة احترام النّظام أليست هي أصعب مرحلة.
- لقد وصل بنا احترام النّظام الى مرحلة متقدّمة جدّا الى درجة أنّنا أصبحنا نطالب برخصة كلّما أردنا أن نفكّر.

قال الصّوت

- ولما كل هذا الحرص

قلت لزوجتي

- اعلميه يا عزيزي عن مدى تطوّرنا

أجابته بسرعة

- أنكلم أم لا يا زوجي العزيز

قلت

- تكلمي أنت حرّة يا عزيزي

قال الصّوت

- الحمد لله أخيرا سمحتم لسنائكم بالتعبير عمّا يختلج في صدورهن هذا تقدّم محسوس بالفعل أدخلنا امنين أدخلنا على الرّحّب والسّعة.

دخلنا بالترحاب والزّغاريد وجلسنا على أفخم الأرائك وطالبنا الرّجل المضيّف بالسّكوت والاستعداد لمشاهدة فصل من فصول حياتهم اليوميّة دون أن ينقطع الصّوت من تقديم بعض الايضاحات قال

- كأنّكم تحضّران الى هنا بأمر عليّ لمراقبة بعض العمليات الاجرائيّة المؤكّدة وحتّى ان جئتما

في مهمة خاصة فمرحبا بكما.

قال القاضي

- عن أيّ عمليات

أجاب الزوج

- أمر عجيب سيدي القاضي حضرنا لأمر عجيب.

قال القاضي

- أمر عجيب كيف

تدخلت المرأة في الحين وكأنها أرادت أن تخفف الوطئة عن زوجها أو تريجه قليلا. قالت

- حضرنا مشهدا مريعا سيدي القاضي

نظر الرجل الى زوجته وكأنه أراد أن يشجعها على مواصلة توضيح ما شرعت فيه قالت

- سيدي القاضي رأينا فيما رأينا جماعة

قال القاضي

- أية جماعة

أجابت الزوجة

- جماعة لم نستطع التثبت في وجوه أصحابها

قال القاضي

- هل تعرفتم عليهم

أجابت المرأة

- قبل أن نتعرف عليهم سيدي القاضي دخلوا فجأة الى بيت وأقفلوا الباب وراءهم

أردف القاضي قائلا

- وماذا فعلتم

قالت الزوجة

- أخذني الفضول السّوي فوضعت عيني اليمنى في ثقبه ففل الباب فرأيت العجب العجاب .
صحت فاذا بزوجي يجذبني من كتفي ويضع عينه في ثقبه الباب ثم يشدني شدة عنيفة ويقول لي

- الأجدد بنا أن نتلهّى فيما يخصنا انظري

قلت

- ماذا شاهدت لقد أخففتني .

قال لي مشيرا الى ثقبه أخرى أصغر بقليل تقع بجانب الثقبه الأولى .

- انظري معي من هذه الثقبه .

وضعت عيني اليمنى في الثقبه وصحت

- ايباب باباب

قال

- أتشاهدين ما أشاهد

قلت

- انه لأمر عجيب انظر ماذا يقع في الجهة اليسرى

تدخل القاضي بكل اهتمام

- ماذا رأيتهما

قال الرجل

- سيدي القاضي رأينا أربعين أعور وأعور مشدودين بالسلاسل وبجانهم أعمى يعمل الجراحون جاهدين لتركيب عينين جديدتين له عندها اقترحت على زوجتي أن ندخل لغرفة العمليات لنراقب ما يجري عن كثب فاجبتها في الحال

- الزمي مكانك ما دخلنا نحن ندعو الله أن لا يحضّرنا محاضر السوء هذه

لكنها لم تتمالك وعن لها ان تستأذن من أحد المسؤولين في القاعة

- قال القاضي

- حسنا فعلت واصل من فضلك حديثك الشيق

أجاب الرجل

- قلت لها

تظاهر القاضي بعدم الفهم وكأن الرجل أدرك رغبة هذا الأخير في مزيد من التوضيح واصل

قائلا

- قلت لها وما شأننا نحن بهؤلاء

قالت

- يجب أن أعرف العلّة وبنت العلّة والطبيب بها مات

قلت

- أمري لله أنت حشرية فوق اللزوم بل مصابة بداء النسيسة أيتها المرأة ألا تخشين أن نطرد أو

يتم التعدي علينا كأن تقلع عيوننا من طرف هؤلاء الجماعة

قالت

- تعالى نرى من قريب ماذا يجري ولا تخف والنفرض أن الجماعة قرروا قلع أعيننا فساأطلب

من أحد هؤلاء الجراحين الماهرين اصلاح ما أفسدوه بل ربما يكون ذلك في صالحك أنت أكثر

مني ألسأ أأوأ الناس لأبأأل عأنأك أأشأع أأ هأأ والنسأل هأأ الأأأع عن الأمر لعلل أأفأأنا
وأشأع ففأولنا فأأأ بالصوأ أعلو قأألا

- ففأأأأ سأأأأ أأ أأأأأ أن أأأأ

قالأ له زوأأأأ بأأب لم أعهأه فأأها

- أأأأ أأ شأأ أأ سأأأ الفأأأل

قال الزوأ للقأأأ الأأ فأر فاه

- همأأ بأأأأأ على الفور لكن الصوأ وأأل أأأ أأأأأ

- قأأأ الأأأأأ أأور هؤلأ أأأأأ من عأشأأ أأأأ أأأأأ أنأأأأ العأرأأه أأأأ كأأأ

أأأأ الأأأ

- العأرأأأ نعم نحن منهم بأأأل ولكن لماأ فأأ كل منه عأنه أأأأأ أأأ أأأأ

أأأأأ زوأأأأ أأأأأ

- قأل أأأ لماأ أأأأأ هأأ الأأور بأأأأ وهو أأأأ أأ هل أأأ أأأأ أنا أأأ عوأأه لأأ

مأق بأأأه قلبأ

لما سمعها العور بأأأأ أأأأأأ بأأأأ فأأأأأأ نحن زوأأأأ وأأأ لها

- لأأأ أأأأ مأأأأ فأأأأ العور

أأأأ أأأ الأأأأأ أأ زوأأأأ وأأأ

- أأأأأ أأأأأ لأأأأأ بأرأأأ ما أأأأأ فأ قلبوأأأ من هموأ لأأأأأ لأأأأأأ

قالأ أأ زوأأأأ فأ أأأ

- مسأأأأ أأأأ أأأأأ أأأأأ أأأأأ فأأأأأ من كأرأأأ وأأسأأأأ

انفعلت وقلت لها

- تعالي الى هنا والزمني مكانك يكفيك من التسرع أيعقل أن تدخل امرأة في جمع من الرجال
كهذا الجمع بدعوى اسكاتهم وترضيتهم والربت على أكتافهم والمسح على وجوههم قليلا من
التورع والخجل ما هذه الوقاحة

عندها تدخلت زوجتي قائلة

- لقد افتكروا همومهم

أجبتها على الفور

- أنا الأجدر بالكاء على مصبري فما لحقني ويلحقني منك من أذى كفيل بجعلي أتعس
التعساء لن أقبل منك أن تتحركي أكثر مما فعلت والا سوف

قالت لي زوجتي بصوت هادئ

- تكلم بصوت خافت خشية أن تسمعك الجماعة فيفتضح أمرنا
قلت

- ألا يكفيك ما حل بنا من فضائح أنظري كيف يعتمد ذلك الأعور الى النظر اليك بعينه
الوحيدة الصحيحه وقد ركز النظر بعينه العوراء نحوي أنا بالذات

والفتت للأعور قائلا بشيء من الانفعال

- ما بك يا هذا

أجاب الأعور فجأة

- كان ياما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان

حينها قلت لزوجتي

- خرّف

قالت

- دعه يخرّف كلّنا أصبحنا نخرّف

قلت

- أ رأيت كيف أنه لم يعبأ بما قلته له

واصل الأعور قائلا دون اكتراث بما يدور بيني وبين زوجتي

- قلنا يا ساده يا ماده يدلنا ويدلكم لطريق الشهاده يا صاحب الدبير دبر عاشقو النبي صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت

- اللهم صلي وسلم عليه وعلى اله وصحبه الكرام وبعد أن صلت زوجتي على خير البريئة واصل الرجل الأعور في روايته قال

- خرجنا وكنا أربعين رجلا في ليلة من ليالي الشتاء متكليين على الله وقد نوينا الاغارة على أحد العروش البعيد عنا كنا نمشي على الأقدام تارة وتارة نركب صهوة خيولنا بحسب ما تقتضيه التضاريس وكنا ندخل شعبة ونخرج من شعبة ونجتاز مفازة لندخل في أخرى ونقطع المسافة تلو الأخرى وفجأة قامت عاصفة هوجاء وتساقط المطر مدرارا وكثر الوحل وهبت ريح صرصر لم تبق ولم تذر وخشنا على أنفسنا من الهلاك المحتم وكنا نبحث عن ملجئ يأوينا من شدة البرد وقوة الرياح فاذا بنا نشاهد مغارة تقع في منعطف أحد الجبال المجاورة توجهننا الى المغارة وكنت أنا أول من وصل الى بابها ولما دخلت اعترض سبيلي عود كان ناتئا من سقف المغارة على مستوى عيني اليمنى وبدون أن اخذ حذري وقع العود في عيني ففقاها وكان زملائي يترقبون خلفي في ذلك الظلام الدامس ولما تيقنت أن العود عورني للممت جراحي ومسحت بعباءتي الدماء التي سالت من عيني وفكرت قليلا وبسرعة تفتنت الى أنني لو أعلمت رفاقي بما وقع لي لتجنب كل منهم هذا العود بل يمكن لأي منهم أن يقلعه للدرء ضرره وأبقى أنا الأعور الوحيد من بينهم بل يمكن لهم تعييري بذلك وربما استنقاصي وربما منعوني من المشاركة معهم في المهمة باعتبار العاهة التي

حلت بي وبالتالي يتم اقصائي من الغنيمة المنتظرة فيما بعد لذلك رأيت من الأفضل أن أخفي على الجميع ما جرى لعيني اليمنى وارتضيت توخي حكمة الصمت وواصلت الدخول بكل برودة دم وشجاعة وصادف أن كل واحد من رفاقي قد فكر بنفس الأمر وتمنطق بنفس المنطق وكان كلما دخل العود في عين المار الا وسكت وتخفي وواصل طريقه دون أن يفطن به الآخرون وهكذا دخل العود في العين اليمنى من كل من اجتاز باب الغار فكان عدد من أصيبوا بالعود أربعون بالتمام والكمال ولم يجرأ أي منا اعلام صاحبه بالأمر ألم تسمع بمقولة المصيبة اذا عمت خفت

قاطعته قائلاً

- لا اله الا الله

وقالت زوجتي

- تستحقون ذلك

قال الأعور

- نعم وبجدارة

قلت متعجباً

- أربعون من العارادة عورهم عود والحادي والأربعون من عوره

وفجأة تدخل صوت اخر قائلاً

- اذا كان الكذب ينجي فان الصدق أنجي وأنجي أنا الذي تسببت في العاهة التي أصابتنني

قالت له زوجتي

- وكيف عورت نفسك بنفسك

قال

- نعم لقد فعلت بنفسي ما يفعل العدو بعدوه

قلت

- وكيف تم ذلك

قال الأعور رقم الواحد والأربعين

- سمعت بمسابقة بين جميع الملل ومن شروط هذه المسابقة أن يأتي المتسابق بأعز صديق له ليصعد الى الفضاء الأولى ويبقى في انتظار صاحب الفضل عليه وفي الأثناء يصعد المتباري الأصلي الى الفضاء السابع واشترط على من يصعد الى الفضاء السابع أن يطلب ما يتمنى فيعطى له ما طلب بشرط واحد وهو أن يقبل أن يستلم زميله الذي أتى به هو والذي بقي في الفضاء رقم واحد ضعف ما طلب الأول

قال القاضي مجتهدا

- جميل جدا هذه المسابقة تشجع على الغيرية وتمتن عرى الصداقة وتسوي بين الملل والنحل

قلت

- سيدي القاضي بعد اذنك لا تحكم حتى تسمع القصة كاملة

واصل المتباري حديثه قائلا بالتفصيل الممل

- لا أخفي عليكما شيئا أأخذني الطمع فأخذت معي أعز أصحابي وذهبنا وبمجرد أن وصلنا وجدنا جميع الملل قد شاركت في المسابقة الفرنسيان قال أولهما

- لفرانسا تور افيل واحدة اشتهرت بها في العالم لو أطلب أنا تور افيل أخرى وصاحبي الذي أتيت به يسلم اليه ضعف ما سلمت ألا تصبح لفرنسا أربع قلاع لا واحدة وبذلك تزيد شهرتها وتستقطب المزيد من السواح وفي ذلك بركة عظيمة وفضل من الله كثير وكان الأمر كما فكر وغادر الفرنسيان المسابقة بعد أن اطمأنأ على وصول القلاع الثلاث لبلادهم اما الامريكيان

قلت

- وما فعل الأمريكيان

قال المتباري

- الأمريكي وصاحبه تحصلا على ستة قلاع توائم من نوع القلاع التي تم تهديمها بالطائرات يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قلت
- والجماعات الأخرى ماذا فعلت

قال المتباري

- اليابانيان والصينيان وحتى جماعة زنابوي وغيرهم كل منهم طلب ما ينفعه وينفعه بلاده وتم كل ذلك في أقل من ساعة كل مله حصلت على مرغوبها ونزلت فرحة مسرورة
- قلت

- وأنت أيها العربي المسلم الأبى الصنديد البطل الشجاع العفريت النفريت ماذا فعلت

قال

- تأخرنا نسيبا عن الموعد ولما وصلنا نادى مناد في الفضاء قائلا بصوت جهوري ومن خلال العديد من مضخمات الصوت السابحة في العديد من الاماكن والبطاح وكانت فضيحة بالجلال
- قال الصوت

- الحمد لله ربي العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أخيرا جاء ممثل جماعة العرب والمسلمين بعد ما انتظروه كثيرا وكثيرا وكدنا نئس من مجيئه أخيرا وصل ركبه الميمون وأطل بدوره
- الساطع

واصل المتباري قائلا

- وبقدومنا عمت الفرحة وجيء بالطبالين والزكارين للاحتفال بالترشح العربي المبارك وقد أشيع في أول الأمر أنني المترشح الذي لم يجد له صديق يرافقه ثم أشيع أني لم أستطع القدوم من جراء كثرة المسيرات التي ينظمها العرب هذه الأيام احتجاجا على بعضهم البعض أو تشهيرا أحيانا بأنفسهم أو حبا في الظهور أو تطبيقا للديمقراطية أو حتى لملء الفراغ الذي يحس به البعض

منا وقيل أيضا أي ربما تعرضت للسطو على عقد في رقتي قام به أحد جيراني وبمجرد وصولي رفقة صديقي الحميم علت أصوات التهليل والترحيب من كل الحاضرين والحاضرات بكل اللغات وكل اللهجات تقريبا

قال بعضهم

- كيف استطاع هذا المتباري العربي أن يتفّق مع زميله ألم يقل لنا أن العرب اتفقوا على أن لا يتفقوا

وقال الأول

- يا مرحبا سعدت خطاكما

وقال الثاني

- ساعة بركة

وقال الثالث

- أهلا وسهلا

وقال رابع

- يا هلا يا هلا

وصاح خامس

- بالحضن

وتدخلت امرأة مهللة

- أنستما وشرفتما ونورتما الحتة

وغنت مجموعة من المستقبلين

- يا سعدنا يا فرحنا
- وتدخل المكلف بالمباراة قائلاً
- تفضلاً من منكما سيصعد للفضاء السّابع
- تدخل القاضي
- ماذا قال المتباري العربي الأصيل
- قال المتباري الرسمي باسم العرب والمسلمين
- نظرت لصاحبي ونظر الى ثم عاودت النظر اليه وأعاد النظر الي وتكرر ذلك بيننا لمدة لا تقل عن ثلاثة أيام متتاليات وكان كل منا يقول لصاحبه اطلع أنت فيجيبه الآخر تفضل اطلع أنت
- أفضل أن تصعد أنت
- لا اطلع أنت
- قلت لك اطلع أنت الأول
- لا يمكن أن أطلع قبلك
- لا يهم اصعد أنت
- والله تطلع أنت
- وبما حلفت به أنت الذي تطلع حينها
- تدخل منظم المباراة قائلاً
- كل هذا مضیعة لوقتنا الثمين
- قال القاضي
- وماذا حدث بعد ذلك

قال الزوج

- دخل الرجلان في سجال طويل ثم في شبه شجار ثم في عراك فسباب فخناق فصدام مدة أسبوع كامل لباليه وكادا يقتتلان بل اقتتلا واحدا في الأثناء دمارا ليس مثله دمارا وكاد ان يقتل احدهم الآخر لولا تدخل حكم المبارات تدخل حاسما وساعده في ذلك منظمو السباق الذين قرروا حسم الامر بقوة ردع تشبه قوة الحلف الأطلسي الذي اصدر امرا يقضي بأن يصعد المتباري الأول الأساسي الى الفضاء السابع ويلتحق ضيفه بالفضاء الأول كما تنص على ذلك الترتيب القانونية

أضاف الزوج

- الحمد لله الذي هداهما للقبول بتطبيق القانون

قال العربي المسلم الرئيسي جهارا

- كنت مصمما تصميميا قطعيا أن أصعد أنا للفضاء السابع ويبقى صاحبي في الفضاء الأول أحب من أحب وكره من كره تدخلت زوجتي قائلة له

- لماذا

أجابها الرجل في الحال

- أتيت به ضيفا فيصبح هو الأصل وأنا الفرع هذا غير معقول على مقاس مثلنا العام أدخله يخرجني أنا لست سيدي تاتا ولا قرصا للبلع

أضافت زوجتي

- وماذا طلبت

قال المتباري

- تلك قصة طويلة أخرى

قلت

- اروها لنا بإيجاز

قال المتباري

- بمجرد ما صعدت للفضاء السابع وطلب مني الجماعة أن أشرع في تقديم مطلبي نسيت أهلي وعشيرتي ونسيت أصحابي ونسيت كل الناس وركزت فيما يزيدني وينقصني وقلت يا روح ما بعدك روح وبدأت في ضرب أخماسي بأسداسي وأحسب وأعد وأخرجت من جيبتي ورقة وقلما وشرعت في ضبط الأمور بما يناسب مصالحتي فمرة يظهر لي محصول الدخل قليلا فأعيد الحساب من جديد وأطلع وأهبط في الحساب قلت في أول الأمر أطلب معملين لتكرير النفط معملان لماذا لا أطلب ثلاث معامل لماذا لا أطلب أربعة لا سبعة بل عشرة معامل تكرير نفط ولما أعمت في التفكير تفتنت بأن بلادنا ليس بها نفط فقلت لماذا لا أطلب مع المعامل العشر عشرين بئر نفطية ولما قررت أن أعبر عن رغتي تفتنت الى أنني بمجرد أن أطلب ذلك سيسلم الجماعة لمن صاحبي ضعف ما طلبت عندها خشيت أن يستغل هو جميع الآبار النفطية وأموت أنا جوعا فتراجعت في الحال وبدأت في تخطيط آخر واتجاه آخر تعطى فيه الأولوية لمصلحتي الشخصية قبل كل اعتبار الا يقال عندنا لا يبكي لك الا جفئك ولا يندب لك الا ظفرك والخلطة بلطة والجرب يعدي وروحي قبل كل روح حينها قلت في نفسي أنا وبعدي الطوفان عندها ضربت أخماسي في اسداسي وقلت لو أطلب خمسين معمل تكرير للنفط وخمسين بئر نفطية سيكون دخلي كثيرا زومالي وفيرا وشرعت في الجمع والضرب واذا بالمسؤول المرافق لي يفرح ويقول لي

- أنت رجل شهم ونبل وكريم خذ قرارك بصفة رسمية وسأفكك مؤونة الجمع والضرب اطلب تجب لكن قبل ذلك يجب علينا أن نسلم لصاحبك قسطه

قلت وما قسطه

قال

- مرافقك بمجرد أن تأخذ قرارك هذا سنسلم له مائة بئر ومائة معمل نفط

قال المتباري

- بمجرد أن سمعت من المسؤول ذلك حتى أخذ مني الدّوار مأخذه واصفر وجهي وارتدت ملاحي وكاد يغمي علي لو لم تتم استفاقتي بمركز العطر ورشوا على رأسي العطرشاء وشربوني محلول زهر النسري وماء زهر الأرنج عندها تداركت أمري وصحت بعد أن جاءني الإلهام الذي ورثته أب عن جد من سلالتي وأصلي وفصلي

- أوقفوا الطلب فوراً أنا لا أريد إبار النفط ولن أطلب منكم معامل التكرير أنا الممضي أسفله انطلاقاً من كاملي مداركي العقلية ووعبي ونمط تفكيري وأصول عيشي وأصلي وفصلي وتربيتي واحتراما لعراقيتي وتقاليدي واثري وتراثي واحتراما لأصالتي أصرح أمام الملأ أنني أطلب أن تفقؤوا عينا من عيني الاثنتين

توقف المتحدث قليلاً ثم واصل

- تعجب الحكم من قراري وقبل ان يشرع في انزال التفت لاقرب مرافقيه وقال له

- لا تعجب انه من قوم تبرأ الشيطان من أفعالهم وهرب منهم

قال صاحبه

- وكيف تم ذلك

قال

- سؤل ابليس مرة لماذا هربت من الوطن العربي رغم ازدهار مشاريعك بينهم وجودة انتصاراتك في ربوعهم فقال

- علّمتهم الرّشوة والكذب والسّرقة فاتقنوها بنفس اتقاني لها ولمّا علّمتهم الغشّ فاتنوني لذلك قرّرت أن أرحل وأتركهم وشأنهم لأنهم تشيطنوا أكثر ممّي

فقبل

- وفيما تمثل تفوقهم عليك

قال

- بالسرقة والكذب والرشوة التي علمتهم اياها اشتروا سيارات ومزارع وشيدوا معامل ومصانع وقصور شاخات ولما علمتهم الغش برعوا فيه اكثر مني

فقليل

- وكيف ذلك

قال

- لقد كتبوا على ما ملكتهم ايّاه " هذا من فضل ربي "

تعجب القاضي وتعجب الحاضرون وعم القاعة صمت رهيب قطعه رئيس المحكمة قائلا

- وماذا حدث بعد ذلك

نطق أحد الفضوليين في القاعة قال

- مسكين صاحبه جاء مبصرا وعاد أعمى

قال الزوج

- بالفعل المتباري هو ذلك الأعور الذي أوردت لكم تدخله ولم يطب له بال الا عندما يتقن

بأن صاحبه صار أعمى

صاح الكثير من الناس في القاعة بصوت واحد

- حرام عليه

قالت الزوجة

- بالفعل ذلك ما جرى وقد حدثنا الأعور بشيء من الندم قائلا

- كل واحد منا عاش ما كتب له أن يعيش وها نحن نقابلنا في هذا الفضاء

ثم أضاف

- ربح صديقي الأعمى عينين جديدتين وأنا بقيت أعور العين لحد هذه الساعة

وتدخل احد الحاضرين من عرب اخر الأزمنة قال

- نحن عرب دما واصولا لكننا أشقياء بعروبتنا الى ابعد الحدود كلنا اشقياء في هذا الوطن

العربي

لقد انزل الله القرآن باللغة العربية تنبيها لنا اكثر منه تكريما علما منه اننا " سرّيفة " صعبة المراس في حاجة ان نتطهّر اكثر من مرة في اليوم الواحد ومع ذلك ترانا نسبح في الاوساخ بكل معانيها ونزرع تحت كل كل الجهل بكل اوجهه ونمارس دعارة تصفية انفسنا بانفسنا باسم العروبة والاسلام

لكل هذه الاعتبارات يحق لنا نحن العرب الانقياء ان نكون اشقياء بعروبتنا الى ابعد الحدود

والله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم

سبحانك الله لا التغيير يدركنا حتى نغير ما بالنفس من شر

نريدها صحوة عربية صادقة وفاعلة ومؤثرة

لقد جعلنا الله على راس الامم التي استخلفها في ارضه وامرنا بان نبدأ بتغيير أنفسنا ولم نفعل

ونحن واعون بذلك

نحن العرب لم نتقدم قيد انملة والدليل جلي وواضح

لقد سمعت حفيدتي تحدث عن واقع العرب المر بكلام سمعته من جدي اي ان امرنا بقي على حاله وانا ادعو الى صحوة عربية لا الى مجرد ثورة فالصحوة تتحقق بالعلم والمعرفة والوعي واستنباط اليات تمكنا من التقدم بخطى حثيثة نحو العلى بوظيفية وعبر تقنيات مدروسة واخلاق

ثابتة مستمدة من قيمنا الاسلامية المتجذرة في الحداثة والحداثة اصيلة فينا لذلك سمي كلام رسولنا حديثا اي كلاما جديدا عميقا استباقيا

نريدها صحوة عربية صادقة وفاعلة ومؤثرة لقد جعلنا الله على راس الامم التي استخلفها في ارضه وامرنا بان نبدا بتغيير انفسنا ولم نفعل ونحن واعون بذلك نحن العرب لم نتقدم قيد انملة وانا ادعو الى صحوة عربية لا الى مجرد ثورة فالصحوة تتحقق بالعلم والمعرفة والوعي واستنباط اليات تمكننا من التقدم بخطى حثيثة نحو العلى بوظفية وعبر تقنيات مدروسة واخلاق ثابتة وتمشّ مستمد من قيمنا الاسلامية المتجذرة في الحداثة والحداثة اصيلة فينا لذلك سمي كلام رسولنا حديث اي كلام جديدا عميق استباقي

واصل الراوي حديثه قال

- اثر ذلك سمع صوت امرأة عجوز أسرّت أن تتوجّه للمجموعة القليلة التي كانت تعترم أن تتظاهر

- أيها المتعصبون والمتشددون تفكروا يا أولي الأبواب تعصبكم أصل مشاكلنا ومشاكلكم في عالمنا العربي الاسلامي أيها الذين فهمتم الدين الاسلامي خطأ وصدرتموه في شكل غريب وتصرف أغرب وبذلك برهنتم أنكم أعراب وأنكم أشد كفرا ونفاقا بوصف القرآن الكريم دعونا نرجع للاسلام ألقه المحمدي حتى يصبح بحق دين الكون ويصدق الناس جميعا أن الدين عند الله الاسلام وأن الغرب كلما تحضر وتمدّن فأنما يقترب من هذا الدين أكثر منكم

توقفت المرأة قليلا ثم واصلت قائلة

- أيها الشّاب العربي لا تستسلم لليأس لا شيء يقتل الأمل لدى الانسان الطموح وأنا على ذلك شاهدة تلك هي حكمة الله فالمؤمن بانسانيته لا يعرف اليأس ولا يتملكه الحزن لأنّ الايمان بالانسانية فسحة لا تنتهي أشرفت هذه الايام على الموت ولم يأيس من رحمة الله وما أنا الان أنعافى بدواء الايمان الشّديد والثقة في حكمة الوجود فكلّ حولي وكلّ قوّي لله وحده ولا شيء يعادل شكر الله وحده " قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا " ليكون الدّعاء رصيدينا في هذه الدنيا ولا شيء غير الدّعاء والتّذرّع لله والرّضا بقدره من قبل كنت أعتبر المرض والنقص والحاجة والعجز

والفقر شراً وتيقّنت الان أن كلّ ذلك خير فلا شفاء الا بعد مرض والشفاء بعد المرض خير والاكتمال بعد النقص خير وتلبية الحاجة بعد نقصها خير وهكذا دواليك اذا بهذا المنطق يصبح كلّ شيء من الله خير ونعمة.

فجأة انطلق صوت طفلة كانت حاضرة مع الحاضرين كانت تريد أن تتدخل لكن بعض الكبار حاولوا محاصرتها واسكاتها عندها تدخّل القاضي قال

- افسحوا لهذه الطفلة المجال أحبّ أن أستمع لها أيّها الحارس تدخّل ان لزم الأمر وأت بها اليّنا.

انطلق الحارس كالرّصاصة لتنفيذ أوامر جناب القاضي

كان القاضي يعلم أن صوت الطفولة البريئة يعبر عن انخراط هذه الشريحة الواعدة في مشروع الحدّاة من خلال عزم هذه البنية للتدخّل الصّريح بهذا الحزم كان القاضي متأكّدا من ظاهرة معاداة الأطفال لمظاهر العنف والارهاب الذي يضرب أوّل من يضرب هؤلاء البراعم الواعدة كيف لا تشارك الطفولة في التّصديّ لكلّ من يقتل البسمة في شفيتها ويجرمها من دفع الأبوّة وحنان الأمومة ما زال القاضي يتحاور مع نفسه حتّى جيء ببنت صغيرة في عمر الزهور كانت عينها تندقّ بلهفة وتعلن ملامح وجهها الصّباح باسم كلّ أطفال بلادنا عن وطنيتها ومحبتها لبلادها وأهل بلادها وتتمنّى أن تراهم في أمن وسلام ووثام كما ترجو لبلادها السّودد والرّقيّ في كنف الأمان والتّحباب والتّأازر والتّكاتف هذه طفلة تنير أمام الكهول السّبيل وتضيئ في وجهنا جميعا شموع الأمل البسام وترسم على ملامحنا جميعا فرحة الحياة الكريمة وفي نبرات صوتها الدّافئ تثبت حنينها الى وطن الثّورة بلون الطفولة النّقيّ تحدّت البنية بعض الحاضرين والحاضرات قالت

- أنا يا بلادي فتاة صغيره أعيش بك اليوم أحلى العمر

يقولون كانت بلادي اسيره وكانت مهـدّدة بالخطر

ولكنني عشت فيها أميره وجيلي أراه بأرضي حر

وثورة شعبي تقود المسيره ومازال شعبي بها ينتصر

اراد الشهيد لشعبي الحياة فلَبَّى القضا واستجاب القدر

حيّاها الجميع بموجة من التصفيق وقبّلها القاضي والتفّ حولها الكثير من النساء والرجال والأطفال لتقبيلها والرّبّت على كتفيها وهناك القليل من الحاضرين والحاضرات من امتعض من تدخّلها ولم يكثرث بها سمع منها.

خرج من بين الحاضرين شاب يتفد نشاطا وحيويّة كان متحمّسا هو الاخر لدرجة أنّ كلّ الحاضرين سمحوا له بالتعبير عن رأيه دون معارضة أو احتراز أو تلوّك قال

- سيّدي القاضي أمّا أنا فأردت أن أكون عمليّا خرجت للشارع التونسيّ لرصد ما يجري فيه يوميّا ودخلت أينما وجد التونسيّ بصفة عامّة في الشارع في السوق في العمل في محلات وفضاءات التّرفيه وكذلك في اجتماعاته العامّة الحزبيّة وغير الحزبيّة أو في التّظاهرات التي يشارك فيها وهذه تقريرا نتائج ملاحظاتي

قال القاضي

- هات ما عندك بسرعة شديدة

- هناك تعطيل حقيقيّ في أغلب مجالات العمل ناتج عن نقص في التّكوين النّاجع وفي المراقبة الوظيفيّة وناتج كذلك على غياب أخلاقيات المهنة وحتّى الأخلاق بصفة عامّة كما لاحظت كذلك أنّ هناك استخفاف وجهل وربّما تواطؤ مقصود من أجل ارباك الادارة التونسيّة لقد أحسست أنّ كثيرا من الموظّفين يتلاعبون ومنهم من يستخفّ بمصالح النّاس جهارا بهارا.

انتفظ أحد الحاضرين من مكانه وكأنّه يقاوم سلسلة شدّ اليها وقال

- ان أراد بعض التونسيّين أن يلعب فليلعب في المقهى والمقهى لا في الادارة ولا حتّى في داره ولا في الشارع يكفي من الاستهتار والتّخاذل والكسل والاستخفاف بالعمل النّاجع فلاستهتار بالعمل والاستخفاف بالتّجاعة تعتبران نقصا في الوطنيّة والوطنيّة لا تقبل المساومة. كأن يقول أحدهم كيف تريد أن أكون وطنيا وأنا جوعان أو فقير أو محقور أو مهمّش نعم يمكن أن تكون

فقيرا أو معدما أو مهمّشا أو محقورا أو أي شيء آخر وتبقى وطنيا ولا تباع ذمتك ولا وطنك ولا بلادك بأيّ ثمن أو امتياز أو أيّ وعد من أيّ نوع كان.

علق المتحمّس الذي افكتك منه الكلمة قائلا

- أحسنت يا صديقي كأنك خطفت من فمي ما كنت سأقوله لايوجد أيّ سبب يسمح لنا بخيانة الوطن بأيّ صورة كانت والتكاسل أو التسيّب أو الاستهتار أو التخاذل أو أيّ شكل من أشكال الانخراط في شبكات الفساد هي خيانة للوطن وأبشع أشكال خيانة الوطن الارهاب والتغطية عليه أو احتضانه أو تبريره أو السكوت عنه أو الدّفاع عن مرتكبيه بل مجرد محاولة ايجاد مبررات لأيّ من هؤلاء تعتبر خيانة عظيمة وصارخة للوطن.

تدخل أحد الشيوخ الحاضرين في القاعة قال معقبا على ما سمعه

- جيلنا نحن سيّدي القاضي أيتها السيّدات الفضليات أيتها السّادة الكرام أيها النّّباب المتحمّس والمسؤول قلت جيلنا ورث بعد الاستقلال وطنا مريضا هزيلا كما ورث وضع اجتماعيا مترديا في أغلب الأوقات ولكن صنع من ضعفه قوّة وشيّد وطنا وأرسى دعائم حضارة بجناحين هامين الأصالة والتّفكّح ولم يضيّع دينه ولا ثقافته بل بقي عربيا مسلما ولم يمنعه ذلك من الدّخول في الحداثة لا كمستهلك بل كمساهم فيها بالخلق والابداع والعلم تلك هي ملامح التّونسيّ الأصيل الذي لا نريد أن يتخلّى عنها وائيّ أنّه بناتنا وأبنائنا بأننا نريد أن يكونوا أفلح منّا نريدكم أرقى منّا ولا يضيرنا ذلك بل سيكون ذلك مصدر اعتزازنا بهم وبأنفسنا لسنا في مجال صراع الأجيال بقدر ما نشد التّكامل والتّواصل والاستفادة من تجاربنا صالحها وطالحها حلوها ومّرّها مشروّعكم ومشروعنا واحد لا مناص منه ينحصر في الاجابة عن سؤال واحد لا ثاني له كيف نفلت الفرصة على القوى التي تريد جرنّا للتنازع

ثم استطرّد قائلا

- سيدي القاضي اريد ان اسهل عليكم الفهم منذ اواخر ايام الحكم البورقيبي بدأ المرجل السياسي في التعقّن واحسّ الشعب التّونسي بذلك وتألّم وبناء على ماكان يعيشه الشعب التونسي من مضض كان لزاما على البعض منا مفكرين كانوا اوسياسيين ان يشرعوا في خلق البدائل لانقاذ

البلاد والعباد واول من تحرك لاستغلال ذلك الوضع هم المحافظون من بقايا صوت الطالب بالاساس بقيادة ابن قريتي وصديقي استاذ العربية عبدالعزيز العكرمي في مؤامرة اولى خرج منها بعدم سماع الدعوة بعد مرافعة صوتية مدوة بصوت المتهم نفسه والتي بثت من المحكمة مباشرة على امواج الاذاعة التونسية في الستينات تقريبا ثم مؤامرة اخرى بقيادة زعيم المعارضة نفسه الاستاذ عبد العزيز العكرمي من قصر قفصة والهادي القفصي من بنزرت والعديد من المناضلين مثل الازهر الشريطي كما شارك فيها افراد من الجيش ومن المحافظين ومن اليوسفيين ومن الاخوانجية كما كنا نسمةهم انذاك وكان شعار اغلبهم معاداة ما يسمونه بالحدائة او التغريب اي الانحياز للغرب وربما للفرنسة بحسب تعبير بعضهم وساهمت في هذه المؤامرة الثانية ثلة من قادة الحزب الحر الدستوري نفسه ككاتب عام لجنة التنسيق الحزبي انذاك الحبيب الحيني من بنزرت وانتهت بالقبض عليهم جميعا والحكم على بعضهم بالاعدام وعلى راسهم لاستاذ عبد العزيز العكرمي وهروب بعض المشاركين الى ليبيا والذين سيعودون في مؤامرة ثالثة ضمن فرق مسلحة بقيادة المرغني كل هؤلاء والكثير من زعماء المعارضة السريين او المعروفين بالتخفي والهروب والتستر في الداخل والخارج ثم مؤامرات الاخوانجية في زمن حكم بن علي والمعروفة بجماعة سليمان والتي شارك فيها جماعة من الجيش التونسي المتمردين ثم مؤامرة الاخوانجية والتي حدد تاريخ القيام بها يوم الثامن من نوفمبر والتي سبقها انقلاب زين العابدين بن علي يوم السابع من نوفمبر قبل ثلاثة وعشرين سنة من الاطاحة بهذا الحكم او ما سمي بثورة الكرامة او الربيع العربي كل تلك التحركات كانت نتيجة غليان الرجل الاجتماعي التونسي الذي شرع في التعفن ولم يتفطن اي احد لاصلاحه او تنقيته مما بدأ يتسرب اليه وثورة الرابع عشر من نوفمبر ٢٠١١ كل ما فعلته انها رفعت الغطاء عن ذلك الرجل المتعفن فقط وما نشاهده اليوم كل ما نشاهده ونعيش فيه هو ما في الرجل من تعفن بعد رفع الغطاء ولان تونس تفتقد الى سياسيين اكفاء يعالجون ما في الرجل من تعفن اكتفوا بالانتظار حتى يخرج تعفن الرجل من تلقاء نفسه ولحد هذه الساعة لم يقدم اي طرف سياسي او اي مفكر حلا مجد يعالج كل تلك التعفّنات المتراكمة منذ ازمة بعيدة ومن المنتظر ان ينضج الشباب نضجا يمكنه من تحمل المسؤولية الكاملة لمعالجة الاوضاع المتردية بموضوعة والتزام ومسؤولية تجاه الوطن والتاريخ ويتحتم اليوم على نساء ورجال الفكر ان ينبهوا شبابنا الرائد لتحمل مسؤولياته الجسيمة بوطنية عالية ترتقي الى النبل لاصلاح ما افسدته ازمته الرداءة

والعقم والتاكل والمحسوبة والجشع وذلك بتأن وحكمة والتزام ووطنية دون أن نمكّن أي طرف من استغلال ضعفنا تلك هي المعادلة الصعبة

علق شيخ اخر كان يجلس بالقرب من المتكم قال

سيدي القاضي لماذا لا نتعظ من ماضينا لقد حضرت في قفصة الى احداث عشناها من قبل بطريقة معينة ورغم نجاحنا فقد اولها بعض المؤرخين المعاصرين وبعض المتسيسين وبعض عاشوا معنا بعكس ما افضت اليه وحتى بعكس ما وقعت ومنها ما يسمى اليوم بحرب بنزرت والتي اندلعت بعد ما كان يسمى بالاستقلال الداخلي كنت انذاك شابا واذكر ان اغلبيه الشباب التونسي كان مع راي بورقية الذي بناي بمواجهة المستعر على قوته وجبروته واذكر اني القيت قصيدا حماسيا في قريتي قصر قفصه بقاعة الافراح بالمحطة من تلقاء نفسي لم يقترح علي او يجبرني احد كنت اشعر بمسؤولية المساهمة في هذه المعركة كاغلب الشباب التونسي اذ اعتبرناها معركة حياة او موت لم يكن بورقية وحده الذي قرر او جرنابل كان الجيش الفرنسي قد استفز مشاعرنا حين قرر توسيع ثكنة سيدي احمد بنزرت رغم انوفنا وتحدانا وتحدي اتفاقية الاستقلال الداخلي انذاك واذكر ان الشباب التونسي في كل شبر من البلاد قد تمس للذهاب الى بنزرت وكان يعلم انه ذاهب للاستشهاد في سبيل الوطن ولم يغربنا احد ولم تكن حرب الجلاء حرب بورقيه بل حرب الشباب التونسي وحرب الوطنيين وحرب الكرامة وحرب الانعتاق والتحدي والدليل هو ما يرويه منصف بالحولة من موقعه كشاهد عيان ما زال في مقتبل العمر وبالرغم من انه كان ضحية اتهام باطل فيما بعد يدرجه ضمن المتامرين للاطاحة ببورقيه غير ان ذلك لم يمنعه من الادلاء بشهادته وهو طفل انذاك ويقر بصحة ما نوره في شهادتنا هذه بلا تحيز اذ يروي لنا كشاهد على العصر بنفسية معينة وفي سن معين رواية تتفق في خطوطها الرئيسية مع ما عشته انا كشاب مع فارق العمر بيننا ودرجة الانخراط في الاحداث والنتيجة الخاصلة والعبرة بالنتيجة حصولنا على موعد للجلاء في اقرب ما يمكن من وقت وانتصار الخطة البورقية وقد انخرط اغلب الوطنيين وتمسوا للدعوة لحرب الجلاء واستبشر كل الشعب التونسي بالنصر عدا بعض اليوسفيين الذين راوا في ذلك حجة على حصافة وجهة نظر غريهمم بورقيه وكذبوا الانتصار عبر ما جاء في خطاب المرحوم صالح بن يوسف في الجامع الكبير بالقيروان والذي وصف فيه

الاستقلال الداخلي بأنه كرقصة السوينق خطوة للامام وخطوتان للوراء وكذب عيد الجلاء هذه النظرية لذلك بدأ بعض معارضي بورقيبه في التنقيص من نخوة الانتصار فمنهم من ادعى ان حرب الجلاء كانت حرب بورقيبه ومنهم من شكك في الاستقلال التام حتى بعد تامين الاراضي الفلاحية واسترجاع المؤسسات الوطنية وحتى بعد بعث وتأسيس اغلب الاقطاب الاقتصادية كمعمل الحلفاء بالقصرين ومعمل السكر بباجة ومعمل التمور وتكرير النفط وغيرها واستمر التشكيك في الاستقلال على يد من كانوا يسمون بالاخوانجية فالنهضة التي ذهب بعض افرادها الى اعتبار بورقيبه عميل فرنسا وقال بعضهم انه باع تونس وتناسوا جهاده وسجنه والحكم عليه بالنفي وحتى الاعدام بل منهم من اعتبر ذلك مسرحية وورثوا بعض هذه الافكار لابنائهم من بعدهم وتواصل الغل والغيض الى اليوم وانا اوردت ذلك لانني كنت شاهد عيان وحضرت كل هذه الاحداث من قريب وعاشتها وتعرفت على الكثير من الوطنيين الذين قادوا نضال الاستقلال كما تعرفت على الكثير من زعماء المعاضة ومنهم من عاشرتهم بحكم الزمالة او الجيرة او الصحبة وانا من من يعتقدون ان للارهاب في بلادنا جذور منها ما بدأ وقتها ومنها ما بدا قبل ذلك هذا ما يؤكد التاريخ

سقطت فجأة على المنصة الشاشة التي تحولت الى شرفية صفحة جريدة متاكلة تندب حظّ الاسلام في هذه الربوع وتدّعي أنه أكثر تعرّض لخطر الاندثار من التريّة أو أي ظاهرة أخرى

تحمّس بعض من في القاعة للموضوع وشرعوا في التظاهر منادين

- الاسلام في خطر الاسلام في خطر الاسلام في خطر

تدخلت امرأة تقف بجانب الزوجة قالت

- سيّدي القاضي جناب المستشارين أيتها المستشارات أيها الحضور الكريم الاسلام في خطر هذه الفزاعة الازلية التي لا تظهر الا عندما تتكاثر الاراء وتتجمع حول فكرة يتم الرضاء عنها بالاغلبية وكأنّ الوفاق يفزع البعض فيبحثون عن قضية تلهب المشاعر وتلهي الناس في الجدال المقصود المرتب والمبرمج هذا صحيح والدولة هي الأخرى في خطر أجل ان بعض الذين يدعون أنّهم مسلمون أكثر من غيرهم ويخولون لأنفسهم احتكار حقّ الجهاد في

سبيل الله ونصرة دينه هم الذين يتبنون مثل هذا الخطاب الدينيّ المتشجّع ويثبّون موجات تشجّعهم السّلبية من منابر مساجدنا وأنا من هذا المنبر الصّادق الطّاهر أناشد هؤلاء المجاهدين في سبيل الله طوعاً أن يسألوا أنفسهم عن حجم الضرر الذي ألحقه محكمكم وجهلكم بالبلاد والعباد في عقر دياركم وهل تفتنّوا من هو المستفيد من غيابهم المستمرّ أيّها الذين تدعون أنكم تدافعون عن الاسلام تهدّمون وتقتلون وتروّعون المسلمين ومن احتمى بهم بهذا الحجم وقيل أن تذهبوا الى الجنّة وتلاقوا حورها العين تمكّنون اسرائيل كامل اسرائيل من الحياة في الجنة التي حرصتم على توفيرها لها قبل موتكم أيّها المختلّون عقليّاً وعقائديّاً تبّاً لكم ولجهلكم ربّما يريد بعضكم أن يصلوا بنا لما أعلن عليه صاحبكم بخصوص الامارة المنتظرة لكن أعتقد أنكم ستجدون صعوبات كبيرة من طرف مجمل الشعب تؤدّي بكم أمّا للاستسلام أو لمغادرة البلاد من جديد أو لمحاكمات مؤكّدة تكون هي الاخيرة فإنّا بقدر ما نعرفكم نعرف كذلك الشعب معرفة جيّدة لذلك نصحبكم بالتروّي والرّجوع الى الجادّة وان كنا نعتقد أن ذلك صعب للغاية عليكم فبقدر ما أنتم بارعون في فن المراوغة وازدواجية الخطاب بقدر ما أنتم جاهلون بطبيعة شعبنا الذي تكسرت على نصاله كل أنواع التطاول والاستعلاء والجهل والهنجعية والتفرد بالرأي ألم تفتنّوا كيف أن بعض أشباه الأئمّة منكم يجتهدون من أجل تقديم فتاوى عجيبة وغريبة تترجها جماعات منكم الى مناهج قتل البشر قتلا يشعاً يرفقونه بتكبير والتكبير براء من تلك الدماء السائلة هدرا وتلك القسوة اللانسانية بدعوى الاسلام في خطر قلت فعلاً الاسلام في خطر وأنتم السبب في ذلك سيدي القاضي جناب المستشارات الفاضلات جناب المستشارين الكرام أيّها السيدات أيّها السادة انساتنا سيداتنا سادتنا لا بد أنكم قرأتم بعض ما جاء في أغلب صحف هذه الأيام واستمعتم الى ما أذاعته بعض الاذاعات وما قدمته العديد من الشاشات الملونة وغير الملونة من أخبار عن ظاهرة التكفير السائدة هذه الأيام والمنتشرة في العديد من البلدان العربية والاسلامية حتى وصل الينا أن ما حدث ويحدث في بلادنا هو تخلف صارخ وشأن غريب وأغرب من ذلك أن ينسب مثل هذا التخلف للاسلام وأمام استباحة الشريعة بهذا الشكل الرّدي أخشى ما نخشاه أن ينقسم شبابنا الى شقّ على دين متطرّف لا يمت للاسلام بأيّ صلة وشقّ يكره الدّين من أساسه وفي الحاليتين خطر كبير يبعدنا عن الاسلام الحقيقي الذي بعث من أجله رسولنا وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم يدعي بعضهم أن الاسلام في انتشار مبهت في العالم ونحن نعجب

من هذا الادعاء كيف ينتشر الاسلام وقد ربط المتشددون والمتعصبون تعاليمه بالقتل والترويع فالتكبير عندهم رخصة لاطلاق النار على رؤوس زملائهم والتفوق حولها الى انتقام ممن لا يشاطرونهم الرأي والصلاة جعلوا منها غسلا لذنوبهم والصوم فترات تلذذ بالانتقام والفجر للتفجير والصدقة تبيض أموال والزكاة تمويل للارهاب وحولوا الحج للبيت الحرام الى حج في الجبال والمغاور والاستعفاف بالزواج الى جهاد نكاح والعلم الوطني الى خرقة سوداء أو صفراء أي اسلام هذا الذي ينتشر في عقول أبنائنا الصغار ليصبح في أذهانهم صورة قائمة يخشى أن تؤثر فيهم وتبعدهم عن الاسلام الحق اسلام يحتضن الكافر حتى يسلم وينتظر العاصي حتى يتوب

سيدي الرئيس لقد بلغ ببعض هؤلاء الادعاء مناقشة مسائل متعلقة بحشر المرأة في بعض هذه التوجهات الواهية كاعتبار المرأة عورة جملة وتفصيلا وبلغ الحد ببعضهم تكفير من تلعق ايس كريم في الشارع وهي وجهة رأي تنم عن تخلف وجهالة وتسليط واجحاف والدليل على ذلك يكفي أن نحول هذا التصرف من المرأة إلى الرجل ليصبح حشر هذه المسألة في السياق الديني تجن ويصبح اخراج اللسان مجرد سلوك اجتماعي غير مستحسن و لا مستصاغ لدى الجنسين صغارا أو كبارا وينسحب على كل الناس وكل من نظر لهذا التصرف البشري من المنظور الديني فإنه يصرف عقده مع المرأة ويبرز تعصبا حسب على الإسلام باطلا ولا يذكر إلا بعقلية الجاهلية التي كانت تئد البنت حية وهذا التفكير أحد روااسب تلك العقلية أورثها للإسلام الذين اسلموا دون أن يتخلصوا من عقد جاهليتهم

تدخلت امرأة قالت

- المشكل سيدي القاضي ان الكثير من الارباهيين المندسين بيننا يتحسسون لكل ما من شأنه أن يمثل تيارا معارضا هل يمكن لبعض الاطراف المعتدلة وبوزاع وطني صرف إيجاد صيغ أخرى لضمان المطالبة بالحقوق وضمان الاستجابة لتلك الطلبات في آئانها وهي المعادلة الصعبة والتي تمكن التونسنيين من المطالبة بحقوقهم المشروعة في اطار التفاهات البناءة بواسطة توافقات وروزنامات والتزامات مضبوطة تسد الطريق أمام استغلال الارباهيين للحق في الاضراب المشروع وتربك مخططات الارباه محليا واقليميا هكذا كنّا نفعل أيام انتشار تيار الاخوانجية في أوائل الاستقلال وقد ركبوا على أحداث ما سمي باليوسفية والتي نتفهم مشروعيته باعتبارها

وجهة نظر كان بالامكان ان تكون مجدية مصلحة متسببة وحتى دافعة لتوازن سياسي اسلم وربما لهضة اقتصادية اكثر نجاعة لو لم تستغل من اجل اذكاء نغرات او تصفية حسابات من هذه الجهة او تلك ولكن سوء النوايا تغلبت على كل اختلاف مشروع وشحنت بعض ردود الفعل بالكراهية والحقد المتبادل واخرجت الاختلاف من سياقه المشروع وربما الايجابي تماما كما كان الشأن في أحداث الخبر التي استغلها بعض الاطراف وركبت عليها وعلى كل حدث له صبغة اجتماعية أو اقتصادية خلافية

ما ان انتهى الشيخ الثاني من حديثه حتى رفع شاب اصبعه فبادر جناب القاضي الموقر باعطائه الكلمة عندها تصدر المنصة قائلا

- بعضنا يستغل فترات ضعفنا لتعفين الجرح والاستمتاع بموتنا وان لم تقتلنا جروحنا فهم يخرجون من جحورهم لقتلنا غدرا وان استعصى عليهم قتلنا دخلوا في التهديد والوعيد وربما توخوا ردود الفعل المتاحة لهم بالاعتماد على التربص بعموم الناس ما استطاعوا لذلك سبيلا لذلك أنصح بان لا نمكنهم من أي حال من الأحوال. ومن بين هؤلاء بعض المحللين الذين سخرُوا ثقافتهم وكتاباتهم لتحطيم مشروعنا التحديثي من خلال خطاب متشنج متوتر عصبي ينحى منحنى التحليل للأحداث بطرق عشوائية تنطلق من معطيات خاطئة وأحداث مغلوطة فتزير القبيح وتحول الاجرام لنظام مشروع فتصبح المؤامرة على النظام جهادا والتخطيط للقتل العمد شجاعة والخيانة ضربا من ضروب الكفاح وواقع التاريخ مزورا والدليل على تشنج هؤلاء تلك الحلول التي يقدمونها لتحقيق مشروعهم والذي يعلنون فيه الاعتماد صراحة على العنف يصرون به بأسلوب يتوخى المغالطات في الشكل والمحتوى وهي صفة ما يسمى عندنا بالخلطمة ينطلق الخلطام عادة من منطلقات مرضية لا تستند للموضوعية ولا لسلامة المنطق بل للتوتر والرغبة في الانتقام وتصفية الحسابات الفردية الضيقة وفيها التناكر الصريح لمبادئ الموضوعية والحصافة والتركيز والمنطق السليم يكتبونها في رواياتهم ومقالاتهم ويصورون فيها تباكيهم من الظلم المحتمل والعسف المنتظر مستنكفين من الواقع مؤولين حوادثه بكثير من سوء الضن والتشاؤم وضيق الصدر ويطالبون بقراءة جديدة للتاريخ تكون أقرب إلى تعمد استمالة الفقراء والمهمشين والبسطاء وأرباب الصنائع الصغيرة ويدعون أن التاريخ كتبه من اضطهدهم

أولئك الذين اشتروا بدينهم ثمنا قليلا لأنهم يعتبرون من لا يتفقون معهم كفارا ويلعبون بورقة الدين في كل المناسبات ويقسمون شعبنا الى مجموعتين مجموعة المصلحين التي يعتقدون أنهم يمثلونها دون غيرهم بجدارية ومجموعة الخونة التي نمثلها نحن وكل الأجيال التي سبقتنا والذين لم يكونوا على الدين الذي ينظرون له دون أن يطبقوه وهم يدعون أنهم موكلون لتغيير البشر والقضاء هم سيغيرون اسم الشارع الأبرز في تونس من اسم الطاغية بورقيبة كما يدعون إلى شارع الثورة ولا يعيرون أي اهتمام لنظال الرجل من أجل الاستقلال لأنهم لا يؤمنون بالوطن ولا بحرمة ولا بحدوده ولا بأهله ولا بنظالات أهله ويعتبرون أهله مستعمرين هم يكرهون الحبيب بورقيبة كرها دينيا وينكرون جهاده من أجل تحرير بلاده ولا يعترفون بأنه كان أحد المستبئين في تحرير البلاد من يرث الاستعمار وتكوين شعب حر مستقل وينكرون بل يعيرون عليه تكريس الوطنية في ذاته بالنسبة لهم لم يكن بورقيبة مجاهدا بقدر ما كان خائنا مستبدا

هل يعتبر طاغية من اكتفى بانتظار قرار المحاكم في من دبر اغتياله في بيت نومه تديرا محكما هل يعتبر من الحق أن يخطط للاغتيال ويريدون إعادة كتابة تاريخ يجوز التخطيط للتصفيات الجسدية لمجرد أنهم لا يتفقون في الرأي معهم أي منطلق يجوز اعتبار المؤامرة المثبتة جهادا وبطولة ثم أي منطلق هذا الذي يجعل هؤلاء يقرون باستعمال حد السيف أي القتل عوضا عن المحاكمات هم كتبوا بكثير من الانفعال والتشنج يكتبون بغل شديد يكتبون من خلال مركباتهم لا من خلال الراي الحصيف والقراءات الواعية الرصينة هم يكتبون ليفرغوا شحنة الكراهية والنقمة والعداوة أكثر من أنهم يكتبون كمفكرين أو كتّاب أو أصحاب رأي حصيف هم يكتبون من خلال عصبية تكاد تكون مرضية والدليل أنهم يذهبون لحد الاعلان عن إعادة نصاعة الثورة وبريقها على حد تعبيرهم بطرق أكثر دموية لأنهم يعتبرون الثورة زاغت ما داموا لم يستفيدوا منها بالقدر الذي تمنوه ويضيفون بوقاحة الثائر المتشنج أنهم لن يسمحو للإعلام "المفلت" بدعوى الحرية أن يهين البلد ولا رموز الثورة وسيضعونه على السكة سكتة هم بالطبع "ويعلمون على مشروعه المهرّب والذي شرع المواليون لهم في تنفيذه بالقوة التي عبر عنها هؤلاء المفكرين الأذعياء المتشددون بوضوح عندما صرحوا دون تحف أو تورع "أنهم مستعدون لاستعمال حدّ السيف"

سكت المتدخل قليلاً ثم أضاف

قال الرَّاوي

- ومن انجازات بعض هؤلاء الادعياء ما شاهدناه من تواتر نوبات الهجوم على بعض زوايا الاولياء الصالحين وبعض التحف التذكارية التي تذكر بعض الابطال او العلماء او الزعماء الذين بقوا في المخيال الشعبي وقد راينا كيف عمد ثلة من المخربين بدعوى الدفاع عن المقدسات انتهاك هذه الحرمات بتكسير بنايات القبور او قلع بعض المجسمات التي يعتبرونها أصناماً جهلاً لعدم علمهم بالفارق بين التماثيل والاصنام رغم وضوح ذلك في القرآن الكريم ما يدل على ان هؤلاء ومن علموهم التدين بعيدون كل البعد عن الدين الاسلامي الصحيح الذي لا يحطّم التماثيل الا اذا تحوّلت الى أصنام تعبد مكان الله والخلط بين التماثيل والاصنام مذكور في القرآن الكريم بوضوح وجلاء لكن التزمت يعمي البصيرة ويحت الرحمة من القلوب ويحوّل الانسان الى وحش والمؤمن الى جلف متعصّب لأنّه يقتل الوعي فيه ويلغي التّبصّر ويدحض الحكمة ويقلب الحقائق ويعيد المؤمن عن الصّواب والدّلّيل في هذا الشأن بينّ وجليّ بفصيح ما جاء من تبيان في محكم التنزيل باعتباره كتاب الله يتميّز عن أيّ انتاج فكري اخر وقد وضّح الله المقاربات التي يجب على الانسان ان يتوخّاها ليفهم ما تنزل فيه وهذه المقاربات ليست اعتباطية بل حددها المولى وتفهم بالعبارة كما تؤخذ بالاشارة وساعتمد هذه المرة فيما استشهد به من القرآن من آيات على ترتيبها الزمني عند نزول الوحي لا حسب ترتيبها المنظم بالمصحف الشريف اما من حيث التصنيف الذي قصدت تبيانه في سياق ما اتحدث فيه فقد لاحظت ان الخطاب الالاهي ورد بعضه في قالب

* اجابات عن تساؤلنا كما في قوله تعالى

• ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين النحل ٨٩

• وما فرطنا في الكتاب من شيء الأنعام ٣٨

* // والملاحظة الثانیة التي تسهّل فهم القرآن خلّوه من الحشو فكل ما نزل فيه مقصود مؤكّد

ليس فيه زلّة أو خطأ أو سهو لقوله على لسان نجيّه موسى عليه السّلام

- لا يضلّ ربّي ولا ينسى طه ٥٢
- وآتقوا الله ويعلمكم الله البقرة ٢٨٢
- ﴿كما يحذر الخالق عباده من الفهم الخاطيء في كلّ حالاته كالكذب والافتراء
- ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب
- ان الذين يفترون عن الله الكذب لا يفلحون النحل ١١٦
- اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون الأعراف ٣
- وان تطع أكثر من في الأرض يضلّوكم عن سبيل الله ان يتبعون الا الضنّ وان هم الا
- يخرصون الأنعام ١١٦
- وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ٥٠
- ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ٥١
- اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ٥٢
- قالوا وجدنا اباءنا لها عابدون ٥٣
- قال لقد كنتم واباؤكم في ضلال مبين ٥٤
- قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللّاعبين ٥٥
- قال بل ربكم ربّ السماوات والأرض الذي فطركم وأنا على ذلك من الشّاهدين ٥٦
- وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد ان تولّوا مدبرين ٥٧
- فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلّهم اليه يرجعون ٥٨
- قالوا من فعل هذا بالهتنا أنّه لمن الظّالين ٥٩ الانبياء
- وفي صورة ابراهيم عليه السّلام

- واذا قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد امانا واجتنبني وبنّي أن نعبد الأصنام ٣٥
 - ربّ انّهنّ أضللن كثيرا من النّاس فمن تبعني فأنّهُ مَنّي ومن عصاني فأنّهُ غفور رحيم ٣٦ ابراهيم
- وهكذا ترون سيدي القاضي مدى قصور هؤلاء في فهم القرآن الذي يدعون أنّهم يدافعون عن تعاليمه

ومع الاسف سيدي القاضي ان الكثير من هؤلاء المتدينين صلفا يقدمون انفسهم كذلك كمثقفين ايضا اي اصحاب راي بغية تعزيز خطابهم المتطرف بجذلية خطاب الفكر المثقف املا في تعويم او تغليف اطروحاتهم بما يدعون بهتانا انها تندرج تحت عناوين عدة ظاهرها مغر كحرية التعبير عن مشروع اخر يختلف عن مشروعنا التونسي الأصيل والمتعارف بين الأغلب الأعم وانداساسهم بهذه الصورة او بصور اخرى مماثلة يمثل سيدي القاضي تلك القنابل الموقوتة ويؤثث للخلايا النائمة التي يتحدث عنها عموم التونسيين هؤلاء يشرعون لنا انموذجا داعشيا بامتياز انطلاقا من مركباتهم الشخصية دون أن يخضعوا الفكرة لمقياس المنطق ولا الصواب ولا القانون ولا يحكمون العلم فيها ولا يتناولونها بالتمحيص ولا يلتزمون بالاطلاع والمقارنة ولا يستطيعون استخلاص العبر ولا الاستفادة من تجارب الآخرين ولا يستقرئون الأحداث وليست لهم ملكة التحليل ولا التركيب ومع ذلك يستنكفون من مزيد التعلم ويرفضون الانصاف لغيرهم ويركزون على محصولهم المعرفي المحدود دون ترتيب أو مراجعة أو تفكير هم يقدمون للعموم خبطاتهم العشوائية بلا ترو ولا تمحيص فيكون حديثهم هزا وسبطا مضحكا أحيانا هزيفا أحيانا وأحيانا مقرفا وفي أغلب الأحيان خطيرا ينم عن جهل مطبق أو يصوّر انفعالا حادة يصل بعضها الى درجة الوقاحة وفي أخف الحالات الى الهوس المرضي عندما يلبسون عباءة الثقافة الفضفاضة المترهلة ويتصبون أئمة أو محللين أو مفكرين تحريريين أو مراجع معززين ثقافتهم وهذيانهم تارة بتمثيل شاهد العيان أو صاحب الحادثة والحدث أو الراوي الأمين أو المعلق الرصين تسندهم في غيهم أطراف من جنس ثقافتهم ولون توجههم وأحيانا أخرى بعض المغرضين أو الأغبياء أو حتى الأذكياء من نوع المتربصين بالفكر السليم والتمشي الرصين أو أصحاب المصالح الضيقة أو الأطماع الجشعة أو المخططين لتلف الحضارات وانهايار المقومات الحقيقية للشعوب كل هؤلاء

وغيرهم يصطفون وراء أولائك المدعين في العلم فلسفة للنفخ في صورتهم وتكبير سمعتهم وتوسيع هالتهم وتضخيم كبرياتهم وصلفهم وتبدأ النعوت والأوصاف في تسييدهم فمن كاتب تحرير يتحول الواحد منهم في رمشة عين الى مفكر فطحل وربما لروائي متميز أو شاعر عبقرى أو سيناريست زمانه وعندما لا يجدون لأنفسهم مبررات لكل ذلك يتعمدون الركوب على الثورة وينصبون أنفسهم منقذين لها ودعاة من دعاة المد الثوري الذي يفتك من بين أيديهم ويسرق من تحت أرجلهم ويتحولون الى مدافعين عنك وعني وعنكم متهميننا بالعمالة حيناً وبيع ذمتنا حيناً وحيناً ينادون بإقصائنا أو حتى موتنا من أجل انقاذنا من الضلال ويساومونا بالجنة والنار مدعين أنهم امتلكوا مفاتيح هذه تلك بأمر من الله وانتصباوا رعاة للدين والحضارة والسياسة والاقتصاد والثقافة ينضرون لنا ويدعوننا للهرولة الى الوراء من أجل الالتحاق بأسلافهم الصالحين البررة الكرام الذين لم يخلق مثلهم في البلاد ولم يحبل بهم عصر ولا مصر ويذهب بهم صلفهم الى انتقاد جذورهم وانتفاءاتهم ومشايختهم ومربيهم وأسائدهم ومنقذهم وأصحاب الفضل عليهم وكأن الدنيا والعصر والفكر بدأ منهم وامتد فيهم وانتهى عندهم ويجولون لأنفسهم باسم كل ذلك تبرير غيهم وغي أصحابهم وتبييض مالمهم وعرضهم ويتفنون في كتابة السيناريوهات الاخيرة للثورة التونسية التي تحرم الحلال وتحلل الحرام وتقلب الموازين والقيم والنظريات لصالح أطروحاتهم الهزيلة أو الفضفاضة دون تورع ولا حياء ولشدة ما يحملونه من قتامة وغل يستعرضون عضالات الكبر والتكر للمعروف بالسبب والشتم والتوعد والتهديد والوعيد وكل فنون الارهاب المتأصلة فيهم هم يؤر الارهاب ومعادنه هم قنابله الموقوتة ومحضناته والقمامات التي تعشش وتفرخ فيها بواسيره وخلاياه النائمة حتى أبطال رواياتهم معقدون تجدهم باعتراف كتابهم راضون وساخطون فالاستقلال لديهم مجرد عبث والدستور تسلط والتضامن كارثة والادارة عجز والتامر على أمتنا جهاد وانتصاب المحاكم ظلم والعقوبات صلف أما علمائهم فربانيون لقد كلفوا أنفسهم بصون الاسلام ونيابة الله في الأرض ورعاية أطفالنا ومجتمعنا من صلف العلم وكفر الثقافة ودعارة الفن وبدع الاجتهاد ليدخلوا مباشرة في تعلات تزيف التاريخ.

الفصل الثلاثون

قال الراوي

ما ان ذكر التاريخ حتّى استمع لتلملح في اخر القاعة يشبه زفير الريح البعيدة في أوّل الأمر ثم تزايد الزفير وتعالى واقترّب شيئاً فشيئاً واذا بكتلة بشرية تشبه المجموعة شرعت في الزحف نحو منصّة القاضي ولما رأى جناب القاضي ذلك امر طاقم الحراسة بالتوجّه نحو السّيل المتدفّق فاذا بامرأة تخرج من الزّخم وترفع باصبعها الى الأعلى وكأنّها تطلب التّدخل العاجل.

قالت بعد أن اذن لها جناب القاضي

- لا أريد أن أدافع على التّاريخ لأنّه حاضر بيننا على الدّوام لكن أريد أن أكّد أنّه من أبجديات التّاريخ أن لا أحد يمتلك لوحده مفتاح الخلاص لذلك يتحتّم على الجميع أن يحسنوا مواصلة البناء ومن أهم ما يعيق البناء هو التّخلف الدّينيّ الذي يمثّل معول الهدم المستمرّ تسليطه على الأمتّة العربيّة لذلك يجب الحسم في هذه المسألة والحسم لا يكون بتحبيد الدّين كما يريد البعض ممّا تروّجه ولا بتغليبه كما يرى البعض الاخر فالمشكل الأساسيّ يكمن في أنّ الدّين الاسلاميّ لو فهم على أصله ودون انغلاق يمكن أن يكون دستور حياة مدنية ومن أهم ما يمكن انجازه المبادرة باتخاذ الخطوة الجريئة والصريحة والمقنعة والمتمثلة في تنظيف الدّين الاسلاميّ في تونس من كل ما علق به من تاويلات واجحاف وطرهات تكرس التخلف والتزمت والرجعية والتشبث بالقشور واعتماد المراجع التي لم تعد تتماشى مع تقدم العلم وارتقاء الفكر البشري والاخذ بعين الاعتبار بكل ما حققته وتحقّقه العلوم الحديثة والتقنيات المعاصرة واعادة تفسير القرآن من جديد باعتقاد ما حصل من تطورات واكتشافات تحتم مراجعة الكثير مما كنا نعتقد انها مسلمات قطعية حتى يصبح الاسلام ديناً منسجماً مع متطلّبات العصر ملائماً للتقدّم حاضناً للقيم السّمحاء مع وجوب ترشيد من يشقّ عليهم ان يراجعوا انفسهم ويعيدوا النظر في ما علق في اذهانهم وذاكرتهم من بقايا ماضٍ ولّى وانقضى ووجوب دحض كل اطروحات التزمّن والرجعية والتخلف والسلفية المصحفة والانغلاق المنهجي وكل الافكار المكبلة للتوق العلمي وما افرزته من ارسدة تمكّنتنا من

اعتمادها دون صلف او تجاوز والتصدي لموجات المتزمتين و المغلقين والجبهات الصماء لمقاومة لكل تمش تحريري متفتح ياخذ بناصية العلوم الصحيحة ووجوب قطع دابر الافكار والاراء والنظريات الظلامية وخاصة منها المسترة بالتظاهر بعكس ذلك والذين يريدون ارجاعنا للقرون الوسطى وما زالوا يعتبرون بعض الأنظمة العربية المتخلفة أنموذجا وما زالوا متشبثين بالأحاديث المكذوبة التي نسبت للرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وما زالوا يخلطون الغثّ بالسمين جهلا وصلفا وادعاء وتعتنا لذلك يتحتم علينا بعث مشروع جدي يقف بالمرصاد لكلّ مخطط يجرّنا الى الوراء ويعمل على مسح مكتسباتنا في التّحضّر والتّحديث انطلاقا من القناعة انه لا يوجد دين أكثر حداثة من الاسلام ولا أمة تؤمن بالتّقدم أكثر من الامة العربية أو المستعربة ولا يوجد شعب أقدر من الشّعب التّونسي على تحقيق ذلك الحلم فهو قاطرة التّمذّن وضمان الانشاء من أنشأ الله السّحابة أي علاّها وبذلك نرجع ألق الاسلام الحق ذلك الدين الذي يعمد بالاساس على جعل الانسان المسلم الاحرص على نفع الناس قبل ان ينفع نفسه وان يحرص حرصا شديدا على عدم الاساءة لأي كان خشية من الله وطمعا في الجنة

ولتكون علاقتك بخالقك علاقة مباشرة تقوم بالاركان الخمسة ما استطعت بصدق ودون رياء وخاصة بدون ان تكلف نفسك أو غيرك بما لا يستطيع عادة وتتجنب العمل بأي مقولة تتسبب في الضرر تحت عنوان انك تدافع على دين الله وكأنك تشك في قدرة الله وحده على الدفاع عن دينه وعباده فقد وضع المنافقون الكثير من الأحاديث المكذوبة منها حتى من حرم الحلال وحلل الحرام

ولكي يكون دينك صحيحا لا تنسى ان الاسلام يحب الوسطية وانه دين لا يعادي العلم بل هو دين العلم والمدنية والحداثة بدليل ان كل القوانين العلمية وضعها المولى سبحانه وتعالى وان الحداثة أول من نادى بها هو الاسلام بدليل ان كل ما قاله الرسول يسمى حديثا وان الرّسول أقر مفهوم المدنية وكرسه بتسمية يشرب المدينة وان تعاليم الاسلام كلها تدعو للتّحضّر والعمران

الفصل الواحد والثلاثون

قال الراوي

- واصلت محكمة الشعب التثامها للاستماع الى المتدخلين تباعا بحسب اولويات ضبطها
المشروع لنفسه لا يعلمها الا من برمج تلك الاولويات بالنسق المطلوب وربما المتاح ايضا قال
المتدخل الاول

- سيدي الرئيس جناب المستشارات والمستشارين ايها الحضور الافاضل ممن تمت دعوتهم
رسميا او من جاؤوا صدفة او اعتباطا او عفوا او حتى استجلابا بقوة القانون او مقتضيات
التراتب او لاي سبب اخر من المؤكد انكم تفتنتم في حياتكم اليومية هذه السنوات الاخيرة
إلى غياب العنصر الثقافي في الحياة العامة في تونس وفي اغلب البلدان العربية ولاحظتم تقلص
دوره تقلصا يندر بالخطر ويلزم هذه الشريحة قبل غيرها أن تتدارك الأمر قبل فوات الأوان وأعني
استقالة المثقفين العرب وأصحاب الرأي منهم بما فيهم الصحفيين من معترك الحياة العامة
وبالأخص منها الحياة السياسية التي استغلت هذه الاستقالة للتفرد بالقرار رغم افتقارها في
الأغلب الأعم إلى أسلحة التروّي وأدوات التعمق ومقومات الاستشراف والقدرة على التصوّر
والاستنباط والخلق والإبداع التي تبقى من منظوري حكرا على المثقفين وأهل الرأي والذوق
والإحساس المرهف والخبرة المصقولة والرأي الثاقب وقراءة الأحداث بعمق والقدرة على
التحليل والتركيب والاستشراف وللاستدلال على ذلك فإن غياب شريحة رجال الفكر والثقافة
والرأي والمحللين هو من أهم الأسباب التي كرّست ضحالة كل برامج العمل السياسي وحدت
من نجاعة أي مشروع إجتماعي وقصّصت من المردود الاقتصادي من الثورة إلى الآن وحتى في آخر
مراحل ما كان يسمى بالتّحول المبارك على أهله فحسب بالمقارنة لما تحقّق بعد الاستقلال. لذلك
أدعو كل المؤسسات الثقافية والإعلامية اليوم أن تحاول استدراك الأمر من خلال مزيد تكثيف
مساهماتها الفعّالة واستحثاث أهل الفكر على المشاركة الفعلية في الانخراط قلبا وقلبا في مشروع
تنمية البلاد وإلزام السياسيين بوجوب الاستنجاذ بالمثقفين والأدباء والفلاسفة وأصحاب الذوق

والثَّوق وأهل الرَّأي للمشاركة في استرجاع مكانة هذه الشرائح الهامة أسوة بما تميَّز به أغلب مثقِّفينا عبر العصور وعلى رأسهم أبو القاسم الشَّابي الَّذي كان حاضرا في كلِّ محطَّات بناء نهضة هذه البلاد من الاستقلال إلى اليوم فقد طبع الحياة العامَّة وحَتَّى الحياة الخاصَّة بفرض آرائه على كلِّ الفاعلين السياسيين والاقتصاديين ليصبح للجميع مرجع الاستشارة ومصدر الحماس

ونحن في ما نحن فيه من انتكاسة حقيقية وترد شامل ومدمَّر ادعو اصحاب الفكر والاري والكتاب في الادب والصحافة ومؤلفي السيناريات ومنتجي الافلام بشتى أنواعها وكل المبدعين والفنانين من كافة الشرائح وبالاخص منهم أصحاب الأفلام النافذة الا يستسلموا ولا يستقيلوا من الحياة الاجتماعية والسياسية ولا يقبلوا باقصائكم من المساهمة الفعلية في إنقاذ بلادهم من الانهيار الاجتماعي والاقتصادي والقيمي الذي أرادت فيه والتكن هذه المناسبة انطلاق عزم المثقَّفَات والمثقِّفين على استرجاع دورهم الرِّيادي في ازدهار تونس وكل البلدان العربية وإخراجنا ممَّا تردِّدنا فيه من ضحالة وخصاصة وفقر ماديِّ وفكريِّ ولنا العديد من الامثلة في تاريخ بلادنا تونس من رموز بدأ من زعيم الشباب علي البلهوان ومعرب العلوم الفلسفية محمد مزالي والبشير بن سلامه ومحمود المسعدي والشاذلي القليبي والقرمادي والطيب البكوش وغيرهم وما بذله مثقفون اخرون من نضالات وحرص دائم من أجل نهضة تونس وسؤددها أحياء وأمواتا وذلك من خلال فرض حضور كلمتهم النافذة على كلِّ الفاعلين السياسيين وغير السياسيين ودعوة عامة الشعب الى محبة تونس والاخلاص لها وفرض احترام الادب ورجال الفكر والقلم من طرف الجميع بلا استثناء وعبر كل الحقب الزمنية اذ يتحتم على كل المثقفين والصحفيين أن يعبروا عن عزمهم الراسخ على افتكاك المشعل من كل يد مرتعشة او فكر متحجِّر او عقل محدود واسترجاع الدور الحقيقي لأهل الفكر الخلاق والثقافة الواسعة من اجل فرض انخراطهم في التنمية الحقيقية المبنية على الراي المدع والاستنباط الذكي والرجوع لعصر إلاءة * المادة السَّخمة * ما تستحقه من تقدير ولهم في ذلك أمثلة كثيرة يتدخل فيها الادب في التنمية والحث على إنجاز الكثير من المشاريع فلو لا بيت الشعر الذي قيل في الجسر المتحرك لبنزرت لاستحثاث المسؤولين لاتمامه ما كان أن يتم في ابائه ولولا التزام المربين بالتشبث بقيمهم الثقافية واعتبارها من أهم الرصيد التعليمي ما اكتسب التعليم التونسي تلك الشهرة ولو لا المسعدي ما كان السد وتأثيره

على قيمة الفعل عند الإنسان التونسي ولو لا ابن خلدون ما كانت تحظى تونس والبلاد العربية عامة بالقيمة العلمية التي تحظى بها اليوم ولو لا الطاهر الحداد لتأخر السياسيون في تحرير المرأة ولو لا خميس الترنا ما ازدهر فن الموشحات ولو لا صليحه لما كان للفن التونسي مرجعية تذكر وتشكر ولو لا الطاهر شريعة والنوري الزنوري ومصطفى الفارسي لما كانت تونس سباقة في ميدان السينما ولو لا علي بن عياد ما ازدهر المسرح التونسي ولو لا محبوب بن ميلاد لما بادر عامة الناس بتحريك السواكن ولو لم يكن بورقيبة يقدر الشعراء ما كنا نسمع او نتعرف على احمد الغماني ولما كتب عبد الحميد بن جدو بني وطني لتعزز انتصار الشعب التونسي في معركة بنزرت ولو لا الطاهر والفاضل بن عاشور لما قيل في اكبر مؤتمرات مصر* كاد المؤتمر أن يكون عاشوريا * والأمثلة على ارتباط الفكر بالتنمية كثيرة ومثيرة. وكل هذه الظواهر تحت ملامح ما نسمي عادة بالذكاء التونسي الذي أحاول من خلال مسالكة على تشابكها أن أربط قدر المستطاع كل هذه الرؤى والاحداث ببعضها البعض لتدعيم ما كان يحتاج إلى تدعيم في مستوى جل القنوات التي كنت اتقاسمها مع اغلب الاجيال التي انتمي اليها او التي عاشرتها وكذلك مع ما كنت احس به في الكمون ولا اعرف تفاصيله فجاءت الوقائع تثبت ارهاصات تكهناتي السابقة وتبرر الكثير من التلميحات والاشارات والأحاديث التي كنت أرصدها من حين لآخر وأعزز من خلالها التمشي الذي توخيته لأجد نفسي في صرديات تروي بالقدر المتاح ما يمكن ان يكون او يصبح تاريخ الجغرافيا وجغرافيا التاريخ في بلادنا وما اتصل بها وباهلها في الجوار القريب والبعيد علني أقف على بعض وربما أهم توصيفات ما نسميه عادة بالذكاء التونسي دون أن نحدد ملامحه وتبعاته والذي يلخص موروثا زاخرا بالحراك الاجتماعي والأحداث والتفاعلات الظاهرة والخفية والسياقات الزمنية المرتبطة بالتنشئات والطباع والضرورة والتفاعلات المترتبة عن ذلك كله او بعضه من أجل بعث انسان عربي آخر يبدأ من قرطاج يكون أكثر تكاملا مع بيئته ودينه وارثه وأكثر تصالحا مع نفسه وأكثر انسجاما مع مستقبله وافر حظا في الازدهار المشهود وربما باوفر اريحية وأسلم طمأنينة تتحلل فيها ما كان بورقيبة يسميه فرحة الحياة التي تهيء بدورها استحقاقات الخلود الموعود في جنة النعيم فالإنسان العربي في ازمنتنا الفارطة والحالية تيمس في دنياه تعاسة لم تمكنه بعد من الاطمئنان على مصيره لما يعانيه من تذبذب وانشطارية وتناقض وحيرة

الفصل الثَّـانِي والثَّـلَاثُونَ

قام شاب في مقتبل العمر وبعد إن اذن له رئيس المحكمة قال

- سيدي القاضي الا تلاحظون أن ما نراه او نسمعه من بعض المتشددین او المتزمتین ومن لف لفه هو رد فعل على عجز اغلب المفكرين القدامی والمعارضین على فهم الاسلام فهما موضوعيا مجردا من الخوف من المقدس من جهة والاكتفاء بالتموقع في الحيز الدعوي دون اعمال الراي والمتمعنون في الكنه المشبعون بما جاء في القرآن والمتمكنون من التاريخ قلة لم تستطع استجلاء حقيقة الاسلام لانها مكبله بالكثير من المنوعات وعاجزة على استجلاء الرؤى المجردة لذلك بقينا في حاجة الى فكر قادم متروينهل من معينات عدة واختصاصات لم تتوفر بعد من اجل فهم الاعجاز الديني فهما اكثر موضوعية وفي الاثناء وفي ترقب هذا الفكر القادح فتحت المجالات على مصراعها لامثال حامد عبد الصمد وقبله للمدارس الدينية والفتاوى والتفاسير التي ما زالت تحتاج كلها الى مراجعة حقيقية شاملة تمحيصية من اجل ارساء مقاربة جديدة وحقيقية لفهم ما حاول رسولنا الكريم تبليغنا اياه وفي الاثناء وحتى في حلبات مدارسنا التاويلية المتعددة بدء بالمنافقين الذين تحدث عنهم القرآن بجلاء ووصولاً الى بعض مذاهب التخونج بانواعه القديمة والجديدة واخرها داعش واخواتها وانا انبه لما جرى ويجري وخاصة ما يجب ان يحصل من اجل ارساء قواعد جديده لفهم الاسلام الحقيقي يبدو لي اننا نعاني من تسرب بعض نشطاء الفكر السلفي بكل درجاته المختلفة في العديد من هياكلنا المهنية واذا لم نتصدى لذلك فستحول بعض مؤسساتنا المدنية العريقة في الديمقراطية الى هياكل مهدمة لمفهوم الدولة التونسية الحدائيه ومخرجة للمجتمع لذلك ادعو المسؤولين عليها الى التفطن للظاهرة ومقاومة هذه الاندساسات الخفية والمعلنة قبل ان ينخر السوس منظمتنا العتيده فالتاريخ لا يرحم التخاذل او الغباء او التناسي او حتى حسن النوايا.

الغرب تطبع باخلاق الاسلام فهو لا يسرق ولا يكذب ولا يراوغ ولا يتاكل ولا يتواكل الغرب اسلم بالتصرف السليم اجمالا والعرب كفروا وباتوا يلوحون تبعات جهلهم ونفاقهم

على كاهل الآخرين.

الغرب لن يغيرهم ولن يضرهم ولن ينفعهم هم الذين في اول تاريخهم قاوموا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقتلوا من استخلفهم وشوهوا دين الله ونشروا الفساد في الارض وأنا انبه الى بشاعة العقلية الجاهلية وأعري واقعهم وطرهاتهم وادعو شعوبنا العربية الى مزيد الوعي برداء زماننا العربي والعمل على مقاومة العقلية الجاهلية القديمة الجديدة مقاومة موضوعية مدروسة مخطط لها.

قال الراوي

واصل المتدخل حديثه مضيفاً

- عفوا يا اهل الحل والربط فمشروعكم الاصلاحي محكوم عليه بالفشل ما دام قطاع التربية يسيطر عليه سلك ذو الاغلبية العددية سلك يعتمد على وزنه العددي مستعملا كل انواع الضغط لفرض تقاليد عمل جديدة تخضع لمنطق المصلحة الضيقة لاعلاقة لها بالواجب المهني وبالمنظومة التربوية. ضغط وصل الى حد تعطيل الدروس وايقاف العمل بالمؤسسة التربوية ورفع شعار ديقاج في وجه كل من يؤدي عمله بجدة خاصة منهم الذين تقوم مهامهم على الحرص على الانضباط وحسن تسيير الحياة المدرسية والمحافظة على هبة القطاع. هذا السلك في الحقيقة لا يعدو الا ان يكون عصابة مهامها اساسا زرع الفتنة والتفرقة و تكريس الميز بين فئات القطاع وضرب المنظومة التربوية ومحاولة تحويل مركز الاهتمام من التلميذ الذي يفترض انه محور المنظومة التربوية الى جعل هذا السلك اساس المنظومة باحاطته بهالة قداسة وهمية والضغط على من يهيم الامر من اجل اضعافها والمسك بمركز القرار متجاهلة في ذلك مصلحة التلميذ وجودة المادة التعليمية اي مشروع يرجي نجاحه واي اصلاح في هذا الوسط النظيف جداد جدا...

تدخل اخر قال

- الحديث عن الاعتصامات المرتجلة أو الغير مدروسة أو الغير منظمة مسبقا في هذا الظرف بالذات مجازفة غير محسوبة والقيام بها الان غير مناسب بكل المقاييس لأن نجاح الاعتصام في مستوى النتائج سيكون محدودا جدا والكثير من المترشحين للقيادات رغم نزاهتهم ليس لهم

بداءل ولا برامج واضحة تنهاى مع الدستور الحالي بالمنطق الديمقراطي.

ما ان انتهى التدخل خطاله حتى رفعت فتاة اصبعها ولما سمح لها نائب القاضي بالتدخل قالت - سيدي القاضي اننا نشتم من بعض التصريحات خفايا معركة الزعامات وهذا أمر خطير جدا لانه يبنىء باندلاع صراعات وربما فتن يقودها أناس أغلبهم تنقصهم التجربة النظامية الحقيقية والحنكة السياسية والسند القانوني وشرعية المرجعيات وفي مثل هذه الحركات ينبغي الاعتماد على تخطيط محكم واختيار الطرف المناسب وتجنب مظاهر الانقلاب وخرق التراتيب القانونية وأشياء أخرى كثيرة إذ لا تكفي الفناعات ولا الحماس ولا حتى الحاجة الملحة للتغيير لان التسرع الغير مجدي والغير المحسوب يضحج المشروع من الأساس لذلك يجب التقيد بضرورة عدم إدخال البلاد في حالات الفوضى في هذا الطرف بالذات الذي يمر فيه شعبنا باعسر فترات حياته ويعاني من العديد من المشاكل المتراكمة ومنها نوع من التسيب الغير مسبوق الذي يشتم منه التمهيد لبعض شرائحه بتوفير السياقات النفسي التي تهيئ للتطبيع مع الجريمة والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي واعتناق مسارب الفساد بأنواعه ما سيتسبب لعامة الشعب في الفاقة وانعدام الأفق الاقتصادي وفقدان الثقة في النفس وفي الآخرين.

وأضافت متحدثة اخرى قائلة

- اعتقد أن أول ما يجب أن نقوم به هو لا الاكتفاء بالمطالبة بإيجاد هيكل منظم بل التنظيم من اجل ايجاد هذا الهيكل الذي يجمع اغلب القوى الفاعلة في تونس وعلى رأسها الشباب التونسي من أجل لا الدعوة الصريحة بل العمل الاجرائي الجاد لإنقاذ تونس بعد أن افتكت منا ثورتنا وثروتنا وحماسنا وهناك من سطا على العديد من قيمنا ومن صادر نداءاتنا وانتزعت منا احلى شعاراتنا وسرقت منا املنا في ان تحيا تونس من جديد وكادوا يقنعوننا أن انبعثت تونس العصرية والمتحضرة والمتقدمة لم يعد ممكنا.

وقال ثالث

- الان ما زال املنا في شبابنا الذي ينادي بضرورة إنقاذ البلاد فإذا ما استطاع هذا الشباب توخي ما يناسب من الحذر والحنكة والبصيرة ومد الشعب بخارطة طريق جادة ومدروسة ومقنعة

فسيتمكن لنا مشاهدة بصيص من الامل لترميم ما انهار بفعل فاعل وذلك بواسطة ما سيقترحه علينا هذا الشباب الواعد من إجراءات تفضي إلى تمش سليم يؤدي بدوره إلى اعادة الاعتبار لمكانة العدالة ويفعل إجراءات محاربة الفساد المتفشى ويضغط من أجل تحقيق كل ذلك ويهيئ للتفكير بجد وناة في تغيير النظام بعد تفعيل القوانين الحالية وارساء ما تبقى من المؤسسات الدستورية والضرورية لقيام مشروع جاد لمقاومة الفساد بأنواعه المتعددة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وإعادة الاعتبار للعدالة والحرص على عزل المتأمرين على أمننا وسلامة اقتصادنا والمبادرة بضمخ بعض الفصول القانونية الرادعة وتفعيلها دون تردد ولا شفقة ولا محاباة هذا ما ينبغي الشروع فيه الآن وفي التو والحين وكل تسرع غير محسوب أو تأخير أو سهو أو تخاذل سيؤدي بالبلاد والعباد إلى ما لا يحمد عقباه.

وأضافت فتاة

- اعتقد سيدي القاضي أن للرهاسات الثلاثة وبعض التوجهات الجادة الحالية ما يمكن هذا الشباب الطموح من فرض شيء من التوافق والحزم والمتابعة ولما لا الاشراف بطريقة أو بأخرى على متابعة كل هذه الإجراءات عن كثب والدعوة لتفعيلها واتباع خارطة طريق واضحة وشفافة وحازمة كذلك من أجل إنقاذ جاد وفعال لوطننا العزيز تونس الانس والمجد.

الفصل الثالث والثلاثون

قال الرّأوي

- دخلت القاعة في نوع من التمللمل قام اثره احد شيوخ القوم من مكانه وقبل ان يستأذن من القاضي بالتدخل أشار عليه الجنب باصبعه فقال

- خذوا كلامي هذا محمل الجلد هذه المرة فأنا لا أمزح مع الوطن قبل أن تخرج تونس من مشاكلها الاقتصادية يزعج بها بعضهم في وباء الزّعمة وهو اخطر فتكا بشعبها ومكتسباتها ومستقبلها.

قال القاضي

- واخيرا اسمع صوت الحكمة.

رد عليه نائبه قائلا

- كأنّ التاريخ أعاد نفسه وجاز الاستشهاد بالمقولة التونسية الماثورة الفيل زده فيلة.

ابتسم القاضي وابتسم نائبه وابتسم المتكلم ثم واصل حديثه قال

- والزعمة بمعناها المتعارف والمعهود عندنا مرض لا شك فيه وهو شائع عادة في الشعوب المتخلفة ومن الزعامات ما هو ضار مثل كثرة الزعامات والتي تولد الفتن وغباء الزعيم يولد الوهن وطغيان الزعيم يولد الديكتاتورية وعجز الزعيم يولد الفاقة والفقر والزعيم الخائن أو الطماع أو الفاسد يولد انتشار الفساد في البلاد والعباد ويتسبب لبلاده في التبعية والولاءات وربما في الاستعمار والزعامات التي تنقصها التجربة والخبرة حتى ولو حسنت نيتها تولد الارتجال والتلفيق والتعثر وعدم إيجاد الحلول المناسبة للنهوض بالاقتصاد وعدم التمكن من تحقيق الاستقرار وادنى نتائج هذه الأوضاع الفوضوية واقصاها انتشار وباء الزعمة ما هو الحل

سكت الشيخ قليلا ثم واصل قائلا

- ككل وباء ينبغي تحديد بروتوكول للنجاة منه وبروتوكول النجاة من وباء التكاليف على الزعامات التزام القائد المنجّي من الوباء وفي الديمقراطيات يسمى الحاكم بتوخي الحد الأدنى من التوافق المبني على التزام كل أطراف الحكم بالقانون وتطبيقه بكل عدل وصرامة ونزاهة كذلك وينطبق تطبيق القانون على الجميع واولهم على كل من تسبب أو يتسبب في أي مظهر من مظاهر الفساد بمختلف أنواعه وأدواته ومؤسساته والمساهمين فيه من قريب أو بعيد قليله وكثيره قديمه وجديده ويبقى للشعب وحده الحق في مجازاة من يراهم قد افادوه واخلصوا في خدمته واخرجوه من الجهل والفقر ووفروا له فرحة الحياة وضمنوا مستقبل أبنائه في العيش الكريم ومن هذه المجازات أن تعترف أغلبية الشعب بزعمارة فلان أو فلانة ذكرا أو أنثى فردا أو جماعة وذلك بالتطوع بأسناد لقب الزعيم له أو لها أو لهم أو هن كما للشعب حق الاعتراف بجميل حكيم أو أديب أو فنان أو مخترع أو شاعر أو أي مبدع والزعمارة والتكريم لا يجوز إسنادها إلا لمن ثبتت قيمة نفعه للشعب بالقرينة والدليل في الزمان والمكان. اللهم اني بلغت

وقال شيخ اخر

- ذكرني المتحدث بما كنا نطلق عليها بالرجولة او الرجولية بالمعنى التونسي وانا اريد ان اتحدث عن كلمة جديدة فرضتها علينا الديمقراطية وهي كلمة الولاء يؤاخذ بعضهم بولاءاتهم السابقة لبورقيبه أو بن علي والان يركز بعض معارضي فلان او فلانة على ولاء هذا او تلك لبن علي وينسون انه في وقت من الأوقات حتى اقرب الناس لهم وربما من يعتبرونه زعيمهم يمكن ان يتهم هو الاخر بالولاء لنفس المنهج او نفس الشق او حتى لنفس الشخص فمثل هذه المؤاخذات كانت واردة في سياقاتها ولا يؤاخذ أصحابها بالخيانة أو عدم الوطنية وحتى من كانوا يعرفون بمعاداة بن علي الصريحه مثل اغلبهم واغلبهن بمجرد ان حررتهم الثورة ووضعت بعضهم في مراكز التأثير السياسي لم يستطيعوا تقديم ما يناسب ثورتهم أو يحقق مبتغياتهم أو ينفع الناس من قريب أو بعيد ما يدل على أن السياسة ليست ولاء ولا معارضة السياسة علم ومعرفة وفن وتقنيات واخلاق بل كدت اقول موهبة ولن يتقنوا لعبة الديمقراطية إلا من يستحقونها ويحسنون التصرف فيها واهم معطى في الديمقراطية أن لا تعمل على محق أو إزالة أو حتى التقليل من أهمية معارضيك ولا تلتجئ لذلك لكسب مناصريك بل يكفي أن تقنعهم بمشروعك وتحقق ما

وعدت به لتتصر وتتنصر معك معارضيك قبل الموالين لك فتتحقق باقناعك لاعداءك نجاحاتك هذي لعبة الديمقراطية كما علمنيها بورقية في فترات المصارحة معه وهنا التقي مع من سبقني في الكلام عن الرجولية فقد كان بورقية يسمى ذلك بالرجولية بمعناها التونسي الصرف وقس على ذلك ما يقال اليوم عن مفاهيم اخرى كثيرة مثل الحريات الفردية والخاصة وتحت هذا الغطاء السحري خرجت للبشرية كل البلاوى وانتهكت الكثير من الأعراض ونهبت أموال سرا و جهرا وزهقت أرواح العديد منا وازدهرت الجرائم ضد الإنسانية و بنفس الغطاء تكونت المافيات وتأسست منظمات الإرهاب والتخريب والفساد بشتى انواعه واستمددت شرعيتها باسم وجوب حق التستر والتخفي وعدم انتهاك الأعراض استغلت العديد من المنظمات والتنظيمات لانتهاك اعراض الآخرين وباسم حق التستر انتهاك ستر الآخرين

لقد آن الأوان لمراجعة هذه النمنامات التي فاق ضررها نجاعتها وان الأوان لوضع أسس وعلاقات أخرى بين الأفراد والجماعات أكثر نجاعة واحكم نظميا وأقل ضررا وأضرارا

وتدخل اخر قال

- لا تختلف بعض هذه المظاهر عن الاوبئة ومن المؤكد ان نجتهد من اجل تنقية الاسلام من شوائب التخونج ونوصي بالصبر الجميل ونعلم الناس النظافة ونبشر بالأخلاق الحميدة المبنية على التآزر والتحابب والغيرية

وقالت فتاة

- صباح الامل صباح يبدأ بحمد الله على عافيته وشكر الرحمن على لطفه بنا والإقرار بافضاله علينا ونحن نجتاز بسلام كل مرة عتبات الخمسة عشر يوما العديدة والمتوالية درجة درجة ونحن احياء معافين نتمتع بنعمة اسعافنا المرة تلو المرة في زمن خطير عصي. قل فيه الأمن والأمان في الأقطار والامصارغنيها وفقيرها قويها وضعيفها قريبها وبعيدها حمانا الله وحفظ اهلنا وذوينا وبلادنا والناس أجمعين من بلاء الجوائح والابئة ولنواصل في حجرنا الصحي الموفق بفضل عزما وصبرنا وثقتنا في خالقنا أنه ولي التوفيق ونعيش العديد من الإجراءات الإيجابية من انتاج ذلك الذكاء التونسي الذي نعول عليه ونثق فيه ونحن نردد نشيد الامل والثقة في خالق عالم وعليم

قَنَّ العلم ورتبه بقواعد وقوانين بالقسط واحكم خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة وقنن العلاقات بين الناس بوشائج مكارم الاخلاق ولم يدرج في دينه الشعوذة ولا التناحر ونبه من الفتن وحرّم الفساد واهدى للبشرية ديناً سمحاً شعاره السلام ينتظر الكافر حتى يسلم ويمهل العاصي حتى يتوب كما ورد على لسان العديد من سبقني من المتكلمين واليطمئن كلنا بأن الإسلام يجب ما قبله وينادي عباده الذين أرسفوا على أنفسهم بقوله

*** لا تقنطروا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً أنه هو الغفور الرحيم ***

وينبه الجميع بأن الفتنة اشد من القتل وبأن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ويوصي بالصبر ويشير الصابرين بأجر عظيم

فعدم إيجاد الحلول في الازمات والبأس من القدرة على التفكير الناجع يبدأ بمنطق الدعوة للفتن والفتنة اشد من القتل في الدين والفتنة في العرف تخلف ناتج عن ذهنية تعجز على إيجاد الحلول الفعلية أي التي تفضي لمرحلة الانجاز وتغابر الاقتصار على التعبير عن المشكل قصور في سعة فكرها وذلك القصور يسمى جهلاً والجهل يصلح بالمعرفة القادرة على استنباط الحلول الناجعة للخروج من الازمات دون أن نلجأ للتحريض على العصيان أو الدعوة للقتل وأسالة الدماء كما يدعو إلى ذلك بعضنا على قلتهم فبقليل من التروي والذكاء والعلم والامل تخرج الأمة التونسية من المازق اثناء الأزمات وبعدها

وهذا الفكر الخلاق نسّميه في بلادنا الذكاء التونسي اذا كان فعّالاً ويقابله الغباء المطلق والغباء المطلق يشمل كذلك انحباس الفكرة في حد الكلام الذي ان لم يفعل يصيح لغوا واللغو ليس تونسياً بل مستورد عادة من تيارات وافكار وتوجهات من خارج تونس ولا شيء اخطر على الذكاء التونسي من اللغو فكم من مرة عندما يكثّر اللّجّاج يخرج من الابواق الصامتة المبتوثة في كامل انحاء الفضاءات المفتوحة والمغلقة صدى لسان حال ذلك الذكاء التونسي مردداً

- كتبنا كتبنا كتبنا كلاماً بعثناه حيناً سلاماً

وصغناه حيناً خصاماً وحيناً كتبنا كلاماً طويلاً

وحينا قصيرا وحينا كتبنا كلاما مثيرا
 وقلنا كثيرا وصغنا رؤانا ولم نتوانى
 كتبنا بادمعنا ما كتبنا وحينا فشلنا وحينا اصبنا
 ولم يكتمل بعد ما قد كتبنا

كتبنا حروفا جساما وقلنا كلاما وزدنا كلاما ولم
 نتجاوز حدود الكلام أعدنا كلام الكلام كلاما

في كـ ل يوم وفي كـ ل عام
 ولم نتجاوز حدود الكلام شبعنا كلاما كلاما كلام
 وحرفتنا في حديث الكلام ونجتر الامنا بالكلام
 ونغزل احلامنا بالكلام وتنتج ليلا نهارا كلام
 ونبكي ونشكو ونندب حظا كلاما ولفظا
 ونـ كـ عـ ر ضـ ا بسيف الكلام
 جعلنا الكلام رغيلا فجعلنا وصار الكلام مخيفا

بسيل الكلام وواد الكلام سقينا الدروب العجاف كلاما فأصبح عشب التراب
 هشاما ولننا بطولة صوغ الكلام وصنع الكلام وفعل الكلام وصار الكلام
 لدينا بخورا

بـ هـ نـ سـ تـ فـ غـ يـ ث بـ سـ مـ عـ يـ حـ ثـ يـ ث

نعتق اوهامنا بالحديث صنعنا من الكلمات بحورا وبالكلمات بنينا
 قصورا ومن نارها قد صنعنا بخورا يعطر مسجدا والمخور ولم نتجاوز
 طقوس الكلام بلغوا الكلام مألانا الدروب صنعنا الخـ طوب

أثـرنا الحـروب بلـغو الهـذر وزـيف
 الصـور نشرنا المـحـن نصـدّر بالـكـلمات الفتن
 ونصنع بالـكـلمات الحزن نهـدّم بالـكـلمات الوطن
 قليلاً من الصمت مهلاً ومهلاً تريـدون حلاً
 الا فاستفيقوا لنصنع فعلاً كفى الان قـولا
 كفانا وهـن يموت الكلام ليحيا الوطن

الفصل الرابع والثلاثون

قال الراوي

- جالت في عقول الكثير من الحاضرين فكرة تبيض الارهاب وانموذج الخلايا النائمة وصورة محاضن الفكر المتطرف متصورين أن ذاك الشاب الذي غادر القاعة احتجاجا على شيخ الباكين هو بحسب روعة ثقة أحد هذه النماذج فان لم يكن كلها فإنه يستطيع أن يمثل بعضها وفي أخف الحالات يمكن استقطابه بسهولة

قام شاب طويل القامة ثابت الخطو بعد ان خرج من مجلسه استأذن من القاضي ثم ممن حوله بأدب وتوجه نحو الشيخ المسكين الذي هم بالخروج لكن الشاب استوقفه وقال بصوت عال وحاس اعلی

- لن يقبل الشعب بسهولة عودة ما استعرضه علينا منذ قليل بعض المتعصبين المتزمتين المصابين بغباء سياسي متقع وتدن في الأخلاق لا مثيل له لقد غادر أغلبهم القاعة لأنهم فهموا أنهم خارجون عن السياق وعن مدنا الثوري وأنا أقول هذا ليس انتصارا لسيادة الشيخ المحترم فحسب بل لنا جميعا أنا على يقين من أن فوزنا لن يكون على يد أمثال هؤلاء السليين الذين يتخفون وراء برقع الدين ويتاجرون بطيبة الناس وثقتهم في الائمة الأجلاء فهم ليسوا بمتدينين بل هم يتحللون صفة المتدينين أما شيخنا الجليل فقد تبرأ من الدجل والنفاق وانخرط في النجاعة والحدائة التي أسس لها القرآن الكريم والرسول محمد عليه الصلاة والسلام والذي نسمي توجيهاته ونصائحه حديثا كما سبق أن وضع ذلك أحد المتدخلين

وأضاف متدخل اخر

- ديننا واضح وجلي وسهل الفهم أما هذا التيار الذي يمثلته بعض هؤلاء المتفقهين هو تيار خارج عن كل هذه السياقات يؤمن بالانتقام ويتحرك بقانون الكراهية وهو دائما متجهم الخطاب نابع السلوك ينادي بلغة الثورة الى رجعية عشنا عينة منها في أيام ذل الانتصاب الفوضوي في

الحكم أيام عمت فضاءاتنا تلك الأعلام السوداء

وقال متحدث اخر

- لو كتب لهذا الحراك وأمثاله أن يستعيد قواه فسنستمع مرة أخرى الى أطروحات مشحونة بحب الاقلاع الى المجهول وسنقرأ ونرى ونسمع كل النماذج الثورية ونتمتع بفصول من الهزل الهزيل والنكة البائخة باسم ثورية ثائرة رثة ثملة برائحة الثوم ولن يكون عزاؤنا في ذلك الا أن ندعو اللهم افضحنا ولا تسترنا حتى يتبين الخبيث من الطيب

كان حارس المحكمة يؤدي مهامه بكل جد وعناية وفجأة استذن من جناب القاضي وقبل أن يأذن له بالتدخل انبرى يخطب في الناس قال بكثير من الحماس

- اتقوا الله في هذا الشعب يتحتم الان وبسرعة أن يتحول الخطاب السياسي لجميع الفرقاء من السلبية الى الايجابية أي أن كل طرف مطالب باستنباط أطروحات تقنع أغلب خصومه لا أن يجتر قناعات الموالين له ويكتفي بتذكيرهم بها واستنفارهم من أجلها وتجييشهم ضد الطرف المقابل والانزلاق في بؤادر الفتنة طوعا أو كرها عن قصد أو عن غير قصد

تجاوز القاضي عن حماس منظوره وأبدى استحسانه لرأي الحارس معبرا عن ذلك بحركاته الرأسية التي تفيد الموافقة والقبول

قال الراوي وهو يحفر في ذاكرة الأزمنة القريبة والبعيدة ويستقرأ ملفات الأحداث ويربط بينها ويستنتج أثرها

- بقي السؤال الأساسي يحرق السنة الأغلب اللاعَم من الحاضرين كيف نفلت الفرصة على الإرهاب ولا نمكنه من استغلال سهونا أو ضعفنا أو سكوتنا فالإرهابيون المندسون بيننا يتحمسون لكل ما من شأنه أن يمثل تيارا معارضا كيف يمكن إيجاد صيغ أخرى لضمان المطالبة بالحقوق وضمان الاستجابة لتلك الطلبات في ابانها وهي المعادلة الصعبة وقد عبر عنها العديد منا

قالت المرأة بشيء من الجرأة والتحمس والثقة في النفس والصدق

- الكثير من الإرهابيين المندسين بيننا يتحمسون لكل ما من شأنه أن يمثل تيارا معارضا

ويمكن إيجاد صيغ أخرى لضمان المطالبة بالحقوق وضمان الاستجابة لتلك الطلبات في إبانها في اطار التفاهات البناء بواسطة توافقات وروزنامات ظاهرة وخفية أحيانا والتزامات مضبوطة تسد الطريق أمام استغلال الإرهابيين للحق في الإضراب المشروع وتترك مخططات الإرهاب محليا وإقليميا هكذا كنا نفعل أيام انتشار تيار الإخوانجية في أوائل استقلال بلادنا لقد حاول هؤلاء القوم الركوب على أحداث ما سمي باليوسفية وركبوا على أحداث الخبز وركبوا على كل حدث له صبغة اجتماعية أو اقتصادية هم يستغلون فترات ضعفنا لتعفين الجرح والاستمتاع بموتنا وان لم تقتلنا جروحنا فهم يخرجون من جحورهم لقتلنا غدرا لذلك لا يحق لنا أن نمكنهم منا بأي حال من الأحوال ولا يمكن أن نعطيهم فرص النيل من مقومات نجاحنا كما يتحتم علينا استبعاد شبابنا من قبضتهم القذرة المسمومة .

وفجأة اعتلت أصوات شباب متحمس كان أغلبهم يجلسون في اخر القاعة منشدين مهللين

قولوا لهم نحن التحدي كلما اشتد العناد وزعزع الأركان

قولوا لهم نحن الثبات ولن تروا منا الفتور ولن تروا اذعانا

قولوا لهم نحن الصمود وما اعتـرانا مرة جبن ولا أغوانا

في صدرنا الحلم الذي لا ينتهي لكننا نقسو على من خانا

تنهد القاضي وكأنه يتعمد ازاحة هم سكنه ثم قال

- بين المعارضة والموالة علاقات تصرف حاليا مجانا أيها الناس اتقوا الله في شعبكم

قال مساعده وكأنه أراد أن يخفف الوطأ على رئيسه جناب القاضي

- ليس الأمر بالهين لا بد من قراءة لما يحدث خارج الوطن فالأمور مرتبطة بعضها ببعض

والزلة بحجم الفلقة لا بد من مراعاة الأحداث وأخذها بعين الاعتبار حتى تتجنب البلاد

سيناريوهات أكثر تعقدا مما يحدث الان هنا وهناك

راجع القاضي قال

- من المؤكد أنك تقصد الوضع في مصر

أجاب المساعد على الفور

- نعم سيدي القاضي رغم أناقة خروج مصر ظاهريا من الكابوس فأنا أعتقد أن بلادنا هذه ستخرج من المأزق بأكثر أناقة وذكاء وطرافة وأقل خسائر وأثبة قدم تسجل كعاداتها وستحقق سبقا تاريخيا جديدا بعد سبق ثورة الربيع العربي

أسرعت الزوجة في افتكاك الكلمة قالت بحماس شديد

- من الأجدر الرجوع الى ما قبل الأحداث في مصر لتحليلها واعادة النظر فيها من جديد واستخلاص العبر منها واقتراح حلول أخرى غير التي يتمسك بها الجيش المصري أو التي يقترحها حاليا مناصرو محمد مرسي فالمشكل لا يكمن في استمرار حكم مرسي أو الاستغناء عنه بل في اعادة النظر في نمط الحكم الديمقراطي المتبع الان في بلدان الربيع العربي فالخطأ الرئيسي هو مواصلة الشرعية في الحكم بأسلوب الهيمنة والتفرد أي بحكم فردي مبرر بصناديق الاقتراع وهذا النمط هو تحول سطحي في درب الديمقراطية أي تغليب الشكل الديمقراطي على المحتوى الديمقراطي من جهة ومن جهة أخرى مشكلة مراجعة الهوية بالبدئ في التشكيك في ما ضرورة دراسة ما حصل من تطورات في العقلية الجماعية والاصرار على اعادة نمط المجتمع البدائي بدعوى تقليد السلف الصالح والذي لم يكن كله صالحا او مثالا او انموذجي والرغبة الملحة في الاصرار على تبني الاطروحات السلفية والرجعية واعتبارها اصولا او ثوابت او مراجع اوارثا او مكتسبا

تدخل أحد المحللين وكان يجلس اخر قاعة المحاكمة قال

- يتساءل الكثيرون عما حدث في مصر هل هو انقلاب عسكري أم انقلاب على الشرعية من المؤكد أن ما حدث أمر هام ومفضل في الوطن العربي وهو كذلك ظاهرة سينكب الكثير من المحللين على دراستها والتعمق فيها كما أن التاريخ سوف يخصص لها حيزا هاما ويقرأ تفاصيلها ويعتبر منها ورغم انني لا أتمني لأي شق سياسي أو اديولوجية معينة فاني أرى أن هذا التطور في السياسة المصرية بهذه الصورة يثير الجدل حول نقاط موضوعية هامة ينبغي التنبه لها منها عجز

شرعية الصندوق على التحلي بالديمقراطية المطلوبة والمعمول بها في الدول العريقة في هذا المضمار ومنها كذلك التثبت بالانفراد بالحكم باسم الأغلبية وكذلك انغلاق تام على كل التيارات الغير حكومية وقصور في التقديرات الاستراتيجية مع انعدام القدرة على الانصات ومواكبة الاحداث وتحليلها وعدم اخذ الراي الاخر بعين الاعتبار والتمسك بالشرعية المطلقة وعدم القبول بالنسبية الشرعية

تدخل الزوج قال

- بقي سؤال محير جدا كيف نمنع أبناء هذا الوطن بالذات من أن يتم استقطابهم لحضيرة الارهاب في الداخل والخارج ماذا تفعل الأسر التي اعتقدت أنها امنة الى حد اكتشاف أن أبناءها يتم الان غسيل أخاخهم وتجنيدهم ضد عائلاتهم وضد وطنهم بقطع النظر على وضعياتهم الاجتماعية المختلفة ومستوياتهم الثقافية المتنوعة وماضيههم السليم في أغلب الحالات كيف نتشلمهم من براثن التدجين الارهابي وحضائر الموت وفلسفة الدمار الشامل ما هي الخطط التي ينبغي ارساؤها لتخليص العديد من العائلات التي يقع بناؤها وبناتها في فخ الارهابيين المحترفين وشبكات الموت المحلية والاقليمية والدولية

أجابته زوجته المصون

- لقد تحول الارهاب من مجرد ظاهرة وحشية الى ظاهرة عقائدية والان أصبح الارهاب المعاصر صناعة تستمد الياتها من الوحشية البشرية أو ما تسميه بلغتها التقنية التوحش وتعتمد في تقنياتها مبدأ العقيدة لتخدير العقول والمهج وتحويل الوجهة كما تستعمل العصبية والعروشية وتستغل المشاكل الاجتماعية ومن أهم وأخطر ما تعتمد عليه اليوم بالاضافة الى الحاضنات التقليدية الموالية لها حتما هي الحاضنات الخارجة عن سياقاتها المعتادة والتي تستعملها عادة حركات المعارضة الشرعية كحقوق الانسان وقد تركب على المطالب الديمقراطية وتمتطي دوايب المطالبة بالعدالة الاجتماعية والحقوق الفردية والحق في التنمية وكل ما يندرج عادة في خانات المطالب المشروعة والقيم الكونية وهو ما ينبغي التفطن اليه في مكافحة الارهاب العصري الذي يكتسح الاوطان الان

الفصل الخامس والثلاثون

قال الراوي

- كانت الريح تعصف خارج القاعة وترسل من حين لآخر بجذاذات من صفحات ما تناثر من الصحف اليومية والاسبوعية وحتى الشهرية كانت تصب يمناً ويسرة فوق الرؤوس تارة وتارة فوق الركب وتحت الأرجل فتتناولها بعض الأيدي وتلتهم بعضها العيون لتقرأ ما جاء فيها من عناوين بالبنط العريض

- نسيم الحرية
- رقم قياسي في مسلسل ناعورة الهواء سبعة الاف كومبارس ومائة وخمسة وعشرون ممثلاً
- هجوم ارهابي اثم في متحف باردو
- من يدلني على بارقة أمل
- التمديد في سن التقاعد خط أحمر
- إيقاف سبعة وأربعين ارهابيا في أسبوع
- التكفير فتنة
- نقابة الأئمة ترفض تكفير الطالبي والمهجوم عليه في المساجد
- مائة وخمسون حالة تبادل عنف بين الموظفين في العام
- صيحة فرع بسبب تسجيل سبعة عشر حالة اغتصاب في الشهر
- احالة ملفات المفقودين على لجنة للتحقيق
- بوعزيز ينشر غسيل قناة العائلة

- وزير الصحة يلغي وقفة احتجاجية لألفي وثمان مائة قابلة
 - غليان في جندوبة وتهديد باللجوء الى الجزائر
 - ترويع أول سيارة طائرة خلال عامين
 - بالتوازي مع أزمة الثانوي ثلاثة وستون ألف معلم يهددون بمقاطعة الامتحانات
 - متى يتم الكشف عن الخلايا النائمة التي عبثت بالتحكيم
- كل هذه العناوين وغيرها كانت تتساقط على رؤوس الملاء من جريدة واحدة في يوم واحد ومن حين لآخر تطل على الحاضرين كتابات سريعة على شاشات ضوئية تبدأ بجملة خبر عاجل من قبيل
- طفلة لم تبلغ الثامنة من عمرها تتحر من اليأس
 - أربع فتيات في عمر الزهور تشربن دواء الفئران خوفا من عقاب مجلس التأديب بمدرستهن الثانوية
 - حارس مدرسة اختص في اغتصاب الأطفال
 - مدير مدرسة يختصب تلاميذه
 - الحكم بالاعدام على خمسة أشخاص قتلوا طفلا صغيرا من بين القتلة عمدته
 - الزطلة تدخل المدارس الابتدائية بعد أن اكتسحت المدارس الاعدادية والمعاهد الثانوية
 - شاب يجمع بين أختين في السر وينجب من كل أخت ولد
 - سمير الوافي مقدم لمن يجزّ فقط في السجن من أجل تهمة تحيل
 - التفت أحد الحاضرين نحو رجل كان يجلس بجانبه وقال له

- البارحة رأيت شابا يرتدي نقابا دخل الى حمام نسائي ليسرق الحقائق والان من بين الحاضرين من يدعو نساءنا وفتياتنا وحتى بناتنا الى وجوب ارتداء النقاب تورعا وتحصنا

صاحت امرأة متحجبة من بين الحاضرات

- انا أدعو الى تعميم ارتداء الحجاب في صفوف نساءنا مثلما أفعل أنا الان

أجابها أحد الحاضرين

- لا أعتقد أنك أكثر تقوى من غيرك من النساء ولا أخطر جمالا كل ما في الأمر أنك متأثرة برؤى من نوع خاص يروج لها تيار معين يمكن أن يكون يوما ما أخطر من القنابل الموقوتة

وقال متدخل اخر

- أغلب نساء بلادنا متحجبات من الداخل

وقالت فتاة

- نساؤنا مؤثبات من الداخل بالاخلاق الفاضلة المستمدة من سماحة ديننا الاسلامي الخفيف ونقاء العلم المكتسب وكذلك من صفاء معدن أصالتنا في هذا البلد الأمين الذي سينتصر بحول الله وتوفيقه

التفت اليها شيخ طاعن في السن مضيفا

- قد قرر شعبنا منذ زمان بعيد التَّخَلِّي عن النَّقاب والعقاب والارهاب والضباب والاغراب والغراب والسباب والكلاب وحمل الجراب والجري وراء الخراب هذا رجوع للوراء وحلم الأغبياء لا تسقطوا في فخ الرداءة والتخلف لقد حرركم أجدادكم من هذه الطَّرهات منذ أمد بعيد ومن لم يتورَّع من القوم زَجَّ به في السَّجن وبعد خروجهم منه عادوا الى غيِّهم ومن يعود الى غيِّه سيعود للسَّجن تلك سنة الحياة بلادنا لا يمكن لها أن ترحف للوراء والنقاب زحف الى الوراء اعتصموا بثفاقة الحياة وفرحة الأمل الذي لا يموت وتجاوزوا مظاهر التخلف والانحدار واليأس أو التشفي يا شبابنا العزيز لا يغرنكم شنان بعضكم أنتم أرقى من هذه الأراجيف التي

تجاوزناها أكثر من ثمانين سنة مضت كنّا نحن أجدادكم قد قاومناها من أجل أن تعيشوا متحرّرين فلا تغتروا بهذه الموجات الظلاميّة التي تسوّق جهلا باسم الاسلام والاسلام أرقى من ذلك وأرفع من أن يحصر نساءكم وفتياتكم وبناتكم فيما يشبه أكياس البلاستيك

واعتلى صوت فتاة كانت تجلس مباشرة قبالة لسان الدفاع قالت بشيء من الحماس

- تواتر الارهاب باسم الدين الاسلامي في كل مكان سوف يؤدّي الى ان يكره اولادنا الاسلام من جرّاء تصرّف هذا الفكر المتطرّف الجبان والغير مسلم اطلاقا مطلوب اليوم من رجال الدين والسياسة في العالم العربي ان يتصدّوا لهذا المسخ الديني الجديد القديم الذي سيجب الاسلام جبا من الارض ويحكم على المسلمين بدوام التخلف والانحطاط وربما يؤدي بهم الى الاندثار القريب العاجل ولست وحدي على هذا الرأي فقد قرأت في الفايسبوك نفس الملاحظات تقريبا فهذه فرات المرسى تقول

- الاسلام جاء للقضاء على الجهل والغباء والعنف والتطرف لتكريم الذات البشرية ونشر الاخلاق الحميدة والسلام ولكن العربي لم يفهم مقاصد الاسلام فأصبحت عديد الملل تقتي لنفسها ماتريد واخرى تحلل سفك دم الآخر لأنفه الاسباب لنجد انفسنا بين انهار من الدماء وغابة من الرؤوس المقطوعة باسم الدين استغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله

وتدخل كهل في مقتبل العمر قال بصوت فيه كثير من الحسرة والمرارة

- ماذا ربح الدين الإسلامي من تدمير سوريا بدعوى اسلمتها خوفا من دكتاتورية بشار الأسد أي قيم دينية هذه التي تستبدل ما كانت عليه سوريا من سيء وجميل بهذا الدمار الشامل يا من كنتم تبكون أماننا على سوريا بشار وتجمعون شبابنا أمام المساجد وداخلها من أجل تحريضهم وتجنيدهم للجهاد في سوريا مدعين بأن الله بعثكم لانقاذها وسيثيكم على صنعكم يا من تحرّكنتم لنصرتها من قبل الان وبعد أن اتمتم مشروعاتكم بالطريقة التي ارتضىتموها الان وقد استوفيتم اغراضكم خبروني عن حال ضمايركم كيف هي اليوم بعد ما الحقتموه من دمار وخراب وسطو وسلب وقتل في سوريا هل مازلتُم تنامون براحة بال وبأي وجه وضمير تدخلون للمساجد وهل مازلتُم تجرؤون على الوقوف للصلاة أمام ربّكم بنفس العقيدة ونفس الايمان ام هل دفتتم خزيركم

وغيكم وفساد ضماثركم بتراب جهلكم ورماد صلفكم ام ما زلتم في كل ذلك إلى الأذهان وهل وجدتم الوقت لمراجعة عروبتكم واسلامكم واستحضار طواغيتكم

واثر هذه الصبيحة المفزعة احال القاضي الكلمة للسيد عبد الوهاب السعدي قال

- العروبة قومية والاسلام دين وليس كل عربي مسلم هناك العربي المسيحي واليهودي الملحد والكافر وقد زج بلفظ الطاغوط في غير محله فالطاغوط ليس حاكما او شرطيا او عسكريا او دولة فهو اسم الاله عبده اهل مصر القديمة كما ورد في القران الكريم وقد حرفة المتاجرون بالدين صلفا وهتانا وهو تحريف ينم عن رسوخ العقلية الجاهلية في بعض النفوس المريضة ممن تبقى من الاعراب الذين وصفهم الله رب العزة بالاعراب في القران الكريم حيث قال "الاعراب أشدّ كفرا ونفاقا" صدق الله العظيم

ويضيف السعدي

- العرب فئة متعطشة للحكم والزعامة حتى ولو كانت على جثث باقي الخلق... اما الملوك والامراء فئاتهم مشهورة في القران... "ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون..." صدق الله العظيم الاسلام برئ من انحطاطنا وبرئ من سلوكنا وافعالنا.

وقد قرانا تعليقا اخر يقول فيه صاحبه

سبحانك الله لا التغيير يدركنا حتى نغير ما بالنفس من شرّ

ألا يحقّ لنا من بعد ثورتنا أن نستعيد بذكرنا شذى النّصر أخشى على ثورة الأحرار من صلف مجرّها عنوة للمدّ والجزر

ويجعل البعض من أحزابنا علما تحوي كمينا من الآفات والقهر باسم التحرّر بعض النّاس حاملة بالغنم في قسمة الثّروات والخير

وبالعوض متّادعة أدعياء اذا ما مسّهم حرج بثّوا من الضّرّ

عبر اعتصام وإضراب وبلبلة أو احتجاج مشين فائق المكر

حرية الرأي والتعبير زينتها انضباط وأخلاق وشيء من الصبر
 لا تفسدوا ثورة جاءت لتعتقنا من انفلات ومن حرق ومن جور
 ولا تكونوا مع الإفراط لا أبدا ولا تكونوا مع التفريط في الأمر
 ماذا أقول لمن ماتوا بساحتنا لكي تعيش بلادنا نخوة النصر
 ماذا أقول لأجيال تراقبنا خوفا على نفسها من طعنة الغدر
 قد خان ثورتكم من حاد عن خلق أوجاء متتـهـزا ظرفا بدا مغري
 و يتقاسم هذه الافكار العديد من الناس ان لم اقل اغلب الناس ومنهم فيصل فرحات في
 تعليق عفوي على الوضع في البلاد بعد قرابة خمس سنوات من اندلاع الثورة يقول فيه
 - بين من هو مضرب ومن يضع حواجز على الطرقات ومن هو معتصم ومن بين من
 يدعي أنه نقابي ملتزم بحقّ يعتبره فوق حقّ الوطن ومن أفرط في التحزّب حتى صار همه الوحيد
 التمسك بالسلطة والاستفادة منها حتى لو كان ذلك على حساب ضياع وطنه ولا أرى ما هو
 الفرق بين من يتربّص بالوطن خلف الحدود وبين من يطعنه من الدّاخل بل اعتقد ان من يطعن
 وطنه من الداخل هو أشدّ خطرا من غيره لانه يرر خياناته بالثوريّة الدنيّة ويثبت فقدان روح
 الوطنية والنتيجة واحدة : النزول إلى هاوية ما بعدها هاوية وهي الخيانة العظمى والتي تتفق كل
 القوانين الكونيّة على تجريمها وتعاقب مرتكبيها بأشد العقاب .
 وتدخل شاب اخر من الحاضرين في القاعة قال

- تفكروا يا اولي الالباب ومع ذلك فهناك من ما زال يدعي ان الاسلام في انتشار مبهت في
 العالم وانا اعجب من هذا الادعاء كيف ينتشر الاسلام وقد ربط المتشددون والمتعصبون تعاليمه
 بالقتل والترويع فالتكبير عندهم رخصة لاطلاق النار في رؤوس زملائهم والتقوى حولوها
 الى انتقام ممن لا يشاطرونهم الراي والصلاة جعلوا منها غسिला لذنوبهم والصوم فترات تلذذ
 بالانتقام والفجر للتفجير والصدقة تبيض اموال والزكاة تمويل للارهاب وحولوا الحج للبيت
 الحرام الى حج في الجبال والمغاور والاستعفاف بالزواج الى جهاد نكاح والعلم الوطني الى خرقة

سوداء او صفراء اي اسلام هذا الذي يتشتر في عقول ابنائنا الصغار ليصبح في اذهانهم صورة قائمة يخشى ان تؤثر فيهم وتبعدهم عن الاسلام الحق اسلام ينتظر الكافر حتى يسلم و ينتظر العاصي حتى يتوب ويجب لكل منها ما سبق

عندها اعتلى صوت متسائلا

- كيف يمكن لأهل بلدنا أن يطالبوا بحقوقهم المشروعة في اطار التفاهات البناءة وبواسطة توافقات وروزنامات والتزامات مضبوطة تسد الطريق أمام استغلال الارهابيين للحق في الاضرار المشروع وتربك مخططات الارهاب محليا واقليميا هكذا كنا نفعل أيام انتشار تيار الاخوانجية في أوائل الاستقلال وقد ركبوا على أحداث ما سمي باليوسفية وركبوا على أحداث الخبز وركبوا على كل حدث له صبغة اجتماعية أو اقتصادية هم يستغلون فترات ضعفنا لتعفن الجرح والاستمتاع بموتنا وان لم تقتلنا جروحنا فهم يخرجون من جحورهم لقتلنا غدرا لذلك لا يحق لنا أن نمكنهم منا بأي حال من الأحوال

وتدخل اخر قال

- سلامة الوطن خط أحمر لاشيء يبرر خيانة الوطن او الاضرار به

وتدخلت فتاة قالت

- بعد كل عملية ارهابية تنتصب المنابر التلفزية والاذاعية وتنشر المقالات وتشرع جميعها في ايجاد الاعذار للارهابيين والتفنن في استنباط ما يبرر انحرافهم وتطالب بتوخي مقاربات وحلول لتحويل وجهة الشباب عن غيهم وتجنبيهم السقوط في ايادي المغررين بهم وتكثيف اساليب احتضانهم من اجل انتشالهم وبقدر ما اتبنى ضرورة تحصين شبابنا الذي لم يتورط بعد في الارهاب بقدر ما اطالب بالضرب على يد كل من ساهم ويساهم من قريب او بعيد في النيل من مقومات هذا الوطن وأعتبره ببيضة حارمة لاحاجة لنا بانتشالها ولا حتى الاحتفاظ بها لاني صراحة لا أجد أي مبرر للوصول الى خيانة الوطن أو الاضرار به مهما كان الأمر ومهما كانت الأسباب تلهى بعض الناس في الاستماع لهذه المداخلات وغيرها وتلهى اخرون بمطالعة بعض الأخبار الواردة عليهم من كل حذب وصوب وتلهى اخرون بالتعليق عليها كل بحسب مزاجه وتوجهه

وبحسب من توجه اليهم كذلك وكانهم يريدون اعلام القاضي باحوالهم واحوال عصرهم

تحدث اغلبهم عن تاخر العرب وتخلفهم وانحطاطهم وانهيارهم

قامت احدى الفتيات اللواتي جلسن في اخر الصف الاوسط قالت بصوت منغم

- كلنا أشقياء في هذا الوطن العربي لقد أنزل الله القرآن باللغة العربية تنبيهنا لنا أكثر منه تكريما علما منه أننا لا شك " سريفة " صعبة المراس في حاجة أن نتطهر أكثر من مرة في اليوم الواحد ومع ذلك فنحن نسبح في الأوساخ بكل معانيها ونرزح تحت كل كل الجهل بكل تفاصيله ونمارس دعارة تصفية أنفسنا بأنفسنا باسم الاسلام تارة وباسم العروبة طورا والاسلام والعروبة براء من كل ذلك لكل هذه الاعتبارات وغيرها يحق لنا نحن العرب الانقياء أن نكون أشقياء بعروبتنا الى أبعد الحدود والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم

نريدها صحوة عربية صادقة وفاعلة ومؤثرة لقد جعلنا الله على رأس الأمم التي استخلفها في أرضه وأمرنا بأن نبداً بتغيير أنفسنا ولم نفعل ونحن واعون بذلك نحن العرب لم نتقدم قيد أنملة والدليل جلي وواضح لقد سمعت حفيدي تتحدث عن واقع العرب المربكلام سمعته من جدي أي أن أمرنا بقي على حاله طيلة أحقاب وأنا أدعو الى صحوة عربية لا الى مجرد ثورة فالصحوة مرحلة أكبر وأرقى من الثورة تتحقق بالعلم والمعرفة والوعي واستنباط اليات تمكنا من التقدم بخطى حثيثة نحو العلى بوظيفية وعبر تقنيات مدروسة وأخلاق ثابتة مستمدة من قيمنا الاسلامية المتجذرة في الحداثة والحداثة متأصلة فينا لذلك سمي كلام رسولنا حديث أي كلام جديد عميق استباقي

وصاح من داخل القاعة صوت قال

- أنا أتابع منذ اندلاع ثورتنا المباركة الكثير مما يكتب ويقال أو يشاهد ومع ذلك ما زالت العديد من الأسئلة تسكنني ولا أجد لها أجوبة مقنعة فأنا الى اليوم لم أجد من يفسر لي نظرية المؤامرة التي يتحدث عنها كثير من الناس

خرج من يمين القاعة شاب قال بالامس ذهبنا باسم احدى المنظمات التونسية ذات الطابع

الانساني ضمن وفد لزيارة بعض السكان ممن تضرروا بالحرائق التي طالت منازلهم أو بعض منها وحاولنا مساعدتهم بما تيسر لنا من معونات ومساعدات عينية فوجدنا تونسيات وتونسيين رائعين عطاء وطنيين بعد أن أطفؤوا النيران عن بيوتهم كانوا يطلبون منا أن نمكنهم من مساعدة من هم الان يواجهون الحرائق للتدخل من أجل القضاء على اللهب باعتبارهم اكتسبوا أكثر خبرة بالأسبقية في اتحاد كوانين اللهب كانوا يقولون نحن اكتسبنا أكثر درية وتعلمنا كيف نغم كباره السامور ونقضي عليها وقالت احدي عجائزهم وهي تضحك انا أحسست وكأن النار أصبحت تخاف مني لاني كلما اقترب من السامور يخمد قبل أن أضع يدي عليه وكانت تتكلم وكأنها مقتنعة بالفعل لقد كان الجميع يمثلون قمة العطاء تحس بعظمة تونس من خلالها في حركاتهم وفي اصواتهم وفي قناعاتهم لقد اعطونا اكثر مما اعطيناهم نحن اعطيناهم أشياء تنتهي بالاستهلاك ومنها ما ينتهي بالزمن وهم اعطونا أشياء لا تنتهي صلوحياتها لا بالتقادم ولا بالاستهلاك او الضياع اعطيناهم حاجات موجودة في كل سوق وفي كل حانوت وفي اغلب المنازل اما هم فقد أعطونا حاجات نادرة ومتميزة واعطونا حاجات لا نلقاها عند كل الناس علمونا معنى حب الوطن ولقنونا فنون التفاني وبراعات التضحية وقوة الصبر علمونا كيف نجدد الامل والتفاؤل فينا وهم ما زالوا يحملون رائحة الدخان وشواهد الاحتراق في ذبول ألبستهم وأكمام أقمصتهم ومنعطفات سراويلهم أو طيات الفساتين القديمة التي ترتديها بعض نسائهم وفي طرف عبايئهن وفي جوانب أجربة الرجال والنساء والاطفال بقايا الحروقات ورغم سواد البقع واثار بقايا الدخان فقد كانت وجوههم مشرقة وكان في عيونهم بشر وفرحة بالانتصار على الجوائح والمصائب والكوارث وفي اصواتهم غبطة ترجمت النسوة عنها بالزغاريد وترجم عنها الرجال بتعابير الاستبشار بنا و حمد الله على أحساسهم بالغبطة والانتصار على النوائب ولم يخطر ببال أي منهم طفلا كان أو شيخا أو بنتا أو امرأة أن يتأوه أو يتذمر أو يسب الزمن أو المسؤول أو الوقت العصيب أو النوائب أو البخت أو الطالع كان الجميع أكبر من كل ذلك كانوا يتقدون حماسا ويرشحون بذلا ويقطرون عطاء وسخاءا ويتدفقون أملا واستبشارا وحماسا وثقة في أنفسهم وفي الآخرين متحدين الأمل ونكساته عاقدين العزم على تجاوز الصعاب مؤمنين بانتصار تونس لذلك أنصح السياسيين المباشرين للحكم والذين أغلقت في وجوههم الابواب والنوافذ والشفوق وعجزوا على إيجاد الحل كما أنصح المعارضين الذين تسكروا في وجوههم

الدنيا ويثسوا كما أوصي الذين يقولون الان تونس لن تقوم لها قائمة أن يذهبوا لمقابلة هؤلاء البدو وسكان الأرياف المحروقة ليتعلموا منهم الوطنية الصادقة والعمل المجدي والأمل الواسع بهذا الوطن المبتدل في نظر جل السياسيين والمسؤولين والعزیز على هؤلاء الكادحين من سكان مرتع الحرائق ومصبب الفياضانات وبؤر الطين اللزج ليتعلموا على أيديهم السمر والمملخة بطين الارض حب الوطن وعشق البذل وحلاوة التضامن وصناعة فسحة الامل من الشدائد والذين يقولون للذين امتهنوا المتاجرة بألم الناس ونكباتهم أن يتعلموا كيف ينهضوا بالوطن الى فسحة الأمل البسام وحلاوة البذل ومرفئ النجاة

وقال اخر

- أحيلك الى مقال كتبه أحد المحللين يدعى عادل اللطيفي يقول فيه

" كالعادة ينساق الكل وراء التحليلات المؤامرية الجيوستراتيجية السهلة التي تمكن منها حتى تلاميذ الابتدائي. فكأن الخارج أصبح بديلا عن فهم الداخل أي فهم الأنا. وهذا ليس بغريب عن ثقافة استند دخولها الحداثة إلى الطبيعة الإشكالية للعلاقة مع الآخر وليس العلاقة مع الذات. زد على ذلك أن تحليل المؤامرة أسهل بكثير معرفيا من الولوج إلى خبايا وتناقضات الذات التي تتطلب زادا نظريا في العلوم الاجتماعية. إن العنف الذي شاهدها في الجزائر حدث كاشف عن هشاشة التجانس المجتمعي في البلدان العربية بحكم المسار التاريخي لتشكيل الدولة. يعكس كذلك صعوبة ظهور الفرد في مجتمع ما زالت فيه الجماعة فاعلة. هو نفس ما شهدناه في تونس بعد الثورة من مواجهات عشائرية وجهوية سقط فيها ضحايا. غير أن عدم الانسجام أعمق وأخطر في المجتمعات الشرقية المهيكلة أصلا في أطر ما قبل الدولتية مثل الطائفة والعشيرة. شهدت الجزائر منذ سنوات مواجهات طائفية في جهة الأوراس بين الأباضية والسنة. لا بد من الوقوف على هذه الهشاشة لكن ذلك يتطلب حدا من التمكن من العلوم الاجتماعية. لقد كتب عالم الاجتماع الجزائري مصطفى لشرف كثيرا عن ذلك ومنذ عشرات. هكذا نصد باب التطفل والشعبوية الجيوستراتيجية. لا تتقدم الشعوب إلا بمواجهة ذاتها "

قال الراوي

- في سياق حملة توضيح المفاهيم أو ما يشبهها والتي يفتحها من حين لآخر بعض المتدخلين الفضوليين من الحضور فقد تنوعت التدخلات لا من حيث المحتوى بل وأيضاً من حيث المصادر ولم تقتصر التعليقات على التدخلات المباشرة بل توسعت الشواهد الى مضامين أخرى متعددة منها صفحات الفايسبوك التي أورد بعض الشباب الحضرين ما قرأوه في بعض التعليقات واستشهد أحدهم بما كتبه شاب في صفحته معلقاً عما تعرض له الدكتور يوسف الصديق قال

- الدكتور يوسف الصديق وهو من رجالات التفكير الديني العقلاني أن ينعت بالكافر لأنه حكم عقله في مسائل كانت من المحرم التفكير العقلاني فيها فهذا جرم وقصر تفكير ومسألة خطيرة لا تبشر الا بالانغلاق العقلاني والجهل الديني لدى فئة ممن يسمون انفسهم علماء ولدى السياسيين أيضاً الذين وقفوا عاجزين ولم يحركوا ساكناً امام ما صدر من هؤلاء

ثم واصل الراوي قائلاً

- وقد أسالت هذه المسألة الكثير من الخبر أهمها ما نشره المحلل السياسي الدكتور عادل اللطيفي في احدى صفحاته المنشورة في الفايسبوك قال بشيء قليل من التصرف

- أصدر المجلس الإسلامي الأعلى بياناً غريباً وخطيراً في حق المفكر يوسف صديق بناء على تفسير أعضائه لمحتوى حصته الإذاعية "عيال الله" التي تبث يوم الجمعة على الإذاعة الوطنية. البيان خطير وعلى القائمين على أمر البلاد ... أن يتحملوا مسؤولياتهم إما بتبني موقف هذا المجلس صراحة أو بتكذيبه واتخاذ إجراءات عملية في هذا الاتجاه. ما معنى أن يحكم هذا المجلس على مفكر بأنه مارق عن الدين وبأن كلامه ضرباً من الزندقة وبأنه شبيه بسلمان رشدي؟ أليس ذلك من باب التكفير في أيامنا؟ إن الإرهاب الذي نعاني منه هو فكر مؤسس قبل كل شيء على تكفير المخالفين، فكيف ستقاوم الدولة الإرهاب الذي يهددها وإحدى مؤسساتها تتولى بنفسها التكفير؟ إن قولكم بأن حالة يوسف صديق شبيهة برواية سلمان رشدي فهذا يعني أنكم تشبهون الخميني في تفكيره وفي دعوته للقتل. ما المشكل في أن يشك في أبي هريرة؟ نعرف أنه لم يلازم الرسول كثيراً... (عام وتسعة اشهر وعشرة ايام). ما المشكل في التشكيك في روايات عبد الله بن عباس؟ نعرف أنه عند وفاة الرسول كان عمره ١١ سنة. تراث الإسلام هو الذي ينيرنا كباحثين

ومنه نستقي معلوماتنا هذه. إذا كان هذا أمركم مع التاريخ والتراث فلتتمنوا تداول سيرة ابن إسحاق، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي، وفتوح البلدان للبلاذري. وقد يذهب بكم الأمر حتى إلى منع بعض أحاديث صحيح مسلم لأن اغلاقكم اليوم لن يقبل بها بالتأكيد. إن موقفهم هذا لا علاقة له بما تسمونه "الإسلام الوسطي"، هذه الكلمة الفضفاضة التي يتبناها اليوم كل من هب ودب وحتى من جبهة النصرة. أين إسلامكم الوسطي المزعوم من جرأة الفكر الإصلاحية لمحمد عبده أو خير الدين؟ أين تكفيركم الأصولي هذا من حرية التفكير التي يضمنها دستور يجرم التكفير؟ موقفكم هذا مبني على اغلاق أصولي خلنا أنكم تجاوزتموه بحكم التاريخ وبحكم موقعكم في جهاز الدولة. الإسلام الوسطي الحقيقي هو ذلك الذي ينكر احتكار التكلم باسم الإسلام لتهميش المخالفين في الرأي. هو ذلك الذي يستلهم من التراث الإسلامي برمته بما فيه مصادره التاريخية وليس فقط الانتقاء من مصادره الفقهية. هو ذلك الإرث الثقافي المؤسس لهوية الفرد في علاقته مع الله وليس ذلك الإطار المعياري المزعوم لتنظيم الدولة والمجتمع عبر الأوامر والنواهي. لا يمكن للإسلام أن يكون وسطياً اليوم وفي نفس الوقت ندعي له قيمة معيارية عبر شريعة تنافس قانون الدولة المؤسس على النسبية البشرية وروح المواطنة. الإسلام الوسطي هو ذلك الإسلام المنغرس في الهوية الوطنية والمحترم لقيم المواطنة والحرية. في النهاية هو ذلك الإسلام المبني على العقل لا على النقل كما تفعلون. أنصحكم بدراسة التاريخ وعلم اجتماع الأديان كي تتمكنوا من التمييز بين الإسلام كتجربة تاريخية وكدين وبين فكر الإصلاح الإسلامي من جهة ومواقف الإسلام السياسي من جهة ثانية

والإسلام الوسطي ليس حكراً عليكم بل ربما أنتم عاجزون بحكم هيمنة العقل الفقهي في نظرتكم للإسلام. لا بد من تشريك من هو متمكن من تاريخ الإسلام وسوسيولوجيته ومن هو متمكن من ثقافة الدولة والمواطنة. الحقيقة أننا لسنا في حاجة أصلاً إلى إسلام وسطي لأن الوسطية نسبية ويتوقف محتواها على طبيعة التعبيرات الإسلامية المسيطرة حسب السياقات.

الإسلام الذي يمكن أن يبحث عنه المسلم مع حاجياته الحياتية طبعاً هو ذلك الذي يغذي روحه وإيمانه كفرد وذلك في تناغم مع روح المواطنة أي الحرية والاختلاف ومع العقلانية ومنها العلم ومع الدولة المدنية.

إن ما يزعج أكثر في أمر هذا المجلس هو تلك الصلاحيات التي أعطيت له بحسب القانون المنظم. إذ يتولى: "النظر في كل المسائل والقضايا التي تعرضها عليه الحكومة وإبداء الرأي فيها في اتجاه تنفيذ أحكام الفصل الأول من الدستور الذي ينص على أن تونس جمهورية دينها الإسلام". كل الخطر هو في إضفاء صبغة معيارية لهذا الفصل مما يعطيه محتوى متعارضا مع الفصل الثاني الذي ينص على مدنية الدولة. فالإسلام دين دولة تونس بمعنى البلاد وليس بمعنى الدولة كجهاز أي بالمعنى الثقافي العام المرتبط بالمجتمع وليس بالمعنى القانوني الذي يحيل على الشريعة كما يفهمها البعض. يمكن أن نطالب بتغيير هذه المهام وخاصة إعادة صياغة النص المنظم بشكل لا يحمل ضمن طياته تفسيراً ما للفصل الأول من الدستور. لكنني لا أرى مبرراً لبقاء هذا المجلس أصلاً، وهو الذي أنشئ ... في فترة كان يراد فيها ترسيخ الحكم في بداياته. يمكن لهذه المهام كما الإفتاء أن تكون مجمعة في وزارة الشؤون الدينية وهذا أسلم.

للأسف نقول ما أشبه اليوم بالأمس

وإنه لمن باب الفهم الصحيح للديمقراطية ومن باب الموضوعية أن نقول أن المسؤولية الكبرى هي على عاتق الحاكم... لأنه هو من كسب الانتخابات وهو الذي عين الحكومة. فعليه أن يكون في مستوى تيار الحداثة المدنية الذي أوصله إلى الحكم....

الفصل السادس والثلاثون

واصل الراوي قائلا

- تواصل النقاش في المحكمة حول علاقة الدين بالسياسة كما تطرق لضرورة انتاج انسان عربي جديد بواسطة نماذج تربوية اخرى تختلف عما ساد او كان سائدا واكد بعض المتدخلين على ضرورة القيام بالعديد من التقييمات الموضوعية لما يجري الان وهنا جملة وتفصيلا وتطرق الحديث الى مواضيع عديدة اهمها المحتوى المدرسي وبالاخص البرامج التعليمية وضرورة مراجعتها مراجعات عميقة وقدم بعض الحاضرين نماذج انطلقت من الواقع المعيش قال احد الشيوخ الحاضرين مركزا على ظاهرة الحرقه أي الهجرية السرية التي يقوم بها الكثير من شبانا الى البلدان الاخرى عبر البحر وفي اسوء الظروف واطورها والتي مثلت وتمثل معضلة كبرى تؤرق كافة الشرائح الاجتماعية

- مهما فعلتم لن تقف الحرقه وذلك لامر بسيط جدا دواء الحرقه ليست الحكومه والحرقه لم تقف لاننا لم نشخصها تشخيصا دقيقا ومدروسا وموضوعيا بل ذهبنا الى ماهو أبعد عندما أخرجنا مشاكل الحرقه من سياقاتها وفي الاصل اكبر مسؤول على الحرقه هو النظام التربوي الذي لم يعرف كيف يكون شبانا ويضعه في المسار الصحيح واستقالة الاسرة التونسية على دورها والخطأ الثالث مسايرة الاعلام لهاذا التمشي الغاطي وهو ما جعلنا نسبح في حوض جفّ ماؤه ونبحث على حلول خارج السياق وهذا راجع لضعف التوعية الصحيحة وفقدان التحليل الموضوع الغير مبني على النظر والتحقيق بل على الانطباع وهذه ثقافة كاملة تتحرك وتكبر وتتغذى بجهلنا لأبسط مقومات معالجة الأحداث بروية دون اندفاع أو حماس فارغ أو مغشوش وما نحن بصدد توضيحه الان هو وصف دقيق للمعنى الصحيح للجهل عند الشعوب المتخلفة وتخلّفها يجعلها تكتفي بالظواهر من غير تروى أو تعمق وندخل في منظومة سمينها منظومة دز تحطف هذا هو معنى الجهل الخطير وخطورته متأتية من أننا لا نتفطن الى مواصفات الجهل الا بعد استفحال اثاره فينا والتي جعلتنا في وقت من الاوقات نتحمس وندخل في الموضوع دون ترو او كما يقول

التونسيون بالفلاقي فاذا ما اعتبرني بعض الناس انني أخرف ربها يكون رايمهم اصلح ولكن لا أعدهم انني سابقي في تخريفي لانني أعتقد ان المستقبل الصحيح لهذا البلد لا يمكن أن يكون صحيحا الا اذا بقيت أخرف انا وامثالي دعوني اذن اخرف وأواصل تخريفي لعلكم تجدون فيه بعد موتي ما يثبت لكم ان عمكم الشائب كان على حق ولم يكن ما قاله تخريفا

وتدخل اخر مركزا على الاعلام او ما يسمى بالسلطة الرابعة قال

- السلطة الرابعة سلطة ام تسلط اخبار ام تهريج اصلاح ام افساد هدي ام تحريض

وقال اخر

- في خصوص اخر خبر غرق سفينة حراقة وموت البعض منهم رحمهم الله طلعت علينا بعض الصحف المكتوبة والتعليق التلفزيونية الاخبارية وبعض المنابر الحوارية الاذاعية والتلفزيونية على حد السواء بتحليل تحمل اغلبها المسؤولية للحكومة التونسية التي اصبحت الحمار القصير لكل من هب ودب وبعضهم جعلها شماعه اغلب المصائب التي تحمل بتونس وحتى خارج تونس

وانا اريد ان الفت الانتباه الى ان الاعلام ما سمي بالسلطة الرابعة الا لان وظيفته تقتضي منه ان يفرق بين السلطة والتسلط وبين الاخبار بكسر الالف الصادق والصريح والمستوفى لا الاخبار المغشوش او الملمغ او المغلوط او المبيت ونحن نلاحظ ان ما يسمى بالسلطة الرابعة في تونس قد دخل بعضه في مهاترات وصنع ازمات وتلفيق اكاذيب وتحميل بعض الاحداث فوق ما تحمل واعتمد على الاثارة اكثر من اعتماده على الموضوعية والصدق والامانة ودخل في موجات من القال والقيل والصلف والتأويل ومبيت التحليل وفقدت بعض اخباره المصدقية وذهبت اخرى الى التحريض احيانا او تصفية الحسابات او الانحياز لشق دون اخر اعتبارا او تزلفا او طمعا وفي اغلب الحالات انتجت كل هذه التجاوزات جوا مخنقا وبث الكثير من المغالطات والسموم في صفوف المجتمع التونسي وزادت بالتالي في تفككه وتناحره وكرست مشاعر الكره بين الناس وحثت على الرغبة في الانتقام وبالتالي شجعت على التفكك وخلق الاسطدامات بين بعض الفئات الاجتماعية وحتى لا تنتهم بالصلف نحيلكم على ما ذكرناه انفا بخصوص اخر حادث غرق سفينة حرقه وفي هذا الصدد بالذات نعتقد ان النظام مسؤول لكن بدرجة اقل

بكثير مما تروجه الان اغلب المؤسسات الاخبارية وبعض الصحفيين المحترفين وحتى غير المحترفين وتبعهم في نفس المنهج المغلوط الكثير من المعلقين على صفحات التواصل الاجتماعي ولم نر منهم من حمل المسؤولية للمنظومة التربوية التي كما قال شيخنا الوقور لا تؤثر شابنا بما يحميهم من هذه التصرفات الخطيرة واللامحسوبة ولم تركز على المسؤولية الالهة التي تقع على الاسرة التونسية والتي استقلت عن دورها التربوي الاساسي معولة على الحاكم تارة وطورا على الاعلام الذي عودها ان يتغاضى على تذكيرها بواجباتها تجاه ابنائها ويذهب مباشرة للطعن في الدولة التي يعتبرها الحمار القصير وان لم يتدارك الاعلام ذلك فسيصنع من شابنا ضحايا لا حول لهم ولا قوة في ما يرتكبون من اخطاء وتصرفات لا واعية تؤدي حتما الى التهلكة والله لا يحب ان يؤدي الانسان بنفسه الى التهلكة رحم الله الضحايا وزادنا وعيا بالتركيز على الاسباب الحقيقية والموضوعية لمشاكلنا واهمنا الحلول المناسبة للخروج من مازق الامعان في لعب دور الضحية التي لا حول لها ولا قوة في ما تاتيها واعتقد ان مثل هذه المشاكل لن تنتهي ما دامت تجد مبررات خارجية تجعل منها ممارسات غير مقدور على الحد منها او ايقافها او التصدي لها وانا اهاب بالاعلام ان يخرج من هذا التمشي المغلوط وأن لا يبقى بهذه السلبية وهذا التوجه الخاطي والخطير على مصير ومسار مجتمعا باكملة مثل هذا التصرف يسد المنافذ امام المستقبل ويكرس الاحباط في صفوف اجيالنا الصاعدة وكل ما ارجوه ان نفتح حوارات في منابر اعلامية سليمة لعلنا نظفر بحلول انجع واكثر استشرافا وواقعية ونفعا

وقال ثالث

- وفي نفس هذه السياقات او قل تكملة لها سانبه للظاهرة الوحيدة التي تجمع بين كل ما تطرق اليه اغلب المتدخلين من سبقهم ومن سيلحقهم وهو ما سميت مقاومة الجهل بالجهل وامتاعض الجهل من الجهل وهي ممارسات تجعل الجهل مركبا اي اكثر خطورة وايسر استفحالا وديمومة

قال الراوي

- لقد اكتسبت بمرور الايام وكثرة معاشرتي للناس دربة جعلتني اكتشف انني انتمي

لجليل القيم النبيلة الذي يعتبر أن الكلمة التي تخرج من مخرج الروح مقدسة ففي خضم كل هذه التجاذبات الحينية والانية تمتلكني أحيانا دهشة شديدة وأحس برهبة وخوف وخجل أحس بعظمة المهمة التي أنيطت بعهدتي وأنا ذلك الشخص العادي المتواضع الفقير الى ربه

وبعد ان تنهد قال

- من أكون حتى أجازف برواية ما حدث ويحدث كيف جوّزت لنفسي تقديم ما أنا بصدد تقديمه بهذه البساطة من أنا حتى أتولى مهمة كهذه

ثم واصل بعد توقف قصير قال

- وقفت أمام المرأة فوجدتني أنهار على نفسي توبخا وسبا من هول ما اقترفت سخرت من نفسي في أول الأمر ثم تمالكت قليلا خوفا من السقوط في مصيدة الكبر وربما خوفا كذلك من الانزلاق في بركة الحماقة وتمتيت أن تبتلعني الأرض قبل أي إجابة مني أو أي تعليق أصدره في شأن هول ما أقوم به وما زلت في تلك الدوامة المخرجة حتى سمعت صوتا من داخلي يحاول تبرير جرمي

قال الصوت

- ربما نكون في نهاية كتابة صلب الموضوع الذي قدّم له ابن خلدون والذي شرع زماننا العربي والإسلامي الرديء في تقديم فصوله الواحد تلو الآخر بلا هوادة ربّما دخلنا في سياق الدقائق التي تصف تحاذل أمّتنا وانبطاحها ونكساتها وانتكاساتها وتوانيتها وتصف كذلك خياناتنا ونفاقنا وتزلفنا وانفصامنا وغبائنا وجهلنا وتواطؤنا وغفوتنا وغفلتنا وترهلنا والقائمة طويلة طويلة ولكّنها لا تخرج عن هذا السياق الرديء هذه بداية فصول التّكسة الكبرى في كلّ الأوطان العربيّة والإسلاميّة شرقا وغربا شمالا وجنوبا والبقية أعظم وأشدّ وأسوأ ممّا نرى اليوم وممّا ورد في الكتب والمقالات والجرائد والشاشات والتحليلات والموائد المستديرة والمستطيلة والمربّعة والمثلثة وغير المثلثة وكذلك عبر التعليقات الكثيرة والدراسات الاستطلاعية المتنوعة والدراسات الاستكشافية والاستشرافية والاستراتيجية وغيرها لذلك وجب التدارك

كانت لهجة الصوت في داخلي قاطعة جبّارة وكان ألمها باد علي وكانت حصرتها مؤثّرة ودخلت في تحليلات وتأويلات واستفسارات ثقيلة الوطأة وربما تكون من وجهة نظر زماننا هامة جدًا جديرة بالاعتناء والمتابعة والدّراسة تصدعت أمامها الروايات والتفسيرات وتقطع على محكمها جبل التخمين العقيم فوجدتني أحاطب الذات مني بصراحتها الكامنة فيها لماذا كتب ابن خلدون المقدمة في بلادنا بالذات بداية وما هي الأسباب والسياقات التي جرّته لمواصلة كتابتها في بعض البلدان العربية الاخرى كمصر مثلاً وكيف نقص وزاد وحذف وهو يتحدث عن احداث سبق حدوثها التدوين وكذلك عن امم واقوام وقضايا ما زالت في الكمون او في المجهول او حتى في حيز المتوقع في من سبقه ومن لحقه بتلك الدقة ولماذا استحضر واقعنا من خلال جغرافيا تاريخنا وتاريخ جغرافيتنا بذلك العمق وتلك السّعة وعبر مختلف الأبعاد التي ذكرها والتي لم يذكرها الا بالايحاء وكيف اختزل الأحداث القادمة من خلال المقاصد والتلميحات والشواهد وكيف جعل من بلادنا منذ قرطاج إلى اليوم مرصدا للأحداث والظواهر العالمية الفكرية منها والسياسية لتكون معبرا مختلف الثقافات وملتمقى الحضارات ما جعلها دائما في قلب التحولات والتيارات وما سهل لها استيعاب كل المالبسات استيعابا إجماليا لكنه متكاملا وأكسب أهلها القدرة على التحليل والتركيب السليمين أكثر من غيرها من البلدان الأخرى قديمها وجديدها وجعلها قاطرة تحمل أسفاراً يقدح من خلالها الفكر ليفرز أثرا مفصليا أحيانا وأحيانا حدثا تاريخيا أو فكرة مؤسسة أو رأيا مستقبلياً ضمن نظرة ثاقبة واستطلاعية تنادي لبعث الانسان العربي الجديد في هذه الربوع وفي استقراء للأحداث يمكن أن نقرأ بوادر عديدة على يد الكثير ممن انتسبوا لهذا البلد الأمين قديمهم وحديثهم لنسأل ما الفرق في تطلعاتنا بيننا وبين من سبقنا أو لحقنا ألسنا امتدادا لعليسة وحنبل وصدربعل وسيفاكس وصوفينسب وعقبة ابن نافع وخيرالدين باشا والتيفاشي وابن رشد ألا نجر خلف تلايينا مسيرات عديدة ورثناها عن ابن رشيق وابن الجزائر وابن منظور وأروى القيروانية وعزيزه عثمانه وصولا لأبي القاسم الشابي وجماعة فوق السور وحتى جماعة تحت السور من بعدهم وبعد من بعدهم امثال الطاهر الحداد والطاهر بن عاشور والفاضل بن عاشور والحبيب بورقيبة ومحجوب بن ميلاد والطاهر الخميري ومحمود المسعدي والبشير التلمودي ومن جاء قبلهم وبعدهم من كتاب وشعراء ومفكرين انضم بعضهم الى مؤسسات ثقافية تمارس أنشطتها بالطرق المتعارفة مباشرة او ايلكترونيا في الفاييس بوك

والانستغرام وتويتر واليوتيوب وما شاكلها وسياسيين وعلماء ومواطنين ومواطنات عاديين كان كل بحسب اختصاصه ونمط عيشه وظروفه عنصرًا هامًا في هذا التمشي المتقلب الذي نبّهنا إليه ابن وطننا عبد الرحمن بن خلدون عندما قال

- "إعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى "وهديناه النجدين" وقال "فألهمها فجورها وتقواها" والشر أقرب للحلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجمع الغفير إلا من وفقه الله"

قال القاضي وكأنه أراد أن يخرجنا من عزلة تأملاتنا

- لقد فهمت الكثير مما تم عرضه على محكمتنا وما لم أفهمه لحد الان أكثر بكثير مما بدا لي أنني استوعبته

قال الراوي

- وكاني بالقاضي يقصد ما نراه الان من فوضى وتدهور في الأخلاق ويقصد كذلك هذه اللخبطة التي عمت الحرث والنسل وهذا الانفلاة البادي والمتشتر في كل مكان وعلى جميع الأصعدة كل هذه المظاهر المحرجة والمقلقة والمفرقة تبرز مدى بشاعة ما نعيش فيه من انحطاط وتخلف كما تبرز قتامة الوضع الذي ميّز الشعوب العربية والاسلامية تمييزا سلبيا قبل وبعد الاستقلال وهي رواسب انحلال الدولة في عالمنا العربي الاسلامي الذي اختل توازنه من البدء وانهار قوامه واختلطت لديه السبل ولم يقو على التخلص من بؤر التخلف الذي انصهر فيها انصهارا وتلبس به تلبسا مقيتا حتى كاد يصبح جزئا من بنيته وما نراه اليوم هي تلك الأوساخ التي علقّت به طويلا لقد تقيأته بؤر رداءته فخرج منها بقيّتها وعفنها وفرثها ودمائها ودرنها واوساخها من الطبيعي أن يحمل بقاياها على جسده ومن الطبيعي أن تظهر اثارها السيئة عليه المهم أن يشرع في تضميد جروحه وغسل ما علق به من أدران واوساخ وتعفنات وقذارات

قال القاضي مستشهدا بعبد الرحمن بن خلدون لتعزيز رؤيته

- "إن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر

حتى تبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله. "

هذا حديث العلامة عبد الرحمان ابن خلدون عن كل ما ورد منكم وما سيرد وأنا معكم في ما ذهب اليه الكثير منكم وطنكم بلد معطاء فاعل وقد اختص بين سائر الأمم بالتقييم والتزم باعتماد الموضوعية وسخرأهله للعمل الجاد والوظيفي وجميع علمائكم ومفكريكم وأدبائكم ورجالكم ونسائكم ممن عاصرتم ومن سبقكم ومن سيأتون بعدكم فاعلون في الساحة شريطة أن يتصفوا بالوطنية أقصد الغيرة على وطنكم الصغير الكبير كل هؤلاء يحملون محبة البلاد بشرف من خلال شرف الانتاء اليها والاعتزاز بالانتصار الى منهجها واما من خرج عن سياق الوطنية فيستحق الاجتثاث من الاصل

قال صوت من داخل القاعة وقد جاء منها لأمر هام

- " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم. والملوك في دولهم وسياساتهم. حتى تتم فائدة الإقتداء. "

قال الراوي

- انه صوت عبد الرحمان بن خلدون يريد مرة أخرى أن ينبههم لوجوب استخلاص العبر بمزيد من التروي وكثير من الحكمة التي جاء بعضها على لسان ذلك الشيخ المسن الذي سمح له القاضي بالتدخل قال متحدياً ثقل السنين وتقلبات الأيام

- سيدي الرئيس بعد أزمة الهوية تعيش تونس الان كما لاحظتم ولاحظ الكثير منا أزمة اهتزاز القيم في خضم مخاض جدّي فبعد البحث عن الهوية الان دخلت بلادنا في دوامة البحث عن التوجهات القيمية أي عن مجموعة القنوات التي تتلائم مع التّوق الديمقراطي الذي حتمّ مراجعات جذرية في نمط كينونتها وأزمنا الان بعد كلّ هذه السنوات من الثورة هي أزمة مراجعات جذرية من أجل التلاؤم مع الديمقراطية تلاؤما صحيحا ونافعا أي مجد وكلي فبعد

أزمة الهوية يعيش مجتمعنا أهترازا في المستوى التصرف الأخلاقي الجماعي وهذا أمر طبيعي في مسار التدرب على الديمقراطية الحقّة وستليها فترة ثالثة سمّيتها أزمة المسار وعندما أتحدّث عن القيم لا أقصد بالضرورة القيم العقائدية بالمفهوم الديني اذ اعتبرها من المسلمات البديهية

قال القاضي مقاطعا الشيخ

- ألا ترى أن أغلب التعاليم الدينية هي في كنهها قيم

- أنا أقصد القناعات التي ترسخ في الذات الاجتماعية منظومة السجل الأخلاقي الصّرف أي الذي يؤثّر الموقف الذي يصدر منه السلوك ويوجّه التصرف البشري مع الذات ومع الآخرين والذي ينبغي أن نؤثّر به أنفسنا وهي مجموعة القيم الثابتة التي تسمّى الأخلاق والتي اذا تدهورت تبدأ الشُّرُخ بارزة في المجتمع ورغم أنّ تعاليم الدين الاسلامي هي من أهمّ مكوّنات الأخلاق الانسانية بصفة عامة فان المجتمعات المسلمة في الاغلب الاعم مرقت عن الخط الاخلاقي الذي يدعو اليه الدين بل حولت الاخلاق من قناعات تتجذر في الذات وتسير النية والتصرف الى مجرد اداء ظاهره طاعة وباطنه تقليد والدين في الاصل يروضنا على السلوك الحسن والاداء الصالح والمفيد لصاحبه ولمن حوله من الناس او الجماعات لذلك سميت العقيدة عقيدة لكن مسلمي اليوم احتفظوا بالعقيدة الشكلية وابتعدوا عن اللب اي الجانب القيمي في الدين الاسلامي الذي حولوه لمجرد طقوس وتراتيب وواجبات بل واملاءات احيانا اخرجت الدين من سياقه الاخلاقي ونزعت عنه بذلك الجانب النفعي الذي اقره الله في الارض على قاعدة

* واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض *

وبدون ان يشعر قال القاضي

- صدق الله العظيم

وتبعه في ذلك طاقم المحكمة والكثير من الحاضرين وكذلك الشيخ الذي واصل قائلا

- وتفاديا لهذا الخلط من جهة وتجنبنا لتعمد تحويل وجهة اخلاقية الدين الى مجرد تدينين الاخلاق ننادي بضرورة تكوين مثقفين يحللون الظواهر تحليلا موضوعيا ويصوغون تحاليلهم

بوضوح وجلاء يمكن المجتمع التونسي من الاطلاع والاستفادة من ذلك ضمن تمش اعلامي تثقيفي توعوي محكم ومدرّوس يعنى بتقديم الصراعات القائمة في مجتمعنا في سياق التحولات المتتالية المؤدية لاستيعاب مدلول الديمقراطية الحق والذي ينبغي ان يبدأ بتحديد مختلف الظواهر الاجتماعية التي يعيشها المجتمع وتبويبها بمقتضى السياق والتدرج والتفاعل وردود الفعل وما ترتب عن هذا او ذاك من ملاسبات ونتائج بمنطق اكثر موضوعية وترشد ودراسة محتويات كل ظاهرة على حده وابرار مجالات مختلف التفاعلات والمؤثرات واستخلاص النتائج الحاصلة والمتنظرة لتحليل وتحديد المقاصد من خلال السلوكيات وقراءة ابرز المواقف الدافعة لتلك التصرفات وصفا وترتيباً وتحليلاً مع التاكيد على وجوب اخذ كل هذه المسائل بالجد الازم والدرس المستفيض من اجل الوصول الى مناهج واضحة تحت المواطن على العمل الجاد من المضي للانخراط في المسار الديمقراطي الحقيقي ذلك المسار لا يعطى ولا يهدى ولا يفتك بل يستحق كما ورد على لسان بعض المتدخلين والان بعد الثورة ما أحوّجنا مع اعتناقنا للديمقراطية ان نعمل جاهدين على ان نستحق ان نكون كذلك ومن شروط استحقاق الديمقراطية ان لا نحكم بالانطباع وان لا نعتبر الديمقراطية مجرد جواز لابداء الراي والراي المخالف فحسب او مناسبة تمكّنا من عدم الاعتراف باي قيد او شرط او حد او ان نحلل لانفسنا الصراعات العقيمة والمجادلات الضحلة التي لا تسمن من جوع ولا تغني من فقر ان الاوان للدخول في مرحلة الترشد الذاتي والجماعي واقرار ضوابط اخلاقية وقيمة للديمقراطية التي نريد من خلال مناهج تربوية مدروسة وتمش ثقافي محكم وقوانين مضبوطة ومراقبة جدية وصارمة تعطي لكل ذي حق حقه وترجع للعدالة الاجتماعية القها وتعزز علوية القانون وتحكم على اهل التنفيذ من خلال ما يحققون من نتائج متفق عليها مسبقا باغلبية الفاعلين السياسيين والاطراف الاجتماعية الممثلة ديمقراطيا

وكأن حديث الشيخ المسن شجع القاضي الذي أبى الا أن يتدخل هو الآخر قال مخاطبا الحاضرين والحاضرات والغائبين والغائبات

- هذا تاريخكم الثري والزاهر يا من تمثلون امتداده واصلوا البذل من أجل رفعة هذا البلد الأمين الذي أوصيكم بالعمل والمثابرة والتفاني في سبيله لتحقيقوا سؤدده ورفعة مكاتته كونوا

في مستوى تاريخ هذا الوطن العزيز وابدلوا من أجله أعلى ما لديكم في عقولكم وسواعدكم ولا تسلموا فيه للذئاب الجائعة والأطع الجائرة والنوايا المبيتة أو المستوردة من التدين الزائف المغشوش الدين الاسلام هو الدين الوحيد الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ولا يتعسف على أحد والامام المسلم لا يعرف التبرم ولا يعرف الياس ولا القنوط ولا يأتي الى المسجد بعصية ولا يكره أحدًا فالمتدين في الاسلام صدره رحب وباله واسع وهو دوماً بشوش لأنه مقتنع بأن الله هو وحده المسير والهادي والرازق وهو ما علمكم اياه مبروكم في البيت وفي المدارس وفي محاضراتهم وكتبهم لا ما يستجلب من تخوم التخلف وتجاويد التشدد ورواسب التزمت وثنايا الغش

ولما انتهى القاضي قام احد الحاضرين ورفع اصبعه وبعد ان سمح له القاضي بالتدخل قال

- سيدي القاضي المحترم ذكرني خطابك بما قاله الشيخ محمد الشعراوي

- وماذا قال

- قال رحمه الله " كنت أناقش أحد الشباب المتشددين فسألته: هل تفجير ملهى ليلي في إحدى الدول المسلمة حلال أم حرام ؟ فقال لي : طبعاً حلال وقتلهم جائز. فقلت له : لو أنك قتلتهم وهم يعصون الله ما هو مصيرهم ؟ قال : النار طبعاً .. فقلت له : الشيطان أين يريد أن يأخذهم ؟ فقال : إلى النار طبعاً فقلت له : إذن تشتركون أنتم والشيطان في نفس الهدف وهو إدخال الناس إلى النار ! وذكرت له حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مرّت جنازة يهودي أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبكي فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال: نفس أفلتت مني إلى النار

فقلت : لاحظ الفرق بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يسعى لهداية الناس وإنقاذهم من النار من اراد أن يفهم فقد فهم أن الإسلام دين السّاحة قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلمه ، وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.

ثم اخذ الكلمة من جديد نفس ذلك الشيخ المسن قال

- سيدي القاضي انا حضرت في حفل توزيع الجوائز للمتفوقين في يوم العلم الى حادثة وقعت امام حضور مكثف في قصر رئاسة الجمهورية الاولى وامام الاف المشاهدين عبر شاشة التلفزة التي كانت تبث الحدث مباشرة هل اروي لكم ما جرى

- تفضل على رسلك

- في احتفال لتوزيع الجوائز يوم العلم على المتميزين في دراستهم تقدّم من بورقية طالب مُلتحجّ كان قد تخرّج بتفوّق من كُليّة الزّيتونة فحدّق فيه بورقية وسأله

- هل تعرف من أيّ سورة هاتين الآيتين قال تعالى بعد باسم الله الرحمان الرحيم :

"وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"

فمأماً الطالب ولم يجد ما يقول فقال له بورقية

- هما الآيتان ٨ و ٩ من سورة التكوير وأنصحك بدل تربية اللحية أن تحفظ القرآن فلن يُقال عنك فقيه لطول حيتك وإنما علمك وحفظك القرآن والأحاديث والقدرة على التفسير والاجتهاد

انبهر الاغلب الاعم بما رواه الشيخ

واصل الراوي حديثه الشيق المريح والصادق قال

- نزلت تدخلات القاضي ومساعدته والمتحدث الثالث على الجميع بردا وسلاما لقد أعجب الحاضرات والحاضرون والغائبات والغائبون الذين تم اعلامهم بما وقع وكذلك الصغار والكبار من أهل البلد بما اتصف به القاضي ومساعدوه وبعض الحضور من بعد نظر وحصافة رأي وعمق تحليل كما أكبر الجميع انشاء القاضي التلقائي لهذا الوطن العظيم وتعاطفه معهم بهذا القدر من التلقائية والصدق وثمرنا انخراطه في المسار الزمني والطبيعي لهذا الوطن العزيز الذي وجد أنفسه فيه وتيقن أن صيرورة وترباط أحقابه وتكاملها هو في حد ذاته المسار الضامن للخروج بالجميع من بؤرة الرداءة إلى شاطئ الأمان وقدر القاضي في أهله جميعا تشبثهم بالخلاص وإيمانهم بأن غدهم لن يشبه أمسهم لأنهم عازمون للثأر لمن سبقوا منهم وكذلك للذين ماتوا حسرة ويأسا

ومن اتهموا باليأس والحسرة ولمن تسببوا في اندثار الكثير من أدبائهم وفنانيهم ومفكرهم وتركوا لهم مسؤوليات جسيمة تحتم على رجال الثقافة ومن أمامهم وخلفهم من رجال السياسة والعلوم في عالمنا العربي والإسلامي شرف المساهمة في علاج الخلل بالفكر والساعد وتوخي تمشيا اجرائيا والعمل دون كلل ولا ملل ولا يأس فان لم يكونوا هم صنّاع الغد الأفضل من ترى سيكون ومن سيتولّى استلام مشعل الريادة والقيادة وتحمل المسؤولية يجب علينا أن نعلنها صراحة أننا نعتزم جميعا في بلاد الأنس ومنارة الحضارات وموقع الرصد السليم أن نساهم في اجتثاث أسباب هذه النكسة العربية الإسلامية من أصولها وأن نزرع مع الزارعين بذرة أمل الانتصار للفكر الثاقب والعمل الدؤوب في هذا الزمن الرديء لنعجل بانتهاء كتابة الخاتمة الحقيقية ونبدأ في عصور العزة والمناعة والكرامة والانفتاح التي نستحقّ

قال الراوي

- بقيت الكثير من الأسئلة الأخرى معلقة وزادت سرعة اللَّفّ في القاعة فجأة ورغم أنّ صوت القاضي توقّف فقد بقي الصّدّي يتردّد دون أن يستطيع أحد إيقافه أو الهروب منه قال الصّدّي

- مهى تموت كما ماتت فلائذنا ينفّذ القتل حكام وجرمهم

أنّا نصوّت للجهّال مكرمة حيناً وخوفاً ونهدي نفسنا لهم

وتوسعت رقعة انتشار هذا الصّدّي إلى المدينة وأحواز المدينة وبقيت ذبذباته تشقّ عباب الفضاء الرّحب وتنزل في الآذان وتواصل ارتفاع الصّدّي حتّى ملء القاعة وملء الفضاء المحيط بها ثمّ تسرّب شيئا فشيئا في العقول والقلوب. قال بعض الحاضرين :

- إنّه صوت صحوة الضّمير الحيّ والبصيرة المستنيرة

وقال آخرون منهم :

- ربّما يكون الصّدّي مهيتا لصوت النّدم. وقال البعض الآخر ممن نزع عنهم غشاوة الجهل أو سدّ قلوبهم برفق الكبرياء

- يجوز أن يكون كذلك صوت الانعتاق الحقيقي والتحرّر التدريجيّ من براثن الانحطاط والتخلّف والرّداء التي كنّا نرزع جميعاً تحتها دون استثناء وما زلنا

وتكلّم بعضهم قال

- لعلّه موسم الحقّ والعدل والدّعوة للتّسامح والحوار والوفاق وتجنّب التّزمّت والانغلاق وربما سدافق الانتقام من الكبت

وقال الرّاوي وهو ينزل من على كتفه ما علّق من ردائه

- ربّما يكون كذلك زمن الانكباب على العمل الجادّ والمسؤول من أجل انبعاث الانسان التّوسّعيّ بالاختصاص والعربيّ المسلم أيضا من جديد من يدري. لعلّ اختلاف معيشتنا وأجيالنا اليوم يصدّق فيه ما قاله عنه العلامة عبد الرّحمان بن خلدون حين أفاد

- "إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنّما هو باختلاف نحلّتهم في المعاش."

والوفاق ضروريّ بل حتميّ كما قال علامتنا

- "أنّ الاجتماع الانساني ضروري فالانسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية ومن العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبدا بطبعه."

وقال

- "أن اتباع التقاليد لا يعني أن الأموات أحياء، بل أن الأحياء أموات."

كما قال ايضا

- "السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه " وذلك لأنّ التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق."

وأضاف الراوي معقبا

- سمعت أحد الحاضرين يقول لصاحبه

- سيأتي يوم يصبح فيه أي نوع من الحراك شعبياً كان أو منفرداً وأي مشروع من المشاريع العديدة المنتجة أو المقتبسة المتعارفة منها وغير المتعارفة وكثير من الممارسات المجتمعية كالانقلابات والثورات وحتى الانتخابات بمفهومها المتعارف عبر العصور عملاً متخلفاً جداً لأنه يسمح بالتعبير عن شحنات العنف الكامن في الإنسان وتبريرها تجاه كل من يتوهم أنهم استغلوه أو استولوا أو تجنوا عليه أو حكموه وسيتم ذلك عندما يعي الثائرون أو المنقلبون أو الورثة للحكم أنهم سبب كل مصائبهم وأنهم المسؤولون الوحيدون على مصيرهم وأن التراكم ليس سنة الكون بل الحركية هي أصل الوجود

قال الراوي

- عجبت من تأكيد هذا الرجل مما يقول كنت أنتظر أن يبدأ حديثه بربها يأتي يوم سكت الراوي قليلاً ثم قال

- في رأيي المتواضع نحن نحتاج في تونس في هذه المرحلة بالذات لمسؤولين في رؤوسهم عقل و"زيوانة" و"كمباس" و"في أيديهم" خزمة وميزان "وفي قلوبهم عزم وحزم وثبات كما نعتقد انه من الضروري محاسبة كل من يخطئ وشكر وتشجيع كل من يصيب. ما أحوجنا في تونس وفي هذه المرحلة تحديداً الى رجال دولة لا الى سحرة أو هواة أو وعاظ أو معزّين أو "حانوتيّة" أو محترفي نديب وعويل أو نذراء شؤم. بلادنا في حاجة الى مسؤولين قادرين يحسنون فنون القيادة لا راغبين فيها بل جديرين بها لا متلهفين عليها يملكون من الشجاعة الأدبية والقدرات النفسية والمهارات المهنية والاستشرافية القادرة على الاسقاط لا على السقوط وما يتيح لهم وضع حدّ لما تسببت فيه جحافل الجهل و"العنزة" والتخلف الذين غزوا البلاد وامتصوا دماءها عندما انقضوا عليها انقضاها واستبدلوا قيمها وتقاليدها وعاداتها وعلمها وشرعوا لاراقة دماء أبنائها وحرّموا حلالها وأهدروا من الوقت ما أهدروا ودمروا اقتصادها ونهبوا ثرواتها وأجهضوا أحلامها تعنتاً أو جهلاً وربّما عن قصد.

وفوجئ الرّأي باستلاء أحد كبار الشيوخ الحاضرين في قاعة المحادثات على الكلمة وهو

يتوجّه له مباشرة ويقول وكأنّه يجيب عمّا كان يجول في خاطره من وؤى وافكار وهو اجس قال الشيخ

- بمنطق عدم إيجاد الحلول في الازمات واليأس من القدرة على التفكير الناجع يبدأ منطق الدعوة للفتن والفتنة اشد من القتل في الدين والفتنة في العرف تخلف ناتج عن ذهنية تعجز على إيجاد الحلول لقصور في سعة فكرها وذلك القصور يسمى جهلا والجهل يصلح بالمعرفة القادرة على استنباط الحلول الناجعة للخروج من الازمات دون أن نلجأ للتحريض على العصيان أو الدعوة للقتل وأسالة الدماء كما يدعو إلى ذلك بعضنا على قلتهم فبقليل من التروي والذكاء والعلم والامل تخرج الأمة من المازق . وهذا الفكر الخلاق نسميه في بلادنا الذكاء التونسي الذي يقابله الغباء المطلق والغباء المطلق ليس تونسيا بل مستوردا عادة من تيارات وافكار وتوجهات من خارج بلادنا.

والفتت الشيخ المسن مخاطبا جناب القاضي الموقر قال

- سيدي القاضي يختارون حكاما اغبياء ويتساءلون كيف أوصلوا بلادكم الى الخراب بمثل هذا المعنى قال تشرشل يوما وأنا ممّن حضر والفترة من حكمه وتابعوا مواقفه واعرف انه كان يهتم بالوضع في تونس قبل وبعد الاستقلال واعرف انه اشتهر بقدرته الفائقة على استشراق الاحداث لمدة استباقية تقدّرت بخمسين سنة في حين ان بورقيبة كان استشارفه انذاك لا يتجاوز العشرين سنة وقد برّر تشرشل ذلك باعجاب كبير قائلا انه لما كان في سن بورقيبة انذاك كان استشارفه اقل بكثير مما عليه استشراف رئيس تونس لذلك بقي يتابع سياسة بورقيبة ويناصرها ويعتبر ان تونس من البلدان العربية القلائل التي امتطت ركب الحضارة وكان تشرشل من اوائل الاجانب الذين امنوا بالذكاء التونسي . وتمر الايام ويموت تشرشل ويتوفى بورقيبة وينقرض امثالي ممّن عاشوا بعض تلك الفترات وواكبوا أو تابعوا بعض معجزات الذكاء التونسي الذي ساهم في ارسائه بورقيبه واصحابه ومن جاء قبلهم وبعدهم الكثير من قادة تونس ومفكرها عبر التاريخ .

ويعيش جيلكم المحضوض والمملون بذلك الذكاء ثورة رائعة سمّيت بثورة الياسمين ونعتت بثورة الربيع العربي جلبت انتباه وتقدير كل العالم وحرّرت الشعب التونسي من العبوديّة ومكّنته

من تقرير مصيره بحريّة وتبصّر واذا بالتّكالب على السّلطة والجشع السياسي ينقضّان على كلّ هذه المكتسبات والأدهى والأمر هو ما يحصل اليوم من اسرار على ايقاف كل محاولة اصلاح وكل مبادرة انقاذ وكل مشروع تنمية.

لماذا يصّر بعضهم على ايقاف مسيرة تقدّم بلادنا الجميلة النقية التي اعجب بها تشرشل وغيره من عظماء العالم لماذا يصّر بعضهم على تكبيل نهضتنا بكلّ امعان في حين أنّ الحلول ممكنة وسهلة ومتاحة ولا تغيب الا على غبي او مكابر او متربص وانا والكثير منا يعلمون انه لو تعلّقت عزيمة العدل بالتدخّل العاجل والنّاجع لمحاسبة كل من يصّر على تكبيل رغبتنا في التقدّم والنّموّ وتحقيق العدالة والرفاهية لكافة الشّعب التّونسي باجياله الحالية والمقبلة لا يمكن ذلك دون عناء وهو اقل ما يمكن ان تحقّقه بلاد علّمت العالم أنّ العدل أساس العمران وابهرت عطاء العالم وما زالت مصرة على توفير الحياة الكريمة لمتساكنيها في كنف عدالة لا تبنى على الانتقام ولا على التشفيّ عدالة مازال الذّكاء التّونسي قادرا على ارسائها بسرعة ودون عناء

قال الرواوي

- وبعد ما انتهى الشيخ من تدخّله المفاجيء والبلغ طلبت فتاة الكلمة قالت

- سيدي القاضي الفاضل جناب المستشارات الفضليات ايها السادة المستشارين الكرام ان الأوّان لنرى ما يشّر بالخير ويقرّب من الانعتاق المطلوب الان أن الاوان لنخرج من عنق الزجاجة ونتجنب محاولات التعزية ومنابر الوعظ والوعود الجوفاء والنذهب للجهاد الاكبر ونخرج من البرامج الفضاضة والمشاريع الفاشلة والاطروحت الضحلة بالكد والجد والمثابرة وكثير من الصبر والتضحية ووضوح الرؤيا

لقد نفشّ الفساد في البلاد واستفحل الاجرام في الاقوام بسبب انهيار المنظومتين التربوية والقضائية فأصبحت المدارس والشوارع والسجون يؤر للاجرام والمجرمين وأصبحت السجون ماوي امته لهؤلاء يرتاحون فيها ويعيشون بها أجوائهم وطقوسهم ويترسكون وينمون فيها مواهبهم أو يسقلونها لتحسين ادائهم الاجرامي ويدربون الأسوياء وغيرهم على أبشع مظاهر الاجرام وأخطر أساليب الاضرار بالبلاد والعباد والحل يكمن في أن تتحول أكلوبة الخوف

من السجن لا الى الخوف من العقاب بل الى الخوف من عذاب العقاب وأن تتحول الاجراءات الى الكشف عن وجوه المتهمين المتلبسين بجرائمهم للعموم والشهير بهم علنا قبل محاكمتهم المحاكمات العادلة والعاجلة والفورية والتي يتحتم أن تتحول أحكامها من مجرد معاقبة المجرمين الى الانتقام للمتضررين لحماية المجتمع من شرور المعتدين وتسليط أقصى العقوبات عليهم ومنها الحكم بالاعدام بعد التحري التام والوجوبي ثم الاستعجال في تنفيذه مع التشهير بذلك لمن تثبت بشاعة جريمته ووعد المدافعين عن حقوق الانسان بالالتزام بالدفاع عن حقوق كل انسان يحترم انسانية الآخرين وانتزاع صفة الانسان عن كل من لا يلتزم بذلك وفي نفس الوقت الحرص على ادراج انماط تكوينية داخل السجون وخارجها من اجل ارساء ثقافة احترام النفس البشرية علنا نصل الى زمن نحرّم فيه بجدارة عقوبة تنفيذه بعد ان نؤثّر في المجتمع اغلب النفوس البشرية معودة كانت او سوية وفي انتظار ذلك لا بد من توخي مزيد من الانضباط والوظيفية داخل كل المؤسسات المدنية كالروضات والمدارس والمعاهد ومؤسسات التكوين بمختلف درجاتها واختصاصاتها دون استثناء ومراجعة المحتوى المدرسي ومناهج التدريس و تكوين المدرسين والمكونين لغاية اقدارهم على ايصال كل ذلك الى منظورهم على اختلاف طبيعة كل مؤسسة او مجموعة او فئة

ولما رأى الراوي اهتمام الحاضرين بما أبدى من اراء واصل كلامه قائلاً

- أيها السادة والسيدات من المؤكد أنّ الكثير منكم يتساءل في قرارة نفسه ما الحل الحل ليس في الاستسلام والخضوع والياس فما حصل كان نتيجة حتمية لمواقف عربية لم تتمكن من الاهتداء للحل لانها اكتفت بالتمني والرفض السلبي والبكاء المقنع او تقليد الآخرين او النسج على منوال معين والان وقد حصّص الحق واقتربنا من بداية النهاية لا بد من تقديم الحلول الجذرية ومراعات الخصوصيات الزمنية والمكانية والمقصدية بحسب الفئة المعنية بالتكوين في اطار الرغبة الملحة في تقويم كل العضلات التي تتطلب منا توخي سبلا اخرى للانتصار عليها واهمها تغيير ما بانفسنا من استسلام وتعويل على الآخرين وفي النهاية يجب ان نتعض من الماضي و يتحتم علينا ان نعول على انفسنا ولا ننتظر من الآخرين الخلاص ونرتقي بانفسنا في سلم المعرفة ونركب صهوة العلم باكثر جدية وندخل معترك التمدن الحق عن قناعة بواسطة

اعتماد التصنيع وتوخي الارتقاء بشعوبنا بواسطة العمل الدؤوب وتمكينها من تبني سلم القيم بالرجوع لديننا دون ترمت او مغالاة ونؤثت دار شؤوننا العقلية ونتسلح بالعتاد ونتهياً لدحض الظلم والاستكانة بالتصدي لكل مظاهر التخلف والتواكل والاستسلام ولا نهدر ثرواتنا ولا نسلم فيها لغيرنا وتتخذها كاسلحة مساومة ومقاواة ونحارب الفساد المتفشي فينا ونقطع دابر الخونة والسامسة بمصيرنا ونستقل استقلالاً حقيقياً ونحرر شعوبنا من التواكل والكسل والجهل والسلفية الكاذبة قبل ان تنهار الدولة

ونعني بانهار الدولة ما نبهنا اليه رائد الفكر الحرّ عبد الرّحمان بن خلدون قال

- عندما تنهار الدّولة يسود الرّعب ويلوذ النّاس بالطّوائف.. وتظهر العجائب وتعمّ الإشاعة.... ويتحوّل الصّديق الى عدوّ والعدوّ الى صديق..... ويعلو صوت الباطل... ويخفق صوت الحق... وتظهر على السطح وجوه مريبة.. وتختفي وجوه مؤنسة... وتشع الأحلام ويموت الأمل.. وتزداد غربة العاقل وتضيع ملامح الوجوه... ويصبح الإنتماء الى القبيلة . وهذا ما يتحمّم علينا تجنّبه.

الفصل السابع والثلاثون

وقف الزاوي على روبة الأزمنة يتأمل صيرورة الأحداث المتتالية ويستخلص منها العبرة وهو يشاهد ناس اليوم في أزمتهم ومعاناتهم وشواغلهم وتطلعاتهم وأساليب عيشتهم ومحاولاتهم الخروج من ملاسبات الظروف ويرصد ما يأتون وما لا يأتون من حلول وهو يستمع لاحد المتدخلين يقول

- الى متى سيقى الشعب التونسي تحت رحمة سياسيين يتخاصمون من اجل تموقع كل طرف منهم ومن اجل مصالحهم الخاصة كل يكيل لخصمه التهم ونحن نتجرع كل يوم علقم الفقر والبطالة والمرض وسوء الحال ما رأيكم لو نعطي مهلة زمنية قصيرة نطالب فيها كل طرف بتقديم الحجج الدامغة التي تثبت ادانة خصمه لمحاكم الشعب وباسم الشعب يتولى المحامون متابعة قضاء عادل بين بيت في كل المسائل بصفة استعجالية وباتة تنتهي بالحسم النهائي وادانة المتهمين وتطبيق الاحكام عليهم بالعدل والقسطاس على كل مدان مهما كان جاههه ومهما كانت حصانتهه دون تشفى ولا شماته ونشرع في ارساء حكم عادل منصف يستجيب لمبادئ ثورتنا الجيدة ويتولى اعادة بناء تونس على اسس سليمة وطبقا لبرنامج انقاذه يضعه المختصون في الاقتصاد بالاشتراك مع المنظمات الوطنية

وقال اخر

-عدم كفاءة المسؤولين مرده في الاصل خطأ الناهجين في التقدير ناتج عن مغالطات وردت في القانون الانتخابي الذي وضع بمقاسات معينة ومحدودة وخاطئة وربما بنوايا مبيتة بنيت على مزايدات تنافسية محدودة الاقصر الرؤيا جعلت من نتائج التصويت مشهدا سرياليا تختلط فيه الحماقة بالغباء ويتسرب منه العفن والقرف لحد الاشمئزاز لذلك تلقى في كل الخطابات ما يجعلنا نسحب ثقتنا من الجميع وتتملكنا مرارة اكبر عندما نستفيق على منسوب الغدر الذي دبر بنا فنخجل من تلقائيتنا وحسن نوايانا وطيبة اخلاقنا وحتى من رفعة ثقافتنا وسعة اطلاعنا على مختلف الحضارات ونشك في تجاربنا كيف وصلنا لهذا الغباء المشترك الذي سوى بين المظلوم

والظالم والوحش والفريسة والباطش والضحية

كان بالامكان ان تحصلوا بسهولة على ثقة الناس او اغلب الناس لكن منطقكم هذا سيزعزع ما تبقى من ثقة لدى بعض التونسيين فيكم

بينما كان الراوي يستمع لهذه التدخلات استرعت انتباهه هذه الرتبة المستمرة بلا انقطاع هؤلاء يشكون من هؤلاء وهؤلاء يعاتبون هؤلاء وأولئك يتهمون أولئك ويحملونهم ماسيهم وفشلهم وضيق حالهم وينقسمون بين شاك ومشتك وظالم وضحية واكل ومأكول هذا يتهم ذاك وذاك يتهم هذا ولا أحد منهم استعفف أو حاسب نفسه أو رجع باللائمة عليها

حاول الراوي أن يستعرض ملف الأحداث ليجرّدها من أصحابها فإذا به يكتشف أن الجوع ضلّ جوعا والوباء ضلّ وباء والكوارث بقيت كوارث والمعاناة معاناة والحرب حربا وإن اختلفت الأدوات والأساليب والطرق والمناهج والضحايا وتساءل في نفسه عما تبدّل أو تغيّر أو تحوّل فلم يجد فرقا إلا في القدرة على التخلص من الأزمات والمتمثلة في تلك الخلطة السحرية التي تسمى الذكاء ذلك الحضور الذهنيّ الفاصل بين شخص وشخص ومجموعة ومجموعة أخرى وفريق وفريق وحال وحال وظرف وظرف وجرّ ذلك للتفكير في احداثات وعوامل أخرى يمكن أخذها بعين الاعتبار كما لفت انتباهه عامل العمر واضطرّ للتفكير في فوارق الأجيال وأرصدة التجارب وتراكماتها ومدى استحضارها في الوقت المناسب كما فكّر في أثر التراكمات والقدرة على التّحمّل والاعتبار والتّرشّد واعترف بحيويّة الشّباب وقدرته على التعلّم والاستيعاب والتّجديد وبذل الجهد واستحضار الطّاقة وامتداد التّواصل والاستفادة من الآخرين لاستكمال الكهولة وكذلك أهميّة تجربة كبار السنّ وحكمة بعض الشّيوخ وبراعة العظماء منهم في حسن التّقدير والتّدير واستخلاص العبر واستحضار الاستطلاع وابتكار المناهج ومراقبة حسن سير المسارات وتعديل الاستشراف بها يناسب الضّرف.

كان الرّاوي يحاول النفاذ الى ما يجري أمامه في غياب مشروع جدّي لتوحيد الأمة العربية والإسلامية وتجميع جهودها ويشاهد كيف تضرّرت شعوبنا من جرّاء هذا التّشتّت الجماعي السّائد وهذه العقليّة الانهزاميّة لذلك رأى أنّه يتحمّ على العرب قبل غيرهم إرساء آليات جديدة

تستعمل مختلف مؤسّسات المجتمع المدني في شعوبنا من خلال النسيج الجمعياتي والتّركيبات التّنمويّة التي ترعى شؤوننا والتي تحصّنا مبدئيًا من التّبعات الاقتصادية المضرّة بمصالح شعوبنا ومن أوكد هذه الآليات تشجيع مبادرات علمائنا وباحثينا وتدارس مقترحاتهم وتبني مشاريعهم والعمل على الاستفادة منها على أوسع نطاق وبالأخص منها ما يتناسب مع مخطّطاتنا التّنمويّة ومقوماتنا الحضاريّة وخصوصياتنا العربية الاسلامية فعوض أن نعول على الصناعات الغربية نحاول استبدالها بصناعات اهلينا كلّما اتيحت لنا مثل تلك الفرص.

وللوصول الى مبتغانا لا بد من هدي او منارة او قدوة او زعامة حكيمة تتولّى قيادة سفينة النّجاة تخرج من رحم السّياسة والسّياسيّين ولا يمكن للسّياسيّ أن يكون زعيمًا إلا إذا آمنت به الأغلبية بالمنطق الديمقراطي ليستكمل شروط الرّزعامة والتي تعني القيادة لا السيطرة او الاسفاد بالرأي بل بالاستناد الى طواقم في اختصاصات متعددة يكون اهلها متمكنين كل في ميدانه معتمدين على العلوم والاحصاء والمقارنة والتفكر بدقة في كل شأن مع الاعتبار والاخذ بالنصائح والمراجعات والاستباق المحسوب والعلوم المقارنة والتحليل والتركيب والقدرة على الاستشراف والاستنباط واختراع الانسب مع توشي الحركية الدائمة والتركيز المتواصل.

والزّعيم المتمكّن لا يناضل لنفسه ولا لاهله او عشيرته بل من أجل استكمال الاهداف المتفق عليها ضمن خارطة طريق واضحة المعالم والاهداف والزعيم المستنير بطواقم الاختصاص واهل الذكر يستمد منهم الحنكة والمكانة والشجاعة وبعد النظر وطول النفس ما يمكنه من أن يصوغ الرؤى بكلّ دقّة ليصل الى ملكوت الصّفاء المطلق من خلال تصوّر مستقبليّ واضح مبنيّ على الفطنة في تحليل الواقع وترتيب تداعياته وتصنيفها بدقة وتحليلها بمتنهيّ التجرد والحرفية السياسية والعمق وقوة النفاذ وقابلية التطبيق بمقتضى تمش مضمون المراحل دقيق التفصيل واضح المعالم بعيد عن الملاسات السياسية المعهودة بقديمتها وجديدها اذا التزم الوظيفة واعتمدت على الوضوح والجرأة وصدق السجّة وعمق المقصد وهي خصال ضرورية ينبغي ان يتحلّى القائد أو الزعيم أو الحكيم في بلادنا العربية بشكل مخالف تماما للمفهوم المتعارف للزعامة أي ان القائد في سياق مفهوم العصر هو ذلك الذي يتكلم فيقنع الاغلب الاعم من ناس عصره ويحذق ترجمة رغباتهم وتحقيق تطلعاتهم ويتصف برحابة التصور القادر

على توسيع وتعميق الاستشارات من اجل القيام بالتعديلات المناسبة والتصويات الضرورية بفضل ثقة الناس فيه ومن اهم هؤلاء الناس معارضوه ليكون نجاحه على قدر ما يستطيع به تحويل الشك الى قناعات ولو متفاوتة والزعامة تكبر بقدر انتصار الاتي لمبادرات القائد بحيث يبدو وكأنه متحالف مع الغد القريب واكثر تناغما مع الزمن البعيد شرط ان لا تتناقض رؤاه مع واقع الناس مراوحة بين التحصيل والامل مع حرصه على تغليب اليقين على الشك والقطع مع ازمة الاستكانة والرضا بالدون والقبول بحتمية أقول نجم المسلمين الساطع وتدرجهم تحت أقدام الاستعمار الظاهر والمقنع والتسليم الصريح او الضمني بادانة الرقاب واذلال الانفة العربية الاسلامية وارغامها على الرضا بالدون والقطع الصريح مع كل ممارسات أغلب زعماء وحكام الشعوب العربية التي تقتصر على ترميم ما تصدع بالتلفيق ولا على الاكتفاء بترميم ما انهار بل العمل الجاد من اجل ارساء عملية تأسيسية جديدة لتقويض اسباب الهزال من أصلها وعدم الاقتصار على مجرد المصالحة والتوافق الشكلي والمناداة بلم الشمل والرضية المؤقتة لما هذه الاساليب من تداعيات خطيرة تركز مصالح الافراد والفئات والاحزاب على حساب مصلحة الوطن العليا ومهما اتسمت مثل هذه العمليات بالاتزان والصدق والتجرد فانها لن ترقى البتة الى مستوى ما ترقى اليه عملية استئصال جذور النفيء والتحرّج والتشيع من الأساس وارساء التعامل على دعامة المواطنة المجردة من رواسب الانتهات وروابط العرقيات المتسمة بالحصرية المطلقة والتعنصر المجحف وهي صفات المناضلين الصادقين الذين يعملون من اجل توحيد الوجهة بالاعتماد على الاصل لا الفرع أي بالاعتماد على مفهوم المواطنة قبل غيره من المفاهيم التي ترتكز على مقاربات عرقية او فئوية او مصلحة تكرر الفروق بالاساس وتقبل بمنطقها وتحاول تقريب ذات بينها ويجاد الوفاق المناسب الذي يحافظ على مصالح كل فئة منها ويطالب بتحديدتها على أقصى تقدير وقد اتسم تاريخ البلدان العربية بهذه الظواهر التفريقية الخطيرة والتي لم تفلح في أي بلد من البلدان العربية والشرقية المسلمة او المسيحية او اليهودية او أي ديانة اخرى او حتى في الامصار العلمانية البحتة قديما وحديثا فالتعايش السلمي بين الوالون والفلامون في بلجيكا ما زال هشاً وما زال العراق يعاني من هذه الظاهرة وقد تكبدت فرنسا من جراء محاولة ترميم الغول والفيزيقو خسائر كبيرة واستعمرت تونس من جراء اختلاف مصالح تركيباتها الاجتماعية المتنوعة وقبل ذلك دامت الحرب بين داعس والغبراء سنوات طويلة ولا يخلو بلد اتصف بهذه

الظاهر من حروب عرقية أحيانا واختراقات أجنبية أحيانا أخرى الا من رحم ربي. ولا ينبغي ان ننسى في خضم هذه الملاحظات ان في البدء طلعت علينا من تونس ثورة ايقنة تحلّت الانماط المعهودة في التسيير والخروج عن مألوف السياسات المتوارثة منذ أحقاب بعيدة لتنادي بتمش مختلف تماما عما كان ولا زال سائدا بل غير قابل للتعويض وقد اختارت الثورة تقويض المعهود وزلزلة اركانه وتعويضه بما هو أجدى وأسلم وأنفع لبلد الحضارة والتفتح ذلك البلد الذي صدر ومازال يصدر أنبل القيم الانسانية وأسلمها

ولا نشك أبدا في القدرات السياسية التي يمتلكها بعض شباب تونس لتجذره في بيئتها الواسعة وامتلاكه ادوات الكشف عن دقائق الأوضاع والحالات من جهة وتحكمه في اليات الاخبار عنها وتقصي الحوادث المتصلة بها من جهة أخرى كما امتاز بامتلاكه العجيب لتقريب المفاهيم العويصة وجعلها في متناول الناس جميعا وهي أهم خصلة يمكن أن يتحلى بها السياسي اذ يصبح بذلك في امكانه ان يجعل الاحداث تندفع أمامك بصورها الكاملة وألوانها المتعددة وأشكالها المتنوعة مجسمة بالصوت والصورة والفعل أيضا وذلك بفضل ما له من دقة في الملاحظة وفطنة في التنبه وحضور ذهني متميز وكذلك ما يمتلكه من ثقافة واسعة جامعة مانعة وما يتصف به من دربة وأصالة في الفعل السياسي يحتم الرصد المتواصل لللاحداث والسرعة في تحليلها واسحضار ما يناسب كل حالة منها من حلول لما غمض فيها أو تشعب من اجل اكسابها أقصى حد ممكن من المانة والوظيفية والنجاعة ويتجلى ذلك في أغلب تصرفاته وفي خطابه أو حتى فيما يوحى به كما يمتاز بتأثيره على الجماهير دون سلبها خصوصياتها أو مطالبتها بالذوبان أو الانصهار فيما يعرض عليها بقدر ما يدعوها للتفكير والتّمحيص والامعان للخروج من أسلم الابواب الى أسلم المحطات

كما اختصت هذه الشريحة من الشباب التونسي في حسن الصوغ وبلاغة العرض والتي تعتبر من محسنات التقديم تزيده رونقا وجالا وتشدّ المتلقي اليها وتدعوه الى متابعتها باشتياق والتلذذ بذلك النوع من العفوية المتفشية في أغلب ما يقدم ليوصلك ولو بالايحاء الى مستوى يجعلك تتجاوز العرض لتغوص في العمق وبين السطور ما أراد أن يبلغه لك بالذات وتتكون بين الباث والمقبل نوع من الاضمار المتعمد ويشارك معا في عمليات الرصد على حساب الظاهر وربما

بالاعتماد عليه والانطلاق منه فاذا بك تعتمد الرد عن عفوية بعفوك الفسيح المتفهم فتتحول الى نصيره على حساب ما بدى لك منه لطويع ذلك الى ما انتهت اليه هذه الثنائية العجيبة المتمثلة في علاقتك بوطنك الذي هو انت وبقية الخطاب بينكما مجرد رافد لكنه أساسي بالضرورة ومعين أصلي ييسر لك التوافق مع الجميع ويوجهك الى نفسك من خلال الناس جميعا ويدعم تواصلك معهم

وتنتهي قصة التاريخ ولا تنتهي قصة الشباب وفي صمت تفكيرك تسمع صوت ذاتك يقول لا حاجة لبلدان عالما العربي بزعيم موفق بقدر ما هي في أشد الحاجة لشباب مشيد يكرس جهوده لا لسد ثغرات اختلاف الطبائع واحتكاك الحساسيات وترميم الصدع بل يوجه طاقاته وطاقات شعبة لتنمية البلاد والرفع من مستواها والاقلاع بها نحو موابك التحضر والتقدم ولا تجد لذلك أقرب من هذا الفكر الذي تعمّد الابحار في التاريخ لسبر أغوار التفكك والتشردم وتحليلها بهذه الاريحية الفاعلة بعيدا عن كل أنواع الصدام والأزيز والجلبة

لا بد لهذا الشباب الواعي أن يستوعب ما حدث ويحدث في عالما ويأخذ بعين الاعتبار زخم الاوضاع المتردية والمتواصلة في العراق والسودان وفلسطين وافغانستان واليمن وسوريا وما تعيشه اغلب البلدان العربية من حرج استراتيجي وملابسات في ايران والشيشان والاحداث المتفرقة والطائرة في لبنان ومصر وعدم الاستقرار السياسي في كل من مورطانيا في وقت من الاوقات وفي الصومال وما عاشته وتعيشه ليبيا وما تعانيه تركيا من زلازل حتمت نوعا من الشدة في الحسم وما يوجد من ملابسات داخل الكيان الاوربي وتحولات في الرؤى تعيشها الولايات المتحدة وحلفاؤها وما يهدد كل بلد عربي مسلم عموما اصف الى ذلك الحملات التي تشن على المسلمين وعلى مقومات الاسلام بل احيانا على اقدس رموزه كهدم بعض المساجد في القطاع المحتل وفي العراق ومنع بنائها في اماكن عديدة من فرنسا وسويسرا والمانيا وبريطانيا والحملات المنظمة ضد الرسول الاعظم محمد صلى الله عله وسلم في السويد وهولندا وغيرها من البلدان الاوروبية وما تشهد الساحة العالمية الى اليوم من دعوات مغرضة ضد الديانة الاسلامية كاقتراح كنيسة امريكية تخصيص ذكرى الحادي عشر من سبتمبر يوما عالما لحرق القرآن الكريم وما تلقاه مثل هذه النداءات من مساندة لدى بعض المفكرين والادباء والفلاسفة الغربيين بل حتى لدى

بعض حكوماتهم وشعوبهم وتزايد الحقد على الاسلام والمسلمين في الكثير من بقاع الارض والمناداة الصريحة والمتكتمة بزعة بعض الاحزاب والانظمة الاسلامية كحزب الله وحماس منذ زمن طويل الى اليوم والتي يقابلها من العديد من الانظمة الاسلامية وبعض الشعوب العربية بالانخص صمت وتكتم وسكوت وقصور وعجز وفي أحسن الحالات تقرب وسلبية كل ذلك يبيّن بما لا يدع مجالا للشك أنّ الاسلام والمسلمين في خطر وان هذا الوعيد المتزايد وهذه التصرفات المتواصلة تهدد امنهم واستقرارهم وتعرض كيانهم للانهار والذوبان وربما بالاندثار الكلي وامام هذه المظاهر الخطيرة فانه يتحتم علينا جميعا وبدون استثناء ان نتصدي لذلك بقوة وفعالية وحكمة وفي هذا السياق وضمن هذا التمشي اندلعت ثورة الشباب التونسي برئاسة الشعب كل الشعب وقد ارتأى أن يتولى القيام بدور ريادي في هذا المجال باعتباره حاملا لرسالة التحدي العربي الاسلامي ورائدا من روادها من اجل الحفاظ على الهوية الاسلامية وسلامة كيان الامة والعمل الجاد المتمثل في اعلاء كلمتها واسماع صوتها والاستتانة من اجل تدعيم مقومات نجاح الاسلام والمسلمين في كل مكان من الارض ولكن برؤى أخرى ومقاربات أخرى وأساليب أخرى وقد رأينا ان يستفيد غيرنا من تجاربنا الرائدة والداعية لمنصرة الاسلام واهله واخترنا أن نكون مثالا يحتذى رغم صغر مساحتنا بما قام ويقوم به شبابنا لنصرة الاسلام والمسلمين سواء على المستوى التشريعي او على المستوى المؤسساتي وقد لفت انتباهنا ونحن نعمل على ارساء مقومات الاسلام بوسائل عملية ونتوخى اجراءات فعلية لتجسيم ذلك ميدانيا من خلال ما قام به هذا الشعب التونسي العظيم الذي برهن على نضج منقطع النظير في تعايش الاديان فتونس أول بلد عربي اسلامي يبتني لنفسه ساعة اسلامية في صومعة المسجد الكبير بتستور منذ اربعة قرون قبل الان واعتبرنا ذلك شرفا يميز تونس ويندرج في عريق تقاليدها المدعومة للهوية الاسلامية التي تسع جميع الأديان منذ عقبة بن نافع الى اليوم وهو ما يؤكد الريادة التونسية ومكانتها لدى جمع الدول والشعوب الغربية والشرقية على حد السواء وما تحظى به من ريادة في استقطاب كل ما يدعم حوار الحضارات والثقافات والاديان وهو نفس المقصد الذي نرمي اليه من أجل ارساء السلم وحوار الحضارات والثقافات والاديان والذي نرمي من ورائه الدعوة الجادة لاسلام خال من التعصّب والعنصرية والارهاب ينادي بالامن والامان والطمأنينة بين الشعوب كما يحرض على فتح الحوار بين الناس جميعا ورفع الوصاية عن المستضعفين في

الارض وتدعيم الكفاءات وعدم التسلط والهيمنة وتوخي مكيالا واحدا وثواب واحدة واصلاح الخلل الموجود حاليا في الكثير من المؤسسات المحلية او الدولية وتحكيم العقل لارساء العدل والمساواة الحقيقين وبقطع النَّظَر عن الاشخاص ونظم الحكم المتعددة وحتى المختلفة فان لتونس من حين لآخر العديد من المواقف المشرفة في هذا الشان منها مبادرات ذات بال كالدعوة لبعث الصندوق الدولي للضمان الاجتماعي والمناداة بتعديل بعض بنود ميثاق مجلس الامن المجحفة وتخصيص سنة عالمية للشباب باعتباره الحل لا المشكل وكذلك لما لتونس من مؤسسات وطنية تعنى بحوار الحضارات والاديان كالمنظمة الوطنية لحوار الحضارات والاديان وما كان يسمى بكرسي بن علي لحوار الحضارات والاديان الذي أشرف عليه الاستاذ الدكتور محمد حسين فطر والذي عرف بدعمه للهوية الاسلامية ومؤسسة ما كان يسمى بالمجلس الاسلامي الاعلى وكلها مؤسسات ذات قيمة بقطع النظر عن العصر الذي بعثت فيه او النوايا التي حددت لبعثها اذ يمكن تسخيرها من جديد لفائدة اهداف الثورة من اجل رفعة الوطن والاسلام والمسلمين وكل ذلك وغيره يؤكد على وجود بوادر انتاج جيل جديد من المفكرين والمبتكرين المحنكين المدعوين لانقاذ تونس قبل غيرها بقطع النظر عن الانتماءات العرقية والقبلية والعقائدية من أجل اخراج البلاد من حلبة الصراعات الداخلية والخارجية باناة وتؤدة وايصالها الى شاطئ السلامة وتحويلها الى بلد الامن والامان وتسليحها بمقومات النهضة الحق خدمة للمصلحة العليا لوطن موحد لا يعترف بالتكتلات العرقية او الدينية او الجغرافية ولا يقبل الترفيع او الرتق ولا يؤمن بتعايش الشتاة بقدر ما يدعو للعمل الجماعي من اجل ان تعيش تونس حرة مستقلة ووحدة بعيدة عن زخم الأوضاع المتردية والمتواصلة في أغلب البلدان العربية والإسلامية وضمن زخم الأحداث المتفرقة أحيانا والطائرة أحيانا أخرى في العديد من تلك الأقطار وعدم الاستقرار السياسي السائد في البعض منها والخرج الاستراتيجي الذي تعيش فيه من حين لآخر هذه أو تلك وما يعانيه البعض الآخر من هذه الأمصار من ملاسات بالرغم من اجتهاداتها الرامية للهروب بنفسها من الصراعات باستغلال مواقعها الجغرافي الذي يخول لها الانضمام لكيان مجاور لها أو القبول باملاءات خارجية بصفة قصرية وما يهدد كل بلد عربي مسلم عموما بقطع النظر عن ظروفه وملاساته وتاريخه وقربه أو بعده عن مناطق الصراع او النفوذ واحتضان بعض الانظمة للمارقين عن الدين الإسلامي ونشر كتبهم وصورهم ورسومهم الوقحة دون تورع

والتهديدات المستمرة للشعوب العربية بالعقوبات الاقتصادية المسلطة على أكثر من بلد عربي أو مسلم ومحاصرة أو تحديد تنقّلات بعض العرب والمسلمين وحجر أموال بعض منظماتهم ومؤسساتهم بما فيها الإنسانية وإخماد جميع المحاولات الفردية والجماعية والدولية الرامية لكسر حصار والوقوف في وجه عمليات التجويع الجماعي والجريمة المنظمة ضد فئات مسلمة بأكملها والتعرض للعنف لسفن السلام غريبة كانت أم شرعية وتزايد الحقد على الإسلام والمسلمين في الكثير من بقاع الأرض والمناداة الصريحة والمتكتمة بزعة أركان الأمة العربية واغتيال بعض رموزها من حين لآخر ومعارضة كل أنواع المقاومة المشروعة مع تبرير الردود الغير مشروعة عليها والعمل على اجتثاث روح النضال والمطالبة بالحق المسلوب أو الدفاع عنه حتى في حالة الاضطهاد واعتبار هؤلاء إرهابيين واعتداد شنّ الحروب الخاطفة والعمليات العسكرية الجراحية عليهم واستعمال أبشع أدوات الإبادة المحجّرة دوليًا وما يقابل كلّ ذلك من صمت وتكتم وسكوت وقصور وعجز دولي وإقليمي وفي أحسن الحالات يجابه هذا التعسف بالتّرقّب أو الحذر أو السلبية أو الأمبالاة وأحيانًا بتشجيع ضمنيّ ومساندة سرّية من بعض التيارات المتحكّمة في الأنظمة العربية والإسلامية والتي يتوافق مشروعهما مع المشروع الغربي الرامي إلى انبثاق عربي إسلامي منظم تحطّط له بعض القوى الفاعلة وتسخر لذلك الخونة وبعض الشرائع المحسوبة باطلا على الشعوب العربية وبالإضافة الى كل ذلك يتم تسخير أغلب الأنظمة الدولية واللّويات ومختلف التكتّلات ووسائل الإعلام ودواليب الجوسسة والاستعلامات المعادية للمسلمين والإسلام ويتبيّن لنا من كلّ ذلك بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الإسلام والمسلمين اليوم في خطر كبير وأنّ هذا الوعيد المتزايد والتهديد المستمرّ والحروب المتواصلة وهذه التصرّفات والمواقف المعادية تهدّد أمننا واستقرارنا وتعرض كياننا للتفكّك والانهيار والذوبان وربّما تسوقنا إلى الاندثار الكلّي وأمام هذه المظاهر الخطيرة فانه يتحتمّ علينا نحن مسلمو هذا العصر أن نتصدّى لهذا الخطر المحدق بنا بكلّ قوّة وفعاليّة وعزم وحكمة والاعتناء في الدّاخل بإرساء القوانين الدّاعمة للإسلام بدء بالمستوى التشريعي ووصولاً إلى مستوى النّسيج المؤسّساتي والنّظم الاجتماعيّة السّائدة فيه والمنظمة للعلاقات بين الأفراد والمجموعات والهياكل كاصلاح منظومة حقوق المرأة وحقوق الطفل والمساواة بين الأشخاص في الواجبات وترسيخ الحسّ الأخلاقي ضمن النّصرف اليومي والتاكيد الفعلي على حملات مقاومة الكلام البذيء ومنع التّدخين المضرّ بالصّحة في

المحلات الخاصة والعمومية ومعاقبة التظاهر بما ينافي الحياء بأقصى العقوبات مع الحفاظ على الحريات الخاصة التي لا تلحق الأذى بالآخرين وبعث المؤسسات التي تضطلع بمواكبة تطوّر الحياة وملائمة السلوك اليومي لمقتضيات التربية الإسلامية بعيداً عن التزمّت والتجحّر والتعصب والرّجعيّة والسّلفية المحجفة اقتداءً باخلاق الإسلام المعتدل والدّاعي للوسطيّة المنتشر في هذه الرّبوع بفضل انتشار الفكر المستنير الذي أسّس له شيوخ أفاضل مثل الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير التّحرير والتّنوير للقران الكريم وابنه الشّيخ الفاضل بن عاشور من خلال محاضراته الأسبوعيّة المسجلة في الإذاعة والتلفزة الوطنية والدكتور محجوب بن ميلاد في كتابه تحريك السّواكن والشّيخ هشام جعيط وقبلهم العلامة ابن خلدون والمفكر ابن رشد وغيرهما كثير والجدير بالذّكر أنّ بلادنا ما انفكت تحرص على تشجيع مثل هذه المبادرات في كلّ البلاد العربيّة والإسلاميّة لذلك باركنا جميع الثورات البناءة في الكثير من الاقطار العربيّة وما زلنا نعمل على إرساء مقوّمات العروبة والإسلام بوسائل عمليّة ونتوخّى إجراءات فعليّة ونعتمد الدلائل العلميّة والبراهين المقنعة والمتّسمة بالموضوعيّة والتجرّد لتجسيم ذلك ميداناً عبر مزيد ترسخ التمّشي العلمي وتوخي بعد النظر والتخطيط الحكيم ولاستعانة بالمختصين واهل الذّكر تأكيداً لما تتميز به تونس وشعبها المضياف من مكانة لدى جميع الدول والشعوب الغربيّة والشرقيّة على حدّ السّواء وما تحظى به من ريادة في استقطاب كل ما يدعّم حوار الحضارات والثّقافات والأديان وهو نفس المقصد الذي نرمي من ورائه الدّعوة الجادّة لإسلام حقيقيّ خال من التّعصب والعنصريّة وتهم الإرهاب حرصاً ممّا على نشر ثقافة الأمن والأمان والطمأنينة بين الشعوب كما نحرّض على فتح الحوار بين الناس جميعاً وندعو لرفع الوصاية عن المستضعفين في الأرض ومدّ يد المساعدة لهم دون خوف أو طمع ونوصي بتدعيم الكفاءات وعدم التسلّط والهيمنة ونشجّع على توخّي الوسطيّة وعدم الكيل بمكيالين والالتزام بثوابت واحدة وإصلاح الخلل الموجود حالياً في الكثير من المؤسسات المحليّة والدوليّة وتحكيم العقل لإرساء العدل والمساواة الحقيقيين وهي نفسها تعاليم الإسلام الحق الذي نادى بها القران الكريم ووضّحتّها السّنة النّبويّة ودعّمتهما الاجتهادات الصّادقة لسلفنا الصّالح منذ نزول الوحي على نبيّنا الأكرم صلّى الله عليه وسلّم وأكّدتها آراء شيوخنا المعاصرين الفطاحل وتبيان أن كل ذلك لا يتعارض مع القيم الإنسانيّة المطلقة ولا مع النواميس الكونية ولا مع التعاليم السّامية وقد أكّدت لنا الثورة التونسيّة أنها لا

تتعارض مع النظريات السابقة بقدر ما تكملها وتحسن من جدواها وتبقى الثورة التونسية جامعة لكل الناس بقطع النظر عن جنسياتهم ودياناتهم وتوجهاتهم العقائدية وقد لاحظنا أن بعض البلدان المسلمة المسائرة للعلم والتفتح وفلسفة التنوير لم تخرج عن دينها ولم تتعارض قوانينها المتقدمة مع تعاليم الإسلام ولنا في تونس مثال يحتذى ويبدو ذلك جليا من خلال المواقف المشرفة الداعية للوسطية والبارزة بجلاء في صياغة القوانين استنادا على تعاليم الإسلام السمحة والدعوة لتطبيق الأخلاق الإسلامية في المعاملات الدولية لتحقيق العدل بين الناس وارساء مؤسسات وطنية حقيقية تعنى بحوار الحضارات والأديان كالمنظمة الوطنية لحوار الحضارات والأديان كما يمكن في مبادرة تواصلية ان نبعث من جديد كرسيا لحوار الحضارات والأديان بعيدا عن مبادرات التلميع والارتباطات القصصية لخدمة زيد او عمر او حزب او جهة معينة او اطروحات او أي حسابات ضيقة اخرى كما كان الشأن من قبل بل مواصلة لإعلاء كلمة الإسلام وتمكين المسلمين من استرجاع نخوتهم وكرامتهم من جديد من خلال ما نحققه في الأثناء من اكتشافات واختراعات وإنجازات وكذلك ردا للاعتبار واعترافا بجميل الكثير من المتدخلين التونسيين وكثير من العلماء العرب والمسلمين ورجال الأعمال والشيوخ الأجلاء والعلماء والباحثين في العديد من الأقطار العربية والإسلامية وحتى الغربية كما نرجو أن تكون هذه المحاكمات والاستعراضات والمقابلات والمبادرات مرجعا وفتحة خير وبركة ويمن على وطننا وعلى كافة الاوطان العربية والإسلامية وكل الاوطان والشعوب الاخرى في مشارق الارض ومغاربها حتى تبقى تونس القلب النابض للهوية العربية الاسلامية وعنوان اعتزازنا بانتمائنا لهذا الدين الخفيف الذي جعله الله عز وجل ملتقى الديانات السماوية كلها وجعل نبي الإسلام محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والرسل وإمام المرسلين ومبعوثا ومبشرا للناس كافة دون تعصب او تفتح مفرط ونمكن الانسان العربي من استرجاع ثقته في نفسه والايان بقدرته على استعادة بنيته وضمان تبوئه المكانة المرموقة التي يستحقها وتجنب الانزلاق في متاهات ظاهرها سليم وباطنها ملغم يتستر احيانا باسم الحريات الفردية والخاصة وتحت هذا الغطاء السحري خرجت للبشرية العديد من البلاوى ومن بينها التعلل بحرية التعبير التي استغلها بعض أصحاب النوايا السيئة منطلقا للقيام بالتّهريج او التعجيز من خلال القيام بالتظاهرات المبالغ فيها كبعض الاعتصامات العشوائية او المرجلة أو الغير مدروسة أو الغير منظمة مسبقا في بعض الظروف الحرجة جدا والتي يمكن ان

تصبح ضربا من ضروب المجازفة غير المحسوبة او غير المناسب بكل المقاييس لأن نجاح الاعتصام في مستوى النتائج سيكون محدودا جدا والكثير من المترشحين للقيادات رغم نزاهتهم ليس لهم بدائل ولا برامج واضحة تنهاى مع الدستور الحالي بالمنطق الديمقراطي الصرف كما أننا نشتم احيانا من بعض التصريحات خفايا معركة الزعامات وهذا أمر خطير جدا لانه يبنىء باندلاع صراعات وربما فتن يقودها أناس أغلبهم تنقصهم التجربة النظامية الحقيقية والحكمة السياسية والسند القانوني وشرعية المرجعيات وفي مثل هذه الحركات ينبغي الاعتماد على تخطيط محكم واختيار الطرف المناسب وتجنب مظاهر الانقلاب وخرق التراتيب القانونية وأشياء أخرى كثيرة إذ لا تكفي القناعات ولا الحماس ولا حتى الحاجة الملحة للتغيير الا في ابائها وتقدير ذلك يتطلب معرفة وحكمة لان التسرع الغير المجدي والغير المحسوب يزهج المشروع من الأساس مادام الاصل والمقصد هو عدم إدخال البلاد في حالات الفوضى في هذا الطرف بالذات الذي يمر فيه شعبنا باعسر فترات حياته ويعاني من العديد من المشاكل المتراكمة ومنها نوع من التسبب الغير مسبوق والذي مهّد لبعض شرائحه التطبيع مع الجريمة والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي واعتناق مسارب الفساد بأنواعه ما تسبب لعامة الشعب في الاقتراب من الفاقة وانعدام الأفق الاقتصادي وفقدان الثقة في النفس وفي الآخرين

واعتقد أن أول ما يجب أن نقوم به هو المطالبة بإيجاد هيكل منظم يجمع اغلب القوى الفاعلة في تونس وعلى رأسها الشباب التونسي بقيادة حكماء من اجيال متعددة من بينها بعض الشيوخ الاجلاء واهل الذكر واهل الاختصاصات واسنادهم بالتقنيين والعلماء والفلاسفة والادباء والفنانين لما لديهم من قدرات على الابتكار والاستنباط والخلق والابداع و الدعوة الصريحة والجادة لإنقاذ تونس بعد أن افتكت منا ثوراتنا وثوراتنا وحاسنا وهناك من سطا على العديد من قيمنا ومن صادر نداءاتنا وانتزعت منا احلى شعاراتنا وسرقت منا تحيا تونس وكادوا يقنعونا أن انبعثت تونس من جديد غير ممكن والان ما زال املنا في حراك شبابنا الذي ينادي إلى ضرورة إنقاذ تونس فإذا ما استطاع هذا الشباب توخي ما يناسب من الحذر والحكمة والبصيرة ومد الشعب بخارطة طريق جادة ومدروسة ومقنعة فسيمكن لنا مشاهدة بصيص من الامل لترميم ما انهار بفعل فاعل وذلك بواسطة ما سيقترحه علينا هذا الشباب الواعد من إجراءات تفضي إلى

تمش سليم يعيد الاعتبار لمكانة العدالة ويفعل إجراءات محاربة الفساد المتفشى ويضغط من أجل تحقيق كل ذلك ويهيئ للتفكير بجد وانه في تغيير النظام بعد تفعيل القوانين الحالية وارساء ما تبقى من المؤسسات الدستورية والدعوة للشروع الجاد في مقاومة الفساد بأنواعه المتعددة السياسي والاجتماعي والاقتصادي وإعادة الاعتبار للعدالة والحرص على عزل المتأمرين على أمننا وسلامة اقتصادنا والمبادرة بضخ بعد الفصول القانونية الرادعة وتفعيلها دون تردد ولا شفقة ولا محاباة هذا ما ينبغي الشروع فيه الآن وفي التو وكل تسرع غير محسوب أو تأخير أو سهو أو تحاذل سيؤدي بالبلاد والعباد إلى ما لا يحمد عقباه.

واعتقد أن لرئاسة الجمهورية والمنظمات الوطنية وبعض التوجهات الجادة الحالية ما يمكن أن يدعم هذا الشباب الطموح ويساعده على إيجاد شيء من التوافق والحزم والمتابعة ولما لا الاشراف بطريقة أو بأخرى على بعض الندوات والدعوة لتفعيل ما ينتج عن تلك الانشطة ومتابعة وتقييم نسق انجازها واحترام خارطة طريق واضحة وشفافة وحازمة كذلك من أجل إنقاذ جاد وفعال لوطننا العزيز تونس الانس والمجد.

وعكس ذلك يمكن ان يغيب الحلول الناجعة ويدخلنا في الازمات واليأس من القدرة على التفكير الناجع الذي يبدأ عادة بمنطق الدعوة للفتن والفتنة اشد من القتل في الدين والفتنة في العرف تخلف ناتج عن ذهنية تعجز على إيجاد الحلول لقصور في سعة فكرها وذلك القصور يسمى جهلا والجهل يصلح بالمعرفة القادرة على استنباط الحلول الناجعة للخروج من الازمات دون أن نلجأ للتحريض على العصيان أو الدعوة للقتل وأسالة الدماء كما يدعو إلى ذلك بعضنا على قلتهم فبقليل من التروي والدكاء والعلم والامل تخرج الأمة التونسية من المازق هذا كل ما في الأمر وهذا الفكر الخلاق نسميه في بلادنا الدكاء التونسي الذي يقابله الغباء المطلق والغباء المطلق ليس تونس بل مستوردا عادة تحمله لنا اراء وافكار وتوجهات من خارج تونس تبدأ باستنباط حواجز وانهاط تفكير متحجر تدعي انها خطوط حمراء وعلى ذكر دعاة التشبث بالخطوط الحمراء يا من تتحمسون للدفاع عن الخطوط الحمراء ابدؤوا باهم خط احمر تمت استباحته جهارا ولم يتحرك لكم ساكن هذا الشعب التونسي الذي استباحه اغلب حكامكم من خلال اجهاض ثورته بثورة مضادة استباحته كل مقوماته وخلقت لكم أولويات وهمية وأعداء افتراضيين يلهونكم عن

الأهم فأصبح انهيار بلادنا وترديها إلى الإفلاس وجرحها للفتن وتفكير شعبها وتعريضه للموت يوميا أمرا عاديا لديكم فما قيمة فلان او فلانة ضحايا بعض الفرقعات السياسية وهل قضاؤكم عليهم سيسمن الشعب التونسي ويغنيه من الجوع والغلاء واستفحال الجريمة وانهيار الاخلاق التي تردينا فيها يا من تدعون أنكم الاكثر كفاءة وتجربة ودهاء يا من انتصبتم في مقام علماؤنا و شيوخنا وقادتنا وقدمتم أنفسكم لنا في الانتخابات مدعين أنكم نخبتنا اتحدى من يثبت لي أن منكم من له برنامج يخلص البلاد والعباد من هذا التبار وهذا التردى وهذا الانهيار المبرح والشامل

يا من أحسست انك مثلي تنتمي لهذا الشعب الكريم المغر به عبر عن مساندتك لمل توجه سليم رصين ايجابي من خلال تبنيك وتحمسك لعلنا نستحث جلادينا على الاقتناع باستفاقتنا فيوقفوا غيهم ويعدلوا من تصرفاتهم قبل فوأة الأوان على بلادنا وعلينا وعليهم كذلك حتى لا تكون بلادنا بلاد النسيان ومجتمعتنا مجتمع الجحود الذي يعزلنا عمدا عما كتبنا احياء وامواتا و يصبح حديثنا عن أنفسنا وعمن حولنا مجرد تراث محسوب على أنغام زمان وتبقى الصورة وحدها شاهدة لنا بأننا جزء من أحاسيس ذلك الشعب العظيم الذي تفاعل معنا لحد الانتشاء وتفاعلنا معه لحد الانتهاء .

هناك العديد من الحلول للخروج بتونس وشعبها من مستنقعات الفاقة والبطالة والتخلف منها مبدأ الوطن للجميع بما في ذلك حرص الأجيال المتعاقبة على ضمان حق الأجيال المقبلة في مستقبل زاهر والتمتع بخيرات بلادهم داخل وطنهم.

إعادة ترشيد القضاء ترشيدا وظيفيا يعيد تكريس العدالة ويسمح بفتح كل الملفات المعلقة أو المخفية وتطبيق أحكام القانون بصرامة وعدل ودون مراوغات واهية تتعلل تارة بحقوق الإنسان لتميع الحكم أو تنهاون في تطبيقه أو تتواطأ مع الفساد من قطع دابر الفساد والمفسدين وذلك بالتعجيل في تنفيذ البرامج بالاعتماد على اخلاص الشعب ووطنيته ووضع مخططات تنمية واضحة ومدروسة مع مراقبة تنفيذها على الوجه الأكمل ومعاينة كل محل أو مقصر والمتابعة والمحاسبة المستمرة وعدم السماح بإيقاف المرافق العمومية والانتاج الاستراتيجي بتعلات متخلفة العقلية والفصل بين الاحتجاج المشروع والحفاظ على نسق الإنتاج الحيوي المرتبط بالأمن القومي واتباع

سياسة خارجية أكثر نجاعة كل ذلك تواكبه إصلاحات جذرية في المنظومات التربوية والصحية والاجتماعية والثقافية وترشيد العمل السياسي وتجريم اي نشاط أو عمل أو نية خيانة الوطن أو تعمد الاضرار به أو بمكاسبه أو امنه واستقراره وتشجيع إرساء القيم دون مغالاة أو إجحاف واعادة الاعتبار للدين الاسلامي السماح والمتفتح على العلوم والمعرفة والمصالحة بينه وبين الطرح المدني وإخراجه من بعض الطقوس المتجمدة والقراءات الانطباعية وبعض القداسات المشكوك فيها وذلك بالرجوع للنص القراني قبل غيره مع تجريم وتحريم كل توجه ديني مبني على التفرقة والتحريض والاستبداد بالراي وإعادة النظر في مفهوم رجل الدين وتعويضه بلجان متعددة الاختصاصات تنظر في مختلف المسائل بحسب اختصاص كل عضو باعتبار أن الدين منهج حياة تتداخل فيه النوايا والسلوكات والقيم بما ينفع الناس ويلهمهم الرشد والصلاح ولا يفرقهم او يغرس بينهم البغضاء والتنافر والاخلاص للوطن اولا وتكريس كل عمل حزبي أو جمعياتي فردي أو جماعي لخدمة ما يفيد اهلنا ويضمن مستقبلهم ومستقبل ابنائهم واحفادهم كما تتحتم اعادة النظر في الوظائف الحقيقية التي يجب ان يؤديها كل مسجد من خصوصيات تتعلق بالوضع الذي عليه الحي الذي بني فيه فبالاضافة الى دور المسجد التقليدي والمتعارف يجب اضافة تمش مدروس يتماهى مع ضرورة ان يكون المسجد ذا تأثير حقيقي في الحي الذي وجد فيه وعلى الائمة المكلفين بالاشراف على طقوسه ان يراعوا وجوب ايجاد خطط توعية تناسب مع طبيعة المكان والوضع الاجتماعي الذي عليه اهل ذلك الحي كارساء برنامج توعوي يلائم طبيعة المتساكنين طبقا لمتابعات لصيقة وعلمية تتصل بمختلف ما يميز الحي من احداث وما عليه بعض متساكنيه اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وشارك المسجد في متابعة الاوضاع واصلاح ما تردى منها او يوشك ان يتردى وكذلك تشجيع النجاحات لا المتصلة بالشأن الديني الصرف بل بكل ما يتصل بحياة الناس وخصوصيات أولائك المتساكنين بالذات في تلك الجهة والعمل على ما ينفع الناس على اختلاف شرائحهم واعمارهم وحاجياتهم وادراج ما ينبغي اصلاحه او تعديله في السلوك العام وحتى الخاص وضبط انواع الصعوبات والقضايا وترتيبها بحسب ما تتطلب من اولويات حتى يؤدي المسجد دوره التحسيس والتربوي في تكامل مع الضوابط المنصوص عليها في الدستور المدني للبلاد وايجاد صيغ التوافق بينها وبين النصوص الدينية بما ينبغي من تفتح وسعة في الفهم واخراج السياقات المسجدية من بعض الممارسات التقليدية التي لم تعد تتماشى مع التربية السليمة

كما يتحتم على الدولة اعادة النظر في الكثير من المفاهيم التي اصبحت تعرف بالمتحجرة او المتخلفة او المجحفة احيانا

الفصل الثامن والثلاثون

قال الرَّاوي

- وقبل أن تستأق محكمة الشعب جلستها وفي انتظار تهبة استقبال الوافدين على ساحة المحكمة وربما كذلك في اطار التهيء للشروع في مواصلة استنطاق من تمت دعوتهم لحصة اليوم كان سيادة القاضي يرتب في مكتب المحكمة مع مستشاريه اخر لمسات الوظائف التنظيمية ونظرا لتوفر الوقت وربما في زخم الاحداث المتعاقبة بنسق متزايد ارتأى جناب القاضي الموقر ابداء بعض الملاحظات ربما بقصد تذكير طاقم مستشاريه الذي كان يتغير بمرور الزمن وربما قصد اشياء اخرى قال

- الشعب دائما ينتصر لذلك يستحسن مراجعة وتقييم الاداء وادخال الاصلاحات المتاكدة والفورية واحترام طقوس الذكاء التونسي ومفعول التراكم من اجل تقديم اكثر جودة وخاصة اكثر فعالية لا بد من عقلنة التقييم ودراسة كل المعلومات التي افرزتها الانتخابات محليا او لا ثم وطنيا من اجل ايجاد الصيغ الملائمة لما يستوجبه الوضع الان وهنا واصلاح ما يتحتم اصلاحه او تداركه وذلك من اجل انقاذ تونس من المخططات الرجعية او الهدامة او العقائدية او الانتقامية وانتشالها من مخططات الطمع والجشع والاحباط والشعب دائما ينتصر رايكم كيف تلاعب بالماكينات وحطم مخططات التكنيين وهزم المراوغات وخرق الانتظارات وأخلط الاوراق وتجاوز المعتاد وكسر النواميس وقطع مع المعهود ونفذ الي الطابوات وكذب المنطق وزعزع الحسابات وخرق الصواب وتصدى لقوانينكم واحبط التامر وحقق المستحيل وفي النهاية جعل من انتصاره واقعا جديدا فرضه على الجميع لذلك يستحسن مراجعة وتقييم الاداء وادخال الاصلاحات المتاكدة والفورية واحترام طقوس الذكاء التونسي ومفعول التراكم من اجل تقديم اكثر جودة وخاصة اكثر فعالية لا بد من عقلنة التقييم ودراسة كل المعلومات التي افرزتها صناديق الاقتراع من اجل ايجاد الصيغ الملائمة لما يستوجبه الوضع الان وهنا واصلاح ما يتحتم اصلاحه او تداركه وذلك من اجل انقاذ البلاد من المخططات الرجعية او الهدامة والعقائدية والانتقامية وانتشالها من الطمع

والجشع والاحباط.

وفي هذه الاثناء تدخّلت احدى المستشارات قالت

- وفي خضم الوضع الراهن وبمناسبة انسداد الافاق في ازمة مثل هذه الجائحة وتقصّد جائحة وباء الكورونه الذي نزل كالصاعقة على كل بلدان العالم بدون استثناء او تفريق واصلت السيدة المستشارة حديثها قائلة

- يمكن للذكاء التونسي ان يستنبط مخارج عديدة ومتنوعة في قطاعي الثقافة والسياحة في تونس منها على سبيل الذكر لا الحسر طلعة تحل مشكلة كل العاملين في القطاع السياحي والقطاع الثقافي والفني

اجابها القاضي

- وما اقترحته ليس تحريفا بل طريقة توفر لكل العاملين في القطاع الفرجوي والفني و الثقافي وكل العاملين في القطاع السياحي ضمان العيش الكريم وفي نفس الوقت تفتح المجال لأغلبية الشعب التونسي في الحق في التثقف والترفيه واني متأكد ان الكثير منكم تفتن إلى ذلك لكن تواصل ضحالة المشهد السياسي العام وضعت على أعين بعضهم الغشاوة وثلّت اغلب مبادراتهم .

و قبل ان يشرع مستشار اخر في بسط رأيه دعى جناب رئيس محكمة الشعب الجميع الى ضرورة احترام التراتيب الجاري بها العمل والتي تقضي بشروع المحكمة للاستماع الى ضيوف اليوم الذين داؤوا من كل حذب وصوب وبإشارة من الرئيس فتحت ابواب المحكمة على مصراعيها وبدأ تدفق الواغدين فرادى وجماعات وقد خصصت هذه الفترة الاولى من جلسة اليوم لتدارس ما يتعلق بجائحة الكورونا على وجه التحديد باعتبارها اولوية

وما ان التأمّت الجلسة حتى بدأ منادي المحكمة في اهذاء الكلمة لمستحقيها ممن سبق ادراج اسمائهم للتدخل في شأن هذه الحصى بالذات وكان النصيب لاول متدخل دخل الخط متدخّل قال

- سيدي الرئيس حضرات المستشارات والمستشارين أيها الحضور الكريم اليكم جميعا تحية التضامن والتعاون ومحبة الوطن والتضحية من اجل سلامة اهلنا جميعا اصدقكم القول انني لم اتم كامل ايام الاسبوع الا قليلا وفي الليلة البارحة ارقني ما يحدث في بلادي من جراء اكتساح وباء الكورونا ربوعها الطاهرة وبالاخص ما يهدد اهلنا من مخاطر يمكن ان تصل لحد الابدان الجماعية بلا شك ولا اختلاف وتيقنت ان الامر خطير جدا وانه لا بد ان نفعل شيئا لنجدة بلادنا ويقاسمني في هذه الحيرة اهلنا جميعا وبقليل من التمعن ايقنت ان كل تونسي غيور على وطنه كان يعيش نفس الاحاسيس ونفس الحرج وان كل تونسية وكل تونسي اينما كان خارج حدود الوطن او داخله يشعر بضرورة القيام بمايرى ما يجمع توقنا من اجل التصدي لوباء الكورونا بعزم وحزم وانا جميعا فرادى وجماعات ومؤسسات صغارا وكبارا مستعدون ان ننخرط ضمن فرق عمل جادة مؤمنة بضرورة التصدي الاستعجالي بقوة وايمان لخطورة الموقف وان نعمل جنبا الى جنب بترو وحكمة وتبصر وبكل موضوعية للسيطرة على هذه الافة المدمرة والتي لا بد للمجتمع المدني ان يؤازر فيها مجهودات دولة هزيلة وسياسيين فاشلين قوة وفعلا مؤازرة كلية لخلق جبهة قوية لمقاومة الكورونا والاستعداد للتصدي لهذا الاكتساح المدمر والفوري وايقاف اجتياحه ايقافا كليا ولاننا في صراع شديد مع الزمن فقد يتحتم اقرار بعث فرق تدخل استراتيجي تجمع كل الفئات والافراد المتحمسة للمشروع والمؤمنة بضرورة التحرك الفوري للتصدي للهجوم المدمر الذي يحتاج بلادنا ويزهق ارواح اهلنا ويهددنا جميعا بفقدان اعز اهلينا وبعض احبابنا واصحابنا ويهدد ارواحنا نحن كذلك ويضعف من طاقات بلادنا ويزيدها سوءا وربما يعرضها لمحق لم تتره في اي حقبة من احقابها على امتداد تاريخها الطويل وقد جربت الامر وانا القى بدلوي على صفحات التواصل الاجتماعي فوجئت بالتفاف الكثير حول الفكرة وانخراطكم في مشروع من المؤكد انه خامرهم كما خامرني وارحكم كما ارقني وخطر على بالهم كما خطر على بالي وباقابلهم الملفت للانتباه والذي فاق في اقل من الاربعة وعشرين ساعة الاولى اكثر من عشرين الف مناصر فرادى والشروع الفعلي في تكوين جماعات تلقائية من كل الشرائح الاجتماعية اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العديد من الأطباء والمحامين والمهندسين والمحاسبين والعديد من رجال الاعمال التونسيين في تونس وحتى خارج حدودها كما شارك معنا بعض السياسيين والطلبة وحتى بعض المؤسسات الامر الذي سيسرع في انبثاق هبة انقاذ حقيقية تشجع انخرط بعض

المؤسسات والمنظمات والجمعيات المنتمية للمجتمع المدني وتسهل بعض المهام كاختصار المراحل والاجراءات الادارية المعقدة والمطولة وتمكننا من ربح الوقت والزيادة في الجهد لتحقيق بعض ماربنا المستعجلة والضرورية والشروع في العمل بأكثر اجرائية ونجاعة وقد نظطر تنسيق مبادراتنا مع السلط التنفيذية في بلادنا للتنسيق معها ومع كل المؤسسات المختصة من اجل الاسراع في اتخاذ الاجراءات المناسبة للتصدي بسرعة ونجاعة لافة وباء الكورونا ونحن عاقدو العزم على التصدي لهذه الافة والقضاء عليها القضاء المبرم باسلم الطرق واقصر السبل وفي وقت قياسي ولكننا سيدي الرئيس فوجئنا مع الاسف بخيبة امل في هذا المضمار بالذات لما راينا ان اغلب السياسيين ما زالوا يدرجون هذه المسألة الحيوية في حسابات برامجهم السياسية الضيقة جدا ويتاجرون بها من اجل مصالحهم الخاصة ضارين مصلحة البلاد والعباد على عرض الحائط

اما في ما يخص عامة الناس فقد لفت انتباهي بالاخص حرص الجميع على الدخول في ضبط الاجراءات الفعلية لتجسيم مشروع إنقاذ تونسنا من آفة الكورونا الفتاكة وقبل البدء اشكرهم على مازرة مشروعا وقبول انخراطكم فيه قلبا وقالبا من اجل العمل الجاد لمحاربة وباء الكورونا الذي الم بالانسانية جمعاء واكتسح بلادنا الحبيبة تونس الانس ارض السلام والوثام ومرقأ تاريخنا المجيد ووكر ابائنا وامهاتنا واجدادنا وجداتنا واهلنا واصدقائنا واحبتنا ومهد ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وعنوان فخرنا واعتزازنا والذي نراه اليوم مكتسحا بوباء اكبر من جرمه واقوى من امكاناته واعتى من قدراته وافخم من طاقاته لكنه ليس اقوى من عزيمة اهلنا ولا اكبر من اصرار التونسيات والتونسيين ورغم افتقادنا للمعدات والاليات والمواد فان لنا من الحزم والعزم ومن الذكاء التونسي الذي جرب فصح في كل الحالات بلا استثناء ما يكفي لانقاذ بلادنا الحبيبة واهلنا الاعزاء من براثن الدمار الشامل الذي يهددنا به هذا الوباء المحبط لجهودنا والقاتل لاهلنا والمدمر لمكتسباتنا ومهدد بقاء الوطن واهله

اثر انتهاء هذا التدخل طلب احد المستشارين من جناب القاضي مد طاقم المحكمة بوقت مستقطع يتم فيه تدارس ما جاء في اخر تقرير ورد على المحكمة من احدى الدوائر المختصة

اوقف القاضي رئيس محكمة الشعب التدخلات والمداولات لتدارس الامر الاستعدادي الوارد عليهم والذي جاء فيه ما يلي

- لا نعتقد أن الثورة في تونس قامت لمجرد عزل حاكم لم يعد مرغوبا فيه ولم تقم كذلك من أجل تعويض حاكم مستبدّ بحاكم عادل ولم تقم الثورة انتقاما من أحد أو رغبة في اسناد الحكم أو الجاه لأي كان والثورة التي قامت في أواسط شهر جانفي ٢٠١١ لها جذور ممتدة قبل الاستقلال وبعده ولم تكن جذورها في حوزة أي زعيم أو حاكم أو عين من أعيان البلاد أو ثائر لأنها ليست مجرد انقلاب أو ثورة بالمعنى المتداول أو بالمواصفات المعهودة في مصر أو العراق أو أي بلد آخر من بلدان الأرض وليست كذلك ثورة بالمعنى الفرنسي أو الايطالي ولم تقتصر على مجرد ارساء الديمقراطية أو اثبات حقوق الانسان أو توفير التنمية للبلاد والعباد.

علق القاضي بصوت خافت على التقرير وكأنه اراد ان يؤكد ما جاء فيه قال

- الثورة التونسية أكبر من كل ذلك في أبعادها فهي امتداد لتراكمات عرقية وفكرية وحضارية تستمد قيمها من معيش شعب تشكلت مقوماته عبر العصور وتماسكت تربياتها يوما بعد يوم في سياقات متواترة ومتوارثة في نفس الوقت تنهل من معين واحد وتنفرد بهوية بنيت على نوع من التواصل والتفاعل والامتداد والتماسك والتراشح المشبع بنفس التوق للبقاء والرغبة في البناء الذي يستغل كل شيء لفائدة تماسكه لينهل من كل الأديان والحضارات التي تعاقبت على الأرض ويستفيد كذلك من كل الظواهر المعاشة ولا يستثني التوافق ولا التناحر ولا الانتكاس ولا الارتداد ولا الانتصار ولا يترك للثغرات مكانا ولا يفضل عصرا على عصر أو فئة على فئة أو اتجاهها على اتجاه لذلك اكتسب مع مر العصور قدرة عجيبة على التأقلم ولم يلفظ أي مكون من مكوناته معتبرا للتنوع أصلا والاختلاف ثراء والتشردم فترة وربما وعيا بضرورة التماسك وجعل الاخذ بحتمية حدوث كل ما يحدث والاخذ من كل شيء بطرف مبدأ وعقيدة وقد اتخذت الثورة التونسية من ذلك سلوكا ولم تترك نفسها بيد احد ولم تسلم مقاليد حكمها لفئة معينة او تركيبة من التركيبات ولن تهيء لنفسها منظرين او تبنت هوية جاهزة او فلسفة او توجهها او عقيدة بل بقيت مفتوحة لحد الهلالية احيانا ولم ترضخ لسلطة او تيار او عهد ولا استطاع احتواؤها كاتب معين ولم يقع حصرها بوعي مسبق او فكرة جاهزة ولا انبثقت من وحي شاعر أو ايماء فيلسوف أو عبقرية زعيم أو حكمة حكيم أو نسبت لفئة أو توجه أو اتصلت بعرق أو شدت لعصر أو حقبة او عهد ولم تترك لنفسها مجالا او حيز فراغ يزرف منه تبنى او يتسرب منه بصيص ميل ولم تنسب

لأحد بل جعلت لنفسها ترتيبا خاصا بها وخلقت منطقتها واملت فروضها وفرضت طقوسها وهدت وبنت بلا وازع وتسليقت ونزلت بلا ترتيب او قانون سابق او لاحق وبقيت وضعا مشاعا بين كل المتساكين الذين مروا تباعا فوق او تحت او بين فروجها او قنواتها او مساربها او فلولها ولأن كل الشعوب لم تستطع أن تقوم ثوراتها على ما قامت عليه ثورة هذه الكيانات التونسية التي وجدت نفسها ضمن أنموذج فريد من نوعه لا يشبه أي أنموذج ثوري آخر ولا يمكن قياسه على أي أنموذج ثوري قديم او حديث لقد كان الاستنباط ديدنها والخلق جبلتها وضلت ثورة تبنت رويدا رويدا في توق ذائقة تونسية مركبة عاشت جيناتها اطوارا خاصة بها دون أن تستشفي ما أفرزته الثورات الأخرى لذلك نشأت حبلى بمعين لا شبيه له شأنها في ذلك شأن الثورات الحقيقية التي تشكل حباتها شيئا فشيئا بمرور الزمن وتورث بذراتها اللاحقين من اجيالها المتتالية فتبدأ مضغعة التحرر فيها في تحديد مواصفاتها سرا ثم من مضغعة تتوق للانعتاق الى علقه وبقيت تنمو مع الايام في كنه ذاتها وتكبر مع كل حدث وتشكل شيئا فشيئا حتى ينغ عودها باحتشام تارة وعلنا طورا فأفرزت أزيزا حينا وقزيزا حينا وهزات وسبطات حينا وتشكلت في قوالب عديدة برزت في بعض التظاهرات والانتفاضات او الهبات سميت بعضها ثورات تجاوزا كثورة علي بن غداهم والدغباجي وأحيانا أخذت شكل الاحتجاج أو التطلع كما سميت بعضها بالأزمات أو الانتكاسات أو الانفلاتات أو التمرد أو الصيد في الماء العكر وكللت جميعها بأحداث التحرر من نير الاستعمار الفرنسي وتواصل بركانها الداخلي في الغليان بدرجات متفاوتة والوان مختلفة ومبادئ متحركة ومتنوعة وأحيانا مضطربة او متقاطعة او متعارضة بحسب الظروف والملايسات والنوايا والمصالح الداخلية او الاقليمية او حتى العالمية

وكان القاضي اراد ان يعزز ما ذهب اليه التقرير قال

- بالفعل ماجاء في هذه الافادة هو عين الحق ما يفسر ظهور الرجة الكبرى للعيان الا يوم ١٤ جانفي ٢٠١١ غضة رخوة لم تنضج بعد لذلك سهل تشكيلها وحاولت جميع القوى الركوب عليها او الركوب فيها او تسخيرها او تدجينها ولأنها ثورة لم تبلغ بعد عنفوانها فقد تنطعت أمام كل المحاولات وكذّبت كل التوقعات وخيبت امال البعض واغرقت من اغرقت وعصفت بمن عصفت وجبت من جبت واستفزت من امن نفسه بها وكدرت من وثق فيها وخيبت امال

المستسهلين لشأنها والطامعين فيها والمعولين عليها على حد السواء وحصدت بعض التخييلات وهزت من شان بعض الانماط الفكرية واربكت بعض الحسابات وما زالت الى الان تتقلب وتتحول تطول وتقصر وتمشط وتقلص وتزحف وتقفز وتطير وتمشي واحيانا تظهر وتختفي وتمهل وتفاجئ وتتجمد وتسيل وتبخر ولا ترسي على حال وكانها تعتمد اللعب على كل وتر وتجمع بين المتناقضات دون هوادة وبلا انضباط او ترويض اليست ثورة بحق على كل شيء حتى على نفسها.

وقالت المستشارة الرابعة

- بعد اذنكم جميعا وفي نفس السياق الذي اوردموه فقد تراء لي ان هذا الحراك الدائم يرجع الى ان للرصيد الثوري المتصل به اثر كبير ما جعل هذه الثورة كانه ثورة على الثورة لا تستقر على حالة لان الناس الذين تعيش بينهم واحيانا فيهم ليسوا اهلا لها بعد ولا يمكن ان تسكنهم او يسكنوا اليها الا بعد ان يتمرسوا فيها ومنها ويحذقوا طقوسها ويتدربوا على انماط تركيبتها ونواميسها وقوانينها ولن يتم ذلك الا اذا غيروا ما بانفسهم وتطبعوا بما يناسب الثورة الحقيقية من تحرر ويحذقوا درجات الانضباط التي تتطلبها من الوعي بطقوس الديمقراطية الحق ويتمرسوا على الحرية المسؤولة للانخراط في الترتيبات الثورية الواعية التي تسيرها الحكمة المنتطعة على قوالب الدمار والاستنزاف التي كادت ان تصبح في الناس جبلة

قال القاضي

- انت محقة بالفعل فطالما ان الثورة هي استحقاق فان الاستحقاق يتطلب زادا كبيرا من الرصانة والمسؤولية والوعي بالقيم الانسانية السامية كما يتطلب درجة من الوطنية الصادقة التي لا تزعزعها اعاصير ولا تعكر صفوها الاراجيف ولا تشل قوائمها زلازل الشهوات وارهاب الرغبات فالثورة الحق هي مجموعة القيم التي تجعل من الانسان عنصر بناء فعلي واداة وعي وقيمة للاعمار ولانها ثابتة فهي لا تقبل الارتجال ولا ترضى بالفوضى ولا تركب سهوة المجازفات ولا تعول على فترات التجارب الفاشلة ولا تتلائم مع الترفيع او التلفيق ولا تعيش في محاضن الاستهتار او التزمّت كما تكره الثورة من هذا القبيل الانغلاق ولا تنمو في كنف الظلم

ولا الظلامية ولا الظلالة ولا الضير وتكره الضرر والاضرار والضربات الموجعة والاضرابات العشوائية ولا تتلاءم مع الجهل والجاهلية والجهالة والهجانة والهجومات الماجورة وغير الماجورة.

وقال نائب رئيس المحكمة

- كما لا ينبغي لأي فئة أو تنظيم أو حزب أو حراك شبابي أو غير شبابي أن يتحول باسم الثورة الى خراب فإذا تحول إلى عنف فسيحيد عن مساره ويفرغ من محتواه ولن يحقق أهداف الشباب التونسي وإذا لم يحسم أمره مسبقا بكثير من التروي والحكمة يخشى أن تحوله بعض التوجهات والايادي إلى أداة فتنه ولا أتصور أن الشعب التونسي في وضعه الحالي سوف يقبل بهذا الانحراف بل وأعتقد أن أغلبية الشباب التونسي سوف لا ترضى بهذا الانحراف المطلوب والمقصود والممنهج احيانا من طرف قوى مجهولة لا تنتمي لنا في الاصل وليس لها غير صادقة على سلامة تونس وتحضر أهلها واستقلاليتهم عن كل توجه يدعو إلى الدمار وإشعال فتيل الفتنة بتهيئة الأجواء المشحونة ودفع التظاهر إلى مظاهرات غير محسوبة وفي مثل هذه الظروف يتحتم على قادة أي توجه اصلاحي أن يمسكوا بزمام الأمور ليبرهنوا انهم اهل للقيادة وأنهم قادرون على التحكم في المبادرة والقائد الحق هو القادر على أن لا يفلت من يديه المقود بدعوى أن ذلك خارج عن نطاقه لأن المسؤولية لا تقبل التجزئة ولا توكل الصفة ولا المجازفة وكل انفلاسة سيكون محسوباً على أصحاب المبادرة طال الزمان أو قصر ولأن الثورة الحقيقية ام الديمقراطية فانها لا تتماشى الا مع مستحقيها ولا تسلم نفسها الا لمن يحسن رعايتها ويتقن طقوسها ويحترم قواعد لعبتها كما ان من مزايا الثورة الحق انها تهيم من يستحقها وتصنع مناخها بنفسا وتصفي من اجل ذلك حساب كل من لا يستحقها وتتناساهم وتدوس من داسها وتقفز على من قفز عليها وتراوغ من راوغها.

الفصل التاسع والثلاثون

قال الراوي

- لقد قامت الثورة طبقا لديناميكية شعب في تطور مستمر نحو اهداف معينة واضحة وطبق مراحل معينة منها الظاهرة ومنها الخفية استكمالا لمسار مشغوف بالتححر الايجابي مسكون بالتوق نحو حياة افضل تميزها النجاعة والتطلع نحو الانسب والاسلم والانجع في كنف القيم النبيلة واحترام الذات وتعاليم اسلام حقيقي لا يتلون بالورثة اسلام مفتوح لا يكرس من الامس الا ما يمكنه من صنع غد افضل لا ذلك الغد العادي غد من صنع بشر يعلمون انهم ما اوتوا من العلم الا القليل لذلك يحرصون على مزيد النهل من العلم بنهم المؤمن بان الله عالم وعليم وانما يخشى الله من عباده العلماء من اجل بناء غد الحق الذي يدعو اليه الاسلام المتفتح المعتدل لا ذلك الدين المتشدد الظلامي الذي سمي خطأ باسم الاسلام ولبس جبة الدين الخيف باطلا وتحصن طورا بمنهاج الدين الاعمى واعتمد اطروحات النفاق ومنطق الردة وتبنى الاحاديث المكذوبة والتي رويت باسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم باطلا او جزافا وتحصن بها عرف بمشائخ الدين واستغل ما جاء من تناقضات في المذاهب الاربعة وفروعا فليس بردات التشدد حينما والتخويف او التنبيه حينما الى ان بلغ مراحل الجبر بالتعنيف وتبنى منطق الفتنة والارهاب وسخر لذلك تنظيمات واتجاهات ونظم دولا وقوى ظلامية كثيرة ومتنوعة ومتشعبة الانصار والامصار وسوق لاسلام كان يمكن أن يكون دستورا لكل شعب شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لو لم يتبدل ليأخذ خطأ شكل الدين المتحجر كما ارادته العقلية الجاهلية التي قاومت الرسول صلى الله عليه وسلم مقاومة شرسة منذ البداية بل تنكرت لما كان لديها يقينا لم تسم الرسول محمدا الامين ولما جاهر بالاسلام سحبت منه ثقته جهارا وكذبت نفسها ولما تيقنت ان ربه نصره اسلم الكثير من الاعراب وغير الاعراب كذبا وبتانا فساهاهم الله بالمنافقين وفضحهم في القران وعندها قرر اغلب اولئك المنافقون التبرص بالاسلام من داخله وظهرت نيتهم تلك في العديد من الاحقاب ومنها اثر موت النبي محمد صلوات الله عليه في ردة كادت تطيح بالاسلام لولا عناية الله ثم برزت في تصديهم للاسلام المتسامح نواياهم المبيتة والتي تجسمت حينما في الزيادة في الاحاديث

وفي ايام الخلفاء الراشدين الاربعة قتلوا ثلاثة منهم بتهمة الكفر او ما شابهه وزادت تاويلاتهم حدة وشراسة مع كل دولة او دويلة من بني امية لبني العباس وتواصلت دسائس المنافقين ولم يهدأ بلهم الا بعد ان اورثونا ديننا يختلف عن الاسلام الحقيقي ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم و يمهل العاصي حتى يتوب ثم يبشر كل منهما بان الاسلام يجب ما قبله ودخلنا في دوامة تنوع المذاهب المتناقضة احيانا و تاويل القران تاويلا ينزع عن تعاليمه الرحمة تارة ويحولها الى انتقام وترهيب طورا ويحفظنا احاديث مكذوبة تحرم الحلال وتحلل الحرام وتمتلى كتبنا الدينية بالعجائب والغرائب حتى التي تعتبر صحيحة ادخلوا فيها ما سمموا به الاسلام ولم يتوقفوا عند ذلك الحد بل حفظونا ديننا يتناقض في كثير من تعاليمه مع ساحة الاسلام وتحول بعض رجال الدين الى معتتين او مترمتين ومنهم من اوهمنا انه يمتلك مفاتيح الجنة ومنهم من ادعى انه يد الله في الارض حتى صارت الفتن عادة نتوارثها من جيل الى جيل ومن وطن الى وطن واستغلت ذلك الغباء المتفشي من المحيط الى الخليج بعض القوى الاجنبية لتحطيم به كيان البلدان العربية تحت شعارات رنانة او خلافة ولما عجزت على تركيع الشعوب العربية الاسلامية وبعض قادتها اوهمت اولئك المنافقين انهم على حق وكلفتهم بنشر الدعاوى والاشاعات والاكاذيب وهدمت العراق بايد عراقية وعربية وقضت على سوريا وليبيا بنفس الايادي العربية المتخلفة والماجورة او الجاهلة او المتزمتة او الرجعية وشرعت للارهاب والفتن وما زالت الى اليوم تحركنا خفية وجهارا ونحن نساعدنا بجهلنا و نبنى ديننا غريبا عنا نسميه اسلاما ونعتقد انه صحيح ومنزل وغير قابل للمراجعة ولا للنقد ولا للتفكر وقد قامت الثورة التونسية لتحول مجرى تاريخنا العربي كله انطلاقا من تونس لذلك سارعت القوى الظلامية في الركوب عليها و احيانا في احتوائها وجرها الى خانات التزمت والتصلب او تحويلها الى سيف تقطع به الرؤوس ومحول تحطم به الاعمار واداة جذب للوراء تمنع بها التقدم وبدات بزعة الهوية وطمس الحدود وتغييب الرموز كالعلم والشعار لتحول العلم الى خرقه سوداء عمدت الى تمريرها للرأي العام بتعمد توشيحها بلا اله الا الله في سذاجة منقطعة النظر ضانة ان ذلك سينطلي على شعب يعرف مسبقا ان الله واحد لا شريك له وانه كشعب لم يعد في حاجة للتذكير بذلك باعتباره تجاوز مستوى البلاهة وارتقى بعلمه لنسبة ارفع من رتبة العارف الى رتبة المتمكن المريد واستوعب لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقرر تجسيم ذلك من القوة الى الفعل

ولذلك احس بعض هؤلاء المتشددین بان لا مناص من اللعب على مثل هذه الاوراق البالية لذلك التجأ اذكاهم لضرورة المناذاة بفصل الدعوي عن السياسي وهو راي يبقی سطحيا مشوبا بالريية والارتجال وقابله من الجهة الاخرى قبول ضرفي وكلا الرايين لم يستند الى رؤيا واضحة الا الى حين لان الاصل في الامر ان الدين الاسلامي يمكن ان يكون دستورا لو ازيجت عنه تلك المكبلات الرجعية التي تستر بيافطات كثيرة بعضها مزيف وبعضه مبالغ فيه وبعضه ما زال في حاجة لمزيد الفهم والبحث والتمحيص باعتبار ان الاسلام يستطيع ان يتبنى ارقى القيم الانسانية واعصرها وان الاخلاق الاسلامية المجردة عن تاويل المؤولين وتدخل المزايدین ليست بعيدة عما تتوخاه بعض ارقى شعوب العالم تعالیا وقیا مطلقه. فالاسلام قادر ان يحنوي كل القوانين الانسانية دون حرج وهو اولى بتبني كل العلوم القابلة للتوسع والتدقيق والاجتهاد والاسلام يقر ان الله عالم وعليم وانه بنى خلقه على ما ارسی من مبتدئ وفوانین علميو راسخه منها ما تم اكشافه ومنه ما لم يكتشف بعد

وما اوتيتم من العلم الا القليل

لذلك نؤكد ان الحرج الذي يديه اغلب الشعب بخصوص مسار الثورة ظاهرة ايجابية جدا لو اجتهدنا للبحث عن الحلول وعدم الخوف من تردي الاحوال وتعويض ذلك بحتمية الاجتها من اجل الخروج من أي مازق بكثرة الاجتهاد والتعاون والتأزر والایان بقدرة العقل على ايجاد المخارج الفاعلة والحلول الايجابية لكل حيرة او نقص او عجز او انتكاسة وعدم فقدان الامل والثقة في الله مع المحافظة على الامل والانتصار للعلم ارقى مراتب الايمان والابتعاد عن الترفيع والايهام والكذب والبحث الجاد عن الحلول والاخذ بالاسباب والاخذ بالاسباب في حد ذاته جزء من الايمان وتوخي الصدق والعمل على نفع الناس ايمان والنصيحة والاخذ بها ايمان والایان ليس تزمتا بقدر ما هو حافز للخلق والابداع والابتكار مطلوبان في الاسلام والعمل في الاسلام فريضة والاتقان يجنب الغش والغش مخرج من الملة بشهادة رسول الاسلام في قوله من غشنا فليس منا

سكت الراوي قليلا وكأنه أراد أن يسترجع أنفاسه ليواصل في استحضار حال امة العرب التي سبر اغوارها ونبس في تفاصيل معيشتها وتابع مختلف اطوارها قال

- لقد مرت على العرب اكتشافات بالغة الاهمية ولكنهم لم يعيروا لها اي اهتمام وقد سجلت بعضها في حديثي عن علاقة بعض العرب بالانتاج الفكري والعلمي وعدم تنبهم لما ينفع الناس في الوقت المناسب وبالعناية المناسبة والجدير بالذكر ان ابن خلدون اشار الى ما ميز العقلية العربية التي ورثت من الجاهلية كل مقومات الجهل المطقع وقدرتهم على تحريف او تعويم او انلاف كل بوادر التحضر هذا ما يفسر قدرة العرب على تحويل الدين الاسلامي الذي ينتظر الكافر حتى يسلم ويمهل العاصي حتى يتوب ثم يمد كل منها بصك الغفران الكامل باعتبار ان الاسلام يجب ما قبله الى دين مكبل متمزمت مرعب مرهب رغم السعة التي تميز بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشاع ولاول مرة دينا يقول بقبول معتنقي الديانات السموية الاخرى ومجمل لمعتنقيه الاكل من اطعمة المسيحين واليهود والتزوج بنسائهم واعطى رخصة اعتناق الاسلام للتزوج بالمسلات ورغم ذلك فقد حول تزمت بعض العرب هذا الدين الى دين مغلق مسدود عنيف ومرهب ومن انغلاقهم وعدم تقبلهم للعلوم على سبيل المثال لا الحصر ما مدهم به احد جهابذة علوم الرياضيات وهو الخليل ابن احمد يوم ان اكتشف مفهوم المجموعات ورغم تفسيره لذلك بوضوح لم يهتم بما قاله اي احد من تلاميذه كانوا مهتمين بمسألة تافهة تتعلق بتفاصيل نزول القران واضاعوا الوقت في البحث هل ان القران نزل من الرب دفعة واحدة ام بالاقساط ولما اراد العلامة الخليل ابن احمد ان يوضح لهم نظريته المتعلقة بالمجموعات اختار ان يحدتهم باللغة التي يفهمونها وهي لغة الشعر وقال لهم كل اشعاركم يمكن ان نقسمها الى مجموعتين مجموعة الاصوات الساكنة ومجموعة الاصوات المتحركة ولما لم يفهمه احد اضطر الى استنباط قانون اخر والمتمثل في رموز العروض ولخصها في ما سيسمى فيما بعد بالمنظومة الثنائية التي تعمل بعددين واحد وصفر فكتب صوت فاعلات كالتالي اه اه اه فلما طغى جهلهم على علمه تاثر كثيرا وحز ذلك في قلبه وتوفي بعدما اصطدم بسارية من سوارى المسجد الذي كان يدرس به تلاميذه وبعد وفاته سموه منظرا للاوزان الشعرية وتحول الخليل ابن احمد من رياضي متميز وعبقري عالمي. ومخترع منقطع النظر الى مجرد منظر للشعر

خلاصة القول ان الثورة التونسية أثبتت جملة وتفصيلا أن الاسلام هو الدين المدني الوحيد لو يفهم على حقيقته لانه يركز كل طقوسه على العلم والمعرفة وسلامة العيش في المجتمع ويثيب كل

من فهم ذلك ويعتبره محسناً ويعاقب كل من أخل بواجباته المرتبطة بذلك التمشي ويعتبره مسيئاً تلك حكمة الله في خلقه لقد نزل القرآن في بلاد جرب أهلها اغلب العلاقات الممكنة والمتاحة ولما تشعبت سبلها وكثر تشتتها أراد الله أن يضرب بها المثل للعالمين اي للناس جميعاً فنزل قرانه على نبي سواه و اختاره قدوة للعالمين فنزل الاسلام رحمة لكل الناس وفي اعتقادي أن الإسلام الحقيقي المجرد مما علق به من تأويلات ونحل وفتاوى وتشريعات بشرية أغلبها صيغت على مقاسات معينة أو لغاية في نفس يعقوب ذلك الاسلام المجرد من كل الكرامات النقي من النوايا المدينة أو السيئة هو الدين الحق وهو مدني بطبعه متماش مع رغبة الاله في تطهير النفس البشرية من الدرن وفساد النية وسيء الأعمال وتحقيق التعايش السلمي والسؤدد والأخذ بأسباب العلم والمعرفة ورفي الحياة وفرحتها وذلك هو الدين القيم دين يطيب به العيش ويضمن السعادة الابديه في الدنيا والآخرة لذلك ما زلت مصرأ على مدنية الاسلام وتماشيه مع نسق الحياة قولا وفعلا وسياسة لو فهم على أصله وبلا تحريف أو تحريف

الفصل الأربعون

استأنف الراوي حديثه قائلاً

- فتحت محكمة الشعب أبوابها وشرعت في استجلاء الأمر في شان القضايا الاعلامية وبدأت بالاستماع لأول المتدخلين حول ما عرف بالسلطة الرابعة قال

- السلطة الرابعة سلطة لا تسلط فالاعلام ما سمي بالسلطة الرابعة إلا لأنّ وظيفته تقتضي منه ان يفرّق بين السلطة والتسلط وبين الاخبار بكسر الالف الصادق والصريح والمستوفى لا الاخبار المغشوش او الملعّم او المغلوط او المبيّنة النّيّة ونحن نلاحظ ان ما يسمى بالسلطة الرابعة في تونس بالخاص قد دخل بعضه عبر مهاترات وصنع أزمات ولفق أكاذيب وحلّ بعض الأحداث فوق ما تتحمّل واعتمد على الاثارة أكثر من اعتماده على الموضوعية والصدق والامانة ودخل في مواجهات من القول والقليل والصّلف والتأويل وميّت التحليل وفقدت بعض أخبارها المصدقية وذهبت أخرى الى التّحريض أحيانا أو تصفية الحسابات أو الانحياز لشقّ دون اخر اعتبارا أو ترلفا أو طمعا أحيانا أخرى و في أغلب الحالات أنتجت كل هذه التجاوزات جواً مخفقا وبثّت الكثير من المغالطات والسّموم في صفوف المجتمع التّونسيّ وزادت بالتّالي في تفكّكه وتناحره وكرّست مشاعر الكره بين النّاس وأذكت الرّغبة في الانتقام وبالتّالي شجّعت على التفكّك وخلق الاسطدامات بين بعض الفئات الاجتماعية وحَتّى لا نتهّم بالصّلف نحيلكم على ما ذكرناه انفا بخصوص بعض الأحداث التي تحمّل فيها المسؤوليّة لطرف دون الاخر بلا تروّ أحيانا و نعتقد أنّ النّظام مسؤول لكن بدرجة أقلّ بكثير ممّا تغدقه المنظومة التربوية التي لا تؤثّر شابنا بما يحميهم من هذه التصرفات الخطيرة واللامحسوبة والمسؤولية الالهة تقع على الاسرة التونسية التي استقلت معوّلة على الحاكم تارة وطورا على الاعلام الذي عودها ان يتغاضى على تذكيرها بواجباتها تجاه ابنائها ويذهب مباشرة للطعن في الدّولة التي يعتبرها الحمار القصير وان لم يتدارك الاعلام ذلك فسيصنع من شابنا ضحايا لا حول لهم ولا قوة في ما يرتكبون من اخطاء وتصرفات لا واعية تؤدّي حتما الى التّهلكة والله لا يجب ان يؤدي الانسان بنفسه الى التهلكة رحم الله الضحايا وزادنا

وعيا بالتركيز على الاسباب الحقيقية والموضوعية لمشاكلنا وألهمنا الحلول المناسبة للخروج من مازق الامعان في لعب دور الضحية التي لا حول لها ولا قوة في ما تأتية وأعتقد أن مثل هذه المشاكل لن تنتهي ما دامت تجد مبررات خارجية تجعل منها ممارسات غير مقدور على الحد منها أو إيقافها أو التصدي لها وأنا أشفق على الاعلام أن يبقى بهذه السلبية وهذا التوجه الذي أراه خاطئا بل خطيرا على مصير ومسار مجتمع كامل ويجعله اكثر خطورة على شبابنا واسرنا وكل ما أرجوه أن نفتتح حوارات في منابر اعلامية سليمة لعننا نظفر بحلول انجع واكثر استشرافا وواقعية ونفعا فمجرد التشهير بالفشل يؤدي الى تكريس فشل أشد وطأة والأجدر المساهمة في استنباط الحلول والاعلام لا يكون سلطة رابعة اذا اكتفى برصد مواطن الفشل وتعدادها واجترارها وهو ما تفعله الان اغلب وسائل الاعلام لضعف اداء بعض المشرفين عليها او المساهمين فيها والاكثفاء بالاعلام الناس بالقطار الذي ياتي بعد الوقت او لم يات بعد او لن ياتي ابدا هو البقاء في القطار المشلول وعدم مواكبة القطارات التي تصل في وقتها او تكاد وهو ضرب من الوقوف على الرربة في زمن تحتاج فيه تونس الى سواعد تبني وعقول تخلق ومهج تبتكر وطاقات تنجز ومخططات تستشرف وقلوب تحمل أيضا ومحامل اعلامية تبرز كل ذلك وتواكب التفاصيل وتتولى المتابعة

وتدخل أحد الشيوخ الطاعنين في السن قال

- اليكم يا جيل الثورة تحية جيل الاستقلال في العيد العاشر من اندلاعها ما أغرب عصركم ما هذا الذي يجري في بلادنا العزيزة نسير ضد التيار ندخل في أزمت متتالية على كل الأصعدة أخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وحتى حضاريا ولا من منقذ والمسؤولون يتداولون علينا ولا من رقيب أو حسيب

يتكرس فشلهم المشاع كل يوم دون انقطاع ونحن ننتظر الخلاص المعجزة في كل يوم بلا جدوى وتمر عشر سنوات من حياتنا جازفا ورغم ثبوت عجز قادتنا وعدم كفاءة مسؤولينا بل وفساد بعضهم لم يتورع منهم أحد للإقرار بفشله أو الاعتراف بعجزه وباسم ديمقراطية لم تنضج بعد يجتر شعب كامل المر وتنهار مؤسسات وتسقط دولة ويجوع شعب بأكمله ولا احد منا يحرك ساكنا وفي الأثناء يسقط صرح شباب المستقبل في هاوية اليأس والهجرة والمخدرات والجريمة بأنواعها لنصل لحد نزع بلادنا للإرهاب الدولي ونحن أولئك الذين نمثل جيل الاستقلال

نتفرج نحن الذين صنعنا في يوم ما من الضعف قوة وتحدينا الاستعمار وحققنا المعجزات ما زلنا نعيش بينكم وما زلنا نتذكر كيف خرجنا من ازمات أكثر حدة وضراوة و كيف وجدنا الحلول لكل الصعوبات بل وانتصارنا عليها وساهم كل منا من موقعه في تحقيق النجاح المرجو والان نشاهد بأم أعيننا فشل القادة الذين اجمعتم على اختيارهم أما بالتصويت عليهم أو باحجامكم عن التصويت و لم تراقبهم ولم تحاسبهم ولم تمارسوا عليهم الضغط رغم ثبوت عجز بعضهم على تحمل المسؤولية وفساد البعض الآخر ورغم تأكدكم أن اختياراتهم لم تكن صائبة وأنَّ تعمّد عزل جيلنا من المساهمة الفعلية في مدّكم بتجاربننا وخبرائنا كان مقصودا وان تخوينكم لاجلنا كان خطأ او مفتعلا فإننا ما زلنا مصرّين على أننا بالعيوب التي اتهمتمونا بها مازلنا نغار على بلادنا وما زلنا نجبها ونفاني في خدمتها وخدمة أهلنا رغم تعمّد بعضكم التقليل من نجاحاتنا و نقدها بل وانتقادها أو تحقيرها أو تحريفها أو نكرانها ليصبح بورقية الذي عاش الاعتقالات والتّفي داخل البلاد وخارجها ومرّاً بأبشع السّجون وحوكم بالإعدام يوصف بالخائن وعندما قرّر تحرير العقول وشحذ العزائم والوقوف بالمرصاد لعقلية تخلف المتخونجين و نقص تجربة أو صلف بعض المشييعين لتيّارات أجنبية غريبة عنّا اتهم بالدكتاتورية المجحفة والتي لم تكن كذلك أبدا كما أسلفنا

وقالت متدخلة أخرى

- المشكلة الاساسية هي مشكلة عقليات لن يجدنا البكاء ولا النديب ولا موجات الامتعاض نحن بحاجة لترشّد ذاتي حتى نخرج من عنق زجاجة التفكير السائد في كل الاقطار العربية والاسلامية وقد ادى بنا هذا التمشي الى ازمة الرداءة والتواكل والانخرام والفشل الذريع الذي نحن فيه وما زلنا نتحرك بعقلية الجاهلية التي نزل القرآن لاصلاحها ولما كان بصدد اصلاحها حاولت ان تتجاهله بل كادت ان تنجح في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لو لم ينبهه ربه للهجرة من اجل عودة اقوى ثم بعد ان قاومت الاسلام وانتصر عليها قررت مجابهته بموجة النفاق في حياة الرسول وبعد موته قامت بالردة وبعد ذلك اندست نفس الافكار في الحكم اندساسا رهيبا وواصلت العقلية الجاهلية زحفها بالسايلب عديدة ومختلفة الى اليوم اذ تحولت لدعوات اسلامية ثم فئات وملل ونحل وفي عصرنا الحالي تقمصت ادوار العصر وتسربت في قوالب متعددة منها

ما حسب على الاتجاهات الاسلامية احيانا وفئات مقاومة ودويلات ودواعش ورابطات ثورة وخلايا حقوق انسان ان لزم الامر وفي كل يوم تلبس لباسا جديدا وتتعطر بعطر جديد ونحن في المصار اما متفرجون او فاعلون مندسون او خاليو الذهن او صم بكم او منافقون او متناسون او دمي متحركة واحيانا ابواقا للتخلف في كسوات عصرية وقوالب تقدمية وغير ذلك من التشكل الذي بات مفضوحا وان لم يتصدى الاعلام بذكاء لكل هذه الالاعيب فسيجرنا التيار مرة اخرى كما جرف اجدادنا واباءنا وكما يحاول جرفنا نحن وابنائنا اللهم اني بلغت اللهم اني بلغت اللهم اني بلغت والتاريخ بين ما قلت وما ستفرزه ايامكم القادمة يا اجيال عرب اليوم ان لم تنتبهوا للورثة الضحلة التي تركناها لكم فيجرفكم التيار الى فناء محتم لن تقوم لكم قائمة من بعده ولن تبقى لكم علامات الا بعض من حديثنا هذا واكوام من الردود المشككة في مصداقيته او الطاعنة في محتواه او الثائرة عليه جملة وتفصيلا

ولو كانت الشعوب العربية واعية ومتحضرة ومؤمنة بعزتها وكرامتها كما هو الشأن بالنسبة للشعب الصهيوني لفتح بعض المختصين العرب بحثوا حول ما ترتكبه اسرائيل من مظالم انسانية ومجازر وحشية ضد الفلسطينيين العجز كان من الاجدر متابعة مرتكبيها والتعرف عليهم فردا فردا ان اجلا او عاجلا لمتابعة تحركاتهم وحركاتهم وسكناتهم والانتقام منهم واحدا واحدا وتقديمهم للعدالة من اجل نصره الحق وغرس خوف اي اسرائيلي من عاقبة ما يرتكب من بشاعات تجاه اي فلسطيني او اي عربي ولو بعد سنوات لذلك لا يجب الاكتفاء بتسجيل الاحداث البشعة التي يقوم بها الاسرائيليون بل يجب ايجاد هياكل ومؤسسات عربية لمتابعة كل جريمة اسرائيلية والتخطيط السري للرد عليها ردا مناسبا يجعل دولة اسرائيل جيشا ومؤسسات وجماعات ومناصرين محليين او اجانب يخافون من ردود الفعل العربية وغضب اهل الموروءات ممن ما زالت بذور الانسانية الصادقة مزروعة في قلوبهم راسخة في ضمائرهم الحية وغيرتهم الجدية على حق كل انسان في استرجاع أرضه وعرضه وكرامته من أجل ارساء علاقات أسلم دون تهميش الواقصاء او تناسي او اجحاف من أي نوع كان ومن أي فئة كانت كي نثبت مسارنا سليما ولا يمكن للعربي تحقيق هذخ الفناعات لدى الاغلب الاعم الا بتوخي مزيدا من الحكمة والتمشي الناجع والتصرف بحكمة و تبصر لتجنب البلاد مزيدا من إهدار الطاقات والحرص

على تسيير التمشي برشد وسلاسة واتزان ومنطق ونجاعة كذلك وما يتطبق على أي عربي ينطبق
كذلك وبالبحاح على كل تونسي حر ومخلص ونزيه

الفصل الحادي والأربعون

قال الرّوي

- ما اعظم القدر وما أعنى حتمياته في كوكب كثرت فيه الانانية على المستوى الفردي والاجتماعي في الوطن الواحد وتناقمت فيه النزاعات على المستوى الدولي ليتحول التقسيم من الدول العظمى ودول العالم الثالث إلى الدولة المهيمنة ثم تتدرج الهيمنة من الدولة الأقوى إلى الدولة الأقل قوة في ترتيب اهم مبرراته قوة السلاح ليبدأ عصر التناحر والاستعمار المابعد الجديد ويبدأ مع ذلك التحكم عن بعد في مصير الشعوب المستضعفة بالساليب عصرية جدا وحديثة جدا ومركبة جدا تساهم في اذكاء فتيل الصراعات في نظم او شعوب صنفت خطيرة على أمن وسلامة من سمووا أنفسهم سادة العالم ويقبل الجميع بالخياف والاملاءات وتقبل الشعوب المستكنة طوعا وكرها في ما يسمى حقا أو باطلا بنظرية المؤامرة ويبدأ التسليم بالفشل والقبول بما يكاد أن يصبح حتميا وتتواتر وتشعب الامور وتنوع وتتعدد ويختلط نابلها بحابلها وفجأة يتدخل القدر بواسطة مخلوق بلا حجم ولا لون ولا طعم ولا سابق صفة بيّنة يحار العلماء في تسميته وهويته ومنشئه وبرامجه ومخططاته ليشرع في فرض أوامره على الكبار والصغار ويفرض مخططاته وبرامجه ويسيطر بحكمه على الغني والفقير والكبير والصغير والحاكم والمحكوم والعظيم والأقل عظمة والمؤمن والكافر ويعدل بين الجميع ويبدأ في تحقيق ما عجزت عن تحقيقه اي سلطة واي حكم واي استراتيجية واي تخطيط واي رغبة واي توق ليووقف الحرب في سوريا ويحد نزاع السلاح في ليبيا ويعيد ترتيب الأولويات في اليمن ويزلزل الكثير من الترتيبات ويفرض اعادة الاعتبار للحياة بترتيبات جديدة وأوراق أخرى ويبدل المخططات ويفرض اعادة النظر من جديد في ما تم البت فيه ويؤثر في صفقة القرن واحلام استعادة بعض الامراطوريات العثمانية أو الفارسية على سبيل المثال لا الحصر كما استطاع هذا المخلوق الضئيل أن يجمع تناحر المتنافسين في تونس ويوقف الحراك في الجزائر ويقرب بين الأعداء في البلد الواحد و بين اعضاء العائلة الواحدة بعد ما فرقها الأنماط التّربوية الجديدة وطقوس النشأة المستحدثة أو المستوردة واملاءات العولمة والهويات وشيء من التسيب والافات والمخدرات والقناعات الفيشية والفروق القديمة

والجديدة ليصبح كورونه فيروس على شراسته قادرا على تحقيق ما عجزت عنه التربية والسلاح والاعراض والدسائس والمشاحنات والمخططات والاطماع وحتى الآمال والاماني ويعدّل أغلبها ويزعزع الأوليات وما زال يعيد الكثير من الترتيبات والطباع ليقرب بانسحابه بين الإنسانية ويعلمنا اخلاقيات كادت تفتقد كالتأزر والتكاتف والتعاون والتحابب والايثار وربما يعيد الاعتبار لبعض الاجراءات التي كانت تدار بشيء من الاسترخاء او حتى العيشية كالتجاذبات السياسية وما يسمى بالاستحقاق الانتخابي ومن البديهي ان تظهر بعض النقصان وان يكون من عبروا عنها محقين فيها ومن الاكيد ان نقائص اخرى ما زالت لم تظهر بعد مما يعاني منه هذا الشعب التونسي ومعه كل شعوب ما يمكن ان نسميهم بشعوب الربيع العربي

كما ساهمت الكورونه من وجهة نظر أخرى في تنقية الاسلام من شوائب التخونج التقليدي وتوصي بالصبر الجميل وتعلم الناس النظافة وتبشّر بالأخلاق الحميدة المبنية على التآزر والتحابب والغيرية بطرق اخرى واساليب تختلف عما تعودنا عليه للتعبير عن التقارب والتوادد كالاحتضان والتقبيل وتبادل الضم المبالغ فيه

كما جاء على لسان احد المعبرين عن مخاوفه منها وما ترتب من املاءات وسلوكات وصفه المتدخل كالتالي في قصيدة سلمها رأسا لجناب القاضي الموقر والذي وزعها بدوره على مساعديه للاعلام والافادة جاء فيها

- واوالتَّعَجَّب صارت صيحة الويل لا شيء يفرح نحن الان في الوحل
 نحيا فتحترنا الدنيا ويعرُكنا خوف من العدوى وخوف من القتل
 هذا الوباء يعمّ الأرض في صلف يدعو الى القطع بين الفرع والاصل
 يبتاحنا غفلة من حيث لا نندري عصر الكرونة أقصى لمة الشَّمْل
 سيف الكرونة مسلول يهدّدنا والعمر مستهدف يسري على مهل
 مستسلم تائه في أوج محنته مهتدّد من كفيد سيئ الفعل
 قالوا لنا اغتسلوا والدّلّك مشروط تبّت يدايا فقد طابت من الغسل

ويل لمن رام قربا واقتفى أثرنا أو عاد مرضى ولو كانوا من الأهل
فاللمس رجس وكفر غير مغتفر والوصل جرم حرام قيمة الوصل
تحية القرب تهديد بلاحقنا أما السّلام فتحريض على القتل
لا لا أخاف على نفسي من الأجل انّي أخاف على دفن بلا أهل

وهكذا يظهر جليا أن أمرا ما يحتّم العديد من المراجعات في ما تعودّ عليه النّاس من معاملات
يتختم إعادة النّظر فيها من جديد وتتطلّب أخلاقيات جديدة وطقوس سلوكيّة وروحانيّة تفرض
حمد الله على عافيته وشكر الرحمان على لطفه بالنّاس والإقرار بافضاله على الكثير منهم وبالأخصّ
على من يجتاز منهم بسلام عتبات الأربعة عشر يوما العديدة والمتوالية درجة درجة وهم احياء
معاфон يتمتعون بنعمة اسعافهم المرة تلو المرة في زمن خطير عصي قلّ فيه الأمن والأمان في
الأقطار والامصار غنيها وفقيرها قويها وضعيفها قريبها وبعيدها حمانا وحكام الله وحفظ أهلنا
وذوينا وبلادنا والناس أجمعين من بلاء هذا الوباء لتذكر هذه الجائحة وبحمد الله رب العالمين
والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وتفرض على الجميع مواصل الحجر الصحي
الموفق بفضل عزائهم وصبرهم وثقتهم في خالقهم ويقبلون القيام عن اقتناع بالقيام بالعديد من
الإجراءات الإيجابية من انتاج ذلك الذكاء البشري الذي يعولّ عليه النّاس ويثقون فيه والذي
يمكنهم من ترديد نشيد الأمل والثقة في خالق عالم وعليم أرسى خلقه على العلم ورتبه بقواعد
وقوانين بالقسط وأحكم خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة وفنّن العلاقات بين النّاس بوشائج
مكارم الاخلاق ولم يدرج في دينه الشعوذة ولا التّناحر ونّبّه من الفتن وحرّم الفساد وأهدى
لل بشرية ديناً سمحاً لخص كل الاديان شعاره السّلام ينتظر الكافر حتى يسلم ويمهل العاصي
حتى يتوب ويطمئنّ كليها بأن الإسلام يجبّ ما قبله وينادي عباده الذين أسرفوا على أنفسهم
بقوله بعد باسم الله الرحمان الرحيم

قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذّنوب جميعا أنه
هو الغفور الرحيم

وينبه الجميع بأن الفتنة أشدّ من الكفر ومن القتل وبأن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا

ويوصي بالصبر ويشير الصابرين بأجر عظيم .

كما وضعت الكورونه القيم في الصدارة واصبح بذلك الدين الاسلامي باعتباره يدعو الى الاخلاق الحميدة والقيم السمحاء لا يمكن أن يمثلها رجل دين بمواصفاته الحالية لقد أصبح الدين أكبر منه ومنّا جميعا يحتاج بالضّرورة لطواقم فيها كلّ الاختصاصات شرط أن يكون لكلّ منها من يمثلها تمثيلا يرقى الى الدرجة العالية من العلم المتّصل بها تتميز به تلك الصفة من اختصاصات وخصوصيات

كما فرضت الكورونه ترتيب الرّؤى الفكرية من جديد واستوجبت مراجعة العديد من التّمثلات والتّمشّيات ووضعت الذائقة الاخلاقية والقيمية في الواجهة لا بد من اعادة النظر في العديد من التراتيب وفي مقدمتها التراتيب الفقهيّة فالشأن الدّيني لم يعد مهمّة حصرية لما كان يسمى برجال الدّين بل تتداخل فيه الكثير من العناصر لمجموعة من الاختصاصات الاخرى التي يفترض ان تساعد رجل الدين بالمفهوم التقليدي المتعارف لفهم وتوضيح الظواهر الواردة في القرآن والسنة والمذاهب ومختلف الاجتهادات الفقهية والشرعية لذلك اقترح على وزارة الشّؤون الدّينيّة الافراد بتعزيز طواقم ما كانوا يسمونهم بالفقهاء ورجال الدين بمختصين في العلوم واللغة لاعادة تفسير القرآن والسنة واعادة تدقيق مختلف المراجع السابقة ذات البعد الديني او الفقهي او الشرعي او اي باب من الأبواب المتصلة بعلوم الدين التي ينبغي ان تعزز بكل الاختصاصات العلمية الاخرى لعلنا نجد رؤى وحلول اخرى للعديد من الاشكاليات الجديدة والمستجدة ومنها على سبيل الذكر لا الحصر مسألة علاقة الدين بالشأن العام أو بالسياسة في سياق الحال او باي شان اخر لعل هذه المراجعات تساهم في فهم الدين فهما اكثر موضوعية واجرائية وربما يساهم مثل هذا التمشي في فهم الدين فهما اشمل وربما ادق وخاصة في خضم ما نلاحظه الان من تحلف عالمي عام وشامل تمثّل أساسا في عجز منظومات العيش على مواكبة بعض الظواهر والطوارئ الطبيعية والاعتراف الصريح بعدم جاهزيتها للتصدّي للكوارث المهددة باندثار البشر ودمار حضارته بسبب محدوديّة قدرات ما يسمّى بالتّحضر والتّمدن والدّكاء البشريّ والصّناعي على حدّ السّواء وقد تساوى في زمن الكرونة ما كان ينعت بتخلف العالم الثالث والشعوب المتخلفة والبلدان المصنفة بكونها في طريق النمو ومن بينها بعض البلدان

العربية من جهة و التي تعتبر نامية ولكن تخلفها الذهني والتكنولوجي لا يسمحان لها بأن تكون في الصدارة.

كل هذه الأنظمة بلا استثناء ثبت عجزها على التوقّي من هذا الوباء الذي سوى بين الفقير والغني والمتقدم والمتخلف والصغير والكبير والمتحضر المتأخّر والعالم والجاهل والمرأة والرجل والبعيد والقريب والمريض والمتعافي ووضع في الصدارة بعض القيم الأخلاقية الثابتة والتي برزت صلاحياتها كالنظافة والتعاون والتأزر والتحابب والغيرية والتكافل والتضامن كما ثبتت نجاعة القيم الاخلاقية وقيمة الخلق وقدرة الخالق وحتمية الإيمان به بطريقة أخرى تختلف عن كل تلك العبادات العمياء وذلك التدين المتزمت أو المغلق أو المرعب أو المرهب و كل تلك القيم المتطرفة سقطت في سلة المهملات وثبت فسادها بنفس الدرجة الذي ثبت بها فساد التهور والاستهتار والتفسخ والاحاد

وبدا عصر ما بعد الكرونة يدعو لقيم جديدة ويفرض البحث عنها وارسائها على أسس ثابتة تنسحب على الجميع بنفس القدر ونفس درجة الالتزام
وبانهيار ما كان يحسب على التقدم العلمي والتكنولوجي وما توخته السياسات في ما يسمى بالبلدان المتحضرة أو النامية أو العظمى غربية أو شرقية عربية أو غير عربية إسلامية أو غير إسلامية ثبتت قاعدة اية

أن الدين عند الله الاسلام

وليس اي اسلام بل ليس حتى اسلامنا الموروث والذي يطمح أن يسيرّ حال الناس بالانغلاق والتزمت الذي يصل لحد الإرهاب

كل هذه التعاليم والمعتقدات زهقت كما زهق كل باطل

ما الحل الحل أن يتولى مثقفونا لا الشّهير بالتّخلف بل تقديم تطبيقات عملية لنماذج تحضّر فعليّ يحوّل نمط عيشنا تحويلات جذريا من أجل بعث انسان جديد متمدّن وتجنّب نمطية مفهوم المتحضّر الثائر أو النّاقد للدين بل فهم الدين في المطلق فهما أكثر تفتّحا وأقرب دين هذا المنطق

الجديد هو الدين الإسلامي الاصلي الذي أتى في القران والسنة النبوية الخالية من التّأويلات والتّشديد والتّطرف والرّؤى الصّيقة واعتبارها منهجا لاصلاح التّصرّف البشري وترميم منظومة الاخلاق الإنسانية التي تتطلب الخروج بالدين الإسلامي من القوالب الموروثة القائمة والمتناقضة إلى ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ويعتمد العلوم ويوظف التكنولوجيا ويتعامل مع البحوث العلمية ويشجع الاكتشافات ويعيد الق ما تعنيه الآية الكريمة

انما يخشى الله من عباده العلماء

عندها يمكن للدين اي السلوك الانساني المفيد المطرز بالاخلاق الحميدة أن يصبح دستورا مدنيا .

ما اروعك يا كورونا لقد شرعت في تحقيق ما عجزت عليه اسلم النوايا وانت بصدد تحويل وجهة أعتى المخططات الجهنمية واشترطت أن لا تنسجبي الا بعد ان يتعلم كل الناس النظافة وأن تجعلي الوفاق بين المتناقضات أمرا حتميا وتجمعي بين أفراد عائلات كادت تشتت يا ام المعجزات

وما نعيشه اليوم في بلادنا ربما يخفي ما كان اعظم لكن الحل العسكري ليس حلا كما يتصور بعضنا او بالاحرى لم يعد حلا في بلاد قامت بثورة بتلك الصورة المبهرة حتى صار من المؤكد لدى الراي العام العالمي والكثير من التوجهات الوطنية والمحلية ان تونس وقفت بثورتها تلك في بهو الديمقراطية احبينا ام كرهنا حتى اصبح لا حل لها الا الدخول الفوري في قلب الديمقراطية والتي تتطلب ايجاد اغلبية من الشعب واعية ومحبة لوطنها وحرصة على تقدمه وحتى اربط الاحداث ببعضها. لقد قدمت اجيال كثيرة من الشعب التونسي ثمن تأخر تطبيق الديمقراطية المطلوب وربما المقصود واليوم اعتقد ان ذلك اليوم المشهود والموعود والمتنظر والذي تمت برمجته من طرف بورقيبه اذا فرضنا ان ذلك كان كذلك قد جاء وان الشعب التونسي يفترض انه نضج وترشّد كما تكهّن بذلك المرحوم زعيم الجهاد من اجل الاستقلال التام وما يجري اليوم كل ما يجري اليوم هي اخر رقصات الديك المذبوح لما رسب فينا من الدكتاتورية والحكم الفردي وان

اندسّ تحت الكثير من العناوين كالمصلحة والتوافق والتالف والمؤتمرات التأسيسية او التعديليه كل تلك الاخراجات يتحتم عليها اليوم ان تنسحب وتترك المجال للديمقراطية الحقيقية وكل هذا الشاطح الباطح الذي نراه ونسمعه اليوم من هذه الجهة او من الجهة الاخرى هي اخر انفاس الدكتاتوريه ولن يبقى في الواد الا حجره قليلا من الصبر قريبا يفاجؤنا ذكاء الشعب التونسي لنرى كيف سيتحول بنفسه ليزيح كل المعيقات التي نشاهدها اليوم بكبرها وصغيرها وظاهرها وباطنها وكاذبها وصادقها سواء صدر ذلك عن بعض من هم في الحكم او خارجه هذه اخر رقصه لا تستحق لا تدخل الجيش ولا الشرطة ولا ثورة اخرى كل قوى المجتمع المدني سوف تلتقي على منهاج الديمقراطية وستقع عمليات التنقية وفرز السمين من الغث بصورة تلقائية لكنها عسيرة وكما يقول المثل التونسي يوم تصبح ستعرف امهاتها اصبروا قليلا وتفرجوا كيف سيتحول الان وهنا بعقريه هذا الشعب التونسي العظيم الذي يحذق ممارسة الديمقراطية بنفس القدر الذي يحذقها اهلها في الغرب من غير فتن ومن غير عنف وسيدخل في موكب الديمقراطية ويكذب كل من تاجر بها او اعترضها او عارضها او شك فيها او خاف منها او اراد ان يركب عليها كل هؤلاء سيندثرون ويتساقطون فردا فردا وجماعة جماعة ولن يبق الا الديمقراطيون الحقيقيون اما ما تبقى منهم فسوف يكونون قلة تدخل في خانة المتخلفين عن الركب ثم تذوب كما يذوب الثلج مع الحرارة وسيتصر كل من امن بالديمقراطية الحق وفهمها كما ينبغي واستحقها استحقاقا لا ريب فيه هذا تنبؤي وهذه قناعاتي وهذه قراءتي للوضع العام والخاص فالديمقراطية لها اهلها ورجالها وحارسوها ولها اجالها ومواقيتها وبوادرها وهناك كذلك تراتيبها ومقتضياتها وربما شروطها وطقوسها وبوادرها وانتصاراتها ظاهرة الان ومكشوفة لدى من يعرف الديمقراطية معرفة جيدة واليوم انتصار المد الديمقراطي حتمي لا مناص منه ولن يبقى في البلاد التونسية الا من فهم الديمقراطية وسيستفيع بها كل من يستحقها وينتصر لها ويعتبرها اولوية مطلقة ان للديمقراطية اهلها وموعدها واوانها

ابقوا متفائلين مثلي واستعدوا للمساهمة في عرس الديمقراطية الحقيقية واعطوا صناديق الاقتراع حقها وقبل ذلك احرصوا على مزيد ديمقطة القانون الانتخابي وذلك بمزيد عقلنته يكفي ما عانينا من ولايات من هذا القبيل هنا تكمن مسؤوليتنا التاريخية فاما ان ننجح في

تحويل المسار السياسي بسلاسة وواقعية وتعقل أو أن نزيد الطين بلة وبذلك نقضي على طموحاتنا
 فالثورية وحدها لا تكفي وقد جربنا ذلك مع الاسف ولم نفلح لمدة تسع سنوات متتالية
 لذلك يجب توخي الحذر والحكمة والذكاء والاستئناس بالخبرات والتعقل والاجرائية والقطع
 مع عزوف الشباب عن المشاركة في معظم المحطات الانتخابية استجابة لامتعاضهم من اغلب
 السياسيين نتيجة اتهمهم براءة ادائهم فالحديث عن الاعتصامات في هذا الظرف بالذات مجازفة
 غير محسوبة بكل المقاييس لأن نجاح الاعتصام في مستوى النتائج سيكون محدودا جدا والكثير من
 المترشحين للقيادات رغم نزاهتهم ليس لهم بدائل مقنعة ولا برامج واضحة تنهاى مع الدستور
 الحالي بالمنطق الديمقراطي كما أننا نشتم من بعض التصريحات خفايا معركة الزعامات وهذا أمر
 خطير جدا لانه يبنىء باندلاع صراعات وربما فتن يقودها أناس أغلبهم تنقصهم التجربة النضالية
 الحقيقية والحنكة السياسية والسند القانوني وشرعية المرجعيات وفي مثل هذه الحركات ينبغي
 الاعتماد على تخطيط محكم واختيار الظرف المناسب وتجنب مظاهر الانقلاب وخرق التراتيب
 القانونية وأشياء أخرى كثيرة إذ لا تكفي الفناعات ولا الحماس ولا حتى الحاجة الملحة للتغيير
 لان التسرع الغير مجدي والغير المحسوب يضحج المشروع من الأساس لذلك يجب التقيد بضرورة
 عدم إدخال البلاد في حالات الفوضى في هذا الظرف بالذات الذي يمر فيه شعبنا باعسر فترات
 حياته ويعاني من العديد من المشاكل المتراكمة ومنها نوع من التسبب الغير مسبوق ومنها ما يشرع
 لبعض الشرائع التطبيع مع الجريمة والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي واعتناق مسار الفساد
 بأنواعه ما تسبب لعامة الشعب في الفاقة وانعدام الأفق الاقتصادي وفقدان الثقة في النفس وفي
 الآخرين واعتقد أن أول ما يجب أن نقوم به هو ترميم ما انهار بفعل فاعل وارجاع مكانة العدالة
 ومحاربة الفساد المتفشى والضغط من أجل تحقيق كل ذلك و قبل التفكير في تغيير النظام ينبغي
 تفعيل القوانين الحالية وارساء ما تبقى من المؤسسات الدستورية ومقاومة الفساد بأنواعه المتعددة
 السياسي والاجتماعي والاقتصادي وإعادة الاعتبار للعدالة بعزل المتأمرين على أمننا وسلامة
 اقتصادنا والمبادرة بضخ بعد الفصول القانونية الرادعة وتفعيلها دون تردد ولا شفقة ولا محاباة
 هذا ما ينبغي الشروع فيه الآن وكل تأخير أو سهو أو تحاذل سيؤدي بالبلاد والعباد إلى ما لا يحمد
 عقباه واعتقد أن لمؤسسة رئاسة الجمهورية في المطلق وبعض التوجهات التي تؤثر في ملامح

الحكومات والتي تتصل بالاساس بمفهوم العقيدة بالمعنى السياسي والذي اصطلح عليه باختزال العقيدة عند مؤسسة الدفاع الوطني وقلب الكيان الامني التونسي ما يمكننا بشيء من التعمق والتوافق والحزم من ارساء نمط سياسي سليم تتعامل به من اجل اليات جديدة لخارطة طريق اكثر وضوحا وشفافية وحزما ونجاعة كذلك ومن الحلول الممكنة كذلك أن يتولى ممثلوا المجتمع المدني ومثقفونا عدم الاكتفاء بالتشهير بالتخلف بل تقديم تطبيقات عملية ونماذج حلول لكل هذه المازق المتتالية التي تمر منها البلاد طيلة السنوات التسع التي عقبته اندلاع ثورة الكرامة حتى تصبح عن جدارة ربيعا عربيا حقيقيا تهيء لتحضر فعلي يحول نمط عيشنا تحولات جذريا من أجل بعث انسان عربي جديد متحضر يجنبنا نمطية التحضر الثوري الناقد للدين او المتعصب له بل ينبغي ان نفهم الدين على انه مجموعة سلوكيات ناتجة عن قناعات ثابتة لا عبثية فيها تفر بوجود خالق واحد ولا تتدخل في قناعات الآخرين بما فيهم من خالفها وتقبل العمل مع الآخرين وهذا التمشي يتوافق في الكنه مع لب الدين الاسلامي الحنيف ذلك الدين المتفتح الذي اتي في القران والسنة النبوية الخالية من التاويلات والتشديد والتطرف باعتباره منهجا لاصلاح التصرف البشري وترميم منظومة الاخلاق الإنسانية وهذا يتطلب الخروج بالدين الإسلامي من القوالب الموروثة القائمة والمتناقضة إلى ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ويعتمد العلوم ويوظف التكنولوجيا ويتعامل مع البحوث العلمية ويشجع الاكتشافات ويعيد الق العقل المتصالح مع الاخلاق الفاضلة التي نحن في أشد الحاجة اليها في ايام العسر والجوائح كالتي يمر بها العالم اليوم وبالاخص هذا البلد الامين الذي يزرع تحت كل كل وباء الكورونا في هذه الفترة الحرجة التي وضعت القيم في الصدارة واصبحنا في أشد الحاجة لاولوية لا يمكن أن يقوى على تحقيقها رجل دين او سياسة او اقتصاد بمواصفاتهم الحالية لقد أصبح الشأن أكبر من الجميع يحتاج بالضرورة لطواقم فيها كل الاختصاصات شرط أن يكون كلاً منهم على درجة عالية من العلم في اختصاصه.

لقد فرضت الكورونه ضرورة مراجعة العديد من مفاهيم الحكم السائدة محلية كانت او مستوردة مقتبسة او مجددة معدلة او محينة وفرضت على الجميع اعادة النظر فيها جزئيا او كليا بل حتمت ترتيب الرؤى الفكرية من جديد واستوجبت مراجعة العديد من التمثيلات والتتمشيات

ووضعت الذائقة الاخلاقية والقيمية في الواجهة وفرضت اولويات اخرى واستوجبت اعادة النظر في العديد من القوانين والترتيبات وفي مقدمتها التراتيب المدنية وحتى الفقهية فالشأن الديني وحتى ما كان محصنا لالقدسسية لم يعد مهمة حصرية على اهل الذكر فقد انهارت مع الكورونا ما كان يعتبر حكرا على ما اصطلح على تسميتهم رجال الدين بمجرد تداخلت فيه بالحاجة الملحة الكثير من العناصر لمجموعة من الاختصاصات الاخرى والتي فرضت نفسها لمساعدة والتدخل واسناد من كنا نسلمهم رجال الدين من اجل جرهم لفهم وتوضيح الظواهر الواردة في القران والسنة والمذاهب ومختلف الاجتهادات الفقهية والشرعية بطرق اخرى واليات مختلفة عن الانماط السائدة لذلك اقترح وجوب تعزيز طواقم ما كانوا يسمونهم بالفقهاء ورجال الدين بمختصين في العلوم واللغة لاعادة النظر في العديد من القضايا باليات اخرى تختلف عما كان معمولاً به من قبل سواء في مستوى اساليب طرح القضايا او مقاربات التحليل وكذلك على مستوى القائمين بالبحوث والمعالجات كوجوب اشراك اهل الاختصاص في كل الميادين الحياتية المتصلة بمختلف العلوم الانسانية واللغوية والتقنية برؤى جديدة ومتطورة تعيد النظر في ما كان يسمى بالمسلمات او الموروثات او المكتسبات بدأ بعادة تفسير القران والسنة ومختلف المراجع السابقة ذات البعد الديني او الفقهي او الشرعي او اي باب مما يتصل بعلوم الدين التي ينبغي ان تتعزز بكل الاختصاصات العلمية الاخرى لعلنا نجد رؤى وحلول اكثر نجاعة للعديد من الاشكاليات ومنها على سبيل الذكر لا الحصر مسألة علاقة الدين بالشأن العام أو بالسياسة او باي شان اخر لعل هذه المراجعات تساهم في فهم الدين فهما اكثر موضوعية واجرائية وربما يساهم مثل هذا التمشي في فهم الدين فهما اشمل وربما ادق لعلنا نجد حلاولا اكثر نجاعة ووظيفية في خضم ما نلاحظه الان من تخلف عالمي عام وشامل تمثل أساسا في عجز منظومات العيش على مواكبة بعض الظواهر والطوارئ الطبيعية والاعتراف الصريح بعدم جاهزيتنا للتصدي للكوارث المهددة باندثار البشر ودمار حضارته بسبب محدودية قدرات ما يسمى بالتحضر والتمدن والذكاء البشري والصناعي على حد السواء وقد تساوى في زمن الكورونا ما كان يسمى تخلف العالم الثالث والشعوب المتخلفة والبلدان المصنفة بكونها في طريق النمو ومن بينها بعض البلدان العربية من جهة والتي تعتبر نامية ولكن تخلفها الذهني والتكنولوجي لا يسمحان لها بأن تكون في الصدارة وعلى تشكيلتها ما كان يعرف بالدول النامية او المتحضرة او الصناعية او أي

اسم اخر والتي برز عجز انماطها الفكرية والعلمية والتكنولوجية وحتى اللوجستية عن مواكبة نسق فرضيات التطور الذي املته الضروف والملايسات التي فرضها انتشار هذا الوباء على الكون بنفس النسق ونفس الحدة ونفس الحاجة كذلك

كل هذه الأنظمة بلا استثناء ثبت عجزها على التوقي من هذا الوباء الذي سوى بين الفقير والغني والمتقدم والمتخلف والصغير والكبير والمتحضر والجاهل والمرأة والرجل والبعيد والقريب والمريض والمتعافي ووضع في الصدارة بعض القيم الأخلاقية الثابتة والتي برزت صلاحياتها بالتعاون والتآزر والتحابب والغيرية والتكافل والتضامن كما ثبتت نجاعة القيم الاخلاقية وقيمة الخلق وقدرة الخالق وحتمية الإيمان به بطريقة أخرى تختلف عن كل تلك العبادات العمياء وذلك التدين المتزمت أو المغلق أو المرعب أو المرهب و كل تلك القيم المتطرفة سقطت في سلة المهملات وثبت فسادها بنفس الدرجة الذي ثبت بها فساد التهور والاستهتار والتفسخ والاحاد وبدا عصر ما بعد الكرونه يدعو لإرساء قيمه الجديدة وفرض البحث عنها وارساءها على أسس ثابتة من طرف الجميع وانهار ما كان يحسب على التقدم العلمي والتكنولوجي وما توخته السياسات في ما يسمى بالبلدان المتحضرة أو النامية أو العظمى غربية أو شرقية عربية أو غير عربية إسلامية أو غير إسلامية وثبتت الحاجة الى التسليم بوجود من هو اقوى واعلم منا جميعا وفرضت الالوهية *نفسها على الاعلب الاعم من الناس كما ثبت في الاثناء ان الكثير من تعاليم الاسلام نزيهة بل ومجدية سواء على مستوى العقيدة او المعاملات وليس اي اسلام بل ليس حتى اسلامنا الموروث والذي يطمح أن يسير حال الناس بالانغلاق والتزمت الذي يصل لحد الإرهاب كل هذه التعاليم والمعتقدات زهقت كما زهق كل باطل فما الحل الحل أن يتولى مثقفونا لا التشهير بالتخلف بل تقديم تطبيقات عملية لنماذج تحضر فعلي يحول نمط عيشنا تحويلا جذريا من أجل بعث انسان جديد متحضر وتجنب نمطية مفهوم المتحضر النائر أو الناقد للدين بل فهم الدين فيها أكثر تفتحا واقرب دين لهذا المنطق الجديد هو الدين الإسلامي الاصلي الذي اتي في القران والسنة النبوية الخالية من التاويلات والتشديد والتطرف واعتبارها منهجا لاصلاح التصرف البشري وترميم منظومة الاخلاق الإنسانية التي تتطلب الخروج بالدين الإسلامي من القوالب الموروث القائمة والمتناقضة احيانا إلى ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ويعتمد

العلوم ويوظف التكنولوجيا ويتعامل مع البحوث العلمية ويشجع الاكتشافات ويبعد القى انتشاء الكائن الحي لخالق قادر وقدير خالق لا يحتاج للمعتدة ولا للثار ولا للقتل من اجله خالق يخشاه العلماء بالفهوم الوارد في الاسلام

انها يمحشى الله من عباده العلماء

عندها يمكن للدين ان يقدم اخلاقا تلهم الدستور البشري وتقربه من واقع الانسان الحقيقي لا الانسان الافتراضي الذي ضلت البشرية تعيش على وقعه لحد اليوم بتزكية ضمنية من فئة يمكن ان نعت اغلب اصحابها والفاعلين فيها بالمغفلين والمغفلون هم من يعيش العظماء بينهم وينسحبون دون أن يستفيدوا منهم بالقدر المطلوب لا الممكن وهذا الاعتبار يمكن لجائحة الكورونا ان تساهم في تنقية الاسلام من شوائب التخونج وتوصي بالصبر الجميل وتعلم الناس النظافة وتبشر بالأخلاق الحميدة المبنية على التآزر والتحابب والغيرية كما يمكن لها ان تفتح بصيرتنا على صباح جديد مشرق بالامل صباح يبدأ بحمد الله على عافيته وشكر الرحمان على لطفه بنا والإقرار بافضاله علينا ونحن نجتاز بسلام كل مرة عتبات الأربعة عشر يوما العديدة والمتوالية درجة درجة ونحن احياء معافين نتمتع بنعمة اسعافنا المرة تلو المرة في زمن خطير عصي. قل فيه الأمن والأمان في الأقطار والامصار غنيها وفقيرها قويها وضعيفها قريبها وبعيدها حمانا وحماكم الله وحفظ اهلنا وذوينا وبلادنا والناس أجمعين من بلاء هذا الوباء والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين ولنواصل في اتباع اساليب التوقي الموقفة بفضل عزمنا وصبرنا وثقتنا في خالقنا أنه ولي التوفيق ونعيش العديد من الإجراءات الإيجابية من انتاج ذلك الذكاء التونسي الذي نعول عليه ونثق فيه ونحن نردد نشيد الامل والثقة في خالق عالم وعليم أرسى خلقه على العلم ورتبه بقواعد وقوانين بالقس**ط وارسى كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة وقن العلاقات بين الناس بوشائج مكارم الاخلاق ولم يدرج في دينه الشعوذة ولا التناحر ونبه من الفتن وحرم الفساد واهدى للبشرية ديننا سمحا

وهذا الفكر الاخلاق تسميه في بلادنا الذكاء التونسي الذي يقابله الغباء المطلق والغباء المطلق ليس تونسيا بل مستورد عادة من تيارات وافكار وتوجهات من خارج تونس لا تتبناها ما يهدد ذكاءنا التونسي ولا خوف على الانسان التونسي الذي يلتزم بتلك الوصايا في اطمأنان وبلا جزع

فالإنسان خلق جزوعاً والإسلام هو الذي ينزع عنه الجزع أي الخوف المفرط والمحبط لذلك لا بد من الانضباط مع الالتزام براحة البال والاطمئنان المتأتين من صحة الإيمان وصدقته وآخر دعوانا بعد حمد الله والصلاة على خاتم الأنبياء والرسل أن انضبط ولا تجزع وعلى الله فالبشركل المؤمنون والله هو الشافي والعافي ما دام القادم بيد الله فنحن دائماً في رعايته ولن نكون أرف ولا أرحم ولا أطف ولا أحرص على سلامتنا منه لذلك نحمده ونثق فيه ونعمل بتوصياته وننفذ أوامره وننهي النفس عما نهى سبحانه هو ولينا وحامينا ومنجينا به نستعين وعليه التكلّي وقد لاحظنا أن الكورونا تساهم أيضاً في تنقية الإسلام من شوائب التخونج وتوصي بالصبر الجميل وتعلم الناس النظافة وتبشر بالأخلاق الحميدة المبنية على التآزر والتحابب والغيرية لنحت ضمير جماعي سليم يعرف ويتنخب ويراقب ويغير ويقضي على الفساد والجريمة والتسيب بادوات حضارية تليق بتاريخ شعب تونس العظيم حفيد ابن رشد وابن رشيق وابن خلدون وبلقاسم الشابي وغيرهم وما يدعم سلامة توجهاتنا هو ما نسجله في خضمّ ما نلاحظه الآن من تحلّف عالميّ عامّ وشامل تمثّل أساساً في عجز منظومات العيش الحالية بما فيها ما كنا نسميها بالأنظمة المتقدمة على مواكبة بعض الطّواهر والطّوارئ الطّبيعيّة والاعتراف الصّريح بعدم جاهزيتها للتّصدّي للكوارث المهدّدة باندثار الجنس البشري ودمار حضارته بسبب محدوديّة قدرات ما يسمّى بالتّحضّر والتّمدّن والذكاء البشري والصّناعيّ على حدّ السّواء وقد تعادل في زمن الكورونا ما كان يسمّى تحلّف العالم الثّالث بشعوبه وبلدانه المصنّفة بكونها في طريق التّموّ ومن بينها بعض البلدان العربيّة بما فيها تلك التي تعتبر نامية ولكنّ تحلّفها الحضاريّ وتأخرها التّكنولوجيّ لا يسمحان لها بأن تكون في الصّدارة كبعض بلدان الخليج العربيّ وفي المقابل كذلك كلّ البلدان التي كانت تعتبر أكثر تحضّراً وتمدّناً وتقدّماً وجاهزيّة ومالا وغنى وجاها كلّ هذه الأنظمة على اختلاف وضعياتها وتناقضاتها بلا استثناء ثبت عجزها على التّوقّي من هذا الوباء الذي سوّى بين الفقير والغنيّ والمتقدّم والمتخلّف والصّغير والكبير والمتحضّر والجاهل والمرأة والرّجل والبعيد والقريب والمريض والمتعافي ووضع في الصّدارة بعض القيم الأخلاقيّة الثّابتة والتي برزت صلاحياتها كالّتعاون والتّآزر والتّحابب والغيريّة والتّكافل والتّضامن كما ثبتت نجاعة القيم الأخلاقيّة وقيمة الخلق المتّصلة بقدرة الخالق وبرزت حتمية الإيمان به بطريقة أخرى تختلف عن كلّ تلك العبادات العمياء وذلك التّدين الشّكليّ أو المترفّ أو المترمّت أو المغلق أو

المرعب أو المرهب و كل تلك القيم المتطرّفة سقطت في سلّة المهملات وثبت فسادها بنفس الدرجة التي ثبت بها فساد التّهوّر والاستهتار والتّفسّخ وحَتّى الالحاد.

وبدا عصر ما بعد الكورونا يدعو لإرساء قيم جديدة قديمة وفرض البحث عنها من خلال أولويات مستجدة وارساءها على أسس أكثر ثابته وفرضها على الجميع دون استثناء وانهار فجأة ما كان يحسب على التّقدّم العلمي والتّكنولوجيا وما توخّته السّياسات في ما يسمّى بالبلدان المتحضّرة أو النّامية أو العظمى غربيّة أو شرقيّة عربيّة أو غير عربيّة إسلاميّة أو غير إسلاميّة وثبتت إية الله الكبرى

* أن الدّين عند الله الاسلام * أي التّمعّن في قوانين الكون قبل التّسليم بها والاعتراف بضرورة استجلاء ما أمكن بتبصّر والعمل على تعميم الاستفادة بها وتقريبها من كافة الخلق وتدريبهم على العمل بمقتضياتها والاعتبار بها والعمل طبقاً لنواميسها لتحقيق خشية من نوع آخر لخصّها القرآن الكريم في قوله تعالى * انما يخشى الله من عباده العلماء * اذ لا ينبغي باي حال من الاحوال ان يبقى بين الدين اي دين صراع مع الحياة او المعيش

والدين الاسلامي لو فهم على حقيقته لادرك الناس انه هو الدين الوحيد الذي يجمع كل الاديان ويوحد بينها ولا اعني اي اسلام بل ليس حتى اسلامنا الموروث والذي يطمح أن يسير حال الناس بالانغلاق والتزمّت الذي يصل لحد الإرهاب

كل هذه التعاليم. والمعتقدات زهقت كما زهق كل باطل

ما الحل الحل أن يتولى مثقفونا لا التشهير بالتخلف بل تقديم تطبيقات عملية لنماذج تحضر فعلي يحول نمط عيشنا تحولات جذرية من أجل بعث انسان جديد متحضر وتجنب نمطية مفهوم المتحضر النائر أو الناقد للدين بل فهم الدين فهما أكثر تفتحا واقرب دين لهذا المنطق الجديد القديم هو الدين الإسلامي الاصلي الذي اتي في القرآن والسنة النبوية الخالية من التاويلات والتشديد والتطرف واعتبارها منهجا لاصلاح التصرف البشري وترميم منظومة الاخلاق الإنسانية التي تتطلب الخروج بالدين الإسلامي من القوالب الموروث القائمة والمتناقضة إلى ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ويعتمد العلوم ويوظف التكنولوجيا

ويتعامل مع البحوث العلمية ويشجع الاكتشافات ويعيد الق الحشية من الله العالم العليم الذي قن كل شيء ورتبه وسواه عباده بالروية وهداهم العقل والتفكر والتمحيص والبحث والتمعن والاكتشاف والاستنباط والحكمة والتبصر ومكنهم من التصرف والحراك والانجاز وحب لديهم مكارم الاخلاق والتعامل والتميز وفعل الاحساس لديهم ومكنهم من التجاوز والعفو والصفح والصبر والتعقل والتصرف من القوة الى الفعل وراوح لديهم بين القوة والضعف والسقم والتعافي والنجاح والافاق وحباهم بالقدرة على التأثير والتميز والتدبير والوفاق بين المتناقضات والمهمم التعامل والتاخر والتكاتف وتجاوز الشحناء وغير ذلك مما يسهل العيش ويصلح الامر وقد قدمت الكورونا اجل الدروس وفرضت ترتيب الرؤى الفكرية من جديد واستوجبت مراجعة العديد من التمثلات والتمشيات ووضعت الذائفة الاخلاقية والقيمة في الواجهة لا بد من اعادة النظر في العديد من التراتيب وفي مقدمتها التراتيب الفقهية فالشأن الديني لم يعد مهمة حصرية لما كان يسمى برجال الدين بل تتداخل فيه الكثير من العناصر لمجموعة من الاختصاصات الاخرى التي يفترض ان تساعد رجال الدين لفهم وتوضيح الظواهر الواردة في القرآن والسنة والمذاهب ومختلف الاجتهادات الفقهية والشرعية لذلك اقترح على وزارة الشؤون الدينية الافراد بتعزيز طواقم ما كانوا يسمونهم بالفقهاء ورجال الدين بمختصين في العلوم واللغة لاعادة تفسير القرآن والسنة ومختلف المراجع السابقة ذات البعد الديني او الفقهي او الشرعي او اي باب مما يتصل بعلوم الدين التي ينبغي ان تتعزز بكل الاختصاصات العلمية الاخرى لعلنا نجد رؤى وحلول اخرى للعديد من الاشكاليات ومنها على سبيل الذكر لا الحصر مسألة علاقة الدين بالشأن العام أو بالسياسة أو بآي شأن اخر لعل هذه المراجعات تساهم في فهم الدين فهما اكثر موضوعية واجرائية وربما يساهم مثل هذا التمشي في فهم الدين فهما اشمل وربما ادق دون أن نحدد ملامحه وتبعاته والذي يلخص موروثا زاخرا بالحراك الاجتماعي والأحداث والتفاعلات الظاهرة والخفية والسياقات الزمنية المرتبطة بالتنشآت والطباع والصورورة والتفاعلات المترية عن ذلك كله من أجل بعث انسان عربي آخر يبدأ من قرطاج يكون أكثر تكاملا مع بيئته ودينه وارثه وأكثر تصالحا مع نفسه واكثر انسجاما مع مستقبله وافر حظا في الازدهار المنشود وربما باوفر ايجابية وأسلم طمأنينة تتحلل فيها ما كان بورقيبه يسميه فرحة الحياة التي تهيم بدورها استحقاقات الخلود الموعود في جنة النعيم فالإنسان العربي في ازمنتنا الفارطة والحالية تعيس في

دنياه تعاسة لم تمكّنه بعد من الاطمئنان على مصيره بعد الموت لما يعانیه من تذبذب وانشطارية وتناقض وحيرة

لاحظت أنّ الكثير من المبادرات التي يتمّ فيها إحياء ذكرى عظمائنا تساهم في موتهم من جديد وأشهر تلك المناسبات ذلك الحفل الذي أقيم في توزر في الثمانينات لإحياء ذكرى وفاة المغفور له الشاعر أبي القاسم الشابي والذي غنّت فيه إحدى الفنّانات قصيدة * عش بالشّعور وللشّعور * وهي تضمن أنّ الشاعر يتحدّث عن كثافة شعرها الطويل المسدل حيناً على كتفها وحيناً على صدرها أو ظهرها أو ما وقع في بنزرت بمناسبة إحياء ذكرى وفاة عمّ خميس الترنان الذي عمد المحاضر إلى استحضار حياته الشخصيّة انطلاقاً من زيارة قام بها للمرحوم والأمثلة من هذا القبيل أو ذاك كثيرة ومتكرّرة في الزمان والمكان والمطلوب في الأصل تفادي هذه الظاهرة الخطيرة من خلال إبراز قيمة المحتفى بذكرى وفاته لجعله محط الرحال ومركز الاهتمام ومحور أغلب المداخلات وبذلك نقطع مع ما تواتر في مثل هذه التظاهرات ونرجع الأمور إلى نصابها سواء من حيث التنوّع أو الوظيفية أو النجاعة

وقال متدخل آخر

- سيدي القاضي الموقر من المؤكد انكم تفتنتم إلى غياب العنصر الثقافيّ في الحياة العامّة في تونس ولاحظتم تقلّص دوره تقلّصاً يندر بالخطر ويلزم هذه الشريحة قبل غيرها أن تتدارك الأمر قبل فوات الأوان وأعني استقالة المثقّفين وأصحاب الرأى بما فيهم الصحفيين من معترك الحياة العامّة وبالأخصّ منها الحياة السياسيّة التي استغلّت هذه الاستقالة للتفرد بالقرار رغم افتقارها في الأغلب الأعم إلى أسلحة التروّي وأدوات التعمّق ومقومات الاستشراف والقدرة على التّصوّر والاستنباط والخلق والإبداع التي تبقى حكرها على المثقّفين وأهل الرأى والدّوق والإحساس المهرف والخبرة المصقولة والرأى الثاقب وقراءة الأحداث بعقو والقدرة على التحليل والتركيب والاستشراف وللاستدلال على ذلك فإنّ غياب شريحة رجال الفكر والثّقافة والرأى والمحلّلين هو من أهم الأسباب التي كرّست ضحالة كلّ برامج العمل السياسيّ وحدّت من نجاعة أيّ مشروع اجتماعيّ وقلّصت من المردود الاقتصادي من الثّورة إلى الآن وحتى في آخر مراحل ما كان يسمّى بالتّحول المبارك على أهله فحسب بالمقارنة لما تحقّق بعد الاستقلال.

لذلك أدعو كلَّ المؤسَّسات الثَّقافيَّة والإعلامية اليوم أن تحاول استدراك الأمر من خلال مزيد تكثيف مساهماتها الفعَّالة واستحثاث أهل الفكر على المشاركة الفعلية في الانخراط قلبا وقلبا في مشروع تنمية بلادنا وإلزام السِّياسيِّين بوجود الاستتجاد بالمتقِّفين والأدباء والفلاسفة وأصحاب الذَّوق والثَّوق وأهل الرأْي للمشاركة في استرجاع مكانة هذه الشرائح الهامة أسوة بما تميَّز به أغلب مثقِّفينا عبر العصور وعلى رأسهم أبو القاسم الشَّابي الَّذي كان حاضرا في كلِّ محطَّات بناء نهضتنا من الاستقلال إلى اليوم فقد طبع حياتنا العامة وحَتَّى حياتنا الخاصَّة بفرض آرائه على كلِّ الفاعلين السِّياسيين والاقتصاديِّين ليصبح للجميع مرجع الاستشارة ومصدر الحماس ونحن في ما نحن فيه من انتكاسة وترد شامل ومدمر ادعوكم يا اصحاب الكلمة النافذة يا معشر المثقِّفين من أدباء وفنانين وكتاب وصحافيين من كل الشرائح الأدبية والفنية والصحافية إلى عدم الاستسلام والاستقالة من الحياة الاجتماعية والسياسية راجيا منكم بالخاص شديد أن تساهموا مساهمة فعلية في إنقاذ بلادنا من الانهيار الاجتماعي والاقتصادي والقيمي الَّذي أرادت فيه والتكن هذه المناسبة انطلاق عزم المثقِّفات والمثقِّفين على استرجاع دورهم الرِّيادي في ازدهار تونس وإخراجها ممَّا تردَّت إليه من ضحالة وخصاصة وفقر مادي وفكري ولتتخذ أبا القاسم الشَّابي مثالا في نضاله وحرصه الدائم على نهضة تونس وسؤدها حيًّا وميتًا وذلك من خلال فرض حضور كلمته النافذة على كلِّ الفاعلين السِّياسيين وغير السِّياسيين ودعوة عامة الشعب الى محبة تونس والاخلاص لها وفرض احترام الادب ورجال الفكر والقلم من طرف الجميع بلا استثناء وعبر كل الحقب الزمنية والنفرض عزمنا الراسخ على افتكاك المشعل من كل يد مرتعشة او فكر متحجّر او عقل محدود واسترجاع الدور الحقيقي لأهل الفكر الخلاق والثقافة الواسعة من اجل فرض انخراطهم في التنمية الحقيقية المبنية على الراي المبدع والاستنباط الذكي والرجوع لعصر إيلاء المادة الشخمة ما تستحقه من تقدير ولنا في ذلك أمثلة كثيرة يتدخل فيها الادب في التنمية او للحث على إنجاز الكثير من المشاريع فلو لا بيت الشعر الَّذي قيل في الجسر المتحرك لبزرت لاستحثاث المسؤولين لاتمامه ما كان أن يتم في ابانه ولولا التزام المربين بالتشبث بكنه ثقافتهم ما اكتسب التعليم التونسي تلك الشهرة ولولا المسعدي ما كان السد وتأثيره على قيمة الفعل عند الإنسان التونسي ولو لا ابن خلدون ما كانت تحضى بلادنا بالقيمة العلمية التي تحضى بها اليوم ولو لا الطاهر الحداد لتأخرنا في تحرير المرأة ولو لا خميس الترنا لما ازدهر فن الموشحات ولولا صليحه لما كان للفن التونسي

مرجعية تذكر وتشكر ولو لا محبوب بن ميلاد لما بادرنا بتحريك السواكن ولو لم يكن بورقية يقدر الشعراء ما كنا نسبح او نتعرف على احمد اللغاني ولما كتب بن جدو بني وطني لتنتصر بنزرت ولو لا الطاهر والفاضل بن عاشور لما قيل في اكبر مؤتمرات مصر * كاد المؤتمر أن يكون عاشوريا * والأمثلة على ارتباط الفكر بالتنمية كثيرة ومثيرة.

توقف الراوي قليلا ثم واصب

- والمتقف الحق لا يعني المتعلم او القاري بلغتنا الدارجة أو العالم أو الباحث أو الفنان أو الفيلسوف أو المؤرخ أو المخترع أو المكشف او حتى العبقرى بل يعني ذلك الذي ترتقي به ثقافته إلى مرتبة المتمدن بالمعنى الخلدوني ونعني بالمتمدن الإنسان المحصن المضمن المرقى من العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية والتي لا تستثني أحدا ولا تفرق بين درجات اكتساب المعرفة والعلم ومن أهم هذه الآفات وأخطرها على الوطن بالاحص التخلّف والتزمت والهنجعية والتطرف والعصية والتخونج المنهجي كل هذه العاهات تصيب الجاهل والمتعلم والوضع ونقيذه والفنان وعديم الاحساس والجاهل والعارف ولا تفرق بين الغني والفقير والحقير والوجيه والصغير والكبير والمرأة والرجل والابيض والاسود والاحمر والاصفر لذلك لا تستغرب أن ترى أستاذا متمزتا أو طبيبا متعصبا أو محام متخونجا أو فنانا جاهلا أو كاتبا ركيكا أو بديئا أو عرييدا فإن تحول أحد هؤلاء أو حتى من تشبه باحدهم الى سياسي فلا تأمل خيرا او تنتظر فرجا

ومثل هذه الآفات لها القدرة على التحالف مع بعضها البعض في الكائن الواحد مثنى وثلاثى ورباعى وحتى أكثر من ذلك ورغم تشعبها وتنوعها وقدرتها على الانتشار وحتى العدوى ورغم حدة تمكنها بالطبع والغريزة وحتى بالفكر والسلوك وسهولة التسرب فإنها لا تصيب اطلاقا المثقف المتمدن اي الراسخ في تمدنه وحبه لوطنه أرضا واهلا وتاريخا فهو الوحيد المحصن من كل هذه النقائص وتبقى الوصفة السحرية الوحيدة التي تميز هذا المتمدن هي تلك الثقافة المدنية الحقيقية

وكل مثقف لم تمدنه ثقافته لا يحقّ تسميته بالمثقف أصلا لأن الثقافة التي لا تمكن صاحبها من نفع محيطه المدني والتأثير فيه بالايجاب هي مجرد شبهة ثقافية لم تكتمل بعد عناصرها تماما كالشجرة

التي لا تثمر

ونحن اليوم في اشد الحاجة الى مثقفين متمدنين لهم القدرة على الانشاء والارتقاء بوطنهم
واهلهم إلى السؤدد والبناء والترشد الذاتي والجماعي وفي نفس الوقت لهم القدرة على اخراج
الانسان التونسي والعربي المسلم من أزمة الرداءة التي تردينا فيها جميعا بلا استثناء

الفصل الثاني والأربعون

قال الراوى

- أكمل طاقم المحكمة اخر أشغال اليوم وغادر رئيس المحكمة وأعضاده قاعة الجلسات وانتظر العملة المشرفون على الفضاء خروج اخر رواد المحكمة من المدعويين والزوار للشروع في تنظيف وترتيب الفضاء وتهيئته للحصة المقبلة مبتدئين بغلق الابواب والنوافذ وطوق الاضاءة المستديرة والمربعة والمثلثة واسدال كل الستائر وتقييم الفضاءات والأثاث والترتيب للجلسات المقبلة بعد اعادة بسط الأفرشة وتفريش الأغطية والحصائر وازالة ما رسب أو علق أو ترك أو ألقى أو ما تناساه بعض الزائرين والزائرات وبعد اطفاء الأضواء شرع العمال في الخروج من المكان فرادى وجماعات عدا الحارس الليلي الذي اغتنم فرص تفرده بالمكان ليشرع في تجربة الالتقاء بصدى صوته على انفراد وربما أراد أن ينتقم لنفسه من ركام السكوت المفروض عليه فرضا طيلة اليوم المخصص للاستماع الى تعاليق الناس وارائهم ومراغات بعضهم في استعراضات متتالية تقطول وتقتصر بحسب أمزجة المتدخلين وطبيعة الأغراض التي يتناولها كل متدخل على حدة

صاح الحارس الليلي بأعلى صوته

- لم يعد للفظ معنى او بيان كلماتي هذيان

رد الصدى

— انانانانانانانانانانانان

واصل صوت الحارس اللعب مع صدها قال

- کلماتی فی المدى زیف و تدجیل فضیع

رد الصّدي

— ايسع ايسع ايسع ايسع

واصل صوت الحارس اللعب مع صده

- لم يعد في الصدر حلم او ربيع

رد الصّدى

— ايسع ايسع ايسع ايسع

واصل صوت الحارس اللعب مع صدهاء قال

- انا مزقت الجرائد والكتب

- اب اب اب اب اب

- والمناشير الكثير والبلاغات المثيرة وقطعت الكهرباء عن كل - تلفاز ومذياع واخبار تحدثني

بلغو عربي

– یسین یسین یسین

- بشع الاعلام محدود الصراحه

- احه احه

- قد اجاد العزف عن حرف منقط او مضعّف او رموز مشبّعات - او مشالہ

— اله اله اله

- كل حرف عربي معرب بالرفع والنصب تكسر

- سرررررررررررر

- او تسنیر

- سرور رورورورور

- بعد مسح الكلمات

- مات مات مات مات مات
 - واللوائح والقرارات الخطيره
 - طيسيره
 - والفصول الناعمات
 - مات مات مات
 - كحديث السيدات
 - ات ات ات
 - والبلاغات التي تجتر اقوالا قديمه
 - ديم ديم
 - والتي تبدا في قلب الحقائق باسم رب العالمين والصلاة والسلام عن محمد سيد الخلق
 - الامين عن رسول الله طه والتي لا تتورع عندما تاتي بايات كريمه لتصوغ الكذبة الكبرى على
 - مرأى ومسمع من جميع الناس حتى المسلمين
 - ايسيين
 - انا احرق المناجد والقواميس القديمه
 - ايسيا
 - والجديده بعد مسخ الكلمات
 - مات مات مات مات مات
 - فالشهامة والكرامه والاصاله والشجاعه والمروءه منطلق الاعراب زيفها فصارت في منابر
- خنوع

- خنووووووع

- ونذاله

— اَللّٰهُمَّ

- وبشاعه

- شالالالالالاله

- و تخاذل

– ذل

- وریاء

- ریاضیات

- اصبح الحرف بقاموس العرب

- ایسیب

- کبقایا من عظام لکلاب جائعه



- من اتته الحكمة في دار العروبه

[illegible]

- لم يعطش ولم يعرف جوعاً من اتته الحكمة في دار العروبة

[illegible]

— يتجبر

- بربربربربربر

- يتفرعن يتنبأ يتعزراً يتأله
- له له له له له
- ينكح التاريخ سرا وجهارا
- هــارــ
- فاذا انجب طفلا قيصري الصنع والخلق يتيم الابوين
- ويــين
- كان ذاك الطفل طبق الاصل من نسج غريب
- ريــيب
- لولي او وصي عن اب مات وام لم تلد مولودها قط ولم تحبل به قطعا ولكن انجبت بالنسب
المفروض طفلا بكساء خارجي اجنبي اربى الانحراف
- رــاف
- امريكي الانجراف
- رــاف
- وخيوط من جيون
- بوووووووون
- وبه زر من الصين الجديدة
- ايــيده
- لونه الاحمر روسي النصاع
- عــاع

- برداء جاء من قلب اربا أو تربى في تخوم بالققاز

_____ ;||||| -

- ولذا بقي الطفل نشاز

_____ ;||||| -

- كل من يولد في بهو العروبه هو مزيج عالمي ومثال للفتح والاصاله والتقاليد العريقه وهو بالتالي مثال لقضايانا العتيقه اعلن الصمت الطورائ قبل ان يبعث دوله مستقله فوق اشلاء الحروف المستعاره

- عاااااره

- بعد شق الكلمات

- ما انا ات

- بعد اعدام التراكيب الجديدة بعد قتل الصيغ الحبلى باجناد العروبه غير ان الشعر يابى ان يكون الحبل فى الشق المخيف وهو يابى ان يكون السيل فى واد النزيف وهو يابى ان يكون السيف فى عنق الشعاع وهو يابى ان يكون الموت فى قلب الحياه الشعر فوق السيل فوق الحبل فوق السيف فوق الزيف فوق الموت فوق السوط وسيبقى الشعر صوتي يتصدى بقطع القيد ويمحو كل أوساخ المكان عاد للفظ البيان ما دام قولى فوق ما قال الزمان

الفصل الثالث والأربعون

قال الراوي

- استأنف القاضي الجلسة العلنية بتدخل أحد المحسوبين على الثقافة قال

- لاحظت أن الكثير من المبادرات التي يتم فيها إحياء ذكرى العظماء في هذا البلد تساهم في موتهم من جديد وأشهر تلك المناسبات ذلك الحفل الذي أقيم في توزر في الثمانينات لإحياء ذكرى وفاة المغفور له الشاعر أبي القاسم الشابي والذي غنت فيه إحدى الفئات قصيدة * عش بالشعور وللشعور * وهي تظن أن الشاعر يتحدث عن كثافة شعرها الطويل المسدل حيناً على كتفها وحيناً على صدرها أو ظهرها أو ما وقع في بنزرت بمناسبة إحياء ذكرى وفاة عم خميس الترنان الذي عمد المحاضر إلى استحضار حياته الشخصية انطلاقاً من زيارة قام بها للمرحوم والأمثلة من هذا القبيل أو ذاك كثيرة ومتكررة في الزمان والمكان والمطلوب في الأصل تفادي هذه الظاهرة الخطيرة من خلال إبراز قيمة المحتفى بذكرى وفاته لجعله محط الرحال ومركز الاهتمام ومحور أغلب المداخلات وبذلك تقطع مع ما تواتر في مثل هذه التظاهرات ونرجع الأمور إلى نصابها سواء من حيث التنوع أو الوظيفية أو النجاعة

وعقب متدخلة ثانية قالت

- سيدي القاضي نعيش أزمة محدودية النظام الاقتصادي العالمي الحالي الذي يبدو أنه استهلك أغلب مقوماته العلمية والتقنية التي تفتقر حالياً للعنصر الإبداعي الذي يوجد بغزارة لدى أهل الثقافة

يا من تتحمسون للدفاع عن الخطوط الحمراء ابدؤوا باهم خط احمر تمت استباحته جهاراً ولم يتحرك لكم ساكن هذا الشعب التونسي الذي استباحه اغلب حكامكم من خلال اجهاض ثورته بثورة مضادة استباحت كل مقوماته وخلقت لكم أولويات وهمية وأعداء افتراضيين يلهونكم عن الأهم فأصبح انهيار بلادنا وترديها إلى الإفلاس وجرها للفتن وتفجير شعبها وتعريضه للموت

يوميا أمرا عاديادى لديكم فما قيمة عبر موسى وهل قضاؤكم عليها سيسمن الشعب التونسي ويغنيه من الجوع والغلاء واستفحال الجريمة وانهار الاخلاق التي تردينا فيها يا من تدعون أنكم الأكثر كفاءة وتجربة ودهاء يا من انتصبتم في مقام علماؤنا و شيوخنا وقادتنا وقدمتم أنفسكم لنا في الانتخابات مدعين أنكم نخيتنا اتحدى من يثبت لي أن منكم من له برنامج يخلص البلاد والعباد من هذا التبار وهذا التردى وهذا الانهار المبرح والشامل

هاتوا برهانكن إن كتمت صادقين

يا من أحسست انك مثلي تنتمي لهذا الشعب الكريم المغرور به عبر عن مساندتك لي ولا مثالي وأمثالك من خلال تبنيك لإعادة نشرها على صفحتك لعلنا نستحث جلاديننا على الاقتناع باستفاقتنا فيوقفوا غيهم ويعدلوا من تصرفاتهم قبل فوأة الأوان على بلادنا و علينا وعليهم كذلك

بورقية رجل يختلف عن الرجل العادي فقد روى لي ابي قال

- حضرت معه كيف يجادل من كان يقبل بدكتاريتته ومن كان يرفض ذلك والغريب أنه كان يجد التفسير المناسب لكل منها فيعامل كل منهم بحسب قناعاته

ويضيف والدي قائلا

- سألته لماذا يفعل ذلك ضحك واحابني

- عندما تتفقه مثلي في العلوم السياسية. وتتعمق في تفقهك ستفهم المسألة

وواصلت المتدخلة قائلة

- ماذا ربح الدين الإسلامي من تدمير سوريا بدعوى اسلمتها خوفا من دكتاتورية بشار الأسد

أي قيم دينية هذه التي تستبدل ما كانت عليه سوريا من سيء وجميل بهذا الدمار يا من كنتم تبكون أمامنا على سوريا بشار وتجمعون شبابنا أمام المساجد وداخلها من أجل تحريضهم وتجنيدهم للجهاد في سوريا مدعين بأن الله بعثكم لانقاذها وسيثيبكم على صنيعكم يا من تحركتم

لنصرتها من قبل الان وبعد أن اتهمت مشروءكم بالطريقة التي ارتضيتموها الان وقد استوفيتم اغراضكم خبروني عن حال ضمائركم كيف هي اليوم بعد ما الحقتموه من دمار في سوريا

هل ما زلتם تنامون براحة بال وبأي وجه وضمير تدخلون للمساجد

وهل ما زلتם تجرؤون على الوقوف للصلاة أمام ربكم بنفس العقيدة ونفس الايمان ام هل دفتتم خزيكم وغيكم وفساد ضمائركم بتراب جهلكم ورماد صلفكم ام ما زلتم في كل ذلك إلى الأذهان

الفصل الرابع والأربعون

قال الراوي

- وفي خضم هذه السياقات المتحركة لا ينبغي لأي حراك شبابي أن يتحوّل إلى خراب فإذا تحوّل إلى عنف فسيحيد عن مساره ويفرغ من محتواه ولن يحقق أهداف الشّباب التونسي ويخشى أن تحوله بعض التوجهات والأيادي إلى أداة فتنه ولا أتصور أن الشعب التونسي في وضعه الحالي سوف يقبل بهذا الانحراف بل وأعتقد أن أغلبية الشباب التونسي سوف لا يقبل بهذا الانحراف المقصود والمنهج من طرف قوى مجهولة لا تنتمي للحراك الأصلي الذي برهن على غيرته على سلامة تونس وتحضر أهلها واستقلاليتهم عن كل توجه يدعو إلى الدمار وإشعال فتيل الفتنة بتهئية الأجواء المشحونة ودفع التظاهر إلى متهات غير محسوبة

وقد تمكن القاضي من اتاحة الفرصة من جديد لبعض الشباب المطالبين بضرورة تغيير التغيير ومكنهم من تدارس بعض المواضيع المتصلة بهذه الرغبة التاجمة عن الشعور بشيء من الاحباط اثر تقسيم حصيلة الثورة قال احدهم

- وفي مثل هذه الظروف يتحتم على قادة الحراك أن يمسكوا بزمام الأمور ليبرهنوا انهم اهل للقيادة وأنهم قادرون على التحكم في المبادرة والقائد الحق هو القادر على أن لا يفلت من يديه المقود بدعوى أن ذلك خارج عن نطاقه لأن المسؤولية لا تقبل التجزئة ولا تقبل الصدفة ولا المجازفة وكل انفلاة سيكون محسوبا على أصحاب المبادرة طال الزمان أو قصر

وقالت احدى الفتيات

- صدقت من انذر فقد اعدز والوطن ليس لعبة ولا مادة للتجربة

يكفي ما عانى من ويلات من هذا القبيل وانا اعتقد ان ميزة هذا الحراك الشبابي هو عزمه على إيقاف هذه المهازل لا أن يواصل فيها أو يحول مقود الوطن من من تلاعبوا به إلى أيادي جديدة من المتلاعبين

وقال ثالث

- هنا تكمن مسؤوليتنا التاريخية فاما ان ننجح في تحويل المسار السياسي بسلاسة وواقعية وتعقل أو أن نزيد الطين بلة و بذلك سنقضي على طموحاتنا الرامية انفاذ الدولة من الانهيار وقالت متدخلة رابعة

- الثورية وحدها لا تكفي وقد جربنا ذلك مع الاسف ولم نفلح لمدة تسع سنوات متتالية لذلك يجب توخي الحذر والحكمة والذكاء والاستئناس بالخبرة والتعقل والاجرائية وتدخل شاب خامس قال

- عزوف شبابنا عن المشاركة في معظم المحطات الانتخابية ليس تعبيراً عن عدم وطنيته بل تعبير عن غضبه على ضعف اداء معظم الطبقة السياسية التي يعتبرها مسؤولة على اجهاض ثورته من اجل استرجاع كرامة الشعب الذي ينتمي اليه وقلقه ليس تهورا ولا انقلابا بل تحضر ووعي واندفاعه تعبير صريح عن اخلاصه لوطنه وغيرته على مصالح شعبه

قال القاضي

وما راىكم في الاعتصامات

قال المتدخل السادس

- هل اتاك حديث الاعتصامات

قاطع سابع قال

- الحديث عن الاعتصامات المرتجلة أو الغير مدروسة أو الغير منظمة مسبقا في هذا الظرف بالذات مجازفة غير محسوبة والقيام بها الان غير مناسب بكل المقاييس لأن نجاح الاعتصام في مستوى النتائج سيكون محدودا جدا والكثير من المترشحين للقيادات رغم نزاهة لعضهم ليس لهم بدائل ولا برامج واضحة تنهاى مع الدستور الحالي بالمنطق الديمقراطي

وقال ثامن

- كما أننا نشتم من بعض التصريحات خفايا معركة الزعامات وهذا أمر خطير جدا لانه يبنى باندلاع صراعات وربما فتن يقودها أناس أغلبهم تنقصهم التجربة النظامية الحقيقية والحنكة السياسية والسند القانوني وشرعية المرجعيات وفي مثل هذه الحركات ينبغي الاعتماد على تخطيط محكم واختيار الطرف المناسب وتجنب مظاهر الانقلاب وخرق التراتيب القانونية وأشياء أخرى كثيرة إذ لا تكفي القناعات ولا الحماس ولا حتى الحاجة الملحة للتغيير لان التسرع الغير مجدي والغير المحسوب يزهج المشروع من الأساس لذلك يجب التقيد بضرورة عدم إدخال البلاد في حالات الفوضى في هذا الطرف بالذات الذي يمر فيه شعبنا باعسر فترات حياته ويعاني من العديد من المشاكل المتراكمة ومنها نوع من التسيب الغير مسبوق مهد لبعض شراءه التطبيع مع الجريمة والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي واعتناق مسارب الفساد بأنواعه ما تسبب لعامة الشعب في الفاقة وانعدام الأفق الاقتصادي وفقدان الثقة في النفس وفي الآخرين

وقال تاسع

- اعتقد أن أول ما يجب أن نقوم به هو المطالبة بإيجاد هيكل منظم يجمع اغلب القوي الفاعلة في تونس وعلى رأسها الشباب التونسي من أجل الدعوة الصريحة والجادة لإنقاذ تونس بعد أن افتكت منا ثورتنا وثروتنا وحماسنا وهناك من سطا على العديد من قيمنا ومن صادر نداءاتنا وانتزعت منا احلى شعاراتنا وسرقت منا تحيا تونس وكادوا يقنعوننا أن انبعاث تونس من جديد غير ممكن

وتدخل عاشر

- الان ما زال املنا في حراك شبابنا الذي ينادي بضرورة إنقاذ تونس فإذا ما استطاع هذا الشباب توخي ما يناسب من الحذر والحنكة والبصيرة ومد الشعب بخارطة طريق جادة ومدروسة ومقنعة فسيتمكن لنا مشاهدة بصيص من الامل لترميم ما انهار بفعل فاعل وذلك بواسطة ما سيقترحه علينا هذا الشباب الواعد من إجراءات تفضي إلى تمش سليم يؤدي إلى اعادة الاعتبار لمكانة العدالة ويفعل إجراءات محاربة الفساد المتفشّي ويضغط من أجل تحقيق كل ذلك ويهيئ للتفكير بجدة واثارة في تغيير النظام بعد تفعيل القوانين الحالية وارساء ما تبقى

من المؤسسات الدستورية والدعوة للشروع الجاد في مقاومة الفساد بأنواعه المتعددة السياسي والاجتماعي والاقتصادي وإعادة الاعتبار للعدالة والحرص على عزل المتأمرين على أمننا وسلامة اقتصادنا والمبادرة بضخ بعد الفصول القانونية الرادعة وتفعيلها دون تردد ولا شفقة ولا محاباة هذا ما ينبغي الشروع فيه الآن وفي التو وكل تسرع غير محسوب أو تأخير أو سهو أو تخاذل سيؤدّي بالبلاد والعباد إلى ما لا يحمد عقباه

وقال المتدخل الحادي عشر

- اعتقد أن لرئاسة الجمهورية وبعض التوجهات الجادة الحالية ما يمكن هذا الشباب الطموح من فرض شيء من التوافق والحزم والمتابعة ولما لا الاشراف بطريقة أو. بأخرى على متابعة كل هذه الإجراءات عن كثب والدعوة لتفعيلها واتباع خارطة طريق واضحة وشفافة وحازمة كذلك من أجل إنقاذ جاد وفَعَال لوطننا العزيز تونس الانس والمجد

وعقبت فتاة اخرى قائلة

- الحراك العشوائي وانتهاز الفرص والمخاتلة والطعن من الخلف وحوز ما ليس لك والانتصاب الفوضوي وقطع الطريق العامة وتعمد الاخلال بالواجب واكل المال الحرام والسرقه والبراكاجات وكل اشكال عدم الانضباط الاداري والتسبب المهني والاخلاقي والتجارة الموازية وتبييض الاموال اوغسلها والتحرش بانواعه والتظاهر بما ينافي الحياء والاستخفاف بالبيئة والاخلال بالمناخ الصحي وتراثيه والتعسف والتحجر والانغلاق والمتاجرة بالدين وبالتعليم وقتل الناس عمدا باسم الدفاع عن الشريعة واستغلال النفوذ او الجاه وما شاكل تلك كله انواع من الارهاب تستوجب المقاومة الفورية والحاسمة من كل شرائح المجتمع المدني بالخصوص بالاضافة الى الهياكل السياسية والتشريعية والامنية والقضائية والاعلامية كذلك ولا تقدم ولا سلم اجتماعية ولا امانا قوميا الا بالقضاء المبرم على كل هذه الافات وهذا القضاء مسؤولياتنا نحن بالدرجة الاولى اليوم ونحن اقصد بها كل المسجلين في قوائم الناخبين اي انت وانت ونحن جميعا وتلك اولوية الاولويات بالنسبة الينا جميعا في هذه الحملات الانتخابات الجارية الان على قدم وساق والاختيارات الحكيمة هي الاختيارات التي ستركز بالاساس على من له

القدرة والحكمة والكفاية التي تجعله قادرا او تجعلها قادرة على القضاء الفوري والحاسم على هذه الافات الاجتماعية التي تمثل مشهد تخلفنا ومعاناتنا اليومية و فقرنا ونقطة ضعفنا جميعا بلا استثناء اختاروا من يطهرنا من كل هذه الاشكال الارهابية

تدخل شاب اخر قال

- السياسة اكثر من مجرد رغبة و اكبر من الحلم او التمني وليست بالضرورة شهادة نغال فقط او محصول توضيحات فحسب السياسة مهنة تتطلب حكمة ومعرفة وتقنيات ودربة وصناعة وكفاءة كذلك وهي في مقام الطب او الهندسة تتطلب الكثير من التقنيات والتكتيكات بالاطافة الى الذكاء الحاد والحضور الذهني الفائق والقدرة على الابتكار والكثير الكثير من المعرفة بالتاريخ والدراية بالثقافة والامام المناسب بالعديد من العلوم الاخرى كالاقتصاد والتقنيات الحديثة وعلم الاجتماع كما تتطلب حدسا للاستشراف البعيد والقدرة على الفهم والاستيعاب واليقضة والقدرة على الاستفادة مما يحصل او سيحصل في العالم باسره كما تستوجب كاريزما ودراية بالبروتوكول والايديتيكات ونصيب كبير كبير من الوطنية ونظافة اليد والاخلاقيات الرفيعة ككضم الغيظ والغيرة والتفرغ الكامل لخدمة الوطن والصالح العام والامن القومي بتفاصيله من الامن الغذائي الي سلامة الفرد في بيته وعرضه وماله مع تامين العيش الكريم للاجيال القادمة والحفاظ وتنمية الثروات وحسن التصرف في تخزينها وعدم اتلافها هل تراني او ترى نفسك مترشحا بصفة رسمية في الدورات الانتخابات المقبلة بهذه المواصفات او بعضها

هل ما زال لبعض من مارسوا الحكم انصار اذا كان الامر كذلك فمعناه اننا ما زلنا نستطيع ان نصبر على ضيم اكبر وما يخيفني هو ان يصل هذا الضيم لما تبقى من انصارهم قبل انتهاء المدة النيابية القادمة عندها سيطلبون بانفسهم حل مجلس النواب والمغروم يجدد

قالت امراة

- الاغرب ان مشكل تونس ليس في انتصار او هزيمة احدهم مشكلتنا الالم هي خوفنا من ان يدعم فشلنا حركة ويغلبها على احزاب اخرى بسهولة فائقة والخوف كذلك ان تعيدنا الانتخابات لعلم الخرقه السوداء والانغلاق والتزمت بدجاجات حلوه كالتكبير وربما يصبح

الشعب التونسي مجبرا على زيارة قبور الارهابيين الذين سيصبحون مجاهدين في سبيل الاله اخر
يختلف عن الالهنا الرحمان الرحيم ويصبح اسلامنا السماح لا يقبل الكافر اذا اسلم ولا يقبل توبة
العاصي ويتحول الاخوان في الليل الي اخوانجية ويشرع في تهية ارضية الامارة السادسة التي
صرح بها احدهم ذات يوم

وقال احد الشيوخ المتقدمين في السن

- اريد ان اسهل عليكم الفهم سيدي الرئيس منذ اواخر ايام الحكم البورقيبي بدأ المرحل
السياسي في التعفن واحس الشعب التونسي بذلك وتألم وبناء على ما كان يعيشه الشعب التونسي
من مفض كان لزاما على المفكرين والسياسيين ان يشرعوا في خلق البدائل لانقاذ البلاد والعباد
واول من تحرك لاستغلال ذلك الوضع هم المحافظون من بقايا صوت الطالب بالاساس بقيادة
ابن قريتي وصديقي استاذ العربية عبدالعزيز العكرمي في مؤامرة اولى خرج منها بعدم سماع الدعوة
بعد مرافعة صوتية مدوة بصوت المتهم نفسه والتي بثت من المحكمة مباشرة على امواج الاذاعة
التونسية في الستينات تقريبا ثم مؤامرة اخرى بقيادة زعيم المعارضة نفسه الاستاذ عبد العزيز
العكرمي والتي شارك فيها افراد من الجيش ومن المحافظين ومن اليوسفيين ومن الاخوانجية
وحتى من الحزب الحاكم عن طريق الحبيب الحنيني الذي كان انذاك كاتباً عاماً للجنة التنسيق
الحزبي بولاية بنزوت كما كان من بين المتأمرين احد رموز المقاومة الشعبية المسلحة ضد المستعمر
الفرنسي الازهر الشريطي لا الشريطي كما يسميه بعضهم ولمزيد احكام الخطة تم استقطاب
احد الحراس الشخصيين لرئيس الجمهورية وكان شعار اغلبهم معاداة ما يسمونه بالحادثة او
التغريب اي الانحياز للغرب وربما للفرنسة بحسب تعبير بعضهم وانتهت المؤامرة بالقبض على
اغلبهم والحكم على بعضهم بالاعدام وعلى راسهم الاستاذ عبد العزيز العكرمي وهروب بعض
المشاركين الى ليبيا والذين سيعودون في مؤامرة ثالثة ضمن فرق مسلحة بقيادة المرغني كل هؤلاء
والكثير من زعماء المعارضة السريين او المعروفين بالتخفي والهروب والتستر في الداخل والخارج
ثم مؤامر الاخوانجية في زمن حكم بن علي والمعروفة بجاعة سليمان والتي شارك فيها بعض
العرفاء وضباط الصف والضباط من الجيش التونسي المتمردين ثم مؤامرة الاخوانجية والتي حدد
تاريخ القيام بها يوم الثامن من نوفمبر ١٩٨٧ والتي سبقها انقلاب زين العابدين بن علي يوم

السابع من نوفمبر من نفس السنة أي قبل يوم واحد من قرار الاطاحة ببورقية وحكمه المترهل انذاك بما سمي بثورة الكرامة او الربيع العربي كل تلك التحركات كانت نتيجة غليان الرجل الاجتماعي التونسي الذي شرع في التعفن ولم يتفطن اي احد لاصلاحه او تنقيته من التعفن الذي بدء يتسرب اليه وثورة الرابع عشر من نوفمبر ٢٠١١ كل ما فعلته انها رفعت الغطاء عن تلك الرجل المتعفن فقط وما نشاهده اليوم كل ما نشاهده ونعيش فيه هو ما في الرجل من تعفن بعد رفع الغطاء ولان تونس تفتقد الى سياسيين اكفاء يعالجون ما في الرجل من تعفن اكتفوا بالانتظار حتى تخرج تعفّنات الرجل من تلقاء نفسها ولحد هذه الساعة لم يقدم اي طرف سياسي او اي مفكر حلا مجد يعالج كل تلك التعفّنات المتراكمة منذ ازمة بعيدة ومن المنتظر ان يضج الشباب نضجا يمكنه من تحمل المسؤولية الكاملة لمعالجة الازمات المتتالية بموضوعية والتزام ومسؤولية تجاه الوطن والتاريخ ويتحتم اليوم على نساء ورجال الفكر ان ينبهوا شبابنا الرائد لتحمل مسؤولياته الجسيمة بوطنية عالية ترتقي الى النبل لاصلاح ما افسدته ازمة الردء والعقم والتاكل والمحسوبية والجشع وذلك بتأن وحكمة و التزام ووطنية

وارتفع فجأة صوت شيخ طاعن في السن قال مخاطبا جناب رئيس المحكمة الموقرة

- سيدي الرئيس بعد ان عاشت أب السياسة والسياسيين الحبيب بورقيبة كرهت السياسة على يد هؤلاء السياسيين الجدد الذين يتعلمون الحجامة في رؤوس التيامي وكرهت أكثر محاولة تحريف التاريخ وخاصة توجيهه توجها انتقاميا او عشوائيا او عن جهالة ومججت النيات المبيتة التي تتعمد بعض المؤسسات الثورية والتي لبست أردية العدالة والكرامة لتمارس الباطل والندالة وتتصرف باسم الحقيقة المطلقة تصرفا مشينا يرشح خسارة ومكرا وتتجرأ بعضها على اتهام بورقيبة اتهامات عشوائية دنيئة دون تثبة او روية وتتحدى واقعا عشناه نحن لتروج الطرّحات تريد ان تفرضها كواقع اخر يتاشى مع فساد طويتها ويتهاهى مع سوء نواياها كاتهام الزعيم الحبيب بورقيبة بقتل الزعيم صالح بن يوسف بكل بساطة ومحاوله الالتجاء لتاويلات اعتباطية وشهادات واهية تتعارض تماما مع ما عشناه نحن كبار الحومه الذين ما زلنا على قيد الحياة وهكذا وبكل بساطة يتم تجاوزنا عمدا لغاية في نفس يعقوب وانا شخصا افند كل هذه التهم واتحدى اياها كان أن يقدم حججا تكذبنا

قال الراوي

بعد الاستماع الى ذلك الشيخ طلب زوج صاحبة الرأس الموروث الكلمة وبعد السماح له من طرف جناب السيد القاضي المؤقر قال برصانته المعهودة

- سيدي الرئيس جناب المستشارات الكريبات ايها المستشارون الافاضل الدولة التونسي الان بصدد الانهيار في نظام يدعي أنه ديمقراطي من المسؤولون عن هذا الانهيار

ثم اردف قائلا

- السياسيون والمتحزون وممثلو المنظمات الوطنية ومعدو القوائم الانتخابية بالدرجة الاولى ثم عامة الناخبات والناخبين من الشعب التونسي وكل الشرائح التي تعمدت مقاطعة الانتخابات لاي سبب كان أو عازمة على عدم الادلاء باصواتها كل هؤلاء مسؤولون على انهيار دولتنا

رفعت زوجته في استعجال بدها لتطلب الكلمة وبعد موافقة القاضي قالت

- أيّ شرف سيناله هؤلاء في التاريخ اذا سقطت الدولة في تونس على أيديهم لن يستثني التاريخ أيّا كان منهم مهما صغر أو كبر أو عمّر أو ثمر أو دام أو قصر أو أيد أو تذرّ سيضعهم التاريخ جميعا في سلّة المهملات بعد أن يصف بشاعة ما ارتكب كل هؤلاء في حق بلادهم ويرمي عليهم خزيه ولعنة كل الأجيال التي ستأتي من بعدهم من أبنائهم وأحفادهم وسلاسلهم

سكتت قليلا ثم واصلت

- الحل أن يتولى مثقفونا لا التشهير بالتخلف بل تقديم تطبيقات عملية لنماذج تحضر فعلي بحول نمط عيشنا تحولات جذرية من أجل بعث عربي جديد متحضّر وتحجّب نمطية مفهوم المتحضر الثائر أو الناقد للدين بل فهم الدين فهما أكثر تفتح واعتباره منهجا لاصلاح التصرف البشري وترميم منظومة الاخلاق والعلاجات وذلك بالخروج بالدين الإسلامي من قوالب الموروث القائمة والمتناقضة إلى ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم والعاصي حتى يتوب ويعتمد العلوم ويوظف التكنولوجيا ويتعامل مع البحوث العلمية ويشجع الاكتشافات ويعيد الق الدين الحق الذي ينبذ التطرف لان التطرف لا صلة له بالدين الإسلامي التزمت غريب

عنه دخيل عليه مستورد من موروث الجاهلية تحت عناوين هلامية وفضفاضة في غياب ثقافة إسلامية سليمة وناجعة تقدم البديل الأسلم في شكل طرح ثقافي يسند الطرح الأمني وقد نبرر ذلك باعتبار أنّ الارهاب يبدأ ببرمجة ضحاياه من خيرة شبابنا وابنائنا في مستوى التفكير اولا لذلك تتحتم علينا ضرورة أن يتدخل الطرح الثقافي في المسألة لان الارهاب في الاصل يبدأ ببرمجة ضحاياه في مستوى التفكير ثم في مستوى التكفير ثم في مستوى التفجير أما في مستوى التفكير فانه يبدأ باستغلال جميع نقاط الضعف في التركيبة الذهنية للشباب ليدمغجها بحسب ما حدده في هذه الذهنية من مكتسبات في مستوى المخيال والمخزون والموروث وما رسب في اللاشعور ثم ينتقل الى مستوى القنوات المكتسبة لتحديد ما يمكن ان يستغله في حالته تلك وما يمكن تعديله لصالح برنامجه الاستقطابي ثم يحول اهتماماته الى مجموع الفراغات الذهنية التي يمكن ملؤها بما يتماشى مع التطبيق التي يرى انها تتلاءم مع شخصية الضحية ويبدأ في غرس القنوات التي ينبغي ان تصبح في مثابة المرجعيات التي تبرر جملة ما سيصبح في ذات الضحية مواقف تترجم الى سلوكات معينة معلومة لدى المستقطب لتبدأ مرحلة الاملاءات في صيغ اوامر وبرامج ومهام معززة كلها بالتغذيات الراجعة اي مجموعة الفيديابات التي تراعي تركيبة الضحية ومركباتها فان كان في حاجة ملحة للبال يغدق عليه ما يلبي حاجاته من مال وان كان يفتقد جاها او ارتقاء في الرتب اعطوه كنية واهموه انها تشريفية فيصبح ابا قتادة او ابا الهيثم او يعين في مهمة بكتيبة تحمل اسم قائد ممن يسمونهم السلف الصالح ثم يعين نائبا ثالثا لقائد الكتيبة ويطلب منه الاخلاص والاجتهاد والانضباط ليتدرج رويدا رويدا في الرتب والمناصب لعله يصبح واليا او حاكما او شيخ الشيوخ وهكذا دواليك حتى يرتقي من هذا الوهم الى وهم ارقى وهو وهم مرحلة التكفير مرحلة التكفير والتكفير هو ايضا وهم وهي المرحلة التي تصبح فيها الضحية في مقام المفتي المحلل والمحرم والمكفر لكل من خالفه في الراي وتتواصل الدمغة والبرمجة لاقناعه بان قتل من يراهم كفارا او من يصدر في شانهم قرار تكفير هم مجموعة اهدرت ارواحهم شرعا وبعد صدور قرارات التكفير تدخل الضحية في مستوى التفجير مرحلة التفجير وبهذه المرحلة تخرج الضحية من مرحلة الوهم الى مرحلة الانجاز الفعلي عبر عمليات اراهبية منظمة مخطط لها وتستغل كل ما تم برمجته في الضحية لابتعد الحدود واخر مرحلة وهي مرحلة ذكية ومدروسة يستخدمها مخطط قادة العمليات الارهابية بامتياز وهي مرحلة تفجير الضحية نفسه بنفسه بواسطة الحزام الناسف

الذي يمكن القادة من قتل كل المعلومات التي تفضح مخططاتهم او تمكن من متابعة تحركاتهم وتخيف المندسين فيهم وترعب الطيف الاجتماعي وربما تجعل منه محاضن يلجؤون اليها عند الحاجة

لكل هذه الاسباب الموضوعية وجبت في رايانا ضرورة المزج بين الطرح الثقافي والطرح الامني من اجل توفير النجاعة في مقاومة الارهاب وقطع دابه والقضاء عليه في المهد

عقب احد الحاضين مضيفا

- تحليل هذه المرأة تحليل صحيح للاحداث وهذا هو التقييم الموضوعي الذي يغيب عند الغير متمكنين من السياق السياسي التونسي وعند هواة السياسة وعند الذين لا يعرفون جيدا تاريخ البلاد القديم والجديد وعند الذين يفتقدون حكمة التدبير ويبقى مشكل هذا الفكر قائما في المعادلات السياسية وواقع الاجراء السياسي الحالي الذي جعل الكثير من التونسيين مع الاسف يميلون الى هذه الاطروحات القديمة الجديدة تلك الاطروحات المتحركة الظاهرة والخفية والتي جعلت من المساندين لها كثر نسبيا واحيانا متحلين ببعض الانضباط وهو اهم ما يميزهم وهي معادلة سياسية خطيرة وظاهرة اجتماعية لها تداعيات سلبية في المسيرة السياسية التونسية الحاضرة والمستقبلية والتي تفتن اليها الرئيس بورقيبة من قبل وتصور خطورتها وكرس كل جهوده على التنبيه اليها والتحذير من مرض التخونج المتحول ويبقى نخونجا في قلبه الاساسي وقد تمكن بورقيبة بكثير من الحكمة والحكمة من وضع التونسيين عموما في سكة التفتح والاصالة وبقي بالمرصاد لكل تيار اخواني ظاهر او خفي لعلمه انه داء خطير لانه يتلون ويتشكل بحسب الظروف دون ان يفقد توجهه الاخوانجي ان صح التعبير وبعد الثورة كان من البديهي ان يتحرك هذا التيار الفكري كحركة اولا وقد بقيت في توجهها الاصلي رغم ادعائها بالتطوير اسالسيها وحتى توجهها ومحاولة الغاء بعدها الدعوي بصفة رسمية واعلانية باسم التاقلم والتظاهر بالتعديلات الممكنة والتشكلات المتنوعة والتي تبقى ظرفية مناسبة ودون ان تخرج عن هدف الوصول المحدد من قبل واغلب الناس يعرفون ذلك كما أعرفه انا وانت والكثير من التونسيين القدامى وحتى الجدد الذين فهموا التمشي فيها جيدا ولم تعد تنطلي عليهم اي تصرفات او مظاهر او اراء او توجهات عابرة تتخذها قيادة هذا التوجه مهما كان شكله ونحن نعرف ما يعرفه الاغلب الاعم من

توقعات هي في اصلها حقائق يفرزها هذا الجسد الذي يحوي في تركيبته الاصلية لمقاصد ورثها عن العقلية الجاهلية وان بدا لمن لا يعرف انه جسم متعاف من المؤكد ان تونس لا يمكن ان تقبل بهذه الاطروحات لا القديمة ولا الجديدة حتى ولو انتصرت و اوهمت كل الناس انها متعافية وحتى لو يستتب لها الامر فان الجسم التونسي الذي شكله المصلحون التونسيون عبر التاريخ لا يقبل ان يتخونج ابدا لذلك حاول البعض منا ان يهادن ويراوغ ويصبر حتى يستكمل الجسم التونسي عافيته من الخونجة الظاهرة والمتخفية ويوفر لنفسه المناعة الكافية التي تجعله يحذ من هذا التيار الجارف والخطير والغير الملائم لتونس الحديثة تونس الثلاثين قرنا تونس الانس والسلام والتفتح والاصالة لذلك ادعو من لف لفنا ان يواصل في المشروع التوعوي والتوضيحي لانهم محقون في كل ما قالوا وكل ما يقولون ولا اعتقد ان الانتصار على التخونج قريب او سهل والارهاب كظاهرة هو شكل من اشكال محاولات هذا الفكر ان يثبت ويترعرع وانا اعرف ان الكثير من المتيمين او المناصرين او الساكتين عن هذا التوجه البادي او المقنع لا يدركون ذلك ولا يتصورون خطورة المخطط الطويل الامد والمتعدد المراحل والطويل النفس والذي ياخذ بعين الاعتبار تلك العقلية ويعتمد عليها لتمرير مناهجه والتي تعتمد على هذه الاستراتيجيات المتحركة والتي تسخر عفو الناس وحسن نيتهم وربما دماثة اخلاقهم ونبيل طبائعهم لخدمة اهدافها البعيدة اذ من المنتسبين الان لهذا الراي وحتى من غلبت لديهم حسن نيتهم فيها لدرجدهم انهم لا يتصورون ابدا ان تضع هذه الحركة يدها في مخططات الارهاب والقتل كما فعلت يوما ما وكما يفعل بعض الداعمين لها الان بموافقتها او حتى بعدم موافقتها لهم صراحة لان العمل السري من مقوماتها الاساسية والتنكر لذلك داخل في الحسابات والتبرأ داخل ايضا في التمشي والتكذيب من الحكمة والاستفار لذلك داخل ايضا في الحسابات هذه مكونات ذلك التنظيم وبعض فروعه وتشعباته وتقنياته والتي تدعو الى الانكار الصريح والواضح وذلك داخل في اساليب العمل الاساسي ولا يظهر للعيان الا بصعوبة وطول نفس واستقصاء لا يقدر عليه الا التونسيون والتونسيون وحدهم وخاصة منهم من تتلمذوا على بورقيبة لذلك كان من الصعب على بعضهم ان يترحم عليه وضمن هذا المخطط الاخوانجي الصعب والمتشعب والظاهر والسري والحقود ان يقبل ولو مؤقتا المثل امام كامرات قصر قرطاج بخلفية فيها صورة بورقيبة الزعيم لا الرئيس وهو مظهر اخر من الخبث السياسي الذي لا يخفى على التونسيين الذين احبوا البلاد كما لا يحب البلاد احد

قال الراوي

- ولتأييد هذا الرأي صاح احد المتقدمين في السن من الحاضرين قائلا

- لقد حضرت سيدي الرئيس في قصصة بعض الاحداث التي تدرج في سياقات هذا التحليل

قال القاضي

- ارو لنا شهادتك

قال المتقدم في السن

- كنت انذاك شابا واذكر ان اغلبية الشباب التونسي كان مع راي بورقية انذاك بخصوص ما يسمى بحرب بنزرت اليوم واذكر اني القيت قصيدا حماسيا في قريتي قصر قفصه بقاعة الافراح بالمحطة من تلقاء نفسي لم يقترح علي او يجبرني احد كنت اشعر بمسؤولية المساهمة في هذه المعركة كاغلب الشباب التونسي اذ اعتبرناها معركة حياة او موت لم يكن بورقية وحده الذي قرر او جرن بل كان الجيش الفرنسي قد استفز مشاعرنا حين قرر توسيع ثكنة سيدي احمد بنزرت رغم انوفنا وتحدانا وتحدي اتفاقية الاستقلال الداخلي انذاك واذكر ان الشباب التونسي في كل شبر من البلاد قد تحمس للذهاب الى بنزرت وكان يعلم انه ذاهب للاستشهاد في سبيل الوطن ولم يغرر بنا احد ولم تكن حرب الجلاء حرب بورقيه بل حرب الشباب التونسي وحرب الوطنيين وحرب الكرامة وحرب الانعتاق والتحدي والدليل هو ما يرويه منصف بالحولة من موقعه كطفل من خلال رؤاه كشاهد على العصر بنفسية معينة وفي سن معين اذ يتفق في خطوطه الرئيسية مع ما عشته انا كشاب مع فارق الوعي المستكمل ودرجة الانخراط في الاحداث بجكم فارق السن لا العقيدة والنتيجة والعبرة بالنتيجة حصولنا على موعد للجلاء في اقرب ما يمكن من وقت وانتصار الخطة البورقية وقد انخرط اغلب الوطنيين بالدعوة لحرب الجلاء واستبشر كل الشعب التونسي بالنصر عدا بعض اليوسفيين الذين راوا في ذلك حجة على حصافة وجهة نظر غريهمم بورقيه وكذب الانتصار ما جاء في خطاب المرحوم صالح بن يوسف في الجامع الكبير بالقيروان والذي وصف فيه الاستقلال الداخلي بانه كرقصة السوينق خطوة للامام وخطوتان للوراء وكذب عيد الجلاء هذه النظرية لذلك بدأ بعض معارضي بورقيه في التنقيص من نخوة

الانتصار فمنهم من ادعى ان حرب الجلاء كانت حرب بورقيبه ومنهم من شكك في الاستقلال التام حتى بعد تامين الاراضي الفلاحية واسترجاع المؤسسات الوطنية وحتى بعد بحث وتأسيس اغلب الاقطاب الاقتصادية كمعمل الحلفاء بالقصرين ومعمل السكر بباجة ومعمل التمور وتكرير النفط وغيرها واستمر التشكيك في الاستقلال على يد من كانوا يسمون بالاخوانجية الذين ذهب بعضهم الى اعتبار بورقيبة عميل فرنسا وقال بعضهم انه باع تونس وتناشوا جهاده وسجنه والحكم عليه بالنفي وحتى بالاعدام بل منهم من اعتبر ذلك مسرحية وورثوا بعض هذه الافكار لابنائهم من بعدهم وتواصل الغل والغيض الى اليوم وانا اوردت ذلك لانني كنت شاهد عيان وحضرت كل هذه الاحداث من قريب وعاشتها وتعرفت على الكثير من الوطنيين الذين قادوا نضال الاستقلال كما تعرفت على الكثير من زعماء المعارضة ومنهم من عاشرتهم بحكم الزمالة او الجيرة او الصحبة

قال الراوي

- وفي الاثناء اشار القاضي باصبعه لشاب كان يلح على التدخل قال بعد ان اذن له القاضي

- سيدي القاضي لقد تأكد وجوب مزيد الاهتمام بالانتخابات وايلائها الاهمية التي تستحق كما تأكد وجوب انخراط كل أطراف الشعب التونسي فيها وقبل ذلك لا بد من مراجعة القانون الانتخابي الحالي في الانتخابات القادمة لاعتماد طرق اخرى اكثر نجاعة ووظيفية من اجل مشروع حداثي تقدّمي يتيح للمؤسسة البرلامانية وبالقياس على جميع الهياكل المنتخبة الاخرى كالبلديات والمجالس المحلية تقديم خدمات اكثر نجاعة من اجل ان ينتصر المشروع الحداثي المتكامل والذي يضع تونس على الطريق الصحيح طريق النماء والسلام والتقدم للتصدي للظلامية ويجنبها التراجع للوراء كما يتحتم فتح كل ملفات الفساد مهما كانت انتباءاتها حتى تتم محاسبة المجرمين والمقصرين وفاقدي الكفاية في مرحلة اولى عن طريق الانتخابات وتجنب الاحزاب او اللوبيات الالتفاف على مفاصل الدولة قصد شلها ومنعها من تطبيق الديمقراطية الوظيفية التي تتقدم مصلحة المواطن لا مصلحة المسؤول كما يجب ان يتم ذلك بدون تشف او انتقام او تصفية حسابات بل في اطار المساواة والعدالة وتحقيق التقدم والنمو وضمان استمرار كل تلك القيم من اجل تونس الغد تونس الامن والسلام والرخاء المطرد

قال احد المتدخلين

- تكاثر المطالبة منذ اندلاع الثورة إلى اليوم كان نتيجة طبيعية لعجز الدولة من خلال كل مؤسساتها على تقديم الحلول التنموية المناسبة والتلهي في تكريس نهم سياسي مستفحل داخل كل الحكومات بلا استثناء من الثورة إلى اليوم

وقال اخر

- السياسيون الجدد في تونس يعتبرون انفسهم زعماء بمجرد تاسيسهم لحزب او الانخراط فيه
قالت فتاة

- أغلب سياسي اليوم لا يؤمنون بالكفاءات وليس لهم القدرة على استيعاب الوضع الدقيق الذي تعيشه بلادنا من جراء كل هذه السنين العجاف ولا يعترفون بقدراتهم المحدودة لذلك ما زالوا يتصرفون بغباء شديد يقترب من الاستهتار

قال الراوي

وقبل أن ينهي المتدخل كلامه تقدمت الزوجة صاحبة الرأس الموروث لتطلب التدخل من القاضي بشيء من الالحاح البادي على ملامح وجهها ولما سمح لها القاضي قالت
- الدولة التونسية بصدد الانهيار في نظام يدعي أنه ديمقراطي سيدي القاضي ترى من المسؤولين عن هذا الانهيار

اجابها احدهم

- سيدي الرئيس ليس من قبيل التكرار بل من قبيل التأكيد ساعيد نفس ما أفادك به الكثيرون المسؤولون الحقيقيون والمباشرون هم بلا منازع السياسيون والمتمخرون ومعدو القوائم الانتخابية بالدرجة الاولى ثم عامة الناخبين والناخبين من الشعب التونسي وكل الشرائح التي تعمدت مقاطعة الانتخابات لاي سبب كان أو عازمة على عدم الادلاء بصواتها كل هؤلاء مسؤولون على انهيار دولتنا

ولما لاحظت كيف اشربت الاعناق لكلامها قالت الزوجة مخاطبة الجماهير

- أيّ شرف ستنالونه في التاريخ اذا سقطت الدولة في تونس على أيديكم لن يستني التاريخ
أيا كان منكم مهما صغروا كبر أو عمروا أو ثمروا أو دام أو قصر أو أيد أو تذرّ سيضعكم التاريخ
جميعا في سلّة المهملات بعد أن يصف بشاعة ما ارتكبتم في حق بلادكم ويرمي عليكم خزيه ولعنة
كل الأجيال التي ستأتي من بعدكم من أبنائكم وأحفادكم وسلا لا تكم

قالت فتاة تجلس قبالة القاضي

- كلنا اليوم نتساءل كيف نرجع الق بلادنا تونس الخضراء ونحس وجوبا انه يجب تبديل
امر ما في بلادنا

وقال شاب اخر

- فعلا نحن في أشد الحاجة الى تغير حقيقي تغير من نوع خاص وملح تغير جديد

تدخلت سيدة قالت

- كلنا نعرف ان هناك اشياء يجب ان تتبدل كلنا نعرف هذه الحقيقة لكن ما لا نعرفه هي
الاشياء التي يجب ان تتبدل

- لا بد ان نتمعق في البحث عن هذه الامور التي اذا تبدّلت سيسترجع الشعب التونسي
ذكاه الذي اشتهر به وستصبح بلادنا أرقى البلدان وسيعيش فيها بناتنا وأبنائنا سعيدات وسعداء

الفصل الخامس والاربعون

قال الراوي

- وبمجرد ان استوفت المحكمة كامل جلساتها اليومية واثّر مغادرة سيادة رئيس المحكمة وأعضاده الميامين قاعة الجلسات وبعد ان استوفت طواقم التنظيف اشغالها ولم يبق في الفضاء الا الحُرَّاس المشرفون على البناية الخارجية التي تمتدّ من أوّل الشّارع الرّئيسي للمدينة وبقي الفضاء الدّاخلي على سعته فارغا الا من عم العربي التّونسي الحارس الليلي المكلف بالاشراف على الاعتناء باليات المراقبة الايلكترونيّة وحتى التّقليديّة كالدّبابيس الحديدية المثبتة في أعلى كل باب مغلق في شكل مطرقات تنزل اليا بمجرد أن تفتح دفته على حين غرة وبدون موجب مرمج مسبقا او معدّ طبقا للاليات المضبوطة والتي لا يعرفها الا اهل الاختصاص المكلفون بالاشراف على طقوس الفتح والغلق المضبوطة والمكتوبة والمسجلة في ملفات التنظيمات الاجرائية التي تبدأ اثر كل غلق ولا ينتهي العمل بها الا بعد الاذن الرسمي بالفتح او التعديل

وقبل اطفاء الاضواء عنّ لعمّ العربي التّونسي أن يفرغ ما رسب في داخله من شحنات حرم منها طيلة الاسبوع الذي تولى فيه الحراسة ولم يكن يعلم ان التراتيب التي يعمل ضمنها تسجّل كلّ ما يحدث داخل أو خارج هذا المعلم القضائي الموقّر وبمجرد أن شرع في التّباري مع نفسه جيئة وذهابا لاختبار قدراته العضلية التي تعودت على الوقوف المستمر والبقاء في حالة الاستعداد العسكري الدائم وهو يجوب القاعة عرضا وطولة تارة وتارة جيئة وذهابا خيل له انه يرى خيالا واقفا يشبه الصنم الملفوف بالغمام المتحرك ببطء وقبل ان يتقدم استعاد الوقفة العسكرية التي تدرب عليها في الجيش سنوات طويلة وشبّر نحو الظل بندقيته وبحركة الية فتح قفل الغلق وشرع في الاقتراب من الهدف بحذر العسكري المتدرب وبدأ في الاقتراب رويدا رويدا وخيل اليه انه يشاهد ملامح وجه يعرفه جيدا يشبه وجه محمد الصغير اولاد احمد ذلك الشاعر العلم اقترب شيئا فشيئا من الهدف ولما تاكد منه تراجع الى الخلف وقام بطقوس التحية العسكرية التي تعلم تاديتها لكل عسكري برتبة اكبر من رتبته وشاهد وجه الضل يتبسّم ليتأكد انه امام

جناب شاعر تونس العظيم وتذكر انه حضر موكب دفنه عندها زاد تقديره للشبح و حياه قائلا

- لأنك كنت تحبّ البلاد كما لا يحبّ البلاد أحد

فلما انسحبت تركت البلاد بذكرك حلي كما كنت أنت بها للأبد

فما متّ أنت انسحبت فزد من عطائك يا من غلبت الفناء وأججت في الموت نار الحياة التي
تتقد

لتكمل طهي الطّعام وتجمعنا حوله بالوئام

لأنك كنت تحبّ البلاد كما لا يحبّ البلاد أحد وكنّت تردّد قبل المات وبعد الوفاة

إذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بدّ ان يستجيب القدر و تنشّد لحن الصّمود وتوق الخلود

لتحيا بداخلنا من جديد وبعد الصّلاة

ونحن نسيّجك في القبر قالت لك الأرض أهلا ومــــرحى وسهلا بعطر التّراب الذي
كان فوقني تباريح شوقي لحبّاته وذراته

بلون التّراب الذي كان في رجعت اليّ

لقد كنت تملأ كلّ الرّحاب بحجم البلاد

وكنّت كسييرا بحجم قلوب العباد الذين أحبّو البلاد

كما لا يحبّ البلاد أحد

وعشت أيبا وطوعت ما كان يبدو عصيا

ورغم رداءاتنا المستعاره تحدّيت كنت الهدى والمناره ويوم ركبنا متون السخافه ظهرت

و كنّت زعيم الثقافه وخضت جهادا طويلا مريرا

فما متّ أنت انسحبت فزد من عطائك

يا من غلبت الفناء سكنت السماء
وأجّجت في الموت نار الحياة التي تتقد
لتكمل طهي الطعام وحلو المقام لشعب يحبّ البلاد كثيرا كما لا يحبّ البلاد أحد
تماما كما كنت أنت تحبّ البلاد التي علّمتك
بأنّك فيها ككلّ أحد وفضلك أنّك كنت زعيما
وكنت وما زلت فينا عظيما وما زلت صوتا لهذا البلد بلون الرّبيع الذي يكتمل برغم الشّجن
ورغم المحن
ليزرع فينا بذور الأمل وحبّ الوطن
وتبقى ونبقى حماة الحما وجند الفداء لهذا الوطن ستحيا لنحيا ويحيا الوطن ستحيا ونحيا معا
برغم رداءة هذا الزمن أردنا جميعا لشعبي الحياة فلّبي القضا واستجاب القدر
وبدون ان يشعر تم ربط دفق صوته بدائرة المراقبة اللّصيقة والتي ارتأت تبليغ التسجيل
بصفة مباشرة لمن يهتمهم الأمر والذين شرعوا بدورهم وبصورة الية في تحليل محتوى الارسال
الذي تم توثيقه بلا تحريف أو تصرّف وبمجرد ان تمت العملية انطفأت الأضواء واستقر عم
العربي التونسي في المكان المخصص له وشرع في القيام بالمهام المناطة لعهدته تماما كما كان يفعل
كل حارس منضبط

الفصل السادس والأربعون

قال الراوي

- لأول مرة يدعو طاقم المحكمة المؤقرة شاهدا على انفراد ليستمع لملاحظاته حول موضوع خاص جدا في وقت الاستراحة بحضور جناب التاريخ الذي تعمّد تسجيل مداخلة الشاهدة وتؤكد بعض الأوساط المطلعة أنّ تلك المقابلة تمت بطلب ملحّ من الشاهدة نفسها عن طريق زوجها وبتوكيل منها معرّف به ومضى لدى من يهّمهم الأمر وقيل أنّ المعنيّة بالأمر هي تلك التي اشتهرت بصاحبة الرأس المستعار لذلك تمّ السماح لزوجها بالحضور السّليبي بعد قبول جميع الأطراف الحاضرة في هذه الجلسة المغلقة التي قيل أنّها قالت الشاهدة المعنيّة فيها متحدّثة عن ملامح المثقّف الحقّ وعلاقته بمدنيّة ابن خلدون في سياق ما وصلت البلاد فيه من تعطلّ وسقم ورداءة وتعفنّ وانسداد أفق وحاجة الى الانقاذ السريع والمستعجل قبل تفاقم الكارثة

قالت الزّوجة

- سيّدي القاضي المؤقرّ أيّها المستشارون الأفاضل أيّتها المستشارات الكريات المثقّف الحقّ لا يعني المتعلّم أو القارئ بلغتنا الدّارجة أو العالم أو الباحث أو الفنّان أو الفيلسوف أو المؤرّخ أو المخترع أو المكتشف أو حتّى العبقريّ بل يعني ذلك الذي ترتقي به ثقافته الى مرتبة التّمدّن بالمعنى الخلدوني وأعني بالتمدّن الانسان المحصّن والمضمّن والموقى من عديد الطّواهر الاجتماعية السّلبية والتي لا تستثني في العادة أحدا الا هؤلاء الذين سمّيتهم بالمثقّفين المتمدّنين عدى ذلك فان هذه الطّواهر السّلبية لا تفرّق بين النّاس ولا أصنافهم أو درجاتهم ولكنّها تعجز تماما على اختراق هذا الصّنف الوحيد الفريد الذي يبقى في كلّ الحالات محفوظا من جميع الطّواهر الاجتماعية السّلبية التي لا تستثني أحدا ولا تفرّق بين درجات اكتساب المعرفة والعلم ومن اهم هذه الافات واطورها على الوطن بالاخص هي التّخلّف والتّزمت والهنجيّة والتّطرّف والعصبية والتخونج المنهجي كل هذه العاهات يمكن ان تصيب الجاهل والعارف والمتعلّم والامي والوضيع ونقيذه والفنّان وعديم الاحساس ولا تفرّق بين الغني والفقير والحقير والوجيه والصّغير والكبير والمرأة

والرَّجل والأبيض والأسود والأحمر والأصفر لذلك لا تستغربوا ان تروا استاذًا متزمتًا او طبيبًا متعصبًا او محام متخونجا او فنانا جاهلا او كاتبًا ركيكا او بذيئًا او شاعرا عرييدا او ايماما يتستر على الفسق او داعية وقحا فان تحول احد هؤلاء الى سياسي فلا تأمل منه خيرا او تنتظر فرجا او صلاحا ومثل هذه الافات التي تصيب هؤلاء لها القدرة على التحالف مع بعضها البعض في الكائن الحي الواحد مثني وثلاثي ورباعي وحتى اكثر من ذلك ورغم تشعبها وتنوعها وقدرتها على الانتشار بسرعة عن طريق العدوى او الجشع او الطمع او الخوف ورغم حدة تمكنها بفرستها من خلال الطبع والتطبع والغريزة وحتى بالفكر والسلوك ورغم سهولة تسربها فانها لا تصيب اطلاقا المثقف المتمدّن اي الرّاسخ في مدنيته وحبّه لوطنه ارضا واهلا وتاريخا فهو الوحيد المحصّن من كلّ هذه النقائص ونحن اليوم في أشد الحاجة الى مثقّفين متمدّنين لهم القدرة على الانشاء والارتقاء بوطنهم وأهلهم إلى السّودد والنّاء والتّرشّد الدّائى والجماعي وفي نفس الوقت لهم القدرة على اخراج الانسان التّونسي والعربيّ المسلم من أزمنة الرّداءة التي تردينا فيها جميعا بلا استثناء وتبقى الوصفة السحرية الفريدة التي تميز هذا المتمدن هي تلك الثقافة المدنية الحقيقية التي يصفها ابن تونس البار العلامة عبد الرحمان ابن خلدون ولان كان الانسان مدني بطبعه فان هؤلاء المصابين بتلك الافات الرجعية تنزع منهم انسانيّتهم ومنه من يخرج على طبعه وتشوّه بشريته ومنهم من يستسلم للوحشية والتوحش والوحوشية والاستحواش وكل مثقف لم تمذنه ثقافته لا يحقّ تسميته بالمثقف اصلا لان الثقافة التي لا تمكن صاحبها من نفع محيطه المدني والتاثير فيه بالايجاب هي مجرد شبهة ثقافية لم تكتمل بعد عناصرها تماما كالشجرة التي لا تثمر ولا تغني من جوع او من عطش وكالغصن الذي لا يقبل من يستضل تحته او يتنقع به

توقّفت المرأة فجأة لتطلب من القاضي الاستماع الى تسجيل قالت أنّه توصيّة هامّة وعدت ان تسلّمها لجناب القاضي المؤقّر بعد ان وعدت بذلك أصحابها وفي نفس الوقت سلمت للقاضي ملفا في الشأن يفصل ما لخصه التّسجيل الذي جاء فيه ما يلي

جماعة خيّوا الامال في وطني واستنسخوا القهر في سرّ وفي علن

جروا البلاد لرؤيا جدّ بائدة قد أدخلت تونس الخضراء في المحن

يهرّون ماسي النَّاس في بلدي بأنّها قدر في جبهة الزَّمن
يموت منّا كثير باطلا كمدا ويشرب الشَّعب حيّا علقم الحز
انجازهم أنّهم قد هيّؤوا سررا يموت فيها شيوخ من بني وطني
وصار شبانا ييغون هجرتنا تمرّد النَّاس في ريف وفي مدن
واليوم قد بدأت أطماع قادتنا تنمو وتزداد في جوّ من الأسن
تشرذم النَّاس واعتلت مفاصلهم كأنّما تونس الخضراء لم تكن
ومجلس الشَّعب كالبركان زلزله بعض الذين ارادوا المرح بالوطن
السائحون تخلّوا عن مبادئهم وأدخلوا تونس الخضراء في المحن
يؤثثون صباحا كثة وهنت وفي المسا كتلة أخرى وبالثمن
يكفي البلاد انغلاق صار ينخرها أقصّ مضجعنا واقتص من وطني
قد عذب الشيب والشَّان منهجهم وأدخل النَّاس في يأس وفي خن
بهم يعذبنا ربّي الى أجل كفّارة تغسل الخضراء من درن
يتاجرون وصوت الشعب عملتهم قد يمنح الصَّوت للتَّكوير بالوطن
فاختر لشعبك من يحمي مصالحه يكفي البناء على كوم من الخنن
وأردفت الزَّوحة قائلة

- سيّدي القاضي في انتظار أن تتأكّد محكمتم المؤقّرة من تفاصيل هذه الافادة وتثبت في شأن ما ورد فيها اعتقد أنّا اليوم في أشدّ الحاجة الى مثقّفين متمدّنين لهم القدرة على الانشاء واستنباط الحلول في الوقت المناسب والاستشراف والتَّصوّر ولهم كذلك القدرة على ايجاد او استنباط المناهج الاجرائية المناسبة في المكان والزمان المناسبين ولهم الشَّجاعة بقبول التَّحدّيات اللازمة وتحمل المسؤولية أمام النَّاس وأمام التَّاريخ والذين يخافون من المحاسبة ويخشون الله

ومنظورهم لأنهم يحترمون أنفسهم ووعودهم والتزاماتهم ولا يؤودهم ما التزموا به حباً للصدق وللوطن وخوفاً من المولى يحبون الارتقاء بوطنهم واهلهم الى السؤدد والنماء والترشد الذاتي والجماعي وفي نفس الوقت لهم القدرة على اخراج الانسان التونسي والعربي المسلم عامة من براثن التخلف وازمنة الرداءة التي تردينا فيها جميعا بلا استثناء

كما نبه الى وجوب التفطن لما يمكن في هذا السياق ان تسميه بادرارة المعنويات لاهميتها ولاننا نمر في هذه الحال بالضرورة بأيام عصيبة يمتزج فيها الخوف بالامل والحياة بالموت يجب ان نتسلح بها اصطلاح على تسميته لدى عامة اهلنا بالعناية الالاهية من جهة ونعني بها طبيعة الخلق من جهة ومفعول التنشئة من جهة اخرى وما يترتب اثرها من غريزة البقاء والحرص على السلامة وتجربة البقاء في حد ذاتها تجربة قاسية بطبها ولكنها جديرة بأن نحياها كما هي بعجزها واهتزازاتها تماما كما يفعل الغريق في البحر الذي يجد نفسه مضطرا أن يواصل الصراع فيه اذ لا خيار له سوى المواصللة ومن اهم الحلول تطبيق الأوامر الصحية بصفة كلية واستعجالية واي سهو أو انفلتات ولو فردي سيعمق ازمتنا جميعا ويهدد اهلنا بسوء المصير وفي الحالتين لا كماص من ان نعيش الرعب من الموت مقابل الرغبة في الحياة مقابل ان نموت بالاختناق و الدفن في جهنم الجير المحرق ولنا أن نختار بين الوعي أو الغباء والاستخفاف ببعض القيم سيزيد في تفاقم ظاهرة المجازفات المجانية

الفصل السابع والأربعون

قال الراوي

بايعاز من جناب محكمة الشعب المؤقّرة التّأمت جلسة خاصّة تقرّر فيها جمع مقترحات الحلول لبعض الازمات الّتي تمرّ بها البلاد من اجل ايجاد بعض المخارج الممكن تطبيقها والمناهج الّتي يمكن توخّيها لحلحلة بعض المسائل المعطّلة للمسار السّياسي والتّنمويّ في البلاد.

واول من تكلم في الموضوع احد الشباب الناشطين في الحقل الجمعياتي قال

- سيدي القاضي الفاضل بكل تواضع رغم الكوفيد وجدت حلا لماسي العاملين في قطاعي الثقافة والسياحة في تونس

ولمزيد تطمينكم ابشركم أنني وجدت * طلعة * في قالب تطبيقية إلكترونية تحل مشكلة كل العاملين في القطاع السياحي والقطاع الثقافي والفني وما اقترحه ليس تحريفا بل طريقة توفر لكل العاملين في القطاع الفرجوي والفني والثقافي وكل العاملين في القطاع السياحي ضمان العيش الكريم وفي نفس الوقت تفتح المجال لأغلبية الشعب التونسي في الحق في التثقف والترفيه واني متأكد ان الكثير منكم تفتن إلى ذلك لكن تواصل ضحالة المشهد السياسي العام وضعت على أعيننا الغشاوة وشلّت اغلب مبادراتنا

ولمن يريد الدليل على ذلك يمكن أن يدرك كيف تتعامل الدولة مع أي حل لمشاكلها وكأنها تعمل جاهدة على توخي الاذن الصماء وسياسة لو خرجت من جلدك لما عرفتكم ولمن تحرقصين يا زوجة الأعمى.

إلى هذه الدرجة تردت أوضاعنا بسبب الإصرار على الاستمرار في الرداءة وكأنّ الأمر مقصود ومخطط له ومتفق عليه لتحطيم مكتسبات الاستقلال وإدخال البلاد في أتون التواكل والفتن

لا تيأس يا شعبنا الكريم من رحمة الله وفضله على هذا البلد الأمين تونس الانس والأمان لا

بد أن ينتصر الشعب على هذه الكوارث

وتدخلت إحدى الطالبات قالت

- سيدي القاضي تربية واعية و ثقافة سليمة تنتجان أمة راقية والأمة الراقية تنتج عقولا نيرة تؤمن بإمكانية الشروع في تحويل الأرض إلى جنة وهم من سباهم الاسلام المصلحين في الأرض والمصلحون على قلتهم قادرون على ازاحة المفسدين في الارض على كثرتهم لأنهم يكسبون القدرة على انتاج العقول النيرة التي تصنع عالما سعيدا

الان المفسدون في الأرض يتبارون في افساد كل شيء وقد بدؤوا بالدين محاولين تبديل وجهته من دين سلام ينتظر الكافر حتى يسلم ويمهل العاصي حتى يتوب ويعدهم بأن الإسلام يجب ما قبله إلى دين مخيف مغلق مرعب مرعب.

وقالت فتاة أخرى

- سيدي القاضي ماذا ورثنا من الاسلام الحقيقي انا على بقين من ان الاسلام كان يمكن أن يكون دستوراً لكل شعب شمالاً وجنوباً و شرقاً وغرباً لو لم يتبدّل لياخذ خطأ شكل الدين المتحجر كما ارادته العقلية الجاهلية التي قاومت الرسول صلى الله عليه وسلم مقاومة شرسة منذ البداية بل تنكرت لما كان لديها يقينا لم تسمي الرسول محمدا الامين ولما جاهر بالاسلام سحبت منه ثقتها جهارا وكذبت نفسها بنفسها ولما تيقنت ان ربه نصره اسلم الكثير من الاعراب منها كذبا وبهتاناً فسماهم الله بالمنافقين وفضحهم في القران وعندها قرر اغلب المنافقين التبرص بالاسلام من داخله وظهرت نيّتهم تلك في العديد من الاحقاب ومنها اثر موت النبي محمد صلوات الله عليه في ردة كادت تطيح بالاسلام لولا عناية الله ثم برزت في تصديهم للاسلام المتسامح بالزيادة في الاحاديث وفي ايام الخلفاء الراشدين الاربعة قتلوا ثلاثة منهم بتهمة الكفر او ما شابهه ما يؤكده غلهم على هذا الدين السماح الذي يتنافى مع طابعهم لذلك تعمدوا مسخه بواسطة الانخراط فيه وتسخير بعض من السلط الحاكمة على اختلافها من بني أمية والعباسيين ومن خلفهم وذلك بواسطة دسائس المنافقين ولم يهدأ باهم الا بعد ان اورثونا ديناً يختلف عن الاسلام الحقيقي ذلك الدين الذي ينتظر الكافر حتى يسلم ويمهل العاصي حتى يتوب ثم يبشر

كل منهما بان الاسلام يجب ما قبله ودخلنا في دوامة تنوع المذاهب المتناقضة احيانا و تاويل القران تاويلا ينزع عن تعاليمه الرحمة تارة ويحولها الى انتقام و ترهيب طورا ويحفظنا احاديث مكذوبة تحرم الحلال وتحلل الحرام وتمتلئ كتبنا الدينية بالعقائب والغرائب حتى التي تعتبر صحيحة ادخلوا فيها ما سمموا به الاسلام ولم يتوقفوا عند ذلك الحد بل حفظونا دينا يتناقض في كثير من تعاليمه مع ساحة الاسلام دين يعتبر العلم كفرا ويجعل من المشعوذين علماء وتحول بعض رجال الدين الى وعواض متعنتين او أئمة مترمتين ومنهم من اوهمنا انه يمتلك مفاتيح الجنة ومنهم من ادعى انه يد الله في الارض حتى صارت الفتن عادة تنوارثها من جيل الى جيل ومن وطن الى وطن واستغلت ذلك الغباء المتفشي فينا من المحيط الى الخليج بعض القوى الاجنبية لتعطينا باسم الدين المأجورة وتنتهي به كيان البلدان العربية تحت شعارات رنانة او خلافة ولما عجزت على تركيع الشعوب العربية الاسلامية وبعض قادتها اوهمت اولئك المنافقين انهم على حق وكلفتهم بنشر الدعاوى والاشاعات والاكاذيب والمهت حماس عامة الناس وهدمت العراق بايد عراقية وعربية وقضت على سوريا وليبيا بنفس الايدي العربية المتخلفة والمأجورة او الجاهلة او المتزمتة او الرجعية وشرعت للارهاب والفتن وما زالت الى اليوم تحوكم لنا الدسائس خفية وجهارا ونحن نساعد بها بجهلنا وتبني دينا غريبا عنا نسميه اسلاما ونعتقد انه صحيح ومنزل وغير قابل للمراجعة ولا للنقد ولا للتفكر وافضت القدسية على اغلب الأطروحات و الكتب التي تعتمد عليها وقليل منا من يتنبه لسيرة رسولنا الاعظم ويذكرنا بمواقفه عندما كان يناله الأذى من الآخرين ايها أعظم قداسة صورة منسوبة خطأ للرسول ام الرسول نفسه عندما تم رميه بالحجارة في الطائف كيف رد الفعل لم يقطع راس أحد ولم يستجب للاخشيين لماذا لا نتبع نهجه اليوم لماذا لا ننسج على منواله لماذا لا نتعرض بأخلاقه وسعة صدره

وتدخل كهل قال

- اليوم وفي هذا البلد الامين فاني على يقين تام اننا بكثير من التروي والحكمة قادرون على اعادة الاعتبار للدين الاسلامي السمع والمتفتح على العلوم والمعرفة والمصالحة بينه وبين الطرح المدني وإخراجه من بعض الطقوس المتجمدة والقراءات الانطباعية وبعض القداسات المشكوك فيها وذلك بالرجوع للنص القراني قبل غيره مع تجريم وتحريم كل توجه ديني مبني على التفرقة

والتحريض والاستبداد بالرأي وإعادة النظر في مفهوم رجل الدين وتعويضه بلجان متعددة الاختصاصات تنظر في مختلف المسائل بحسب اختصاص كل عضو باعتبار أن الدين منهج حياة تتداخل فيه النوايا والسلوكات والقيم بما ينفع الناس ويلهمهم الرشد والصلاح ولا يفرقهم أو يغرس بينهم البغضاء والتنافر

وقال شاب آخر

- سيدي القاضي الموقر لو فهم الاسلام كما يجب لكننا بالفعل خير أمة أخرجت للناس هذا بصفة عامة اما بصفة خاصة وعلى هامش المبادرات من أجل إنقاذ البلاد من أزمة الرداءة فان الحلول للخروج بتونس وشعبها من مستنقعات الفاقة والبطالة والتخلف سهلة وممكنة ومنها على سبيل المثال لا الحصر

١ مبدأ الوطن للجميع بما في ذلك حرص الأجيال المتعاقبة على ضمان حق الأجيال المقبلة في مستقبل زاهر والتمتع بخيرات بلادهم داخل وطنهم

٢ ترشيد القضاء ترشيذا وظيفيا يعيد تكريس العدالة ويسمح بفتح كل الملفات المعلقة أو المخفية وتطبيق أحكام القانون بصرامة وعدل ودون مراوغات واهية تتعلل تارة بحقوق الإنسان لتميع الحكم أو تهاون في تطبيقه واعتبار الفساد في نفس درجة الإرهاب وتنفيذ كل الأحكام الصادرة عن المحاكم بصرامة ودون تأجيل ولا ممانعة مع تكريس مقصد الردع بالتشهير بالمجرمين وتطبيق الأحكام الصادرة في شأنهم بالسرعة اللازمة

٣ قطع دابر الفساد والمفسدين دون انتقام أو تشفي ولكن بصرامة

٤ تعجيل تنفيذ البرامج التنموية بالاعتماد على اخلاص الشعب ووطنية ومحاسبة المتقاعسين

٥ اعتماد مخططات تنمية قصيرة ومتوسطة وطويلة المدى تكون مدروسة ودقيقة و واضحة مع توفير البنى التحتية اللازمة والخاضعة للمراقبة والصيانة والحرص على مراقبة تنفيذها على الوجه الأكمل ومعاينة كل مغل أو مقصر أو مدّمر

٦ المتابعة والمحاسبة المستمرة والعدالة

٧ عدم السماح بإيقاف المرافق العمومية والانتاج الاستراتيجي بتعلات متخلفة العقلية والفصل بين الاحتجاج المشروع والحفاظ على نسق الإنتاج الحيوي المرتبط بالأمن القومي والثروات الوطنية

٨ اتباع سياسة خارجية اكثر نجاعة تعيد القى تونس بين الدول وتكرس حيادها الإيجابي وتركز على تنمية اقتصادها ورفاهية أهلها حاضرا ومستقبلا

٩ البدء بالقيام بإصلاحات جذرية في المنظومات التربوية والصحية والاجتماعية والثقافية

١٠ ترشيد العمل السياسي والجمعياتي ومراجعة قانون الأحزاب وتعديل القانون الانتخابي وتوفير مقومات النجاعة

١١ تجريم اي نشاط أو عمل أو نية خيانة الوطن أو تعمد الاضرار به أو بمكاسبه أو امنه واستقراره

١٢ تشجيع إرساء القيم دون تطرف او مغالاة أو إجحاف

١٣ الاخلاص للوطن اولا وتكريس كل عمل حزبي أو جمعياتي فردي أو جماعي لخدمة الوطن اولا.

الفصل الثامن والأربعون

قال الراوي

- تواصلت جلسات استماع القاضي والمستشرين الى ندوة تدارس الأوضاع العامة في بلادنا وخارجها وتعلّق الشّان بالأوضاع المتردّية والمتواصلة في أغلب البلدان العربيّة والإسلاميّة والأحداث المتفرّقة أحيانا والطّائرة أحيانا أخرى في العديد من تلك الأقطار وتحدّث المتدخلون والمتدخلات على عدم الاستقرار السياسيّ السائد في البعض منها والخرج الاستراتيجي الذي تعيش فيه من حين لآخر هذه أو تلك وما يعانيه البعض الآخر من هذه الأمصار من ملاسبات رغم اجتهاداتها الرّامية للهروب بنفسها من الصّراعات باستغلال موقعها الجغرافي الذي يخوّل لها الانضمام لكيان مجاور لها أو القبول باملاءات خارجيّة بصفة قصريّة وما يهدّد كلّ بلد عربيّ مسلم عموما بقطع النّظر عن ظروفه وملاسباته وتاريخه وقربه أو بعده عن مناطق الصّراع المعزّزة أحيانا بالعديد من الحملات التي تشنّها بلا هوادة على المسلمين والعرب في سائر الدّنيا بعض القوى الخارجيّة والتي تستهدف مقوّمات الإسلام أحيانا وأحيانا بقصد التعديّ السّافر على أقدس الرموز كالحملات المنظّمة ضدّ الرّسول الأعظم محمّد صلّى الله عليه وسلّم في بلدان غربيّة عديدة واحتضان المارقين عن الدين الإسلامي ونشر كتبهم وصورهم ورسومهم الوقحة دون تورّع وهدم بعض المساجد في بعض المدن واستصدار قوانين منع بنائها في أماكن أخرى وما تشهده الساحة العالميّة إلى اليوم من تحرّش وادعاءات وتهم مغرضة ضدّ الدّيانة الإسلاميّة كاقتراح كنيسة أمريكية تخصّص ذكرى الحادي عشر من سبتمبر من كلّ سنة يوما عالميا لحرق القرآن الكريم وما تلقاه مثل هذه النداءات من مساندة لدى بعض المفكرين والمثقفين وبعض رجال العلم والدين والسياسة الغربيين على قلّتهم بل وحتّى لدى بعض حكوماتهم وبرلاماناتهم ومجالس شيوخهم والبعض من شعوبهم بتحريض من دولة معيّنة كاسرائيل وغيرها من البلدان الموالية لها والعقوبات الاقتصاديّة المسلطة على أكثر من بلد عربيّ أو مسلم ومحاصرة أو تحديد تنقّلات بعض العرب والمسلمين وحجر أموال بعض منظماتهم ومؤسساتهم بما فيها الإنسانيّة وإخماد جميع المحاولات الفرديّة والجماعيّة والدوليّة الرامية لكسر حصار غزة والقطاع في فلسطين المحتلة

ومساندة عمليات التجويع الجماعي والقبول اللافت بالجريمة المنظمة ضد فئات مسلمة بأكملها والتعرض العنيف لسفن السلام غربيّة كانت أم شرقيّة وتزايد الحقد على الإسلام والمسلمين في الكثير من بقاع الأرض والمناذرة الصريحة والمتكتمة بزعة بعض الأحزاب والأنظمة المتواجدة في بعض الدول العربية والإسلامية واعتبار جميع أنواع المقاومة الشرعية أرهابا ومعارضة كل أشكال الوعي بالظلم الفردي والجماعي والتصدي للصلف والاستبداد موقفا عن الشرعية الدولية وتعمد اغتيال رموز هذه الأمة واقطاها وعلماؤها ومبديها والعديد من الصفيين العرب من حين لآخر وتبرير ذلك سرا وعلانية والعمل على اجتثاث روح النضال والمطالبة بالحقوق المسلوب أو الدفاع عنه حتى في حالة الاضطهاد وادراجهم في قوائم الارهابيين وتبعتهم من أجل محاكمتهم وتبرير تصفياتهم الجسدية والتخطيط الفعلي لذلك واعتماد شنّ الحروب الخاطفة والعمليات العسكرية الجراحية عليهم وعلى البلدان المشكوك في احتضانها لهم واستعمال أشنع أدوات الإبادة المحجّرة دوليا وما يقابل كلّ ذلك من صمت وتكتم وسكوت وقصور وعجز دولي وإقليمي وفي أحسن الحالات يجابه هذا التعسف بالترقب أو الحذر أو السلبية أو الأمبالاة وأحيانا بتشجيع ضمنيّ ومساندة سرّية من بعض التيارات المتحكّمة في الأنظمة العربية والإسلامية والتي يتوافق مشروعها مع المشروع الغربي الرامي إلى انبثاق عربي إسلامي منظم تخطط له بعض القوى الفاعلة وتسخر لذلك الخونة وبعض الشرائع المحسوبة باطلا على الشعوب العربيّة والإسلامية وبالإضافة الى كل ذلك يتم تسخير أغلب الأنظمة الدوليّة واللوبيات ومختلف التكتلات ووسائل الإعلام ودواليب الجوسسة والاستعلامات المعاديّة للمسلمين والإسلام كل ذلك وغيره يبيّن لنا بما لا يدع مجالا للشك أنّ الإسلام والمسلمين اليوم في خطر كبير وأنّ هذا الوجود المتزايد والتهديد المستمرّ والحروب المتواصلة وهذه التصرفات والمواقف المعاديّة تهدّد أمننا القومي واستقرارنا وتعرض كياننا للتفتك والانهار والدّويان وربّما تسوقنا إلى الاندثار الجزئي وربما الكلي

وأمام هذه المظاهر الخطيرة أفاد بعض المتدخلين أنّه يتحمّ علينا نحن مسلمو هذا العصر أن نتصدّى لهذا الخطر المحدق بنا بكلّ قوّة لا هنجعية وفعاليّة لا تهوّر وعزم دون اندفاع بل بحكمة وتبصّر وحرفيّة والتزام وطبقا لمخطط معدّ مسبقا.

وفي هذا السياق وضمن هذا التمشّي المحكم يجب ان تكون تحركاتنا في اتجاه تعزيز الهوية

العربية الاسلامة بكل ما اوتينا من قوة وبصيرة دون اندفاع او تهوّر.

وارتأى اخرون أن نتولّى القيام بدورنا في هذا المجال باعتبارنا مثقفين وبالتالي فاننا مسؤولون على الحفاظ على الهوية الإسلامية وسلامة كيان الأمة ومطالبون بالعمل الجادّ لإعلاء كلمتها وإسعاد صوتها والاستئانة من أجل تدعيم مقومات نجاح الإسلام والمسلمين في كلّ مكان من الأرض بعيدا عن اسالبننا التقليدية التي يضبط فيها حقنا في باطل اندفاعنا المتهور كما ذكرنا منذ قليل.

وافاد بعضهم وجوب أن نستفيد من التجارب الرائدة والدّاعيّة لمناصرة الإسلام وأهله في العديد من البلدان العربيّة والإسلاميّة على قلّتها واختار بعضهم بلادنا تونس هذا البلد الصّغير في مساحته لا لأنّه بلادنا بل لأنّه كبير بما قام ويقوم به في كامل فترات تاريخه الطّويل لنصرة الإسلام والمسلمين والالتزام بقضاياهم والدّفاع عن مقومات هذا الدّين الحنيف ببصيرة وتبصّر داخل البلاد وخارجها وقد تجلّى ذلك من خلال تبنيّ تونس الدّفاع عن الهوية الإسلامية في المنابر الدّولية والاعتناء في الدّاخل بإرساء القوانين الدّاعمة للإسلام بدء بالمستوى التشريعي ووصولاً إلى مستوى التّسيج المؤسّساتي والنّظم الاجتماعيّة السّائدة فيه والمنظّمة للعلاقات بين الأفراد والمجموعات والهياكل كحقوق المرأة وحقوق الطّفل والمساواة بين الأشخاص في الواجبات وترسيخ الحسّ الأخلاقي ضمن التّصرّف اليومي كحملات مقاومة الكلام البذيء ومنع التّدخين المضّر بالصّحّة في المحلّات الخاصّة والعموميّة ومعاينة التّظاهر بما ينافي بالحياة بأقصى العقوبات مع الحفاظ على الحريّات الخاصّة التي لا تلحق الأذى بالآخرين وبعث المؤسّسات الدّينية التي تضطلع بمواكبة تطوّر الحياة وملائمة السلوك اليومي لمقتضيات التّربية الإسلامية بعيدا عن التّزمت والتّحجّر والتّعصب والرّجعيّة والسّلفيّة المجحفة اقتداء بالإسلام المعتدل والدّاعي للوسطيّة والمنتشر في هذه الرّبوع بفضل انتشار الفكر المستنير الذي أسّس له شيوخ أفاضل مثل الأستاذ المرجوم الطّاهر بن عاشور في تفسير التّحرير والتّنوير للقران الكريم وابنه الشّيخ الفاضل بن عاشور من خلال محاضراته الأسبوعيّة في الإذاعة والتّلفزة التّونسيّة والدكتور محبوب بن ميلاد في كتابه تحريك السّواكن والشّيخ جعيط والعلامة حسين الخضر الذي شغل منصب مدير الجامع الأزهر بمصر في وقت من الأوقات وغيرهم كثر.

وافاد متدخلون اخرون أنّ تونس برجالها ونسائها ومؤسساتها ما انفكت تحرص على تشجيع مثل هذه المبادرات في كلّ البلاد العربيّة والإسلاميّة وبارك اخرون ما تبذله تونس من جهود في هذا الميدان وأكدت إحدى المتدخلات على وجوب إرساء مقومات الإسلام بوسائل عمليّة مع توتحي إجراءات فعليّة وتعتمد على الدلائل العلميّة والبراهين المقنعة والمتّسمة بالموضوعيّة والتجرّد لتجسيم ذلك ميدانيّا من خلال الدراسات المتعددة التي يقوم بها بعض المفكرين والمدعمة بتشجيع متواصل من كافة الهياكل الرسميّة والشعبية واكاد الكثير من المتدخلين على وجوب الالتزام بالرجوع لتراث هذا البلد الامين وابرّاز كل المقومات التي تدعم ارساء اسلام يدعو للامن والأمان والتذكير باجماده ومن ذلك ما تركه اسلافنا من اكتشافات واختراعات تركز هويتنا الاسلاميّة وترسخها والتزم اخرون من خلال في تدخلاتهم باستحضار بعض هذه الآثار والاحداث والتنبية لما تمتاز به تونس من أسبقية في مضمار العلوم والاكتشافات والتشريعات واعتبرنا ذلك شرفا يميّز تونس ويندرج في عريق تقاليدھا المدعّمة للهويّة الإسلاميّة منذ عقبة بن نافع إلى اليوم وابرز ما تميّز به تونس وشعبها من مكانة لدى جميع الدّول والشّعوب الغربيّة والشرقيّة على حدّ السّواء وما تحظى به من ريادة في استقطاب كلّ ما يدعم حوار الحضارات والثّقافات والأديان وأكّد اخرون على نفس المقصد الذي ترمي إليه جهود الأغلبية من خلال مشاريع تندرج في سياق الدّعوة للسّلم وحوار الحضارات والثّقافات والأديان والذي يرمي الى الدّعوة الجادّة لارساء انموذج بلد اسلامي معتدل خال من التعصّب والعنصريّة وتهم الإرهاب حرصا على نشر ثقافة الأمن والأمان والطمأنينة بين الشّعوب كما دعا اخرون لارساء انموذج يتيح مزيد فتح الحوار بين الناس جميعا ويرفع الوصاية عن المستضعفين في الأرض ويمد يد المساعدة لهم دون خوف أو طمع ويوصي بتدعيم الكفاءات وعدم التسلّط والهيمنة ويشجّع على توتحي الوسطيّة وعدم الكيل بمكيالين والالتزام بثوابت واحدة وإصلاح الخلل الموجود حاليا في الكثير من المؤسسات المحليّة والدوليّة وتحكيم العقل لإرساء العدل والمساواة الحقيقيين وهي نفسها تعاليم الإسلام الحق الذي نادى بها القرآن الكريم ووضّحتها السّنة النبوية ودعّمتها الاجتهادات الصّادقة لسلفنا الصّالح منذ نزول الوحي على نبيّنا الأكرم صلّى الله عليه وسلّم وأكّدتها آراء شيوخنا المعاصرين الفطاحل وتبيان أن كل ذلك لا يتعارض مع القيم الإنسانيّة المطلقة ولا مع النواميس الكونية ولا مع التعاليم السماوية وقد قدم بعض المتدخلين بحثا جادة

افادت أن العلم لا يتعارض مع الدين

كما تمنى البعض أن تصبح بلادنا تونس منارة سلم وسلام وأمن تستقطب كافة البشر وتجمع الناس على كلمة لا اله الا الله وتؤلف بين قلوبهم وتنشر فيهم السكينة والطمأنينة والأمل وتوحد بين العناصر والفئات والشعوب وتعرف بعضهم ببعض من أجل قبول الآخر واحترام عقيدته ولونه وجنسه وتفتح العصر الحقيقي لحوار الحضارات والاديان على مصراعيه. ولأنّ معشر العرب والمسلمين هم اول الضحايا واكثرهم تضررا من جراء عقلية الاقصاء السائدة في عصرنا الحاضر فقد أكد بعض المتدخلين على أنه يتحتم علينا جميعا قبل غيرنا تشجيع هذه المبادرة وتبني فعاليتها والتحمس لمنهجها والاخذ بزمام أمرها بحماس وإيمان وفعالية من اجل تصحيح المسار احتراماً لارثنا الحضاري وحفاظاً على مكاسبنا الوطنية وترسيخاً لمبادئ وقيم ديننا الحنيف الذي جعل من الوسطية منهجاً وأسوةً بنينا محمد صل الله عليه وسلّم الذي ما بعث الاّ ليتّم مكارم الأخلاق وينشر العلم والسلم والسّلام

وقال أحدهم

- أن أهمية هذا التّمشي لا تكمن فحسب في ما امتاز به من مكانة علمية وقيمة انسانية بل تمثل كذلك مساهمة فعلية في تصحيح مسار التوجه الانساني من اجل حوار مفتوح بين مختلف الحضارات والاديان وتعتبر هذه المبادرة مفتاحاً للسلام وجسراً للتّصالح والتعاون والوثام بين الجميع. وهي في نفس الوقت تناغم بين المظاهر الثلاث الجيوفيزيائي والديني والتاريخي واساسا الجييو استراتيجي من اجل ارساء بلد امن يعترف بالقيمة المضافة للانتاج الثقافي باعتباره أحد مقوّمات الحضارة الانسانية ودعامة للبلاد والعباد في حد ذاته اذ به يعرف الوطن ويشتهر ويحفظ في ذاكرة التاريخ وسجل الحضارة ويرسخ في الذاكرة الجماعية لمختلف الاجيال ويعتبر مكسبا قاراً وارثاً متواصلاً والانتاج الثقافي ظاهرة تاتي بعد معاناة ومخاضات عسيرة وولادات اكثر عسراً وليس محددًا بالزمن او الحال او الظرف فهو وان جاء فوراً لا بد له من جذور وتفاعلات ووطنها الذات الخفية وبذلك يخرج عن التقنين ويتحدى المجهود لانه عطاء خفي من العناية الالهية مزكّي عليه مسبقاً بكثير من الصبر والرغبة والانتظار وكثير من الامل والرجاء ومزكى عليه من طرف صاحبه بما تكبّده من انتظارات وتمنيات لم تلب اولا تلبى في الوقت والساعة ولا تلد بمجرد

الارادة والشهوة او الرغبة وان ولدت لا تكون الا بمقابل ثقل في الزمان والمكان والاثر الفني الناجح نادر الولادة صعب التحقيق غالبي الثمن لا يرقى دخله مهما ارتفع الى قيمة كلفه الباهضة بطبعها والمتمثلة في طول الانتظار وعدم اليقين بثبوت القيمة بالاضافة الى تكاليفها الخالصة بالضرورة وبه تظهر قيمة الشعوب وتبنى الحضارة الحقيقية

كما تطرقت المحكمة لعدة وجهات نظر منها ما هو اجل ومنها ما هو عاجل كما تعمدت الاستماع لما بصور واقع البلاد التونسية في منتهى عشرينها الاولى مع ثورتها التي نعتت بثورة الربيع العربي وثورة الياسمين الى ان وصل الحديث عن الاوضاع التي تعيشها البلاد بقيادة رئيس جمهوريتها قيس سعيد وفي هذا الصدد استمعت المحكمة الى بعض الاراء التي لا يمكن تجاوزها لاسباب عديدة ومنها ما يمكن ان تنجر عنها من نداعات في حاضر ومستقبل البلاد التونسية وحتى خارجها ولم يغفل الراوي عن ايرادها كما جاءت عن لسان احد المتدخلين الذين ادلوا بدلوهم في هذا الصدد ومن بينهم ذلك الطالب الذي ما زال في مقتبل العمر ولكنه قدم امام محكمة الشعب المؤقرة وجهة نظره في ما يحدث الان في بلاده قال بخصوص رئيس الجمهورية قيس سعيد الذي يراه المتدخل انه يعيش الان بين المواطن الرئيس والرئيس المواطن قال بهذا الخصوص

- سيدي رئيس محكمة الشعب المؤقرة للخروج من قوالب التحليلات الجاهزة والنمطية الإعلامية وانطلاقا من مجموع خطب وتدخلات قيس سعيد رئيس الجمهورية التونسي الحالي سحاول أن أخذ الأمر بأكثر جدية مما يفعل عادة بعض المحللين أو حتى بعض الاستعراضيين واول ما ابدأ به اقصاء الأفكار المسبقة والتاويلات لمجرد التاويلات لاقف على ما يلي

اول ما لفت انتباهي ان هذا الرجل بالذات يبدو جديا في طبعه نظيفا في سجيته وطنيا بلا شك وانه كان يعيش مثل أغلبنا بحصرة على مصير بلده فاذا به بلا سابق انذار او تهينة فعلية يدخل إلى القصر الرئاسي بدون ترتيب جدي مسبق وبلا تكتيك أو آليات دفع أو اسقاط ليجد نفسه في قلب الرجل السياسي من جهة ولأنه أصبح قلب مركز المعلومات التي ترد عليه من كل حذب وصوب من جهة اخرى وجد نفسه شيئا فشيئا مضطرا ان يكتشف تفاصيل اللعبة السياسية وتعقيداتها وحتى قذاراتها وكان عليه أن يختار بين الانسجام مع دوايب هذه اللعبة ومحاوله التلاؤم كما

يفعل عادة السياسيون والانتهازيون والمستكشون والمتملقون ومتهزو الفرص والطماعون والصائدون في المياه العكرة وحتى الصافية ولكن فضل أن يتمسك باخلاق المواطن التونسي العادي اي المواطن المجرد من الجشع والنهم ليبقى في موقعه كمواطن نظيف نقي ولما اكتشف أن الأمر صعب جدا بل أحيانا يبدو شبه مستحيل اعتنى بالتفرغ لفهم الدواليب وبدأ يجمع الخبوط والروافد واكتشف المشهد السياسي الحقيقي بدواليبه وطقوسه وتعقيداته واملاءاته وطلاسمه.

وهو السياسي العادي وجد نفسه في قلب رحي الطقوس السياسية تحت أسنان حراك ضروس تنهشه المخالب من مختلف الدواليب وعوض أن يختار اللعب ضمنها اختار اللعب بها وامام الوضع المعقد الذي وجده قائما تأكد أنه ليس امامه الوقت الكافي فقرر أن يتهيأ للتحرك الناجع والوظيفي وفي انتظار تعافي القضاء الوجوي وتخلص بعض القضاة من هيمنة السياسيين واسترجاع استقلالية السلطة القضائية المشروعة والمضمونة بالدستور اضطر قيس سعيد القيام بدور المواطن التونسي الصادق والوفي لأهله ووطنه بعد اكتشافه لمجموع التعقيدات الخفية والمعلنة في كل دواليب الحكم كما اكتشف خطورة الموقف الذي يقدم له مشهدا مرعبا فتاكا مخيفا يخيره بين الانسجام معه وتطبيق ما تمليه عليه أو ضاع معينة تجعله مضطرا للتضحية بمبادئه أو الرفض كما بدأ يعلم شيئا فشيئا صعوبة التنصل من رحي السياسة القذرة واكتشف مدى خطورة ذلك على سلامته فترث ليوصل الفهم والتمتع لعل الأطراف المحيطة به تتفهم الأمر وتراجع على مواقفها المتعفنة وكل يوم يكتشف صعوبة ذلك ولأنه رصين ونظيف ترقب هبوط وحي الوعي على بعضهم وخاصة على المرفق القضائي واكتشف أن ذلك صعب جدا ولكنه ممكن وما زاد في تربيته لعل شاهد العقل ينزل على بعضهم والان هو في هذه المرحلة وكل خطاباته توحى لمن فيهم بعض الوعي بأنه ما زال قادرا على تمكينهم من مهلات اخرى ونحن اليوم في هذا المشهد اي في آخر مرحلة من الإسعاف الذي مده عن طوعية وبمروءة منه لبعض من يحيطون به فإما أن يفهموا أن رئيس الدولة قيس سعيد تونسي ووطني صادق لا يباع ولا يشتري فيختاروا المنهج الحقيقي لثورة ديسمبر ١٤ جانفي أو يتنحوا شيئا فشيئا بمقتضى الدستور والقانون والعدالة عن بسط الايادي على هذه المرافق الأساسية والحيوية كما كان الشأن لحد هذه الساعة واغتنم زوج المرأة صاحبة الرأس المستعار رخصة التدخل قال

- سيدي القاضي أنا متأكد أنّ المستقبل لنا وأنّ إيماننا بالعلم وتشبثنا به والثابرة في تواصل البحث والاستقصاء وسبر الاغوار وعدم الركون او الاستسلام للموجود والاكتفاء به والرضا الكامل عليه وما يبدو اليوم غير مبرر او منقوص او مستحيل لا بد ان يحثنا على مواصلة الاستقراء في الكون كما ادعو سيدي القاضي الى رد الاعتبار للمرأة وعدم استنقاصها واني من منبركم هذا سيدي القاضي ابارك امامكم ما تبذله زوجتي المصون من مجهودات في ميدان بحوثها العلمية بل واعتقد انها ستتوصل عما قريب الى استكمال صنع الة عجيبة غريبة ستفاجئ بها كل العالم وترجع للعرب الق حضاراتهم كما ستساعد على حل كل ما علق بالاسلام من شكوك وتاويلات وضنون وتحل مشاكل عديدة وتفتح أفق أكبر لليقين.

قال الراوي

- ما ان صرّح الزوج بذلك حتّى اشرأبت الأعناق وتساعد الاهتمام وشرعت بعض الجهات في البحث عن الزوجة اللّغز التي غادرت قاعة المحكمة دون أن ينتبه لها أحد حتّى قواعد الاستقصاء والمختصّون في البلوقات والرحاب الايلكترونيّة المتطورة جدّا وحتى جدّا جدّا

ولوحظت تحركات حثيثة تولّت بأمر من جناب القاضي تمكين المحكمة من مزيد المعلومات والأخبار الاستقصائيّة التي توضّح لجناب القاضي وأعضاده الميامين ما تقوم به هذه الزوجة الفلّتة صاحبة رأس الورثة العجيب من بحوث وما تنوي تحقيقه من وراء مشروع بحثها الذي أعلن عليه منذ قليل ما اعتقد بعضهم أنه النّاطق الرّسمي باسمها.

قال الراوي

- وقبل أن يأمر جناب القاضي بانتهاء حصّة هذه الجلسة الخارقة للعادة سمعت فرقات تشبه تلك التي تصدر نداء تجربة التّثبت من توازن أصوات الأبواق ومراقبة توزيع الذّبذبات وتنقيتها والتي تسبق عادة تلك التّجارب التي تبدأ قبل العروض المسرحيّة بقليل للتّثبت والتّأكّد من سلامة المعدّات الصّوتيّة ثمّ تلت كلّ ذلك حشرة ثمّ خرخشة ثمّ أصوات كأنّها خارجة من أعماق جبّ أوّل ما انتبه لها باهتمام شديد أحد الشّيوخ الطّاعنين في السنّ ممّن تجاوز عمرهم الثّمانين

سنة بل ربّما اقربوا أكثر للتّسعين.

انتفض الرّجل انتفاضة تشبه الشّخص المكهرب وبتعجّب شديد وغرابة أشدّ قال

- ما هذا الذي يجري يا الاهي لا أكاد أصدّق هذا صوت جدّي ... أنا متأكّد من ذلك بل ما زلت أذكر حتّى المناسبة التي قيل فيها هذا الكلام وأتذكّر أيضا من كان حاضرا معنا وأتذكّر كلّ ما قاله لنا وأذكر جواب والذي الذي حضر هذا الموقف وأذكر

ولكن الصّوت النّسائي قاطعه قائلا

- لا تكمل يا شيخنا الفاضل سأسمعك ما قاله والدك الذي كان حاضرا بعد موافقة جناب القاضي واعضاده

- جدّي الوحيدة التي كانت حاضرة وكان معنا

قاطعة الزّوجة قالت

- تمهّل قليلا أيّها الرّجل الفاضل ستعرفنّ أنّ بما تتذكّر من تفاصيل حول هذا الحوار الذي حاولت أن أجمع مختلف عناصره من بين شتات بليارات الأصوات الضّائعة في الفضاءات الشّاسعة من الكون والمقتطف من أزمان لم تعرف التّسجيل ولا الياته ولم تحضر لأيّ الابتكارات بل منها ما حصل قبل اكتشاف علم الأصوات وقبل التّعرف على أساليب التقاط الصّور الفوتوغرافية ثمّ المتحرّكة ناهيك عن أزمنة اكتشاف التّقنيات السّينمائيّة

كانت الزّوجة تتحدّث للشيخ في نفس الوقت الذي كان زوجها يقدّم لجناب المحكمة الموقّرة كامل وثائق الملفّ الحدث الذي تلوّح الزّوجة ببعض تفاصيل ملامحه الأوّليّة والتي لم يستطع الشيخ الذي تحاوره أو من يستمع اليها من الحاضرات والحاضرين فهمها من الأساس

أضافت الزّوجة وهي تقترب من الشيخ المسنّ

- سيّدي الكريم لا تقلق هيّا نفسك لتقديم تفاصيل ما تعرف عن هذا الحدث لجناب القاضي الذي من المؤكّد أن يستجوبك قبل الشّروع في الاستماع الى ما جاء فيها قدّمت لجنابه من معلومات

وأحداث ووقائع وتفاصيل ثم انتظر حتّى تأذن لك المحكمة بالتفصّل للانصاط الى محتوى ما جاء في التقرير الذي قدّمه الان زوجي لجنابها

سكت الشيخ من شدة الذهول بل كاد يغمى عليه اسرعت المرأة لشده من كتفه الأيسر لتجنّبه السقوط على الكرسي الأمامي الذي كان قبالة وهي تقول

- مهلا لا تنزعج وانتظر حتى يستدعيك القاضي ولا تسألني قبل ذلك ولا تجزع أرجوك وخذ كامل وقتك لاسترجاع ذاكرتك فالتّسجيل سيفاجؤك أوّلا وما تقوله أنت سيفاجئ الجميع ولكن قبل أن أشغل تطبيق التّسجيل الكامل أرجو من جناب القاضي أن يدعوك لتروي على الملء كامل الاحداث التي ذكرك بها هذا المقطع البسيط وبعد ذلك لكل حادث حديث حاول فقط قدر المستطاع ان لا تنسى تفاصيل ما ذكرناك به وقيل ان يسمعك القاضي كامل الحوار مسجلا حاول ان تستحضر ما يمكن استحضاره واكيد ستقرر المحكمة اسنادك بما يلزم من المختصين في علوم النفس والتاريخ وحتى علماء الاصوات وخبراء التقنيات الحديث في التطبيقات الالكترونية وكل ما تستحق من سندات ابان التحقيق مك

- قل لنا أوّلا هل هذا الصّوت الذي سمعته هو بالفعل صوت جدّك وماذا تبدّل فيه أو منه حسب رأيك.

- هو بالتأكيد صوت جدّي ولا يمكن أن يكون الاّ صوته ليس فقط من نبراته التي تربيت عليها بل بالأساس لأنّي كنت حاضرا انذاك والى اليوم ما زلت أذكر الحوار والمناسبة وأذكر كذلك كل من كان متواجدا فيه وماذا قيل فيه وأذكر كل التّفاصيل بل تفاصيل التفاصيل أيضا لكن كيف تحصّلت على هذا الحوار مسجّلا وقد تمّ في زمن لم تكن لنا فيه الات تسجيل كما هو الشّان بعد ذلك وحتّى لما توفّرت فيما بعد عند غيرنا فلم يكن متاحا لنا توفّرها بل لم نكن نسمع بها حتّى ثم أضاف الشّيخ

- عجبا كيف سجّل ومن سجّله ومن حافظ عليه ومن أمّدك به أيّتها السيّدة لقد تمّ ذلك وانا شاب صغير ولم تكن لنا ولا لغيرنا مسجلات انا على يقين من ذلك والله العظيم اقول الحق ولا اقول الا الحق بل لم تكن لنا في ذلك الزمن لا هواتف ثابتة ولا جوالا لا في قريتنا ولا في بلادنا ولا

حتى في البلدان القريبة منا

أجابت المرأة

- أعرف ذلك

واصل الشسخ حديثه قائلاً

- بعد وفاة جدّي كسب والدي أول آلة نسميها مغنيّة يضع عليها اقراصاً مسجّلة فيها اغاني لفنانين وفنانات منهم الاحياء ومنهم المتوفّين هذا كل ما أذكره

- اصبر علي قليلا سيدي الشيخ الكريم

- لا املك الا الصبر عليك يا ابنتي انت بصدد اختراق الزمن كنت اتفهم ذلك لو كان جدي او والدي كاتباً او شاعراً او تعرفت انت على احد رفاقها اقصد على سلاّلة من احد رفاقها

- لا تعجب فانا عندي ما اغرب من ذلك

اضطرت الزوجة الى الانتباه لحديث القاضي الذي توجّه لها مباشرة قائلاً

- في انتظار ما سيفيدنا به الخبراء المسخرون لهذه القضية من طرف محكمة الشعب هل لك سيدتي ما تضيفي بصدد ما قدمته لنا في تقريرك المتعلق بالابتكار الذي تدّعين أنّك نوصلت اليه

تقدمت الزوجة وبعد ان سوّت المصداق الذي وضعته المحكمة على ذمّة كلّ من أراد أن يتدخّل بكامل الحرّية وفي كنف نظم الضوابط والبروتوكولات المتجددة في ما يخص نظم التدخل بحسب ما هو معمول به في كل عصر من العصور التي توالى على جناب محكمة الشعب الموقرة طبقاً للضروف والملايسات والاليات المتاحة والموضوعة على ذمة الجناح دستوريا قالت الزوجة

- مكنا التطور التكنولوجي من دراسة الأصوات الكلامية وتتبع تغيّراتها في السجلات المنطوقة كالأصوتيات النطقية التي تعنى بعملية إصدار الأصوات اللغوية والصوتيات الفيزيائية التي تهتمّ أساساً يبحث في الخصوصيات المادية للأصوات اللغوية باعتبارها أمواج صوتية تتعلق بسعة الذبذبات وعلوّ وحدة الصوت وكيفية انتقاله عبر الفضاء من الباتّ للمتلقّي وبالتالي

كيفية استقبالها وإدراكها والتي تدخل في حيز ما اصطلاح على تسميته في اختصاص ما يسمى بعلم الصوتيات السمعى الذي يعنى بدارس كيفية استقبال الصوت وإدراكه من طرف المتلقي ضمن سجل لغوي معين متفقا عليه مسبقا في سياق انساني معين طبقا لمعايير تفرق بين الصوتيات والنطقيات باعتبار ان كل منهما يمثل جزءا هاما في علوم اللغويات والصوتيات لتصنيفاتها العديدة التي تبدأ من صوت الحرف المصوت او المنطوق عندما يتدفق الهواء من الرئتين عبر الفم بدون أي عوائق، إذ ينتج عن اهتزاز الحبال الصوتية، ويمكنك الشعور بهتزازها إذا ما وضعت يدك على حنجرتك أثناء إصدار الصوت، وعندما لا يحدث الاهتزاز يكون الصوت المهموساً الى الضعيف وصولاً الى الجهوري فالعالي والصّادي الى شديد الارتفاع وما ينتج عن ذلك من تطبيقات في علم الصوتيات وما يترتب عن ذلك من تطبيقات في علوم الحوسبة وميادين الذكاء الاصطناعي ومنها تقنية التعرف على الكلام المستخدمة في مترجم غوغل وفي تقنيات الاتصالات الصوتية و البحوث الصوتية وتقنيات التعرف على الصوت ومعرفة هوية المتحدث وما زال العلماء يواصلون الانكباب على دراسة مختلف اشكال التطبيقات العملية التي تهم تفاصيل حياة الناس ومن ذلك دراسة انبعاث الصوت في الفضاء وتحوله لموجات صوتية وتشكلها بحسب ما يعترضها او يحيط بها من مواد تؤثر حتما فيها وحتى في تركيبها الاصلية ومن ذلك الصدى ورجعه والتي جلبت اهتمام الإنسان منذ ازمة بعيدة والصدى هو الانعكاس المرتبط بشكل كبير بالصوت وهو وصول الصوت الى المستمع بعد إصداره له مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة للصوت الراجع من قاع البئر، أو في فضاء بناية فارغة شان ما يقع كذلك مع ظواهر اخرى كالأمواع الكهرومغناطيسية عند انعكاس الضوء على سطح المرايا والذي نتجت عنه العديد من التطبيقات العملية كالرادار الذي استعمل لتحديد البعد بين الارض والقمر طبقا لقانون ارتداد الموجات الصوتية المصطدمة بحاجز صلب مسطح وما يترتب عنه من عود إلى نقطة الانطلاق ويقدر العلماء المدة الفاصلة بين انطلاق الصوت الأصلي وصداه بصفر فاصل واحد في الثانية الواحدة والجدير بالذكر أن الضوء والصوت لهما نفس التمشي مع الفارق في سرعة التدفق اذ تبلغ سرعة الضوء قرابة ثلاثمائة الف كلم في الثانية الواحدة

سكنت المتكلمة قليلا ثم استأنفت الحديث قالت

- إذ يمكن إثبات ذلك بإسقاط ضوء على مرآة بزاوية معينة فنلاحظ أن انعكاسه بنفس مقدار الزاوية الصادر عنها، إلا أن الفرق بين الضوء والصوت يكمن في السرعة، إذ يمكن للضوء أن ينتشر بسرعة كبيرة جداً تصل إلى ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية. أما الاستشعار بالصدى فهو بمثابة وسيلة يعتمد عليها الحيوان بالدرجة الأولى للتوجه لفريسته، إذ يصدر أصواتاً تمكنه من استيعاب الوسط والإمام به ما يسهل عليه إدراك العوائق التي قد تواجهه، والترصص للفرص واقتناصها، كما يمكن للعقل البشري الاستفادة من هذه الآلية بتوظيفها في مختلف الميادين الخاصة بالاتصالات.

هناك حقيقةٌ معروفةٌ جداً استحققت لأن تكون مطلعاً في فيلم الخيال العلمي Alien الذي عرض في عام ١٩٧٩: "لا يمكن لأحد سماع صرختك في الفضاء"، أو لنفس ذلك بطريقةٍ أخرى، لا يمكن للصوت أن ينتقل في المساحات الفارغة من الفضاء، فليس هناك أي جسيمات تسمح لاهتزازات الصوت بالحركة خلالها، وهذه الفكرة كانت حقيقةً لمدة طويلة، ولكن ليس بشكل مطلق. على ما يبدو، الفضاء ليس حيزاً خالياً تماماً، على الرغم من كون مساحاتٍ واسعةٍ منه كذلك. يُستخدم الغاز بين النجمي والغبار الناتج عن النجوم القديمة في بعض الأحيان في خلق نجوم جديدة، وقد يتمتع بالقدرة على نقل الموجات الصوتية التي لن نكون قادرين على الاستماع إليها، حيث أن الجسيمات متفرقة جداً وتنتج موجاتٍ صوتيةً بتردد منخفض يكون أدنى من القدرات السمعية للبشر. شرحت ذلك الأمر

وبعد توقف قصير نسبياً استأنفت الزوجة العاملة حديثها قالت

- ليست أنا الأولى في مثل هذه البحوث فقد سبقني العديد من الباحثين والباحثات من بينهم امرأة أجعلها اسمها كيونا سميث ستركلاند Kiona Smith-Strickland التي أفادت قائلة في احد المصادر

- أن الصوت ينتقل عندما ترتطم الجسيمات ببعضها البعض، تماماً بنفس الطريقة التي تتشكل فيها الموجات على سطح الماء عندما ترمي فيها الحصى، فعندما تصبح الموجات أبعد فأبعد فإن الصوت يخسر قوّته (شدته) تدريجياً، ولذلك لا نستطيع نحن كبشر إلا سماع الأصوات الصادرة

من مكان قريب مثلاً. عندما تمرّ موجة صوتيّة، فإنها تسبّب تذبذباً في ضغط الهواء، والتوقيت بين هذه الذبذبات يمثّل تردّد الصوت (الذي يقاس بوحدة هرتز)، أما المسافة بين هذه الذبذبات فيطلق عليها اسم الطول الموجي. في حال كان البعد بين جسيمات الهواء أكبر من الطول الموجي، لن يتمكن الصوت من سدّ هذه الفجوة وسيتوقف التذبذب (التموج). ولذلك لا بدّ للصوت من أن يكون له طولٌ موجيٌّ واسع، أي سيكون بمثابة صوتٍ ذي شدة منخفضة بالنسبة لنا، من أجل أن ينتقل من جزئيّ إلى آخر في أجزاءٍ محدّدة من الفضاء. وعندما يصبح الصوت دون ٢٠ هرتز، فإنه بالتالي يكون تحت القدرات السمعية للبشر لذلك لن نتمكن من سماعه.

ثم اضافت الزوجة قائلة

- فما هو حقيقة اليوم يمكن ان يتحول ومن ذلك ما كان سائدا في اواخر السبعينات عبر فلم اليان الذي انطلق من انه: "لا يمكن لأحدٍ سماع صرختك في الفضاء"، أي لا يمكن للصوت أن ينتقل في المساحات الفارغة من الفضاء، في غياب ما يسمى بجسيمات تسمح للاهتزازات الصوت بالحركة من خلالها، وهذا الراي كان شبه حقيقةً لمدّة طويلة ثم تبين فيما بعد ان الفضاء ليس حيّزاً فارغاً تماماً، على ما فيه من مساحاتٍ شاسعةٍ اذ يحتوي على العديد من المواد المتحوّلة والناجمة عن تفاعلات عديدة منها الغازات المنبعثة من بعض الكواكب والنجوم الجسيمات الغبارية المنبعثة

اثر تفكك او اندثار بعض النجوم القديمة او اثناء تشكل نجوم جديدة، وكل هذه الغازات والخلايا الغبارية يمكن نقل الموجات الصوتية التي لن تكون قادرين على الاستماع إليها، بسبب تفرّقها وتشتتها وانفصام بعض اجزاء تركيباتها الاصلية والتي تسبب في انخفاض تردداتها وتلاشيها لذلك تفيدنا العالمة كيونا سميث ستركلاند بما يلي

- لا بدّ للصوت من أن يكون له طولٌ موجيٌّ واسع، أي سيكون بمثابة صوتٍ ذي شدة منخفضة بالنسبة لنا، من أجل أن ينتقل من جزئيّ إلى آخر في أجزاءٍ محدّدة من الفضاء. وعندما يصبح الصوت دون ٢٠ هرتز، فإنه بالتالي يكون تحت القدرات السمعية للبشر لذلك لن نتمكن من سماعه. هناك مثلاً ذكر في موقع غيزمودو عن صوت الثقب الأسود، والذي يمتلك العلماء حوله معلومات قليلة حتى الآن، حيث يحتوي ٥٧ أوكثافاً تحت درجة دو الرابعة (بالسلم

الموسيقى) وهو دون حدود سمع الانسان، حيث يزيد بملايين المرات عن قدراتنا السمعية. من المتوقع أن تستطيع قياس ذبذبة واحدة كل ١٠ ملايين عام في صوت الثقب الأسود، في حين أنّ آذاننا تتوقف عن سماع الأصوات التي تهتزّ ٢٠ مرة في الثانية. بالعودة إلى الكوكب الذي نعيش فيه، يمكن لأي صوتٍ قويٍّ ناجم عن زلزال أو كارثة أن ينتقل إلى الفضاء، ويمكن للموجات تحت الصوتية أن تمرّ بنفس الطريقة التي يمر بها الصوت العاديّ. لمدة قصيرة من الوقت بعد حدوث الانفجار الكبير (منذ حوالي ٧٦٠,٠٠٠ عاماً) كان لا يزال الكون كثيفاً جداً للسماح بانتقال الأصوات العادية عبره، لذا عندما تسمع صوت انفجار مركبة فضائية في أفلام Star Wars، لابدّ لك من تذكر أن مخرجي الفيلم يبالغون في مشاهدتهم، حيث أنك واقعياً لن تستطيع سماع صوت كهذا في الفضاء.

وفي هذه المرحلة اضطرت الزوحة للتدخل المباشر لتلخص للحاضرين وبالاخص لجنان القاضي وطاقم الاختصاص الذي عينه الخبراء في الصوتيات لمعاوضة جهود الفهم واستعاب الظاهرة بأساليب مبسطة قالت بخصوص مشكل الساعة المتمثل اساسا في ما تشتغل عليه هي بالاساس في مضمار مداخلتها والتي استهلّت بمفاجأة الحاضرين وعلى راسهم ذلك الشيخ الذي وجد نفسه في قلب مشروع هذه المرأة والمتمثل أساسا في استعادة أصوات الماضي قالت

- سيدي القاضي يا اهل الدراسة والاختصاص حتى لا احتكر الخطاب لا بد من ان تتبها لما سيرويه على سمعكم الدكتور هيا ابراهيم الجوهر تاحضر بيننا صدفة

وتحت موجه من التصفيق وباذن من جناب القاضي تقدم المتدخل قال بعد ان حيا الجميع

- الصوت يحيط بنا من كل مكان، أصوات البشر، الحيوانات، التلفاز، المذياع، الطيور، السيارات، الطائرات، وإن كنت في مدينة ساحلية فستستمع بصوت ضرب الأمواج على الصخور، حفيف الأشجار الذي اكتشف العلماء أنه حديث ولغة بين الأشجار، صوت الرعد، وكلها موجات ذات طاقة محددة ومتباينة، تقاس بالديسيل، ومعروف أن أذننا البشرية لها حد معين في التقاط الأصوات، لذا كان من معجزات نبي الله سليمان أن سمع حديث النمل وفهم فحواه. ولكن هل فكرت يوما فيها هو مصير ذلك السيل الهادر من الأمواج؟ أين تذهب؟ هل

تختفي أم تتحول وتشكل؟ هل سنجدها مخزنة في مكان ما؟ بما أن المادة لا تفتنى ولا تستحدث من العدم. إذن، أين تذهب تلك الأصوات؟ هل تستطيع الصخرة أن تحفظ صوت الموج؟ وهل ستمكن جدران منازلنا من حفظ أسرارنا أم سيتحقق المثل القائل إن للجدران آذاناً؟! عندما نتحدث، تنطلق الموجات الصوتية من اللسان والحنجرة الصوتية، ليدخل جزء منها إلى أذن المستمع، والباقي يسبح في الأثير من حولنا، فتعبر وتتحوّل وتنعكس وقد تضعف. وهذا يعني أن الفضاء مليء بالأصوات التاريخية القديمة، تنتظر من يستطيع التقاطها وإعادتها إلى صورتها الأولى بعد وفاة صاحبها بفترة طويلة، وهو أحد الطموحات التي كان يؤمل تحقيقها من خلال مشروع "حرب النجوم"، الذي تبناه الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريغان. هل تمنيت يوماً أن تستمع لخطبة الوداع، أو أحاديث الصحابة، أو كواليس الحرب العالمية الأولى، أم تمنيت أن تعرف بعض الحقائق التاريخية التي شوهت وزورت؟ وهل تمنى المحققون أن يستمعوا لأصوات المجرمين ويحلوا أصعب القضايا التي قيدت ضد مجهول؟! تخيل معي كمية المعرفة التي سنحصل عليها لو استطعنا استعادة أصوات الماضي، ليس هذا فقط، فقد تتمكن من سماع صوت أمك أو أهلك المتوفين ويقتلك الحنين لهما. بعض العلماء يستبعد هذا؛ لقناعته أن جزيئات وذرات المواد "كالجبل والشجرة والصخور.." تتأثر بموجات الطاقة الصوتية فترة محدودة ثم تعود لوضعها السابق؛ لذا لا يمكن بقاء أثر للصوت. والسؤال هنا: هل المادة تحتفظ بالأصوات واحداً تلو الآخر دون أن تتأثر بالأصوات اللاحقة؟ وإذا كان الجواب نعم، فإننا نستطيع استعادة الأصوات القديمة، فقد كان تسجيل الصوت الذي نستمع إليه اليوم شيئاً مستحيلاً ومن ضرب الخيال قبل عام ١٨٩٨، حتى قام العالم الأمريكي "أديسون" بمحاولات تسجيل الصوت ونجح. وكان جهاز التسجيل "الفونوغراف" أول جهاز لتسجيل الصوت، ثم تلاحت طرق عديدة لتسجيل الصوت، آخرها أشرطة DVD عبر الكمبيوتر.

شكر القاضي المتدخل واخذت الزوجة الكلمة من جديد لتواصل قائلة

- جاء في تقرير نشره موقع "physics central". ما يلي: " من المعروف أن الصوت ينتقل عن طريق اصطدامه بالأجسام الموجودة في الوسط، فينتج عن ذلك اهتزازات تستقبلها طبلة الأذن، ثم يقوم الدماغ بتحويلها إلى صوت. وفي ظل غياب الأجسام المطلوبة لانتقال الصوت في

الفضاء تكون هناك صعوبة في انتقال الصوت، وهي المشكلة التي حلتها وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا"، باستخدام الأمواج الراديوية. "ويوضح التقرير أن الأمواج الراديوية تنتقل بشكل مقالي عبر الفراغ، لأنها نوع من الأمواج الكهرومغناطيسية (ضوء)، والتي لا تحتاج إلى وسط للانتقال عبره. وتعرف الصوتنة (Sonification) بأنها العملية التي تترجم البيانات إلى صوت. وتبدأ الترجمة خلال الفيديو الذي نشرته ناسا، من الجانب الأيسر وتنتقل إلى اليمين، حيث تمثل الأصوات موضع المصادر وسطوعها ويُسمع سطوع الأشياء الموجودة على أنه نغمات أعلى، بينما تتحكم شدة الضوء في مستوى الصوت.

الفصل التاسع والاربعون

قال الراوي

- زرت الكثير من المحاكم وحضرت في حياتي الى العديد من المحاكمات وكنت شاهدا على اداء الكثير من رؤساء المحاكم والحكام ولم أقف مرّة على صبر هذا الرئيس بالذات بل واعتقد انه ضرب الرقم القياسي في صبره على الاستماع الى اطول شهادة شاهد دون ان يقاطع صاحبها او يمتنع منه او يقلق من التفاصيل او التكرار بأي شكل من الاشكال وقد استرعى ذلك اهتمامي وتعلّق فضولي بتحديّ ذاتي وصحّتي وحتيّ قدراتي الفكرية لذلك ركّزت مع المتكلّم من أول تدخله لآخره بل حرصت على متابعة ذلك التّدخل وايراد ما جاء فيه جملة وتفصيلا قال المتدخّل

- مرّ عليّ قرن الأربع وانا أراوح عقدة لازمتني العمر كلّ ولم أجد لها حلاّ منذ نعومة أظفاري أو بالأحرى منذ ان تفتّنت أنّ لاظافري نعومة وأنا أحلم أن يكون لي كتاب وعندما شرع في اتّهامي بأنني شاعر أخذني الغرور فقرّرت أن أطبع كتابا وأقدمت على ذلك بكلّ صلف واسرار وتحّد وربّما أيضا بشيء من التّهوّر أيضا فقد طبعت أوّل ديوان شعري لي تحت عنوان اللّيل والعرب في ٥٠٠٠ نسخة في احدى اشهر المطابع التونسية دفعت لصاحبها كلّ ما أملك من مال والباقي سلّمت للنّاشر فيه صكوك بنكية بمبالغ تعدّ انذاك باهضة وأنا لا أتقاضى الا بضع دينار شهريا وكان تصرّف في ذاك تحديّا جنونيّا منّي اجابة عن موقف بديل كان يعرض عليّ أن يطبع كتابي على نفقة احدى الوزارات لو بدّلت القصائد المعروضة للطّبع بالقصائد التي كتبتها في الرّئيس بورقيبة وأمام رفضي القاطع لم يساعدني أحد حتّى النّاشر الذي لبّى امر تعجيزي مكرها وتمّ طبع الديوان الشعري بالمواصفات التي اردتها وبالثمن والشروط المجحفة التي طلب من النّاشر ان يطبقها علي بلا رحمة ولا شفقة وامام هذا الاصرار وجدت نفسي اقف لمدة ساعات ثلاثة في مكتب منح التّأشيرات بوزارة الداخلية لاجيب عن استفسارات في الادب واللغة و بعض مقاصد ما جاء في القصائد وانتهت الجلسة بالاكْتفاء بمنحي تاشرة الطبع وارجاء تاشيرة التوزيع الى اجل غير مسمى وبعد ان نفضت ريش امتعاضي خرجت بالتّأشيرة اليتيمه متوجّها

الى مقر المطبعة لحمل ال ٥٠٠٠ نسخة على متن شاحنة ٤٠٤ من تونس الى مقر سكنائي ببزرت اين بدأت حياة جديدة مملوءة بالتعب والشقاء والتهديد بالسجن وبدأت معاناتي بين البحث عن موارد الخلاص وامتعااض زوجتي التي كرهت الكتابة والكتب والشعر والادب والثقافة وأهل الثقافة وعشنا انا وزوجتي وبناتي وابنائي سنوات عصبية عويصة تعقدنا فيها جميعا كل على طريقته وقدرات احتماله ورصيد صبره وتم خلاص الكتاب على مر السنوات واكتسبنا ما سميتة عقدة طبع الكتب او رعب الطبع وبقي غول الاوراق المكتوبة بقلم الخبر وكل ما كتبتة بقلم البيك او بالالة الراقنة وما استخرجته بالمال من صفحات عند من كانوا مختصين بما سمي بمعالجة النصوص كل ذلك بقي يمثل في دارنا التهديد الاكبر لدمار عائلتنا المحتمل والتي تحاول ان تسترجع توازنها وكلما احس احدنا بنشوة الانتصار تذكره هذه المكتبة وارواقها احتمال رجوع رغب جديد واكثر من كان يتوجس خيفة من هذه القنابل المؤقتة زوجتي بحكم التجربة من جهة والمسؤولية من جهة اخرى فلا شيء كان يرعبها بحق اكثر من تلك الاوراق المرصوفة تحت عناوين مغرية كالمؤلفات والخواطر والدواوين والاثار المرصوفة في مكتبة عاشت عبثا حينما وحينا بمثابة الخطر الداهم والذي يذكر كل فرد من افراد العائلة بايام العسر والخصاصة والرعب ومرت السنون وفي المدة التي ذهبت فيها لفرنسا لاجتاز مناظرة في اطار استكمال الاختصاص في علم نفس الصممت وتقنيات البحث العلمي المعمق قرّرت زوجتي في غيابي بيع مكتبتنا المنزلية في سوق الخردة وتخلصت بالحرق من كل الاوراق التي بررت وجود تلك المكتبة بيننا بكل الزام ووقاحة انتقاما لا يام الجمر التي عانت منها عائلتنا كبيرها وصغيرها وبالاخص هي اثر اصراري على طبع كتابي الاول وقد فعلت زوجتي المصون ذلك شفاءا لغلها الدفين على الورق المكتوب وضمانا لها ولابنائها وبناتها ولزوجها المهدد بغروره وربما كذلك لتوفّر لنا جميعا مزيدا من راحة البال الدائمة وربما لتبعد أي احتمال خطير او مجازفة غير محسوبة يمكن ان يقوم بها أي فرد من عائلتنا من ذلك امكانية ان يتبادر لذهم احد ابنائي او بناتي بالاقدام على ارتكاب جريمة الطبع ولو على حسن نية فيمثل ذلك او بعض ذلك مجازفة او لعبا بمصير عائلة مازالت تحاول الالتزام بالاستقرار الاسري وتحلم بالعيش دون هزات ودون زلازل عاطفية او مالية

ومع مرور الزمن ووغولي في مراحل اردل العمر بدأ حلم طبع اخر كتاب لي يراودني بنسق

متزايد يوما بعد يوم ولأن العين بصيرة واليد قصيرة فقد التزمت التريث المفروض علي فرضا
بالقدر المحتوم والواقع المحتوم والسر المكتوم

وبقي ويبقى نفس السؤال معلقاً يلازمي ويقتفي أثري وعشت استغل الترّقب والعجز
لمواصلة الكتابة ملءاً للوقت وربما تفريغاً للشحنة التي تسكنني بالاساس والتي تستند الى
الاحساس بمسؤولية تبليغ امر ما للاجيال الحاضرة والقادمة وربما لتبرئة ذمّتي تجاه هذا الوطن
العزيز وهذا العمر التي أعتبر طوله الزمني النسبي هبة من خالق اودع في بعض خلقه مهام التبليغ
بتفاوة وعلى درجات اعلاها النبوة وادناها ما يقوم به البعض منا برجاء التوفيق من لدن رب
كريم.

الفصل الخامس

قال الراوي

- وقبل أن تلتئم جلسة الاستماع للمتدخلين والشهود في بعض القضايا المعروضة على محكمة الشعب المؤقّرة تمت دعوتي من طرف جناب احد مستشاري سيادة رئيس المحكمة وبامر من هذا الأخير مكتوب ومؤشر عليه بصفة رسمية بهدف الاستئناس باستشارتي في بعض المواضيع التي تتعلق بشؤون تتطلب مزيدا من التّوضيح قلت

- ما زال بعض مفكرينا يرزحون تحت رتابة النّمطيات الفكرية التي ورثوها والتي لم ترح بعد ما رسب من عهود الانحطاط والتّخلف الإصلاح في مخزونا المعرفي التّقليدي ولأنّ أغلبنا لا يقرأ ولا يهتم بالاطلاع وصيد المعلومة وملاحقة المستجدات بقيت اغلب افاقنا الفكرية مغلقة وفي احسن الحالات محدودة وقد نتج عن ذلك في رأيي المتواضع والنسبي ما يشبه العمق في مواكبة النسق الفكري المعاصر وهذا العمق يتجلّى في الكثير من محتويات اطروحات التي يقدمونها من حين لآخر بل ويتجاسر بعضهم على تقديم اطروحات تدعي في ظاهرها تناول الوضع المعاصر بل وحيانا تتعمّد بعض الاسقاطات المستقبلية بكثير من الاجحاف المفضوح الناتج عن محدودية في الاطلاع وحتى في القدرات التحليلية والتركيبية والاستدلالية فينتج عن ذلك قصور في النّظر وابتعاد عن الموضوعية يصل لحد الغباء العلمي المفضوح وتغيب الدقة وتكثر اللخبطة ويخرج التحليل عن السياق وتتكشف الثغرات لسبب بسيط كان يسهل تداركه لو تم تسليح صاحب المقال بالاطلاع والتفاعل على مستحدثات العصر ومواكبة نسق التطورات العلمية والعلوم الحديثة والمستحدثة وخاصة المتعلقة بما يتعلق بالثورة الاعلامية والتقنيات الاليكترونية ومستحدثات ما يتصل بالاعلامية وصناعة الاعلام الاصطناعية والتي لم تعد حكرًا على البلدان المصنعة ولا على الدول الغنية بل على مدى ما اكتسبت الشعوب من أدمغة مفكّرة وخبرات تقنية وحزم وعزم واصرار على النجاح والتحلي بروح المبادرة وحب العمل والتشبث باتقانه والتوسع فيه لاستنباط انجع الحلول واسلمها ورفض الاكتفاء بالتقليد والاجترار وهو ما دأب عليه العديد من علمائنا

وشبابنا منذ قرون سمحت لمخترعينا ومفكرينا من اكتشاف العديد من الافكار التقدمية التي اسفادت بها امم وشعوب كثيرة ومثل بعضها اظافات مصيرية في تقدم الانسانية وتطور العلم وتقنياته نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر في علوم الطب اكتشافات الرازي المتعلقة بالطب النفسي وابن الجزار فيما اتصل بالنزلة وتطوير تقنيات التوليد على يدي الدكتور احمد بن ميلاد واستخراج اللحوم من خشب الاشجار بفضل الدكتور عبد الرحمان الجزيري ومعالجة الرمد وابعاد شبه العماء على يد العديد من دكاترة طب العيون ومن بينهم الدكتور احمد الطرابلسي وعلاج السل على يد الدكتور محمد بن ناصر وفي ميدان الفضاء مساهمة الاستاذ محمد الصيادي في اكتشاف الخليط المعدني المناسب لصناعة اول الصواريخ الفضائية في امريكا وفي الفكر اكتشاف علم الاجتماع والعلوم السياسية من طرف عبد الرحمان ابن خلدون وفي الهندسة المائية ابن الشباط وفي توليف اول نبتة قمح محلية المهندس احمد الشابي فرحات ويغمرني وياكم النسيان او يستعصي البحث ولا يقف الذكاء التونسي عن الخلق والابداع في كل الميادين الفكرية والحياتية والتطبيقية في كل المجالات بلا استثناء وعلى راسها الميدان الفكري ومنها ذكرا لا حصرا ابداعات فقهاءنا ومنهم الامام سحنون ومحرز ابن خلف والسيدة المنوية والطاهر ابن عاشور وابنه الفاضل ابن عاشور وحصافة ادبائنا وفلاسفتنا وعبقريّة شعرائنا الذين ذكرنا منهم الكثير فيما سبق او لحق ونسهي عن الكثير وننسى اغلبهم ولا نعطي ولن نعطي حقهم مهما اجتهدنا ونموت ونندثر ونفنى ولا تموت ولا تندثر ولا تفنى اثارهم ابدا وسيبقى الذكاء التونسي وحده الكفيل بحفظ جميع هؤلاء وغيرهم ولن يتوقف عن الانجاب في ارض الخصوبة ومهد الابتكار تونس الانس.

واصل الراوي بتشجيع من محاوره في الابحار في خضم شلال خواطره قال

- ما زال انخراط بلادنا في الحداثة يسير بخطى حثيثة بفضل العديد من علمائنا وشبابنا الذين ركبوا متن العولمة بجدارة وتبصر وتمكن ايضا وكما فعل من قبل اجدادهم لم يخيّبوا توقنا للافضل والارفع والاحسن والاجدى لذلك انخرط الكثير منهم في بعض الاحداث العلمية العالمية مثل الصناعات الروبوتية واصلاح بعض التطبيقات الاعلامية العالمية والمساهمات الفعلية والتنوعية في عمليات ارسال اول صاروخ الى المريخ او المشاركة في ارسال بعض الاقمار الصناعية ذات التقنيات العالية الى الفضاء لغايات علمية ذات الابعاد النفعية الكبرى وكذلك في تطوير الهواتف

الجوالة لتصبح الات تحكم اجود واجدى مما عليه وضائفها الحالية المحدودة جدا نسبيا ومنها ايضا مبادرات البحث عن ادوية تتعلق بالكورونا وما اتصل بها وقد تم بالفعل اكتشاف اول دواء لمضاعفات الاصابة بالكرونة التي تؤثر على بعض الاوردة والاعصاب ولو بعد التعافي وهذه بعض الامثلة القليلة من الاعمال التي يعترم الذكاء التونسي الانخراط فيها بحزم وعزم لاجهاض اي مخطط سلبى من اي نوع كان واي مناورة من اي مؤسسة كانت ومن اي دولة مهما عظمت او تسلطت او راوغت

بهذه الاجرائية وهذه العزيمة وهذا الاسرار سينخرط الذكاء التونسي في صنع مستقبله بنفسه بالاشتراك مع اي كان على قدم المساوات وبدون اي مركبات وبلا خوف او تردد ما دام سلاحنا العقل النير ودعامتنا القيم السليمة والاخلاق المستمدة من اسلام نقي مستنير متفتح يؤمن بالاخلاق والعلم والعمل بعيدا عن ثقافة التشفي والانتقام واقصاء الاخر مهما كان اختلافنا معه.

قال الراوي

وفي هذا الصدد يمكن ان ندرج ما تقوم به الان تلك الزوجة العائدة من رحلة الاستكشاف التي عرفتنا بواسطتها على بعض الخفايا ومكنتنا من فهم بعض معيشنا بل وساعدتنا على تحريك بعض سواكننا واستجلاء ما يمكن استجلاؤه للخروج من ظلمات التخلف والالتحاق بركب التمدن لا باعتباره غريبا عنا كما كنا نعتقد من قبل بل باعتباره في سياق حضارتنا وبالاخص في كنه ديننا الحنيف الذي غشت انواره بعض المعتقدات الواهية احيانا والمبالغ فيها احيانا اخرى او حتى التي ما اتى الله بها من سلطان ومع ذلك ضلت حاضرة بقوة في المخيال العام نتوارثها بالعادة والعوائد دون ان نعمل فيها الراي او نتدبر امرها جهلا او خوفا او تقصيرا او حتى عنوة لدى البعض منا

واخر ما تبحت فيه هذه الزوجة استنباط تطبيقات تمكن الات الهواتف الجوالة الايلىكترونية من استكشاف الفيروسات الخطيرة عن بعد والقدرة على التقاط صورها والاعلان عنها وعن مكان تواجدها ومدنا باهم المعلومات عنها ككثافة وجودها والمناطق الفضائية التي تمكنت من

اكتساحها او تنجيه لاكتساحها قبل اقترابها منا كما تستطيع بمجرد لمس جزء معين منها بمدنا بكل ما نطلبه منها من تفاصيل المعلومات التي نحتاجها ولا تستغرب ان يتم اكتشاف انجع الطرق للتوقي من الاضرار التي تهدد سلامة الانسان وتعكر صفو حياته.

كما بلغنا انها تعد لمشروع اختراع جديد يتمثل في صنع آلة تصوير لا تنقل الصورة والحركة والصوت فحسب بل تنقل للمتفرج الرائحة وتجعل المتلقي يشاهد ويسمع ويشم الروائح الصادرة من الاحداث والمواد المصورة انيا

الفصل الواحد والخمسون

قال الراوي

- اذا كانت أشيائنا يمكن أن تذكر بنا وتساهم في خلودنا إذا تولّى من يبقى بعدنا من اصدقائنا العناية بها وبهذه الطريقة لن تدفن ابدا لا معنا ولا مع غيرنا وبذلك يصبح أصدقائنا واحباؤنا الخللّص وحدهم قادرون على إطالة عمرنا من خلال أشيائنا حفاظا على ما يذكر الناس بنا بشرط أن لا تكون تلك الاشياء مضرّة باي كان ممن سيحتفظون بها وكذلك الشأن بالنسبة لافعالنا فبقدر قيمة الافادة والاستفادة يقاس البقاء وتقييم النجاعة المتصلة بالافعال فيقدر ما تكون المصلحة ثابتة الفائدة لمن بعدنا بقدر ما تقاس أهمية القيمة التي يليها اللاحقون للسابقين في حياتنا أو بعد مماتنا

ومراعاة لبعض هذه الاعتبارات وبناء على ما وصلت اليه بلادنا تونس المجد من تدهور كامل ودمار شامل وخراب عمّ جميع الأصعدة نحن مثقفات ومثقفو هذا الوطن العزيز نعلن عزما للتدخّل المباشر من اجل انقاذ بلادنا من الخراب المحتّم ونؤكّد وجوب تعزيز الاطروحات السياسية بطرح ثقافي يسند السياسيين ويعمل بالوسائل المتاحة على تمكين الشرائح الشعبية التونسية من الانتقال من شعار

• الشَّعب يريد الى شعار الشَّعب فعّال لما يريد.

انطلاقا من قناعتين أولا هما غياب الطّرح الثّقافيّ ينتج شعب الرّعايا وثانيهما أن الطّرح الثّقافيّ السّليم ينتج شعب المواطنة ويمكن أن يدرّب كلّ مواطن على احترام من يخالفه في الرّأي ويقبل التعايش معه وعدم الاضرار به وبحقوقه او بممتلكاته والالتزام بفض كل ما يطرأ بين الطرفين او الاطراف المتداخلة بالاتفاق المباشر المقبول من الجميع او عن طريق التقاضي العادل والنزيه حتى تكون الديمقراطية استحقاقا متفقاً عليه من طرف الجميع

ولكي يكون الطرح الثقافي ناجعا يجب ان يراعي الوضع المتردي للدولة حاليا فيتدرّج

بالشَّعب من الشَّعب يريد والذي ينتج عنه تعويله الكامل على الدولة وهو أمر يفضي حتما الى انهاك كاهلها بكثرة مطلبياته الى شعب فعَّال لما يريد

وانجع طرح ثقافي هو ذلك الطرح الذي يخرج الشعب من مطالبة الدولة بما يريد الى تعزيز الدولة بما يفعل

وللاستدلال على صحَّة هذه الاطروحات ما عاشه الجيل الاول للاستقلال الذي اعتمد فيه اسناد الطرح السياسي المطالب بالاستقلال بطرح ثقافي يجعل اغلب شرائح الشعب لا مقتنعة بذلك فحسب بل تستبطن انجع الاجرائيات واخفها ضررا لتحقيق الاستقلال ومنها على سبيل الذكر لا الحصر ثقافة المراحل التي لخصت في مقولة خذ وطالب والتي أفضت الى ارساء دعائم الدَّولة القويَّة والمحترمة تحت شعار ثقافي يلخصه بيت من قصيدة ارادة الحياة لابي القاسم الشابي

إذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر

وجسمته مقولة شعار الطَّرح السياسي المعتمد ان ذاك والتي لخصته اية من القران الكريم

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله المؤمنين﴾

وتقهقر الوضع السياسي بسبب تردّي صحة الرّئيس الحبيب بورقيبه الذي احتكر الزعامة الأحدية ولم يعرض بديلا لا له كسياسي مسؤول على ادارة شؤون البلد ولا كقيمة ثقافية جسمها طيلة كفاحه من اجل استقلال البلاد ثم كرئيس دولة ومسؤول على انخراطها في ركب الحضارة وعندما انهار صحيا فقد الشَّعب في نفس الوقت القائد والمرجعية الثَّقافية وبدأت الدَّولة مهتدَّة بالسَّقوط فجاء التَّحول السياسي في شكل تحويل للسلطة ومثل نص بيان السابع من نوفمبر ١٩٨٧ بيان الطرح الثقافي الجديد والبدل والمقنع بذلك استرجعت من خلاله الدولة توازنها بسلاسة ومع مرور الايام والسنين بقيت ثقافة البيان مجرَّد شعار واستنزف الشَّعب لحدّ الانهاك فجاءت ثورة الياسمين ردًّا على الاوضاع ولكن سرعان ما تمَّ تحويل وجهة الثورة بسبب ضحالة المشهد الثَّقافي وطغيان تصحُّر العقول طيلة حقبة ما سمِّي بالتَّحول الذي لم يكن مباركا الا على اهلته وما عاشته وتعيشه تونس اليوم من تحبُّط هو نتيجة حتمية لذلك التَّصحُّر الثَّقافي الذي تواصل كذلك بعد الثورة وبوضوح بل وتاكّد جلي نظرا لتصحُّر اغلب العقول الحاكمة طيلة السنوات

العشر التي ما زلنا نعيشها بحدّة في غياب كلي لمرجعية ثقافية حديثة وسليمة وبناءة وبمحاولات مكشوفة تارة وتارة مخفية لارساء ثقافة تستمد بعض مقوماتها من الطرح الاخواني الموصوف بالسلفية حيناً وبالرجعية حيناً او بهما معا والذي يستمد اهم مقوماته الفكرية والفلسفية من تلك الجاهلية التي اسلمت كرها وحاولت وما زالت تحاول تلوين الاسلام السماح بالوان تزمتها المتناصل فيها وتطوّعه بدهاء كبير الى ما يناسب تحجرها وضيق افقها وحدة طبعها

ويحرص الان اغلب مثقفينا على تقديم نماذج ثقافية متنوّعة اخرى تدعو الى مزيد الانخراط في العلوم الكونية الحديثة والمستحدثة والتي تتماشى مع الاسلام المتفتح والسماح الاسلام الاصلي والذي لا يتناقض مع العلم ولا يقبل الشعوذة والانغلاق ولا التفریط ولا الافراط وينشد الوسطية التي بني عليها الاسلام الصحيح لا الاسلام الموروث ونعني بالاسلام الصحيح ذلك الاسلام الذي يعتبر المسلمين امة وسطا بصريح القرآن فالاسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور وهو رسالة الله للانسانية قاطبة بذلك أتى مجمعا لجميع الأديان السبائية كما جاء في الآية ١٣ من سورة الشورى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تفرقوا فيه) وسمي التزيل تنزيلا قرآنا لجمعه جميع العلوم كما في قوله تعالى في الآية ٨٩ من سورة النحل (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) وقوله : في الآية ٣٨ من سورة الانعام (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وسمي قـرآنا (ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) الآية ٩ سورة الاسراء وكتابا (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم) الآية ١٠ سورة الانبياء وفرقانا (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) الآية ١ سورة الفرقان و ذكرا (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) الآية ٩ سورة الحجر و تنزيلا (وانه لتنزيل رب العالمين) الآية ١٩٢ سورة الشعراء كما وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة منها نور في سورة النساء (هدى - شفاء - رحمة - موعظة في سورة يونس ومبارك في سورة الانعام و مبين في سورة المائدة وبشرى في سورة البقرة وعزيز في سورة فصلت ومجيد في سورة البروج و بشير ونذير في سورة فصلت وكل تسمية او صفة تعبر عن مقصد من مقاصد القرآن فالدين الاسلامي في نهاية الامر دعوة لاتخاذ أسلم السبل نية وتصرفا من أجل أن تنفع الناس قبل أن تنفع نفسك وان تحرص حرصا شديدا على عدم الاساءة لأي كان خشية من الله وطمعا في

الجنة ولتكون علاقتك بخالقك علاقة مباشرة تقوم بالاركان الخمسة ما استطعت بصدق ودون رياء وخاصة بدون ان تكلف نفسك أو غيرك ما لا يستطيع عادة وتجنب العمل بأي مقولة تتسبب في الضرر تحت عنوان انك تدافع على دين الله وكنك تشك في قدرة الله وحده على الدفاع عن دينه وعباده فقد وضع المنافقون الكثير من الأحاديث المكذوبة منها حتى من حرمت الحلال وحللت الحرام

ولكي يكون دينك صحيحا لا تنسى ان الاسلام يحب الوسطية وانه دين لا يعادي العلم بل هو دين العلم والمدنية والحداثة بدليل ان كل القوانين العلمية وضعها المولى سبحانه وتعالى وان الحداثة أول من نادى بها هو الاسلام بدليل ان كل ما قاله الرسول يسمى حديثا من حيث انه حدثنا به بل ايضا من منطلق انها وصايا تصاغ لأول مرة في قضايا بصدد الحدوث في بيئة تكرس تعايشا سلميا على اسس مدنية بالدرجة الاولى وكل تصرفات ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم تقر وترسي مفهوم المدنية وقد كرس كل ذلك بتسمية يثرب المدينة وان كل تعاليم الاسلام تدعو للتحضر والعمران

وفي هذا السياق المتفتح والمتزن ينخرط الفكر التونسي الاصيل الذي نادى به ونعمل على ارسائه بايمان واصرار وثقة في النفس ونعتبره اساسيا بل وضروريا لانقاذ الدولة التونسية الحديثة التي لا يقف شعاره عند الشعب يريد بل يتعداه ليكون شعارها الشعب فعّال لما يريد وبذلك نمر من مرحلة

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر

الى مرحلة

اردنا جميعا لشعبي الحياة فليّ القضا واستجاب القدر

اي ان يلتزم الشعب بالعمل والاعتماد على ما يعرف بالذكاء التونسي لاستنباط انجع الحلول وابتكار مناهج جديدة للتنمية كالذكاء الصناعي وتثمين الابداع العلمي والتشجيع على الاستنباط واسترجاع الثقة في النفس ونبذ الاتكالية والتعويل على الاخر مع وجوب تحويل وتنقيح بعض النصوص في ترسانة القوانين التي تجاوزها الزمن وارجاع الق مقولة عبد الرحمان

بن خلدون العدل أساس العمران لتجنب السقوط في الخراب الذي هو عكس العمران وهذا باختصار شديد ملخص العبرة من هذا الطرح الثقافي الذي يصف حال الشعب التونسي بين الجمهوريتين الأولى بمرحلتها جمهورية الاستقلال وجمهورية ما سمي بالتحول والثانية جمهورية الثورة بكثير من التجاوز الذي فرضه الوضع المعيش فعليا

أيام كان شعاره *وقل اعملوا* الشعب كان يريد لكن يعمل
لما ترهل حكمه الفردي شلت عزمة الفكر وجف المنهل
قد كان للتغيير يوما توفه وبيانه الرسمي كان المفصل
زاغ التحول عن ثقافة عقده بل صار عبئا يستفز ويشغل
جاءت بكم ثورتنا قالت لكم هاتوا الكرامة شغلونا واعدلوا
هل حوّلت أطماعكم ثورتنا أم عجزكم في حكمنا متأصل
الشعب صار يريد شغلا جاهزة أو مبلغا والشغل هش مهمل
أيام كان شعاره *وقل اعملوا* الشعب كان يريد لكن يعمل
لا تطفئوا في الشعب جذوة فكره أصل الذكاء تحسس وتمثل

الفصل الثاني والخمسون

قال الراوي

- وفي الجلسة الاخيرة اجتمع الزّمان بالمكان مرة أخرى واستدعى كلّ منهما روافده ومكوّناته بسياقاتها المتعدّدة والمتنوّعة للحضور في جلسة الحسم لتكون بلا منازع جلسة الفصل الحتمي كما هو الشّأن في كل القضايا التي تتطلب بحكم تراكماتها مخرجا يتحوّل كل الفاعلين فيه الى مجرّد أدوات عمل لا حول لها ولا قوّة ادوات تشبه علامات المرور الوضعيّة والتي تنتهي صلوحياتها بمجرد تجاوزها

التأمّت الجلسة بصفة سرية واعتمدت فيما اعتمدت عليه على كلّ ما تمّ الخوض فيه من أوّل جلسة الى الجلسة الماقبل الأخيرة وسخّرت لها كلّ الاليات العصريّة المتاحة المصنوعة محلياً أو المستوردة وكلّ التّطبيقات والمعايير وأدوات القيس والضّبط والتّمحيص ومجمل القوانين والترتيب المتوفّرة حتّى بدت الجلسة وكأنها صورة مصغرة ليوم الفصل الاكبر وشرع في استنتاج ما ترتب عن كل المجابهات والاستقراءات والشهادات والقرائن بحضور متنوّع شمل في ما شمل جناب الأّمس وحضرة اليوم وسيادة الغد بمحضر الأبعاد الأربعة في نفس الوقت أحيانا وفي أوقات مختلفة أحيانا أخرى وحضر الغياب وأتيح غياب الحاضر كلما اسدّدعى الأمر ذلك وجاز للنّسيان التّذكر وسمح للتّذكر أن يسهى أو ينسى مؤثقة لترتيب بعض الامور وأتى كلّ من هؤلاء بأقوامه وناسه وأخباره وبعض العيّّنات من شواهد وأرصده ومكوّناته وراثته الماديّ واللّاماديّ وكثير من شهود العيان لعصوره ومصوره بعد ان حصل ما في صدور الملفّات في كلياتها وعبر مختلف أبعادها الطّويلة والعريضة والعميقة والمتوسّطة العرض والطّول والعمق وحاول كلّ من المدعوّين للحسم توفير سياقاتهم ومستنداتهم وقرائن اثباتاتهم او مبررات المسندات التي اعتمدها كل منهم واستجلبت كل الدقائق والتفاصيل والاحداث والوقائع كما تمّت دراسة ما انجرّ عنها من نتائج وأسبابها ومسبّباتها كما حوت بعض التّقارير تفاصيل التّفاصيل وسمح للمقارعات والمقارنات بتدارك بعض أمرها وتمكّن الأغلب الأعمّ من تدارس محصول ما يبرر الاقرارات

والقرارات جملة وتفصيلا دون سهو أو تناسي وتمَّ الاستئناس بها وجب الاستئناس به من أحداث سابقة في الزمن أو لاحقة مع مراعاة فوارق الظروف وشرع في البت بتحديد عنصرين فاعلين في المعادلة وهما غدا الأُمس وأُمس الغد وقد وكلا ليكونا طرفي التقاضي الحتمي للفصل بين ما حصل وبين ما يتحقَّق ان يحصل في التو والحين طبقا لقاعدة التاريخ لا يرحم والتي حددت المحكمة معنى الرحمة فيها وتؤخذ بمعنى البت الحتمي والذي يقتض من المخاتلة والمناورة والمراوغة ويحصى مواطن الكذب والزندقة والدهاء وكل ما استعمل من ألاعيب او مخاتلات او دسائس بالادلة القاطعة كما تم ابطال كل الاعمال والافعال وحتى النوايا التي سادت او كانت سائدة قبل او اثناء الشروع في البتَّ وحدد لكل ظاهرة او فعل او نية او اي محاولة من اي نوع كانت منتهى الطريق ووضع في كل سدَّ حاجزا لا يقتصر على علامة قف بل يمنع اي تحرك ويشل كل نية ويمحق كل حراك وانتهت المحاولات كليا عدى ما اتصل بسير ما تعلق بقرار الحسم وما اوصي به من ترتيب وتفصيل وتتكفل حاضر الفصل بالنزع الفوري لكل ما سلف من القاب وكرامات ومحسوبية وجاه ومال وصيت وشهرة ونسب وحسب لتستكمل التعرية مسارها الى ابعد الحدود ووقف بالنسبة لكل الفاعلين الاعتياديين الزنقة بالهارب و تنوعت تفاصيل كل جزاء ليكون على قدر الضرر الذي تسبب فيه كل عنصر ولم يعد ينفع التبرير ولا المحاذاة ولا حتى المسامحة بالنسبة لمن أسفرت عليه بحوث واستقصاءات محكمة الشَّعب التي التأمت على أنقاض بعض الاثار في مكان ما من البلاد يشرف على تضاريس تشبه بعض الصُّور الملتقطة بعدسات الأزمان المتلاحقة وبحجم الامتدادات لتذكَّر كلُّها برائحة تربة هذه الأرض وعبق نسيات أجوائها وحتى ببعض خصوصياتها وتواتراتها الزمنية بحضور مكثَّف للسياقات وسمح للموت أن تفتح طلاسَم أبوابها وتمكَّن أهلها أو بعض أهلها دون ترتيب زمنيٍّ محدَّد من استعادة الحضور المؤقَّت بحسب متطلَّبات أو ملاسبات ما رسب في الذاكرة الجماعيَّة أو حديث المؤرِّخين أو ما توارثته الأجيال من القيل والقال وعبر المأثورات والرَّسوم الدَّراسة منها وما تناقلته الألسن والروايات وما توقَّف عنده التأويل والتحليل والنقل والعقل والتراث أو أيٍّ من المحامل بها في ذلك القيل والقال والضنَّ وسوءه والقصد والاضمار والنوايا المبيَّنة وغير المبيَّنة وسياقات أخرى ما زالت مفتوحة أو بصدد الفتح.

كان يرأس الجلسة الأخيرة قاض كسائر القضاة ولم يعتمد التّحرّي ولا الانتقاء ولا الاحتراز ولا أي اعتبار آخر ضمانة للسير العاديّ للتّقاضي المعمول به عادة في أغلب المحاكمات البشريّة وفي أغلب الأمصار والأقطار والأزمان وكان من حول القاضي مساعدوه من الجنسين عيّنا كما تقع التّعيينات في أغلب العصور والمصور لمعاوضة القاضي رئيس المحكمة وربّما للاستئناس ببعضهم أو لمساعدته على النّظر في الأمور بعيون مختلفة وفهمها برؤى متعدّدة بحثا عن حقيقة بقيت نسبيّتها هلاميّة لزجة فضفاضة متحرّكة تصبو الى مزيد الاستجلاء علّها تسترجع في الأثناء ما تكسّر فيها أو تستجمع ما تطاير من شضاياها أو ما فلت منها وربّما جيء ببعض هؤلاء المساعدين والمساعدات لمجرد الذّيكور وقد تعمد المحكمة من خلال من حضروا أو بالاستعانة بالملفات المعروضة عليها او المداخلات المهيّئة مسبقا او الطارئة او المرتجلة الى تعزيز الذّكرة المنسيّة او المغمورة او المغيّبة قصدا لاستعادة بعض تفاصيل الأحداث أو الوسائل المتاحة أو المستنبطة بالحاجة أو المسقطة بالابتكار أو بالبدئية وحَتّى بالقصد الى ما يمكن من استعادة بعض المشاهد او التّفاصيل لمزيد الاستقراء والتّثبت وربما من أجل التلميح أو التّذكير أو ربّما لمجرّد الاخبار .

وكأغلب المحاكمات لم يركّز الاهتمام على ملامح القضاة بقدر ما ركّز على محتوى التقاضي

ما أن افتتح جناب القاضي الجلسة حتّى انبرى من الجوّ صوت ملأ الأفق بتردّداته المنعّمة حيناً والمسترسلة حيناً قيل أنّه صوت التّاريخ الذي كان ينبعث من كلّ الجهات بنفس القوّة ونفس النّسق ونفس التّواتر قال

-أنا أبو العصور وسيّد الأحقاب ذاكرتي كتاب أرى ما في القصور وما خفى في داخل الخدود وما هوى في حفر القبور أكسّر الحدود وأربط العهود أفصل الأحداث أسجّل التّراث أتابع الأزمان أراقب المكان أنا جواد الزّمن وحافظ للفرح والحزن أروي حياة التّاس والأجناس والريّاس وأضرب الأحماس في الأسداس وأربط الأعمال بالأشخاص وأبحث عن منفذ الخلاص ولي في افريقيّة الحبيبة ملتقى الأقوام والأجناس ومهد الحضارات صولات وجولات .

أنا سلطان الزّمن ونابش التّراب وساكّن السّحاب أرّم الخراب وأجمع ما قد تلف وأحضر ما قد سلف وما خلف أحرك ما قد وقف أرّم الانسان أقوام التّسيان وأطلق الصّراح أكسّر

القيود وأنزع الكمامة على الأفواه وأفتح الرّحاب وأطلق العنان لعصر الاتّفاق والوفاق والوفاق أجمع الفئات أوحد الجهات وأربط الأجيال وأزرع الامال أتسع لكل رأي صائب يؤلف القلوب ويملاّ الثقوب ويصلح العيوب ويفتح الدّروب أوفّق بين جميع النّاس والأجناس أحترم إتّجاههم وأنشر أنبائهم وأصلح الأواصر وأفتح المعابر أحرّم التّجاهل المقيت وأنبذ الإقصاء والتّشتيت أبدد الصّقيع وأجمع الشّتاء بالرّبيع والصّيف بالخريف وألحق المدائن بالرّيف لكي أسوي بينها وأنشر الثّقافة وأدحض السّخافة وأنبذ التّشويش وأكره التّهميش وأفتح المجال من أجل التّنبية للمنقوص وأدعو للتّفحّيص والتّجسيم والتّشخيص والتّعميم والتّمحيص والتّرميم

ثم اضاف

نّهتكم في اول جلسة وذكرتم الان في اخر هذه الجلسة بما نهتكم اليه لانني اعلم مسبقا انكم في حاجة الى التذكير من طرفي وانكم في حاجة الى التدبر واستخلاص العبر ولان اغلبكم لم يتعض بما اعرض عليكم في كل مرة اضطرتت لاعادة تنبيهكم الى ما لو اعتبرتم به ما كان لي ان اعيد تصريفه عليكم بنفس الاصرار ونفس النسق الان وقد حصحص الحق وجاءت ساعة الحسم التي بالرغم من تاكدهم انها اتية لا محالة فقد تغاضى الكثير منكم عنها مع الاسف انها او تناسيا او شهوة او حتى اعتباطا او جهلا او قلة تجربة

ثورتكم مباركة أجّجها الشّباب من أجل الانعتاق باسم الوفاء للوطن باسم الكرامة باسم الشّغل والاخلاص في العمل باسم الرّجاء والأمل باسم العلوم والبحوث في غيوم الافتراض والحفر في الأنقاض للانقاذ والحفاظ على الأخلاق والأعراض بالعزم الفلاذّي أنبه الى ضرورة الانضباط وعدم الافراط حتّى تتجنّب الحرّية الانزلاق في الفوضى ويصبح المتعافون مرضى. والثورة ليست بالضرورة ثائرة معرّبة محمومة بل ربما تكون اجمل الثورات وأنجعها الموصوفة بالاتزان والرصانة وحسن التقدير والتدبير لنحت المصير.

شبابكم يريد أن يعيش في كنف السّلام يريد أن يسير للأمام بطاقة مجدّدة أهدافه طموح متواصل وهو بحاجة للفكر والفنّ والأخلاق والقيم ديدنه حرّية التّفكير والتّعبير بدون أيّ صلف وشعبكم يقرّر المصير يسوسه النّظام تحكمه العدالة مرجعه الأصالة.

قال الراوي

- لم يكن هذا التدخل مجرد صدى بل صوتا حقيقيا خارجا من أعماق التاريخ قال

- سافرت بكم بالفعل عبر العصور واركبتكم قطار الذاكرة وفتحت لكم مجالا للعبور وذهبت بكم الى رحاب ساحرة وواقفت الزمان بطياته بين ايديكم واتحت لكم فرص اضاف المجد لآمتكم ووليت بعضكم الزعامة وقلدت بعضكم اشرق المناصب واغدقت عليكم الوجاهة والسيط والجاه ومكنت بعضكم من النفوذ وسلمت العديد منكم فرصة تسجيل اسمائكم في ملفاتي باحرف من ذهب لكن اغلبكم اهدر كل الفرص التي تحتها لكم لتكتبوا على هامة الايام ذكراكم لقد اضعتم الوقت في التلذذ بما اوليته اياكم من نعم لم تخطر على بالكم وفضلتمت واضلتم واساتم استعمال ما اودعته فيكم واستعملتم ذكائكم في المناورات وتلاعبتم بالمقدرات وراوغتموني بعلم مني واسعملتم الدهاء في مقام الحكمة والكذب في مقام الصدق والرياء مكان التبصر وتلاعبتم بالمقدسات وتظاهروا بالورع المزور ونافقتهم وجادلتم وباكتهم واصررتم على التماهي في الدجل وغضضت البصر على الظلم وصدقتم البهتان وتلونتم في مواقفكم وادرجتم مردود الفشل في قوائم النجاح واعتبرتم الخراب تعميرا وبجلتم مصالحكم على مصالح عامة الناس واعطيتكم فرص التدارك واسترجاع الوعي ومراجعة النفس المرة تلو المرة وجاءكم التلميح والتنبيه تلو التلميح والتنبيه ولكن صلفكم تغلب على وعيكم وغروركم غطى على ادراككم وتناسيتهم المراجعة واستكبرتم التراجع واستهترتم ببوادر الاستفاقة وسخرت لكم من الاحداث ومن العباد ما به تزال الغشاوة على اعينكم ومكنتكم من الاستماع الى اصوات التعقل وحدثكم في الخفية والعلن عن وجوب التراجع واصلاح الوضع وكنتم في كل مرة تلتجؤون الى التبرير او الترفيع رقصتم الاتعاض والتدارك وواصلتم في الغي والصلف والتحدي و ابحرتم ضد التيار وما ربحتم نزواتكم ولا وقف صلفكم وتغافلتم على ما سخرتكم له وتوالت عليكم رسائل التنبيه حتى بلغ من ائتمنتكم عليهم مبلغ الجوع والعطش والحاجة والفاقة وانتظرت منكم الاقرار بالواقع وما فعلتم ولا تورعتم ولا اعترفتم يوما بجرم ما ارتكبتموه من صلف بل ركبتم صهوة الكبر واستفحل الفساد فيكم وفي من انتقيتم من المحضوضين الذين باعوا انفسهم وضائرتهم لكم سهوا او جهلا واحيانا كرها او مجارة وحولتم جهازا مسارا للثورة وسخرتموها

لا طمأعكم وشهواتكم وجشع بعضكم الى ان وصلت البلاد للهاوية ورؤسكم في الرمل كما تاجرتم بالدين والعرض واستهتتم بها ونسيتم ما وكلتكم عنه الان سيضعكم امس الغد في مزبلة امس الامس ويحتفظ غد الامس بصوركم ليمسح بها واجهات التفكير والعبرة ويسكن في ذراكم خزي ما بعده خزي ويلقى بكم في قيامات العمل السيء ويصرف عليكم كره الاجيال ويلفكم النسيان المقصود المركب بالوضع وتكونوا عبرة لفساد الراي وضحالة المنهج وزيف الرؤيا واجمل ما اهديكم اياه الركود الدائم في مزبلة التاريخ وتنتهون وينتهي معكم الى الابد الركوب على الحق والادعاء بانكم انصار الله وجنده المختار وسيفه المسلول ولينتهي بانتهائكم عهد النخونج المكذوب لقد مددتكم باخر فرصة نجاة لكنكم ختمتم الامانة وكشفتمهم وجهكم الحقيقي اليوم ينتهي اخر عهدكم بالتخفي داخل عباءة الاسلام الاسلام اكبر من ان يتدثر به باطلا فضلكم الوحيد انكم جعلتم اغلب الناس مقتنعين ان الاسلام براء منكم وواكبر من ان يملككم مسؤولية الدفاع عنه فالله حافظ دينه ولا يحتاج لامثالكم الدفاع عنه لقد اقترفتهم الماسي في حق اهليكم قبل اعدائكم وسيبقى عيبكم الاكبر في من امن بمشروعكم غيا او غفلة منه او سهوا او جهلا او اتباعا بلا قصد مسبق او طمعا او املا في النجاة او تصديقا منه كما ستحملون وزر من تبعكم عن اقتناع بعد ان علموا حقيقتكم وستلاحقكم نعمة من يتمتم ومن ثكلتم ومن افلستم ومن شئتتم ومن حبستم ومن حيرتم ومن شغبتهم ومن جوعتم ومن كدرتم ومن كبلتم ومن حطمتهم ومن اغريتم ومن ارغمتهمهم على اتباع منهجكم وكما ان الله لا يضيع اجر المحسنين فانه لن يضيع حق من تاجرتم بهم وبوطنهم باستم الادهاء بالتقوى يا من البستم الحق بالباطل ومن لم يعلم من الناس فقد علم الان يعد هذه السنين العشر العجاف التي ذاق فيها اهل البلاد الامرين ولم يعد لكم اليوم اي مبرر او سبب للمواصلة فاما ان تسلموا وتستسلموا او ان تستسلموا وتسلموا واخر دعوانا اللهم افضحنا ولا تسترنا حتى يتبين الخبيث من الطيب

قال احدهم

- اقول ذلك وأنا أعلم ان الشعب التونسي مع الأسفل تعلم الكثير منه الخوف أو الاستقالة التي تجعله يخشى المبادرة ويتجنب ان يكون فاعلا هروبا الى الوراء وتقاديا للمواجهة حتى ولو كانت صورية أو شكلية السبب بسيط وهو فقدان الثقة في الآخرين من شدة ما خذل وهذه

إحدى العقليات السلبية التي تسببت وتسبب الى اليوم في ما نحن فيه من تحاذل وخيبة

واضاف اخر قائلا

- والنتيجة اننا سنبقى بين ايدي هذه القلة القليلة من الناس الذين لا يضيرهم ان يخرجونا من بلادنا ويعيشوا فيها فسادا باسم الثورة التي لم يساهوا فيها وباسم الحرية الي لا يعرفون حدودها وباسم الديمقراطية الي لم يستوعبوا فهم كوعها من بوعها

وقالت متدخلة

- النتيجة أننا بمنطق عدم المبادرة في إيجاد الحلول لازماتنا نجد انفسنا فريسة لليأس من القدرة على التفكير الناجع واخشى ما اخشاه ان ينتهز بعض الصائدين في الماء العكر الفرصة للانخراط في منطق الدعوة للفتن والفتنة اشد من القتل في الدين والفتنة في العرف تخلف ناتج عن ذهنية تعجز على إيجاد الحلول لقصور في سعة فكرها وذلك القصور يسمى جهلا والجهل يصلح بالمعرفة القدرة على استنباط الحلول الناجعة للخروج من الازمات دون أن نلجأ للتحريض على العصيان أو الدعوة للقتل وأسالة الدماء كما يدعو إلى ذلك بعضنا على قلتهم بقليل من التروي والذكاء والعلم والامل نخرج الأمة التونسية من المازق اثناء أزمة الكورونا وبعدها

وقالت احدى الفتيات الحاضرات وكانها ارادت ان تحوصل ما استمعت اليه

- وهذا الفكر الخلاق نسميه في بلادنا الذكاء التونسي الذي يقابله الغباء المطلق والغباء المطلق ليس تونسيا بل مستورد عادة من تيارات وافكار وتوجهات من خارج تونس لا تتبنوا ما يهدد ذكاءنا التونسي يا أهل الحكمة ولا تكتفوا باتخاذ موقف المتفرج اللهم اني بلغت اللهم اني بلغت اللهم اني بلغت اللهم اني بلغت فهل من مستجيب لماذا لا تكون انت من أول المبادرين في إيجاد الحل لاهلك ولوطنك ول مستقبل ابنائك

ثم اضاف الراوي قائلا

- وبعد الاخذ بعين الاعتبار لما اسفرت عليه كل المداولات الشفاهية وما ثبت من الوثائق ودلائل الاحداث المتداول فيها بثبوت القرائن والدلة الفاطعة وما اكدتها قرائن الاثبات

وسياقات الاحداث وبعد التروي واستشارة ممثلي رجال ونساء الفكر من اهل الحل والربط انتهت الجلسة بقرار اصدار بيان من محكمة الشعب باسم الشعب سمي بيان شعب الثورة جاء فيه ما يلي

أمام ما وصلت اليه بلادنا تونس المجد من تدهور كامل ودمار شامل وخراب عمّ جميع الأصعدة نحن مثقفات ومثقفو هذا الوطن العزيز نعلن على استعدادنا للتدخل من اجل انقاذ بلادنا من الخراب المحتمّ ونؤكد من خلال هذا البيان وجوب تعزيز الاطروحات السياسية بطرح ثقافي يسند السياسيين نقتح من خلاله الانتقال من شعار اذا الشعب بوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر

وللاستدلال على صحّة هذه الاطروحات ما عاشه الجيل الاول للاستقلال الذي اعتمد فيه اسناد الطرح السياسي المطالب بالاستقلال بطرح ثقافي يجعل اغلب شرائح الشعب لا مقتنعة بذلك فحسب بل تستبطن انجع الاجرائيات واحفها ضررا لتحقيق الاستقلال ومنها على سبيل الذكر لا الحصر

أيام كان شعاره * وقل اعملوا * الشعب كان يريد لكن يعمل
لما ترهّل حكمه الفردي شلّت عزمة الفكر وجفّ المنهل

ومن علامات استفحال الكارثة في بلادنا الغياب الصارخ للمثقفين عن الساحة السياسية بل ومن المؤكد ان من عاش منكم بيننا لا يد انب كون قد تفتن إلى غياب العنصر الثقافي في الحياة العامة في تونس ولاحظ تقلص دوره تقلصا ينذر بالخطر ويلزم هذه الشريحة قبل غيرها أن تتدارك الأمر قبل فوات الأوان وأعني استقالة المثقفين وأصحاب الرأي بما فيهم الصحفيين من معترك الحياة العامة وبالأخص منها الحياة السياسية التي استغلت هذه الاستقالة للتفرد بالقرار رغم افتقارها في الأغلب الأعم إلى أسلحة التروّي وأدوات التعمّق ومقومات الاستشراف والقدرة على التّصوّر والاستنباط والخلق والإبداع التي تبقى حكرا على المثقفين وأهل الرأي والدّوق والإحساس المرهف والخبرة المصقولة والرأي الثاقب وقراءة الأحداث بعمق والقدرة على التحليل والتركيب والاستشراف وللاستدلال على ذلك فإن غياب شريحة رجال الفكر والثّقافة

والرأي والمحللين هو من أهم الأسباب التي كرسّت ضحالة كلّ برامج العمل السياسيّ وحدّت من نجاعة أيّ مشروع اجتماعيّ وفلّصت من المردود الاقتصادي من الثّورة إلى الآن وحتى في آخر مراحل ما كان يسمّى بالتّحول المبارك على أهله فحسب بالمقارنة لما تحقّق بعد الاستقلال. لذلك أدعو كلّ المؤسّسات الثّقافيّة والإعلامية اليوم أن تحاول استدراك الأمر من خلال مزيد تكثيف مساهماتها الفعّالة واستحثاث أهل الفكر على المشاركة الفعليّة في الانخراط قلباً وقالباً في مشروع تنمية بلادنا وإلزام السّياسيّين بوجود الاستنجد بالمتّقين والأدباء والفلاسفة وأصحاب الذّوق والثّوق وأهل الرّأي للمشاركة في استرجاع مكانة هذه الشرائح الهامة أسوة بما تميّز به أغلب مثقّينا عبر العصور وعلى رأسهم أبو القاسم الشّابي الذي كان حاضراً في كلّ محطات بناء نهضتنا من الاستقلال إلى اليوم فقد طبع حياتنا العامّة وحتى حياتنا الخاصّة بفرض آرائه على كل الفاعلين السّياسيين والاقتصاديّين ليصبح للجميع مرجع الاستنارة ومصدر الحماس

ونحن في ما نحن فيه من انتكاسة وترد شامل ومدمر ادعوكم يا اصحاب الكلمة النافذة يا معشر المثقّفين التونسيّين من أدباء وفنانين وكتاب وصحافيين من كل الشرائح الأدبية والفنية والصحافية إلى عدم الاستسلام والاستقالة من الحياة الاجتماعية والسياسية راجيا منكم بالحاح شديد أن تساهموا مساهمة فعّلية في إنقاذ بلادنا من الانهيار الاجتماعي والاقتصادي والقيمي الذي أتردّت فيه والتكن هذه المناسبة انطلاق عزم المثقّفات والمثقّفين على استرجاع دورهم الرّياديّ في ازدهار تونس وإخراجها ممّا تردّت إليه من ضحالة وخصاصة وفقّر ماديّ وفكريّ ولتتخذ أبا القاسم الشّابي مثالا في نضاله وحرصه الدّائم على نهضة تونس وسؤددها حيّاً وميتاً وذلك من خلال فرض حضور كلمته النافذة على كل الفاعلين السّياسيين وغير السّياسيين ودعوة عامة الشعب الى محبة تونس والاخلاص لها وفرض احترام الادب ورجال الفكر والقلم من طرف الجميع بلا استثناء وعبر كل الحقب الزمنية والنفرض عزمنا الراسخ على افتكاك المشعل من كل يد مرتعشة او فكر متحجّر او عقل محدود واسترجاع الدور الحقيقي لأهل الفكر الخلاق والثقافة الواسعة من اجل فرض انخراطهم في التنمية الحقيقية المبنية على الراي المبدع والاستنباط الذكي والرجوع لعصر إيلاء * المادة الشخمة * ما تستحقه من تقدير ولنا في ذلك أمثلة كثيرة يتدخل فيها الادب في التنمية او للحث على إنجاز الكثير من المشاريع فلو لا بيت الشعر الذي قيل في

الجزر المتحرك لبنزرت لاستحثاث المسؤولين لاتمامه ما كان أن يتم في ابانه ولولا التزام المربين بالتشبث بكنه ثقافتهم ما اكتسب التعليم التونسي تلك الشهرة ولو لا المسعدي ما كان السد وتأثيره على قيمة الفعل عند الإنسان التونسي ولو لا ابن خلدون ما كانت تحضى بلادنا بالقيمة العلمية التي تحضى بها اليوم ولو لا الطاهر الحداد لتأخرنا في تحرير المرأة ولو لا خميس الترنان لما ازدهر فن الموشحات ولولا صليحه لما كان للفن التونسي مرجعية تذكر وتشكر ولو لا محبوب بن ميلاد لما بادرنا بتحريك السواكن ولو لم يكن بورقيبة يقدر الشعراء ما كنا نسمع او نتعرف على احمد الغماني ولما كتب بن جدو بني وطني لتنتصر بنزرت ولو لا الطاهر والفاضل بن عاشور لما قيل في اكبر مؤتمرات مصر *كاد المؤتمر أن يكون عاشوريا* والأمثلة على ارتباط الفكر بالتنمية كثيرة ومثيرة.

الفصل الثالث والخمسون

قال الراوي

- وانا اتابع بحرص اغلب الجلسلت الاخيرة لفت انتباهي ما يوليه أغلب قضاة مختلف المحاكمات من اهمية لما ورد في مقدمة ابن خلدون وكاني بهم تفتنوا الى ان هذا العمل الفني يمثل بالفعل وعاء طبيعيا لرمزية متجذرة في ماضي وحاضر مؤلفها عبد الرحمان بن خلدون ولم يغب عن اذهانهم الكثير من القضاة ومساعدتهم انه من البديهي ان يبدأ المؤلف باستخدام مواد موجودة مسبقاً، متجذرة بعمق في التراث الثقافي للعقل الجماعي اللاواعي الراسب في مخزونه الذهني مكتسبا على تعلته كان أو مطوّراً بمفعول الرسوب أو التأثير أو التفاعل أو الاستحضار أو أي مفعول اخر من هذا القبيل أو غيره ليكون مرتبطاً بالزمنية والذاتية وقدرات الاستيعاب والاختزان والتصرف الذاتي والاجتماعي وكذلك طبيعة مادة الرسوب المختزنة وكاني بالقضاة ومساعدتهم تفتنوا ان كل ذلك يمكن ان يفرز ما نعرعنه بالآليات النفسية الغامضة والمتناقضة التي يفسر المؤلف عبد الرحمان بن خلدون من خلالها سيكولوجية اللاوعي الجماعي لمجتمعه من خلال السرد المستمد في الكثير منه من التاريخ الروائي المكتسب لاستحضاره خطوة بخطوة ، في شكل صور يومية او في شكل علامات نفسية للكائن الاجتماعي ، من خلال كائن حالي في صيغة الجمع عبر سياق مجتمع يشبه مجتمعنا. كما يظهر جليا ان أغلب القضاة لاحظوا من خلال الاستماع لمختلف المتدخلين ان كل الاحداث كانت تسير طبقا لقواعد اللعبة النفسية التي اقرها علماء التحليل النفسي المعاصرون ليكتشفوا قدرة الاستشراف التي تميز بها العلامة عبد الرحمان بن خلدون والذي تفتن الى ان المجتمع كائن حي قائم بذاته يبدأ بالمرحلة الأولية للخيال الداخلي النشيط وهو ما يدل على أن التحليل النفسي والإبداع متحدان بروابط عميقة كما ادركوا ان التفاعل مع الاحداث الموصوفة لا تقتصر على ما يحطه الكاتب في سياق ما يكتب بل يتعدى لغيره ما يجعلك وانت تقرأ او تسمع او تشاهد ستشعر حتما انك اصبحت انت الاخر شريكا كاملا للمؤلف ولا تعجب ان تجد نفسك متجاوزا للنص او الصورة لتزيد ما انت بصدد تلقيه من حياتك ومعيشك ومشاعرك وأحاسيسك كل او بعض ما اختبرت شخصيا. ليحولها

مخيا لك فجأة إلى معيش متصل بك انت شخصيا شديد الاتصال ، ليخرج الفعل من مجرد حبكة متصلة بالشخص الروائي بل أيضًا حقيقيا ، يحمل ديناميكية نفسية لا يستطيع تحديدها سوى علماء النفس والأطباء النفسيين. وهكذا تظهر من خلال تفاعل المؤثر الذاتي ما يسمى بالوظيفة الحقيقية للـ "أنا" ؛ هذه الوظيفة التي تنشط عملية القمع فيما يتعلق بمحتوياتها الروحية: "أنا" في بعض الأحيان ، شديد التهديد ، أو غير مرغوب فيه للغاية من قبل الوعي وانت مبحر في هذا الخضم تبرز لك بعض المحتويات وتتخفى أخرى في صندوق اللاوعي الخاص بكل شخصية من الشخصيات التي يعرضها المؤلف بل أكثر من ذلك فقد تجد نفسك أحيانا في دور الموفق بين خصمين او أكثر من خلال اجتهادك لخلق تعاون وثيق بين الوعي وإنتاج اللاوعي ، مع تجنب هذا التعاون من أن يكون بديلاً للحياة الحقيقية أو مجرد هروب بسيط. حتى يجيل اليك انك أصبحت عالما نفسيا او تكاد وانت مبحر في التفاصيل لا تعجب ان تلقى نفسك في مكان شخصيات ما تقرأ او ما ترى او تشاهد دون الوقوع في فخ المظاهر أو الاختلاط أو إغصاب شخصياتهم. حين يملك التصور والخيال الشيط لغايات قائمة بحد ذاتها وليست عن طريق السببية لتكتشف ان الكلمات والمحاكاة والإيماءات التي تقوم بها كل شخصية هي جواب على قدر قيس تفاعلها مع الآخرين وفي نفس الوقت هي تعبير عن حالة نفسية شخصية وفي نفس الان تشكل تطورا نفسيا جماعيا من خلال التظاهر بالحديث عن الماضي ، حتى يجيل اليك انك أصبحت قادرا على ان ترسم بمهارة من خلال الشخصية التي يجسدها مخيا لك ، خطوط التطور المستقبلي كنوع من الصعود البناء ما يسمح لك بالتخييلات الظرفية أو الإيائية أو الصوتية التي تترأ لك تباعا رغم بقائها في ارتباط وثيق بتحرر بعضها عن البعض الآخر من حيث الوجهات المفتوحة على مصراعها في كل سياق روائي مهما تنوع واختلف محمله باعتبار ان كل سياق مفرد او مركب هو أرضية خيالية لتمرير الصور والأصوات والحركات وما يتصل بها من تعزيزات معينة ومختلطة ، كما لو كانت تخيلات من بعض حياتك الخاصة التي تتكشف على ما يبدو ، وفقاً لمنطق داخلي ، ولكن أيضا ، في سياق علائقي خاص بالمجتمع الذي تمثله كل شخصية على حده لتصبح وكأنك احد أساتذة التحليل النفسي من خلال ما تقرأ او ما تشاهد او حتى ما يروى اليك لتمارس من خلال كل ذلك استحضار جملة من خيالات أخرى تمكنك من اختراق السياق بحكمة وتصور الظرف والموقف أو أي تدخل او رأي آخر في وعي العديد من الشخصيات

التي تثيرك دون أن تنسى حتمية استبطانك لمراحل القمع الثلاثة المعروفة وهي القمع الأصلي والقمع اللاحق والقمع المناسب فضلاً عن عودة القمع. ذلك القمع الذي يشكل بحسب الخبراء في الموضوع ما يسمح لك بإدراك الدافع على هذا النحو ولكن في شكل تأثيرات تُعرف باسم "الممثلين" ونعني بها الفاعلين الاساسيين هذه التأثيرات تعمل كقطب الجذب الأصلي فيما يتعلق بالمادة التي يجب أن تعبر في السياق النفسي عن نوعية قمع يحاكي تطور الشخصيات في الأداء في الزمان والمكان عبر تفاعلها المتواصل مع الاحداث وتجد نفسك مجروراً في استبطانك في كل مرة للتأكد من ان ما سمي بالقمع النفسي هو في حد ذاته عملية مزدوجة تجمع بين الانجذاب والنفور الذي تمارسه الظواهر الخارجية على الفرد المعني عبر الاحتياجات الدلالية والسردية المتعلقة بقدراته على استعاب المتطلبات العلائقية التي حتمتها المشاهدات الواردة في الصرد من خلال استقراءك للهجات وتواتر الحركات والتدفق المشهدي وكذلك من خلال الالياءات الواضحة والتلميحات الضمنية وما يدرج في مقاصد المسكوت عنه او المحمول الضمني او حتى من خلال فواصل الصمت والتأجيل القصدي والتقاطعات مع الصمت المقصود والصمت الضرفي والصمت الاليائي والصمت القصدي الظاهر او المخفي وما يلحق هذا او ذلك من تغيرات في النبذة وفي جرس المنطوق في اللحظات المناسبة وما يترتب عن كل ذلك من صور وأفكار وتجليات صردية او ايجائية مستترة او مكشوفة بسيطة او مركبة خفيفة او مثقلة تمكنك من تجسيم الشخصيات في خيالك لتجعلها في شكل دفع متتال ينشط تجسيمه من خلال مكتسباتك الفكرية والعلمية وتجاربك ومخزوناتك الظاهرة والباطنية وقدراتك على التفاعل مع مخزوناتك الفكرية وارصدة مكتسباتك التي يفسر العلماء تبعاتها باطناب من خلال ما يحصل لديك من فهم وما يتسرب فيك من تفاعل وما يحدث في داخلك من ردود افعال مع احداث ما تقرأ أو تشاهد أو ترى أو تسمع كما يحدث عندما تشاهد واقعة أو شريطاً أو مسرحية أو مشهداً وعبر كل تفاعلاتك تلك يقيس علماء النفس الاثر والذين يسمونه المؤثر بمقاييس تراعى فيها العديد من الاعتبارات والمقاصد والنوايا ويقيم من خلالها الاثر المصوّت او المكتوب او المصور وتحسب فيها كل الحسابات بطرق علمية مضبوطة ومقننة تقيم كل الظواهر من خلالها وتدرج فيها كل مكوناتها المتصلة بالوعي واللاوعي كما تتم ترجمتها بواسطة روائز دقيقة يقنن من خلالها منسوب الرضا وعدمه وتقيم كذلك من خلالها مواطن الضعف والقوة ومجالات النجاح والفشل وتحصى

فيها مجالات الابداع بمستوى الاهبار وتحدد الهفوات وأعراضها وتوضح في كل خطاب منسوب أشكال نفسية اخرى كالقمع الخلفي الذي أشرنا إليه من قبل ومن خلال هذه الأطروحة يمكن ان نفرس أنه عندما يتم قمع شيء ما فإنه لا يكون نهائياً أو مدمراً بل على العكس من ذلك تستمر الشخصيات المعنية في التعبير عن نفسها والتصرف بشكل أفضل لإظهار كيف تعود دوافعها المكبوتة للحظة معينة إلى المقدمة وأحياناً تبدو سليمة وأحياناً مشوهة أو في شكل تنازلات عرضية أو قيم رمزية كما لو كانت للتأكيد على تلميح نفسي متعمد: وهنا يمكن ان نثبت ان ابن خلدون كان يعلم قبل غيره ان تشكل الجهاز النفسي لكل شخصية أو ممثل أو خيال "معرف" أي بطاقة تعريف فيها محتواه اللاواعي وهو المستودع الرئيسي للطاقة النفسية لكل متحدث كما كان يعلم انه بقدر ما يتم فهم وتدقيق تلك المعطيات بقدر ما نقرب من كنه الشخصية وبقدر ما نقرب من الشخصية نستطيع توضيح التضاربات الظاهرة أو الخبيثة بين الطاقة النفسية لكل شخصية من ناحية و "الأنا" الخاصة به و "الأنا العليا" من ناحية أخرى. وفي معظم الأوقات يبدو "معرف" كل واحد غير قابل للتحديد بشكل فعال وفوضوي وبدون تنظيم أو بدون إرادة مستمرة على عكس "أنا" لكل شخصية تظهر من جانبها على أنها متكاملة ووظيفية بسبب شكلها وهيكلتها الخاصة. بقدر ما يكون بناء الشخصية جيد بقدر ما تكون "أنا" كل شخص طبيعية أي ميالة إلى الدفاع عن مصالحها الشخصية التي تجسدها ككل في نفس الموضوع كما لو كان للتوفيق بين المطالب المجنونة أو الاعتباطية لـ "هو" وضرورات "الأنا العليا" مع الواقع كما تقدم "هو" نفسها لكل شخصية اوردها في اثره المكتوب لذلك و من خلال ما يقدمه ابن خلدون من صرد للاحداث وما يحقته ضمناً من تلميحات لوصف الانموذج الاجتماعي او سياق الكينونة الجماعية او من خلال بعض الاقرارات فانك تستشف نجاح الكاتب في استحضار الديناميكية التي من خلالها تتطور "أنا" كل شخصية لتسليط الضوء على السياقات التي تكشف عن النظام الدفاعي الذي يحرك كل شخصية مجسدة من أجل اتاحة إنشاء معايير قياسية عن طريق الدعم التأميني الذي تنوق الى تحقيقه كل شخصية طوال تطورها عبر الاحداث من خلال القصة التي يتم سردها او الوصف الذي اورده ابن خلدون دون أن ننسى التلميح إلى ألوان أو أشكال القلق الناتج عن البحث المستمر على التوازن الذي ينشأ من وقت لآخر للتأكيد بشكل أفضل على احتياجات الاستقرار المنشودة

الفصل الرابع والخمسون

قال الراوي بخصوص ما يحلو له ان ينعته بصدى أمس الغد

- الحداثة والمدنية في مفهوميهما المعاصر اسلاميان بالنشأة عرييان بالاساس كيف نحقق ذلك هناك أفكار أو توجهات لم يتفطن إليها مثقفونا لحد الآن وهي كيف يرسم ادبنا العربي اليوم وجه غدنا بارادتنا لا صدفة أو اعتباطا

هل يمكن ان يصبح ما نكتبه اليوم استشرافيا ولماذا

هل يمكن ان يساهم ما نفكر فيه اليوم وما نكتبه من مقالات أو اشعار أو دراسات أو ادب أو قصص أو سيناريوهات أو مسرحيات أو أفلام أو أي انتاج فكري أو فني لبنة تساهم في تحديد ملامح لا لحاضرنا فحسب بل حتى لمستقبلنا

وهذا المفهوم على اهميته لم يتطرق له بصراحة او قصد مسبق لحد علمنا المتواضع أي فريق أو مجمع أو مجلة أو اتجاه

لماذا لا نشرع في استنباط نمط فكري عربي استشرافي يمكننا من تناول مواضيع اقرب لغدنا من امسنا والسبق بمستقبلنا اكثر منه لحاضرنا

لماذا لا نوجد مجالات فكرية تحاول تناول ما سيصبح في مستقبل قريب

* أمس غدنا العربي * أو * صدى لأمس غدنا القريب * وحتى غدنا البعيد لماذا لا ننتج أثارا فكرية مكتوبة او مصورة أو مجسمة على الركح نحاول من خلالها رسم ملامح فكر عربي مستقبلي يتجاوز صعوبات الآن وهنا في الواقع العربي

لماذا لا نفتح للدب والفكر والفن العربي مناهج جديدة استقرائية تعطي للاستشراف مجالات ارحب وتمكن الانسان العربي من التحليق في فضاءات اوسع عبر خياله اكثر جرأة وتبصرا

لماذا لا يتجاوز فكرنا حدوده التقليدية لماذا لا يتناول تصورنا وخيالنا ما نصبو إليه من توق

للأفضل والأجمل والاحسن والاجود والامتن والاجدر بنا والاقرب لطموحاتنا أو ما يبدو لنا اليوم صعب المنال أو عصيا أو مستحيلا

ما يمنعنا يا ترى من الحديث عن فلسطين بعد تحررها لماذا لا نتخيل امتنا العربية في حال اكثر حسنا من الآن لماذا لا نستبق الأحداث لتحدث عن أمة عربية تطورت في مجالات علمية نستلهمها من الاعجاز القراني في ميادين عدة

ما المانع من ان يشرع بعضنا في رسم واقع عربي اكثر تطورا وتقدما مع المحافظة على اصلتنا وبذلك نجتمع بينها وبين التفتح ونتج مجالات إبداعية وفكرا عربيا تقدما متطورا جدا

المثقف الحق لا يعني المتعلم او القاري بلغتنا الدارجة أو العالم أو الباحث أو الفنان أو الفيلسوف أو المؤرخ أو المخترع أو المكتشف او حتى العبقري بل يعني ذلك الذي ترتقي به ثقافته إلى مرتبة المتمدن بالمعنى الخلدوني ونعني بالمتمدن الإنسان المحصن المضمن المرقى من العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية والتي لا تستثني أحدا ولا تفرق بين درجات اكتساب المعرفة والعلم ومن أهم هذه الآفات وأخطرها على الوطن بالاحص التخلف والتزمت والهنجية والتطرف والعصبية والتخونج المنهجي كل هذه العاهات تصيب الجاهل والمتعلم و الوضع ونقيذه و الفنان وعديم الاحساس والجاهل والعارف ولا تفرق بين الغني و الفقير والحقير والوجيه والصغير والكبير والمرأة والرجل والابيض والاسود والاحمر والاصفر لذلك لا تستغرب أن ترى أستاذا مترمنا أو طبيبا متعصبا أو محام متخونجا أو فنانا جاهلا أو كاتبا ركيكا أو بذينا أو عربيدا فإن تحول أحد هؤلاء أو حتى من تشبه باحدهم الى سياسي فلا تأمل خيرا او تنتظر فرجا

ومثل هذه الآفات لها القدرة على التحالف مع بعضها البعض في الكائن الواحد مثني وثلاثي ورباعي وحتى أكثر من ذلك ورغم تشعبها وتنوعها وقدرتها على الانتشار وحتى العدوى ورغم حدة تمكنها بالطبع والغريزة وحتى بالفكر والسلوك وسهولة التسرب فإنها لا تصيب اطلاقا المثقف المتمدن اي الراسخ في تمدنه وحبه لوطنه أرضا واهلا وتاريخها فهو الوحيد المحصن من كل هذه النقائص وتبقى الوصفة السحرية الوحيدة التي تميز هذا التمدن هي تلك الثقافة المدنية الحقيقية

وكل مثقف لم تمدنه ثقافته لا يحق تسميته بالمتقف اصلا لأن الثقافة التي لا تمكن صاحبها من نفع محيطه المدني والتأثير فيه بالايجاب هي مجرد شبهة ثقافية لم تكتمل بعد عناصرها تماما كالشجرة التي لا تثمر

ونحن اليوم في اشد الحاجة الى مثقفين متمدنين لهم القدرة على الانشاء والارتقاء بوطنهم واهلهم إلى السؤدد والنماء والترشد الذاتي والجماعي وفي نفس الوقت لهم القدرة على اخراج الانسان التونسي والعربي المسلم من أزمة الرداءة التي تردينا فيها

لماذا لا نشجع اديبانا وشعراءنا وكتابنا وفنانينا ومبدعيننا على تجاوز المعهود ونوجههم الى الابتكار الادبي والفكري والفني لانهما فكرية ونضبية وابداعية جديدة تلد عبرها القصائد الطلائعية والنصوص المجددة والاراء الخلاقة قدر الإمكان والتي تعرض انماطا ثقافية غير معهودة وغير متداولة تبعنا عن التقليد والرتابه والاتباع الخطي لما هو سائد بلا افراط ولا تفريط يكفي ان نتحلى بقليل من الجراءة والشجاعة والايان بمستقبل عربي أفضل ونؤمن بوجود التطلع للتحديث والمدنية علما ان هذين الخطين عربيان أصلاً ومفصلاً لذلك سمي كلام رسولنا الأكرم حديثاً لايمانه أكثر من غيره بالتحديث وتحولت يثرب الى المدينة بموافقة نبينا محمد والذي كان أول من ركب على متن براق أكثر تطورا من أي صاروخ صنع أو سيصنع ولم يستغرب أو يستنكف مما من الله به عليه من نعم علمية فائقة التطور ليكون رسولا لأحدث دين ينادي الى التقدم والتحضر والتمدن والانشاء من أنشأ الله السحابة أي علاها ورفعها وحتى بتسنى لنا ذلك لا بد من تحريك عنصر الامل فينا واول مداخلنا لمثل ذلك ان نشرع من تلقاء انفسنا في ايقاف السيد كبي والسيد ياس والانسنة كشه والسيدة غمه متلبسين بالجرائم المنسوبة لكل منهم ويتم الاحتفاظ بهم في السجن في انتظار انتهاء اجراءات التتبع وفي الاثناء نبدأ من الان في فتح محل بيع الامل مجانا والدعوة الملحة لدى كل الناس بالشروع الفعلي في حجز كمية مشترياتهم مجانا من الان ونظرا لاقبالهم المنتظر على بضاعتنا نقرر الرفع من انتاج الامل بسبعة أضعاف لضمان الوفرة واقتصادا في الخدمات وبالتالي ننقص في التكاليف ما سيجعل ثمن الكيلو غرام من الامل ينخفض بنسبة ٥٠ في المائة ابتداء من منتصف الليل بالتوقيت المحلي اي من صفر مليم إلى نصف صفر من المليم التونسي

كما تم تحسين مسالك التوزيع بتوخي التوزيع الالكتروني على اختلاف مشاريعه ومسمياته والايصال شخصي ومجاني بالنسبة للقلوب المفتوحة

ثم اضاف الراوي معلنا انه تم بالفعل إيقاف السيد كبي والسيد ياس والانس كشه والسيدة غمه متلبسين بالجرائم المنسوبة لكل منهم وتم الاحتفاظ بهم في السجن في انتظار انتهاء اجراءات التتبع

كما اكد الراوي انه بدءا من الان تم فتح محل بيع الامل فالرجاء حجز كمية مشترياتكم من الان

وقالت المصادر التجارية المعنية انه نظرا لاقبال الرواد على بضاعتنا قررنا الرفع من انتاج الامل بسبعة أضعاف وقد نتج عن هذه الوفرة اقتصاد في الخدمات وبالتالي نقص في التكاليف ما جعل ثمن الكيلو غرام من الامل ينخفض بنسبة ٥٠ في المائة ابتداء من منتصف الليل بالتوقيت المحلي اي من صفر مليم إلى نصف صفر من المليم التونسي

كما تم تحسين مسالك التوزيع بتوخي التوزيع الالكتروني على اختلاف مشاريعها ومسمياتها الايصال شخصي ومجاني بالنسبة للقلوب المفتوحة وقبل ان تدخل بلادنا في مطب الالعودة وقبل فوارة الاوان ما احوجنا في تونس اليوم وفي هذه المرحلة الحرجة جداً بالذات الى مسؤولين في رؤوسهم عقل و"كمباص" وفي ايديهم "خزعة و ميزان" وفي قلوبهم عزم وحزم وثبات

ما احوجنا اليوم في تونس وفي هذه المرحلة الدقيقة الى رجال دولة لا الى هواة وعاطا او معزين او محترفي نديب وعويل ونذر شؤم ولا الى مهملين أو مؤننين أو مندرين أو معارضين صوريين

تونس اليوم في حاجة الى مسؤولين قادرين على القيادة لا راغبين فيها جديريين بها لا متلهفين عليه.. يملكون من الشجاعة الادبية ما يتيح لهم وضع حد لما تسببت فيه جحافل الانتهاز عندما غزت البلاد ومصمت دماءها على مدى عشر سنوات متتالية بكل الطرق وكل الاساليب إرهاب انهيار قيم انحطاط اخلاقي رعب خوف عدم استقرار بطالة فقر تفشي الجرائم حالات احباط عامة تفش لكل أنواع الفساد على كافة الاصعدة عجز عام وشامل عدم استقرار تنافر تناحر

تجاذبات جرائم مخدرات سفك دماء تسبب تهريب غلاء اسعار استغلال فاحش انهاك القوى
 عنف ضد المرأة ضد الاطفال محاباة رشاوى امراض تهرؤ البنى التحتية انعدام الامان هدر
 للحرومات سطو و حرق وتخريب ممنهج اهدار المال العام دمار شامل اقتصاد هش اتلاف الموارد
 الطبيعية استهتار بالقيم انسداد الافق يأس قاطم

ورغم كل هذه النقص لم نر أي مشروع انقاذ جدي ولم يقدر أي مسؤول ان يقدم الاضافة
 الناجعة أو الحل المناسب لم نر ما يبشر بأي تحول ايجابي ممكن ولم نسجل بوادر فرج بل شاهدنا
 اجراءات قصيرة النظر لا تخلو من الترقيع او شبهة ذر الرماد على العيون و راينا حركات اقرب
 الى تحريك "الفراغ" منها الى شيء آخر وتلهى حكمانا في التجاذبات و التناحر وتوزيع التهم على
 الاطراف الاخرى وتهاوت منظومات التعليم والعدالة والصحة والخدمات العمومية والاقتصاد
 الا من رحم ربي

لقد عاشت تونس قبل وبعد الاستقلال ازمان متعددة واحيانا ماثلة لما تعيشه اليوم ولكن
 استطاعت الجمهورية الاولى تجاوز الكثير من المحن ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر دعوة
 بورقيبة شعبه في زمان ما الى شد الحزام في ما اعتبره " الجهاد الاكبر" ..

ما احوجنا اليوم الى مسؤولين في رؤوسهم عقل و " كمباص " و في ايديهم " خزمة و ميزان "
 و في قلوبهم عزم و حزم و ثبات نحاسبهم عند الخطا و نشكرهم عند الصواب .. ما احوجنا الى
 رجال دولة لا الى دمي أو دعة أو هواة أو وعاظ أو معزين او محترفي نديب او عويل

تونس في حاجة الى كفاءات قادرة على القيادة لا راغبين فيها .. جديرين بها لا متلهفين عليها ..
 يملكون من الشجاعة الادبية ما يتيح لهم وضع حد لما تسببت فيه جحافل الانتهاز و جماعات
 الانتقام لما يسمونها أيام الجمر ولا الى جحافل القمل و الفراد البشري التي غزت البلاد وركبت
 على ثورتها و امتصت دماءها على مدى عشر سنوات دون ان تحقق أي هدف من اهدافنا الحقيقية
 .. لقد اريق من الدماء و اهدر من الوقت و دمر من الاقتصاد و اجهض من الاحلام ما يكفي
 كي نعطي القوس لباريها .. والى الان لم نر ما يبشر بالخير بل تمادى حكمانا بلا استثناء في تصريف
 الشؤون بكثير من عدم الحرفية والكفاءة اتسمت بقصر النظر او ذر الرماد على العيون . و راينا

حركات اقرب الى طحن " الهواء " منها الى ما ننتظره من قرارات وافعال كما استمعنا لمحاولات باهتة وغير جادة لم تفلح لانها ناشئة عن فكر محدود الافق قصير النظر او صادرة عن هوة في السياسة أو جاءت لغاية في نفس يعقوب أو من وجدوا انفسهم صدفة في الركاب بلا استحقاق ولا كفاية أو من قذفت بهم قائمة انتخاب في كرسي المسؤولية جزافا وهم فارغو الوطاب عديمو التجربة والفكر ..باهتو الاحساس ..مهلهلو التركيبة عاجزون على الفعل قصيرو النظر

لقد حصحص الحق وافتضح الأمر الآن ولم يعد من الممكن ان يتواصل على هذه الوتيرة ولكي لا نخسر وطننا يجب علينا ان نقبل بخسارة عضو أو مسؤول أو نائب

شعب أو رئيس أو حزب ونستبدلهم بمن هم اكفأ منهم بطرق مشروعة لكن.متأكدة و مستعجلة وندرج ذلك في باب وجوب اصلاح ما ثبت فساده وبصفة مستعجلة ومتأكدة

الفصل الخامس والخمسون

بمنطق عدم إيجاد الحلول في الازمات واليأس من القدرة على التفكير الناجع يبدأ منطق الدعوة للفتن والفتنة اشد من القتل في الدين والفتنة في العرف تخلف ناتج عن ذهنية تعجز على إيجاد الحلول لقصور في سعة فكرها وذلك القصور يسمى جهلا والجهل يصلح بالمعرفة القادرة على استنباط الحلول الناجعة للخروج من الازمات دون أن نلجأ للتحريض على العصيان أو الدعوة للقتل وأسالة الدماء كما يدعو إلى ذلك بعضنا على قلتهم بقليل من التروي والذكاء والعلم والامل تخرج الأمة من المازق اثناء اي أزمة وتبدأ مناقشة بعض المسائل المتعلقة بحشر المرأة باعتبارها عورة جملة وتفصيلا كتكفير من وجهة رأي تتم عن تخلف وجهالة وتسلب واجحاف والدليل على ذلك يكفي أن تحول هذا التصرف من المرأة إلى الرجل ليصبح حشر هذه المسألة في السياق الديني تجن ويصبح اخراج اللسان مجرد سلوك اجتماعي غير مستحسن ولا مصاغ لدى الجنسين صغارا أو كبارا وينسحب على كل الناس وكل من نظر لهذا التصرف البشري من المنظور الديني فإنه يصرف عقده مع المرأة و يبرز تعصبا حسب على الإسلام باطلا ولا يذكر إلا بعقلية الجاهلية التي كانت تند البنت حية وهذا التفكير أحد رواسب تلك العقلية أورثها للإسلام الذين اسلموا دون أن يتخلصوا من جاهليتهم

الرسالة الاخيرة لكل السياسيين والمتسييسين بلا استثناء ولكل حكامنا منذ اول يوم من اندلاع ثورتنا المجيدة بحق الى اليوم قلت هذا منذ سبع سنوات مضت ولم يتغير شيء الى اليوم ومن قبيل ذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين

أعيد التذكير بما قتلته من قبل هذه المرة بالحاح شديد قبل ان تدخل بلادنا في مطب اللاعودة وقبل فوأة الاوان

ما احوجنا في تونس اليوم و في هذه المرحلة الحرجة جداً بالذات الى مسؤولين في رؤوسهم عقل و "كمباص" وفي ايديهم " خزمة و ميزان " و في قلوبهم عزم و حزم و ثبات

ما احوجنا اليوم في تونس وفي هذه المرحلة الدقيقة الى رجال دولة لا الى هواة او وعاظ او

معزين او محترفي نديب و عويل و نذر شؤم.. ولا الى مهديدين أو مؤننين أو منذرین أو معارضين صوريين تونس اليوم في حاجة الى مسؤولين قادرين على القيادة لا راغبين فيها.. جديرين بها لا متلهفين عليها. يملكون من الشجاعة الادبية ما يتيح لهم وضع حد لما تسببت فيه جحافل الانتهاز عندما غزت البلاد ومصت دماءها على مدى عشر سنوات متتالية بكل الطرق وكل الاساليب إرهاب انهيار قيم انحطاط اخلاقي رعب خوف عدم استقرار بطالة فقر تفشي الجرائم حالات احباط عامة تفش لكل أنواع الفساد على كافة الاصعدة عجز عام وشامل عدم استقرار تنافر تناحر تجاذبات جرائم مخدرات سفك دماء تسبب تهريب غلاء اسعار استغلال فاحش انهاك القوى عنف ضد المرأة ضد الاطفال محاباة رشوى امراض تهوؤ البنى التحتية انعدام الامان هدر للحرومات سطو وحرقت وتخريب ممنهج اهدار المال العام دمار شامل اقتصاد هش اتلاف الموارد الطبيعية استهتار بالقيم انسداد الافق يأس قاطم ورغم كل هذه النقائص لم نر أي مشروع انقاذ جدي ولم يقدر أي مسؤول ان يقدم الاضافة الناجعة أو الحل المناسب لم نر ما يبشر بأي تحول ايجابي ممكن ولم نسجل بوادر فرج بل شاهدنا اجراءات قصيرة النظر لا تخلو من الترقيع او شبهة ذر الرماد.. على العيون و راينا حركات اقرب الى تحريك "الفراغ" منها الى شيء آخر وتلهى حكامنا في التجاذبات والتناحر وتوزيع التهم على الاطراف الاخرى وتهاوت منظومات التعليم والعدالة والصحة والخدمات العمومية والاقتصاد..

تونس في حاجة الى كفاءات قادرة على القيادة لا راغبين فيها جديرين بها لا متلهفين عليها.. يملكون من الشجاعة الادبية ما يتيح لهم وضع حد لما تسببت فيه جحافل الانتهاز وجماعات الانتقام لما يسمونها أيام الجمر ولا الى جحافل القمل والقراد البشري التي غزت البلاد وركبت على ثورتها وامتصت دماءها على مدى عشر سنوات دون ان تحقق أي هدف من اهدافنا الحقيقية لقد اريق من الدماء وهدر من الوقت ودمر من الاقتصاد واجهض من الاحلام ما يكفي كي نعطي القوس لباريها والى الان لم نر ما يبشر بالخير بل تهادى بعض حكامنا في تصريف الشؤون بكثير من عدم الحرفية والكفاءة اتسمت بقصر النظر او ذر الرماد على العيون. وراينا حركات اقرب الى طحن "الهواء" منها الى ما ننتظره من قرارات وافعال كما استمعنا لمحاولات باهتة وغير جادة لم تفلح لانها ناشئة عن فكر محدود الافق قصير النظر او صادرة عن هوة في السياسة أو

جاءت لغاية في نفس يعقوب أو من وجدوا انفسهم صدفة في الركاب بلا استحقاق ولا كفاية أو من قذفت بهم قائمة انتخاب في كرسي المسؤولية جزافا وهم فارغو الوطاب عديمو التجربة والفكر باهتو الاحساس مهلهلو التركيبه عاجزون على الفعل قصيرو النظر لقد حصحص الحق وافتضح الأمر الآن ولم يعد من الممكن ان يتواصل على هذه الوتيرة ولكي لا نخسر وطننا يجب علينا ان نقبل بخسارة عضو أو مسؤول أو نائب شعب أو رئيس أو حزب ونستبدلهم بمن هم اكفاً منهم بطرق مشروعة لكن. متأكدة ومستعجلة وندرج ذلك في باب وجوب أصلاح ما ثبت فساداه وبصفة مستعجلة ومتأكدة

الفصل السادس والخمسون

الحكمة هي ان تنفع الناس قبل ان تنفع نفسك وان تحرص حرصا شديدا على عدم الاساءة لأي كان خشية من الله وحفظا للكرامة ولتكون علاقتك بنفسك وبمن حولك وبخالقك علاقة مباشرة بصدق ودون رياء وخاصة بدون ان تكلف نفسك أو غيرك بما لا يستطيع عادة وتتجنب العمل بأي مقولة تتسبب في الضرر تحت عنوان انك تدافع على دين الله وكأنك تشك في قدرة الله وحده على الدفاع عن دينه وعباده فقد وضع المنافقون الكثير من الأحاديث المكذوبة منها حتى من حرم الحلال وحلل الحرام ولكي يكون دينك صحيحا لا تنسى ان الاسلام يحب الوسطية وانه دين لا يعادي العلم بل هو دين العلم والمدنية والحداثة بدليل ان كل القوانين العلمية وضعها المولى سبحانه وتعالى وان الحداثة أول من نادى بها هو الاسلام بدليل ان كل ما قاله الرسول يسمى حديثا وان الرسول أقر مفهوم المدنية وكرسه بتسمية يثرب المدينة وان تعاليم الاسلام كلها تدعو للتحضر والعمران

ماذا ورثنا من الاسلام الحقيقي .. الاسلام كان يمكن أن يكون دستورا لكل شعب شيا لا وجنوبا وشرقا وغربا لو لم يتبدل لياخذ خطأ شكل الدين المتحجر كما ارادته العقلية الجاهلية التي قاومت الرسول صلى الله عليه وسلم مقاومة شرسة منذ البداية بل تنكرت لما كان لديها يقينا لم تسمي الرسول محمدا الامين ولما جاهر بالاسلام سحبت منه ثقتها جهارا وكذبت نفسها بنفسها ولما تيقنت ان ربه نصره اسلم الكثير من الاعراب منها كذبا وبهتانا فسماهم الله بالمنافقين وفضحهم في القران وعندها قرر اغلب اولائك المنافقين التبرص بالاسلام من داخله وظهرت نيتهم تلك في العديد من الاحقاب ومنها اثر موت النبي محمد صلوات الله عليه في ردة كادت تطيح بالاسلام لولا عناية الله ثم برزت في تصديهم للاسلام المتسامح بالزيادة في الاحاديث وفي ايام الخلفاء الراشدين الاربعة قتلوا ثلاثة منهم بتهمة الكفر او ما شابهه ما يؤكد غلهم على هذا الدين السمح الذي يتنافى مع طبائعهم لذلك تعمدوا مسخه بواسطة الانخراط فيه وتسخير السلط الحاكمة على اختلافها من بني أمية والعباسيين ومن خلفهم وذلك بواسطة دسائس المنافقين ولم يهدأ بهم الا بعد ان اورثونا ديننا يختلف عن الاسلام الحقيقي ذلك الدين الذي ينتظر

الكافر حتى يسلم و يمهل العاصي حتى يتوب ثم يبشر كل منهما بان الاسلام يجب ما قبله ودخلنا في دوامة تنوع المذاهب المتناقضة احيانا و تاويل القران تاويلا ينزع عن تعاليمه الرحمة تارة ويحولها الى انتقام وترهيب طورا ويحفظنا احاديث مكذوبة تحرم الحلال وتحلل الحرام وتمتد كتبنا الدينية بالعحائب والغرائب حتى التي تعتبر صحيحة ادخلوا فيها ما سمموا به الاسلام ولم يتوقفوا عند ذلك الحد بل حفظونا دينا يتناقض في كثير من تعاليمه مع ساحة الاسلام دين يعتبر العلم كفرا ويجعل من المشعوذين علماء وتحول بعض رجال الدين الى وعواض متعنتين او أئمة مترمتين ومنهم من اوهنا انه يمتلك مفاتيح الجنة ومنهم من ادعى انه يد الله في الارض حتى صارت الفتن عادة تنوارثها من جيل الى جيل ومن وطن الى وطن واستغلت ذلك الغباء المتفشي فينا من المحيط الى الخليج بعض القوى الاجنبية لتحطمننا باسم الدين المأجورة وتنهى به كيان البلدان العربية تحت شعارات رنانة او خلافة ولما عجزت على تركيع الشعوب العربية الاسلامية وبعض قادتها اوهمت اولئك المنافقين انهم على حق وكلفتهم بنشر الدعاوى والاشاعات والاكاذيب والهبت حماس عامة الناس وهدمت العراق بايد عراقية وعربية وقضت على سوريا وليبيا بنفس الايادي العربية المتخلفة والمأجورة او الجاهلة او المترتبة او الرجعية وشرعت للارهاب والفتن وما زالت الى اليوم تحوكم لنا الدسائس خفية وجهارا ونحن نساعدنا بجهلنا و تنبى دينا غريبا عنا نسميه اسلاما ونعتقد انه صحيح ومنزل وغير قابل للمراجعة ولا للنقد ولا للتفكر وافضت القدسية على اغلب الأطروحات والكتب التي تعتمد عليها وقليل منا من يتنبه لسيرة رسولنا الاعظم ويذكرنا بمواقفه عندما كان يناله الأذى من الآخرين ايها أعظم قداسة صورة منسوبة خطأ للرسول ام الرسول نفسه عندما تم رميه بالحجارة في الطائف كيف رد الفعل لم يقطع راس أحد ولم يستجب للاخشيين لماذا لا نتبع نهجه اليوم لماذا لا ننسج على منواله لماذا لا نتعص بأخلاقه وسعة صدره .. لماذا نقيم الدنيا ونقعدنا ونشرع للانتقام متناسين هذا التصرف النبوي المثالي الذي تمثل في التسامح ورحابة الصدر والدعوة لاعدائه بالهداية والثقة في نصرة الله

اللهم اني بلغت واجري على الله

سبحانك الله لا التغيير يدركننا. حتى نغير ما بالنفس من شر